الحركة الأدبية
في
المملكة العربية السعودية

تأليف
الدكتور بكري شيخ أمين

١٣٩٨ هـ. ١٩٧٨ م.

الطبعة الأولى سنة ١٣٩٢ هـ. ١٩٧٢ م.
الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨ هـ. ١٩٧٨ م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فلقد طَفَحت المكتبة العربية في عصرنا بالدراسات المنهجية والبحوث المختلفة ، لجميع ألوان الأدب واتجاهاته وفنونه ، وتناول الدارسون معظم الشعراء والكتّاب الذين درجوا على الأرض العربية ، في قديم الأزمنة وحديثها ، بل تخطَّوْا الحدود الجغرافية للوطن العربي ، وعكفوا على دراسات أدبية تتصل بأمم أخرى .

لكن الظاهرة الغريبة أنهم أهملوا عن عمد أو عن غير عمد ، التعرض لأدب الجزيرة العربية ، ولا سيما ما اتصل بما يسمى اليوم بالمملكة العربية السعودية . وبقي مكان هذه الدراسات في رفوف المكتبات شاغراً . ولذلك فليس من الغريب أن تسأل المثقفين والمتعلمين في كل بلد عربي– على اختلاف درجات ثقافاتهم وعلومهم – عن الأدب السعودي فلا يَحِيرون جواباً ، ويعترفون بأنهم لا يعرفون شيئاً ، ولو سألتهم عن الحركات الأدبية في فرنسة ، أو انكلترا ، أو ألمانية ، أو الصين ، أو المجر ، أو كوبا ، لراحوا يسردون أسماء شعراء ومؤلفين ، وكتباً ، ودراسات ، ويسهبون في الجواب .

ويشاء الله أن أنتدب للتدريس في كليتّي اللغة العربية والشريعة بالرياض ردحاً من الزمن، وفكرت في أن أستغل هذه الفرصة السانحة ، وأقضي حق

الأرض الطيبة التي أعيش عليها في ذمتي ؛ وأقوم بدراسة أدب المملكة الوليدة الناشئة التي تضرب بسهم واسع في خدمة الدين والعربية والعروبة ، وعزمت أخيراً على السير في هذه الدراسة على الرغم من كل ما فيها من صعوبات.

تساءلت عن الحدود الزمانية والمكانية لهذه الدراسة . وكان أمامي أجوبة عدة . كان أقومها أن تحَدَّدَ زمنياً بمطلع القرن الرابع عشر للهجرة — أواخر التاسع عشر للميلاد — وأن تحدد مكانياً بحدود المملكة العربية السعودية برقعتها الحالية التي تقدر بمليونين وأربعمائة ألف كيلومتر مربع .

أما الصعوبات التي واجهتها فتتمثل أولاً في المصادر . ويعلم الله أن الوصول — أحياناً — إلى بيت واحد من الشعر ، أو إلى فكرة جِدّ صغيرة ، أو إلى قصيدة أو ديوان شعر ، أو عدد من صحيفة ، كان يكلفني التنقل عبر الجزيرة آلاف الكيلومترات والعشرات من الأيام ، والنفقات الكبيرة .

يضاف إلى ذلك **أن كثيراً من الإنتاج الفكري والأدبي ضائع مفقود** ، طوته يد البلى ، أو أخفته الحوادث ، أو ضنّ به أهلوه أن يخرج إلى النور .

صعوبة أخرى في أمر المصادر ، أنك تعثر في المكتبة العربية على كل ما يعينك على البحث في موضوعك — مهما كان عنوانه أو موضوعه — ، وتجد أمامك عشرات الدراسات إن لم نقل مئات المؤلفات ، **ولا تجد كتاباً واحداً يهديك في موضوعك هذا** ، وينير لك الطريق ، ويدلّك على الهدف الذي إليه تسعى .

نعم إن كتباً كثيرة أُلّفَتْ في تاريخ هذه البلاد وعقيدتها ولكنها مقسمة إلى فريقين . فريق متعصب لها كل التعصب ، ينظر إلى كل شيء فيها بعين الرضى ، ويعمى عن العيوب والأسواء مهما كبُرت وتضخمت . وفريق آخر ينظر إليها بعين الكره ، فهو لا يجد إلاّ سوءاً ، ولا يرى إلاّ قبيحاً . وكلا الفريقين جائر ، يخفي الحقيقة ويركب مَرْكَبَ الهوى . وعلى الباحث

أن يضع مقاييس علماء الحديث قبل أن يختار خبراً منها ، ثم يبقى بعد هذا على حذر .

وتنظر في دراسات بعض المستشرقين التي تعرضت لبعض قضايا الجزيرة فتجد كثيراً منها حُشيَ بأخطاء ، كان سببها أن أصحابها استمدوا معلوماتهم من مصادر دولهم الرسمية ، أو من كتب أحد الفريقين اللذين أشرنا إليهما .

الصعوبة الثالثة التي واجهتها : أن هذا الأدب منشعب إلى شقين كبيرين . أولهما اتخذ اللغة العربية الفصحى وسيلة للتعبير ، وثانيهما اتخذ لغة الشعب أو ما يعرف في الجزيرة — بالنَّبَطِية — أداة للأداء . وهذه اللهجة غريبة كل الغرابة عن غير ابن الجزيرة ، بل عن بعض أبنائها أنفسهم . وهذا الأدب طافح بمعانٍ وفِكَر تخوض فيما يخوض فيه الأدب الفصيح ، بل قد يكون أغزر معلومات ، وأجزل أسلوباً وأقوى أداء . وأقف حائراً أمام هذا النتاج الثرّ ، وأضطر آخر الأمر أن ألتوي على ذاتي ، وأدير وجهي عنه معترفاً بعجزي عن إدراك ما فيه ، والإفادة منه وأنا — في الوقت ذاته — بأشد الحاجة إلى بصيص من نور ، يعينني على جلاء طريقي ، ووضوح هدفي .

أمام كل هذا أريد أن أقول : إنني في سبيل جمع معلومات هذه الرسالة كنت كالحافي في أرض الشوك ، طُلِبَ منه في يوم ريح أن يجمع ذرات طحين نُثِرَت فيها ليجعل منها في آخر النهار رغيف خبز ، طيّب الطعم ، سائغاً للآكلين .

لذلك ، فعذري بَيِّن إن أخطأتني الحقيقة ، أو نأى عني الصواب . فما أنا إلاّ مجتهد يصيب ويخطىء . ولعل خطإي يغري باحثاً آخر ، أن ينقض ما بنيت ، ليقيم مكانه البناء المتين ، ويدل على الحقيقة التي ندّت عني ، وحسبي أني كنت وسيلة الإثارة .

* * *

أما منهج هذه الدراسة فقد كان على قسمين : عرض ، وتحليل .

أما العرض فقد غلب على البابين الأول والثاني بفصولهما المختلفة . تحدثت عن تاريخ هذه البلاد في فصل ، وعن عقيدتها في آخر ، وعن شعر هذه العقيدة والسياسة في ثالث . وأنا واثق أن هذا الشعر مُقْحَم في هذا المكان إقحاماً ، وكان يمكن أن يُجْعَل في موضع آخر . لكني فضلت أن يكون هنا ليسلط نوراً جديداً على هذه البيئة السياسية والدينية ، من وجهة نظرٍ مختلفة ، ليست تاريخية ولا دينية ، إنما هي أدبية محض . وكان هذا مجمل الباب الأول .

أما الباب الثاني فقد درست فيه العوامل المباشرة للنهضة الأدبية ، فاستعرضت وضع التعليم في مواطنه ، وأنواعه ، ومناهجه ، ودرُجاته ، وما يعترضه من مشكلات ومصاعب ، وفصلت في الوسائل التي تُبذل لتذليل ذلك كله في هذه البقعة المترامية الأطراف. ثم تحدثت عن الصحافة أيام العثمانيين والهاشميين ، والسعوديين ، ودرست ألوانها ، وأنواعها ، وما قدمتْ وما أخّرت ، والمستقبل الذي ينتظرها ، وألحقت بهذا الفصل كلمة عن الإذاعة السعودية وأثرها في تطور الأدب وحركته . والتفتُّ إلى المكتبات فاستعرضت أحوالها ، ووقفت أمام رفوفها ، ونظرت فيما تضمه ، وربطت ذلك بأوضاع البلاد والعباد . وكذلك فعلت في المطابع ووسائل الإعلام . وبانتهاء هذا العرض أيقنت أنه وجب البدء بالمرحلة الثانية وهي تحليل الأدب ذاته ، ودراسته في ضوء العوامل السابقة .

قسمت الأدب إلى قسمين : تقليدي ، وحديث . أما التقليدي فكنت أعني به ما يعنيه جميع الدارسين من مديح ورثاء وغزل وهجاء ، وفخر ، ووصف ، وحكمة ، وما إلى ذلك واكتفيت بدراسة ألوان ثلاثة منه : الغزل في فصل مستقل ، والمدح في ثانٍ ، والرثاء في ثالث . وقارنت — قدر الإمكان بين الفِكَر التي تضمنتها هذه الفنون وبين ما جاء فيها عند الأقدمين . وأحجمت

عن متابعة الطريق في استعراض بقية الألوان اعتقاداً مني بأني ـــ إن فعلت ذلك ـــ أقع في التكرار ، الذي لا فائدة منه . فلطالما تحدث فيه الباحثون والدارسون ، وأشبعوه كلاماً .

أما الأدب الحديث فقد شعبته إلى فرعين ، موضوعات ، وفنون . قصدت بالموضوعات : القضايا الاجتماعية ، والسياسية ، التي ملأت الدواوين والمؤلفات ، وبطون الصحف ، وظهور المنابر . وكان للأدباء فيها رأي في إصلاح مجتمعهم ، أو في اتجاه بلادهم السياسي . وجهدت أن أفصِّل القول فيها تفصيلاً كبيراً ، وأقف على كل صغيرة وكبيرة تناولوها ، وأقرنها بمثيلها في البلاد الأخرى ـــ إن كان لها مثيل ـــ وبالأوضاع المختلفة في قلب بلادهم ذاتها . وكان الأدب الاجتماعي موضوعاً لفصل ، والسياسي لفصل آخر . وعند هذه النقطة عدت من جديد إلى النتاج الشعري ، عامة ، في قلب الجزيرة ، فنظرت فيه من زاوية أخرى . درست أداءه الفني ، فاستعرضت التيارات التي تتنازعه ، وبحثت عن المصادر أو الينابيع التي يستقي منها ، والصور التي تطغى عليه ، وألوان الأوزان التي يصاغ فيها .

وقصدت بالفنون : القصة ، والمقالة . استقصيت بواكير كلٍّ من الفنين ، وتطورهما وتأثرهما بنظائرهما في الأقطار العربية ثم انتهيت إلى تصور مستقبلهما على ضوء ماضيهما وحاضرهما معاً .

وكان الباب الأخير تتويجاً لهذه الرسالة . جمعت فيه الآثار الأدبية المختلفة الصادرة في هذه البلاد . وعملت فيها ، دراسة وتحليلاً على ضوء المنهجية العلمية في التأليف والدراسة التي توافرت فيها ، وكشفت عنها القناع لتظهر على حقيقتها أمام العالم العربي ، وليعرف الناس ماذا يقدم السعوديون اليوم للمكتبة العربية من نتاج .

وختاماً ، فإن الواجب يدعوني إلى رفع آيات الشكر والتقدير للذين

ساعدوني على إنجاز هذه الدراسة ، وإخراجها المخرج العلمي الموضوعي الرصين ، وفي مقدمتهم الدكتور جبور عبد النور . وللأساتذة الدكاترة سعيد البستاني ، والمستشرق الفرنسي الأب ميشيل آلار ، وعبد العزيز خويطر – وكيل جامعة الرياض – ، وفخر الدين قباوة ، وعمر دقاق ، ومحمد صبري الأشتر – الأساتذة في كلية الآداب بجامعة حلب – ، وقد تفضلوا فقرأوا جميع الدراسة ، أو بعضها ، وضحوا بشيء من وقتهم الثمين لإيصالها إلى المستوى اللائق الذي يرضيهم .

وأشكر لجميع الذين تكرموا بمساعدتي على الوصول إلى الدواوين النادرة ، والمخطوطات المبعثرة ، والصحف المفقودة ، والكتب النفيسة ؛ ولا أحصيهم عداً ، ولا أوفيهم شكراً .

فجزاهم الله عني خير الجزاء .

أما جهدي ففي سبيل الله ، وأرجو أن يكتبه لي سطر خير في سجل أعمالي ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، إلاّ من أتى الله بقلب سليم .

الدكتور
بكري شيخ أمين

حلب ٣ جمادى الثانية ١٣٩٢ هـ
١٤ تموز (يوليو) ١٩٧٢ م

الباب الأول

البيئة السياسية والدينية

الفصل الأول

أدوار الحكم السعودي

الجزيرة قبل الحكم السعودي

قبل السلطان « أحمد الثالث »[1] وبعده ، كانت بلاد الشام تئن من مظالم الولاة العثمانيين ، وفظائع الانكشارية[2] ، ولم يكن شبه جزيرة العرب بأحسن حالاً من بلاد الشام . فالأشراف الحاكمون الحجاز وعسيراً، والسادة العلويون الحاكمون اليمن يعيثون في الأرض فساداً ، لا يردعهم رادع ، ولا يزجرهم زاجر . والأمراء أو شيوخ القبائل في المناطق الأخرى يهيمن كل منهم على مدينة أو قرية مستقلاً بحكمها ، مستبداً بأمرها غير معترف بسلطان إلاّ سلطانه ، يتحالف وغيره — حيناً — بغية قتال الآخرين ، واستباحة ديارهم وأموالهم ، ومتى فرغ عاد يختصم وحليفه[3] . ولم يتخذ قلب الجزيرة سبيله إلى الدخول في العصر الحديث إلاّ حين سيطر آل سعود على مقاليد الحكم ، وحكموا البلاد تحت شعار جديد وفي ظلال مبدإ مستقر .

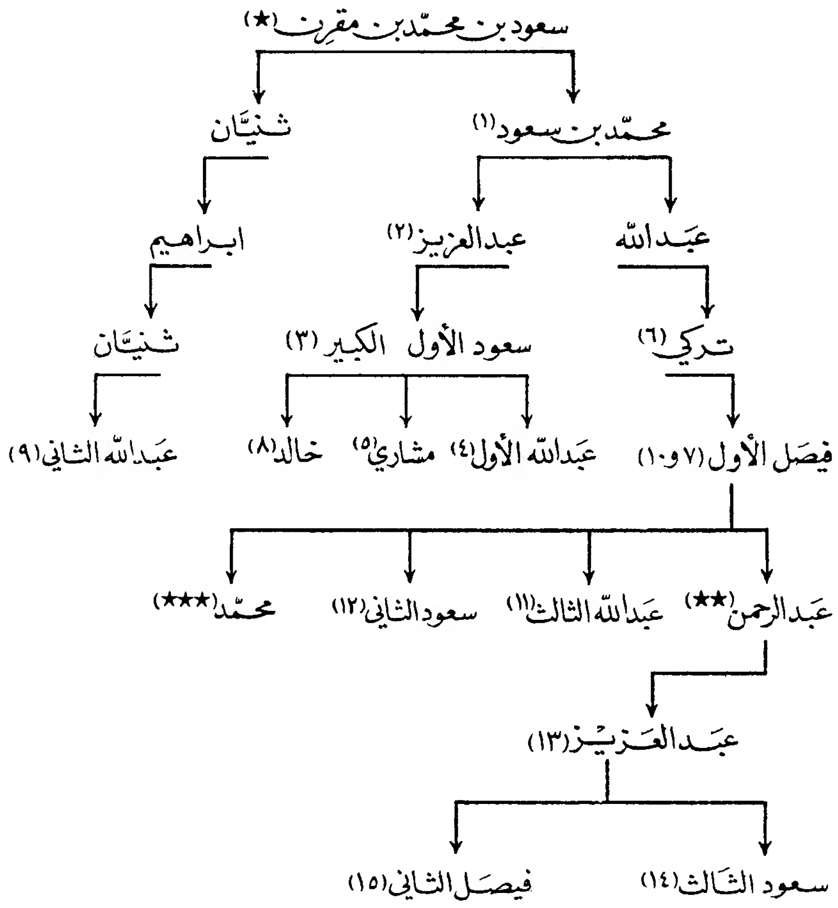
---

١ هو السلطان الثالث والعشرون من سلاطين آل عثمان، وهو ابن السلطان محمد الرابع، ولد سنة ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٣م وتولى السلطنة وعمره ثلاثون سنة ، خلعه بعدها الانكشاريون ، وولوا مكانه السلطان محمود الأول . حارب الروسيا ولم ينتصر عليها ، وحارب البندقية وهزم، وتدخل في بلاد الفرس واحتل جانباً منها، وهو الذي أدخل آلة الطباعة إلى الآستانة . توفي سنة ١١٤٩هـ/١٧٣٦ م (محمد فريد ،تاريخ الدولة العلية ١٤٤) .

٢ الانكشارية : أصل الكلمة تركي (ينيجري) وتنطق « ينيتشري » أو « يني تشري » وتعني « الجنود الجدد » .

٣ منير العجلاني ، تاريخ البلاد العربية السعودية ص ٣٦ .

الأسرة السعودية الحاكمة



١ الاسم الذي وضع بجانبه رقم كان من حكام آل سعود ، والذي وضع بجانبه نجمة أو أكثر لم يكن من حكامهم ، وإن حكم باسمهم .

* سعود بن محمد بن مُقرِن بن مَرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة ابن مانع بن ربيعة المُريدي من قبيلة عَنَزَة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان . توفي سنة ١١٣٧ هـ / ١٧٢٥ م . (ابن بشر ص ٣١ ؛ ابن حزم ، أنساب العرب ص ٢٩٤ ؛ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ ، نسب آل سعود ص ٧) .

١ – **محمد بن سعود** : تولّى حكم الدِّرْعيّة بعدما احتال محمد بن حَمَد ابن عبد الله بن مُعَمَّر الملقب بخَرْفاش صاحب بلدة العُيَيْنة على قتل زيد بن مَرْخان سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٦ م وبعد توليه بتسعة عشر عاماً أتاه الشيخ محمد بن عبد الوهاب فآواه ونصره توفي سنة ١١٧٩ هـ/ ١٧٦٥ م (ابن بشر ص ٤٢٣) .

٢ – **عبد العزيز بن محمد** : ولد سنة ١١٣٣/ هـ ١٧٢٠ م وبويع بالإمامة والإمارة سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٥ م ،حكم تسعاً وثلاثين سنة ، وفي عهده شهدت دولته أوسع نصر وامتدت حدودها فشملت الرياض والأحساء والقَطيف ونجداً كله والحجاز وبلغت مشارف الشام وتوغلت في أراضي العراق . قتل بالدرعية غيلة سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م(ابن بشر من ص ٢٦ إلى ١٢٠ ؛ رسول الكركوكلي ، دوحة الوزراء ص ٢٢٧) .

٣ – **سعود الأول الكبير بن عبد العزيز** : ولد سنة ١١٤٦ هـ / ١٧٣٣ م وبويع بالإمامة والإمارة وعمره خمس وخمسون سنة ، وكان ذلك سنة ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٨ م قبل مصرع أبيه بخمس عشرة سنة . استولى في عهد أبيه على أطراف عُمَان ونجران واليمن وعَسير ، وامتدت دولته من الخليج العربي إلى البحر الأحمر ، ومن شواطىء الفرات إلى

اليمن . ارتبط مع والي بغداد بمعاهدة عدم اعتداء لمدة ست سنوات على أثر هزيمة جيش الوالي بقيادة وكيله علي باشا في معركة الأحساء، ولكن والي بغداد نقض هذه المعاهدة بالسماح لرجاله بمهاجمة قافلة نجدية تجارية في النجف ، فقتل رجالها ، ونهب أموالها .

فاحتج سعود على نقض المعاهدة ، وطالب بدفع ديات القتلى، والتعويض عن المنهوبات ، فرفض والي بغداد الاحتجاج ، فانتقم سعود لحادث النجف بالهجوم على كربلاء .

مات بالحمى سنة ١٢٢٩ / ١٨١٤ م . (ابن بشر ص ١٦٣ ؛ حافظ وهبة ص ٢٣١ ؛ فيلبي ص ١١٨) .

٤ — **عبد الله الأول بن سعود** : تولّى الحكم بعد وفاة والده ، وحاربته الدولة المصرية والدولة العثمانية معاً حتّى حاصره إبراهيم باشا في الدرعية، وقبض عليه وأرسله إلى مصر، ومنها أرسله محمد علي باشا إلى الآستانة، فقتل هناك سنة ١٢٣٤ ه / ١٨١٨ م . (ابن بشر ص ٢٠٧؛ تاريخ الجبرتي ٤ / ٣٢٠) .

٥ — **مَشَاري بن سعود** : دخل الدرعية مع طائفة من أنصاره بعد أن اغتصب حكمها محمد بن مشاري بن معمر بمساعدة الأتراك ، وشرع في بنائها من ماله الخاص، وتظاهر بالتقوى والحرص على المصلحة العامة ، فبايعه أهلوها، وبلغ مشاري بن سعود ذلك، فرأى نفسه أحق بالملك ، فدخلها واستقبله أهلها وبايعوه، فاضطر ابن معمر إلى مبايعته، ثم غدر هذا به، فباغته في قصره وقبض عليه ، وسلمه إلى الحامية التّركية ، فمات سجيناً وقد ثأر له ابن عمه تركي بن عبد الله بقتل ابن معمر وولده بالرياض عام ١٢٣٥ه/١٨٢٠ م . (صور من التاريخ ص ٤٦) .

٦ — **تُرْكي بن عبد الله** : حكم من سنة ١٢٤٠ ه / ١٨٢٤ م إلى سنة

١٢٤٩ هـ / ١٨٣٤ م وبه انتقل الحكم من سلالة عبد العزيز إلى سلالة أخيه عبد الله ، ولا يزال الحكام السعوديون من فرعه . وتركي أول من اتخذ مدينة الرياض عاصمة دولته ؛ قتله مشاري بن عبد الرحمن ابن حسين بن مشاري بن سعود غيلة في سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٤ م . (ابن بشر ٢١٩ ؛ حافظ وهبة ٢٣٥) .

٧ و١٠ — **فيصل بن تركي** : كان أحد الذين نفاهم إبراهيم باشا إلى مصر ، وفجأة ظهر في الرياض سنة ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م وسلمه أبوه قيادة جيشه ، ووجهه إلى الأحساء ، وبها سمع باغتيال أبيه فرجع ، وأخذ بثأره . حكم البلاد مرتين : الأولى من سنة ١٢٥٠—١٢٥٤هـ/١٨٣٥—١٨٣٩ م . وفي هذه المدة راح يتوسع ويفتح البلاد ويدخلها في طاعته ، فحاصره خورشيد باشا القائد المصري في بلاد الخَرْج حتى استسلم له ، فنفاه إلى مصر . وظل فيها أربع سنوات استطاع بعدها أن يهرب منها ويعود إلى الرياض حاكماً ثانية . وامتدت هذه المدة من سنة ١٢٥٨هـ— ١٢٨٢ هـ/١٨٤٢—١٨٦٥ م ، وفي هذه الحقبة انسحبت الجيوش المصرية من نجد نتيجة لمعاهدة لندن سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م فخلا الجو له . كُفَّ بصره في أواخر أيامه ، وتوفي سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥ م ، ودفن بالرياض . (الزركلي ، الأعلام ٣٧٢/٥ ؛ ابن بشر ص ٣٤٣ ؛ فيلبي ص ٢٥٠ ؛ حافظ وهبة ص ٢٣٨ ؛ العطار ٨٨/١ ؛ فؤاد حمزة ٣٣٦) .

٨ — **خالد بن سعود** : نُقِل إلى مصر صغيراً ، وبقي فيها تسعة عشر عاماً ، ثم أرسله محمد علي باشا إلى نجد سنة ١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦ م وأرسل معه إسماعيل آغا ثم عززهما بخورشيد باشا فعند ذلك استولى خالد على نجد ، وبقي حاكماً اسمياً لها بجنود الأتراك والمصريين حتى ثار عليه

عبد الله الثاني بن ثنيّان سنة ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ م وأخرجه وجميع من معه من جنود الأتراك والمصريين ، فهرب خالد إلى الأحساء، ومنها توصل إلى مكة ، ومات بمدينة جدة في حدود سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨ م . (ابن بشر ص ٣١٦ وما بعدها ؛ نسب آل سعود ص ١٠) .

٩ — **عبد الله الثاني بن ثنيان** : حكم الرياض وبعض بلاد نجد بين الحقبتين اللتين حكم فيهما فيصل وحين عاد حاول التمرد عليه ولما عجز عن مقاومته استسلم له فعفا عنه . توفي بالرياض سنة ١٢٥٩ هـ / ١٨٤٣ م . (ابن بشر ص ٣٤٦) .

١١ — **عبد الله الثالث بن فيصل بن تركي** : ولاّه أبوه العهد بعده ، وثار أخوه سعود عليه بعد موت أبيه ، وظل ينازعه الإمامة والإمارة حتى مات سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م . (العطار ، صقر الجزيرة ٧٧/١) .

١٢ — **سعود الثاني بن فيصل** : تمرد على حكم أخيه عبد الله، وكان يستعين ببعض قبائل الأحساء ، فكانوا يعينونه تشفياً لثأر قديم لهم عند فيصل . حكم الرياض مرات ، وهرب منها مرات . جرحه أحد الأعراب حين هجم رجال عُتَيْبة يسلبون مدينة الرياض ، فخرج يؤدبهم، ومات متأثراً بجراحه سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م . (المصدر السابق ٧٦/١) .

** **عبد الرحمن بن فيصل** : أصغر إخوته سناً ، حاول مفاوضة الترك لمصلحة أخيه سعود فأخفق ، وتولى إمارة الرياض وإمامتها بعد موته وتنازل عنهما لأخيه عبد الله ، ونفي معه إلى حائل بعد اضطرابات شديدة حصلت في الرياض ، ثم عاد فحكمها بموافقة ابن رشيد وحاول أن يثور عليه فلم ينجح ، فرحل إلى الأحساء فقَطَر فالأحساء فالكويت ومعه ابنه عبد العزيز . توفي سنة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م .

(أمين الريحاني ، نجد وملحقاته ط. ٣ ص ١٠٦ ؛ العطار ، صقر الجزيرة ٧٨/١) .

*** **محمد بن فيصل** : حكم فترة مدينة الرياض بأمر ابن رشيد ثم عزل عنها . (إبراهيم بن صالح بن عيسى ، عقد الدرر ص ٩٠) .

١٣ – **عبد العزيز بن عبد الرحمن** : سترد ترجمته مفصلة في بحث الدور الثالث : عصر النهضة والازدهار .

١٤ – **سعود بن عبد العزيز** : النجل الثاني للملك عبد العزيز (أما النجل الأول فهو شقيقه تركي بن عبد العزيز الذي توفي بالوافدة الاسبانيولية سنة ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٩ م) ، عينه أبوه ولياً لعهده ، حكم من سنة ١٣٧٣ – ١٣٨٣ هـ/ ١٩٥٣ – ١٩٦٣ م ثم خلع ، وتوفي في ذي الحجة سنة ١٣٨٨ هـ/ ٢٣ / ٢ / ١٩٦٩ م . رحمه الله .

١٥ – **فيصل الثاني بن عبد العزيز** : توّج ملكاً بعد خلع أخيه سعود سنة ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م وما يزال ملك المملكة العربية السعودية .

* * *

ويمكن تقسيم مدة الحكم السعودي في الجزيرة العربية إلى ثلاثة أدوار :

دور التوسع (من سنة ١١٥٧ – ١٢٣٤ هـ/ ١٧٤٤ – ١٨١٨ م) .

ودور النكسة (وهو بين ١٢٣٤ هـ و ١٣١٩ هـ/ ١٨١٨ – ١٩٠٢ م)

ودور النهضة (ويبدأ من ١٣١٩ هـ/ ١٩٠٢ م إلى اليوم) .

سمات الدور الأول

دام هذا العهد سبعاً وثمانين سنة[1] ، وهي مدة قصيرة – نسبياً – إذا قيست بما تم فيها من أحداث ، فقد آمن محمد بن سعود وأبناؤه من بعده بدعوة محمد بن عبد الوهاب واتخذوها نظاماً أساسياً لحكمهم ، ومسوّغاً كافياً لفتوحاتهم وتوسعهم ؛ وهي عقيدة تقضي : أن مَنْ آمَن بها فهو المسلم الحق ومن لم يؤمن وجبَ قتاله ليعود طوعاً أو كرهاً إلى الإيمان الصحيح ، ولقد تعاونت أسرة ابن عبد الوهاب مع أسرة ابن سعود على حمل النجديين – في المقام الأول – على الإيمان بتلك العقيدة طوعاً أو كرهاً . ومن هذا المنطلق الديني سيقت كتائب « المسلمين » إلى « الجهاد والفتح » بغية إعادة الناس الذين ضلوا إلى « توحيد الله » . وبالحماسة للمبدإ الديني انتصرت جيوش عبد العزيز بن محمد وابنه سعود على الرياض والأحساء وقلب الجزيرة ، وهاجمت كربلاء ، انتقاماً لحادث النجف الذي هوجمت فيه قافلة نجدية ، وقُتِلت ، ونُهِبت أموالها[1] ، كما وصلت إلى مشارف بلاد الشام ، وغزت البحرين وعُمان وعَسِيراً واليمن ، واحتلت الحجاز فمنعت دخول المَحْمل الشامي[2] العثماني لمخالفته شريعة الإسلام ، كما خيرت الحجاج الذين يرافقون المحمل بين الحج والانفصال عن المحمل ، وبين العودة إلى ديارهم دون حج .

---

١ حكام هذا الدور حسب جدول الأسرة السعودية هم : محمد بن سعود (١) وعبد العزيز (٢) وسعود (٣) وعبد الله بن سعود (٤) .

٢ ابن بشر ١٣٦ ؛ فيلبي ١١٨ ؛ الريحاني ، تاريخ نجد الحديث ٧١ ؛ صلاح الدين المختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية ٩٧ ؛ حافظ وهبة ، جزيرة العرب في القرن العشرين ٢٣٠ . Benoist Méchin, Ibn Séoud, p. 94

فاختار معظمهم العودة إلاّ المغاربة ، فقد أذن لهم بالحج لخضوعهم للشرع الحنيف ، ورغبتهم في الحج وحده . كذلك استولى سعود على الهدايا الموجودة في الحجرة النبوية ، والتي كانت تهدى لغاية التقوّي على الجهاد في سبيل الله وقت الضرورة والحاجة ؛ فاستخدمها سعود في الغرض الأصيل الذي أهديت من أجله[١] . ودانت الجزيرة – تقريباً – للأسرة السعودية ودخلت في عقيدة التوحيد .

هذه الأحداث الكبيرة المتتابعة أدت إلى تدخل الدولة العثمانية عسكرياً لوقف هذا المد « الوهابي »[٢] إذ أمر السلطان محمود[٣] محمد علي باشا والي مصر بالقضاء على « الوهابية والوهابيين » ، فسيّر هذا حملات عدة ، كان آخرها بقيادة ابنه إبراهيم باشا فقضى على سلطانهم في الحجاز ، ثم تبعهم إلى معاقلهم في قلب نجد حتى وصل إلى الدّرعيّة[٤] عاصمتهم فهدمها ، وأباد كثيراً

---

١ فيلبي ص ١١٣ .

٢ الوهابي : نسبة إلى « ابن عبد الوهاب » وهي نسبة أطلقها العالم الإسلامي على أتباع ابن عبد الوهاب ، وأما أتباعه فينكرونها ويكرهونها (انظر تفصيل هذا في بحث الدعوة في الفصل القادم) .

٣ هو السلطان المتمم للثلاثين من سلاطين آل عثمان ، ابن عبد الحميد الأول . ولد سنة ١١٩٩هـ /١٧٨٦ م له الفضل في القضاء على الانكشارية وتدريب الجيش العثماني على الأسلحة الحديثة ، وإعادة الهيبة إلى السلطنة بعد أن تدهورت أوضاعها الداخلية والخارجية ، وفي عهده كانت أعمال محمد علي باشا المختلفة لمصلحة السلطنة وضدها . توفي سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩ م (محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية ١٩٧) .

٤ الدرعية : العاصمة الأولى لآل سعود . وتقع في الشمال الغربي للرياض ، وهناك مكان آخر بهذا الاسم في القطيف في منطقة الأحساء الشرقية . ويظهر أن رجلا اسمه « ربيعة بن مانع » قدم من الدرعية في القطيف إلى ابن عمه « ابن درع » وكان هذا زعيم عشيرة « الدروع » الذين كانوا يقطنون القرى المهجورة من « جزع » و « هجـَر اليمامة » وكان موسراً ، فأقطع ابن عمه قطعتين من الأرض تبعدان اثني عشر ميلا في أعالي الوادي عن أراضيه ، فنزل فيهما=

من علمائهم وأسر حكامهم ونفاهم إلى مصر ، وولّى على البلاد قائداً من قبله [1] .

ويبدو أن الأسباب الكثيرة التي حملت آل سعود إلى النصر السريع في هذه المدة القصيرة على هذه الأرجاء المترامية من الجزيرة وعلى ما حولها ، كانت نفسها تزخر بعوامل النكسة والهزيمة[2] من عدم رسوخ العقيدة في قلوب رجال البادية ، ورواسب الثارات القديمة التي دفنتها الدعوة — ولم يمر على دفنها وقت كاف من الزمن — ، والافتقار إلى الدهاء السياسي والتصدي لخصم أكبر عدداً ، وأكثر استعداداً .

كذلك فإن منع المحمل الشامي الذي أدى إلى حرمان أفواج الحجاج من الوصول إلى الديار المقدسة ليؤدوا الفريضة المكتوبة أحنق سكان الحجاز من جهة ، إذ منع عنهم وسيلة رزقهم الوحيدة ، كما أثار أعداء الدعوة من

= وعمرهما واستقدم أهله والدروع إليه . ثم تقادم العهد حتى صار يعرف المكان باسم «الدرعية» تخليداً لذكرى القرية الأم التي نشأ فيها أجداد سكانه في القطيف ، والأسرة السعودية تنتمي إلى « ربيعة بن مانع » . وظلت الدرعية مزدهرة حتى هدمها إبراهيم باشا سنة ١٢٣٣هـ ١٨١٨ م . (ابن بشر ٣٨٧ ؛ فيلبي ص ٤ ؛ محمد الفهد العيسي، مجلة العرب، شوال ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ص ٣٢٥ ؛ سعود بن هذلول، تاريخ ملوك آل سعود ص ٦ ؛ أحمد العطار ، صقر الجزيرة ٥٢/١) .

١ ابن بشر ٢٠٠ ، فيلبي ١٤١ ؛ فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب ٣٣٧ ؛ أحمد العطار ، صقر الجزيرة ٧٨/١ ؛ الجبرتي ، عجائب الآثار ٢٩٠/٤ ؛ B. M., Ibn Séoud. pp. 95 - 102 .

٢ هدم إبراهيم باشا والأتراك الدرعية سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٨ م . وابتدأ تأسيس الدولة السعودية الثانية سنة ١٢٤٠ هـ/١٨٢٤ م . أما المدة الواقعة بين هدم الدرعية وتأسيس الدولة السعودية الثانية (١٢٣٢ – ١٢٣٩هـ / ١٨١٨ – ١٨٢٤م) فمن المقرر أنها عهد اضطراب . وفي هذه المدة حكم مشاري بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود الذي قبض عليه محمد بن مشاري بن معمر غدراً ، وسلمه لجند الترك في « عنيزة » ؛ وتوفي في سجنهم .

جهة أخرى على عقيدة ابن عبد الوهاب وأتباعها ، وعلى السلطان العثماني المتربع آمناً على عرشه في الآستانة يحمل لقب « خادم الحرمين الشريفين » . ويسمع بهذه الأحداث ولا يحرك ساكناً .

وخاصمت العالم الشيعي لانتقامها لحادث النجف في كربلاء — محل تقديسه .

وبهذا انقسم العالم الإسلامي إلى فريقين متعاديين أشد عداء : « وهابيين » في طرف يعادون من لم يؤمن بما آمنوا ، ويعلنون الحرب عليهم . و « شيعة » و « مذاهب أخرى » في طرف مقابل يبغضون « الوهابيين » ، ويسعَوْن إلى القضاء عليهم وتدميرهم .

ومن هذا الانقسام استفاد السلطان العثماني فضرب الحركة الوهابية المندفعة بالطموح المصري الذي كان يتمثل بمحمد علي باشا وأسرته . وبهذا الانقسام زاد ضعف المسلمين سياسياً وانجرّت آثاره إلى زمان طويل بعد ذلك .

إن أحداث هذه الحقبة هزت العرش العثماني من قواعده ، وأظهرت للملإ ضعفه وتهافته . وكانت عاملاً من العوامل التي شجعت أوربا على وصف الدولة العثمانية « بالرجل المريض » كما قوّت هذه الأحداث نفوذ محمد علي في مصر ومكنت لحكمه ، ولفتت أنظار العالم إلى قلب الجزيرة العربية الذي طال إهماله ، وزاد نسيانه ، وبرهنت على أن بإمكان حكامه أن يقفوا أمام مطامع الفرنسيين والانكليز الساعين إلى حكم الجزيرة العربية واحتلال بعض أراضيها وشواطئها .

سمات الدور الثاني

امتد هذا الدور زمناً يقرب من زمن سابقه ، ويحدده المؤرخون بدمار الدّرعيّة سنة ١٢٤٠ ه / ١٩٢٤ م ابتداء[١] ، وقيام عبد العزيز آل سعود سنة ١٣١٩ ه / ١٨٠٢ م بأول مغامرة له لاستعادة ملك آبائه الذي تلاشى انتهاء . ولقد تعاقب على حكم نجد في هذه الآونة ستة حكام من أسرة آل سعود[١] ومثلهم من أسرة آل رشيد[٢] ، فمنهم من دام حكمه سنين طويلة[٣] ، ومنهم من لم يتجاوز سلطانه شهوراً عــدة[٤] ، وكان منهم من حكم بلداً وعمه أو ابن عمه أو أخوه حكم بلداً آخر[٥] ، ومنهم من حكم مراراً[٦] واستمر

---

١ الحكام السعوديون في هذه المدة هم: تركي بن عبد الله، وفيصل بن تركي (٧ و ١٠)، وخالد ابن سعود (٨) ، وعبد الله الثاني بن ثنيان (٩) ، وعبد الله الثالث بن فيصل (١١) ، وسعود الثالث بن فيصل (١٢) .

٢ حكام حائل من آل رشيد في هذه الحقبة هم : عبد الله بن علي بن رشيد ؛ مات موتاً طبيعياً سنة ١٢٦٥ ه ، ١٨٤٨ م ؛ وطلال بن عبد الله ، انتحر في سنة ١٢٨٥ ه ، ١٨٦٨ م ؛ وبندر بن طلال بن عبد الله ، قتله عمه محمد سنة ١٢٨٨ه / ١٨٧١ م ؛ ومحمد بن عبد الله الكبير استولى على نجد كله ، ومات موتاً طبيعياً سنة ١٣١٥ه / ١٨٩٧ م . (الريحاني ، تاريخ نجد الحديث ص ٢٩٦) .

٣ منهم : تركي حكم عشر سنوات ، وفيصل بن تركي حكم إحدى وثلاثين سنة في مرّتي حكمه .

٤ منهم : مشاري بن عبد الرحمن بن حسن بن مشاري بن سعود ، وعبد الله بن ثنيان بن إبراهيم بن ثنيان بن سعود ، وسعود الثاني بن فيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود .

٥ حدث ذلك بين أبناء فيصل بن تركي بين سنة ١٢٨٢ و ١٣١٩ ه / ١٨٦٥ – ١٩٠٣ م .

٦ المقصود به : فيصل بن تركي .

في مدّ وجزر إلى أن قُتل [1] أو مات [2] ، أو نُفي [3] ، أو هاجر [4] .

وإذا كان العهد السالف طافحاً بأخبار الغزو ، ومليئاً بآثار الدماء ، وكان الهدف الأسمى فيه آنئذ « الفتح » و « الجهاد في سبيل الله » فإن هذا العهد ظل مشغوفاً بالمشكلات ، ولكن بغية تنصيب أمير وخلع آخر . كان العدو قبلاً من « غير الموحدين » فأصبح اليوم منهم أنفسهم ، بل من أسرة آل سعود ذاتها ، تلك التي حملت على عاتقها الدعوة ، ونذرت نفسها لها ، وجعلتها الميزان الذي تزن به الناس وأعمالهم . وأدى هذا التمزق في الأسرة الواحدة إلى أن فقد جميع أفرادها العرش والسلطان آخر الأمر . لقد أشبهوا — حيناً من الدهر — ملوك الطوائف في الأندلس يوم كان أحدهم يستنصر بعدوه على حرب أخيه العربي ، ويفعل أخوه الشيء نفسه ، ويلبي العدو استغاثة كل منهما ، ويمده بآلات القهر ووسائل الموت والدمار ، فيقتتل العربيان ، ويصل العدو في نهاية المعركة فيسحق من ظل على قيد الحياة . ومثل هذا وقع بين عدد من حاكمي هذه الحقبة .

وسار الناس على نهج ملوكهم ، واستغلوا انهماكهم بتثبيت عروشهم أو بتقويضها ، فراح القويّ يأكل الضعيف ، وانسَلّ جماعة إلى البوادي والصحاري والمسالك بين المدن والقرى يقطعونها ، ويسلبون الغادين والرائحين ، وينهبون

---

١ القتلى من حكام الأسرة السعودية في هذه الآونة : تركي ومشاري .

٢ الذين ماتوا موتاً طبيعياً من الحكام هم مشاري بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود في فترة الاضطراب — توفي في سجن الترك في عنيزة — ، وفيصل ، وخالد ، وعبد الله بن ثنيان — توفي في سجن الإمام فيصل بالرياض — وعبد الله الثالث بن فيصل ، وسعود الثاني بن فيصل .

٣ الذي نفي : عبد الله الثالث .

٤ الذي هاجر : عبد الرحمن بن فيصل وابنه عبد العزيز .

الحجيج أو يقتلونهم ، دون أن يخشوا بأس حاكم ، وعقوبة سلطان ، بل ربما لمسوا شيئاً من تشجيع الخصوم وكثيراً من عفو الحاكمين وغفرانهم [١] ، ويبدو أن الناس جميعاً الأقوياء منهم والضعفاء كانوا يدفعون للدخيل الأجنبي ثمن أخطاء حاكميهم والحاكمين السابقين من أمنهم ومالهم ودمهم عدا ما كان يذيعه الأجنبي فيهم من رعب ، وينشر من فوضى حتى أصبح الفقر والجهل والتشتت سمة هذه الحقبة [٢] .

وانحسر مدّ الدعوة النجدية حتّى اقتصر على جوانب محدودة من قلب الجزيرة وجزء من الأحساء وعدد من بلدان الخليج . وكان هذا طبيعياً . فالموجة التي كانت في أشد عنفوانها وذروة قوتها والتي استطاعت أن تصل إلى أبعاد نائية جداً عن مركز انطلاقها قد فرغت من الطاقة ، ولم يبق من يبعثها أو يثيرها ، أو ينفخ فيها قوة الانطلاق أصبحت كأنها رمز وذكرى ، وأخذت أصداؤها في الخفوت قليلاً قليلاً [٣] .

ومن سمات هذه الحقبة أنْ عَمَدَ المصريون والأتراك إلى إبقاء قلب الجزيرة ممزق الأوصال ، متنائي الأطراف ، متعادي الأهداف ، دون أن يعلموا — جميعاً — أن أصابع السياسة الانجليزية تقودهم إلى ذلك [٤] ، وتدفعهم إلى الإبقاء على هذه القطيعة خشية أن يتحد القلب والأطراف ويستغل محمد علي باشا — صديق فرنسا — هذه الوحدة لمصلحته . وكانت الأيدي الأجنبية الخفية

---

١ انظر في « صورة الدعوة في الأدب » الفصل الثالث من هذا الباب ، شكوى الشاعر ابن مشرّف الأحسائي من الأعراب وقطاع الطرق ، ورأيه في الدوافع التي تدفعهم إلى الجريمة .

٢ إبراهيم بن صالح بن عيسى ، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ١٨١ وما بعدها .

٣ العالم الأكبر في هذه المدة كان الشيخ عبد اللطيف ابن حفيد محمد بن عبد الوهاب وقد عاش في أيام فيصل بن تركي .

٤ Benoist Méchin, Ibn Séoud, p. 96

تمد كل ثائر ، وتشجع كل متمرد ، وتضرب هذا بذاك ذَرّاً للرماد في العيون ، وشَغْلاً لها عن أن تبصر ما تحوكه في السر لاحتلال بلاد الخليج ، والسيطرة على عَدَن ومضيق باب المَنْدَب [1] وتقلل شأن الوافدين الأجانب على الجزيرة باسم العلم أو التجارة أو الاكتشاف . ويغلب على ظننا أن لهم مهمات سياسية كذلك [2] .

---

١ R. Jean, Mémoires sur l'Origine des Wahabys, p. 38

٢ أول بعثة دخلت الجزيرة كانت دانمركية ، يرئسها (M. Niebuhr) « نيبور » في سنة ١٧٦١ م (١١٧٥ هـ) وكتب في ذلك كتابه المشهور Description de l'Arabie وطبع في كوبنهاغن سنة ١٨٧٣ م ، ثم تلاه الإسباني Domingo Badia y Leblich وزار مكة سنة ١٨٠٧ م ، وأظهر الإسلام . وعرفه القوم باسم « علي بك العباسي » وبالغوا في إكرامه حتى أتيح له شرف القيام بكنس البيت الحرام . وكتابه يسمى Travels of Ali Bey وطبع في فيلادلفيا سنة ١٨١٦ . وكان « علي بك » عيناً لنابليون بونابرت .

وفي سنة ١٨١٢ م ، زار Burckhardt J. L. السويسري مكة وجدة منتحلا لنفسه اسم إبراهيم بن عبد الله . وكتب كتابه Travels in Arabia وطبع بلندن سنة ١٨٢٩ م . وكان بركهاردت صديقاً لمحمد علي باشا وعيناً له .

وفي سنة ١٨٦٢ م ، زار Palagrave W.G. – وهو يهودي المولد ، ثم تنصر وانخرط في سلك الرهبنة – وادعى أنه زار قلب الجزيرة العربية وكتب كتابه Personal Narrative through Central and Eastern Arabia وطبع بليبزيغ سنة ١٨٦٥ م .

وفي سنة ١٨٧٩ م زارت آن بلنت Ann Blunt منطقة حائل ونجد وكتبت كتابها Pèlerinage au Najed (Voyage en Arabie) وطبع كتابها بباريس سنة ١٨٨٢ م .

وفي سنة ١٨٧٥ م ، زار البريطاني C. Daughty شمالي الجزيرة ، وعرف فيها باسم « النصراني » ، و« الإنجليزي » ، وقد دون أخبار رحلته في كتابه Arabia Deserta وطبع بباريس سنة ١٩٤٩ م ، هذا عدا المتأخرين الذين زاروا الجزيرة بعد هذه المدة . (أمين الريحاني ، تاريخ نجد ص ٧٧ وما بعدها) .

عصر النهضة والاستقرار

الموجة العارمة الثائرة التي انطلقت في الدور الأول ، وهمدت في الثاني بُعِثت فيها الحياة وقوة الاندفاع في هذه المدة مرة أخرى ، وكان المحرِّك فيها رجلاً من آل سعود ، ولكنه رجل من نوع فريد ، فيه العقل الواعي والنظرة الثاقبة ، والاتزان المميِّز للرجال الذين خُلقوا وفي تكوينهم القدرة على بناء دولة ، ونهضة أمة ، وتحضير شعب ، كان ذلك الرجل عبد العزيز ابن عبد الرحمن . والذي ميّزه أنه استطاع أن يستعيد لأسرته السلطان الذي كان لها من قبل ، ويستولي على جميع ما استولى عليه جده عبد العزيز الأول وابنه سعود الكبير من أرض الجزيرة العربية ، وينشر عليها رايته ، ويقضي على نفوذ الأتراك فيها قضاء تاماً ، ويعرف متى يبسط يده للانجليز يستعين بهم ، ومتى يقبضها عنهم ويخاصمهم ، وكيف يقنع رجال الدين — الذين هو مندمج بهم عن عقيدة وإيمان — بإدخال وسائل الحضارة التي لم يقفوا على سرها ، أو توقفوا في أمرها ، والسماح لها بغزو الجزيرة مسايرة لركب العصر الحديث . وكيف يستقل برأيه — على مسؤوليته — في بعض المسائل السياسية والإدارية التي تقتضيها مصلحة البلاد والعباد .

له الفضل في غنى المملكة ورفاهيتها . استقدم الخبراء فاكتشفوا البترول ، ورخّص للشركات الأمريكية باستغلاله لمصلحة بلده ، وبالمال الذي حصل عليه زرع الأرض ، وبنى المعامل والمصانع ، وشقّ الطرق ، وحضّر البادية ، ونشر العلم ، وحارب الكسل والاتكال وفكرة احتقار الصناعة ، وكان جديراً أن يلقب « بملك المملكة العربية السعودية وأسد الجزيرة » . ثم خلفه « سعود » ابنه فسار على خطة أبيه ردحاً من الزمن ، ولما زلّت قدمه تولى القيادة أخوه « فيصل » وراح يكمل ما بدأ به أبوه وأخوه .

ولأهمية هذه المدة وتشابك أحداثها ، ولِـمَا تركته من آثار في مختلف جوانب الحياة الفكرية والمادية آثرنا الحديث المفصل عنها ليكون في إمكاننا رد الأسباب إلى المسبِّبات، والنتائج إلى المقدمات، حين تدعو الحاجة في أبحاث هذه الدراسة .

إن استعادة ملك الآباء والأجداد وتوحيد الجزيرة أشبه بأسطورة أو بحلم ، فقد بدأ عبد العزيز [1] بعشرين رجلاً وانتهى إلى تملكه نجداً والحجاز والأحساء وحائلاً، أرضاً مساحتها مليونا كيلومتر مربع، وشعبها يقارب سبعة ملايين عدداً.

بدأت انطلاقته الأولى سنة ١٣١٨ هـ / ١٩٠١ م وقد دفعه أمير الكويت [2] على رأس سريّة ليغزو مدينة الرياض ، كما دفع سريّة أخرى إلى « القَصيم » لإزعاج ابن رشيد خصمه ، وانهزمت سريّة « القَصيم » فغادر عبد العزيز الرياض بعد أن ظفر بها خوفاً من ابن رشيد ، وفي السنة التالية ١٣١٩ هـ / ١٩٠٢ م عاد بأربعين رجلاً إليها واستولى عليها ، وذبح أميرها عامل ابن رشيد فيها [3] وأعلنت المدينة له خضوعها وطاعتها ، ثم امتدت سلطته على نواحيها الجنوبية، مستغلاً غياب ابن رشيد في العراق ليطلب نجدة تركية على مبارك الصُّباح [4] ، وفي العراق طال مكثه لأن الأتراك ماطلوه وسوّفوه واستبقوه،

---

١ ولد عبد العزيز في ذي الحجة سنة ١٢٩٣ هـ كانون الثاني (ديسمبر) ١٨٧٦ م . وتوفي سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م .

٢ كان عبد العزيز وأبوه عبد الرحمن لاجئين في الكويت عند مبارك الصباح .

٣ اسم الأمير عجلان ؛ وقد تم قتله على يد عبد الله بن جلوي ابن عم عبد العزيز .

٤ مبارك الصباح بن جابر بن عبد الله بن صباح ، من عنزة (١٢٥٤ – ١٣٣٤ هـ / ١٨٣٨ – ١٩١٥ م) أمير الكويت ، نشأ فيها وكان نفوذ الكلمة فيها لأخويه « محمد وجراح » فقتلهما سنة ١٣١٣ هـ / ١٨٩٥ م . واستقام له أمرها . وكان للعثمانيين شيء من السلطان في الكويت فحرضوا ابن رشيد على مبارك وحاولوا نفيه بحيلة ، فأرسلوا إحدى السفن لنقله ليكون من أعضاء مجلس الشورى بالآستانة فتضاءل ولجأ إلى الإنكليز ، فأعلنوا « حمايتهم » للكويت (الأعلام ٦/١٥٠) .

ولما عاد توجه إلى الرياض لاسترجاعها فغادرها ابن سعود إلى الجنوب، ولحقه ابن رشيد إلى الدَّلَم[1] فتقابل الخصمان ، وشاءت الأقدار أن ينتصر الشاب على خصمه العنيد ، ورجع ابن رشيد إلى العراق وظفر بمساعدة الترك ، فيمّم وجهه شطر الكويت، واستغاث مبارك بابن سعود، فلباه هذا ، لكنها كانت خديعة[2] من ابن رشيد إذ استطاع بهذه الحركة أن يبعد عبد العزيز وجيشه إلى الكويت ويتجه هو إلى الرياض ، ووصلت الأنباء إلى الشاب ، فانعطف إلى القَصيم واستولى عليها بلداً بلداً ؛ وأُسقط في يد الخصم الكبير وهبَّ إلى القصيم يستنقذها وترك الرياض بعد أن صدته طويلاً .

وفي ربيع عام ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م علم ابن سعود من كشافته أن خصمه في « روضة مُهَنّا »[3] فتوجه إليه ، وتلاقى الجيشان في جنح الظلام ، واشتد القتال ، وفي أثناء ذلك كان ابن رشيد راكباً حصانه يدور بين عساكره يحرضهم على القتال والثبات ، ولم يدر أنه وصل إلى منطقة خصمه ، وكان يردد كلمته المشهورة « مِنْ هَانْ يا ألْفريخ ؟ »[4] . وعرف السعوديون

---

١ الدلم : بلد من بلدان « الخرج » . والخرج واد فيه قرى من أرض اليمامة لبني قيس بن ثعلبة ابن عكابة من بكر بن وائل في طريق مكة من البصرة وهو خير واد باليمامة ؛ وأشهر بلدانه : الدلم وكانت العاصمة ، ونعجان، والسلمية ، واليمامة ، والمنصف، والمنيصف ، والضبعية ، والبدع ، وفرزان . وبعد إنشاء مشروع الخرج الزراعي سنة ١٣٦٠ هـ / ١٩٤٠ م ، أصبحت القاعدة « السيح » ولا تزال (ياقوت ٣/٤١٦ ؛ حافظ وهبة ٥٢) .

٢ الريحاني ، تاريخ نجد ص ١٣٤ .

٣ مكان في منطقة القصيم ينسب لأسرة آل مهنا .

٤ « من هان » أي من هنا – بلغة حائل . و « ألفريخ » اسم رجل حامل راية ابن رشيد في حروبه . وقوله « من هان يا ألفريخ » معناه : أقدم من هنا يا ألفريخ . لأنه ظن أن الفريخ توغل بها إلى مسافة ما كان يجب أن يصلها . ولم يدر في الحقيقة أن الراية التي ظنها رايته كانت راية ابن سعود .

صوته فأمطروه وابل رصاص، فخرّ يتضرج بدمائه. وبقتله تخلص عبد العزيز من أقوى منافس له في قلب الجزيرة .

وبقتل عبد العزيز آل رشيد أصيبت هذه الأسرة الرشيدية بما أصيبت به الأسرة السعودية بعد موت فيصل بن تركي من تشتت وتمزق ، إذ تولى « مُتْعِب » الإمارة بعد أبيه، وصالَح ابنَ سعود، واتفق معه على أن يتنازل عن حكم القَصيم وسائر بلاد نجد على أن تبقى له حائل وأطرافها وكافة « شَمَّر »[1] ، ولم يستمر حكم « مُتْعِب » طويلاً ؛ فقد اغتاله « سلطان بن حُمُود » من آل رشيد ، وتسلم حكم حائل، وانقض أخو سلطان المسمى بـ « سعود » على أخيه فذبحه وتسلم الإمارة ، وعاد إلى مصالحة ابن سعود وكان ذلك في عام ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م . ولكن « سعوداً » قُتِل بعد سنة وبضعة أشهر بيد ابن عمه «عبد الله بن طلال» ثم قُتِل عبد الله ونُصِّب «عبد الله المتعب» أميراً . . وفي خلال ذلك كانت العلاقة بين آل رشيد وابن سعود تترجح بين صلح وخصام ، وحرب وسلام ، وظلت على ترجّحها حتى قضى عليها ابن سعود قضاء مبرماً في سنة ١٣٤٠ هـ / ١٩٢١ م[2] .

واجه ابن سعود فتناً عدة ، وقضى عليها جميعاً . ففي سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م ثار « الهَزازنة »[3] عليه في « الحُرَيِّق »[4] ، وفي العام التالي ثار أولاد عمه سعود الفيصل في الخَرْج ، وانتصر عليهم . وفي سنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١٣ م رأى الأمير عبد العزيز الدولة التركية آخذة في التصدع والانهيار ،

---

١ فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب ٣٦٨ .

٢ المصدر نفسه ص ٣٨٣ .

٣ أقرباء ابن سعود الأبعدون من قبيلة « عنزة » .

٤ هو أعلى وادي نعام في العارض فيه قرى ونخيل وسكان كثيرون (الأصفهاني ، بلاد العرب ص ٤) .

ورأى المطامع تكتنفها من كل ناحية ، فانتهز فرصة خروجها من حرب البلقان[1] منهوكة القوى ، وانقض على إقليم الأحساء ، واستخلصه من النفوذ التركي ، وبذلك نفذ إلى الخليج العربي . وبدأت اتصالاته السياسية بالحكومة البريطانية[2] ، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣١ هـ / ١٩١٤ م كان وضع البلاد العربية على الشكل التالي :

الأمير عبد العزيز آل سعود حاكم نجد والأحساء .

العثمانيون والأشراف يحكمون الحجاز .

آل رشيد يحكمون حائلاً وجبل شَمَّر ومتحالفون مع الأتراك .

الأدارسة والعثمانيون يحكمون « عسيراً » .

آل « حميد الدين » يتولون إمامة اليمن وهم في نزاع مع العثمانيين .

بلاد الشام والعراق تحت الحكم العثماني .

انكلترا تحكم مصر حكماً عسكرياً وبيدها مقاليد قناة السويس .

الإمارات العربية الواقعة على الخليج العربي وعدن تحت السيطرة البريطانية .

ألمانيا تسعى للتغلغل في البلاد العربية كما تسعى لمد خط حديدي بين برلين وبغداد ، وتود لو يصل إلى الكويت[3] .

نظر عبد العزيز إلى الجزيرة العربية ، ودرس أوضاعه الراهنة في قلب الجزيرة ، وأوضاعَ البلاد العربية في مطلع الحرب العالمية الأولى فرأى أنه في موقف حرج ، وحالة في منتهى التعقيد ، وأنه لا بد له من أن يختار طريقاً واضحة يسلكها . وكان عليه أن يحسن الاختيار ؛ لأن مصيره ، ومصير الأسرة

---

١ حدثت في عام ١٩١٢ – ١٩١٣ م (اشتركت فيها صربيا وبلغاريا ضد الأتراك وبنتيجتها خسرت تركيا أراضيها في أوربا) .

٢ حافظ وهبة ، جزيرة العرب ص ٢٥١ .

٣ أحمد عسة ، معجزة فوق الرمال ص ٦٨ .

السعودية ، وحكم نجد نفسه يتوقف على حسن الاختيار . فإذا عرف كيف يختار ويسير ، ضَمِنَ لنفسه ولبلده السيادة ، وإذا أخطأ فالمصير مجهول ، والمستقبل غامض . وفكر كثيراً فرأى :

أنه إذا انحاز إلى العثمانيين في حربهم ضد الإنجليز وحلفائهم ، فماذا تكون العاقبة لو انتصرت الدولة العثمانية ؟

إنها تعني تمكنَ العثمانيين في البلاد العربية ومدّ سيطرتهم فيما بعد إلى الجزيرة ، ويؤكد هذا أن خصمه « ابن رشيد » في حائل قد اتفق مع الترك وعقد معهم حلفاً ، وتسلّم أموالاً وسلاحاً . كذلك فعل الشريف حسين حاكم الحجاز ما فعله ابن رشيد، وقبض من الأتراك مالاً وسلاحاً. بل ما يدريه أن ابن رشيد سيتعاون في المستقبل والشريف حسين — لو انتصر الأتراك — وكلاهما عدو تقليدي له وللأسرة السعودية ولأنصار دعوة الإصلاح — على الإجهاز عليه ، وإسقاط حكمه ، واحتلال بلاده ؟

وإذا أغضى الطرف عن هذه النقطة فهل بإمكانه أن ينسى التاريخ الأسود للعثمانيين في الدّرعية ونجد كله ، وهل يمكنه أن يتجاهل ما فعلوه بجده الإمام عبد الله بن سعود بن عبد العزيز في الآستانة ؟ بل هل يغفر النجديون تحالفه مع الأتراك إذا قبل هو ؟

وإذا تحالف معهم ، وعادى الإنجليز والحلفاء ، فهل صحيح أنهم سيربحون الحرب ، وسينتصرون ؟ أو لم يخسروا معاركهم في القرنين الماضيين مع جميع أعدائهم ؟ أو لم تصفهم أوربا وكثير من دول العالم بالدولة المريضة أو بـ « الرجل المريض » ؟

إن الانحياز إلى تركيا ضد الانكليز مغامرة ومقامرة ، وأرجح الظن أن النتيجة ستكون خاسرة .

وإذا انحاز إلى الانكليز وحلفائهم ضد الأتراك فماذا ستكون العاقبة لو

ربحوا الحرب أو لو خسروها ؟

أما في حالة الحسارة فلن يتغير عليه من الأمر شيء . فابن رشيد في شماله والشريف حسين في غربه عدوّان قبل أن تكون الحسارة . وهو يعرف هذا ، وقد رتب أموره وسياسته على هذه الحالة ، وأعد للأمور عدتها . وبانتصار الأتراك ستزداد قوة عدوّيه بعض الزيادة .

أما في حالة النصر فقد يمكنه أن يقضي على هذين العدوين ، ومن ثمّ يقضي على الأتراك الذين يمدونهما ، وينتقم لأجداده منهم .

ولكن ، هل بإمكانه — الآن — ألاّ يتحالف مع الإنكليز ؟ إن هذه الدولة الأجنبية الغنية والقوية تحتل اليوم البصرة ، والكويت ، وأسطولها الحربي في مياه الخليج العربي [1] . وقد قطعت عليه المنفذ الشرقي من الجزيرة . كذلك فإن الشريف الإدريسي حاكم عسير والمنطقة الجنوبية وخاصة عدن قد تحالف والانكليز . ولو حاول التحرك ضدها فجيوشُها وقواتها على أتم استعداد لضربه .

ومال ابن سعود إلى التحالف مع الانكليز ورجح في خاطره أنهم قد يربحون الحرب ، بل إن نصرهم أقرب إلى الذهن من نصر الأتراك . ومرت سنة كاملة من سنوات الحرب وهو على الحياد . ثم مالت الكفة إلى إعلان انحيازه إلى الانكليز . فعقد معاهدة معهم سنة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٥ م [2] . ثم أعلن بصراحة اتفاقه معهم بعد أن انقلب الشريف حسين من تعاونه مع الأتراك

---

١ فؤاد حمزة ، قلب الجزيرة العربية ص ٣٧٦ .

٢ تمت المعاهدة الأولى بين ابن سعود والإنكليز في سنة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٥ م . بتاريخ ١٩١٥/١٢/٢١ ومثل انكلترا السير پرسي كوكس Percy Cox ومثل عبد العزيز بلاده — وكانت جائرة في حق السعودية ، ثم عدلت في أيار سنة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م . (حافظ وهبة ، جزيرة العرب ص ٢٣٤) .

إلى اتفاقه مع الانكليز ، ونال منهم المال والسلاح . وهرع ابن سعود إلى اقتناص الفرصة، فاتفق والانكليز ليقطع الطريق على الشريف حسين ، وعقد أول معاهدة بينه وبين الانكليز ، ومثّل هو بلاده كما مثل پِرْسي كـُوكْس Percy Cox الدولة البريطانية .

وهناك مشكلة أخرى داخلية بحتة تتعلق بجيش عبد العزيز ، فقد كان أغلبه من البدو والمتطوعين أصحاب العقيدة الدينية ، والصفة الغالبة على هذا الجيش أنه غير نظامي، وغير معروف العدد ، يكثُر أو يقلُّ حسب الظروف والآمال والمطامع وحساب الربح والخسارة ، وتبعاً للحرارة والبرودة والمطر والجفاف . وصحيح أن الدعوة السلفية وجدت مرتعاً خصيباً في البادية ونجد وأطرافه ، إلاّ أن أتباعها عُصاة في كل شيء عدا الدين ، وهم بطبيعة معاشهم في حل وترحال دائمين ، لا وطنَ يحنّون إليه ، ولا مُلْكَ ثابتاً يخشون ضياعه ، تتقاذفهم الأهواء والمنافع ، ولا يمكن الاعتماد عليهم في تأسيس مُلْك دائم . ورغب عبد العزيز في الإفادة من هذه القوة الكبيرة المبددة فرأى أنْ لا شيء غير الدين يجمع هولاء البدو والمتدينين ويأخذ بزمامهم ، ويقضي على أسباب المتاعب كلها ؛ فبث فيهم المصلحين الدينيين ، ثم بنى لهم القرى لينتقلوا إليها ويهجروا حياة الارتحال الدائم، وهيأ لهم وسائل الزراعة والاستقرار، وأدخل الدّعاةُ في روعهم : أن الهجرة من البادية إلى القرية هجرة من الشرك إلى الله ورسوله [1] .

ونجحت الفكرة إذ انتقل كثير من البدو إلى هذه « الهُجَر » [2] الجديدة ،

---

١ أمين الريحاني ، تاريخ نجد ص ٢٦١ .

٢ الهجر : ج هجرة بضم الهاء وكسرها (والكسر أفصح) وهي الخروج من أرض إلى أخرى . قال الأزهري : وأصل المهاجرة عند العرب خروج البدوي من باديته إلى المدن . . (تاج العروس ٣/٦٣٠) .

وفي سبيل الاستغراق في حياة الإيمان ، وإزالة نوازع الشرك باعوا إبلهم التي تساعدهم على الارتحال ، وشرعوا في دراسة الدين والتعمق في فهم العقيدة ، ثم دُفِعوا إلى العمل الزراعي إضافة إلى التعلم الديني ، فإذا بهذه الطاقات الكبيرة التي كانت ضائعة تتلملم في أماكن محدودة ، وتقع تحت إشراف عبد العزيز وسيطرته ، وإذا بسكانها الذين تسموا بـ « الإخوان » يصبحون جنوداً مُهَيَّئين دائماً لخوض كل معركة في سبيل رفع راية التوحيد[1] ، وقد تآخوا في الله ورفعوا من صدورهم الأحقاد والثأر ، وكسب عبد العزيز أول معركة في تحضيرهم وتمدينهم .

وفي خلال الحرب (في شعبان ١٣٣٦ هـ/ حزيران ١٩١٦ م) أعلن الشريف حسين الثورة على الدولة العثمانية ، ونصّب نفسه ملكاً على الحجاز ثم على العرب أجمعين . وصدرت جريدة « القِبلة » وازدهت أعمدتها باللقب الجديد : « صاحب الجلالة العظمى ملك العرب » . ثم طفِقَت هذه الجريدة تهلل للملك العرب ، وتهتف للمنقذ الأكبر ، وانتشر هذا الهتاف في البلاد العربية . وردده خلق كثير . وراح الملك حسين يتكلم باسم العرب جميعاً ، ويدّعي أنه زعيمهم الأكبر .

وساء ذلك ابنَ سعود . فلقد اشترط على پِرْسي كوكس Percy Cox حين عقد معه المعاهدة أن لا يتكلم الشريف باسم العرب ويدعي أنه ملكهم ، وقبل المفاوض الانكليزي شرط ابن سعود . وها هوذا الشريف ينادي بنفسه نداء يرفضه ابن سعود ، ويتناقض وما اتفق عليه والانكليز !

واحتج ابن سعود على ما ينادي به الشريف حسين ، فأجابته انكلترا بأنها

---

[1] ذكر الريحاني في كتابه « تاريخ نجد الحديث » لائحة الهجر فكانت (٧٢) هجرة . ولكنه ورد في كشف الهجر التي حضر مندوبوها اجتماع الجمعية العمومية بالرياض عام ١٣٤٧هـ /١٩٢٨ م (١٢٢ هجرة) (فؤاد حمزة ، قلب الجزيرة ص ٣٧٥) .

تعترف بالشريف حسين ملكاً على الحجاز فقط ، ولا تعترف به ملكاً على العرب جميعاً .

وأُبلغ الشريف باعتراف انكلترا المحدود ، واحتجاج ابن سعود . فسعى أن يستميل ابنَ سعود برسائل لطيفة وبهدايا ليكسب ودّه ، ويشتري سكوته، وتآمر في الوقت ذاته مع أمير حائل للقضاء على ابن سعود .

وعلم عبد العزيز بالمؤامرة ، ولكنه لم يحرك ساكناً إلاّ عندما بدأ الحسين يحتل بعض الأراضي التي يدّعي السعوديون أنها داخلة في نطاق أراضيهم . حينئذ قرر ابن سعود أن يوقِفَ الحسينَ عند حده ، ويسترجع منه « تُرَبة والخُرْمة »[1] اللتين يعتبرهما قطعة من المنطقة النجدية ، كما قرر في الوقت ذاته أن يعتمد على جيوشه ورجاله دون أن يُعوِّل على مساعدة الانكليز الذين يتلوّنون معه كل حين بلون جديد ، ويتقلبون في أقوالهم وأفعالهم حسبما تملي مصالحهم .

حدث أول احتكاك حربي بين الجيش السعودي والجيش الحجازي في ١٣٣٧/٨/٢٥هـ = ١٩١٩/٥/٢٥ م . حيث هجم « الإخوان » على معسكر الأمير عبد الله بن الشريف حسين بتُربَة ، وأعملوا سيوفهم ، ولم يَفُزْ

---

١ تربة والخرمة : واحتان واقعتان إلى الشرق من الطائف ، وراء جبل حضن في وادي سبيع ، يقطنهما أفراد من « سبيع والبقوم وعتيبة والأشراف » والسيادة في كلتيهما بيد الأشراف ، وأما أهلهما فقد دخلوا في عقيدة التوحيد منذ أيام سعود الأول،وظلوا يحسبون أنهم تابعون لآل سعود وأئمتهم . وادعى الحسين أن الواحتين له بحجة سيادة الأشراف ، فنشأ خلاف بين الطرفين ، وأراد الحسين أن يظهر قوته وسيادته عليهما ، فوجه إليهما جيشاً لاحتلالهما فهزمه أهاليهما ، ثم وجه آخر فهزم ، وكرر ثالثة الحملة فهزمت ، واستغاث أهاليهما بابن سعود ، حين احتلهما في الحملة الرابعة الأمير عبد الله بن الحسين . (فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب ٣٧٨) .

بروحه إلاّ الأمير عبد الله وبضع عشرات من الضباط والجنود .

ولعبت انكلترا لعبتها ، فظلت تدعم الحسين من جهة ، وتضرب ابن سعود من خلفه . وكان أشد ما أثار حنق عبد العزيز على انكلترا ضربُ الطائرات الانكليزية بعض الإخوان الذين اشتبكوا مع عدد من سكان الكويت لأمور تتعلق بمناطق الرعي .

كذلك فإن انكلترا بعد انتصارها في الحرب العالمية وزعت أبناء الحسين بين البلاد العربية، ونصَّبتهم أمراء وملوكاً على بعض الأقطار العربية المجاورة لبلاد ابن سعود . وهذا خطر آخر عليه ، بل طوق جديد بدأ يلف حول بلاده .

حينئذ أدرك ابن سعود أنه يجب أن يتحرك ، فدعا إلى مؤتمر عام للإخوان يُعْقَد في الرياض ، كما دعا أركانَ الأسرة السعودية ، وعلماءَ الدين ، ورؤساءَ العشائر ، وأفهمهم الوضع الراهن ، فقرروا المناداة به « سلطاناً على نجد وملحقاته » على أن يتمتع بهذا اللقب كل من يخلفه من ذريته . وما إن وصل النبأ إلى انكلترا حتى اعترفت به رسمياً .

وجاء دور تصفية ابن رشيد ، وكان ذلك أول عمل للسلطان بعد تنصيبه . فلقد استعصت مشكلة هذه الأسرة ، وكلفته غير قليل من التعب والقتال والرجال، لأن الوسائل السلمية لم تُجْدِ فتيلاً . وجهز لذلك جيشاً قَوامه عشرة آلاف محارب من أهل نجد سنة ١٣٤٠ هـ / ١٩٢١ م وسار على رأسه نحو حائل ، حتى إذا وصل إلى تخومها حاول الشمريون مصالحته على أساس أن يبقى لجبل شَمَّر استقلال ذاتي ، ويتولى عبد العزيز الشؤون الخارجية ؛ فرفض مُصِرّاً على أن يدخلوا فيما دخل فيه أهل نجد فرفضوا . حينئذ ابتدأت المعركة ، وأنذر السكانَ بهدم حائل إنْ لم يسلموا ويتخلوا عن آل رشيد . فاستغاث الرشيديون بالانكليز وبالحسين فلم يُلَبِّ أحد . وأخيراً فتحت المدينة أبوابها للسلطان مستسلمة مع أسرتها الحاكمة . فأكرمهم وعفا عنها جميعاً . واحتل

خَيْبَر ، ووادي السّرحان ، والجَوْف[1] ، وتوسع شمالاً وكاد يصل إلى مشارف عَمّان ، فبادرت السلطات الانكليزية بقصف قواته جوّاً وبرّاً وردتها[2] ، ثم اعتذرت له عن ذلك ، كما انطلقت بعض قوات الإخوان نحو العراق فاشتبكت مع بعض العشائر ، فانبرت الطائرات للاخوان قصفاً لتردهم وتفتك بهم[3] .

وحاولت انكلترا تصفية الجو بين نجد والعراق والأردن فأخفقت، لأن الحسين كان من ورائها . فخيل إلى السلطان أنه لن يستقر إلاّ إذا حسم مشكلة الحسين حسماً جازماً . وساعده على هذا أن الإخوان في مؤتمرهم العام سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م احتجوا أمام السلطان بأن الحسين يمنع النجديين من الحج ، وها قد مرت خمس سنوات كاملات وهم ممنوعون من الحج ، وطالبوا بإصرار أن يوجِدَ حلاً لهذه المشكلة . فحاول عبد العزيز أن يُصَبّرهم ، وأن يسعى ليعالج الأمور بحكمة وروية وبالطرق السلمية . وأفهمهم خطورة الوضع الحالي ، فصاحوا بصوت واحد : « إلى الحجاز إلى الحجاز »[4] . وأعلن أن سلطنة نجد « قررت إشاعة الأمن والسلام في الحجاز ، وأنها بهذا تخدم الدين ولا تسعى إلى توسّع أو فتح » . وفعلاً انطلق الإخوان إلى الحجاز ومروا بالطائف سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م ، فاحتلوها دون عناء ، وخاف أهل مكة من خطرهم واجتمع أعيان الحجاز وتجاره وعلماؤه وأشرافه في جدة ، وقرروا عزل الحسين الذي أوقع بلادهم بورطة نتيجة لتصرفاته المتسرعة ، ورغبوا أن يتمتع الحجاز كما يتمتع نجد بالأمن والاستقرار ، وأرادوا أن

---

١ خيبر ، ووادي السرحان ، والجوف : أسماء أماكن في شمال المملكة تابعة لمنطقة حائل .

٢ أمين الريحاني ، تاريخ نجد ص ٣٢٩ .

٣ المصدر السابق ص ٣٠٦ .

٤ « « ص ٣٢٦ – ٣٢٧ .

يتخلصوا من فداحة الضرائب ومن الاستغلال الذي فرضه الحسين على الحجاز والحجاج[١]، وطلبوا منه التنازل عن العرش لابنه « علي » إنقاذاً لهم، فرفض، فعزلوه وبايعوا ابنه . فاضطر أن يغادر جدة إلى العقبة . ودخل الإخوان مكة في ١٧ ربيع الأول ١٣٤٣ هـ / ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٤ م ثم احتلوا « القَنْفُذَة » في الجنوب ، « ورابِغ » في الشمال . وفي العام التالي استولوا على جدة بعد حصار شديد دام سنة كاملة استسلم في نهايتها الشريف عليّ لابن سعود ، وانضمت المدينة المنورة تحت اللواء الجديد . ونادى الحجازيون بعبد العزيز في ٢٢ جمادى الثانية ١٣٤٤ هـ/٨ كانون الثاني ١٩٢٦م ملكاً على الحجاز . فصار لقبه : « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها » . وفي ٢٤ ربيع الثاني ١٣٤٥ هـ / ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٦ م بسط حمايته على عَسير والمنطقة الجنوبية .

وصدر مرسوم ملكي بتاريخ ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هـ / ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٢ م يقضي بتوحيد البلاد تحت اسم واحد هو « المملكة العربية السعودية » .

وسهر الملك عبد العزيز على إرساء دعائم الأمن الذي كان مفقوداً في الحجاز، وعلى تنظيم الحكم ، وبَعْث البلاد من غفوتها التي طالت ، وتغلب على عقبات كثيرة ، كان منها ازدياد نفوذ الإخوان . فكبح جماحهم ، كما قضى على الأعراف البدوية التي تقضي بأخذ « الخُوّة » من الحجاج ، وألغى الامتيازات والمحاكم الأجنبية ، ودخلت البلاد في نهضة حقيقية حين اكتُشف البترول في المنطقة الشرقية ، وبدأ المال يفعل فعْلَه في حياة الجزيرة وفي نقلها من دولة متأخرة إلى دولة تأخذ بأسباب الرقي والحضارة .

---

١ المصدر السابق ص ٣٣٦ .

ونوديَ بابنه « سعود » عند وفاة أبيه سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م ملكاً على المملكة العربية السعودية ، وراح يكمل ما بدأه أبوه ، فأوجد الوزارات ، ودفع البلاد إلى الأمام بقوة. إلاّ أن بطانته أساءت إليه وإلى الناس، وجرّته إلى أن يتصرف تصرفاً لا يتفق والمصلحة العامة ، فاجتمعت الأسرة السعودية وهيئة العلماء ورجال البلاد وخلعوه،ونادوا بولي عهده «فيصل بن عبد العزيز» ملكاً وكان ذلك عام ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م . وانطلق فيصل بنهضة عامة شاملة حتى ليُعَدّ الباني الثاني للمملكة بعد أبيه . ولا يزال إلى اليوم ملك البلاد وإمامها .

الفصل الثاني

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

شغَلَ محمد بن عبد الوهاب عصره بفكره ورأيه ومسلكه، ودوّى صوته بآرائه في مجتمعه، فتقبلتها عقول وأساغتها، وضاقت بها أخرى وردّتها. وانبرى لمنازلته المخالفون، وشد أزره الموافقون، وهو في الجمعين يصول ويجول، ويجادل ويناضل، والعامة من وراء الفريقين قد سيطر على بعضها الإعجاب بشخصه وبيانه، وقوة حجته وحِدّة لسانه، واعترتهم الدهشة لما يجيء به من آراء يجددُ بها أمر هذه الأمة، ويعيد إليها دينها غضّاً قشيباً كما ابتدأ؛ فتعصبوا لآرائه، وصاروا أنصاراً أقوياء، بل تكوّن من هؤلاء الأنصار دولة صغيرة، ثم اتسعت حدودُها وامتدت أبعادها. وحَنِق فريق آخر على كل ما جاء به الشيخ وحاربوه في قلب بلاده، ثم سلطوا عليه قوة خارجية أكبر من قوتهم. واستمر الصراع عنيفاً بين الأنصار والخصوم، وامتدت رقعته إلى أكثر بلاد العالم الإسلامي؛ فأُلّفت المؤلفات، ونُظمت الأشعار، تأييداً أو تفنيداً، ودارت حروب عسكرية، وتلتها معارك فكرية، ولم يصل أحد من الفريقين إلى نصر حاسم.

لقد تركت دعوة الشيخ محمد بصماتها على كل ما مرت عليه؛ فلا مندوحة لدارس الحياة الفكرية في الجزيرة العربية، وتاريخها، ومجتمعها، وسياستها، عن الإلمام بهذه الدعوة، والوقوف على آثارها؛ ذلك لأن المملكة العربية السعودية اليوم تعتنق المذهب الحنبلي، وتنفذ تعاليم ابن عبد الوهاب

قولاً وعملاً ، وتجعل الشريعة لا القانون دستور بلادها .

ولما كان لهذه الدعوة أهميتها البالغة، كان لا بد من عرضها العرض الهادىء المطمئن، في روح علمي بحت ، ليمكن تمييز الآثار التي ترتد إليها ، والآثار التي ترتد إلى غيرها في فصول هذه الدراسة الأدبية .

نجد قبل دعوة محمد بن عبد الوهاب

مرّ على قلب الجزيرة العربية دهرٌ طويل، عانى فيه من إهمال الساسة العرب والمسلمين الشيء الكثير ، حتى غدت كلمة « نَجْد » تعبيراً تاريخياً أكثر منه دلالةً على منطقة من هذا العالم، لها تاريخها وآثارها ورجالها . وكأن هذا الإهمال الكبير والحرمان المستمر دفعا نجداً إلى الانطواء على ذاته ، والانغلاق على نفسه ، حتى تولد من ذلك ضيق في التفكير ، وشدة في التعصب ، وإغراق في الجهل ، وإيمان بالخرافات ، واعتقاد بقبور ومزارات ، وأحجار وأشجار ، على أنها تضر وتنفع ، وتصل وتقطع ، وتعطي وتمنع ، وتفرق وتجمع من دون الله[1] . وما كان أمر السياسة خيراً من أمر العقيدة . البداوة تسلب وتقتل، وتفرض على المدن المتفرقة الإتاوة ، وتتهدد سلامة المقيمين والمسافرين ، فالحروب متصلة ، والغدر دائم[2] .

ولقد حاول المستشرق جولد سيهر Goldziher تعليل مثل هذه الظاهرة

---

١ حسين بن غنام ، تاريخ نجد ص ١٠ – ٧٨ ؛ عثمان بن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجد ص ١٦ – ٢٣ ؛ الربكي ، لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ص ٣٣ ؛ حسين نصيف ، ماضي الحجاز وحاضره ص ١١٤ ؛ محمد حامد فقي ، أثر الدعوة الوهابية ص٢٣٣ ؛ عباس متولي حمادة ، مشاهداتي في الحجاز ص ٥٣ ؛ إبراهيم عبده ، إنسان الجزيرة ص ١٥٦ ؛ Pareja, Islamologie, p. 716

٢ Palagrave, W. G. Personal Narrative of a Year Journey through Central and Eastern Arabia — Leipzig. p. 262.

في سبب البعد عن الدين فقال : « نشأ في الإسلام بتأثير عدة عوامل ، بعضها سيكولوجي ، وبعضها الآخر تاريخي ، شكل من أشكال العبادة ، وهذا الشكل – مهما عُدّ مناقضاً لفكرة الألوهية في الإسلام ، ومهما اعتُبر خارجاً عن جادة السنة الصحيحة – سرعان ما اكتسب « حقوقه المدنية » في دول الإسلام الشاسعة . . وهذا الإيمان الساذج يرى أن الله بعيد عن الناس ، وأن الأولياء المحليين هم أدنى إلى نفوسهم وقلوبهم ، ولهذا فهم موضع التكريم في عباداتهم ، كما أنهم مبعث مخاوفهم ، ومَعْقِد آمالهم ، ومحل تبجيلهم وورعهم ، وأضرحة هؤلاء الأولياء والأماكن المقدسة المتصلة بها هي مواضع عباداتهم التي يرتبط بها أحياناً ما يظهره العامة من تقديس وطني غليظ لبعض الآثار والمخلفات ، بل إن العامة تخص هذه الأضرحة ذاتها بما لا يقل عن العبادة المحض[1] » .

لقد أصاب جولد سيهر في فهمه وتعليله ؛ إذ وصل كثير من الناس بنجد وبغيره من دول الإسلام إلى أن يؤمنوا بولي أو ببقعة كإيمانهم بالله ، وبذلك أشركوا شِرْكاً كبيراً . وما دعوة محمد بن عبد الوهاب إلاّ انتفاضة عنيفة لإزالة معالم هذا الكفر الصراح ، ولإعادة الناس إلى الدين القويم .

حياة محمد بن عبد الوهاب

تُعرَف أسرة محمد بن عبد الوهاب بأنها فرع من «آل مُشرِّف » ، وتنتمي إلى قبيلة « تميم »[2] ، وقد شهرت بالعلم والدين ، فجدُّ محمد عالم ، وأبوه قاضي « العُيَيْنة »[3] ، وعمه إبراهيم عالم فقيه ، وابن عمه عبد الرحمن

---

١ أجناس جولد سيهر ، العقيدة والشريعة في الإسلام (الفقرة ٦) ص ٦٠ .

٢ ابن غنام ص ٧٥ ؛ وابن بشر ص ٨٢ .

٣ العيينة : قرية في نجد ، وموقعها من العارض – وادي حنيفة – بعد حريملاء وسدوس وضرمى ، والعمادية ، وأبي كباش ، والجبيلة وبعدها تأتي الدرعية ، وعرقة ، والرياض ، ومنفوحة . (الألوسي ، تاريخ نجد ص ٢٨) .

ابن إبراهيم كذلك ، وأخوه سليمان رجل من أهل العلم . وكان مركز الأسرة في «أُشَيْقر »[1]، ثم انتقل بعضهم إلى العيينة في زمن عبد الوهاب، لكن الخلاف وقع بين عبد الوهاب وأميرها، فعزله عن القضاء، فهاجر إلى « حُرَيْمِلاء »[2] وتولى قضاءها .

ولد محمد سنة ١١١٥ ﻫ/١٧٠٣م ، وعُني أبوه به صغيراً ، وحفّظه القرآن الكريم ، ولما بلغ الحُلُم زوّجه ، ثم سمح له أن يحج ، ويسافر طلباً للعلم . فحج وزار المدينة المنورة ، وأخذ عن عدد من مشايخها[3] ، وجاء البصرة، وقرأ على بعض علمائها[4] . ودرس كتب ابن تيمية ونقل كثيراً منها[5] . وفي طريق عودته إلى نجد مرّ بالأحساء فتتلمذ لأحد فقهائها[6] ، واستقرت به النوى في حُرَيملاء ، ودعا فيها إلى « مذهب التوحيد » — كما سماه — فذاع ذكره ، والتف حوله كثير من الأتباع ، وألف لهم كتاباً سماه

---

١ من بلدان الوشم .

٢ حريملاء : قريبة من العيينة ، وتقع في إقليم سدير ، وهي إحدى مدن المحمل والشعيب .

٣ يعدد ابن بشر منهم شيخين : عبد الله بن إبراهيم بن سيف بن عبد الله الشمري صاحب كتاب « العذب الفائض في علم الفرائض » المتوفى سنة ١١٨٩ ﻫ/١٧٧٥ م ومحمد حياة السندي صاحب الحاشية على صحيح البخاري المتوفى سنة ١١٦٥ ﻫ/١٧٧٥ م (حاشية ابن بشر ص ١٧) .

٤ يذكر ابن بشر منهم اسم « محمد المجموعي » . (وكلمة المجموعي نسبة إلى « أعلى المجموعة » وهي محلة من محال البصرة) ويصفه بأنه كان ينكر البدع وألوان الشرك (ابن بشر ص ١٨ ؛ والألوسي ، تاريخ نجد ص ١١٢) .

٥ بعض رسائل ابن تيمية موجودة في المتحف البريطاني مكتوبة بخط محمد بن عبد الوهاب ، وقد كان يفعل ذلك لنشر دعوته أو لمناقشة معارضيه . (الشيال ، الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث ص ٦٠) .

٦ يسميه ابن بشر « عبد الله بن محمد الأحسائي » ويصفه بمعرفة الفقه والميل إلى الأخذ بالحديث ، وحربه البدع ودعوته إلى التوحيد (ابن بشر ص ١٨) .

«كتاب التوحيد»[1]. ولما همّ بعض العبيد أن يقتلوه ليلاً انتقل إلى «العيينة» وتابع فيها نشر دعوته، وارتاح أميرها إليه، فناصره، ودعا الناس إلى اتباعه، وحماه حين قطع «شجرة الذئب»[2] المقدسة، وهدم القبة المقامة على ضريح زيد بن الخطاب[3]، ورجم امرأة محصنة زنت، فجاءت إليه واعترفت بذنبها، ثم خذله أمير العيينة خوفاً من أمير الأحساء الذي تهدده إذا ظل يحمي محمداً أو يؤويه في قريته[4]، فاضطرّ الشيخ إلى الهجرة إلى الدرعيّة، وكان ذلك سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م لأن له فيها أنصاراً، ولأن أميرها محمد بن سعود رجل عاقل.

ولم تمض أيام على وصول الشيخ إلى الدرعية ونزوله في بيت أحد أصحابه حتى زاره محمد بن سعود وأظهر تعظيمه والاحتفال به ورحب به، وبشره بالعز والمنعة، وآمن بدعوته، وانضم إلى أتباعه، وتبعه أبناؤه وأحفاده،

---

١ طبع «كتاب التوحيد» وشرح مرات عدة؛ منها في المطبعة المنيرية بمصر سنة ١٣٤٦ هـ، وفي المكتب الإسلامي بدمشق سنة ١٩٦٢ م، وضمن «مجموعة التوحيد» المطبوعة بدمشق سنة ١٩٦٢ م، وفي «مجموعة التوحيد النجدية» المطبوعة بمطبعة المنار في مصر سنة ١٣٤٦ هـ. ومن شراحه: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب وسماه «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» وطبع بالمكتب الإسلامي بدمشق سنة ١٩٦٢ م.

٢ هي شجرة في العيينة يعظمها الجهلة ويعلقون عليها الحاجات اعتقاداً منهم بقداستها (ابن بشر ص ١٩).

٣ أخو عمر، صحابي أسلم قبل أخيه، وشهد المشاهد، ثم كانت راية المسلمين في يده يوم اليمامة، فثبت إلى أن قتل. وكان جهلة نجد يغالون في تعظيم قبره ويزعمون أنه يقضي لهم حاجاتهم (ابن حجر، الإصابة ١/٥٦٥).

٤ انظر تفصيل ذلك في ابن بشر ص ٢٠؛ وابن غنام ص ٧٨؛ ولمع الشهاب ص ٣٢؛ والريحاني ص ٢٩؛ وبروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ٤/١٧؛ ومحمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص ٣١.

وتبنت الأسرة السعودية الشيخ ودعوته، كما ارتبطت الأسرتان بالمصاهرة [١] .

ويشاء الله أن تظل هذه الصلة متينة بينهما إلى يومنا هذا . ومات الداعية في الدرعية سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م بعد أن ترك من المؤلفات عدا كتاب التوحيد « رسالة كشف الشبهات » [٢] و « تفسير الفاتحة » [٣] و « أصول الإيمان » [٤] و « تفسير شهادة أن لا إله إلاّ الله » [٥] و « معرفة العبد ربه ودينه ونبيه » [٦] و « المسائل التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية » [٧] و « فضل الإسلام » [٨] و « نصيحة المسلمين » [٩] و « معنى الكلمة الطيبة » [١٠] و « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » [١١] و « مجموعة خطب » [١٢] و « مفيد المستفيد » [١٣] و «رسالة في أن التقليد جائز لا واجب» [١٤] و «كتاب الكبائر» [١٥] .

تسمية الدعوة

عرف الناس في الأقطار الإسلامية دعوة ابن عبد الوهاب باسم « الوهابية »

---

١ لمع الشهاب ص ٣٠ ؛ منير العجلاني ، تاريخ البلاد السعودية ص ١٣٧/١ ؛ عبد الحميد الخطيب ، الإمام العادل ٤/١ ؛ Corancez, Histoire des Wahabies, p. 11; Armstrong,. Lord of Arabia, p. 14

٢ طبع بالمطبعة المنيرية بمصر سنة ١٣٥١ هـ وطبع ضمن « مجموعة التوحيد النجدية » بمصر ، مطبعة المنار — ١٣٤٦ هـ (من ص ٧٣ — ٩٣) .

٣ طبع ضمن « مجموعة التوحيد النجدية » في الرسالة التاسعة ص ١٢٨ وفي ص ١٣٢ .

٤ في المصدر السابق ص ١٢٤ وص ١٣٨ .

٥ في المصدر السابق ص ١١٠ .

٦ في المصدر السابق ص ١٠٣ وص ١١٨ .

٧ في المصدر السابق ص ٩٤ وطبع مستقلا بالمطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٧ .

٨ — ١١ في مجموعة التوحيد النجدية ص ١١٥ .

١٢ طبع مستقلا بمكة .

١٣ — ١٥ في مجموعة التوحيد النجدية ص ١٣٤ .

لكن أتباع الشيخ وأهل نجد لا يتداولون هذه الكلمة ، بل ينكرونها ، ويقولون عن أنفسهم : إنهم « مسلمون » عقيدة ، « حنابلة » مذهباً . وقد ترد في بعض أقوالهم لفظة « الدعوة النجدية »[1] ، يقصدون بها دعوة محمد بن عبد الوهاب .

رأى عدد من الباحثين[2] أن كلمة « الوهابية » نشأت في الأقطار التي كانت تبذل أقصى جهدها لحرب هذه الدعوة والقضاء عليها في أيام حروبها الأولى . وقد حمّلها الخصوم كل معنى شنيع ، وزعموا أنها « مذهب خامس »[3] « باطل مُغَيّر لجوهر الدين »[4] ، كما رأى هؤلاء الباحثون الأنصار : أن النسبة إلى محمد بن عبد الوهاب « وهابي » خطأ ، والصواب أن يقال : « محمديّ » لأن لفظ « وهابي » نسبة إلى الأب عبد الوهاب ، والدعوة نهض بها الابن محمد لا أبوه[5] ، لكنّ آخرين — من الأنصار كذلك — وجدوا النسبة صحيحة ، وضربوا على ذلك مثلاً بـ « الحنبلي » المنسوب إلى « ابن حنبل » مع أن الإمام « أحمد » الابن لا « حنبل » الأب ، وقالوا : لو نسب إلى « محمد » لوجب

---

١ جاء في منشور صغير أصدرته « دار الإفتاء السعودية » سنة ١٣٧٨ هـ / ١٩٦٨ م ، عنوانه « فتوى في شرب الدخان لمؤلفه مفتي السعودية » الشيخ محمد بن إبراهيم — رحمه الله — قوله : « سئلت عن حكم التنباك الذي أولع به كثير من الجهال والسفهاء مما يعلم كل أحد تحريمنا إياه نحن ومشائخنا ومشائخ مشائخنا ومشائخهم وكافة المحققين من أئمة الدعوة النجدية . . . » (الفتوى ص ٣) .

٢ نعدد منهم : الألوسي ، تاريخ نجد ص ٩٠ ؛ الفقي ، أثر الدعوة الوهابية ص ٤ ؛ محب الدين الخطيب ، مجلة الزهراء المجلد ٣ السنة ١٣٤٥ هـ ص ٨١ .

٣ جاء في إحدى رسائل الشيخ قوله : « . . إنا لما أنكرنا عبادة غير الله بالغتم في عداوة هذا الأمر وإنكاره وزعمتم أنه مذهب خامس وأنه باطل . . . » . (ابن غنام ص ٢٦١ و ٢٩٧) .

٤ وفي مكان آخر قال الشيخ : « . . . أفإذا قام من يبين للناس التوحيد قلتم : إنه مغير للدين ، وآت بمذهب خامس ، وإنه باطل . . »

٥ هذا رأي الألوسي ، تاريخ نجد ص ٩٠ ؛ الفقي ، أثر الدعوة الوهابية ص ٤ — ٦ ؛ محب الدين الخطيب في كتابه « الدكتور صلاح الدين القاسمي » ص ٢٥٢ .

أن يقال : « محمديّ » وحينئذ يلتبس الأمر بينهم وبين أتباع محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم [1] .

أما تاريخ كلمة « الوهابية » فيذهب عدد من العرب والمستشرقين [2] إلى أنها ظهرت عند العثمانيين أيام الدولة السعودية الأولى ، ويذهب آخرون من الباحثين مذهباً معاكساً، ويرون أنها ظهرت في نجد نفسه أيام الشيخ . ودليلهم أن سليمان أخا محمد ألف كتاباً دعاه « الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية » [3] ومن ثمّ فقد ذاعت النسبة وتخطت حدود نجد ، وتلقفها الأعداء ، وتشبثوا بها [4] . ويبدو من تتبع حجج كل من الفريقين أن الفريق الثاني أقرب إلى الصواب .

تعاليم الدعوة

انقسم المؤلفون المسلمون في دعوة ابن عبد الوهاب إلى قسمين : متعصب لها ينظر إلى كل ما فيها بعين الرضى ، ومتعصب عليها لا تقع عينه إلاّ على

---

١ هذا رأي العجلاني في تاريخ البلاد السعودية ١/٢٤٢ .

٢ نعدد منهم : أمين بن حسن الحلواني المدني ، مختصر مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود ص ٨٠ وما بعدها ؛ وصالح بن دخيل في مقدمته لكتاب « التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة محمد بن عبد الوهاب » ؛ و Corancez, في كتابه Histoire des Wahhabies, p. 6 ؛ وكارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ٤/٢٣ ؛ و Pareja في كتابه Islamologie, p. 306.

٣ طبع في مكتبة التهذيب بالقاهرة ، ولم يذكر تاريخ طبعه .

٤ انظر : Burckhardt, Note on the bedouins and Wahabys, v.I. p. 279; Jean, Raymond, Mémoires sur l'origine des Wahabys, sur la naissance de leur puissance et sur l'influence dont ils jouissent comme nation. Imp. de l'Institut Français d'Archéologie Orientale. Le Caire, 1925.

سوء ، واختلط الحق بالباطل ، وأدلى المستشرقون بدلوهم فأصاب بعض[1] ، وأخطأ بعض آخر[2] ؛ لذلك فالطريق إلى البحث فيها مفروشة بالأهواء ، عامرة بالتعصب ، توجب على طالب الحقيقة الحذر والبصر في كل خطوة يخطوها في هذا السبيل .

ولا مندوحة عن العودة إلى ما جاء به شيخ الإسلام ابن تيمية[3] ورجال الكلام قبله[4] ، وما كتبه محمد بن عبد الوهاب وأبناؤه وأنصاره[5]، وما ألفه

---

١ بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ١٩/٤ وما بعدها ؛ Armstrong, Lord of Arabia p. 14; Bremond, Yémen et Saoudia p. 62; Philby, Arabia of the Wahhabies p. 121; Pareja, Islamologie p. 716.

٢ Burckhardt, Notes on the Bedouins and the Wahabys, v.II. p. 439; J. Raymond, Mémoires ... p. 8; Corancez, Histoire des Wahhabis .. p. 5.

٣ ابن تيمية ، قاعدة جديدة في التوسل ص ٦٢ ؛ محمد أبو زهرة ، ابن تيمية ص ١٢ .

٤ أبو زهرة ، ابن حنبل ص ٤٣ ؛ الشهرستاني ، الملل والنحل ص ٦٢؛ أحمد أمين، ضحى الإسلام ٢٦/٣ ومابعدها ؛ مصطفى الشكعة ، إسلام بلا مذاهب ص ٢٨٢ .

٥ نذكر منهم على سبيل المثال عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، « جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية » ، و « مختصر السيرة النبوية » ، و « الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة » ؛ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب « تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد » ؛ وابن غنام ، « روضة الافكار » ، و « العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين » ؛ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ، « تأسيس التقديس في الرد على داود بن جرجيس » ، « دلائل الرسوخ في الرد على العاني العراقي » ، « مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام » ، « البراهين الإسلامية » ، « تحفة الطالب والجليس » ؛ عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن عبد الله آل الشيخ ، « تحقيق تاريخ ابن بشر » و « سهيل في ذكر الخيل » و « الإشارة في معرفة منازل السبع السيارة » و « بغية الحاسب » و « الخصائص ومبدأ النقائض في الطفيليين والثقلاء » و« عنوان المجد في تاريخ نجد » و « تاريخ نجد » ؛ حمد بن ناصر بن معمر ، « الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم بالسنة والكتاب » ؛ عبد العزيز بن حمد بن ناصر ، « منحة=

الخصوم رداً على محمد وتفنيداً[1] ، وما أدلى به المستشرقون دراسة وتمحيصاً لينسب الفرع إلى الأصل ، والرأي إلى أصحابه وذويه .

أما تعاليم الشيخ المقتبسة من كتبه ورسائله وشروح أبنائه وأحفاده وأنصار دعوته فتقوم على مبدإ رئيسي خلاصته : « أنه لا سبيل إلى معرفة العقيدة والأحكام وكل ما يتصل بها إجمالاً وتفصيلاً ، واعتقاداً واستدلالاً ، إلاّ من القرآن والسنة المبينة له ، والسير في مسارهما ؛ فما يقرره القرآن وما تشرحه السنة مقبول لا يصح رده ، وليس للعقل سلطان في تأويل القرآن وتفسيره وتخريجه إلاّ بالقَدْر الذي تؤدي إليه العبارات ، وما تضافرت عليه الأخبار . وإذا كان للعقل سلطان بعد ذلك فهو في التصديق والإذعان ، وبيان تقريب المنقول من المعقول ، وعدم المنافرة بينهما . فالعقل يكون شاهداً ولا يكون حاكماً ، ويكون مقرراً مؤيداً ، ولا يكون ناقضاً ولا رافضاً ، ويكون موضحاً لما اشتمل عليه القرآن من الأدلة »[2] .

هذا هو المنهاج ، وهو يجعل العقل سائراً وراء النقل يعزّزه ويقوّيه ،

= القريب المجيب في الرد على عباد الصليب » ؛ محمد بن علي الشوكاني ، « نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخيار » ؛ سليمان بن سحمان ، « عقود الجواهر المنضدة الحسان » و « إقامة الحجة والدليل » و « الصواعق المرسلة » ؛ ابن مشرف ، « ديوان شعره » ؛ « محمد أحمد باشميل » ، « لهيب الصراحة يحرق المغالطات » ؛ أحمد عبد الغفور العطار ، « محمد بن عبد الوهاب » .

١ منهم مصطفى الكريمي ، « رسالة السنيين في الرد على المبتدعة الوهابيين » ؛ عبد القادر محمد سليم الإسكندراني ، « النفحة الزكية في الرد على شبه الفرقة الوهابية » ؛ محسن عبد الكريم الأمين ، « كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب » ؛ إبراهيم السمنودي، « سعادة الدارين في الرد على الفرقتين الوهابية ومقلدة الظاهرية » ؛ أحمد زيني دحلان ، « الدرر السنية في الرد على الوهابية » ؛ يوسف النبهاني ، « شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق » .

٢ أبو زهرة ، المذاهب الإسلامية ص ٢١٥ .

ولا يستقل بالاستدلال ، بل يقرب معاني النصوص . وقد درسوا الوحدانية ، والصفات ، وأفعال الإنسان ، وكون القرآن مخلوقاً أو غير مخلوق ، ورؤية الله يوم القيامة ، وشفاعة الرسول ، وأفضل الصحابة ، والبدع المستحدثة ، وطاعة الإمام والجهاد معه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [1] .

الوحدانية : ويراها محمد بن عبد الوهاب كما يراها المسلمون جميعاً الأساس الأول للإسلام، وذلك حق لا مجال فيه للريب . ويفسر معنى الوحدانية تفسيراً يتفق في جملته وما يقرره المسلمون جميعاً . ولكن الشيخ يلح على مسألة هي : أن التوسل إلى الله بأحد من عباده الذين مضوا إلى ربهم مناف للوحدانية ، ويعتقد أن توجه الإنسان بالدعاء إلى الله تعالى مستقبلاً ضريح نبي أو وليّ مناف لها .

والوحدانية لها شُعَب ثلاث : **وحدانية الأسماء والصفات** : ويعني بذلك الإيمان بكل ما ورد في القرآن والأحاديث الصحيحة من صفات الله ، ووصفه بها على الحقيقة . **ووحدانية الربوبية** : وتكون بتوحيد الله بأفعاله كالخلق والرزق ، والإحياء ، وإنزال الغيث ونحو ذلك . وهذا القسم لا اختلاف فيه بين المسلمين وغيرهم من الملل الأخرى . **ووحدانية الألوهية** : وهي توحيد الله بأفعال العباد التي تعهدهم بها وشرعها لهم . وهذا القسم هو الذي يدخل

---

١ كتاب التوحيد ص ٣ ؛ محمد بن عبد الوهاب ، رسائل في عقائد التوحيد ص ٣٣ ؛ التوضيح ص ٥٥ ؛ ابن غنام ص ٢٩٣ ؛ الألوسي ، تاريخ نجد ص ٨٨ ؛ ديوان ابن مشرف ص٢٢ ؛ مجموعة التوحيد – الرسالة الأولى – ص ٥٧ ؛ محمد بن إبراهيم، فتوى في شرب الدخان ص ٣ ؛ ومجموعة ثلاث رسائل المفتي ص ٦١ ؛ الريحاني ، تاريخ نجد ص ٣٠١ ؛ عبد الرحمن نصر ، عاهل الجزيرة ص ١٠ ؛ أحمد أمين ، زعماء الإصلاح الحديث ص ١٨ ؛ إبراهيم عبده ، إنسان الجزيرة ص ١٧٧ ؛ العجلاني تاريخ البلاد السعودية ١/٢٥٩ ؛ الشيال ، الحركات الإصلاحية ص ٥٥ ؛ الربكي ، لمع الشهاب ص ٥٣٢ . Pareja, Islamologie, p. 716; Corancez, Histoire. . . p. 19.

الرجل في الإسلام .

ويعدد الشيخ العبادة التي لا تصلح إلاّ لله فيذكر : الدعاء ، والاستعانة ، والاستغاثة ، وذبح القربان ، والنذر ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والإنابة ، والمحبة ، والخشية ، والرغبة ، والرهبة ، والتألـّه ، والركوع ، والسجود ، والخشوع ، والتذلل ، والتعظيم . . . وأنّ مَنْ صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فقد وقع في الشرك[1] .

لقد عكف أبناء الشيخ وأتباعه على تعميق ما جاء به الداعية ، ويؤخذ من رأيهم : أنه يجب أن يُثبَت لله كل ما جاء في القرآن والسنة من صفات ، وأسماء ، وأخبار ، وأحوال ، من غير تأويل ولا تفسير بغير الظاهر ؛ فلله يَدٌ لكن من غير كيف ، ولا تشبيه ، وله وجه ، وفوقية ، ونزول وغير ذلك من ظواهر النصوص القرآنية[2] .

هذا الاتجاه في تفسير صفات الله قديم . عُرف عن المحدّثين كالإمام أحمد بن حنبل وأتباعه[3] ، وكان لهم فيه مع علماء زمانهم كلام كثير . وكرره ابن تيمية في القرن الثامن الهجري[4]. وعاد ابن عبد الوهاب إليه في القرن الثاني عشر .

أما الجديد فهو تفسيره « وحدانية الألوهية » ويفهم . من أقواله فيها ألا يتجه العبد بالعبادة لغير الله . وذلك يقتضي أمرين : **أحدهما** ألا يعبد إلاّ الله وحده ، ولا يعترف بالألوهية لغيره سبحانه . ومن أشرك في العبادة مع

---

١ كتاب التوحيد ص ٥ .

٢ ابن غنام ص ٢٩٣ ؛ ابن مشرف ، ديوانه ص ٢٢ ؛ الألوسي ، تاريخ نجد ص ٨٨ ؛ التوضيح ص ١١٧ ؛ أبو زهرة ، المذاهب الإسلامية ص ٢١٥ وما بعدها .

٣ أبو زهرة ، أحمد بن حنبل ص ٤٣ ؛ أحمد أمين ، ضحى الإسلام ٣/٢٦ وما بعدها .

٤ ابن تيمية ، مجموعة الرسائل الكبرى ١/١١١ ، الإيمان ص ١١٧ .

الله تعالى شخصاً أو شيئاً ، فقد أشرك . ومن سوّى بين المخلوق والخالق في شيء من العبادة فقد جعل مع الله إلهاً آخر ، وإن كان يعتقد بوحدانية الخالق ؛ فإن مشركي العرب كانوا مقرّين بأن الله وحده هو خالق السموات والأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾[1] وسُمّوا مع ذلك مشركين لأنهم يعبدون مع الله إلهاً غيره[2] .

وثانيهما : أن يعبد الإنسان الله بما شرعه على ألسنة رسله ، ولا يعبده إلاّ بواجب أو مستحب أو مباح قُصد به الطاعةُ وشكر الله تعالى . والدعاء من جملة العبادات ؛ فمَن دعا المخلوقين من الموتى ، واستغاث بهم ، كان مبتدعاً في الدين ، مشركاً برب العالمين ، متّبعاً غير سبيل المؤمنين . وصحيح أن لبعض الناس كرامات تجري على يديه خوارق العادات ، ولكن ذلك لا يسوغ أن يُتخذ وسيلة لله سبحانه وتعالى ، إذ إن التوسل بالموتى غير جائز ، كذلك الاستغاثة بالأموات توقع في الشرك، كما لا يجوز النّذر للقبور، فإذا كان ، فقد أشبه النذر للأوثان[3] .

ومن الشرك زيارة قبور الصالحين والأولياء والأنبياء بقصد التبرك أو التيَمّن أو التقرب إلى الله تعالى ، أما إن كان القصد للعظة والاعتبار فهو جائز ، والنبي صلى الله عليه وسلم نهى عن أن يُتّخذ قبرُه مسجداً حتى لا يزار ، وأن الصحابة كانوا إذا سلّموا على النبي صلى الله عليه وسلم بعد مماته ، وأرادوا الدعاء دعَوْا مستقبلين القبلة[4] .

---

١ لقمان ، ٢٥ .

٢ مجموعة التوحيد ص ٧٦ ؛ محمد أحمد باشميل ، لهيب الصراحة ص ١٨ وما بعدها ؛ Pareja, Isl. p. 715.

٣ مجموعة التوحيد ص ١٩ .

٤ مجموعة التوحيد ص ٨٠ ، ٢٤٦ ، ٢٦١ ، ٢٩٣ ؛ التوضيح ص ١٢٨ .

وقد سبق ابن تيمية الشيخ محمداً بهذه الآراء[1] . وكان كل من الداعيتين يتمسك بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية وسيرة السلف الصالح من المسلمين الأوائل . وواجه كلٌّ من المصلحَين ما يواجهه المصلحون من افتراء، وتعذيب ، وتشريد ، وتشويه لدعوته ، وإثارة فتن واضطرابات ، ومؤامرات ضده وفي وجهه . ولقد اقترنت خصومة ابن عبد الوهاب بمجابهة أدبية وسياسية وحربية .

ولا جديد في بقية التعاليم . فمذهب أحمد بن حنبل من قبل ، وابن تيمية من بعد ، الأساس الذي يعتمد عليه ابن عبد الوهاب ، وتبقى مشكلة « **البدع** » فقد توسع أتباع الشيخ في معناها توسعاً كبيراً . وفي سبيل إزالة البدع هدموا القباب ، ومنعوا التذكير قبل الأذان ، والصلاة على النبي بعده ، والاحتفال بمولد الرسول، وبهرجة المساجد، والمَحْمَل ، والتدخين ، وبعض ألوان الحضارة وغيرها . وحين ندرس هذه القضايا في ضوء الشريعة الصافية لا نجد لها أساساً، بل نعتقد مع أصحاب دعوة التوحيد أنها بدع لا مراء في ذلك[2]. وتوهم المتعصبون أن كل أمر لا صلة له بالعبادات بدعة ، وحملوا السيف لمحاربة المبتدعين مدّعين أنهم يحققون قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾[3] . وكانت حماستهم في ذلك لا تدانيها حماسة ؛ ولهذا السبب زعم بعض المستشرقين : « أن الفرق بينهم وبين سائر المسلمين يَكمُنُ في هَدْم القباب ، وأنهم لا يؤمنون بمحمد رسولاً لله، بل رجلاً حكيماً،

---

١ ابن تيمية ، مجموعة الرسائل والمسائل ١/٥٥ .

٢ مجموعة التوحيد : ١٢ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٢٧٣ ، ٢٩٦ ، ٥٠٤ ، ٥١٠ ؛ مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٢٧٣ ، ٤٢٢ ؛ وانظر كافة الكتب التي تعرضت للدعوة .

٣ آل عمران ، ١١٠ .

وتقتصر وظيفة الإمام على قراءة القرآن ، والصلاة بالناس ، ومراقبة هلال رمضان، ومنع الخمور والتبوغ »[1] . ولا ريب أن في زعم هؤلاء المستشرقين الكثيرَ من التجني .

آثار الدعوة

لقد تعلق الناس في الجزيرة العربية بآراء ابن عبد الوهاب ، وتشددوا فيها، وحَرص علماؤهم على بثها في نفوسهم، وكان ذلك سبباً في أن أوجد فيهم ثقافة مع أمّيتهم ، ولم تكن هذه الثقافة لغيرهم من سكان الجزيرة العربية وما إن صار لهم السلطان في أكثر أصقاعها حتى نشروا هذه الثقافة في الربوع التي دانت لهم ، وكان الجهل يسيطر عليها ؛ ولكنها كانت ثقافة دينية حدودها تعاليم الشيخ ، وابن تيمية ، ومذهب أحمد بن حنبل .

والتزام الحكومة بهذه التعاليم جعلها تنفذ في أقضيتها وعبادتها المذهب الحنبلي ، كما تنفذ الحدود تنفيذاً صحيحاً كاملاً . فالحدود فيها قائمة ، ومعالم الشريعة معلنة ، وأزيل من البلاد كل ما توهم فيه شرك أو ذريعة إليه . وبرز المظهر الديني بروزاً كبيراً حتى ليلفت نظرَ الزائر الغريب وجود « المُطوّعين »[2] وهم ينبهون الناس قبيل كل صلاة إلى إغلاق حوانيتهم ليتوجهوا إلى المساجد ، ويؤدوا صلاتهم جماعة . وتتوقف كل حركة في البلاد إنْ في التجارة أو في الوزارات والمؤسسات في ذلك الحين .

وأجبرت الدعوة الناس على حل قضاياهم ومنازعاتهم عن طريق القضاة والشرع بدلاً من اللجوء إلى الوسائل الشخصية ، كما ألغت حق القبيلة في

---

١ Burckhardt, Notes . . v. II p. 439; Corancez, p. 5.

٢ المطوّع : رجل يقوم بواجب الشرطي إلا أنه مختص بالأمور الدينية .

حماية المجرم من العقوبة ، وحمّلتها تبِعة العداء الشخصي [1] .

ومن الآثار الجليلة لها : قضاؤها على حياة التشرد والارتحال في البادية ، وقد كان أكثر البداة لصوصاً أو مجرمين ، لا تصل إليهم يد السلطة ، ولا ينالهم عقاب ، ولا يردعهم وازع ؛ ولما تمكنت منهم أذاقت قلوبهم حلاوة الإيمان ، ثم أدخلت في رَوْعهم أن البادية مهد الشرك،والهجرة منها هجرة إلى الله ورسوله ، وهيأت لهم السلطة أرضاً زراعية ، وبنت لهم عليها بيوتاً ، ومساجد ، ودعتهم إلى بيع إبلهم لأنها وسائل رحلتهم ، فسمعوا وأطاعوا وباعوا،فضمنت استقرارهم ، وثباتهم على التقوى ، ثم هيأتهم لأن يكونوا جنود الدعوة في الحرب ، وحماتها في السلام ، فانقلبوا إلى حماة للأمن بعد أن كانوا العابثين فيه .

كذلك ربطت هذه العقيدة الإنسانَ في الجزيرة العربية بالله ، يعِزّ ويذِل ويخضع ويخشع له وحده . وعلّمته ألاّ يرهب سطوة مخلوق، وألاّ يخشى بطش أحد . وطرحت من عالمه كل وسيلة قد تقوده إلى الجبن والخوف ، أو تُسلِمه إلى الضعف والهوان ، أو تحنيه أمام حجر أو شجر يتوسل به . وفتحت الدعوة أمامه أبواب السماء، وشدت عينيه إليها، ودفعته ألاّ يلتمس إلاّ الله وحده . فعلمته العزة في الحياة ، ثم وَسَمَتْه بِميسم الرجال .

وممّا يؤخذ على بعض المتعصبين من رجال هذه الدعوة أنهم وقفوا أمام الحضارة الحديثة ، ومنعوها أن تلج أبواب البلاد السعودية ، وكاد هؤلاء المتعصبون أيام الملك عبد العزيز يقوّضون ما بناه طَوال خمسين عاماً ؛ ولولا أنه اتّبع سبيل الحكمة معهم ، ثم استغل فرصة عصيان هؤلاء المتعصبين لأمره لتغير وجه البلاد ، وعادت إلى ما كانت عليه من فوضى . ولكن الله سلّم .

---

[1] معلومات استقيناها من الحياة الواقعية خلال وجودنا في أرض السعودية .

وقضت حكمة عبد العزيز وأناته وحزمه على تسرع المتعصبين والجاهلين . وسارت البلاد في مضمار الحضارة . ثم التف الجميع حول الرائد، وشاركوا جميعاً في دفع البلاد نحو الحضارة والتقدم والازدهار .

وأخيراً، فإن التعاون الذي نشأ بين ابن عبد الوهاب وابن سعود، واستمر في حياة أبنائهما وأحفادهما، جعل الثقة بين هاتين الأسرتين قوية ومتبادلة ومستمرة. وإذا كانت الأسرة السعودية مهتمة في المقام الأول بإدارة دفة الحكم ، وتوجيه السياسة، وتطوير المجتمع ؛ فالأسرة الدينية تشرف على شؤون الإفتاء والقضاء ، وتعليم البنين والبنات ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ورعاية المصالح الدينية لجميع المواطنين .

الفصل الثالث

الدعوة في الأدب

هذا الفصل محاولة جديدة لكشف دعوة محمد بن عبد الوهاب من خلال النصوص الأدبية وحدها . وهو تتبع لتطور هذه الدعوة في العهود المختلفة من أدوار الحكم السعودي ، ورَصْد لمواقفها من الأنصار والخصوم في داخل الجزيرة وخارجها بعد معركة الدِّرعية إلى يومنا هذا . اعتمد البحث فيه على الآثار الأدبية دون سواها من كتب التاريخ أو العقيدة .

وليس المقصود من هذا الفصل تفصيل الدعوة من جديد ، ولكن الغاية منه كشف لون من ألوان الأدب ، ظهر في أيام ادلهمّت الخطوب فيها ، فعبَّر عنها بصدق وإيمان ، وكان يتخذ الشعر مطية ، وينأى عن ركوب النثر . ولهذا الشعر سمات وخصائص توجب على مؤرخ أدب الجزيرة الاهتمام به ووضعه موضع الاعتبار والدراسة .

وهو – في الوقت ذاته – أثر من آثار الفصلين السابقين : التاريخ ، والعقيدة ، وتتمة لهما ؛ لأن فيه رصداً للأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية – بعد دمار الدِّرعية – أهمل الحديث عنها المؤرخون ، أو شوّهوا حقيقتها ؛ متأثرين بفرط الحب أو بفرط البغض .

وكم يحز الأسى في نفوسنا حين نقف أمام صورتين أدبيتين لهذه الحقبة ، رُسِمت الأولى باللهجة الشعبية للجزيرة ، وصُوِّرت الثانية باللغة الفصيحة ، فنشعر بالمرارة لاضطرارنا إلى الاقتصار على الثانية ، وإهمال الصورة الشعبية

لأننا لا نُلمّ بمعانيها ، ولا نفهم لهجتها . ونحن واثقون بأن فيها من العطاء والثراء الشيء الكثير . وكم نتمنى أن يأتي بعدنا من يفهمها، فيتدارك النقص الذي به نعترف .

بدأت بواكير هذا الشعر تظهر في حياة محمد بن عبد الوهاب ، وكان مصدرها اليمن ، على لسان أمير يدعى محمد الصَّنعاني [1] ، مَدحَ شيخَ نجد ، وأثنى على دعوته وذم خصومه ، وبخاصة مَن كان يقول بوحدة الوجود [2] . ثم توالت القصائد من شتى أرجاء الجزيرة ، تختلف في ألفاظها ، وتتفق في مضامينها ، مديحاً ، أو رثاء ، أو هجاء .

وحين مات « الشيخ » نزل إلى ميدان هذا الأدب شاعر أحسائي، يدعى « ابن مُشرَّف » [3] فتسلم راية الدفاع عن الدعوة ، في وقت سكت فيه الشعراء

---

١ هو محمد بن إسماعيل الحسني الكحلاني ثم الصنعاني المعروف بالأمير . مجتهد من بيت الإمامة في اليمن . يلقب « بالمؤيد بالله » ابن « المتوكل على الله » له نحو مئة مصنف . أصيب بمحن كثيرة من العوام . توفي سنة ١١٨٢ هـ/١٧٦٨ م . (ابن بشر ١/٥٠) .

٢ يبدو أن المقصود بالذم ابن عربي، محيي الدين ، صاحب كتاب « الفتوحات المكية » وكان محيي الدين يتّهم بأنه يقول بوحدة الوجود . (ابن بشر ص ٥٢) .

٣ هو أحمد بن علي بن حسين بن مشرف الوهيبي التميمي. ولد بالأحساء في أوائل القرن الثالث عشر الهجري. وتوفي سنة ١٢٨٥ هـ/١٨٦٨ م بالأحساء. له ديوان شعر اسمه « ديوان ابن مشرف » طبع مرات عدة . والطبعة الثالثة التي اعتمدنا عليها نشرتها « مكتبة الفلاح » بالرياض وطبعتها في مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة، وهي طبعة رديئة مليئة بالأخطاء. عدد قصائد الديوان خمسون قصيدة ، وعدد أبياتها ٢٦٢٠ بيتاً . خمس منها تجاوزت التسعين بيتاً ، وقصيدة « نغمة الأغاني » بلغت ٦٧٥ بيتاً ، و « جوهرة التوحيد » بلغت ٢٣٨ بيتاً ، وباقي القصائد تتراوح بين الثمانين والثمانية أبيات . أما موضوعات القصائد فقد وزعت على الشكل التالي : ٦ في تقرير دعوة ابن عبد الوهاب ، ٤ في مدح آل الشيخ ، ١٧ في مدح فيصل ابن تركي ، ٢ في مدح عبد الله بن فيصل ، ٣ في مدح الأمير السديري، ١ في مدح الرسول ص ، ٥ في جور عمال فيصل والشكوى من الأعراب، ٤ في رثاء العلم وغربة الدين =

كافة؛ لأن صليل سيوف المصريين، ودويّ مدافعهم أخرسا الألسنة الداعية، بل قطعاها. وإذا كان لابن مشرّف فضل، فهو يتجلى في رسمه الصورة كاملة لمجتمع دبت فيه الفوضى، وساد الذعر، وأريقت فيه الدماء غزيرة، وتولى حكمه رجال اتّسموا بالضعف وآثروا السلامة، ورضُوا بالواقع المر، وعملوا على ضياع ملكهم بأيديهم. ومثل هذه الصورة لا تعكسها دقيقةً كتب التاريخ، ولا ترويها مؤلفات الأنصار والخصوم لدعوة ابن عبد الوهاب. وحين أسلم هذا الشاعر الروح إلى بارئها، تسلّم الرايةَ شاعران. أخذ الأول وهو: «سليمان بن سَحْمان»[1] جانب المعركة الفكرية الدائرة بين قومه وأعدائه. وأخذ الثاني وهو «ابن عُثَيمِين»[2] جانب المعركة السياسية الدائرة رحاها

= والمواعظ، ١ في هجاء عثمان بن سند البصري، ١ في تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، ١ في تاريخ بناء جامع الهفوف.

١ ولد بقرية «السقا» من أعمال «أبها» في عسير سنة ١٢٦٩ هـ/١٨٥٢م، ونشأ في قريته حتّى راهق البلوغ، ثم انتقل مع والده إلى الرياض أيام الإمام فيصل بن تركي، وأخذ عن الشيخين: عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، وحمد بن عتيق. من مؤلفاته: «الألسنة الحداد في الرد على باعلوي الحداد» و «الضياء الشارق في رد شبهات المازق المارق» ويقصد به جميل الزهاوي، و «تنبيه ذوي الألباب السليمة عن الألفاظ المبتدعة الوخيمة» و «الهدية السنية» و «إقامة الحجة والدليل» و «الصواعق المرسلة» و «إرشاد الطالب» وغيره. أما ديوان شعره فاسمه «عقود الجواهر المنضدة الحسان» وقد طبع في المطبعة المصطفوية ببمباي بالهند سنة ١٣٤٣ هـ، (وهو الذي سنعتمد عليه في شواهدنا). توفي ابن سحمان سنة ١٣٥٠ هـ/١٩٣٠م. بلغت قصائد عقود الجواهر ١٠٨ قصائد وعدد أبياتها ٨٠٩٨ بيتاً، ومعظم الديوان في شرح عقيدة ابن عبد الوهاب ومدح رجال الدعوة وأنصارها، وهجاء خصومها. (مقدمة ديوانه).

٢ هو محمد بن عبد الله بن عثيمين، ولد بالسلمية من أعمال «الخرج» سنة ١٢٧٠ هـ/١٨٥٣م ونشأ يتيماً عند أخواله، وكان موطن أبيه «حوطة بني تميم» الواقعة جنوب الرياض، تعلم في السلمية وأخذ فيها عن الشيخ عبد الله الخرجي ثم رحل إلى «أم القيوين» و «قطر» وعاد إلى «الأفلاج»، وأخذ من علماء كل منها. ويظهر أن صداقته للشيخ الخرجي أفادته=

بين عبد العزيز وأعدائه في أرجاء الجزيرة العربية .

إن رصد الدعوة من ثنايا هذا الأدب يقفنا على مشاهد ما كنا نشهدها لولاه ، ويضعنا وجهاً لوجه أمام العواصف التي عصفت بالجزيرة ، وجعلتها تجابه عدا الهجمات العسكرية جحافل فكر ، وصدمات رأي ، فتلتوي أمامها ، أو تنحاز عنها . ومثل هذه المعارك الفكرية لم تظهر إلاّ في قصائد ابن سَحْمان أولاً ، وابن عُثَيْمِين أخيراً ؛ ولهذا السبب فإن اعتمادنا لَيَنْصب على ما نظمه الثلاثة دون غيرهم ، وفيهم الغَناء الكافي .

زادت أبيات هذا الثالوث من الشعراء على ثلاثةَ عشرَ ألفَ بيت . ألفان وخمسمائة بيت قالها ابن مشرّف ، وثلاثة آلاف لابن عُثَيمين ، وما تبقى فهو ثمانية آلاف لابن سحمان . ولم تكن جميعها في شرح « الدعوة » بل ورد فيها غزل ، ووصف ، وحكمة ، وفخر ، وشكوى وأمور أخرى . لكن الحديث في « العقيدة » كان أكثر وأغلب . ومن هذا الجانب نختار ونجني ثمرات آرائهم في نقاط ثلاث : **عقيدة التوحيد ، وصفات الكافرين والمسلمين ،**

= إذ عرفه حاكم قطر وأبناؤه ، فأحبوه وأحبهم ، كما تعرف حكام البحرين آل خليفة ونال جزيل عطائهم . وحين ذاعت أخبار انتصار عبد العزيز آل سعود قدم إليه ابن عثيمين فمدحه . وظل يفد عليه كل عام فيمدحه بقصيدة أو أكثر . ولما بلغ الشاعر الثمانين اعتكف في منزله إلى أن وافته المنية سنة ١٣٦٣ هـ/١٩٤٣ م . جمع ديوانه سعد بن عبد العزيز ابن رويشد وشرح بعض ألفاظه ومعانيه ، وأشرف على طباعته الأنيقة بدار المعارف بمصر بعد أن تبرع الشيخ عبد الله السليمان آل حمدان بنفقات الطبع . وذكر سعد في مقدمته أن عدداً من قصائد الشاعر في اللغة الفصحى قد ضاع ، كما ضاع أكثر شعره في اللهجة العامية ، ولم يتمكن من العثور إلا على خمس وأربعين قصيدة . كانت أربع وعشرون منها في مدح الملك عبد العزيز ، وست في مدح ولده سعود ، وثلاث في مدح آل خليفة ، وأربع في مدح آل ثاني ، وسبع في الرثاء ، وواحدة في الحث على اتباع الشرع . وتتميز القصائد عامة في ديوانه بطول النفس . (مقدمة ديوانه) .

وصورة الوضع الاجتماعي والسياسي في عصرهم .

أما النقطة الأولى ؛ فلنا أن نجعلها في المقام الأول لأن ابن مشرّف وابن سَحْمان جعلاها فيه ، وإنها لتتفق في خلاصتها وما جاء به « ابن عبد الوهاب » لكن الذي يسترعي الانتباه كثرة ترديدهما تلك الفكرة ، ففي كل قصيدة شرح لتوحيد الألوهية ، وفي كل مناسبة إعادة للحديث ذاته ، حتى إن ابن سَحْمان أوردها بعينها في اثنتين وأربعين قصيدة ، بلغ عدد أبياتها خمسة آلاف وأربعمائة وواحداً وثلاثين بيتاً[1] .

ونتساءل عن الداعي لهذا الترداد ، أو لم تكن تكفي قصيدة واحدة لكل من الشاعرين لبسطها وتوضيحها ما دامت الفكرة هي ذاتها ؟ ونفتش عن العلة ، فيخيل إلينا أن لكل من الرجلين عذراً ؛ **فابن مشرف** يعيش في « الأحساء » وهي منطقة تعج بالشيعة ، وموقفهم من الدعوة مفصل في الكتب التاريخية . ثم إن الأحساء في عصر ابن مشرّف كانت تحت الاحتلال العثماني ، وقد سبق أن جرت الدماء غزيرة بينهم وبين رجال الدعوة ، وها هم أولاء اليوم في الأحساء الأقوياء الأغنياء القادرون على إقناع الجهال والضعفاء والغوغاء بصحة ما يفترون ويزعمون . يضاف إلى ذلك عامل ثالث هو انتشار الجهل ، وقلة العلماء ، وندرة الذين يدفعون عن « العقيدة » أذى الخصوم وبأسهم . وتلك عوامل تمنعها من أن تنتشر وتذيع ، وتسلم من التحريف والتشويه .

لهذه الأسباب – أو لغيرها – رأى ابن مشرّف أن نظمها شعراً قد يساعد على سهولة حفظها وروايتها في وقت لم تعرف الأحساء المطبعة ولا الصحافة ولا وسائل النشر والإعلان والإذاعة ، والشعر أقرب إلى النفوس من حيث

---

١ المشهور عن ابن سحمان أنه طويل النفس في قصائده ، حتى إن إحداها بلغت (٥٣٠) بيتاً ، وفي ثنايا هذه القصائد يأتي الرد على بعض خصوم الدعوة من الأحياء والهجوم على الأموات ممن اختلفت عقيدتهم عن عقيدته .

التلقي والحفظ والنقل ، وهو أصون للفكرة من النثر .

أما سبب إكثار ابن سحمان من ترديد الحديث عنها فيظهر أن مرده لعوامل أخرى ، منها أنه عاش في زمن متأخر – نسبياً – عن ابن مشرّف ، وقد عاصر عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وشهده يجمع أطراف الجزيرة ويرفع عليها رايته ، ويثبت فيها « عقيدة التوحيد » مرة أخرى، وذلك يغري نفراً من شعراء البلاد العربية المجاورة الذين لا يؤمنون بما يؤمن به عبد العزيز وابن سحمان أن ينظموا في هجاء « الدعوة » . وتصل هذه القصائد إلى الشاعر – وما كان أكثرها – فيردُّ عليها واحدةً واحدةً محافظاً على الرويّ والوزن والأسلوب . ومنها أن الهجاء يرِد من الخارج بالقالب الشعري، وفيه أفكار وحجج[1]، ولا بد للرد عليه من أن يكون بالقالب نفسه، وفيه مع الرد وتبادل الهجاء شرح مفصل للعقيدة ، كما هي، لا كما وردت في معرض الخصوم . والمعروف أن القصائد المعادية لا ترد من بلد واحد حتّى يكتفي بواحدة ، بل إنها لتنهال غزيرة من بلدان عدة ، فهو مضطر أن ينظم الرد لشاعر كل بلد . وبهذا النظم المتعدد يمكن أن يكون بعض تعليل لكثرة شرح العقيدة عند ابن سَحمان .

إن النقطة التي ركّزت عليها القصائد والدعوة ذاتها هي « **الشرك** » ونحن نقول : إن القصائد بالغت في التركيز عليه، وفي توضيح مدلوله الشرعي الذي يتلخص في أنه : ليس المشرك من اتخذ مع الله إلهاً آخر ، بل إن محتوى معنى كلمة الشرك أكبر من ذلك وأوسع ؛ إن الشرك قسمان : أصغر وأكبر . **فالأول** يمكن أن يغفره الله كالرياء ، والتصنّع للخلق ، وردّ الأمور إلى الأسباب لا إلى الله كأن يقول قائل : ربحت هذا المال بمعرفتي أسرار التجارة،

---

[1] كان بودنا إيراد بعض قصائد الخصوم التي رد عليها ابن سحمان لولا خشية الإطالة ، والخروج عن الغرض الرئيسي للفصل .

وهذه الثروة حصلت بتعبي وكَدّ يميني ، وأكلت الطعام فأشبعني ، وشربت الدواء فشفاني ، ولو فعلت كذا لكان كذا ، كذلك الحلف بغير الله كقول حالف : وحقك أنت المنى والطلب ، وغير ذلك[1] . **والشرك الأكبر** هو الذي لا يغفره الله بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[2] . والمشركون – في عُرف الدعوة – من أنكروا وحدانية الله، وخاضوا في صفاته بطريقة لا تتفق وما كان عليه السَّلَف[3]، وأشركوا في عبادته شيئاً آخر كالتعظيم والتقديس والتوسل وما إليها . وهؤلاء « المشركون » مهما عملوا خيراً ، ومهما صاموا وصلّوا فذلك لا يُجْدِيهم فَتيلاً ، ولو شادوا المساجد ليُتلى فيها ذكر الله؛ لأن الآية الكريمة ﴿إنَّما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ﴾[4] لا تنطبق عليهم ، وإنما التي تنطبق عليهم ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلى الَّذينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾[5] ذلك لأنهم يبنون المساجد ، ويتخذون عليها قباباً ، ويبنون

---

١ قال ابن مشرف في جوهرة التوحيد :

والشِّركُ نوعان فشركٌ أصغرُ ... وضدُّه وهو الذي لا يُغْفَرُ
فالأصغرُ الريــاء والتصنُّــعُ ... للخلق ، والسمعة ممّن يسمعُ
ونِسْبَةُ الشيء إلى الأسبابِ ... مُنْخَرِطٌ في سِلك هذا البابِ
نحوَ أصبت المال بالتكسب ... أنّى لِيَ الثروة لولا تعبي ؟
ومنه أيضاً قول لو كان كذا ... لكان هذا ولم يكن كذا
والحَلْف من ذاكَ ولو بمحترم ... شرعاً وكفر إن يكن بالكالصنم
فالحَلف مطلق بغير الله ... شرك بلا شك ولا اشتباه

٢ النساء ، ٤٨ .

٣ سيرد بعد قليل أمر الباحثين في صفات الله .

٤ التوبة ، ١٨ .

٥ التوبة ، ١ .

فيها مزارات ، ليطاف حولها، ويُقدَّم لها النذر والذبائح وألوان القُربات . كلُّ أولئك شِرْك كبير [1] .

لهذه النظرة الخاصة إلى الشرك ، رفع ابن مشرّف عقيرته مطالباً الإمام فيصل بن تركي بهدم عين مياه كبريتية حارة في الأحساء تدعى « عين نجم »؛ لأن الناس يأتونها مستشفين . مع أن الذي يشفي هو الله جل جلاله ، وخَشية أن يقعوا بمجيئهم إليها في الشرك فلتُردَم العين وليُهدم البناءُ حولها ؛ وعلى الرغم من أن عدداً من رجال الدين الأحسائيين كانوا يرون فيها قدرة من قدرات الله ، ودليلاً على وحدانيته وخلقه المعجزات ، وزيادة في إيمان الخلق بالله فالعين قد هدمت ، وكان خرابها فرحة غنّى لها الشاعر طويلاً [2] .

---

١ قال ابن مشرف في القصيدة الرابعة في معرض رده على عثمان بن منصور :

وأثنى عـلى قوم طَغامٍ بكونهم ... بنَوْا في القرى تلك المساجد للذكر
كأنْ لم تكن تُتْلى عليه (براءة) ... ولم يتل فيها (إنما) سائر العمر
ولم ينظر الشركُ الذي فيهم فشا ... فكم قبة قد شيدوها عـلى قبر
وطافوا عليهـا خاشعين تقربـا ... إلى ذلك المقبور بالذبح والنذر
وكم سألوا الأموات كشف كروبهم ... ولا سيما في الفلك في لجج البحر
فزادوا على شرك الأوائل إذ دعوا ... سوى الله في حال الرخاء وفي العسر

٢ قال ابن مشرف في القصيدة السابعة يبين سبب بغضه لها :

ألا فاتركا عيناً تُضاف إلى نَجْم ... فقبتُها بالهدم أولى وبالرَّجْم
لأن بها مأوىً لمن يقصدِ الخنـا ... وكم فعلوا فيها من الرقص والاثم
.. فيا طالباً منه الشفاء بزعمه ... جَهلْتَ، فمافي مثل هذا سوى السُّقم
ومن يعتقدْ فيه الشفا لم يزل عـلى ... شفا جُرُفِ الإشراك جهلاً بلا علم
وانْ ظنها تَشْفي العليل بسرها ... فهذا اعتقاد المشركين بلا وهم

وقال في القصيدة الثامنة يعبر عن فرحته بهدمها :

.. وسار في عصبة للهدم عامدةٍ ... بآلة الهدم والتخريب والحَيْنِ =

والمسألة الثانية التي كثر تركيز الشعراء عليها « **صفات الله** » . وقد سبق في الفصل السابق أن فصّلنا رأي « الشيخ » فيها ، وربطناها برأي ابن حنبل أولاً ، وابن تيمية من بعده . وكان خلاصة ما ذكروا : أن تفسير كل آية ورد فيها ذكر لوجه الله أو يده ، أو رجله أو استوائه على العرش ، فقراءتها تفسيرها ولا شيء أبعد من ذلك . فالله ﴿ ليس كَمِثْلِهِ شيء ﴾[1] . ومن هذا المنطلق تدرجوا إلى الإنسان ، أمُخَيَّر هو أم مُسَيَّر ؟ أيرزق الله الحلال والحرام ؟ أيدخل الرجلُ الجنة بعمله أم بفضل ربه عليه[2] ؟ . . وكان موقفهم منها موقف ابن حنبل والسلفيين من بعده .

ثم جاءوا إلى « القرآن الكريم » و « الكتب السماوية » المقدسة من توراة ، وإنجيل ، وزبور ، وصحف إبراهيم وموسى ؛ فرددوا ما قاله ابن حنبل ، وزادوا عليه بأن المخلوق فيها صوت القارىء ، والحبر والورق لا غير[3] .

= فغادروها كبنيـــان الذين بنَوْا   على شفا جُرُفٍ للشك والرَّيْنِ
بــأمر والٍ طبيب في رعيتــه   مبــارك الأمــر محمود الفعالين

١ الشورى ، ٤٢ .

٢ قال ابن مشرف في القصيدة الثالثة :

. . . والله خالق أفعال العباد ومـا   يجري عليهم فعَنْ أمر الإله جرى
ففي يديه مقادير الأمور وعن   قضائه كل شيء في الورى قُدِرا
فمَن هـَدى فبمحض الفضل وفقه   ومن أضَلَّ بعدل منه قد كفرا
فليس في ملكه شيء يكون سوى   ما شاءه الله نفعاً كان أو ضررا

٣ قال ابن مشرف في جوهرة التوحيد :

والصحف والتوراة والزبــور   وبعده الإنجيل والمسطور
أعني كتابَ أحمدَ الأوّاه   جميعها عين كلام الله
لفظاً ومعنى عند أهل الحق   وإنما المخلوق صوتُ الخَلْق
وحبرهم والخط والسجلُّ   قضى بهذا العلماء الجُلُّ =

ونستشف من ثنايا شعر ابن مشرّف وابن سحمان موقفهما بل موقف «الدعوة» الأصيل من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . خلاصته أنه عرّج إلى السماء بروحه وبجسمه لا بروحه فقط كما قال الزهاوي ، فكفر [1] . وهو حيٌّ في قبره ، لكنّ حياته فيه لا تشبه التي عاشها فوق الأرض ، وليس – كما زعم الزاعمون – يصوم في قبره ويحج ويعتمر [2] . وكم فصّل ابن سحمان – خاصة – في أمر الزيارة. إنها – في شعره – يجب أن تكون لمسجده النبوي وللصلاة في روضته، لا أن تكون لذاته ، أو لقبره . وممّا يتضح من قول الشاعر : أن الزائر عليه أن يؤدي واجب الصلاة في مسجد الرسول الكريم، ثم يتقدم من قبره متأدباً ، خاضعاً ، منكس الرأس ، دامع العينين ، فيبدأ

= فالصوت للقارىء والكلام ... لله ذا بـه استقاموا
فاللفظ والمعنى من القرآن ... قد نزلا من ربنا الرحمن
فمنْ يَقُلْ بأنه قولُ البشر ... فكافر والله يصليه سَقَر
ومـن يقُل بخلقه أو سطره ... فهو مُضِلٌ فاستعذْ من شره

١ قال ابن سحمان في القصيدة السابعة عشرة :

ومعراج الرسول إليه حق ... بذات المصطفى نحو العوالي

وقال في السادسة عشرة يهاجم الزهاوي :

وأنكرَ معراجَ الرسولِ حقيقة ... بذات رسول الله سُحقاً لمارق

٢ قال ابن سحمان في القصيدة التاسعة يرد على يوسف النبهاني والفويرط :

فقالا بأن المصطفى سيد الورى ... لفي قبره يشاهِدُ مَنْ حَضَر
ويسمعُ مَنْ يدعو ويكشف كَربَه ... إذا ما دُعي بل عنده النفع والضرر
ويأكل في القبر الشريف وإنّه ... يصومُ به بل قد يحُج ويَعْتَمِر
... وأمّا حياة الأنبيا في قبورهم ... فما صح في تحقيقها النص والخبر
وليس دليلا أنهم في قبورهم ... يُصَلّون لا والله ما ذاك في الأثر
ولا أنهم أحيا كمثل حياتهم ... بأبدانهم بل تلك أقوال مَنْ فجَر

بالسلام على جنابه ، ثم على أبي بكر ، فعمر رضي الله عنهما ، ثم يستدبِرُ القبرَ الشريف ، ويتجه نحو القِبلة ، ويدعو الله بما يشاء ، ولا يحل له أن يستدبر القبلة ، ويتوجه نحو الرسول ويدعوه ، ويتوسل إليه ، كما لا يجوز له أن يطوف حوله ، أو يتمسح بأركانه كفعله في الكعبة التي شرّفها الله[1] .

ومن الحديث عن زيارة خاتم الأنبياء يرِد الحديث عن الاحتفال بمولده صلى الله عليه وسلم ، فيبرأ منه الشاعر لبدعته ، ولما يكون فيه من غناء وتصدية ورقص ونقر دفّ ومنكرات[2] ، كما يرد الحديث عن شفاعته يوم القيامة ، فهي حق قبل كل شيء ، لكنه لا يستطيعها إلاّ بعد أن يأذن الله ويرضى ، ولا تكون إلاّ لمن رضي الله لهم الشفاعة من المؤمنين ، أما الكفرة فلا . ويرِد

---

١ قال ابن سحمان في القصيدة الثانية :

فمَنْ شدّ رحلاً قاصداً بمسيره ... لمسجده المخصوص قصداً لذا القصد
فصلى به ثم انثنى متوجهاً ... إلى القبر للتسليم منبعث الود
فسلمَ تسليمَ امرىءٍ متأدب ... بلا رفع صوت بل بآداب مَشْهد
بهيبة ذي علم ووَقْفةِ خاضع ... يُنكّسُ منه الرأس ملتزمَ اللّمْد
كأن رسول الله حي مشاهِدٌ ... وأدمعه تجري هناك على الخد
ويستدبِرُ القبرَ الشريف موجّهاً ... إلى البيت يدعو بالتضرع والجهد
ولا يجعلنّ القبر كالبيت إنّما ... يطوف به سعياً كأفعال ذي الطّرْد
ويستلم الأركان منه تبركاً ... كأفعال عُبّاد القبور ذوي الجحد
فهذا هو المأثور لا ما ادعيتَه ... ويا حبذا هذي زيارة ذي الرشد

٢ قال في القصيدة السابعة عشرة :

ونبرأ من طرائقَ مُحْدَثاتٍ ... مَلاهٍ من ملاعب ذي الضلال
بألحان وتَصْديةٍ ورقص ... ومزمار ودُفٍّ ذي اغتيال
وأذكار ملفقة وشعر ... بأصوات تروق لذي الخَبال
فحيناً كالكلاب لدى انتحال ... وحيناً كالحمير أو البغال

في الشعر تصويرُ حدوثها إذ تبدأ حين يشتد كَرْب المخلوقات في ذلك اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عمّا أرضعت، فيأتون الأنبياء راجين أن يستشفعوا لهم . فيعتذرون ، فلا يبقى أمامهم سوى محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقول : « أنا لها » ، ويستجيب لرجائهم . ولكن الله يحاسب المحسن على إحسانه ، والمذنبَ على عصيانه[1] . ويرى هؤلاء الشعراء أن للمؤمن أن يدعوَ الله قائلاً : اللهم شفّع محمداً فيّ ، أو اللهم لا تحرمنا شفاعته يوم القيامة . وفي هذه النقطة علينا أن نعترف أن رجال الدعوة جميعاً يصلون على النبي كلما ورد ذكره ، وأن شعراءهم يختمون كل قصيد بالصلاة والسلام عليه[2] .

---

١ وقال ابن مشرف في القصيدة الحادية عشرة :

وإن لخير المرسلين شفاعةً ... بها المصطفى من بين أقرانه يسمو
وذلك أن الخلقَ يشتدُّ كَرْبُهُمْ ... ليومٍ به المولود تذهَلُه الأم
فيأتون كلَّ المرسلين ليشفعوا ... إلى الله في فصل القضا والقضا الحكم
فيُحْجم كلٌّ عن شفاعته لهم ... سوى مَنْ به للمرسلين جرى الخَتْم
فيأتونه والدمعُ منهم جرى دماً ... وكم زفراتٍ منهم هاجها الهم
ينادونه يا خاتم الرسل هل ترى ... إلى خَطْبنا ؟ بل عندك الخَبر العِلمُ
لقد طال هذا الموقف الصعبُ أمْرُه ... علينا فأوهى الجسمَ بل وَهَنَ العظم
وقد طال يا خير العباد انتظارُنا ... ومِنْ شأن مولانا الأناءة والحِلم
فكم ألف عام قد وقفنا بضعفنا ... جياعاً ظماء ضرّنا الضَّنْكُ والسُّقْم
فيا ليتنا مِتْنا ففي الموت راحةٌ ... ويا ليتها لم تُبْعَث الروح والجسم
فمن ردَّ خير المرسلين : أنالها ... فطيبوا نفوساً ولْيَزُلْ عنكمُ الهم
فيشفع فيهم وهو خير مُشفَّع ... فينزل من رب الورى لهم الحكم
فما ظالمٌ إلاّ ويُجزى بظلمه ... وما محسنٌ إلاّ يُوفّى ولا هَضْم

٢ جميع قصائد شعراء الدعوة تنتهي بأبيات بالصلاة على الرسول الكريم. وقد أفرد ابن مشرف قصيدة كاملة في الثناء عليه .

والخلاصة، إن شعراء الدعوة كرروا ما جاء به محمد بن عبد الوهاب . ويخيل إلينا أنهم ما أوردوا ذلك إلاّ لأحد هدفين : أولهما تثبيت دعوة الإصلاح في عقول الناس ، – والشعر مطية ذلول لذلك – . وثانيهما للرد على خصوم شعراء شهروا سلاحهم في وجه رجال الدعوة؛ فاضطر هؤلاء أن يرفعوا السلاح المماثل في وجههم ، فالحديد بالحديد يُفْلَح . لكنهم مع السلاح المشهور أضافوا سلاح التكفير . وهذا الحديد يُسَلِّمُنا إلى النقطة الثانية .

لا تقل كمّيّة الشعر المنظومة في **صفات الكافرين والمسلمين** في دواوين ابن مشرّف وابن سحمان وابن عثيمين عن مرتبة النقطة الأولى التي دارت حول «عقيدة التوحيد» بل لا يمكن فصل هذه عن تلك ؛ لأنه في تفصيل « العقيدة » كان ينطوي الحديث عن « الكافرين » وسماتهم ، و « المسلمين » وأوصافهم . وإنّ كلّ تعرض بشرح أو بيان لعناصر الدعوة الرئيسة يجر معه الإشارة إلى الذين كفروا ، وإلى الذين آمنوا ؛ فبين النقطتين روابط واشجة، وكأن الثانية فرع من الأولى أو نتيجة عنها .

واستعراضنا لفئتي الكافرين والمسلمين من خلال الشعر المنظوم يوقفنا على دقائق ما كنا لنطلع عليها لولا أن هذا الشعر قيل في مناسبات دعت إليه ، ودفعت إلى وجوده دفعاً ، وبه لا بكتب الدعوة استطعنا أن نلمس التطبيق العملي لمبادىء قيلت كلاماً ، وسنحت الفرصة فوُضِعت موضع التنفيذ .

قدّمنا الحديث عن « الكافرين » وكان ذلك متعمّداً ، لأن رصد هذه الفئة وتمييزها أكمل تمييز ، يجعل الفريق الثاني من « المسلمين » ينكشف ويظهر بمجرد معرفة الفئة الأولى ، ولو فعلنا العكس ما كان لنا أن نصل بهذه الطريق القريبة .

ونتساءل عن هؤلاء الذين « **كفروا** » فنجد الجواب عند جميع شعراء الدعوة؛ أنهم – قبل كل شيء – الذين أبوا أن يؤمنوا بما آمن به السّلَف الصالح .

لقد انضوى تحت هذا المبدإ فِرَقٌ كلاميّةٌ وأحزاب سياسية ودينية ، ومذاهب اجتماعية ، ورجال وشخصيات، في شتّى بقاع العالم الإسلامي. فالفرق الكلامية التي « كفرت » هي : المعتزلة [1] ، والجَبريّة [2] ، والمُرجئة [3]، والأشعريّة [4] ، والماتُريديّة [5] ، والروافض [6] ، وبنو القدّاح [7] ،

---

١ فرقة إسلامية ظهرت في أواخر القرن الأول الهجري (الثامن الميلادي) ، وبلغت شأوها في العصر العباسي الأول ، يرجع اسمها إلى اعتزال إمامها « واصل بن عطاء » مجلس الحسن البصري ، وقيل لواصل وأنصاره « معتزلة » . من مبادئها أن ليس لله صفات أزلية ، والقول بالعدل ، وبالوعد والوعيد ، وبالمنزلة بين المنزلتين ،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . (الشهرستاني ، الملل والنحل ص ٦١) .

٢ فرقة إسلامية تقول بالجبر ، وأن الإنسان لا قدرة له على أن يفعل الشيء أو يتركه بإرادته ، بل هو مجبر على أحد الأمرين . وهذه الفرقة خلاف القدرية (الملل والنحل ص ١٣٣) .

٣ فرقة إسلامية سميت بهذا الاسم لأنها تقول بإرجاء أمر المختلفين – الذين سفكوا الدماء واختلفوا حول الخلافة – إلى الله وإلى يوم القيامة ، وترى أن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط ، ومعرفة الله تكفي أن تكون بالقلب ،ولا عبرة بالمظهر ، فإن آمن بقلبه فهو مؤمن مسلم ، وإن أظهر اليهودية والنصرانية ، وإن لم ينطق لسانه بالشهادتين ، وليس الإقرار باللسان ولا الأعمال من صلاة وصوم ونحوها جزءاً من الإيمان (المصدر السابق ص ٢٥٧) .

٤ نسبة إلى أبي الحسن الأشعري (٢٦٠ – ٣٣٠ هـ/٨٧٣ – ٩٤١ م) تلميذ الجبائي ، ثم خرج عليه وعلى المعتزلة لاختلافه معهم في مسألة الصلاح والأصلح . ومن آرائه أنه فرّق بين كلام الله القائم بذاته،وهو قديم،وبين الكتاب الذي هو القرآن،والذي أنزل في زمن معين. (المصدر السابق ص ١٤٩) .

٥ نسبة إلى أبي منصور الماتريدي (–٣٣٣ هـ/–٩٤٤ م) من أئمة علماء الكلام . من كتبه « التوحيد » ، و« أوهام المعتزلة » ، و« الرد على القرامطة » . و« مآخذ الشرائع » ، « والجدل » ، « وتأويلات القرآن » وغيرها . (طاش كبري زاده ، مفتاح السعادة ٢/٢١) .

٦ فرقة من الشيعة سميت بذلك لأنه لما خرج زيد بن علي بن الحسين سئل عن رأيه في أبي بكر وعمر فأحسن القول فيهما وترحم عليهما ، فرفضه قوم من الشيعة من أجل توليه لهما . فسموا رافضة (الشهرستاني ، الملل والنحل ص ٣٠٦) .

٧ نسبة إلى ميمون القدّاح الكوفي ، من أتباع حمدان القرمطي ، وقد نشر الدعوة القرمطية في اليمن ، واستولى أحد أتباعه على بعض بلادها ، واستباح كثيراً من الحرمات ، وادعى النبوة . وكان يذكر اسمه في أذان الصلاة (الملل والنحل ص ٢٢٨) .

والزَّيْديّة [1]، واللاّأدريّة [2]. ومن المذاهب السياسية الدينية: جماعة الخوارج. ومن علماء الكلام: النظّام [3]، وابن أبي دُواد [4]، والجَهْم [5]، والمَريسي [6]، والعلاف [7]،

---

١ إحدى فرقتي الشيعة اليمنية الرافضة والزيدية. وكان كلاهما يفضل علياً على أبي بكر وعمر، ولكن الزيدية أقل طعناً عليهما وأعدل حكماً (الملل والنحل ص ٣٠٢).

٢ فرقة تقول بأن العقل عاجز عن مجاوزة حدود الخبرة الذاتية، فمحال عليه إقامة البرهان على أي شيء يفترض وجوده في خارج تلك الحدود. (الموسوعة العربية ص ١٥٣٤؛ وجدي، دائرة معارف القرن العشرين ٨/٢٦٩).

٣ إبراهيم بن سيار بن هانيء البصري المعروف بالنظام (– ٢٣١ هـ/ – ٨٤٥ م) من أئمة المعتزلة، تبحر في العلوم الفلسفية واطلع على ما كتبه رجالها، وانفرد بآراء خاصة تابعة فيها فرقة من المعتزلة سميت بالنظامية. وقد ألفت كتب كثيرة وفيها تكفير له وتضليل. وفي كتاب «الفرق بين الفرق» أنه عاشر في زمان شبابه قوماً من الثنوية وقوماً من السمنية وخالط ملاحدة الفلاسفة وأخذ عن الجميع (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٢/٢٣٤؛ والشهرستاني ص ٧٧).

٤ أحمد بن أبي دواد (١٦٠ – ٢٤٠ هـ/٧٧٧ – ٨٥٤ م) (يرجح المترجمون أن لفظ الاسم هو أحمد بن أبي دواد «دون همز الواو») أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، ورأس فتنة القول بخلق القرآن. قال الذهبي: كان جهمياً بغيضاً حمل الخلفاء على امتحان الناس بخلق القرآن، ولولا ذلك لاجتمعت الألسنة عليه. (ابن خلكان ١/٢٢؛ النجوم الزاهرة ٢/٣٠٠).

٥ جهم بن صفوان السمرقندي، من موالي بني راسب (– ١٢٨ هـ/ –٧٤٥ م) رأس الجهمية، قال الذهبي: هو الضال المبتدع، هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شراً عظيماً، كان يقضي في عسكر الحارث بن سريج، الخارج على أمراء خراسان فقبض عليه نصر ابن سيار وقتله (الذهبي، ميزان الاعتدال ١/٩٧؛ والشهرستاني ص ١٣٥).

٦ بشر المريسي (– ٢١٨ هـ/ – ٨٣٣ م) فقيه معتزلي عارف بالفلسفة، يرمى بالزندقة، وهو رأس الطائفة المريسية القائلة بالإرجاء؛ كان أبوه يهودياً (وفيات الأعيان ١/٩١؛ ميزان الاعتدال ١/١٥٠).

٧ أبو الهذيل العلاف (١٣٥ – ٢٣٥ هـ/٧٥٣ – ٨٥٠ م) من أئمة المعتزلة كان حسن الجدل، قوي الحجة، سريع الخاطر، كف بصره في آخر أيامه، وتوفي بسامرا. له كتب كثيرة منها كتاب «ميلاس» على اسم مجوسي أسلم على يديه (وفيات الأعيان ١/٤٨٠).

وبِشْر بن المعْتمر[١] ، وابن سينا[٢] ، وابن سبْعين[٣] . ومن رجال الدين في البلاد الإسلامية ورد ذكر يوسف النّبهان[٤] ، والكَسْم[٥] ،

---

١ فقيه معتزلي مناظر من أهل الكوفة (— ٢١٠ هـ/ — ٨٢٥ م) . قال الشريف المرتضى : يقال إن جميع معتزلة بغداد كانوا من مستجيبيه ؛ تنسب إليه الطائفة البشرية . مات ببغداد . (البغدادي ، خزانة الأدب ٤/١١٧) .

٢ الحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨ هـ/ ٩٨٠ — ١٠٣٧ م) الفيلسوف الرئيس صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات . أصله من بلخ، نشأ وتعلم في بخارى وطاف بالبلاد ، وناظر العلماء ، واتسعت شهرته ، وتقلد الوزارة في همذان ، وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته فتوارى ثم صار إلى أصفهان ، وصنف بها أكثر كتبه ، وعاد في أواخر أيامه إلى همذان فمرض في الطريق ومات بها. قال ابن القيم الجوزية : كان ابن سينا — كما أخبر عن نفسه — هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم من القرامطة الباطنيين . من كتبه « القانون في الطب » ، « والمعاد » ، « ورسالة في الحكم » ، « والشفاء » ، « وحي بن يقظان (وفيات الأعيان ١/١٥٢ ؛ خزانة البغدادي ٤/٤٦٦) .

٣ عبد الحق بن إبراهيم بن سبعين الإشبيلي (٦١٣ — ٦٦٩ هـ/١٢١٦ — ١٢٧٠ م) من زهاد الفلاسفة ، ومن القائلين بوحدة الوجود . درس العربية والآداب في الأندلس ، وانتقل إلى سبتة ، وحج واشتهر أمره . كفره كثير من الناس . قال الذهبي عنه : اشتهر عن ابن سبعين أنه قال : لقد تحجر ابن آمنة واسعاً بقوله لا نبي بعدي. وكان يقول في الله عز وجل إنه حقيقة الموجودات . وفصد بمكة فترك الدم يجري حتى مات نزفاً . (ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ١/٢٤٧ ؛ النجوم الزاهرة ٧/٢٣٢) .

٤ ينسب إلى بني نبهان . أصله من عرب البادية بفلسطين (١٢٦٥ — ١٣٥٠ هـ/١٨٤٩ — ١٩٣٢ م) . شاعر أديب وقاض . درس في الأزهر وعمل في وظائف عدة في الآستانة وبيروت وجاور في المدينة المنورة . له كتب كثيرة جداً . قال صاحب « معجم الشيوخ » خلط فيها الصالح بالطالح ، وحمل على أعلام الإسلام كابن تيمية ، وابن قيم الجوزية حملات شعواء ، ومثلها تناول الإمام الألوسي ومحمد عبده ، وجمال الدين الأفغاني وآخرين . (عبد الحفيظ الفاسي ، معجم الشيوخ ٢/١٦١) .

٥ محمد عطا الكسم ، صوفي دمشقي ، له زاوية تنسب إليه ، ألف كتاب « الأقوال المرضية في الرد على الوهابية » . طبع بمصر سنة ١٩٠١ م .

ودَحْلان[1]، والعَظْمي[2]، والزَّهاوي[3]، كما ورد أسماء شعراء هجوا الدعوة وكان منهم يوسف بن شُبَيْل الكويتي[4]، وعبد اللطيف بن عُمَير[5]، وشرف البَحْريني[6]، وأبو بكر الأحسائي[7]، وراشد بن حُنين[8]، وعبد الصمد

---

١ أحمد زيني دحلان (١٢٣٢ - ١٣٠٤ هـ/ ١٨١٧ - ١٨٨٦ م) فقيه مكي مؤرخ، ولد بمكة وتولى فيها الإفتاء والتدريس. وفي أيامه أنشئت أول مطبعة بمكة فطبع فيها بعض كتبه، ومات في المدينة المنورة. من تصانيفه: «الفتوحات في الإسلام»، «والجداول المرضية في تاريخ الدول الإسلامية»، «وخلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام»، «والفتح المبين في فضائل الخلفاء الراشدين وأهل البيت الطاهرين»، «والسيرة النبوية»، «ورسالة في الرد على الوهابية». (الأعلام ١/١٢٥).

٢ مختار بن أحمد المؤيد العظمي (- ١٣٤٠ هـ/ - ١٩٢١ م) فقيه من بيت وجاهة. مولده ووفاته في دمشق. زار مصر وسكن المدينة المنورة مدة. له كتب منها «فصل الخطاب» أو «تفليس إبليس من تحرير المرأة ورفع الحجاب»، «وجلاء الأوهام عن مذاهب الأئمة العظام»، «ورد الفضول في مسألة الخمر والكحول». (الشطي، تراجم أعيان دمشق ص ١٢١).

٣ جميل صدقي الزهاوي (١٢٧٩ - ١٣٥٤ هـ/١٨٦٣ - ١٩٣٦ م) شاعر ولد ومات ببغداد، كان ينحو منحى الفلاسفة. من طلائع نهضة الأدب العربي في العصر الحاضر، نظم الشعر بالعربية والفارسية، تقلد مناصب عدة. له كتب كثيرة منها «نزغات الشيطان»، «والفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق» (مجلة المجمع العلمي ٨/٢٩٢ و ١٤/٢٤٨).

٤ لم نصل إلى شيء يذكر في ترجمته.

٥ من علماء الأحساء ومن أسرها المشهورة.

٦ لم نصل إلى شيء يذكر في ترجمته.

٧ من علماء الأحساء توفي سنة ١٠٧٦ هـ/١٦٦٥ م، له ديوان شعر في مجلدين (محمد آل عبد القادر، تاريخ الأحساء ٢/٤٢).

٨ معاصر للشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو صاحب القصيدة التي أولها:

وكن قاصدا بالسير منك زيارة   لخير الورى رغما لأنف المارق

وأسرته مشهورة في الخَزْرج.

السنان العراقي[1] ، والحسين بن الشيخ حسن[2] ، وبابُصيل الحضرمي[3] ومحمد ابن سليمان العارضي[4]، وأمين بن حَنَش[5] ، وداود بن جرجيس[6]، وغيرهم . وقد وردت أسماؤهم في ديوان ابن سحمان .

رتب شعراء الدعوة قواعدَ تعرف بها صفات « الكافر » . ومنها : مَن نفى صفات الله[7] ، ومن شبهه بخلقه[8] ، ومن قال بخَلْق القرآن[9]، ومن

---

١ لم نعثر على شيء يذكر في ترجمته .

٢ لم نعثر على ترجمته .

٣ عالم من علماء الكعبة المشرفة ومن رجال القرن الرابع عشر .

٤ أحسائي ، عامل يصنع التقاويم . نظم أرجوزة على طريقة المنجمين .

٥ لم نعثر على ترجمته .

٦ عراقي ، ولد سنة ١٢٢٦ هـ/١٨١١ م ببغداد . وتوفي سنة ١٢٩٩ هـ/١٨٨١ م ، له مصنفات عدة (الحاج علي الألوسي ، الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر ص ١٧٤) .

٧ قال ابن سحمان في القصيدة التاسعة : [كذا ورد الشطر الأول مختلا] .

وَنَفْيُ استواء الرب فوق عرشه فكفر وتعطيل لمن برأ البشر

٨ وقال أيضاً في القصيدة ذاتها :

تعالى عن التشبيه والمثل للورى فليس له مثل فيذكر أو ندر
ولا كفو في أسمائه وصفاته ومَن كيَّف الباري فقد كابرَ الفِطر
وكل أحاديث الصفات فإنها تمر كما جاءت على وقف ما أمر

وقال ابن مشرف في الجوهرة :

من شبّه الله بغيره كفر ومن نفى صفاته أصلي سَقَر

٩ وقال ابن مشرف في الجوهرة :

فمن يقل بأنه قول البشر فكافر . والله يُصْليه سقر
ومن يقل بخلقه أو سَطْره فهو مُضِلٌّ فاستعذْ من شره

قال: إن دين الله من جبريل [١]، ومَنْ فضّل دين الكفر على دين محمد [٢]، ومن كره الإسلام أو شيئاً منه [٣]، ومن استهزأ به، ومن اشتغل بالسحر [٤]، ومن أعان الكفار على المسلمين [٥]، ومن لم يكفّر كافراً [٦]، ومن لم يبايع إمام المسلمين [٧]، ومن جعل الدستور نظام حكمه [٨]، ومن سكن أرض الكفر وهو

---

١ قال ابن سحمان في القصيدة الثانية في معرض تعداده الكفرة :

كمن قال إن الدينَ دينُ محمد ... بواسطةٍ من جبرَئيلَ بما يبدي

٢ وقال :

ومن كان دينُ الكفر أحسنَ عنده ... وأكملَ هَدياً من هُدى كامل الرشد

٣ وقال :

ومن كان ذا بغض لدينِ محمد ... ويكرهُ شيئاً قد أتى منه عن قصد

٤ وقال :

ومستهزىء بالدين أو بالذي به ... يَدينُ، ومَن للسحر يفعل عن عمد

٥ وقال :

ومَنْ ظاهَرَ الكفارَ مِنْ كل مارق ... على المسلمين المهتدين ذوي المجد

٦ وقال :

ومَنْ لم يكفّر كافراً فهو كافر ... ومَن شك في تكفيره من ذوي الطرد

٧ قال ابن عثيمين في القصيدة الثانية يمدح الإمام «عبد العزيز» :

فمن يعتصم منه بحبل وذمة ... وإلا من الدين الحنيفي يمرق

فإن مات كانت ميتة جاهلية ... وإن عاش فهو المارق المتزندق

٨ قال ابن سحمان يتحدث عن الأتراك في القصيدة العشرين :

قد استبدلوا الدستور عن دين ربهم ... ولم يرتضوا إلاّ سياسات من أضل

وقال نفسه في الحادية عشرة يعيِّر أهل الأحساء :

ويُحكَم بالدستور بين ظهوركم ... وحكم النبي المصطفى ليس يذكر

فإن كان محض الحق والفسق والخنا ... لديكم هو الدين القويم المقرَّر

فقد صح ما قيل فيكم وإنكم ... لأحرى بما قد قيل فيكم وأخطر

فمن لم يكفّرهم به فهو كافر ... ومن شك في تكفيرهم فهو أكفر

قادر على الهجرة منها [1] .

ويبدو لنا أن المنطلق الذي اندفع منه ابن عثيمين وابن سحمان والملك عبد العزيز واحد هو من حقيقة الدين الإسلامي ومن أصول تعاليمه الصحيحة . فالدين الحق يثبت لله صفات وردت في القرآن الكريم ، وينفي عنه أخرى قال بها الضالون من أصحاب الفرق . ولقد رفض الإمام أحمد بن حنبل أن يقول بخلق القرآن ، وتحمل في سبيل ذلك أنواع الأذى والاضطهاد .

وهل هناك شك في تكفير من أنكر وحدانية الله ، ورسالة محمد ، وآمن ببعض الكتاب ، وكفر ببعضه الآخر ، وفضل دين الكافرين على دين المسلمين ، وحكم بغير ما أنزل الله ، ورضي أن يقيم بدار الكافرين دون أن يكون مضطراً إلى الإقامة فيها ؟ . وماذا نقول عن أولئك الناس الذين عبروا في تاريخنا في بلاد الأندلس ، أولئك الذين كانوا يختلفون فيما بينهم ، فيذهب هذا إلى عدوه الكافر ويستعين به على أخيه المسلم ، ويذهب خصمه إلى العدو الكافر فيطلب منه ما طلب الآخر ؛ فيعين الاسباني هذا وذاك ، ليقتتلا ، ويتفانيا ، وينتصر أحدهما على الآخر ويسحقه ، ثم يأتي هو ليقضي على المنتصر ويستولي على أراضيه . وهكذا ضاعت الأندلس . المنطلق — إذن — عند الشعراء والملك عبد العزيز إسلامي محض من صميم الدين نفسه ، والغاية تطهير الجزيرة مما علق بها من شوائب ، والسعي إلى تحقيق الغاية ذاتها في أرض الهاشميين والعثمانيين — إن كتب لدعوة التوحيد الانتصار — .

---

[1] قال ابن سحمان في القصيدة السادسة والعشرين يرد على من سأله حول الإقامة بدار الكفر :

ففي الترمذي أن النبي محمداً ... بريء من المرء الذي كان مسلما
يقيم بدار أظهر الكفرَ أهلها ... فيا ويح من كان أعمى وأبكما
أما جاء آيات تدل بأنّه ... إذا لم يهاجر مستطيع فإنّما
جهنمُ مأواهُ وساءتْ مصيرُه ... سوى عاجز مستضعَف كان معدما

وبوجوب هجرة « المسلم » من ديار الشرك مقاصد سياسية واجتماعية بعيدة المرمى . فبلاد الشرك أولاً هي : التي لا تُطبّق « الإسلام » كما قرره الله تعالى في ثلاث آيات محكمات هي : ﴿ ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولئك همُ الكافرون ﴾[1] و ﴿ ومَنْ لم يَحْكُمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئك هُمُ الفاسِقون ﴾[2] و ﴿ ومَنْ لم يَحْكُمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئك هُمُ الظالمون ﴾[3] . ولا ريب أن الحكم بما أنزل الله غير مطبق في البلاد الخاضعة للعثمانيين ، على الرغم من المظاهر الخارجية التي كانوا يتبجّحون بها .

ويخيل إلينا أن هذا المبدأ هو في حد ذاته طعن في صميم الحكم العثماني والأصول التي قام عليها[4] .

الخلاصة ، إن الشعر الذي رمى بالكفر جماعات وفرقاً ما كان إلاّ تقريراً لعقيدة التوحيد ، ولوناً من ألوان الهجاء . ولئن كان للهجاء في تاريخ الأدب العربي سمات وصنوف إن هذا الهجاء أقرب ما يكون إلى الهجاء السياسي الديني الذي وجد في عصر الدولة الإسلامية، ولقد حمل سماته نفسها ، ففيه العنف والحماسة ، والتشهير ، وقرع الحجة بالحجة . ويحز في نفوسنا أنْ دخله شيء قليل من فحش القول وبذيء اللفظ . وإذا كان شعراء البلاد الأخرى يقذعون ويسيئون فما كان أحرى الدعاة ألاّ يهبطوا إلى دَرْك البذاءة وسفساف الكلام .

ولا مندوحة لنا عن الاعتراف بأن هذا الشعر رغم كثرته كمّاً فإنه قليل

---

١ سورة المائدة : ٤٤ .

٢ سورة المائدة : ٤٧

٣ سورة المائدة : ٤٥ .

٤ انظر في كتابنا « نظرة جديدة في الشعر المملوكي والعثماني » تفصيلا في ألوان جور العثمانيين وظلمهم .

العطاء، وثمانية آلاف بيت في ديوان ابن سحمان يمكن أن تكشّف معانيها في قليل من الصفحات . وهذه المعاني المحدودة المكرورة حملت الشاعر على ترديد بعض ألفاظ بذاتها ، وما كان أكثر ما تعاد وتكرر أبيات بكاملها . . لذلك فلا غرابة إذا أنكر بعض الناس على هؤلاء الثلاثة لقب « شعراء » ورضي أن يصفهم بالنظامين .

أما **المسلمون** فهم الذين لا ينطبق عليهم ما وصف به الكافرون . وعلى رأس « المسلمين » يقوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وقد ورد ذكره في أربع قصائد في ديوان ابن مشرّف ، وتسع وتسعين قصيدة في ديوان ابن سحمان بلغت أبياتها أكثر من سبعة آلاف وثمانمائة بيت ، وإشارات قليلة إليه في ديوان ابن عثيمين ، وفي قصائد الأمير الصنعاني ، والشوكاني [1] ، وابن بشر [2] ، وابن غنام [3] وغيرهم . ثم يأتي أبناء الشيخ وأحفاده في المرتبة الثانية بعد أبيهم [4] – من حيث وفرة الشعر الذي تغنّى بعقيدتهم – ويليهم مشايخ الدعوة النجدية ،

---

١ محمد بن علي الشوكاني ، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن من أهل صنعاء . ولد بهجرة شوكان (من بلاد خولان باليمن) ونشأ بصنعاء وولي قضاءها . له مائة وأربعة عشر مؤلفاً . منها « نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار » ، « وفتح القدير في التفسير » . (الشوكاني نفسه ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ٢/٢١٤) .

٢ عثمان بن عبد الله بن بشر ، مؤرخ نجدي ، عاش في أيام فيصل بن تركي وأولاده. من مؤلفاته « عنوان المجد في تاريخ نجد » ، « وسهيل في ذكر الخيل » ، « والإشارة في معرفة منازل السبع السيارة »، « وبغية الحاسب »، « والخصائص ومبدأ النقائص في الطفيليين والثقلاء » ، وغيرها . توفي سنة ١٢٩٠ هـ١٨٧٣ م . (مقدمة ابن بشر ص ٧) .

٣ حسين بن غنام الأحسائي صاحب « روضة الأفكار » التاريخ المشهور باسم « تاريخ ابن غنام » « والعقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين » . ولد بالمبرز بالأحساء ، وأخذ العلم عن علمائها ، ثم انتقل إلى الدرعية في حياة محمد بن عبد الوهاب . توفي سنة ١٢٢٥ هـ/ ١٨١٠ م (ابن بشر ص ١٤٣) .

٤ نذكر من الأبناء : عبد الله بن محمد، وسليمان بن عبد الله بن محمد، وعبد الرحمن بن حسن=

والأسرة السعودية ، ثم أهل نجد ، فبقية الناس الذين آمنوا بدعوة التوحيد في داخل الجزيرة العربية وخارجها [1] ، والأئمة الأربعة [2] ، ومَن تبعهم .

ولو حاولنا أن نستعرض جميع ما قيل في « الشيخ » وأبنائه وأتباعه لوقعنا على معان تتكرر هي بذاتها في أكثر قصائد الشعراء، خلاصتها : أن الشيخ جاء في زمن اشتد فيه الجهل والكفر [3] ، وتغرّب فيه الدين [4] بل زالت معالمه بعد أن طمسه الملحدون بأباطيلهم وشركهم [5] ، فدعا إلى التوحيد ، وعاداه الكثيرون، فما وهَن ولا فشل ، وزعم المفترون أنه ساحر كذاب ، كما

= ابن محمد، وعبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد، وعبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد . ومن العلماء حمد بن ناصر بن معمر ، وعبد العزيز بن حمد بن ناصر ، وعبد العزيز بن حمد . (ابن بشر ، في صفحات مختلفة) .

١ نذكر منهم : محمود شكري الألوسي في العراق ، ومحمد حامد فقي ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، وعلي عبد الرزاق ، ومصطفى المراغي بمصر ، وبهجة البيطار ، وناصر الألباني ، بسورية . ومحمد بن علي السنوسي بالجزائر . وأحمد بن عرفان بالهند . (الشيال ، الحركات الإصلاحية ص ٦٩) .

٢ هم الأئمة مالك ، وابن حنبل ، وأبو حنيفة ، والشافعي رضي الله عنهم .

٣ قال ابن سحمان في القصيدة الثانية :

وقد قام يدعو الناس في جاهلية ... إلى السيد المعبود بالجد والجهد
وقد كان أهل الأرض إلا أقلَّهم ... على الكفر بالمعبود والجعل للند

٤ وقال ابن مشرف في القصيدة العشرين :

لقد أوضح الإسلامَ عند اغترابـــه ... وقد جدَّ في إخفائه كلُّ ملحد
وجدد منهاج الشريعة إذ عفت ... فأكرِمْ بـه مِن عالم ومجدد

٥ وقال ابن سحمان في الثانية :

ينادون أرباب القبور سفاهـــة ... ويدعون مَنْ لا يملك النفعَ للعبد

زعمت قريش في النبي صلى الله عليه وسلم [١]، فلم يعبأ بهم، ونصره الله على المشركين، وأحيا السنة النبوية، وقضى على الشرك وأهله [٢] بالأدلة القاطعة، والبراهين الدامغة، والحجج الناصعة، كما ألف في «التوحيد» خير كتاب، واستدل على كل ما أورده بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تترك الخصم أمامها لا يحير جواباً [٣]، ولئن زعم الأعداء أن «الشيخ» رمى بالكفر خلقاً كثيراً، فذلك محض افتراء، لأنه لم يكفِّر إلاّ من طغى، ودعا غير الله، وأشرك. وهؤلاء «الكفرة» لم يكفرهم الشيخ وحده، بل كفرهم الله جل جلاله [٤].

ولابن عبد الوهاب الفضل كل الفضل على نجد خاصة، ففيه أحَقَّ الحق، ومحَق الباطل. ونشر الهدى، فإذا به يَزهى بالنور، وإذا بأتباعه يشكِّلون

---

١ وقال نفسه في الثانية :

فجاهد في ذات الآله ولم يخف ... عداوة من قـد خالفوه عـلى عمد
فعاب عليه الناكبون عن الهدى ... سلوك طريق المصطفى الكامل المجد
فقالوا كما قال الملاحدة الألى ... لمن قام يدعوهم إلى جنّة الخلد
مقال قريش قبلهـم لنبيّنـــــا ... هوالساحر الكذاب في قول ذي الجحد

٢ قال ابن مشرف في القصيدة العشرين :

وأحيا بدَرْس العلم دارسَ رسمـه ... كما قد أمات الشرك بالقول واليد
وكم شبهة للمشركين أزاحهـــا ... بكل دليل كاشف للتردد

٣ قال ابن مشرف في القصيدة الخامسة :

أدلـة جامـع التوحيـد أودعهـا ... من كل نص قُرَانِيّ ومأثور
لا يستطيع لهـا دفعاً مخاصمة ... ولا يحرِّفها تأويلُ ذي زور

٤ قال ابن سحمان في القصيدة السادسة والثلاثين :

ما كفَّر الشيخ إلا من طغى ودعـا ... غير الآله وبالإشراك قد دانـا
والشيخ كفَّرهـم والله كفَّرهـم ... والله يصليهم في الحشر نيرانـا
والشيخ جَهّلهم والله جهّلهـم ... والمسلمون ومن قد حاز عرفانـا

مجموعة من العلماء والأفذاذ ، أما أعراب نجد الذين كانوا في الضلالة سادرين فأسلموا وحَسُن إسلامهم ودينهم [1] .

وما قيل في الأب قيل كثير منه في الأبناء والأحفاد [2] والأنصار [3] .

ونال النجديون شطراً من مديح ابن سحمان؛ لأنهم — في رأيه — حملوا الدعوة وسلكوا النهج القويم ، وتميزوا بأتم العقول ، وأحسن الأخلاق ، وأرفع المزايا ، وقد ورثوا المجد كابراً عن كابر . ورد ابن سحمان زعم من قال إن مُسَيْلِمة الكذاب جدهم وسَجاح جدتهم [4]؛ وتحدّى بـ « وهابيتهم »

---

١ قال ابن سحمان في معرض هجائه أبا بكر الأحسائي :

وشيخ الهدى في نجدنا أظهر الهدى — وحقق فيها الحق بل طبّق الأفقا
فزال ظلام الغيّ عنها وقد زهت — بتوحيد مولانا الذي بـرَأ الخلقا
وأصبح صبح الحق بالنور مشرقا — فطوّق نجداً بالهدى كلها طوقا
وأتباعه — يا وغد — من كل عالم — وكل تقي جانب الكفر والفسقا
وأعرابهـا بعد الغوايـة أسلموا — وقد دخلوا في الدين واستعملوا الصدقا

٢ وقال نفسه في القصيدة التاسعة والستين يمدح الأبناء :

فكم فتحوا بالعلم والدين والهدى — قلوبـاً لعمري مقفلات البصائر
وكم شيّدوا ركناً من الدين قد وهى — وأقوى ، ففازوا بالهنـا والبشائر

٣ قال ابن سحمان يمدح محمود شكري الألوسي (القصيدة الثامنة) .

ومحمودُ محمودٌ على كل حالـة — لنصرته حَبْراً هِزَبْراً سما فخرا
غدا لفتى تيميةٍ أيّ نـــاصر — نَعَمْ حيثلم يشرك ولم يقترفخُسْرا

٤ قال ابن سحمان موجهاً الكلام ليوسف النبهان — في القصيدة الثامنة :

وأهل النهى سكان نجد جدودُهم — هـمُ العربُ العَرْبا بهملم تُحطْ خُبرا
قد استعربت منهم قبائلُ جَمّةٌ — سَمَوْا بالعلى قَدْراً وبالمصطفى فخرا
أتم عقول الناس طرا عقولُهم — وأحسنهم خَلقاً وخُلقاً فهم أحرا
وقد ورثوا مجداً أصيلاً مؤثّلاً — لأهل الهدى منهم فنالوا به الفخرا =

الخصوم جميعاً الذين حمّلوا هذه الكلمة كل معنى شنيع . ورأى فيها معنى الإسلام الصحيح[1] ، وصورة القوة والبسالة المخيفة للأعداء[2] .

أما رأي شعراء الدعوة في الأسرة السعودية ، ولا سيما في « الأئمة » منهم ، فهو مقصور على الحكام الأخيرين ، بدءاً من فيصل بن تركي . وما قيل في الذين سبقوه فقد عبثت به يد الإهمال ، فضاع واندثر ؛ وأول سبب لذلك عدم كتابته وجمعه وحفظه .

يقف ابن عثيمين في الصف الأول بين المداحين ، ويليه ابن مشرّف ، ثم ابن سحمان . ومضمون المديح عندهم ينقسم إلى قسمين : **تقليدي** لا يختلف عن مدائح الشعراء القدامى لأمراء زمانهم ، وعظماء بلادهم . وخلاصة ما دار فيه على ألسنة شعراء الدعوة أن الإمام أو الملك سار إلى العلياء وبلغ ذراها ، له قلب لا يعرف الخوف ، يخوض غمرات الموت الزؤام ، وساحات الحرب

= مُسَيْلِمَةُ الكذاب ليس بجدهم ... وليس له نسلٌ يقرَّرُ أو يُدْرى
ولا لِسجاح – ويلُ أمك – فاتئد ... فما الهذر إلاّ ما فشَرْتَ به فَشْرا
وقد أسلمتْ والشامُ كان مقرَّها ... فلو كان من لؤم لكنتَ به أحْرى

١ قال ابن سحمان يهجو يوسف النبهاني – القصيدة الثامنة :

نَعَم نحن وهابية حَنَفِيّةٌ ... حنيفية نسقي لمن (غاضنا) المُرّا
وكم من أخي جهل رمانا بجهله ... فعاد حسيراً خاسئاً نائلاً شرا
بمحكم آيات وسنّة أحمد ... نصول على الأعدا (فنأترهم) أترا
حنابلة كنا على نهج أحمد ... إمام الهدى مَن كان مِن كفرهم يَبْرا

٢ قال ابن سحمان يمدح النجديين – القصيدة الأولى :

إذا الأرض من نقع المعارك أظلمت ... أسنتهم مثل النّجوم سناها
ويطربهم هزُّ القنا بأكفهم ... ووقع العوالي في صدور عداها

الضروس دون أن يبالي ، يهزم الأعداء ، ويجرعهم كأس الذل والعلقم ، ويشرب هو كأس العز والنصر ، وينتعل تيجان الملوك، ورث المجد والفضائل كابراً عن كابر[1] .

والثاني **ديني سياسي** : فيه إلحاح كبير على تلقيب الممدوح بالإمام أكثر من كل لقب آخر كالأمير أو الملك أو السلطان . وهذا لقب ينسجم وتعاليم « الدعوة » . ولقد وردت كلمة « الإمام » في المرتبة الرابعة في ديوان ابن عثيمين — من حيث كثرة تكرارها بعد لفظة الجلالة « الله » ثم « الإسلام» ثم « المسلمين » . وهذا اللقب ورد بأشكال عدة . أولها : « إمام الهدى ثم « الإمام » مجرداً من الإضافة ، وورد مضافاً إلى « المؤمنين » وجاء في بعض القصائد لفظ « أمير » مكان « إمام » ونودي بـ « أمير المؤمنين »،وكثيراً ما كانت تأتي التسمية « أمام المسلمين » أو « الإمام على الإسلام » ومرة واحدة ناداه ابن مشرّف « يا حسام الدين » .

أما صفات هذا الإمام فهي الكرم والشجاعة، ورفعة المزايا، وعلوُّ الشيم،

---

[1] قال ابن مشرف في القصيدة السابعة عشرة يمدح فيصلا :

فأكرِمْ به فرعاً سلالة مُقْرِنٍ　　وآباؤه الغر الكرام أولو الهدى
لقد نصروا دين الآله وقَوَّموا　　من السنة الغراء ما قد تأوّدا

وقال ابن سحمان في القصيدة الثالثة والأربعين يمدح عبد العزيز :

فلله مـــن نَدْبٍ هُمامٍ مهذب　　(أغاض) العدا من عجمها والأعارب
فنلنا المنى من بعد أن كادت العدى　　تحيط بنا من كل قطر وجانب
بعبد العزيز ابن الإمام ابن فيصل　　حليف العلى نسل الكرام الأطايب

وقال ابن عثيمين يمدحه في القصيدة الثالثة عشرة :

فيا إمام الهدى عبد العزيز بن فيصل　　فرع الأئمة وابن السادة السُّمَحا

والبر ، والرحمة ، ووفرة العقل[١] ، والسعي بالمؤمنين إلى الرشاد[٢] ، ووجوب الإيمان به ، والانقياد إلى طاعته ، ومن لم يفعل ذلك فهو المارق ، المتنكب عن طريق الرشاد[٣] . والإمام ينصر سنة أحمد صلى الله عليه وسلم بسمر القنا ، وبيض الصفاح ، و « يسيّر أعلام الجهاد خوافقاً » في كل اتجاه[٤] ، يد تحمل السلاح ، ويد ترفع القرآن . الإسلام به فرح فخور ، ولسوف تكون أعماله الطيبة شاهدة له يوم القيامة ، ولسوف تثقل كفة حسناته[٥] . إنه نحر

---

١ قال ابن مشرف في القصيدة الحادية والعشرين :

إمام الهدى جالي الصدى مَنْهل الندى ... ومُرْدي العدا بالمشرفي المهند

وقال ابن عثيمين في القصيدة الرابعة :

فوالله ثم الله لا ربَّ غيرهُ ... يمين امرىء لا مفتَرٍ يتملق
لما علمت نفسي على الأرض مثله ... إماماً على الإسلام والأرض يشفق
إمام هدى للرشد يَهْدي ويَهْتدي ... مقيم سواء بالرعية يرفق

٢ قال ابن عثيمين في القصيدة الحادية عشرة .

هذا أميركم يا المؤمنون سعى ... لرشدكم فأجيبوا داعي الرشد

٣ وقال في التاسعة :

فما مسلم إلاّ يراك أمامه ... سوى مارق عن منهج الرشد ناكب

٤ وقال ابن مشرف في التاسعة عشرة .

وقَوَّم أركان الشريعة ناصراً ... بسمر القنا والبيض سنةَ أحمدا
يسيِّر أعلامَ الجهاد خوافقا ... على نجله لا زال للدين منجدا

٥ قال ابن عثيمين في الثالثة :

تلألأت بك للإسلام أنوار ... كما جرت بك للإسعاد أقدار

وفي الثانية :

فجئتَ بالسيف والإسلام معتزما ... تُمْضي بسيفك ما أمضاه قرآن

وقال ابن مشرّف في السادسة والثلاثين :

أوضحتَ للسنة الغرّا رسومَ هدى ... عفت فأحييتَ للإسلام آمالا =

المشركين [١]، وقوّض أركان الشرك [٢]، وأحيا السنة [٣]، وأزال البدع [٤]، وردّ الناس جميعاً إلى الدين القويم [٥]. أمَرَ الله في محكم كتابه بطاعته، وبالاجتماع صفاً واحداً حوله، ومن خالف عن الأمر فخلع طاعته أثِمَ، وإن صام وصلى [٦]. والإمام تقي وَرِع، يخشى الله في السر والعلانية، لا يقترف محرّماً، ولا يرتكب اثماً، ولا يشرب خمراً، ولا باللذات يلهو ويطرب، كما يفعل غيره ممّن

= وقال ابن عثيمين في الثانية :

ومشهدٍ لك في الإسلام سوف ترى ... يُوفى به لك يوم الحشر ميزانـا

١ وقال ابن عثيمين :

نحرتَ هَدْيَكَ فيه المشركين ضحى ... فافخر، ففخر سواك المعز والضأن

٢ وقال نفسه في السادسة عشرة :

إمام الهدى عبد العزيز ابن فيصل ... به انهدّ ركنُ الشرك وانحطّ باطلُه

٣ وقال في الرابعة والعشرين :

أحييتم سنة الهادي التي درست ... بمحكم النص من آي وتبيين
حتى استنار من الإسلام كوكبه ... وأصبح الكفر في أطمار محزون

٤ وقال في الخامسة عشرة :

وطهّر بيت الله من كل بدعـة ... أكبّ عليها مدّعٍ وجهـول

٥ وقال في الخامسة :

وأنـتم حين لا بدوٌ ولا حَضَرٌ ... إلا لهم نحو ما يُرْديهم خَبَبُ
هذا يطوف برب البيت يَنْدُبـه ... يرجو النجاة إذا ما اشتدت الكرب
ردَدْتموهم إلى الدين القويم وهم ... من قبلكم عن طريق المصطفى نُكب

٦ وقال ابن عثيمين في القصيدة الثانية :

أليس أتى في محكم الذكر أمرُنا ... بطاعته حقـاً ولا نتفـرق
فقالوا أطيعوا الله ثم رسولـه ... كذاك وليُّ الأمر نصٌّ محقَّق
فمن بات ليلاً خالعاً بيعة الذي ... به لمَّ شعثَ المسلمين المفرَّق
فإن مات كانت ميتة جاهلية ... وإنْ عاش فهو المارق المتزندِق

ادعى إمارة المؤمنين [١] .

تلك هي الفِكَرُ الرئيسة في مدح شعراء الدعوة للأسرة السعودية . وقد يظن بعض الناس أن من عادة المادحين إضفاء أروع الألقاب ، وأحسن الصفات على ممدوحيهم ؛ لأنهم اعتادوا قراءة ذلك في شعر المديح عبر أدوار التاريخ الأدبي العربي . وهذا الظن فيه شيء من التجني على هذه الفئة الداعية من الشعراء ؛ فلقد مدح ابن مشرف فيصل بن تركي وأبناءه ، ومدح ابن سحمان وابن عثيمين الملك عبد العزيز ، وكانوا صادقين فيما يقولون ؛ لأنهم كانوا يصدرون في مدائحهم عن عقيدة آمنوا بها ، ثم حققوها في أقوالهم ، كما حققوها في أفعالهم . وما كان يضيرهم أن يجاهروا بكلمة الحق أمام ممدوحهم ، فينبهونه إلى أمور وقضايا تحاك ضده في الخفاء قد لا يدري بها ، ويشرحون له آلام الناس وآمالهم ، ويشكون إليه ما يفعله الأعراب في خارج المدن وفي البوادي من قتل ، ونهب ، ويصورون له كيف يتآمر الخونة واللصوص مع أعداء دعوة التوحيد ، ويقبضون منهم الأموال ، والأسلحة ليعيثوا فساداً في البلاد الموحدة ، ولينشروا الهلع والرعب في قلوب الناس المؤمنين ، ليوهموهم أن الأعداء أقوياء ، وأن حكامهم غير قادرين على حماية بلادهم ، ورد الأذى عن مواطنيهم ، والقضاء على الفوضى واللصوصية في بعض أراضيهم .

كم كانوا يستثيرون حماسة أولئك الممدوحين — وهم ليسوا بحاجة إلى إلى استثارة — ، ولكنه طبع الشعراء ، وعادتهم ، وأسلوبهم .

ومثل هذه المواقف قد لا نلحظها عند كثيرين من أمثالهم من الشعراء المداحين الذين عبروا التاريخ العربي . ذلك أنا لم نسمع جريراً والفرزدق

---

١ قال ابن عثيمين في التاسعة عشرة :

تنزهت عن فعل الملوك الذين هم ... دُعوا أمراء المؤمنين بمحكم

فلا شارباً خمراً ولا سامعاً غِنـا ... إذا نُقِرَتْ أوتارُهُ للترنم

والأخطل يتحدثون إلا عن مطامعهم — في غالب الأحيان — ولم نشهد أبا تمام والبحتري والمتنبي إلا مداحين مغرقين في مدائحهم ، وقد كان أكثرهم يقول شيئاً ، ويؤمن بغير ما يقول ، ويضفي صفة على ممدوحه ، ولسان حاله يكذب قوله ، والمتنبي مع كافور خير شاهد على ما نذهب إليه .

النقطة الثالثة : التي نستخلصها من هذا الشعر تتصل **بالوضع الاجتماعي والسياسي** في قلب نجد ، إذْ تصور ما كان يدور في الخفاء على ألسنة الأعراب ، ورأيهم في الحاكم السعودي ، وما كان يُبَيِّته الأتراك الحاكمون ويحوكونه في الظلام لتلك المنطقة بعد غزو الدرعية .

والعجب أن المؤرخين الذين كتبوا تاريخ هذه الحِقبة الممتدة من زمن خراب الدرعية إلى توحيد أكثر أجزاء الجزيرة أيام عبد العزيز بن عبد الرحمن اقتصر اهتمامهم على تتبع الحركات السياسية ، وتحركات الأمراء وحروبهم المختلفة دون سواها .

وفي الحقيقة لم يكن شعراء الدعوة يقصدون إبراز صورة هذه الجوانب متعمدين بل قصدوا مدح أميرهم ، أو حثّه على تطهير الأرض ممّا علق بها ، وتخليص العباد من الأذى الذي ينالهم في حياتهم . وكان ابن مشرّف الأول في هذا التصوير، ثم ابن عثيمين . أما ابن سحمان فليس له دور ولا قول ، وقد سبق أنْ وصف البادية وأهلها بأطيب الأوصاف وخلع على « الأئمة » أبهى الحلل .

والقصائد التي تطرقت إلى هذه النقطة قليلة، بل نادرة ، والعجيب أننا لا نجد شاعراً وصف نجداً وما آل إليه أمره بعد معاركه مع المصريين . وكان المأمول من الشعراء أن يستفيضوا في الحديث ، وقد عوّدونا ذلك في جميع الأزمنة والأمكنة . ويراودنا الشك في أمر سكوتهم، ثم يغلب على ظننا آخر المطاف في التفكير أنهم نظموا وتحدثوا، لكن يد الاهمال والضياع أتت على

ما قالوه . والذي تبقى لدينا قصيدة لابن مشرف ردّ بها على شاعر بصريّ مخاصم يسمى عثمان بن سَنَد البصري [1]، شتم فيها نجداً وأهله وشيخه، فانبرى له الشاعر ، وحمل عليه ، وفي خلال هذه القصيدة تراءت حالة نجد ووضعُ حكامها وأعرابها عَرَضاً . كذلك كان ابن عثيمين يمدح عبد العزيز عند فتحه كل بلد ، فيَرِدُ على لسانه صورة بعض ملامح الحياة دون أن يسعى إلى ذلك قاصداً .

تساءل ابن مشرّف في مستهل قصيدته عن الغشاوة التي أحاطت بالدنيا ، والسواد الذي جلل الأفق ، والفتن المظلمة التي ركب بعضها بعضاً . أكانت لأن علماء نجد مصابيحَ الهدى ماتوا ، فانكسفت شموس الهدى ، وران الظلام على البلاد ، وتضعضعت أركان الحق ، وانهدت دعائم الشرع ؟ ويجيب الشاعر نفسُه عن تساؤله بالإيجاب . أجل كل هذا كان . لقد سُلّ سيفُ الظلم على النور فهوى الحُماة ، وتمكن الغواة أن يجوسوا خلال الديار ، ويرتكبوا من الآثام ما يميد الراسيات [2] . وظل يصف ما حل بالبلاد إلى أن أتى على ذكر

---

١ مؤرخ أديب ، أصله من عرب عنيزة ، ولد بنجد (سنة ١١٨٠ هـ/١٧٦٦ م) وسكن البصرة وتوفي ببغداد (سنة ١٢٤٢ هـ/١٨٢٦م) من كتبه « الغرر في وجوه القرن الثالث عشر » ، « ومطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود » ، وكتب أخرى ، وكان شاعراً (الأعلام ٣٦٧/٤) .

٢ قال ابن مشرف :

أَلَيْلٌ غشا الدنيا أم الأفق مُسْوَدُّ ... أم الفتنة الظلماء قد أقبلت تعدو
أم السرُج النجدية الزُهْرُ أُطفِئت ... فأظلمتِ الآفاق إذْ أظلمتْ نجد
نعم كُوِّرتْ شمس الهدى وبدا الردى ... وضُعضع ركنٌ للهدى فهو منهد
لَدُنْ حلّ بالسمحاء خطبٌ فأوحشت ... مساكنها وازور عيش بها رغْد
تمرق أهلوها وسُلّ على الهدى ... سيوفٌ على هامات أنصاره تشدو
وفُلّ حسامُ الدين بل ثُلّ عرشُه ... لَدُنْ غاب من آفاقه الطالع السعد =

الفواحش، فقال : إن الزنى قد فشا ، والاثم انتشر ، ولم يعد يقام الحد ، أو تُنفذ العقوبة ، كما عمت الفتن ، وطُلَّت الدماء المحرمة ، وضلت عصابات كثيرة ، بل ارتدت عن الدين ، وامتلأت السبل بالأعراب قطاع الطريق ، وذاعت الفوضى[1] ، وشاع بين الناس أنّ دولة التوحيد دالت ، ولن يردها حاكم ، أو يُرجعها مخلوق[2] .

وفي قصائد أخرى وقعنا على موقف الأعراب البداة قطاع السبل من بقية المواطنين ، ومن الأمير الإمام فيصل بن تركي ، وعلى الدوافع الخفية التي كانت تغريهم بالاستمرار في الفتك والسفك والنهب . وجدناهم – في قصائد الشعر – يغيرون على كل مسافر في وضح النهار ، فيقتلون ، وينهبون ، ثم يعودون فخورين بما فعلوا . لا يخافون عقوبة حاكم ، ولا يخشون سوط ضارب ، ولا يرهبون ثأر ثائر . لا يسألون عن القوافل إلى أين اتجاهها ؟ أتقصد بيت الله حاجة أم سبيلاً أخرى ؟ وتنهبها وقد تقتل ركبها . وتلوح في بعض الأبيات صورة المواطنين الذين يئسوا من صلاح الأوضاع واستقرار الأمن في الربوع ،

= بأيدي غواة مفسدين لقد عثَوا ... وجاسوا خلال الدار وانتثر العقد
فآهٍ لها من وقعة طار ذكرها ... وكادت تميد الراسيات وتنهد

١ وقال ابن مشرف في القصيدة نفسها :

فلما مضت تلك العصابة لم يقم ... بِعَدْلِهِم مَنْ ضمّه الشام والسِّند
ولكنْ فشا فيها الزنى وبدا الخنا ... فلم تُنْكَر الفحشا ولم يُقَم الحَدّ
فكم فتنة عمت وكم طُلّ من دم ... حرام وكم ضلت عصائب وارتدوا
وكم قطع السبلَ البوادي وأفسدوا ... فصاروا بها مثل الذئاب التي تعدو

٢ وذكر ابن مشرف إشاعة بعض الناس :

وأقسم قسم أنها دولة مضت ... وليس لما قد فات عَوْد ولا ردُّ
وقلنا لهم نَصْرُ الآله لحزبه ... به جاء في القرآن والسنة الوعدُ

فراحوا يمرون على الأموات يغبطونهم على أمنهم وسلامهم ، ويتمنون أنْ لو كانوا مكانهم [1] .

أما موقف الأعراب اللصوص من الحاكم الإمام فقد برز في مواضع عدة في شعر ابن مشرّف . إنهم كانوا يتواصون بالاطمئنان ، وعدم المبالاة بالأمير ، وجنده ، وعقوبته ، ويتناصحون بالإغراء في سفك الدماء ، ونشر الفوضى ، بغية ارتفاع شكوى الناس عليهم ؛ لعل الأمير يترضاهم ويتألفهم ولا يعاقبهم ، أو يدفع لهم بذلك المال الوفير . وفي كلٍّ خير [2] .

ونلمس في شعر الدعوة تعريضاً بفيصل بن تركي ، واتهامه بالتثاقل والتخاذل عن شن الحروب ، كما نقرأ فيها سؤال الناس بعضهم بعضاً : ما بال حماة نجد غافلين ساهين عمّا يجري في ديارهم ؟ أأخذ منهم اللهو واللعب كل مأخذ ؟ أكَلّتْ سيوفهم عن الضرب وتثلمت ؟ أعجزت سواعدهم عن حمل الصوارم

---

١ قال ابن مشرف في القصيدة الرابعة عشرة :

يغيرون في أطرافها وسروحها ... جهارا ولا يخشون سوطاً لضارب
فكم قعدوا للمسلمين بمرصد ... وكم أفسدوا في سبلها بالنهائب
يقولون سيروا إنْ ظفرتم بنهبة ... على رسلكم لا تحذروا درْك طالب
وإنْ تسفكوا فيها الدماء فإنها ... لكمْ هَدَرٌ لا تحذروا من معاقب

قال ابن عثيمين في القصيدة الثانية في معرض مدحه عبد العزيز :

كنا نمر على الأموات نغبطهم ... من قبله إذ تولى الأمرَ أشرار

٢ قال ابن مشرف في القصيدة الثالثة والعشرين :

أساءوا جميعاً في الإمام ظنونهم ... فقالوا ضعيف الجند في أخلاقه حصر
نغير على بلدانه ونخيفها ... ليعرفنا الوالي وينمو لنا الوفر
فإن لم نصبْ ما قد أردنا فإنّه ... صفوحٌ عن الجاني ومن طبعه الصبر

[قد يكون الضمير (الهاء) في الشطر الأول من البيت الأخير عائداً على الوالي ، وحينئذ فلا شاهد على ما نقول] .

والرماح ؟ أغرّتهم الأماني الخلابة الكواذب ؟ بل ماذا جرى للأبناء حتى صارت تلعب بهم صغار الثعالب، وكانت أسود الشرى تخشى بأس آبائهم ؟ ما بالهم سالموا الخصم ورضوا بالهوان ؟ أوَلا يعرفون ما ذا ينال مَنْ يهادن الخصم ويأمنه ؟ [1] .

ومن ثنايا شعر الدعوة وجدنا الخمرة في مدينة الرياض [2]،والاثم معروفاً في منطقة الأحساء [3] ، قبيل فتح عبد العزيز لهما . وأكثر من هذين أنه حُكِم بالدستور في بعض الجهات [4] .

الخلاصة ، حصر شعراء الدعوة « الإسلام » في دائرة السلف الصالح

---

١ قال ابن مشرف في القصيدة الرابعة عشرة :

فيا ليت شعري هل سَراةُ حماتها ... نيام فهم بين لاهٍ ولاعب
أم الحدُّ منهم كَلَّ أم زندهم كبا ... أم القوم غُروا بالأماني الكواذب
لقد كان تخشى بأسَهم أسْد الشرى ... فصارت بهم تعدو صغار الثعالب
. . . فقل لإمام المسلمين وسِرْ له ... بنفسك أو أبلغه مع كل راكب
وأنشدْه إنْ أحسستَ منه تثاقلا ... « إذا لم يسالمك الزمان فحارب »
ولا تحقر الخصم الضعيف لضعفه ... فكم خرَّب الجرذان في سد مأرب
فإنْ أنت سالمت العدو مخافة ... فأيسرُ ما تلقاه بول الثعالب

٢ قال ابن عثيمين يمدح عبد العزيز في القصيدة الأولى :

فبيّت القوم صرعى خمر نومهم ... وآخرين سكارى بابنة العنب

٣ وقال نفسه عن الأحساء في القصيدة ذاتها :

فتح به أضحت الأحساء طاهرة ... من رجسها وهي فيما مر كالجنب

٤ وقال نفسه عن الأحساء في القصيدة الحادية عشرة :

ويُحْكم بالدستور بين ظهوركم ... وحكم النبي المصطفى ليس يُذكَر
فإن كان محض الحق والفسق والخنا ... لديكم هو الدين القويم المقرر
فقد صح ما قيل فيكم وإنّكم ... لأحرى بما قد قيل فيكم وأخطر

ومن سار سيرتهم ، وانكبوا عليهم مدحاً وتمجيداً . فنال محمد بن عبد الوهاب النصيب الأوفى ، ونال أبناؤه وذووه والأسرة السعودية وأهل نجد ما تبقى من مدح .

وتميز هذا الشعر بصدق العاطفة، وحرارة المشاعر . ولا سيما فيما قيل في الأسرة الدينية . ولئن كان المداحون في العصور السالفة يأملون عطاء الممدوحين وخيرهم ، فهؤلاء الشعراء لم يهتموا بذلك ، ولم يسعوا سَعْيَ أسلافهم . كانوا يمدحون عن إيمان واعتقاد بصدق ما يقولون . ويلفت نظر المدقق في سيرتهم الخاصة أنهم عاشوا — جميعاً — فقراء ، لم يشهدهم أحد من معاصريهم مدوا أيديهم لتناول أجر المديح وقبض ثمنه من أئمتهم أو شيوخهم ، كأنهم كانوا يقولون : إن من مدح في سبيل الله فلينتظر منه أجره .

أما أسلوب هذا المديح فليس ممّا يشبه روائع الفحول من القدامى المداحين كالنابغة والحطيئة وجرير والمتنبي ، بل هو إلى صفة « الكلام المنظوم » أقرب إلاّ قليلاً من قصائد ابن عثيمين فقد سَمَتْ سُمُوّاً كبيراً .

* * *

واليوم وقد تشابكت علاقات « المملكة العربية السعودية » مع مختلف دول العالم تَرِدُ علينا الأسئلة التالية : هل بقي لدعوة ابن عبد الوهاب شعراء خاصون ، أو كُتّاب متميزون ؟ وهل تأثر أولئك الأدباء — إنْ وجدوا — بالثقافات الأجنبية العربية والغربية ؟ وكيف يوفق المتأثرون بهذه الثقافات بين مبادىء الدعوة وآرائهم ، أو بالأحرى : هل في نتاج هذه الفئة أثر للدعوة وكيف يوفقون بين العقيدة والثقافات المختلفة ؟

في الجواب عن هذه الأسئلة نقول : لم يبق في المملكة كلها شاعر واحد يقف إنتاجه كله على نظم مبادىء الدعوة ، ويجابه آراء الخصوم فيرد عليها ، ويعيد بيان رأي العقيدة فيها ، ثم ينعت قائليها بالكفر والإلحاد والردة وما

أشبه ذلك كما نظم ابن مشرّف تلك المبادىء ، ورد ابن سحمان على الخصوم وكفّرهم ، وجابه ابن عثيمين أعداء عبد العزيز .

ولِمَ نذهبُ بعيداً وأمامنا الوضع الاجتماعي والسياسي في المملكة ؟ لقد انتصر عبد العزيز على كل خصومه ، وانتهى أمر الجزيرة إلى طاعته وتطبيق مبادىء دعوة ابن عبد الوهاب تطبيقاً عملياً ، بل إنها اليوم المادةُ الرئيسيةُ في مناهج التعليم الرسمية والخاصة في مدارس البنين والبنات وفي جميع مستويات التعليم ؛ ومن ثَمّ لم تبق خصومة أو جدال في أمر هذه العقيدة بين المناطق المختلفة في الدولة ، ولم يبق أحد بحاجة إلى نظمها لنشرها بغية حفظها ونقلها وروايتها .

أما في خارج حدود المملكة فإن شعراء العالم العربي — خاصة — شغلوا في العصر الحاضر بأمور بلادهم الاجتماعية والقومية والإنسانية ، وبمجابهة الأعداء المتكاثرين على العالم العربي ، وبمعالجة القضية الفلسطينية التي تعقدت وزاد خطرها . ومن الطبيعي ألا نرى ولا نسمع أديباً واحداً يتخلى عن جميع تلك القضايا ، وينصب على الدعوة السلفية هجوماً وعداء . وعلى فَرضِ وجود ذلك الإنسان فإنه ليلقى الاستنكار والتعنيف من كل الناس ؛ لأنه يتحدث فيما لا يجوز الحديث فيه ، أو في وقت غير ملائم لهذا النوع من الحديث . وطبيعي أن سكوت الشعراء في البلاد العربية عن الخوض في أمر الدعوة يقابله سكوت آخر في قلب المملكة جواباً عنه .

بعد هذا يمكننا أن نقرر أنه لم يعد أمر البحث في ثقافات شعراء الدعوة العربية والغربية وأثرها في توجيههم وارداً ؛ لأنه لم يبق لهم وجود أصلاً . لكن هل انعدم الشعر الديني في المملكة بعد انتصار عبد العزيز ، وأمام مشكلات العالم العربي ؟ نجيب نحن بـ « لا » . إن في المملكة اليوم شعراً دينياً غزيراً ، بل ربما نُظِم في هذه الحقبة ما يوازي إنتاج أجيال كاملة منه . الميزة الأولى

لهذا الشعر الدافق سموُّه عن الخلافات المذهبية ، وشموله المسلمين في داخل المملكة وخارجها . ففيه الدعوة إلى حب الإنسان لأخيه الإنسان بعيداً عن صُوَى الحدود والإقليمية والسياسة ، وفيه النداء المخلص إلى الوقوف صفاً واحداً أمام الأخطار الغربية والشرقية الاستعمارية والإلحادية . وهو في الوقت ذاته انعكاس لدعوة « التضامن الإسلامي » التي يسعى إلى تحقيقها الملك فيصل ابن عبد العزيز [1] .

هذا الانفتاح والتسامح شجعا عدداً من شعراء المملكة على أن ينظموا في بعض المناسبات الدينية ، وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا التطور الجديد الذي تعيشه المملكة اليوم . ومن هذه المناسبات تعظيم المدينة المنورة لأنها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم [2] ، والإشادة بمولد ساكنها [3]. وقد كان الشعر والحديث في مثل هذا قبل محرماً .

---

١ سيكون تفصيل هذه النقطة في بحث الأدب السياسي القادم .

٢ قال ضياء الدين رجب قصيدة بمناسبة الهجرة النبوية عنوانها « المدينة المنورة » نشرتها جريدة « البلاد » في ٧ محرم ١٣٨٨ هـ = ٥/٤/١٩٦٨ م :

جادكِ الغيثُ أماناً وسلاما … ورضًى سمحاً ويُمناً وابتساما
يا دياراً حَلَّم الغيث بهـــا … يتحراها سحاباً وغمــاما
فإذا ما انبجست أنــواؤه … ذاب حباً في مغانيها وهاما
شامهـــا بارقــةً معطورة … شمّها جبريل من قبلُ وشاما
دونها الخلد بمــا ألْبَسَتها … صانعُ الخلد جمالاً ومقاما
الشذى يألق من لألائهـــا … والسنا ينضح عطراً وخزامى
والدُّنا تسبح في أفـلاكها … تعبر النورَ الذي ينسى الظلاما
إنّـــه الحب إذا أوريتــه … باللظى خاض عراكا وزحاما

٣ وقال نفسه في قصيدة عنوانها « صباح الهدى » وقد نشرت بمناسبة مولد الرسول (ص) في جريدة البلاد ١١ ربيع الأول ١٣٨٨ – العدد ٢٨٣٢ . =

لكن يجب ألاّ ننسى أنه بين الفينة والفينة تنشر في بعض الصحف مقالات ومحاورات نثرية في القضايا الدينية ، وجميع كتّابها من رجال العلم والدعوة والدين [1] .

= أشرقْ صباحَ الهدى أشرقْ فقد ظمئتْ ... إلى الهدى العذب أنفاسٌ وأكبادُ
أشرقْ بسرِّك فالدنيا التي اتّسعَتْ ... يوم انبثاقك أغلالٌ وأصفاد
شاهتْ وضاق بها في السهل متّسَعٌ ... وعافها الحَزْن لا ماءٌ ولا زاد
أشرقْ صباحَ الهدى أشرقْ ولو أملا ... تَنَدّى به أربعٌ جفت وأمهاد
أشرقْ فأبناءُ أهليه وأمته ... كما يروم العدى والركنُ منهاد
تماسكوا وتمزقنا فشملهمو ... أضحى جميعاً وشملُ العرب آحاد

[1] انظر في المحاورة التي دارت بين الشيخ عبد العزيز بن باز نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، والشيخ محمود الصواف المدرس بكليّتي اللغة العربية والشريعة بمكة المكرمة والتي نشرت بجريدة « الدعوة » بالرياض في أعداد سنة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م ، وانظر في جريدة الندوة ١٣٨٧/٥/٢٤ هـ ، المناقشة بين الشيخ ابن باز وصالح محمد جمال .

الباب الثاني

المؤثرات المباشرة في النهضة الأدبية

في سبيل دراسة أدب المملكة العربية السعودية دراسة صحيحة ، وكاملة، أوضحنا في الباب الأول المؤثرات السياسية والتاريخية والدينية في حياة المملكة . وهي – في حقيقتها – عوامل غير مباشرة، كان لها أثر في توجيه الأدب والفكر وأسلوب الحياة في قلب الجزيرة ، سنلمسها في مواطن عدة ، ونحس بها في كثير من الإنتاج الأدبي .

وفي سبيل إيضاح الصورة الأدبية المعاصرة في المملكة بشكل أوضح سنعمد في هـذا الباب الثاني الذي دعوناه « المؤثرات المباشرة في النهضة الأدبية » إلى أن نقف وقفة مطمئنة على العوامل الكبرى المباشرة التي كان لها أثر كبير ، وواضح ، في دفع الأدب السعودي دفعة عنيفة إلى الأمام ، وفي رفع مستواه الفكري والأسلوبي ، وتقريبه من نظيره في البلاد العربية الأخرى شكلاً ومضموناً .

ويخيل إلينا أن من الواجب علينا قبل البدء في دراسة الأدب أن نتعرف **الصحافة** في البلد الذي ندرسه : من حيث نشأتها ، ومستواها ، وكتابها ، وعلاقتها بالأدباء والناس ، وعلاقة الأدباء والناس بها وما إلى ذلك من أمور . كذلك ينبغي علينا أن نعرف ما في البلاد من **مدارس** ، ونسبة المتعلمين وغير المتعلمين ، والمراحل المختلفة للتعليم ، وألوان العلوم التي يدرسها الطلبة ، والبقاع التي تنتشر فيها المدارس ، ثم مستوى هذه المؤسسات من حيث المناهج والقائمون على التدريس ، والتطورات التي حدثت، والروح العامة التي تسودها فتؤثر في طلبتها أول الأمر ثم في أفراد المجتمع ثانياً . كذلك يجب الوقوف

ملياً على المناهل الأخرى للثقافة **كالمكتبات** ، **والمطابع** ، **والإذاعة** وغيرها ؛ ونتعرف ما تحتويه مكتبات الجزيرة من مصادر قديمة ، وما يدخل عليها من كتب حديثة ، وأي الألوان الثقافية هي المفضلة لدى القراء والدارسين ، وأي الكتب مرغوب عنها . أو هل تقوم المكتبات بواجبها ، أو أنها مقصرة ، وما أسباب ذلك ؟ كذلك الأمر في المطابع ، ونشاطها ومدى ارتباط الأدباء بها أو ارتباطها بهم ، أوَ يمكن للمطابع أن تطبع بيسر وسهولة إنتاج الأدباء أو أنها تقصر في خدمتهم ، وما الداعي إلى هذا التقصير ؟ كذلك الأمر في معرفة ما تقدمه الإذاعة من مناهج ، ومدى علاقتها بأرباب القلم ، والنهج العام الذي تسير عليه .

تلك هي الفقرات الرئيسة للباب الثاني . ولقد فصلنا كل مؤثر من المؤثرات المباشرة في فصل خاص مستقل . فخصصنا الأول بالصحافة والإذاعة ، والثاني بالتعليم ، والثالث بالمكتبات والمطابع . وحاولنا – قدر المستطاع – التفصيل والاستقصاء ليكون البحث وافياً بالغرض الذي نسعى إليه .

الفصل الأول

الصحافة والإذاعة

الحديث عن الصحافة وتطورها واتجاهاتها في قلب الجزيرة العربية عسير المسالك ، تكتنفه صعوبات عدة . أولها : ضياع أكثر ما صدر من جرائد ومجلات في عهد الحكم التركي والهاشمي ، وخلوّ دوائر وزارة الإعلام، والمكتبات العامة، والمؤسسات الحكومية من المجموعات الكاملة للصحف الأولى في العهد السعودي . وثانيها : عدم اهتمام غالبية الناس بجمع هذا اللون من المطبوعات . وإذا كان عند فريق أعداد منها فلأنها تضم مقالات كتبوها ، أو قصائد نظموها، أو آراء أدلوا بها ، أو نقداً انتُقِدوا به ، أو شيئاً ما يمسهم من قريب أو بعيد . والصعوبة الثالثة : قلة المؤرخين لهذه الصحافة بل ندرتهم ، إذ ليس في البلاد أكثر من أربعة أفراد كتبوا في هذا الموضوع وهم : رشدي مَلْحَس[1] ، ومحمد حسين نَصيف[2] ، ومحمد سعيد العامودي[3] ، وعبد القدوس

---

١ مؤرخ وكاتب وصحافي . اختير أمين سر « جمعية العهد العربي بالقسطنطينية وتولى رئاسة تحرير « أم القرى » . من آثاره « تقويم الأوقات » و « تقويم أم القرى » و « سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم » و « تاريخ الصحافة » (كحالة ، ملحق الجزء الثالث عشر من معجم المؤلفين ص ٣٨٧) .

٢ ولد بجدة سنة ١٣٢١ هـ/١٩٠٣ م ، وتوفي بمصر سنة ١٣٧٩ هـ/١٩٥٩ م . تخرج من المدرسة الهاشمية بجدة ، وعين رئيساً لهيئة الأمر بالمعروف فيها ، ثم ترك حقل الوظائف الحكومية ، ورأس الشركة التجارية العربية بجدة . له كتاب « ماضي الحجاز وحاضره » (الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة ص ٤٩٢) .

٣ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م ، ودرس في مدرسة الفلاح، وكان له شغف =

الأنصاري[1] . وتبدو دراستهم جميعاً متشابهة ، وقد تتفق في الجمل والألفاظ في كثير منها .

ولقد حاولت « مديرية الصحافة » التابعة لوزارة الإعلام أن تصدر بحثاً عن « الصحافة السعودية »[2] فجاء مكروراً ، فيه الكلام ذاته الوارد في كتابَيْ العامودي والأنصاري[3] ، بل قصّر عمّا أورداه في عدد من النقاط . ويبدو أن « أديب مُرُوَّة »[4] قد استعان ببحثه عن الصحافة السعودية في كتابه « الصحافة

= كبير بالمطالعة الخاصة ، فاجتمعت لديه مكتبة حافلة بشتّى الكتب . أجاد في نظم الشعر وفن النثر ؛ فنشرت له « المقتطف » « والهلال » المصريتان كثيراً من إنتاجه . عمل في وظائف عدة منها عضوية مجلس الشورى . ومثل المملكة في مؤتمرات عربية أدبية، كما أشرف على تحرير « صوت الحجاز » وما يزال يشرف على مجلتّي « الحج » و « رابطة العالم الإسلامي » . (الكتاب الفضي للمنهل ص ٥٧) .

١ ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٤ هـ/١٩٠٦ م . ودرس فيها ، عمل في عدة وظائف، وآخرها في ديوان نائب جلالة الملك بالحجاز ؛ أنشأ مجلة « المنهل » سنة ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م الشهرية ولا تزال تصدر . له مؤلفات عدة ، منها « تاريخ مدينة جدة » و « التحقيقات المعدة بحتمية ضم جيم جدة » و « آثار المدينة المنورة » و « السيد أحمد الفيضي آبادي ، وقصص، وديوان شعر » (المنهل – عدد الأدباء مجلد ٢٧ ص ٩١٣) .

٢ « الصحافة السعودية » كتيب أصدرته وزارة الإعلام بتاريخ ١٣٨٣/٨/٢٤ هـ/١٩٦٣ م ، وطبعته في « مطابع دار الأصفهاني وشركائه بجدة » ويحتوي على مقدمة قصيرة، ونبذة عن تاريخ الصحافة ، وبيان وزارة الإعلام في سبب إلغاء الصحف الفردية ، ونظام المؤسسات الصحفية . وهو في اثنتين وثلاثين صفحة من الحجم الصغير .

٣ جاء بحث العامودي عن الصحافة في كتابه « من تاريخنا » وقد طبع هذا الكتاب مرتين . ثانيتهما سنة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م ، وتولت نشره « الدار السعودية للنشر» . وجاء بحث الأنصاري في « الكتاب الفضي للمنهل » الذي صدر بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على صدور مجلة المنهل ، وتاريخ صدور هذا الكتاب الفضي في ١٦ ذي القعدة ١٣٧٩ هـ/١٩٦٠ م .

٤ صحافي لبناني يعمل في جريدة « الحياة » البيروتية . أصدر عدة كتب منها « مسارح وأبطال » ، و « تأشيرة إلى أوربا » ، و « المسألة » عن فظائع التعذيب في الجزائر ، و « العلاقات الخطرة » ، و « التضحية الكبرى » ، و « الصحافة العربية – نشأتها وتطورها – » . (مقتبسة من مقدمة كتابه : الصحافة العربية) .

العربية : نشأتها وتطورها » بما كتبه الأديبان السعوديان المشار إليهما ، كما أن بحث « الفيكونت فيليب دي طَرّازي »[1] في الجزء الرابع من كتابه « تاريخ الصحافة العربية » لا يسمن ولا يغني من جوع .

وهذه الدراسة استُقِيت من المصادر المذكورة ، ومن الصحف المختلفة التي أمكننا العثور عليها في المكتبات العامة داخل المملكة العربية السعودية وخارجها[2] ، وفي مكاتب بعض الأدبـاء السعوديين[3] أو دورهم الخاصة[4] ، ومن « نظام المطابع والمطبوعات »[5] و « نظام المؤسسات الصحفية »[6] اللذين أصدرتهما وزارة الإعلام السعودية ، إضافة إلى الأحاديث الشفوية مع بعض

---

١ ولد ببيروت سنة ١٢٨٢ هـ/١٨٦٥ م ، درس في المدرسة البطريركية ، وكلية الآباء اليسوعيين ، ثم انصرف إلى التجارة ، وانتخب عضواً مراسلا للمجمع العلمي العربي بدمشق ، وساهم في تأسيس دار الكتب الوطنية في بيروت ، وعين لها أميناً ، وتوفي بعاليه سنة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦ م . من تصانيفه « تاريخ الصحافة العربية » ، و « خزائن الكتب العربية في الخافقين » ، و « عصر العرب الذهبي » ، و « بحث تاريخي علمي عن القرآن » (عمر رضا كحالة معجم المؤلفين ٨/٨٩) .

٢ عثرنا على جزء من مجموعة « القبلة » في مكتبة الحرم بمكة المكرمة، وعلى مجموعتي « القبلة » و « أم القرى » بمكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت كاملتين .

٣ اطلعنا على مجموعة « اليمامة » الكاملة بمكتب حمد الجاسر ببناية العازارية ببيروت .

٤ اطلعنا على مجموعة « عكاظ » بمنزل أحمد عبد الغفور العطار بمكة المكرمة، وعلى صحف متفرقة بمكتبة الشيخ محمد نصيف بجدة .

٥ كتيب أصدرته وزارة الإعلام السعودية ، ويتضمن « تعاريف ببعض الألفاظ الواردة فيه وأحكاماً عامة ، وأحكاماً خاصة بالصحف ، والنقد ، والعقوبات ، وهو في عشرين صفحة من القطع الصغير . طبع بمطابع الاصفهاني بجدة دون أن يذكر تاريخ طبعه .

٦ كتيب أصدرته وزارة الإعلام السعودية تضمن « المرسوم الملكي بنظام المؤسسات الصحفية الأهلية ، وأعضائها ، وإدارتها ، وتحريرها » وهو في إحدى عشرة صفحة طبع بمطابع الأصفهاني بجدة . ولم يذكر تاريخ طبعه .

الذين عملوا في الصحافة [1] ، ومع عدد من المسؤولين في مديرية الصحافة [2] بمدينة الرياض .

من هذه الحصيلة التي تجمّعت نرى أن البحث ينشعب إلى فرعين : **أولهما** يدور حول الصحافة في عهد الحكم التركي ، ثم في عهد الحكم الهاشمي في الحجاز . **وثانيهما** حول الصحافة في ظل « المملكة العربية السعودية »، وهذا الدور مرّ بمرحلتين : صحافة أفراد أولاً ، ثم صحافة مؤسسات ثانياً .

الصحافة قبل توحيد البلاد

بحث الصحافة في هذه الحقبة لا يشمل إلاّ منطقة الحجاز دون غيرها من البلاد العربية السعودية ؛ لأن المناطق الأخرى كنجد وعَسير وحائل والأحساء كان يسودها الجهل وتسيطر عليها الأمية . أما الحجاز فله من المميزات ما يُسوّغ ظهور الصحافة فيه قبل غيره .

نرى في هذا الدور طورين للصحافة : تركياً ، وهاشمياً . أما **التركي** فيُحَدَّد مبدؤه من صدور الدستور العثماني سنة ١٣٢٦ ﻫ / ١٩٠٨ م إلى بدء ثورة الشريف حسين التي دُعيت « بالثورة العربية الكبرى » سنة ١٣٣٤ ﻫ/ ١٩١٦ م .

وفي هذا العهد برزت خمس صحف : أولها جريدة « **حجاز** » التي عُنيت بالآداب والعلوم ، وحُرّرت بالعربية والتركية ، وكانت الناطقة

---

١ منهم حمد الجاسر ، وعبد الله بن خميس ، وفؤاد شاكر ، وعبد الله بن إدريس ، وعبد الكريم الجهيمان ، وسعد البواردي، وأحمد عبد الغفور العطار ، وعبد القدوس الأنصاري ، وأحمد قنديل ، ومحمد حسن فقي ، وزيد بن فياض ، وحمد الفهد العيسى ، وعلي العمير ، وعبد الرحمن المعمر .

٢ منهم غالب حمزة أبو الفرج مدير الصحافة في وزارة الإعلام .

باسم السلطة التركية ، وهي الجريدة الوحيدة التي امتد أجلها سبع سنوات . وغربت حين أشرقت الثورة العربية الكبرى من مكة المكرمة . والجرائد الباقية صدرت بعد ظهور الأولى بسنة واحدة ، تحمل إحداها اسم « **شمس الحقيقة** » بمكة ، والثانية « **الإصلاح الحجازي** » بجدة ، والثالثة « **الرقيب** » بالمدينة المنورة ، والأخيرة « **صَفا الحجاز** » بجدة . وكان عُمُر هذه الصحف الأربع يتراوح بين عدة أشهر ويوم واحد .

ولم يكن لهذه الصحف قيمة أدبية أو علمية أو سياسية، كما أنها لم تكوّن وعياً ، أو توجهْ فكراً؛ لأن القائمين على أمرها لم يكونوا مهيَّئين فنياً للعمل الصحفي ، ولأن القراء قلة عدداً ، ومادة الجريدة أضعف من أن تستهويَهم ، وأخبارها تافهة مقصورة على جزئيات وصغائر . وهذا مثال من إحدى افتتاحيات « شمس الحقيقة » بتاريخ غرة ربيع الأول سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م بعنوان « تنبيه » : « ينبغي لمن يشاء أن يكاتبنا في موضوع أن ينبذ وراءه المصلحة الذاتية ، فإن الأفكار الراقية التي لا تعميها الأغراض الشخصية ، ولا الأطماع الذاتية تنظر بنور الله إلى مصلحة الوطن العمومية . . . ليَخْشَ اللهَ المكاتبون ، ولْيتقِ اللهَ المحررون ، ولا يحرروا لجريدتنا سوى الحقيقة لأنها « شمس الحقيقة » ثم ليكتبوا في دائرة واجبات الصحافة الحرة التي ذكرناها سابقاً، لأن جريدتنا تتنزه عن المُثالبَة وما ضاهاها . نسأل اللهَ حُسْنَ التوفيق لسعادة الوطن » .

والطور الثاني في هذه الحقبة : يمتد من بدء الثورة العربية الكبرى واستقلال الشريف حسين بالحجاز سنة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م إلى أن قُضِيَ على حكم الهاشميين سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م . في هذه الحقبة القصيرة ظهرت ثلاثُ جرائد ومجلة واحدة . والجريدة الأساسية الرسمية هي «**القِبْلة**» ، صدر العدد الأول منها بتاريخ ١٥ شوال ١٣٣٤ هـ / ١٩١٥ م ، وقد كُتِب تحت اسمها :

«جريدة دينية سياسية اجتماعية تصدر مرتين في الأسبوع» . ويبدو أن «القبلة» أصابها حظ كبير من العناية ؛ إذ تولى رئاسة تحريرها الشيخ «فؤاد الخطيب»[1] وبعض كبار كتّاب الحجاز والعالم العربي ، حتى الشريف حسين كان يشترك في تدبيج مقالات سياسية وأدبية ، ويوقّعها باسم مستعار ، وغالباً ما يكون «ابن جلا» . وظلت «القبلة» الجريدةَ الرسميةَ إلى منتصف سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م ، وتوقفت بتغيُّر وجه الحكم في الحجاز . وكان جملة ما صدر منها ثمانمائة واثنين وخمسين عَدَداً . والحق يقال: إن «القبلة» كانت مدرسةً للأدب والبلاغة وفن الكتابة . وقد شهدتْ بهذا جريدة السعوديين الرسمية «أمُّ القُرى»[2] التي حلت محلها . وكانت افتتاحيات فؤاد الخطيب مثالاً يحتذى أدباً وفكراً ، وحسن عرض وتحليل .

لقد كانت جريدة «القبلة» المنبر الحر الذي أذاع منه الأدباء العرب في الحجاز وفي العالم العربي والمهجر[3] أروع إنتاجهم القومي ، ضد الأتراك ،

---

١ ولد في قرية «شحيم» بلبنان سنة ١٢٩٨ هـ/١٨٨٠ م ، وكان والده رئيس محكمة لبنان . درس في بيروت وتخرج من الجامعة الأمريكية فيها ؛ واشترك في الجمعيات السرية العربية ضد الأتراك ، فحكم عليه جمال باشا بالإعدام فهرب إلى مصر. تنقل في فلسطين ومصر والسودان ثم استقر في الحجاز ، وتولى فيه رئاسة تحرير جريدة «القبلة» ثم عين وكيل وزارة الخارجية الهاشمية، فوزارة الخارجية، وترك الحجاز حين استولى عليه ابن سعود ، فاستدعاه هذا، وبعثه سفيراً له في أفغانستان. لقب بشاعر الثورة العربية الكبرى وشاعر العروبة . طبع ديوانه مرتين آخرهما بدار المعارف بمصر سنة ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٩ م . (رياض الخطيب ، مقدمة ديوان الخطيب ص ٦) .

٢ جاء في «أم القرى» في معرض نقد كتاب «خواطر مصرحة لمحمد حسن عواد» قول الناقد: «ونجد كتاب الحجاز أبناء مدرستين. فهم: إما تلامذة جريدة القبلة وما فيها من كمالات ونجاحات وإحساسات وتحسسات . . . وإما تلامذة جبران بروحه المتقطعة . . .» (العدد ١١٢ – السنة الثالثة تاريخ ١ شعبان سنة ١٣٤٥ هـ/٤ فبراير ١٩٢٧ م) .

٣ انظر في القبلة الأعداد : ٣ ، ١٦ ، ٥٨١ ، ٦١٥ .

والفرنسيين ، والصهاينة ، والانكليز ، والمستعمرين[1] دون أن يخشوا رقيباً يمسخ من قصائدهم شيئاً ، أو يَحُدُّ من حريتهم[2] . ولهذا السبب فإنه يبدو لنا أن جريدة « القِبلة » عامل مباشر يشترك وعواملَ أخرى في نهضة الفكر والأدب في شبه الجزيرة العربية .

أما الجرائد الحجازية الأخرى فلم تَسْمُ إلى مرتبة « القِبلة » بل لم تقترب من مستواها الفكري والأسلوبي ،وراحت تصدر ضعيفة باهتة مبهورة الأنفاس . فجريدة « **الفَلاَح** » المكية التي صدرت سنة ١٣٣٨ هـ / ١٩١٩ م توقفت بعد ستة وأربعين عدداً . كما توقفت جريدة « **بريد الحجاز** » بعد صدور اثنين وخمسين عدداً . والأمر نفسه ينطبق على « **المجلة الزراعية** » التي أصدرها طلاب المدرسة الزراعية بمكة ، إذ لم يبرز من هذه المجلة سوى عددين أو ثلاثة .

ولو حاولنا الوقوف على الأسباب الحقيقية لضعف هذه الصحف وجدنا عوامل كثيرة ، فيها السياسية ، والاقتصادية ، والفنية ، والأدبية ، والفكرية .

والخلاصة ، لم يتمتع الحجاز بالصحافة الحقة إلاّ بـ « القِبلة » ولقد زعم أحد الكتّاب[3] أن هذه الجريدة كانت عديمة الحرية ، راسفة بقيود الحكومة الهاشمية ، مقيدة بأغلالها. ولكنا نرى أنها — رغم كل ما اتّهمت به — كانت المنبر الحر العربي في أيامها ، وكانت عاملَ بعث أدبي وفكري في الحجاز والجزيرة العربية عامة لا يمكن أن يُتجاهَل .

---

١ انظر في القبلة الأعداد : ١ ، ٢ ، ٣٠ ، ١٥٢ ، ٣٠٧ ، ٣١٥ ، ٤٤٣ ، ٥٨١ ، ٦٠٣ .

٢ انظر في القبلة الأعداد : ٨٢ ، ١١٢ ، ٢٤٩ .

٣ حسين نصيف ، ماضي الحجاز وحاضره ص ١٠٣ .

الصحافة بعد توحيد البلاد

وحّد عبد العزيز آل سعود أجزاء البلاد ، فاستقر نظام الحكم ، وانتشر الأمن ، وراحت الحضارة تغزو المملكة الوليدة ، وأخذت الصحافة تسعى نحو الكمال والمثل الأعلى ، وفي الطريق إلى ذلك تكبو هذه الصحافة وتنهض ، وتواجه العقبات، فتتخطاها حيناً ، وتتعثّر بها أحياناً ، وما تزال إلى اليوم في طور التجارب .

مرت الصحافة السعودية بتجربتين أو بعهدين : « **عهد الصحافة الفردية** » و « **عهد صحافة المؤسسات** » .

أما الصحافة الفردية فقد استمرت التجربة فيها أربعين سنة على وجه التقريب . وبالتحديد من سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤ م إلى سنة ١٣٨٢ هـ/١٩٦٣ م، وسميت بـ « الصحافة الفردية » لأن امتيازها كان يُعطى لفرد واحد في أكثر الأحيان .

وفي هذه الحقبة صدر ثلاث وثلاثون صحيفة ومجلة في أرجاء المملكة :

أولها « **أم القرى** » ظهرت بتاريخ ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣ هـ الموافق ١٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٤ م بمكة المكرمة ، وكانت تعويضاً عن « القِبلة » التي توقفت . واتصفت « أم القرى » بأنها جريدة الدولة الرسمية ، وما تزال على هذه الصفة إلى اليوم . تعاقب على رئاسة تحريرها كثيرون، أولهم يوسف ياسين [1] ، ثم رشدي مَلحَس ، ومحمد سعيد عبد المقصود [2] ، وعبد

---

١ من أصل سوري وفد إلى نجد ، فاتخذه الملك عبد العزيز سكرتيره الخاص ، وسلمه رئاسة الشعبة السياسية، ثم وزارة الخارجية بالنيابة، وكان ينوب عنه في كثير من الاجتماعات والمفاوضات (الخطيب ، الإمام العادل ص ١/١٢١ ، ١٣٢ ، ١٤٥ ، ١٨٧ ، ٢/٨) .

٢ ولد بمكة المكرمة وتعلم فيها،وعين مدير مطبعة أم القرى وجريدتها،وكان يوقع فيها باسم=

القدوس الأنصاري ، والطيّب الساسي [1] ، وغيرهم من أعلام الفكر والأدب .

وتعتبر « أم القرى » أقدم صحيفة سعودية اليوم ، وسجل المملكة الرسمي في أحداثها الداخلية ، وعلاقاتها الخارجية ، والمَعين الثرّ لكل باحث عن الإنتاج الأدبي والفكري عند رجال المملكة . وصحيح أن لهذه الجريدة الصفة الرسمية من حيث اهتمامها بنشر البلاغات والمراسيم الحكومية ، لكنها في الوقت نفسه المصدر الوحيد لكثير من الإنتاج الأدبي الذي لم ينشر بعد في كتاب ، ولولاها لضاع إلى الأبد [2] ، وحين تقارَن « أم القرى » بـ « القبلة » من حيث مستوى التعبير ، والاتجاه القومي فإن « أم القرى » لتتضاءل عن « القبلة » وتنكمش . أما من حيث مستوى الفن الصحفي فتتقاربان أو تتعادلان.

وفي سنة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م صدرت بمكة « **مجلة الإصلاح** » لصاحبها الشيخ محمد حامد الفقـي [3] ، وكانت تعنى بالأمور الدينية والعلمية والخلقية .

= « الغربال » . ألف مع عبد الله بلخير كتاب « وحي الصحراء » توفي بالطائف . (المنهل – عدد الأدباء – ٢٧/٩٥٤) .

١ ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣١٠ هـ/١٨٩٢ م ، درس على مشايخها ، ولما أعلنت الثورة العربية التحق بالشريف حسين بمكة، فعينه مدير المدرسة الراقية ، ثم أسند إليه إدارة « القبلة » ولما أخفقت الثورة هاجر إلى عدن ، فحضرموت ، فالهند ، فأندونوسيا ، ثم عاد إلى مكة بعد أن صفح عنه الملك عبد العزيز ، وأسند إليه إدارة « أم القرى » . وفي سنة ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٨ م . ذهب بزيارة إلى « المدينة » فانقلبت به السيارة ومات . (عمر عبد الجبار ، سير وتراجم ص ٨١) .

٢ من ذلك شعر ابن عثيمين ، ومحمد بن بليهد ، وأحمد إبراهيم الغزاوي ، وغيرهم .

٣ ولد « بنكلي العنب » إحدى قرى « مديرية البحيرة » بمصر سنة ١٣٠٩ هـ/١٨٩٠ م . فحفظ القرآن الكريم ، ثم التحق بالأزهر ، ونال شهادة العالمية ، وأسس جماعة أنصار السنة المحمدية، وحمل على أهل الطرق، فلحقه بسبب ذلك عداوة وبغض، ودرس بالمعهد العلمي بمكة . وأصدر بها « مجلة الإصلاح » ، ثم عاد إلى مصر فأشرف على طبع عدد من كتب الدين والعلم ، توفي بالقاهرة سنة ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٩ م . من آثاره « أثر الدعوة الوهابية في الإصلاح الديني والعمراني في جزيرة العرب وغيرها » و«شذرات البلاتين » ، و« من دفائن الكنوز » . (كحالة ، معجم المؤلفين ٧/١٧٢) .

وفي مستهل ظهورها كانت شهرية، ثم أصبحت نصف شهرية ، ولم يمض على صدورها العامان حتى توقفت .

وفي سنة ١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م صدرت بجدة جريدة **« صوت الحجاز »** ونال امتيازها محمد صالح نَصيف[١] كما رأس تحريرها عبد الوهاب آشي[٢] ، ثم تعاقب على رئاسة التحرير فيها كثيرون، منهم أحمد إبراهيم الغَزّاوي[٣] ومحمد حسن فقي[٤] ، ومحمد سعيد العامودي ومحمد حسن عوّاد[٥] ، وأحمد السباعي[٦] ، وغيرهم . وفي سنة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م انتقل امتيازها إلى « شركة

١ أحد أعيان جدة في أيام الهاشميين ، تسلم رئاسة بلديتها ، وأسس البنك المركزي الهاشمي . وحين تولى السعوديون الحكم ولي رئاسة الأوقاف ، وكان أحد الذين طالبوا الحسين بالاستقالة . (الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة ص ١٨٧) .

٢ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ م . ودرس في مدرسة الفلاح ، وكانت له هواية بالمطالعة الأدبية والعلمية . عملَ في وظائف عدة ، ثم استقر بالبنك الأهلي التجاري بجدة . (المنهل – عدد الأدباء – ص ٧٣٦) .

٣ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣١٨ هـ/١٩٠٠ م ، ودرس في مدارسها . اشتغل في عدة وظائف في عهد الشريف حسين، ومنها سكرتارية مجلس الشورى . وفي عهد السعوديين تولى عدداً من الوظائف الرفيعة، ومنها نائب رئيس مجلس الشورى وحاز على لقب « شاعر جلالة الملك عبد العزيز » . رأس تحرير « أم القرى » و « الإصلاح » ، و « صوت الحجاز » . له شعر كثير نشر في الصحف السعودية وغيرها (المنهل – عدد الأدباء – ص ٧١٤) .

٤ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٣١ هـ/١٩١٢ م ، ودرس بمدرسة الفلاح بمكة وجدة . عمل أستاذاً للأدب العربي ، فرئيساً لتحرير « صوت الحجاز » ، ثم موظفاً في وزارة المالية ، كما عين سفيراً للمملكة في أندونوسيا، وأخيراً طلب أن يحال إلى التقاعد، فأجيب إلى طلبه . من كتبه المطبوعة « ديوان قدر ورجل » . (المنهل – عدد الأدباء – ص ٧٤٨) .

٥ ولد بجدة سنة ١٣٢٠ هـ/١٩٠٢ م ، ودرس فيها . نظم الشعر صغيراً ، وألف كتباً كثيرة . له أربعة دواوين شعرية ، وخمسة مؤلفات نثرية منها : « خواطر مصرحة » و « سليمان ابن عبد الملك » و « نحو كيان جديد » وغيرها . (المنهل – عدد الأدباء – ص ٧١٩) .

٦ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ م ، تلقى علومه في المدرسة الراقية بمكة ، ودخل مدرسة الأقباط بالإسكندرية ومكث بها عامين، وعاد إلى مكة ، وعمل فيها أستاذاً للعربية .=

الطبع والنشر العربية » وصارت تصدر أسبوعية ثم أصبحت نصف أسبوعية. ونشبت الحرب العالمية الثانية فتوقفت لعدم توافر الورق . وحين حل السلام وتوافر الورق، عادت إلى الظهور في كل أسبوع مرة . لكنها بدلت اسمها القديم وتسمت بـ « **البلاد السعودية** » وتمكنت أن تصدر مرتين في الأسبوع بعد حين من الزمن ، فثلاث مرات ، حتى أهلّت سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م فصارت يومية . ودفقت بالمقالات الأدبية والاجتماعية ، واستمرت على ذلك إلى سنة ١٣٧٨ هـ/١٩٥٨ م ، فاندمجت فيها جريدة « عـرَفات »[1] وصارتا تصدران باسم « **البلاد** » التي ظلت يومية في صدورها .

وفي سنة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م صدرت مجلة وجريدة . الأولى تحمل اسم « **المَنْهَل** » وصاحبها عبد القدوس الأنصاري . وهي مجلة شهرية تعنى بالأدب والثقافة والعلم والاقتصاد والاجتماع ، ولا تتطرق إلى الأمور السياسية وقد جاء في « الحُجّة الشرعية » المتضمنة صدور الإذن لصاحبها بإصدارها الفقرة التالية : « وصدرت بموجبه إرادة من صاحب الجلالة الملك المؤيّد في ١٣٤٩/٤/٢٨ هـ تنص بأن لا بأس بذلك على شرط أن يتجنب فيها أمر السياسة والاعتراضات على الحكومة ، وأن لا يعترض لدولة من الدول ، ولا للحوادث التي تحصل بين الممالك المستعمرَة والدول ، وإنما تكون في الأمور الأدبية ، والحث على المصالح الداخلية وأمور الدين خصوصاً على مذهب السلف الصالح . . »[2] . صدرت « المنهل » أول الأمر في المدينة المنورة ، ولضرورات

= اشتغل في تحرير « صوت الحجاز » مدة ، وفي وزارة المالية موظفاً ، وأصدر « مجلة قريش » وأنشأ « مطبعة قريش » . وهو اليوم أحد أعضاء « مؤسسة الندوة الصحفية بمكة » . له مؤلفات تاريخية وقصصية وأدبية (المنهل – عدد الأدباء – ص ٧٨٥) .

١ سيرد الحديث عنها في صحف سنة ١٣٧٠ هـ/١٩٥٠ م .

٢ الكتاب الفضي للمنهل « الصورة الفوتوغرافية » للحجة الشرعية ص ١٩٣ (مع تصحيح طفيف) .

فنية انتقلت إلى مكة المكرمة حيث المطابع أفضل ، واليد المفتنّة في التصفيف وحسن الإخراج أكثر توافراً ، ثم انتقلت إلى جدة واستقرت فيها . ولا تزال إلى اليوم تصدر منها في مطلع كل شهر عربي ، ولم تتوقف إلاّ في أيام الحرب العالمية الثانية بسبب فقدان الورق . وتُعتبر « المَنْهل » أقدم مجلة أدبية في البلاد . وهي – من حيث المستوى الأدبي – تساير رصيفاتها في البلاد العربية الأخرى ، كما تعتبر من المصادر الأساسية في دراسة الأدب في قلب الجزيرة العربية ولا سيما في العصر الحديث .

أما الجريدة فهي « **المدينة المنورة** » وقد صدرت في المدينة المنورة نفسها [1] تحمل اسمها ، ونال امتيازها الأخَوان علي [2] ، وعثمان حافظ [3] ، ورَأَسَ تحريرَها أمين مدني [4] وكان يعينه محمد زَيْدان [5] وضياء الدين رجب [6] . بدأت

---

١ تاريخ صدور أول عدد فيها ٢٦ محرم ١٣٥٦ هـ/١٠ آذار ١٩٣٧ م .

٢ ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٦ هـ/ ١٩٠٨ م . ودرس فيها . عمل في بعض الوظائف ومنها رئاسة بلدية المدينة . أسس مع أخيه « عثمان » جريدة « المدينة » كما أسس « مدرسة الصحراء » في « المسيجيد » قرب المدينة لتعليم أبناء البادية ، و « شركة المدينة للطباعة والنشر » في جدة . له شعر منشور . (المنهل – عدد الأدباء – ص ٧٥٨) .

٣ ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م ، ودرس فيها . عمل في بعض الوظائف في المعارف ، وهيئة الأمر بالمعروف ، والبلدية ، ومديرية شؤون الحج . أصدر مع أخيه جريدة « المدينة المنورة » . له من المؤلفات « تاريخ الصحافة في بلادنا » ولم يطبع بعد . (المنهل – عدد الأدباء – ص ٨٣٩) .

٤ ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م ، أخرجه أبوه إلى ضواحيها للرضاع ، وتعلم الفصحى . ومات الأب بعد شهر ، فأعيد الصغير إلى المدينة ليدرس بها . عمل في عدة وظائف : في الأوقاف ، والمالية ، وفي تحرير جريدة « المدينة » . له من المؤلفات « العرب في أحقاب التاريخ » في خمسة مجلدات لم يطبع إلا الأول منها . (المنهل – عدد الأدباء – ص ٧٦٨) .

٥ ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م . ودرس فيها . عمل في التدريس ، وفي وزارة المالية ، وفي الصحافة ، والأدب . (المنهل – عدد الأدباء – ص ٨٠٨) .

٦ ولد بالمدينة المنورة. ودرس في المدارس الأميرية، وأكمل دراسته في المسجد النبوي على =

تظهر أسبوعية أول الأمر ، ثم مرتين في الأسبوع ، ومرت عليها أزمة الورق خلال الحرب فتوقفت ، ثم عادت بعدها يومية . وجرت عليها بعض التعديلات في أشخاص المسؤولين عنها ، فتولى أحد الإخوة وهو « علي » رئاسة التحرير ، وتولى الثاني « عثمان » إدارتها . وقد اهتمت « المدينة المنورة » بالأخبار أكثر من اهتمامها بالمقالات والبحوث ، وخاصة بأخبار العالَمَين العربي والإسلامي . وهذه الجريدة أقدم صحيفة صدرت في المدينة المنورة .

وفي العام التالي (١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م) رُخِّص لمصطفى أنْدَرْقيري [١] بمجلة « **النداء الإسلامي** » الشهرية وقد توقفت نهائياً في بدء الحرب .

ولا نجد إصداراً جديداً لمجلات أو جرائد بعد هذه السنة حتى سنة ١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٥ م بسبب نشوب الحرب . وقد **توقفت** كل المطبوعات الدوريّة إلاّ « أم القرى » نظراً لقلة الورق . ولما حل السلام في العالم عادت الصحف والمجلات القديمة إلى الصدور ، وعادت الحكومة إلى السماح بإصدار دوريات جديدة .

وفي عام ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٥ م أصدرت شركة الزيت العربية الأمريكية بالظهران صحيفة أسبوعية باللغة الانكليزية ، اسمها : « **الشمس والوهج** Sun and Flare » ولا تزال تصدر إلى اليوم .

وفي سنة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٦ م صدرت بمكة المكرمة « **مجلة الحج** » الشهرية ، وهي حكومية تتبع «مديرية شؤون الحج» سابقاً ، و « وزارة الحج والأوقاف »

= يد محمد الطيب الأنصاري . عمل بالتدريس في المدارس الابتدائية بالمدينة ، ثم في سلك القضاء ، فأوقاف مكة المكرمة ، وأخيراً عين عضواً في مجلس الشورى ثم تقاعد . وله شعر كثير غير مطبوع في ديوان (المنهل – عدد الأدباء – ص ٨٤٢) .

١ من أصل جاوي . أصدر مجلة « النداء الإسلامي » بالعربية والجاوية . توفي سنة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م . (معلومات شفهية من حمد الجاسر بتاريخ ٢٤/٥/١٩٦٩ م ببيروت) .

لاحقاً . رَأَسَ تحريرَها أوَّل صدورها هاشم زَوَاوي[1] ثم محمد سعيد العامودي ، ولا يزال هذا قائماً على الإشراف عليها . ومن اسم هذه المجلة يعرف اتجاهها الإسلامي والديني والاهتمام بشَعيرة الحج خاصة .

وفي العام الذي تلا صدرت « **مجلة الغرفة التجارية** »، ولا تزال تصدر بجدة إلى اليوم .

والذي نلاحظه من استعراض ما صدر من مطبوعات دورية، من ولادة المملكة سنة ١٣٤٣ هـ/١٩٢٤ م إلى سنة ١٣٦٦ هـ/١٩٤٦ م اقتصر على المنطقة الغربية للمملكة ، ولم تبق مدينة كبيرة من مدن الحجاز إلاّ نشأ فيها أكثر من صحيفة أو مجلة ، ولا نجد أثراً لمطبوعة دورية في المناطق الأخرى ، هذا إذا استثنينا الأسبوعية الدورية الانجليزية التي أصدرتها الشركة البترولية في « الظهران » . ولعلنا لا نغالي إذا لم نعدُدْها من دوريات المملكة بسبب لغتها ، وهُويّة أصحابها . ولا نعتقد أن سبب خلو بقية المناطق من الصحف والمجلات أمر مستغرب لأنها بطبيعة الحال متخلفة ثقافياً وعلمياً وحضارياً عن المنطقة الغربية .

وأول من أصدر مجلة في مدينة الرياض العاصمة حَمَد الجاسر[2] باسم

---

١ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٣٥ هـ/١٩١٦ م . وتخرج من مدرسة الفلاح فيها ، عمل في « أم القرى » ، ووزارة المالية ، والإذاعة السعودية ، ومديرية الحج ، وتحرير « مجلة الحج » ، وأصبح المدير العام للحج منذ سنة ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠ م . (المنهل – عدد الأدباء – ص ٨٢٥) .

٢ ولد في قرية « البرود » من إقليم « السر » سنة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١ م . حفظ القرآن صغيراً ، وأكمل تحصيله في الرياض ، ثم رحل إلى مكة طلباً للعلم في المعهد السعودي . عمل في التعليم ، والقضاء ، وإدارة المعارف بجدة . سافر إلى مصر ، ودخل كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ولما عاد عين مديراً لكليتي الشريعة واللغة العربية بالرياض . أسس « صحيفة اليمامة » ، وأنشأ داراً للطباعة في الرياض . له بحوث كثيرة منها « معجم البلاد العربية » ، و « أمراء=

« **اليمامة** » وكانت شهرية أول أمرها ، ثم صارت أسبوعية . وتمتاز « اليمامة » بعنايتها الشديدة بأمور الأدب ، وتحقيق أسماء المواطن والأماكن في قلب الجزيرة ، وبالنقد والتحليل أكثر من كل شيء آخر . صدرت هذه المجلة سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م ، ولا تزال إلى اليوم مستمرة في الصدور غير أنها ليست تحت إشراف حمد الجاسر الآن .

وفي السنة نفسها صدرت « **مجلة الرياض** » الشهرية ، وكانت تُطبع بجدة باللينوتيب ، ثم تحولت إلى شبه مجلة أسبوعية . وقد حفلت بالصور . فاعتبرت المجلة المصورة الأولى في البلاد . رَأَسَ تحريرَها مدني بن حَمَد[1] وأدارها أحمد عُبَيْد[2] .

وصدرت في العام نفسه مجلة « **قافلة الزيت** » الشهرية بالظهران . نال امتيازها المسؤولون عن « شركة الزيت العربية الأمريكية » وكانت تصدر باللغة العربية ولا تزال . وقد تولى رئاسة تحريرها شكيب الأموي[3] ، كما

= نجد » و « معادن نجد » . وله تحقيقات كثيرة ، ولا سيما في جغرافية الجزيرة العربية وتاريخها . ويصدر مجلة « العرب » الشهرية منذ ست سنوات . وهو عضو في المجمع العلمي العربي بدمشق ، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ سنة ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م . والمجمع العلمي العراقي . (محمد مهدي علام ، مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً المجمعيون – الجزء الثاني) .

١ من أبناء جدة . يعمل مفتشاً عاماً في مديرية الجمارك العامة بجدة (الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة ص ٣٠٢) .

٢ ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٣٤ هـ/١٩١٥ م . ودرس فيها ، ثم انتقل إلى جدة ، فدرس اللاسلكي فيها ، وعمل موظفاً في اللاسلكي حتى أصبح مديراً ، ثم انتقل إلى المالية ، وتدرج في وظائفها حتى أصبح رئيس ديوان الموظفين ، ثم انتقل إلى الجمارك ، فأصبح أمينها العام بالظهران ، ثم المدير العام لوزارة الزراعة . له « مؤسسة للطباعة والنشر والصحافة » بجدة ، وله نشاط أدبي كبير . (المنهل – عدد الأدباء – ص ٧٨٧) .

٣ ولد في « صفد » بفلسطين . عين أولا في وزارة المالية السعودية ، ثم في وزارة الدفاع والطيران السعودية ، ثم انتقل إلى « شركة الزيت العربية الأمريكية » ، واستقال منها بعد ذلك . (المنهل – عدد الأدباء – ص ٨٨٤) .

تولى إدارتها سيف الدين عاشور [1] ، ثم أصبح هذا الرئيس والمدير بآن واحد . ومن اسمها يتضح أنها تعنى بشؤون النفط ، ولكنها في الواقع تتطرق إلى موضوعات أدبية واجتماعية وثقافية عامة . وتمتاز عن دوريات المملكة بجمال إخراجها ، وجودة ورقها ، وتلوُّن رسومها ، وهي لا تباع – على الأكثر – بل تقدم هدية لمن يطلبها .

وفي السنة التي تلت ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م صدرت جريدة ومجلتان في المنطقتين الشرقية والوسطى : الجريدة « **أخبار الظهران** » أصدرها عبد الكريم الجُهَيْمان [2] بالدمام أسبوعية ، ولكنها لم تكن تصدر في الواقع إلاّ كل نصف شهر لضعف قدرتها المادية ، ثم حوّل اسمها إلى « الظهران » فقط ، وأوقفت بعد سنة واحدة وبضعة أشهر ، ولم تُصدِر أكثر من خمسين عدداً تقريباً .

أما المجلة الأولى ، فقد صدرت عن وزارة الزراعة باسم «**المجلة الزراعية** »

---

١ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٣٨ هـ/١٩١٩ م ، ودرس فيها ، ثم التحق بأرامكو . وسافر إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراسته في الأدب الإنكليزي ، وعاد إلى المملكة ، والتحق بالمديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر ، ثم استقال وعاد إلى أرامكو ، وتولى رئاسة قسم الصحافة والنشر العربي بإدارة العلاقات العامة ورئاسة تحرير « قافلة الزيت » ، واستقال منها ، وافتتح « مؤسسة عاشور للعلاقات العامة والترجمة والتحرير » بجدة . من مؤلفاته رواية « لا تقل وداعاً » . (المنهل – عدد الأدباء – ص ٨٤٤) .

٢ ولد في بلدة « غسلة » من قرى الوشم سنة ١٣٣٣ هـ/١٩١٤ وتعلم مبادىء القراءة فيها ، ثم سافر مع والده إلى الرياض ، فدرس على مشايخها ، ثم بعث إلى مكة فدرس في المعهد السعودي . عمل بعد تخرجه في القضاء والتعليم ، ثم ترك الوظائف وتولى « إدارة شركة الخط للطبع والنشر » في الدمام ، وأصدر جريدة « أخبار الظهران » ، ثم توقفت . له من المؤلفات : « الأمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب » في ثلاثة أجزاء ، و « من أساطيرنا الشعبية في قلب جزيرة العرب » (طبع منه ثلاثة أجزاء إلى الآن) و « أين الطريق » ، و « آراء فرد من الشعب » ، و « دخان ولهب » . (عبد الله بن إدريس ، شعراء نجد المعاصرون ص ١٧٠) .

وكانت دورية تصدر أربع مرات في السنة .

والثانية ، صدرت بالدمام اسمها « **الفجر الجديد** » وصاحبها أحمد بن يعقوب الشيخ[1] وقد توقفت بعد عدة أشهر .

وفي السنة التالية ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م صدرت مجلتان : الأولى من المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر بجدة اسمها « **مجلة الإذاعة السعودية** » وهي شهرية ولا تزال مستمرة في صدورها . والثانية « **مجلة الإشعاع** » لسعد البَواردي[2] وقد صدرت «بالخُبَر »[3] شهرية ، ثم أوقفت بعد إصدار ثلاثة وعشرين عدداً وكان إيقافها في عام ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م . وكانت « الإشعاع » تُعنى بالأدب الحديث خاصة ، والأمور الاجتماعية أكثر من عنايتها بالأخبار والسياسة .

وفي السنة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م صدرت ثلاث مطبوعات دورية : الأولى « **مجلة كلية التربية** » وقد حفلت بالنواحي التربوية والعلمية والفنية . والثانية

---

١ ولد في « الجبيل » – ميناء شمالي القطيف – وهو من أسرة شهرت بالعلم والتقوى في المنطقة الشرقية .

٢ ولد في مدينة « شقراء » من مقاطعة الوشم بنجد سنة ١٩٤٩ هـ/١٣٣٠ م . وفيها تلقى دراسته الابتدائية ، ثم التحق بدار التوحيد في الطائف ، فدرس فيها مدة ثم اضطرته ظروف المعيشة إلى قطع الدراسة للالتحاق بمزاولة الوظائف التجارية في مدينة « الخبر » . شغف بالقراءة، والمطالعة الأدبية ، وفي الأدب المعاصر بوجه خاص ، ونمى ذلك فيه العاطفة الوطنية ، وحب الإصلاح الاجتماعي . أصدر في « الخبر » « مجلة الإشعاع » ولم تعمر طويلا . عمل في وزارة المعارف في إدارة « مجلة المعرفة » وإدارة النشر والشؤون العامة ، ثم انتقل إلى السفارة السعودية ببيروت ملحقاً ثقافياً . من مؤلفاته المطبوعة « شبح من فلسطين » وهو مجموعة قصصية ، و « أغنية العودة » ، « وذرات في الأفق » ، و « لقطات ملونة » ، و « صفارة الإنذار » وهي دواوين شعرية و « فلسفة المجانين » ، و « أجراس المجتمع » وهما مجموعة مقالات و « رباعياتي » ، و « ثرثرة الصباح » ، (عبد الله ابن إدريس، شعراء نجد المعاصرون ص ١٥٣) .

٣ الخبر : – بضم الخاء وفتح الباء – مدينة صغيرة في المنطقة الشرقية ، قريبة من الظهران .

« **مجلة الأضواء** » الأسبوعية بجدة ، وقد رأس تحريرها محمد سعيد باعَشَن[1] ، ولم يكن عمر « الأضواء » يزيد على سنة واحدة . والدورية الثالثة : جريدة « **حِراء** » الأسبوعية بمكة ، وقد رأس تحريرها صالح محمد جَمَال[2] مدة من الزمن، وأشرفت على تحريرها «مكتبة الثقافة بمكة»، وقد اندمجت في السنة التالية ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م في جريدة أخرى اسمها « **النَّدْوة** »[3] لأنهما تصدران معاً بمكة . وصار اسمها الجديد « حِراء » ثم عَدَلتا عنه إلى « الندوة » وأصبح صالح جمال رئيس تحريرها ، وجعلها يومية .

وفي السنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨ م رُخّص لجريدتين جديدتين ومجلة . وتميزت هذه السنة باندماج بعض الصحف في بعضها الآخر : الجريدة الأولى التي صدرت هي « **الندوة** » بمكة المكرمة ، ونال امتيازَها أحمد السباعي . وتميزت هذه الصحيفة بالقوة وجزالة الأسلوب ، والقدرة على استقصاء الأنباء العالمية ، وحسن الإخراج والتبويب ، ومجاراتها لرصيفاتها الكبريات في العالم العربي . وقد تخلى صاحبها السباعي عنها بعد اندماجها في جريدة « حراء » لصالح محمد جمال مقابل اتفاق مالي بينهما ارتضياه . ولا تزال « الندوة » إلى اليوم تصدر لأنها انقلبت إلى مؤسسة . والجريدة الثانية صدرت بجدة باسم « **عرَفات** » ورأس تحريرها حسن قَزّاز[4] ، وكانت أسبوعية ، وقد اندمجت في

---

١ ولد عام ١٣٥٣هـ/١٩٣٤ م. ودرس في الفلاح بجدة، وأنشأ بعد تخرجه مع عبد الفتاح أبو مدين «مجلة الأضواء». ثم انتقل بعد توقفها إلى سكرتارية استثمار رؤوس الأموال الأجنبية، وأصدر سلسلة الأضواء الأدبية وعين موظفاً في البلدية معاوناً لرئيس بلدية جدة ، وانتقل إلى الرياض ليعمل في وزارة الداخلية (المنهل – عدد الأدباء – ص ٩٥٧) .

٢ ولد بمكة المكرمة، ودرس في المعهد العلمي السعودي فيها . شغل عدداً من الوظائف، وتفرغ أخيراً للتأليف والإنتاج الأدبي والديني . (من حديث شفوي مع صديق) .

٣ سيرد الحديث عنها في صحف سنة ١٣٧٨ هـ/١٩٥٨ م .

٤ ولد بجدة ، ودرس فيها . شارك في بعض الوظائف الحكومية ، ثم تفرغ للتجارة . (الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة ص ١٣٥) .

جريدة « البلاد السعودية » ، وأصبح اسمها الجديد « **البلاد** » التي غدت يومية . وهذه الجريدة ظلت قوية كما بدأت ، واحتفظت بتسميتها في الحقبة الثانية التي هي حقبة المؤسسات الصحفية التي سيرد ذكرها بعد قليل . والمجلة التي صدرت في الرياض تحمل اسم « **المعرفة** » . وكانت وزارة المعارف تشرف عليها ، ولم تعمّر طويلاً بالرغم من قوتها ، وسند الوزارة لها ، وامتلائها بالموضوعات التربوية والعلمية والأدبية ؛ لأن الدولة بعد حين قررت إلغاء جميع دوريات المملكة .

وفي السنة ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م طلب طاهر الزَّمَخْشري[١] رخصة لإصدار مجلة أسبوعية باسم « **مجلة روضة الأطفال** » فمُنِحَها ، فأصدرها بجدة . وقد كانت الأولى من نوعها في المملكة ، ونجحت كثيراً بسبب امتلائها بالصور الجذابة الملونة ، لكن عمرها كان قصيراً بسبب إلغاء رخص صحف المملكة جميعها . وإلى اليوم لم تحلّ محلها مجلة أخرى تتناسب وسن الأطفال ، ولا يزال مكانها شاغراً .

وحصل في السنة نفسها عبد الفتاح أبو مدين[٢] على رخصة لإصدار مجلة « **الرائد** » وأصدرها مرتين كل شهر ، وملأها بالتحقيقات اللغوية والعلمية والأبحاث الأدبية ، ومع هذا فقد توقفت بعد حين نهائياً ، كما حصل أحمد السباعي على رخصة جديدة بدل التي تخلى عنها في جريدة « الندوة »

---

١ ولد سنة ١٣٣٢ هـ/١٩١٣ م ، بمكة المكرمة ، ودرس فيها . تنقل في وظائف عدة في التدريس والبلديات والإذاعة والمطابع الحكومية . له سبعة دواوين مطبوعة وأخرى لم تطبع . (المنهل – عدد الأدباء – ص ٨١٥) .

٢ ولد في ليبيا ، وتلقى علومه في مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة ؛ ثم استقر به المقام في مدينة جدة مدة مديدة من الزمن . تعشق الأدب وبدأ بكتابة المقالات في موضوعات اجتماعية وأدبية . عين في عدة وظائف حكومية . وأنشأ مجلة « الرائد الأسبوعية » وقد توقفت . له كتاب « أمواج وأثباج » (المنهل – عدد الأدباء – ص ٨٥١) .

وأصدر مجلة أسبوعية بمكة اسمها «قُرَيش» . وقد اهتمت بالمقالات الأدبية وبالقصة القصيرة أكثر من اهتمامها بشيء آخر . كما صدرت في الرياض جريدة «القَصيم» وكانت أسبوعية أشرف عليها عبد الله العَلي الصانع [1] .

في السنة ١٣٧٩ – ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م صدرت أربع دوريات : الأولى بالرياض حصل على رخصتها عبد الله بن خَمِيس [2] ، وسماها «**مجلة الجزيرة**» وأصدرها شهرية أول أمرها ، ثم صارت أسبوعية ، وامتازت برصانة الأبحاث ، وتنوع الموضوعات ، وجمال الترتيب والإخراج . وظلت في العهد الذي تلا تحمل الاسم نفسه ، إلاّ أن المشرفين عليها قد تغيروا . والثانية «**راية الإسلام**» الشهرية بالرياض لصالح بن محمد لْحيدان [3] ، وهي مجلة دينية اهتمت بشرح عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ،والأبحاث الدينية المختلفة . وقد توقفت بعد حين عندما ألغيت امتيازات صحف المملكة . والثالثة «**عُكاظ**» حصل على امتيازها أحمد عبد الغفور العطار» [4] وقد

---

١ لم نعثر على ما يستحق الذكر في تحقيق شخصيته . وكل ما وصلنا إليه أنه صاحب «مطابع نجد» وأن ثقافته رقيقة إلى حد ما .

٢ ولد في الدرعية سنة ١٣٣٩ هـ/١٩٢٠ م ، وتعلم في أحد الكتاتيب القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة ، كما قرأ على أبيه عدداً من العلوم ، ثم التحق بدار التوحيد بالطائف ونال شهادتها ، وأكمل دراسته في كليّتي الشريعة واللغة العربية بمكة . عين مديراً للمعهد الأحسائي ، ثم لكليّتي الشريعة واللغة العربية بالرياض ، فمديراً لرئاسة القضاء ، فوكيلا لوزارة المواصلات ، فرئيساً عاماً لمصلحة المياه في الرياض ولا يزال بها. من مؤلفاته «الأدب الشعبي في جزيرة العرب» ، «وشهر في دمشق» و «المجاز بين اليمامة والحجاز» و «راشد الخلاوي» . وهو شاعر وناثر . (المنهل – عدد الأدباء – ص ٨٢٠) .

٣ درس في كلية الشريعة بالرياض ، وتتلمذ لمفتي السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ – رحمه الله – .

٤ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٣٧ هـ/١٩١٨ م ودرس في مدارسها، ثم رحل إلى مصر ليستكمل علومه في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ولكن ظروفه لم تسمح له بالمتابعة إلى النهاية، فعاد=

أصدرها أسبوعية بالطائف أول الأمر ، ثم نقلها إلى « جدة » وكان مديرها العام عزيز ضياء[1] . وقد تميزت بالنقد الأدبي قبل كل شيء ، ثم بالأبحاث الأدبية واللغوية والاجتماعية ، وقليلاً ما كانت تهتم بالأخبار وبالسياسة . و « عكاظ » ظلت في العهد الجديد الذي تلا محتفظة باسمها رغم تغيُّر ملكيتها . أما الرابعة فهي « **مجلة التجارة** » الشهرية التي حلت إلى جانب « مجلة الغرفة التجارية بجدة » . وقد كان يشرف عليها أحمد طاشْكِندي[2]، ولم تتعدَّ موضوعاتها الأبحاث الاقتصادية الملونة باللون الديني .

في السنة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م لم يُرَخَّص لأحد بإصدار دورية ، ولم يحدث جديد . أما في السنة التالية ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م فصدرت دوريتان : الأولى « **الأسبوع التجاري** » بجدة التي اهتمت — في المقام الأول — بتعريف الناس بالبضائع الواردة إلى جدة ، والسفن القادمة إليها ، وما تحمله من بضائع والدّعاوة لأصحاب المؤسسات التجارية بجدة، وما استوردوا من جديد ، وميزة بضائعهم . لقد كانت للإعلان والدّعاوة أكثر ممّا كانت للدراسات

= وعمل مدة قصيرة في وظائف الدولة ، ثم استقال وتفرغ للأدب والعلم والبحث والدراسة والتحقيق . منح رخصة جريدة عكاظ ثم رخصة مجلة « دعوة الحق » وقد صدر له ما يقرب من أربعين مؤلفاً بين بحث وتحقيق . (المنهل — عدد الأدباء — ص ٧٨٠)

١ ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٣٢ هـ/١٩١٣ م . وتلقى علومه الأولية في مدرستها الراقية الهاشمية ، ثم التحق بمدرسة الصحة . دخل الوظائف العامة في الصحة والأمن العام ، والدفاع ، والخطوط الجوية السعودية ، كما عمل في الأعمال الحرة ، وأنشأ « مؤسسة الشرق الأوسط للإعلان والثقافة والنشر » بجدة ، وتولى إدارة « مطابع مؤسسة الصحافة والطباعة والنشر » بجدة، ورئاسة تحرير عكاظ، وجريدة المدينة المنورة . ورحل إلى الهند مذيعاً ومترجماً ، ثم عاد إلى الوطن مديراً لمكتب مراقبة الأجانب . (المنهل — عدد الأدباء — ص ٨١٣) .

٢ من أصل غير عربي، وفد أجداده إلى الحجاز رغبة في المجاورة ، واستوطنوا فيه. درس في جدة ، وعمل في الصحافة زمناً ، ثم انتقل إلى الأعمال الحرة . وتولى تحرير مجلة الغرفة التجارية والإشراف على أمورها مدة من الزمن .

الاقتصادية والتحليل العلمي . والثانية أصدرتها « **رابطة العالم الإسلامي** » بمكة وحملت اسم الرابطة نفسها ، وتسلم الإشراف عليها محمد سعيد العامودي إلى جانب « مجلة الحج » . وهذه المجلة عُنيت بالأمور الإسلامية وشؤون المسلمين في البلاد المختلفة ، وحرَّر فيها العلماء من كل الأقطار الإسلامية . ولا تزال تصدر من مكة شهرياً حتى اليوم، كما لا يزال العامودي قائماً على أمرها .

* * *

تلك هي دوريات هذه المرحلة ، بلغ عددها ثلاثاً وثلاثين ، توقف على الدرب طوعاً اثنتان ، وأُوقِفت كرهاً مطبوعتان ، واندمجت صحيفتان في صحيفتين ، وظلت سبع وعشرون على طريق التجربة الطويلة . فيها خمس اختصت بخدمة الدين ، واثنتا عشرة اهتمت بالسياسة والثقافة العامة ، وتسعٌ دارت حول التجارة والزراعة ، وقضايا التربية ، وعالم الأطفال ، وانفردت واحدة فقط بالأدب . وكان توزيعها حسب المناطق التالية : أربع للشرقية ، وخمس للوسطى ، وأربع وعشرون للغربية — قبل الاندماج والإلغاء — .

ويبدو أن التجربة أخفقت ، وما صدر لم يحقق الأمل المنشود . لذلك عمدت الدولة إلى إلغاء كافة رخص الصحف والمجلات ، ودفعت مشروعاً جديداً ، تَحِل محلها بموجبه صحفٌ أخرى في شكل جديد .

ونتساءل عن الأسباب المؤدية إلى إخفاق تجربة الصحافة الفردية ؟ أهي في هذا العدد الكبير — نسبياً — حيث أن المملكة أصغر من أن تستوعبه ؟. لكن الدولة نفسها قدَّمت الرخص والامتيازات بيدها ، وكان بقدرتها أن تغلق هذا الباب حين بلغ العدد الحد الذي يسد الحاجة . أو كان سبب الإخفاق أن الذين حصلوا على الامتيازات ما كانوا ليصلوا إلى بغيتهم لولا أنهم سجلوا على أنفسهم أنهم سيخدمون الدين ، أو المجتمع أو القضايا الوطنية والقومية أو مَثلاً

أعلى أعلنوا عنه، فنالوا بذلك الترخيص، حتى إذا تمكنوا منه قلبوا ظهر المجن وراحوا في دعاوات شخصية ، وموضوعات فردية ، وغرقوا في حزازات ومهاترات ، وانساقوا نحو قضايا تضر أكثر مما تنفع ، وتفرق أكثر مما تجمع ؟ أو أن الذين نالوا هذا الامتياز تقدموا إلى الدولة ببيانات عن قدرتهم المالية التي تساعدهم على الوصول بالصحيفة إلى المستوى اللائق بهم وببلدهم ، ويبلغون بها المقام الذي يعادل مثيلاتها في البلاد العربية الأخرى ، وعند المحك عجزوا وسخّروا جريدتهم للإعلانات التجارية ، وربطوها بزيد أو عمرو ليَجُرُّوا من وراء ذلك مغنماً ، وظهروا على مرّ الأيام أعجز من أن يرفعوا شأن صحيفتهم ، فليس فيها ما يشير إلى ارتباط بوكالات الأخبار العربية أو الدولية ، ولا ما يدل على وجود مراسلين في قلب البلاد السعودية ذاتها ، حتى الشكل الفني للجريدة لا وجود له . فكان ذلك سبب إخفاق التجربة ؟ أو أن الدولة رمت إلى أن تكون صحافتها رسالة ، وبحثت في واقع ثلاث وثلاثين مطبوعة ، فوجدتها انقلبت إلى حرفة فألغتها جميعاً ؟ . .

الحق يقال : إن الصحافة الفردية في هذه المدة كانت أكثر عدداً مما تحتاج إليه البلاد . ولا جدال في أن أربعاً وعشرين صحيفة ومجلة في المنطقة الغربية عدد كبير ، وأن خمساً في مدينة الرياض أكبر من الحاجة .

أو كأنّ الربح الذي ساقت إليه الصحيفة دفع عدداً من القائمين عليها إلى انتهازها وسيلة لزيادة الدخل والنفع الذاتي وإيثار ذلك على المصلحة العامة الكبرى .

وكانت النتيجة أنْ أثرى كثير من أصحابها لحشوها بالإعلان الصحفي ، والدعاوة التجارية . كذلك شأن المستوى الفني فقد كان في جلها أقل من أن يقارن بمثيلاتها في البلاد العربية والغربية من حيث ارتباطُها بمصادر الأخبار الداخلية والخارجية ، ومن حيث تحليلُها العلمي للقضايا السياسية

والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وإخراجُها إخراجاً فنياً ، وإنقاذُها من الأخطاء المطبعية الكثيرة ، كما أنها لم تنجُ من الزلل حين التفتت إلى قضايا ثانوية صغيرة ، بل تافهة ، وأثارت المعارك الكلامية من أجل ضمة أو فتحة في لفظة ، كما حدث في ضبط جيم « جدة » .

وإذا كانت هذه الأسباب مسوغة لإخفاق هذا اللون من الصحف تحت محك التجربة أفلا ينبغي أن نفتش عن دواعي هذا الإخفاق ؟

نتجنى على الحقيقة إذا حصرنا سبب الإخفاق بالدولة ، ونسينا المجتمع الذي يحمل هو نفسه جزءاً من المسؤولية . إنه لا ذنْب لصحفي إذا راح يفتش عن العامل الفني الماهر في صفِّ الحروف ، وطبع الجريدة ، وإخراجها الإخراج المتقن فلم يجده . ولا حرج عليه إذا رغب في الاستعانة بالموظفين المؤهَّلين الأكفاء في فن الصحافة فلم يقع عليهم ، ووجد نفسه أمام هواة شهرة وحُبِّ ظهور ، وشباب لم يستقم القلم بين أيديهم ، ولم تنضج الأفكار في رؤوسهم ،ولم تصقلهم تجارب الحياة ، فاضطر إلى الاستعانة بهم ، والاعتماد عليهم .

إن أكثر الذين نالوا امتياز إصدار الصحف في هذا العهد كانوا قادة الأدب والفكر في هذه البلاد ، حملوا المسؤولية بكل شجاعة وإخلاص ، وعملوا على أن يصلوا إلى المثل الأعلى ، فاعترضتهم المصاعب، ووقفت في طريقهم العقبات، وكان الواحد منهم عصامياً، نال الرخصة فاعتمد على الله، ثم على نفسه، وعمل فيها محرراً ، ومصححاً ، وموزعاً ، وداعياً إليها ، وجامع اشتراكات ، ومجيباً عن كل ما كان يرِد من أسئلة واستيضاحات . ومثل هذه الأعمال تحتاج إلى جماعة من الفنيين يتقاسمون هذه الأعباء، ويحمل كلٌّ على عاتقه مسؤولية مستقلة ، دون أن تلقى جميعها على عاتق فرد واحد، فينوء بها ، وقد يسقط .

ومن نتائج القيود المفروضة على الصحف، أنها دفعت الأدب دفعة رائعة إلى أمام، فامتلات بالمقالات الأدبية، واكتظت بالموضوعات النقدية ، وظهرت القصة، والمسرحية الصغيرة ،وكثر النظم في المناسبات الوطنية، والقومية، والعالمية، وصرنا نقرأ إنتاجاً طيباً يدور حول العدالة والحرية والمساواة . وجرّ هذا الخصب الأدبي إلى ظهور « الكِتاب » السعودي ، حين راح كل أديب يجمع إنتاجه، ويضم بعضه إلى بعض ليصدره « كتاباً » . ولا نتعدى الحق إذا وصفنا صحف هذه المرحلة بالصحافة الأدبية . ولا جدال في أن عمل هؤلاء الأدباء بالصحافة جنى على أدبهم، وهبط بمستواه الفني ، وأوهم فئة صغيرة منهم رأت اسمها يلمع ، وأدبها يُقرأ، ويُناقش ، فظنت أنها بلغت الأوج والكمال ، فتوقفت عن الإبداع ، لأن الغرور ملأها .

المؤسسات الصحفية

قرر مجلس الوزراء[1] في اليوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣/١١/٨ م إلغاء امتياز كافة الصحف الموجودة في المملكة، ومنحه شركاتٍ أو مؤسسات أهليةً خاصة[2] ، وقد أوضحت وزارة الإعلام الأسباب التي دفعت الحكومة إلى هذه الخطوة الجديدة بأنها « أرادت أن تكون صحافتها « رسالة » لا حِرفة، تسمو على المادة، وتسعى للتهذيب والإصلاح وتوجيه الرأي العام السعودي توجيهاً مثالياً ، تمد وجدانه ، وتخاطب ذهنه ، وتخدم المجموع ولا تنزلق إلى « عبادة الشخصية » وخدمة « المصالح الفردية » اللتين ينبذهما الدين الإسلامي ، وأن انفراد شخص واحد أو شخصين بالحصول على امتياز الجريدة وتحريرها، دون الاستعانة بعدد من المواطنين من ذوي

---

١ رقم القرار ٤٨٢ .

٢ نظام المؤسسات الصحفية ص ٣

التجارب والقدرة على الإدارة والتوجيه أمر لا يخلو من المساوئ ، كما أنه لا يتيح للصحيفة القيام بمسؤوليتها قياماً كاملاً ، لذلك رأت الدولة أن تعزز صحافتها ، وترفع مستواها فقررت أن تعهد بامتياز الصحف والمجلات إلى مجموعة من المواطنين « المؤهّلين » لمثل هذه الرسالة، ويكون لكل مجموعة وجود منظم، يأخذ شكل « المؤسسة الأهلية » أو «الشركة» دون أن يكون للدولة ارتباط بها إلاّ بما تمليه « المصلحة العامة » وفي « حدود ما يقضي به النظام »[١].

في اليوم الرابع والعشرين من شعبان سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٤/٢/٤ م) صدر مرسوم ملكي[٢] بنظام «المؤسسات الصحفية الأهلية» مشترطاً ألاّ يقل عدد أعضاء المؤسسة الصحفية عن خمسة عشر عضواً، ورأس مالها في بداية قيامها عن مائة ألف ريال، وأن يكون العضو ذا دخل ثابت من عمل حكومي أو غيره[٣].

وبناء على هذا المرسوم فقد أُنشئت المؤسسات الصحفية التالية :

مؤسسة عكاظ للصحافة ، وتصدر عنها جريدة عكاظ اليومية			بجدة
« البلاد « «		« البلاد اليومية	«
« الندوة « «		« الندوة اليومية	«
« المدينة « «		« المدينة اليومية	«
« الجزيرة « «		« الجزيرة الأسبوعية بالرياض	
« اليمامة « «		« الرياض اليومية بالرياض	
		واليمامة الأسبوعية بالرياض	
« الدعوة الإسلامية «		« الدعوة الأسبوعية بالرياض	
« اليوم للصحافة «		« اليوم الأسبوعية بالدّمام .	

١ كلمة « النظام » في المملكة تقوم مقام كلمة « القانون » — انظر في « الصحافة السعودية » ص ١٥ وما بعدها .

٢ رقم المرسوم الملكي ٦٢ .

٣ الفقرة د من المادة ٩ في نظام المؤسسات الصحفية .

وسمحت الدولة باستمرار مجلات : **المَنْهل** ، **والحج** ، **ورابطة العالم الإسلامي**، **وقافلة الزيت**، **وكلية التربية**؛ المرخص لها سابقاً، ثم أعطت رخصاً لمجلات جديدة، وهي « **العرب** » لحَمَد الجاسر، يصدرها شهرية [1] ، و «**أخبار العالم الإسلامي** » الأسبوعية ، وتشرف عليها رابطة العالم الإسلامي بمكة ، ويتولى تحريرها فؤاد شاكر [2] ، و « **تجارة الرياض** » الشهرية ، وتقوم بأمرها الغرفة التجارية والصناعية بالرياض [3] ، و « **دعوة الحق** » ويتولى إصدارها أحمد عبد الغفور العطار بمكة المكرمة [4] ، و « **تجارة الدمام** »الشهرية، وتشرف عليها غرفة الصناعة والتجارة بالدمام [5] ، كما رخصت الدولة لبعض الوزارات أن تصدر دوريات منتظمة ، تقتصر مهمتها على شؤون الوزارة،ولا تتعداها **كمجلة الإذاعة السعودية** ، **والمجلات المدرسية** ، وغيرها .

مرّ على ظهور هذه الصحف تسع سنوات تقريباً ، وآن أن يُحكم على هذه التجربة الجديدة بالنجاح أو الإخفاق . فهل حققت الغاية التي رمت إليها الدولة ؟ وهل تخلصت من مآخذ الصحافة الفردية ؟ وجواباً عنذلك لا بد أن نعترف أن مستواها المادي قد ارتفع ، وسمت – إلى حد كبير – عن خدمة فرد معين ، أو الانتساب إلى وجيه مموِّل ، وأصبحت تخدم الجمهور الكبير مبتعدة عن الفردية والإقليمية ، وأن غناها المادي مكّنها من أن يكون لها

---

١ صدر العدد الأول في رجب ١٣٨٦ هـ/تشرين الأول ١٩٦٦ م .

٢ صدرت سنة ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م بجدة .

٣ صدرت سنة ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م .

٤ صدر منها سنة ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م أربعة أعداد ، وتوقفت لخلاف بين صاحبها وبعض دوائر الدولة ، ويعتزم استئناف إصدارها عند حل الخلاف (من مقابلة مع العطار في منزله في موسم حج ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م) .

٥ صدرت سنة ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م .

مراسلون في خارج المملكة ، وأن تشترك في بعض وكالات الأخبار العالمية ، وتنشىء لها فرعاً في كل بلد في الداخل فيه المراسلون ، والمصورون ، والمخبرون وتجهز مكتبها الرئيسي بالآلات الحديثة اللاقطة للصور، والأنباء مباشرة . واستطاعت أن تلتفت إلى العناية بالطبع ، وحسن الإخراج ، وجمال المظهر ، كما أنها قلّصت الأبحاث الأدبية ، واكتفت بتخصيص صفحة واحدة أسبوعية لها ، واهتمت بالرياضة ، وأنباء العلم والمكتشفات ، وأدب المرأة وأزيائها ، وأخبار الطب ، وأكثرت من ترجمة القصص العالمية إلى العربية، إضافة إلى تلوين الأخبار وتنويعها ، كما أصبحت الصورة متممة للخبر ، ولم يبق فيها أثر للمهاترات والحزازات، وتميزت كتاباتها باللغة الرصينة النظيفة التي لا تجرح شعور إنسان ، ولا تمس كرامة مواطن ، وأكثر من هذا أنها **التزمت جانب الأخلاق في معالجة جميع القضايا الداخلية والخارجية** . فكم مرة كانت تضج بعض الإذاعات العربية من حين إلى آخر بسبّ حكام هذه المملكة ، وتمتلىء صحف تلك البلاد بجرحهم والتشهير بهم ، وتنظر في الصحف السعودية فلا تعثر على كلمة تجرح رئيساً عربياً، أو تتعرض له بهمز أو غمز .

ويؤخذ على هذه المؤسسات أنها أصبحت تتمتع بـ «ديكتاتورية» صحفية، إذ لم تعد تخشى المنافسة لأنها غير موجودة ، ولا المزاحمة لأنها مفقودة ، كما انعدم فيها عنصر حب السبق الصحفي ، وغدا المسؤولون عن الصحيفة «موظفين». وحوافز التحسين عند الموظفين تضعف عن حوافز رجال الأعمال والتجار ، وكان الربح الجزيل الذي تصل إليه الصحيفة وهي مستقرة ساكنة آمنة يأتيها رغداً . فالحكومة تنشر إعلاناتها في كل صحيفة، وتدفع ثمن ذلك مبلغاً كبيراً ، وكل دائرة في الدولة تشترك في أعداد كثيرة ، قد تصل إلى المئات في بعضها، وتدفع عن ذلك مبلغاً طيباً ، وكذلك المؤسسات والشركات والمحلات التجارية والمصانع والمعامل . والتجار والمؤسسات والراغبون في

الدعوة إلى تجارتهم أو إلى أعمالهم ليس أمامهم إلاّ هذه الصحف المعدودة ، وهم مضطرون أن ينشروا في هذه أو تلك . والإعلانات تفيض وتزيد يوماً بعد يوم ، وأجر الإعلان جيد . كذلك هيأت الدولة نقل الصحيفة على طائراتها داخل البلاد وخارجها مجاناً ، كما أنها وفرت لها الورق المستورد لا تتقاضى عنه جمارك أو ضرائب . . ومع هذا فقد بقيت هذه الصحافة تفتقد المواطنين المؤهلين للعمل الصحفي الحق . صحيح أن بعضهم قد بلغ من الخبرة الفنية مبلغاً كبيراً إلاّ أن الكثرة ظلت ضعيفة الخبرة ، وبقي كثير من هذه الصحف مهمِلاً العناية بالإخراج والترتيب؛ فترى الصحيفة ملأى بالفوضى ، ولا تغري كثيراً بقراءتها . وشيء أكبر من الفوضى : هو هذا التكرار المقيت فيها . ففي كل الصحف إعلانات واحدة ، وخبر واحد ، وصورة واحدة ، ودعاوة واحدة . وأكثرها استغنى عن التحليل السياسي ، واكتفى بنقل التعليق الإذاعي أو « التلفزيوني » الواحد . والاختلاف — أحياناً — يكون في عنونة الأخبار ، أو التصرف ببعض العبارات ، أو إحلال لفظ محل لفظ . وليس التقصير في هذه النقاط فحسب ، بل في الأبحاث الأدبية أو العلمية حين تكون ، فهي غالباً من مستوى منخفض ، لأن الصحيفة ما عادت تدفع إلى الأديب ما يغريه بالكتابة والبحث والتعمق ، وإن دفعت ، فمبلغ لا يشجع على الاستمرار . ولهذا فقد أهمل الأدباء الكتابة فيها إلاّ إذا أرادوا من نشرهم ما يكتبون غرضاً آخر غير الكسب المادي . ونتيجة هذا الإهمال بدأت تظهر كتابات سقيمة ، وتمتلئ صحائف كاملة بالإعلانات التجارية ، حتى قال عنها الناقدون : إن هذه المؤسسات وجدت للتجارة لا لتأدية رسالة .

يسترعي انتباهَ القارىء في صحف المؤسسات **حذرُها في كل ما تنشره**، ورغبتها عن إبداء رأي في بعض القضايا . ولو حاولنا أن نعود إلى « نظام المطابع والمطبوعات » لنجد تسويغاً لهذا الحذر لرأينا أنه يحرم على

الصحف الافتراء على الأشخاص والهيئات بغية إيقاع الضرر بهم أو الحط من قدرهم ، والإزراء بشرفهم وكرامتهم ، ونشر شيء يمس اسمهم أو سمعتهم أو ثروتهم ، إذا كان الدافع تهديداً أو إرغاماً على فعل شيء ، أو حرماناً من حرية العمل[1] ، ويحرم الدعوة إلى الفساد والضلال والإلحاد والمبادئ الهدامة[2] ومخالفة الأعراف والتقاليد[3] ، والمصلحة العامة للبلاد[4] ، كما يمنع التعرض للملوك ورؤساء الجمهوريات والدول الصديقة[5] ومن يمثّلهم في داخل المملكة[6] .

ليس في هذه المواد ما يسوغ الحذر الذي تفرضه المؤسسات على نفسها إلاّ في نقاط ثلاث : **تحريم نشر ما يخالف العرف والتقاليد لهذه البلاد**[7] ، **وحق المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر بمنع كل ما لا تقضي المصلحة العامة بنشره**[8]، **والخوض في كل ما يمسّ قدْر مواطن أو شرفه أو كرامته، أو نشر سر من أسرار ثروته . . .**[9]

ونتساءل عن أعراف هذه البلاد وتقاليدها ؟ فنجد فيها الحَسَن كإكرام الضيف، والوفاء بالعهد، وحماية المستجير وغير ذلك . وهذا لا مجال للحديث فيه ، كما أن فيها الضار والقبيح . نضرب على ذلك مثلاً : كان في منطقة عسير[10] عُرف يقضي بختان الولد حين يبلغ سن الزواج في محفل عام، وكثيراً ما يحدث أن يسلخ الخاتن من جلده قَدْراً كبيراً دون تخدير ولا تعقيم لسكينه ، ولا يحق للمختون أن يبكي أو يصيح؛ لئلا ترفض البنات في قابل الأيام الزواج

---

١ المادة ٣٦ . ٢ المادة ٢٨ . ٣ المادة ٢٨ .
٤ المادة ٣٣ . ٥ المادة ٣٤ ٦ المادة ٣٥ .
٧ المادة ٢٨ . ٨ المادة ٣٣ . ٩ المادة ٣٦ .
١٠ انظر في كتاب محمد عمر رفيع ، في ربوع عسير – ذكريات وتاريخ ص ٨٤ .

به ؛ لأنه بكى وصاح يوم ختانه ، وكان جباناً[1] . أيعتبر التعرض لمعالجة مثل هذا العرف[2] — مثلاً — ماسّاً بالنظام ، وموجباً للعقوبة ؟ . لا نعتقد ذلك ، بل نرجح أن الدولة تسعى إلى القضاء على جذوره ؛ لأنها تهدف إلى بناء مجتمع سليم وصحيح . ويبدو أن المقصود بهذه المادة ليس الحديث عن الأمور الصالحة ، ولا محاربة العادات الضارة بل ما تعارف عليه الناس منذ أجيال ، فأصبح أمراً طبيعياً في حياة الناس وسلوكهم .

والمادة الثالثة والثلاثون قضت **أن تمنع مديرية الإذاعة والصحافة نشر ما لا تقضي المصلحة العامة بنشره** . وتفسير هذه « المصلحة العامة » مطاط . ويكفي أن يشعر مسؤول في إدارة الصحافة والإذاعة أن في مقال ما مساساً في « المصلحة العامة » حتّى يمنع نشره .

أما مقياس هذا الشعور ، وضبطه ، وحدوده الواضحة، فأمور متروكة لاجتهاد المسؤول، ووعيه ، وتقديره للظروف المختلفة من جميع جوانبها .

ولا شك أن إساءة استعمال هذه المادة ، أو التعسف في تطبيقها يشل الصحافة ، ويكبت الحرية ، ويسيء إلى عملية التطور والبناء ؛ وحسْنَ استخدامها يدفع إلى النهضة والتقدم ، ورصّ صفوف المجتمع .

ويخيّل إلينا أن تفسير « المصلحة العامة » يرِد جزئياً في المادة السادسة والثلاثين التي « حرمت الخوض في كل ما يمس قدر المواطنين ، وشرفهم ، وسمعتهم ، وأسرار ثروتهم ، إذا كان الخوض في ذلك سبيلاً إلى إلحاق الضرر بهم ، أو استغلالهم ، أو حرمانهم من المنافع » . وتبقى هناك أجزاء

---

١ انظر في المجموعة القصصية للقاص أمين الرويحي المسماة بـ « الحنينة » ص ٧٣ في قصة « الضحية » .

٢ لقد أبطل الختان المشار إليه منذ ظهور « المملكة العربية السعودية » وما إيرادنا له إلا على سبيل التمثيل فقط .

« للمصلحة العامة » تتصل بالقضايا السياسية والاجتماعية لم تذكر في المادة السادسة والثلاثين ، وإنما ذكرت في مادة أخرى .

ونحن نرى أن تحريم الخوض في أمور الناس ، وشرفهم ، وسمعتهم ، وثروتهم، وما إلى ذلك من أسرارهم الخاصة ، وحياتهم الذاتية : صون للكرامات ، وحماية لكل مواطن من التشهير أو الإذلال ، أو الإضرار ، أو الابتزاز . وهذا واجب الدولة الواعية ، وسبيل بناء المجتمع المتحابّ .

ولسنا نعتقد أن التشهير بالمحتكرين ، والمستغلين ، والفاسدين ، ممنوع بموجب المادة السادسة والثلاثين؛ لأنهم يسيئون إلى المصلحة العامة، ويلحقون الضرر بالناس . وواجب الصحافة الكشف عنهم صوناً لهذه المصلحة العامة المنشودة .

إن في صحف المؤسسات إدراكاً تاماً لأوضاع البلاد، وتقاليدها، واتجاهها . والسمة البارزة التي تميزها من صحف الأفراد أنها تلجأ إلى التعميم ، وتنأى عن التخصيص ، تنقد الوزارة، ولا تتعرض للموظفين فيها ، وتهاجم الدوائر ولا تسمي الأشخاص. وتحمل على الإذاعة ولا تذكر أحداً من العاملين فيها، وتتعرض لنظام السير وفوضى المرور ولا تشير إلى القائمين على تنظيمه . إنها تنقد بكثرة، وتظل تحافظ على أمرين : كرامة الناس ، ونظافة القلم الناقد .

وقد بلغ عمر هذه التجربة سنوات عدة ، وآن للدولة أن تحكم عليها صلاحاً أو فساداً، فتمدها بأسباب القوة والنماء إذا آمنت أنها ملائمة لأمانيها، محققة الغاية التي هدفت إليها ، أو تقتلعها من جذورها إذا أيقنت أنها لم تقدم جديداً للبلاد ولم تؤخر ، وأن وجودها كعدمه .

ويخيل إلينا أن هذه الصحف يمكنها أن تقوى لو دخلها الإصلاح من جانبين : جانب داخلي ذاتي ، ويكون بتحسس الصحيفة نفسها بالمسؤولية الكبرى التي حملتها أمام الوطن والمواطنين والأجيال القادمة، وتنزع عنها أردية الكسل

وقلة المبالاة وروح « الوظيفة » ، وتسعى إلى السبق والتنافس ، وتهمل – ولو إلى حد – التهافت على الربح ، وتضحي بشيء من المال لتستعين بالأكفاء والمختصين في فن الصحافة أو في الكتابة . وطريق خارجي يتعلق بالحكومة فتزيد معونتها المادية لهذه الصحف التي تضخمت نفقاتها ، وتؤسس وكالة رسمية للأنباء تقوم بجمع أخبار الدولة ، ثم تطبعها وتوزعها على الصحف ، فتوفر على المؤسسات عدداً من الموظفين ، وتتكفل الدولة كذلك بتوزيع الصحف [1] فتريحها من عبء كبير تشتكي منه مر الشكوى ، وتدّعي أنه وحده يستغرق أكثر وقتها ، ويصرفها عن التحسين والتطور والتفتيش عن المثل الأعلى ، وتعيد النظر في نظام المطبوعات ، فتدخل الحافز الشخصي في حساب التقدير والمكافآت . وأخيراً : فإن التجربة الثانية تثبت نجاحها وتؤكد قدرتها على البقاء – رغم ما فيها من هنات – .

* * *

ويجدر بنا أن نشير في ختام فصل الصحافة إلى **الإذاعة السعودية** . لأنها عنصر قوي من عناصر الإعلام إلى جانب الصحافة . ولأن للإذاعة علاقة ماسة بنشاط الأدب ، **وإذاعة بعض إنتاج الأدباء ، ونشره .**

ولقد ولدت الإذاعة العربية السعودية متأخرة ، وكان ذلك في سنة ١٣٦٨هـ/

---

١ جهدنا كثيراً أن نعرف عدد ما تطبعه كل صحيفة فردية أو مؤسسة فلم نصل إلى أرقام صادقة . وأكثر الصحفيين الذين سألناهم عن العدد الذي يطبعونه يومياً من صحيفتهم تهربوا من الجواب ، وتعللوا بأن هذا سر تحتفظ به الصحيفة لنفسها . ومنهم من أوصل عدد ما يطبع من صحيفته يومياً إلى عشرة آلاف إذا كان هناك « دوري » رياضي ، وإلى سبعة آلاف إذا لم يكن . ومنهم من أوصل عدد صحيفته إلى أربعة عشر ألف عدد يومياً . ومنهم من قال : إن أعداد صحيفته اليومية تتراوح بين ثلاثة آلاف وتسعة آلاف – حسب المناسبات – أما عن المشتركين فلم نصل إلى ما يستحق الذكر . ويخيل إلينا أنهم لا يزيدون في أغلب الأحوال على خمسة آلاف مشترك في الصحيفة القوية .

١٩٤٩ م . وكانت تعتمد – في أول أمرها – على النواحي الجدية أكثر من اعتمادها على التسلية والترفيه . برامجها الأولى حفلت بتلاوة القرآن الكريم ، والأحاديث الدينية ، والبرامج الخاصة ، والنشرات الإخبارية ، والتمثيليات والأناشيد الدينية والوطنية مع قليل من الموسيقى ، وأحياناً كانت تذاع بعض المقطوعات الرقيقة لمحمد عبد الوهاب دون أن يكون هناك غناء .

ولو فتشنا عن سبب هذا التضييق لوجدناه يرتد إلى عوامل كثيرة . أهمها عدم ألفة كثير من المواطنين لهذا الحدث الطارئ الجديد ، وعدم إدراكهم أثر الإذاعة ورسالتها ، ووجود فريق من الناس لم يقتنع بالفكر الحديث أو بالمخترعات الجديدة ، إضافة إلى رغبة القائمين على الأمر بتطوير البلاد شيئاً فشيئاً دون أن يكون في هذا التطوير إثارة أو استفزاز للذين لا يعرفون فائدة هذه المستحدثات . تلك كانت بعض مسوغات هذا التضييق .

وطبيعي في الإذاعة المحدودة أن تكون حصة الأدب المذاعة كبيرة . فلقد كان هناك ركن ثابت يسمى « عالم الأدب » وكان بعض الأدباء يقومون بإذاعة أحاديث اجتماعية كأحاديث السباعي « دعونا نمش »[١] ، أو أحاديث أدبية ، أو تاريخية ، أو ثقافية كأحاديث محمد حسن عوّاد[٢] ، وأحمد محمد جمال[٣] ، وعبد السلام هاشم حافظ[٤] ، وعبد الله عبد الجبار[٥] ، وأحمد

---

١ طبعت هذه المقالات بكتاب خاص حمل العنوان ذاته « دعونا نمش » . وتم الطبع في دار ممفيس للطباعة بالقاهرة .

٢ صدرت مقالاته في كتب مستقلة : اسم الأول « نحو كيان جديد » ، واسم الثاني « تأملات في الأدب والحياة » ، واسم الثالث « من وحي الحياة العامة » . وطبعت جميعها بمصر .

٣ جمعت مقالاته في كتابين : « على مائدة القرآن » و« مبادىء ومثل » . وتم طبعهما بمصر .

٤ صدرت مقالاته في كتاب اسمه « ثورة الجزيرة » وطبع بالقاهرة .

٥ أذيعت له مسرحية اسمها « العم سحتوت » ثم طبعت بمصر .

عبد الغفور عطار [1] ، وغيرهم . وكان كثير من الشعراء والقصاصين يذيعون ألواناً من أشعارهم وقصصهم . وبهذه الوسيلة كانوا يتصلون بجمهور جديد هو جمهور المستمعين ، وبذلك اتسعت دائرة شهرة أكثر الأدباء والشعراء والقصاصين ، وصاروا معروفين من قِبَلِ أكثر القراء والمستمعين .

ويبدو أن التطور الهادئ البطيء قد فعل فعله في الجماهير ، فصاروا يقبلون شيئاً فشيئاً على الاستماع إلى البرامج المختلفة ، ثم قبلوا بعض المقطوعات الغنائية الرصينة التي ينشدها الرجال من ذوي الأصوات الرخيمة . ومع امتداد الزمن تطورت الإذاعة حتى قاربت مستوى الإذاعات العربية الأخرى من حيث القوة ، وتنوُّعُ البرامج ، وإن كان هذا التطور على حساب حصة البرامج الأدبية ، ولكن هذا لا يعني أن نصيب الأدب قد تلاشى أو اضمحل ، بقدْر ما يعني أن الزمن الذي كان مخصصاً للأدب قد نقص إلى حد كبير ، وحلت محله برامج تهدف إلى المتعة وترفيه المستمعين .

ويلاحِظ المستمع إلى الأحاديث الأدبية المذاعة في الإذاعة السعودية و « التلفزيون » أنها قصيرة ، ويغلب عليها السطحية ، ويمتزج التوجيه الديني والأخلاقي والتهذيب الاجتماعي في ثناياها ، كما يلاحظ أن معظم الشعر المذاع يدور حول الغزل – في المقام الأول – ثم الأغراض الأخرى – في المقام الأخير .

وفي كل أمسية ، وقُبَيْل اختتام البرامجِ تُذاع حلْقة شعرية باسم « سَجَا الليل » وهي غالباً ما تكون من غزل الشعراء السعوديين المعاصرين . كذلك فإن برنامج « ساعة مع فنان » الذي يذاع أسبوعياً يكون « الفنان » فيه من الشعراء المواطنين في أكثر الحالات .

---

[1] صدرت في كتب عدة منها « كلام في الأدب » و « آراء في اللغة » و « إنسانية الإسلام » وطبعت في جدة وبيروت .

أما التلفاز « التلفزيون » فقد أنشىء حديثاً من عدة سنوات . وانتشر في معظم أرجاء المملكة ، وتشرف عليه الدولة بوساطة وزارة الإعلام ، وتستغله لغايات مختلفة : منها الغاية الإعلامية الخبرية ، ومنها التوجيهية الخلقية الدينية ، ومنها الثقافية والتربوية ، ومنها الترفيهية — ضمن حدود معقولة ومقبولة — .

والخلاصة ، إن وسائل الإعلام في المملكة لا تختلف في مستواها عن وسائل إعلام معظم البلاد العربية، ولئن وَجَد فيها بعض الناس شيئاً من هنات أو تقصير ، إن في وسائل إعلام البلاد العربية الأخرى كذلك هنات ، ومجالات كثيرة للقول ، والنقد ، قد تختلف في مظاهرها، ولكنها واحدة في أساسها وجوهرها .

الفصل الثاني

التعليم

لا مفرّ للباحث في الأدب السعودي من أن يعرِّج على موضوع التعليم في مملكة السعوديين ، ويستقصي مواطنه ، وبرامجه ، ويتعرف رجاله وتلامذته عبر العصر الحديث ليكون على بينة من أثره في النهضة ومدى فعاليته فيها .

وفي سبيل الوصول إلى إحاطة تامة بأطراف البحث قسمناه إلى فرعين متّبعين التقسيم المعهود : ما قبل الحكم السعودي ، وما بعده . وجهدنا أن نلمّ بجميع جوانبه، ونسلط الضوء على معالمه بين الفينة والفينة؛ لتتضح رسومه وتنجلي شخصيته ، ويمكن بوضوح تصوُّره ومن ثم الحكم عليه بالعدل والإنصاف والحيدة .

ولم نغفل النظر إلى كلا شقي المجتمع : رجاله ونسائه، ونصيب كلّ منهما في هذه العملية التعليمية خلال هذين العهدين ، كما لم نهمل ربط العلم بالقضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ؛ لأن بينها وبينه من الترابط والتشابك ما يغري بهذا الربط ، ويدفع إلى الحديث عنه . فلطالما ساعد بعض هذه القضايا على دفع التعليم وانطلاقه ، ولكنّ وقف بعضها الآخر حائلاً دون مسيره واندفاعه .

أما المصادر التي اعتمدنا عليها فهي إحصاءات وزارة المعارف، ورئاسة تعليم البنات [1] والكتب التاريخية المختلفة التي تطرقت من قريب أو بعيد إلى هذا

---

١ طبعت بدار الكاتب العربي ببيروت .

البحث ، ولم نَنْسَهُ عن الحكم على هذه المصادر ، ونقرر قيمة حيادها كلما تطلّب البحث منا ذلك .

التعليم قبل الحكم السعودي

تمتد هذه المدة من سنة ٩٢٣ هـ/١٥١٧م حين خضع الحجاز رسمياً لسلطة الدولة العثمانية [١] أيام السلطان سليم الأول إلى قيام المملكة العربية السعودية سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م ويدخل ضمنها الحقبة القصيرة التي أعلن الشريف حسين الهاشمي فيها استقلال الحجاز عن السلطنة العثمانية (١٣٣٥ — ١٣٤٣ هـ / ١٩١٦ — ١٩٢٤) .

إنّ **الحديث عن التعليم في الجزيرة العربية** خلال هذه المدة قصير النَّفَس ، قليل المادة ، ولا سيما فيما تعلق بغير الأراضي المقدسة ؛ لقلة اهتمام الباحثين والمؤرخين بالكلام عنه . ومهما حاولنا التنقيب في الكتب المختلفة عن هذا الموضوع فلن نعود بما يجدي ويغني . اللهم إلاّ أن إشارة صغيرة في مصدر حديث [٢] تحدثت عن مدرسة أُنشئت في الأحساء سنة صدور الدستور العثماني (١٣٢٦ هـ/١٩٠٨ م) وأنها كانت تدرّس جميع المواد باللغة التركية ؛ لذلك فإن الأهلين تجافوا عنها ، ولم يفيدوا منها بقليل أو كثير .

أما التعليم في الحجاز — ولا سيما بمكة المكرمة — فقد كثُر الكلام فيه — نسبياً — وأقدم إشارة إلى مدارس مكة في هذا العهد أوردها أحمد السباعي متحدثاً عن **مدرسة السلطان قايتباي** [٣] بجوار الحرم الشريف ، وذكر أن الدراسة كانت

---

١ أحمد السباعي ، تاريخ مكة ٢/٧ .
٢ أحمد عسه ، معجزة فوق الرمال ص ١٨٩ .
٣ قايتباي المحمودي ، أبو النصر سيف الدين . (٨١٥ – ٩٠١ هـ/ ١٤١٢ – ١٤٩٦ م) .
من سلاطين المماليك المصرية ، وفرع الجراكسة . بايعه المماليك بالسلطنة بعد « تمربغا » =

فيها منظمة ، وأن السلطان أوقف عدداً من الدور بمكة، ليكون ريعها مكافأة لمدرِّسيها . وقد بلغت غلاتها في العام الواحد ألفي دينار ذهباً[١] . والمدرسة الثانية **بناها سلطان البنغال** غياث الدين ، وخصصها لتدريس المذاهب الأربعة ، وكان موقعها بجوار دار « أم هانىء »[٢] . وبجانب المدرسة رباط كان يقيم فيه طلبتها الفقراء[٣]. **ووردت إشارة إلى مدرسة خاصة شادها آل المنوفي** ، وهي أسرة علم وفضل بمكة ، لكن تلك الإشارة لم تتعدَّ الكلمات[٤] . **أما مدارس العثمانيين الأولى فقد ظهرت بمكة** سنة ٩٧٢ هـ / ١٥٦٤م **وكان عددها أربعاً** . وموقعها بين « باب الدريبة » و« باب الزيارة » للحرم الشريف . وجعلت جميعها لتدريس مذاهب الفقه ، وقد رسم لكل مدرسة خمسون ليرة ذهبية في اليوم الواحد لتُنفق على المدرسين والموظفين والطلبة ، ووقف عليها بعض الموقوفات في الشام لتُحمل غَلّتها إليها ، وتُسلم إلى ناظرها في مكة . وقد ظل هذا « الصَّرّ »[٥] يُحمل سنوياً مع الركب الشامي مدة طويلة ، ثم توقف وانقطع حين تغيرت الظروف في بلاد الشام . وكانت هذه المدارس قائمة قبل توسعة المسجد الحرام[٦] .

التعليم في الحجاز ، في هذه المدة، كان يقوم في مواطن عدة : أولها في

= فتلقب بالملك الأشرف . حفل حكمه بالعظائم والحروب . كان متقشفاً ومحباً للعلم . (ابن إياس ، بدائع الزهور ٢/٩٠) .

١ تاريخ مكة ١/٢٩٤ .

٢ بنت أبي طالب الهاشمية ، روت عن النبي (ص) . وقد خطبها ولم يتزوجها (ابن حجر ، تهذيب التهذيب ١٢/٤٨١) .

٣ أحمد السباعي ، تاريخ مكة ١/٢٩٥ .

٤ المصدر السابق ٢/١٠٧ .

٥ من قولهم : صرّ الدراهم . إذا جمعها .

٦ المصدر السابق ٢/١١٢ .

الحرمين الشريفين ، حيث كان العلماء يعقدون حلقات الدروس ، ويجلس شداة العلم حولهم . ولم تكن تلك المجالس مقتصرة على تدريس الدين والفقه فحسب ، بل كانت تهتم إلى جانب العلوم الشرعية بالنحو ، والصرف ، والفلك ، والمنطق . وقد أُحصيت حلقات التدريس في المسجد الحرام فبلغت في بعض الأوقات نحو مائة وعشرين حلقة ، تتناوب التدريس في الآصال والبكور ، وبين أطراف الليل والنهار في نشاط وزحام[1] .

وإذا حاولنا معرفة الشروط الواجب توافرها في مدرِّس الحرميّن الشريفين لم نجد إلاّ إشارات تدل على وجوب نيله شهادة من هيئة كبار العلماء في بلده بعد أن تختبره في التفسير والحديث والفقه وقواعد اللغة العربية[2] . وجدير بالذكر أن جميع هؤلاء المدرسين لم يكونوا يتقاضون راتباً من الدولة ، ولا يقبلون صدقة أحد أو زكاته أو معونته،ويقولون : إن تعليمهم لله ، وفي سبيله ، فأجرهم منه يتقاضونه . ولهذا فقد عاشوا فقراء ، وماتوا فقراء . وكانوا من جنسيات مختلفة ، فيهم المصري والحجازي والنجدي والشّنْقيطي والحَضْرمي والهندي . وطلابهم يزدادون وينقصون تبعاً لمادة الدرس ، ووقته ، وشخصية مدرِّسه ، وهم متباينو الأعمار والأعمال، فالصغير بجانب الكبير ، والتلميذ بجانب الموظف ، والتاجر بجانب العامل[3] .

ومن مواطن العلم: **المدارس التي شادها بعض السلاطين** أو المحسنون، **ودور العلماء** الذين كانوا يمنحون طلبتهم دروساً خاصة[4] ، **ومجالس الأمراء** حيث كانت تعقد — أحياناً — ندوات لكبار العلماء يتجلى فيها البحث العلمي[5] .

---

١ المصدر السابق ٢/٢٠٤ .
٢ عمر عبد الجبار ، سير وتراجم ص ١٤ .
٣ أحمد إبراهيم ، الأدب الحجازي ص ٥٥ .
٤ أحمد السباعي ، تاريخ مكة ٢/٢٠١ .
٥ المصدر السابق ١/٢٩٤ .

وبيوت **الخاصة والكبراء** ، وهذه الفئة الموسرة كانت تفضل استقدام الأساتذة والمربين إلى منازلها على أن ترسل أولادها إلى الكتاتيب ، أو إلى المدارس . وهي ترسم للمعلمين خطة التدريس ، والمواد التي ترغب أن يتعلمها أطفالها [1] . **والبادية** أحد مواطن العلم ، درج أشراف مكة على أن يرسلوا أولادهم ، وهم في نعومة أظفارهم إلى البادية، وخصوصاً إلى قبيلة « عَدْوان » التي في شرق الطائف ، وهي قريبة من قبيلة سعد التي أُرضِع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فينشأون فيها على البداوة التامة مع الأمية الصرفة ، حتى إذا ترعرعوا عادوا إلى مكة ، وقد تعلموا بعض لغات القبائل ، وحفظوا من أشعارهم ، وأخذوا من عاداتهم وأخلاقهم التي من أحسنها الفروسية والحرية في القول والفعل [2] . **والكُتّاب** أكثر المواطن شيوعاً بين الناس لتلقّي مبادئ العلم ، وإقبالهم عليه كبير . وهذا النمط من المعاهد التعليمية عرفته جميع البلاد التي خضعت للحكم العثماني ، ومنها الحجاز وشمالي أفريقيا . وقد كان أشهر كتاتيب مكة في مستهل القرن الرابع عشر الهجري – أواخر التاسع عشر الميلادي – كُتّاب محمد الخياط ، ومحمد العنّاني ، وعبد الله مجاهد ، وعبد الله حَمْدُوه السناري ، وأحمد السوركتي وغيرهم [3] . ويروي صاحب « مرآة الحرمين » [4] أن عدد كتاتيب مكة في مطلع القرن الرابع عشر الهجري بلغ ثلاثة وأربعين كُتّاباً ، وكان فيها ١١٥٠ طالباً . ويصف مؤلف « سير وتراجم بعض علماء المسجد الحرام » [5] أحدها فيقول : « ... وكان في

١ عبد القدوس الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة ص ١٤٩ .

٢ إبراهيم رفعت ، مرآة الحرمين ١/٢٠٣ .

٣ أحمد السباعي ، تاريخ مكة ٢/٢٠٣ .

٤ إبراهيم رفعت ص ١٨٢ .

٥ عمر عبد الجبار ، وكتابه مطبوع « بمؤسسة مكة للطباعة والإعلام » سنة ١٣٨٥ هـ/١٩٦٣ م . – الطبعة الثانية – .

ذلك العهد عبارة عن حجرة مفروشة بحصر بالية ، بجانبها مراحيض وأزيار مكشوفة ، يشرب منها الأطفال ، وفيهم الصحيح والمريض ، وقد يكون المرض مُعْدياً، فأقرع وأبرص وأجرب ومحموم ينشرون العدوى بين الأصحاء باختلاطهم في الجلوس على الحصر والشرب من إناء واحد . وكان فقيه الكتاب لا يحسن غير التهجي والقراءة بطرق ملتوية . والفَلَقَة معلقة فوق رأسه، والعصي عن يمينه »[1]، « ويدرس الأطفال فيه مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، ويحفظون القرآن الكريم كله أو سوراً منه أو أجزاء ، وبعض مبادئ الفقه »[2] . ومن الأمور المتعارف عليها أنه إذا ختم أحد الطلبة القرآن الكريم أقام له ذووه حفلة كبيرة في دارهم ، ويحضرها شيخ الكتّاب ، وهو ضيف الشرف ، فيطرح صاحب البيت أمام المحتفلين لوحاً ، ويلقي عليه هديته — وغالباً ما تكون مالاً — ويفعل الشيء نفسه أكثر الحاضرين ، فيلقون عليه ما تيسر ، وكثيراً ما تكون حصيلة الشيخ مبلغاً كبيراً[3] .

الملاحظ على جميع هذه المواطن التعليمية شدة عنايتها بالنواحي الدينية وإهمالها جانب الدروس العلمية ، واللغات الأجنبية ، كما يبدو أنها لم تكن قائمة على نظام ثابت ، يحدد فيه عمر الطالب ، ودرجة ثقافته ، ومراحل تدرجه ، وشروط نجاحه وغير ذلك مما نجده في المعاهد الحديثة . وكأن هذا النقص لفت انتباه السلطة الحاكمة، ووضع أمام أعينها نقاط الضعف في مواطن التعليم القائمة ، ودفعها إلى إنشاء مدارس حديثة تعنى بالعلوم الدنيوية العصرية واللغات الحديثة ، وتنشئ جيلاً واعياً يعرف شؤون دنياه كما يعرف أمور دينه ، فيخدم دولته وأمته ، وينفع نفسه وذويه .

---

١ عمر عبد الجبار ، سير وتراجم ص ١٨٧ .

٢ عبد القدوس الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة ص ١٤٦ .

٣ المصدر السابق ص ٢٠٠ .

أما أول مدرسة عثمانية حديثة أُسست في الحجاز فهي « **المدرسة الرُّشدية** » وقد أقيمت بمكة، ثم تلتها أخرى تحمل الاسم ذاته بجدة . وكان ذلك في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي . كانت مواد التعليم فيهما : العربية والرياضيات والتاريخ . ومدرسوهما من الأتراك، ثم أضيف إليهم نفر من المكيين. وكانوا – جميعاً – يلقّنون دروسهم باللغة التّركية ، حتّى قواعد اللغة العربية . وقد قيل يومئذٍ : إن غرض الأتراك من إنشاء هذه المدارس تتريك أبناء العرب . لهذا لم يُقبل عليها إلاّ أبناء الموظفين من الأتراك ، وبعض العِلْية ممّن كانت تربطهم بالعثمانيين روابط ذات قيمة . أما طلبة العلم من أبناء العلماء وأفراد الشعب والمجاورين فلم يكن إقبالهم عليها إلاّ محدوداً [1] . ومع ذلك فقد راحت السلطة العثمانية تفتتح المدارس في أكثر المدن الكبرى ، وجعلتها على درجتين : ابتدائية وعالية . ويبدو أن حظ المدينة المنورة لم يقلّ عن أختها مكة المكرمة . فقد قرأنا أن **مدرسة عالية** كانت فيها قائمة على قدم وساق . أساتذتها أتراك وعرب، يدرّسون جميعاً كافة المواد باللغة التّركية [2]، وأن السلطة كانت عازمة على تأسيس «جامعة إسلامية» فيها . لكن الأحداث السياسية، وخروج الأتراك من البلاد حالت دون ذلك ، وجاءت الحكومة السعودية فأبرزتها إلى الوجود [3] .

ويبدو أن الحكومة العثمانية لمست قيمة المدارس وحاجة الحجاز إليها ، فأكثرت منها ، ولا سيما مدارس الحلقة الابتدائية . أما المواطنون فقد ظلوا راغبين عنها ، كان يَحزُّ في قلوبهم رؤية تلامذة « مدرسة الاتحاد والترقي » بمكة حين ينشدون : « حُرِّيَّتْ – عَدَالتْ – مُساواتْ – بادِشاهْ چُوقْ

---

١ السباعي ، تاريخ مكة ٢٠١/٢ ؛ محمد سعيد العامودي ، من تاريخنا ص ١٨٩ ؛ عبد القدوس الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة ص ١٥٠ .

٢ الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة ص ١٥٢ .

٣ أحمد إبراهيم ، الأدب الحجازي ص ٥٢ .

يَشاً »[1] . ويعتقدون أن مثل هذا الكلام يقود إلى تمزيق كلمة المسلمين، وينذر بتفكك وحدتهم [2] .

ومهما يكن من أمر هذه المدارس، ونظامها ، ومواد تدريسها، ودرجاتها، فإن أهل البلاد ما كانوا يندفعون إليها ؛ لِـمـّا يحسون فيها من رغبة في تتريك أبنائهم ، أو لعدم إيمانهم الإيمان الكامل بجدوى التعليم العصري فيها ، ولأن الدراسة الحديثة لم تكن قد هُضمت منافعها جيداً في هذا الجيل [3] .

وإذا كانت مدارس الأتراك لم تقم بواجبها كما يؤمل الناس ويشتهون ، **فالمدارس الأهلية الخاصة** أدركت الهدف وأصابت المَحزّ . ذلك أن المواطنين لمسوا ضعف مدارس العثمانيين ، وقلة فائدتها ، كما أدركوا أنه لم يعد يكفي الإنسانَ أن ينتظم في حلقة دراسية تُقام في المسجد ، أو يقتصر على علوم الكتّاب ، أو على ما يسمع في مجلس حاكم من أحاديث العلماء والمتناقشين، وأنه لا مندوحة عن الانتظام في مدرسة نظامية عربية الأصل والهدف تعلم أمور الدين والدنيا، وتعرّف الطالب جوانب الحياة وأطراف العلوم . فتنادوا إلى إنشاء هذه المدارس ، ولبّى النداء كثيرون ، وراحوا يتبرعون بسخاء ، فهذا يدفع المال ، وذاك يقدم الأرض ، والثالث يأتي بكتبه ، والآخر يقدم نفسه مدرّساً فيها دون أجر ، وهكذا . وإذا بهذه المدارس تنال رضى الناس جميعاً؛ فيدفعون أبناءهم إليها برغبة تشوبها الحماسة . ويتكاثر عددها مع الأيام فإذا بجدة تحوي وحدها **مدرسة عبد الرحيم الطرابلسي ،ومدرسة الشيخ شاهين ، ومدرسة الشيخ شمس، ومدرسة الفلاّح**[4] . وإذا بمكة فيها **المدرسة الصَّوْلَتيّة،**

---

[1] تعني « ليعش الملك كثيراً » .

[2] عمر عبد الجبار ، سير وتراجم ص ٦٦ .

[3] حسين نصيف ، ماضي الحجاز وحاضره ص ١١١ .

[4] الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة ص ١٥٣ .

والفخرية ، **والفلاح** . ولما كان لهذه المدارس الثلاث أثر بالغ في النهضة وجب أن نفصِّل القول فيها ، ونستعرض المنهاج التدريسي في واحدة منها .

في سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م حجت سيدة مثرية هندية تسمى « صَوْلَة النساء » ورغبت في أن تعمل خيراً في مكة المكرمة دائم الأثر لا ينقطع ثوابه ، فاشترت أرضاً بالخَنْدَريسة [١] وأوقفتها لبناء مدرسة ، ووَكَلَت إلى الشيخ محمد رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي [٢] الإشراف على تنفيذ البناء . فشرع في البنيان حتى أتمه سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م ، وسماها باسم السيدة الفاضلة « **المدرسة الصَّوْلَتيّة** » وجعل منهاج الدراسة يقوم على تدريس القرآن الكريم ، والتجويد ، والعربية ، والحساب ، والهندسة ، والعلوم الدينية المختلفة [٣] . وأقبل الطلبة على الصَّولتية إقبال الظامئين إلى مناهل العلم ، وراحت المدرسة تعمل بإخلاص . ولم تمض سنوات حتى ظهرت آثارها في أشخاص المتخرجين منها ؛ فتسلموا أسمى المناصب الدينية والقضائية ، وغدا الكثيرون منهم يدرّسون في المسجد الحرام كعبد الله الغَمْري ، وسالم شَفَى ، وسليمان مراد ، وأسعد دهان ، أو يقضون بين الناس ، كأحمد بن عبد الله القارئ ، وأحمد بن ناضْرين [٤] . وكان لها الفضل على أكابر الأسر العالمة بمكة كآل مراد ، والمفتي ، والعُجَيْمي ، والغَمْري ، والدهان ، والدَّهْلوي ، والدَّحْلان ، وبابْصيل ، والزَّواوي ، والكتبي ، وكمال [٥] .

قَبلت المدرسة المعونات المالية من أهل الهند بصورة خاصة ، لأنها كما

---

١ اسم حارة بمكة ، وهي قسم من حارة « الباب » .

٢ علامة من أفذاذ الهند المجاهدين ضد الاستعمار الإنكليزي ، وهو مؤلف كتاب « إظهار الحق » في الدفاع عن الدين الإسلامي (السباعي – تاريخ مكة ٢/٢٠٢) .

٣ إبراهيم رفعت ، مرآة الحرمين ١/١٨٢ .

٤ عمر عبد الجبار ، سير وتراجم ص ٣٨ ، ٤٥ ، ١٠٦ .

٥ أحمد السباعي ، تاريخ مكة ٢/٢٠٢ .

يقول المكّيون هدية الهند إلى الحجاز[1] . وما تزال الصولتية إلى اليوم تؤدي رسالتها وتُغْني البلاد بالعلماء .

ويظهر أن ما لاقته الصَّوْلتية من إقبال ونجاح أغرى عدداً من العلماء بإشادة المدارس الخاصة، ومنهم الشيخ عبد الحق قاري الذي كان يدرّس في الصولتية، فدعا أثرياء الهند لمساعدته على إقامة مدرسة جديدة، فأُجيبت طلباته، فأنشأ **المدرسة الفخرية** سنة ١٢٩٦ هـ / ١٨٧٨ م وشرعت مدرسته تؤدي دورها جيداً في خدمة البلاد ، وتجمع نفقاتها من محسني مسلمي الهند والباكستان . وما تزال المدرسة قائمة إلى يومنا هذا[2] .

ثم فكر المحسن الكبير الحاج محمد علي زِينَل[3] في العناية بشؤون التعليم فأسس في كلٍّ من مكة وجدة **مدرسة الفلاح** وكان ينفق عليهما من ماله الخاص، كما أنشأ مثلهما في بُمْباي بالهند . وقد تأسست بذور مدرسته في مكة من كُتّاب الشيخ عبد الله حمدوه السناري الذي قبِل أن ينضم وطلابه إلى المشروع ، وأن يقوم على إدارة المدرسة .

وكانت الغاية من إنشاء « مدارس الفلاح » تتلخص في المبادئ التالية على لسان مؤسسها : « إن الإسلام وتعاليمه انتشرا من مكة والمدينة ، وها هي ذي مكة قد سادها الجهل ، وقلّ بين أهلها العلماء الذين يقدرون على حمل رسالة الإسلام ونشرها في العالمين ، وإن العالم مهدد بالمدنية الغربية التي تحارب التعاليم الإسلامية . لذلك يجب أن تقوم مدارس الفلاح بإعداد جيل عالم يحمل الأمانة ، ويبشر بها ، ويقف أمام التيار الأوربي الطاغي »[4] .

---

١ أحمد إبراهيم ، الأدب الحجازي ص ٥٢ .

٢ السباعي ، تاريخ مكة ٢/٢٠٢ .

٣ أحد كبار تجار اللؤلؤ بجدة . شهر بحبه للعلم والعلماء ، وهو سيد أسرة آل زينل المعروفة بالحجاز (الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة ص ٢٨٢) .

٤ حسن كتبي ، أشخاص في حياتي ص ٨٢ .

حمل «زينل» وحده عبء الإنفاق على مدارسه ، وتفانى في العناية بها ، ورتّب لها أشهر المدرسين في عصره، وكان ينفحهم أحسن المرتبات من جيبه الخاص دون أن يتناول لقاء ذلك مساعدة من أصحاب البر رغم العروض التي كان يبذلها عدد من الناس . وقد ظل أمره على ذلك ربع قرن ، ثم اعترى تجارته الكساد، فشرعت المدارس تستعين بتبرعات المحسنين، وكان على رأسهم محمد صالح جمجوم[1] ، كما بدأ طلبتها يدفعون مشاهرة كلٌّ بقدر استطاعته أو استطاعة وليّ أمره . وقبلت تبرعات من الهند ، وزكاة التجار في مكة وجدة إلى سنة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٥ م وفرضت لها الدولة ضريبة القرش على كل طرد بريدي . وقد ألغيت هذه الضريبة عندما تشكلت وزارة المعارف السعودية[2] سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م .

أما منهاج التدريس في مدارس الفلاح فقد طرأت عليه تعديلات اقتضتها التجربة والظروف السياسية التي مرت على الحجاز . وخلاصتها : في **الحقبة الأولى** التي ابتدأت عند افتتاحها سنة ١٣٢٣ هـ حتى سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٠٥ — ١٩٣٦ م) كانت الدراسة فيها على أربع مراحل : **الأولى تحضيرية** ، ومدتها ثلاث سنوات . وتُدرّس فيها سور من القرآن، وشيء من التجويد، وقواعد الإملاء ، وبعض العمليات الحسابية ، ثم أضيف إليها بعد دخول السعوديين : الفقه ، والتوحيد والمطالعة . **والثانية ابتدائية** ، ومدتها ثلاث سنوات أيضاً . وفيها يدرس الطلبة القرآن وتجويده ، والتوحيد ، والفقه ، والحديث ، والسيرة ، والقواعد ، والصرف ، والإملاء ، والخط ، والحساب . ثم

---

١ تاجر كبير من أسرة علم ومال . شغل إدارة الأوقاف بجدة زمناً ، ثم تركها وانصرف إلى التجارة (الأنصاري ص ٢٩١ و ٢٩٨) .

٢ الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة ص ١٥٣ .

أضيف الإنشاء والمطالعة بعد دخول السعوديين . والمرحلة **الثالثة المتوسطة** ، ومدتها ثلاث سنوات . وفيها يدرّس التفسير والحديث والتوحيـد – على مذهب ابن عبد الوهاب – والفقه ، والسيرة ، وعلوم العربية ، والتاريخ ، والجغرافية، والحساب ، والهندسة ، « ومَسْك الدفاتر » . **والمرحلة الأخيرة العالية**، مدتها ثلاث سنوات . ويدرس الطلبة فيها بعمق التفسير وأصوله ، والحديث ومصطلحه ، والفقه ، والفرائض ، والأخلاق ، والمنطق ، وعلوم الرياضيات بما فيها الجبر ، والهندسة ، والحساب ، « ومَسْك الدفاتر » . وقد أُلغِي المنطقُ عند دخول السعوديين ، وحل محله اللغة الإنكليزية ، والعلوم ، والصحة ، والتربية الاجتماعية .

أما الحقبة الثانية ، فقد استغرقت التجربة فيها خمس سنوات ١٣٥٦ – ١٣٦١ هـ / ١٩٣٧ – ١٩٤٢ م كثّفت فيها المرحـلة التحضيرية والابتدائية وزادت مدة الدراسة فيهما سنة ، إذ كان مجموعها ست سنوات، فأصبحتا سبعاً . وخُففت مواد المرحلتين التاليتين ، ونقصتا سنة واحدة .

والحقبة الثالثة استمرت تسع سنوات ، وانتهت عند قيام وزارة المعارف السعودية سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م وفيها اندمج التحضيري بالابتدائي وصارت مدته ست سنوات، وسميت المرحلتان بالمرحلة الابتدائية . وفي السنة الأولى بعد الابتدائية يمر الطالب بصف إعدادي ، يتوجه بعده إلى التخصص . وهذا ينقسم إلى مرحلتين، كلٌّ منهما يستغرق سنتين . ويختار الطالب العلوم الشرعية أو الرياضيات . فإذا انتهى من هذه المرحلة أمكنه أن يطلب من الدولة إيفاده إلى دولة أخرى لإتمام تحصيله .

والحقبة الرابعة التي تعيشها الفلاح إلى اليوم : طُبق فيها منهاج المدارس السعودية الرسمية ، وتعادلت شهادتها والثانوية السعودية . والفرق بين الفلاح ومدارس الدولة : محافظتها على قوة الدراسة الدينية رَعْياً للمبدإ الأصيل الذي

وضعه « زينل » يوم أسّسها [1] .

هذه المدارس الأهلية : الصَّوْلتية والفخرية والفلاَح هيأت للبلاد خيرة الرجال والمثقفين . وطلابها كانوا المادة الرئيسية التي اعتمدت عليها المملكة العربية السعودية في نهضتها، وخريجوها هم اليوم الوزراء، والوكلاء، والعلماء ، والأدباء، والرعيل الأول الذي حمل على عاتقه عبء النهضة الفكرية والأدبية، وأذاعها في طول البلاد وعرضها [2] .

تلك كانت حال المدارس في عهد العثمانيين ، وصورة التعليم في منطقة الحجاز . أما في عهد الهاشميين فلم يتبدل الوضع العلمي كثيراً إذ بقيت الكتاتيب ، وحلقات المساجد ، ومجالس العلماء ، والدروس الخاصة في منازل السادة والطبقة الثرية على ما كانت عليه ، **وأغلقت المدارس التركية العصرية أبوابها** وحاول الشريف حسين أن يفتح معاهد جديدة تحلُّ محل المعاهد التركية ، فأنشأ المدرسة الهاشمية ، والراقية ، والعالية ، ومدرسة الفائزين ، والخيرية ، ودار العلوم الدينية ، ومدرسة العلوم الشرعية ، والمدرسة الحربية ، والمدرسة الزراعية [3] .

ولقد انتشرت المدارس ولا سيما الابتدائية في أكثر المدن الكبرى الحجازية

---

١ اقتبس هذا المنهاج من كتاب عبد القدوس الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة من ص ١٥٥ إلى ص ١٦٢ .

٢ من خريجي هذه المدارس : أحمد إبراهيم الغزاوي ، ومحمد عمر عرب ، ومحمد حسن عواد ، ومحمد سعيد العامودي ، وعبد الوهاب آشي ، وحسين عرب ، ومحمد حسن فقي ، وحمزة شحاته ، وأحمد قنديل ، ومحمود عارف ، وحسين سراج ، وحسن كتبي ، وطاهر الزمخشري ، وعبد الله عريف ، وهاشم الزواوي ، وعبد المجيد شبكشي ، وحسن عبد الله القرشي ، ومحسن باروم ، وحسين سرحان ، وأمين الرويحي وغيرهم (المنهل – عدد الأدباء) .

٣ السباعي ، تاريخ مكة ٢/٢٣٦ ؛ حسين نصيف ، ماضي الحجاز وحاضره ص ١١١ .

وشاعت فيها روح النهضة وحماستها . وكان تلامذتها يقابلون الحُسَين في أعياده الرسمية ، واحتفالاتهم المدرسية ، فيستمع إلى خطبائهم ، ويناقش كلماتهم ؛ إلاّ أن وقدة هذه الروح ما لبثت أن اعتراها بعض الفتور [1] ، ولعل في ذلك ما يعود إلى رأي الحسين نفسه، فقد قيل : إن بوادر الحركة التعليمية وما بدا فيها من حماسة ، جعلته يتهيب ما يترتب على ذلك من نتائج [2] . فقد أدرك أنها أصبحت سبيلاً لتنوير الأفكار ، ووسيلة إلى وعي الناس حقوقهم ، ومشعلاً يهديهم إلى التخلص من العسف والاستبداد [3] ، فراح يحاربها بطرق خفية ، إذ كان يؤخر مرتبات المعلمين شهوراً عدة ، فيتعبون من المطالبة بها ، حتى إذا وصلوا إليها وجدوا فيها حسميات كبيرة . ومع توالي الأيام كانت تضعف رغبتهم في الاستمرار في التدريس؛ فينأوْن عنه عند أول سانحة تلوح لهم ، وبفقرهم وهوانهم يضربون المثل للآخرين ، فلا يرغب أحد في أن يسلك درب الحياة عبر هذا السبيل .

وكره الشريف حسين أن تمضي مدارسه في الدراسات الحديثة ، بل خُيِّل إليه أن فيها مفسدة لأبناء الحجاز، فَقَصَّرَ التعليمَ على مبادئه، وحجب عن الشباب المتطلع الآفاق الواسعة في الدرس والبحث ، وكره أن يتعلم رعاياه كما يتعلم المصريون والسوريون . وكان يقول : إنه لا يلزمنا نحن العرب من التعليم غير ما يوافق بلادنا وحالنا . وأشد ما كان يبغضه هو تعليم اللغات الأجنبية [4] ، كأنه يخشى أن تتفتح العقول على الثقافة الأوربية المليئة بالفساد

---

١ جميع الكتب التي تناولت الحديث عن مدارس الحسين ، والتعليم في عهد الهاشميين عامة أفعمت بالهجوم على الحسين ، والإقلال من شأن التعليم . وقد يكون مرد ذلك إلى أنها ألفت بعد خروجه من الحجاز منفياً .

٢ السباعي ، تاريخ مكة ٢/٢٣٨ .

٣ إبراهيم رفعت ، مرآة الحرمين ١/٣٨ .

٤ الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة ص ١٦٢ .

الخلقي والديني ، فيُعْدَون منها [1] . ولهذا وقف في وجه « المستر كراين » الثريّ الأمريكي عندما تبرع بترحيل بعض الشباب إلى أمريكا لتعليمهم على حسابه الخاص [2] . وضيّق الخناق على المدارس ، وقلل من وارداتها ، فتضاءلت ، ثم هبطت إلى مستوى الكتاتيب الصغيرة . وهذا ما يعيب عليه الزركلي بقوله « ومدارساً ما كان ينقص حسنهن سوى العلوم » [3] .

أما تعليم البنات في عهد العثمانيين والهاشميين : فهو أكثر غموضاً من أمر تعليم البنين . وتضنّ المصادر بالحديث عنه . ولكنا نعرف أنّ الجزيرة العربية أحد بلاد العالم الكثيرة التي تأخر فيها البدء بتعليم البنات . واختلفت تفسيرات هذا التأخر . وأقربها إلى المنطق ما جاء على لسان أحد الكتاب في قوله : « . . . سبب ذلك يرتد إلى عاملين : **ديني** ، نشأ من تراكم الأضاليل على جوهر الشريعة ، ومما اعتقده كثير من الجهال أن تعليم البنات يُودِي بهن إلى الاثم والحرام . **واجتماعي** ، نشأ من النظرة الخاصة إلى المرأة ، وأنها خلقت للبيت ، ولخدمة أهواء الرجل ، وتلبية رغباته ، وأن كل تعليم مفسد لها » [4] .

ولم نعثر في كتاب على إشارة تومىء إلى تعليمها في قلب الجزيرة . ولم نستطع أن نخرج بفكرة واضحة عن وضعها إلاّ في الحجاز . فقد قرأنا أن سيدة من آل الطّبَري بلغت مرتبة العلماء بمكة المكرمة ، وتدعى «خديجة الطّبَرية » ، وهي ثالث سيدة اشتهرت بالعلم من آل الطبري [5] . وتزوجها رجل من آل دحلان فأنجبت أحمد زَيْني دَحْلان [6] ، كما قرأنا أن للفتيات كتاتيب موزعة

---

١ حسين نصيف ، ماضي الحجاز وحاضره ص ١١١ .

٢ السباعي ، تاريخ مكة ٢/٢٣٥ .

٣ إبراهيم رفعت ، مرآة الحرمين ١/٢٨ – وقد نونت كلمة – مدارس – لضرورة الشعر – .

٤ نهاد الغادري ، التحدي الكبير ص ١٩٨ .

٥ الأولى في عهد الشراكسة ، والثانية في العهد العثماني الأول (السباعي ، تاريخ مكة ٢/٢٠٩) .

٦ السباعي ، تاريخ مكة ٢/٢٠٩ .

في بعض أحياء مكة، أشهرها : كُتّاب «آشيه» في «المَرْوَة»[1] . ويغلب على ظننا أن كتاتيب النساء كانت كثيرة في الحجاز، وموجودة في بقية المناطق من الجزيرة، قياساً على ما نعرفه في البلاد العربية الأخرى التي خضعت للحكم العثماني .

ويبدو **أن عدداً من المدارس الخاصة بالبنات أنشئت قُبيل وحدة الجزيرة** . كان أربع منها بمكة، وهي : المدرسة الهَزازيّة[2]، ومدرسة الفتاة[3] ، ومدرسة الزهراء[4] ، وروضة الأطفال[5]. وخمس بجدة، وهي : مدرسة البنات الفَلاَحية، ومدرسة «مؤسسة الثقافة الجامعية» ، والمدرسة النّصيفية ، وحديقة الأطفال ، ومدرسة روضة الأطفال . وواحدة بالمدينة، وهي : مدرسة الخُوجَة[6]. وجميع هذه المدارس خاصة، افتتحها الأهلون، وأنفقوا عليها ، ولم يكن للسلطة الرسمية أثر فيها. أما مواد الدراسة فيغلب على الظن أنها اقتصرت على بعض العلوم الدينية، وعلى قليل من المواد العصرية الأخرى . وكلها مدارس ابتدائية أو ما دونها .

التعليم في عهد السعوديين

عقبات ثلاث وقفت في وجه نمو التعليم في بدء ظهور «المملكة العربية السعودية» تغلبت الدولة على اثنتين، وتحاول تذليل الثالثة . الأولى تتعلق بموارد الدولة . ذلك أن الملك عبد العزيز لم يكن يملك المال حين نُودي به ملكاً على

---

١ المصدر السابق ٢/٢٠٣ و «المروة» أحد طرفي المسعى في المسجد الحرام . وهما «الصفا والمروة» .
٢ الهزازية محلة تقع في سوق الليل بمكة (عبد الله عبد الجبار ، التيارات الأدبية ص ١٨٠)
٣ تقع هذه المدرسة بمحلة القرارة بمكة المكرمة (المصدر السابق ص ١٨٠) .
٤ عمر عبد الجبار ، سير وتراجم ص ١٢ .
٥ عبد الله عبد الجبار ، التيارات الأدبية ص ١٨٠ .
٦ الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة ص ١٧٣ .

البلاد العربية السعودية، وما كانت موارد الدولة البارزة تأتي عن غير طريق الحجاج ، وهي موارد سنوية لا تسمن ولا تغني من جوع ، وما كانت تزيد على مائة ألف جنيه سنوياً . بل كان من سوء حظ الدولة الجديدة أن ولادتها صادفت موجة الكساد الأكبر في العالم ، وما رافقه من أزمة اقتصادية خانقة . فتأثر مورد الدولة من الحجاج الذين قلّوا في سنوات تلك الموجة قِلّةً كبيرة . وطبيعي أن مشروعات الدولة جميعها تتأثر بقلة الموارد ، وتنكمش ، وكذلك كان أمر التعليم .

ثم اكتُشف البترول في منطقة الأحساء سنة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م، ولم تحصل المملكة على دَخْل منه إلاّ في سنة ١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٩ م وكان حوالي ١٦٦ ألف دولار . وبقي رقم العائدات يترجّح بين المليون والمليون ونصف المليون في سنوات الحرب حتى حل السلام في العالم . ثم بدأ الدخل يتصاعد حتى بلغ سنة ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م مبلغ ٦٦٢ مليون دولار . وحُلت مشكلة المال ، وزالت عقبة الفقر دفعة واحدة .

العقبة الثانية : كانت تتصل ببعض العقليات التي لم تقتنع بالفكر الحديث ، وبالتقدم الحضاري ، وبفائدة المدارس العصرية . وقد خُيِّل إلى هذه الفئة أن الرسم هو التصوير ، وأن تعلم اللغات الأجنبية ذريعة إلى الوقوف على عقائد الكافرين ، أو هو وسيلة إلى إضعاف أخلاق الشباب[1]. ولقد واجه الملك عبد العزيز هذه المشكلة ، واستطاع أن يوضح لتلك الفئة أن ما يريده من المدرسة العصرية هو أن تَقْوى العقيدة الدينية في قلوب الطلاب ، وتجعلَ المملكة الوليدة في مصاف الدول القوية المتعلمة المتحضرة . وآمن بعضهم بصواب رأيه وصحة خطته ، وروعة هدفه ، فاندفعوا يساعدونه على تحقيق الهدف الذي يرمي إليه .

١ انظر في كتاب حافظ وهبه ، جزيرة العرب في القرن العشرين ص ١٣٠ .

وأما العقبة الثالثة : فكانت في مستهل ولادة المملكة قوية كبيرة إلاّ أنها تتضاءل وتذوب مع مرور الزمن . **وتتمثل في توافر عناصر المدرسة الرئيسية .** فالمملكة بلد شاسع أقرب ما يكون إلى القارات منه إلى الدولة الصغيرة . والسكان منشورون هنا وهناك وفق الظروف الجغرافية والمعاشية مما يجعل إقامة مدارس معدودات — وفق القدرة المالية للمملكة يومها — لا يخدم إلاّ أعداداً قليلة ، من ثم يحتم الإكثار من المدارس ، رغم أن المدرسة لم تكن تضم أكثر من عشرات . ورجال التربية المختصون كانوا في حكم الندرة إذا لم نقل الندرة ذاتها . ولم يكن في البلد العدد الكافي من المدرسين الأكفاء ؛ لأن قروناً تعاقبت على شبه الجزيرة والأمية متفشية فيه ، وحيث تتفشى الأمية يصعب العثور عادة على المدرسين الأكفاء لتبدأ النهضة الحقيقية . والأدوات المدرسية ذاتها لم تكن تُصنع في المملكة ، والكتب المدرسية المتفقة مع العقيدة والمحيط لم يكن هناك من يؤلفها أو يطبعها . فكان لا بد من مواجهة المشكلة التي تبدأ باستيراد المدرسين والكتب ، وتنتهي باستيراد «الطبشورة» واللوح الأسود. وعندما نقول : « كل شيء » يكون معنى ذلك الاحتياج إلى مخصصات ضخمة ، ومواجهة مشكلات كبيرة ، من بينها تهيئة بيوت لسكنى المدرسين الوافدين مع أسرهم ، وتكاليف نقلهم سنوياً من بلادهم وإليها ، وفي ذلك نفقة كبيرة ، مما يجعل الحصول على فائدة جليلة أمراً محدوداً .

ولم تبخل المملكة بالمال ، فقد دفعت الكثير لتتغلب على هذه العقبة ، وما تزال تدفع . وسنرى كيف تتطور ميزانية التعليم سنة فسنة في سبيل الوصول إلى خدمة البلد الصحيحة ، ونثر المدارس في كل اتجاه كما انتثر المواطنون[1] .

وقد اتخذت المملكة في سبيل الوصول إلى الهدف المرسوم خطة المراحل

[1] انظر في أحمد عسه ، معجزة فوق الرمال ص ٥٣٤ ؛ وعبد الوهاب أحمد عبد الواسع ، التعليم في المملكة العربية السعودية ص ٢٨ وما بعدها .

المتدرجة، فأنشأت إدارة المعارف أولاً. وحين نجحت هذه أنشأت وزارة المعارف . ولدت «الإدارة» مع ولادة المملكة، وباشرت أعمالها في مطلع سنة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٦ م ولم تستطع أول أمرها أن تفتتح أكثر من اثنتي عشرة مدرسة . وكان طلابها لا يزيدون على سبعمائة ، وميزانيتها لم تتجاوز ٥٦٦٥ جنيهاً إنكليزياً؛ لأن العسرة المادية كانت آخذة بخناق الدولة . وسارت الخطة بطيئة الخطى ، ومرت عشر سنوات ولم تزد المدارس على سبع وعشرين[1] في جميع أرجاء البلاد ، وهي إلى الكتاتيب أقرب منها إلى المدارس الحقة . وحلت سنة ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٣ م فافتتحت « **دار التوحيد** » **بالطائف** وعيّن فيها ثلاثة مدرسين سعوديين وجلب بقية الأساتذة من مصر وبلاد الشام . وكانت المعهدَ الثانوي الأول في عهد الإدارة، وجعلت مدة الدراسة فيها خمس سنوات. فيها يدرس الطلبة التفسير والحديث والفقه الحنبلي والأصول والمصطلح والتوحيد والفرائض والحساب والنحو والصرف والبلاغة والتاريخ والأدب وتجويد القرآن الكريم[2]. فإذا أتم الطالب الدراسة فيها انتقل إلى مرحلة أعلى، يبقى فيها سنتين ، يتخصص فيهما بالعلوم الشرعية أو العربية . ويمكنه أن يُعيَّن معلماً في إحدى المدارس الابتدائية . وإذا رغب في المزيد ففي إمكانه أن ينتسب إلى كلية الشريعة بمكة التي افتُتِحت سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٤٩ م ويدرس فيها أربع سنوات يتخرج بعدها قاضياً أو مفتياً أو مدرساً .

ولم تستطع الدولة أن تنشيء في أربع سنوات أكثر من أربع مدارس في مدينة الرياض وكان ذلك بين سنة ١٣٦٥ ـ ١٣٦٩ هـ / ١٩٤٥ ـ ١٩٤٩ م . وأعظم ما فعلته تأسيس مدرسة « **تحضير البعثات** » بمكة إذ كانت الغاية منها إعداد أفواج الشباب علمياً وفنياً ، ليكونوا مؤهّلين للالتحاق بمختلف الكليات

---

١ الإحصاءات الواردة في هذا الفصل مستقاة من الإحصاءات الرسمية لوزارة المعارف السعودية .

٢ الشنقيطي ، النهضة الأدبية بنجد ص ١٩ .

في جامعات مصر، وبيروت، وأوربا، وأمريكا. وهؤلاء المبعوثون حلوا عند رجوعهم محل الأجانب والغرباء، وتسلموا أكبر المناصب في الدولة، وكان منهم الوزير، والوكيل، والمدير العام. وهذه المدرسة هي التي كانت السبب في إنشاء جامعة الرياض فيما تلا من زمن[1]. وفي سنة ١٩٥٠ م أنشىء في مدينة الرياض مدرسة المعلمين الليلية، وأُسِّست الإدارة العامة للمعاهد العلمية والكليات. وهي تابعة لآل الشيخ، وأحدث في العاصمة أول معهد علمي.

لقد نجحت، إدارة التعليم في خطتها، واقتنع الناس بفائدة المدرسة السعودية، فأقبلوا يدفعون أبناءهم إلى تلقي العلم من مناهلها. ولبّت الإدارة رغبة المواطنين الملحة، فراحت تبث المدارس هنا وهناك تلبية لكل طلب؛ لأن المال قد توافر بين يديها. وبمجرد نجاحها انتهت مهمتها لتبدأ مهمة «وزارة المعارف» الضخمة.

أُنشئت الوزارة سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م. وما كانت ميزانيتها تتجاوز اثني عشر مليون ريال[2] في مستهل أمرها. ومع توالي الزمن غدت ميزانيتها في سنة ١٩٦٩ – ١٩٧٠ م ٤٨٥ مليون ريال تقريباً. أما ما ينفق على التعليم فيقدر بـ (٦٩٦،٥) مليون ريال في إحصاءات ٦٩ – ٧٠ م[3].

---

١ عبد الله عبد الجبار، التيارات الأدبية ص ١٨٥؛ وانظر في النشرة الرسمية التي عنوانها «وزارة المعارف» ص ١٣٧.

٢ الدولار الأمريكي يعادل ٤ ريالات ونصف – تقريباً –.

٣ انظر جدول ميزانية التعليم العام لسنة ٦٩/٧٠.

ميزانية التعليم في إحصاءات عام ١٩٦٩/١٩٧٠ م

المجموع العام	٦٩٦،٥٨٨،٠٠٠	ريال
وزارة المعارف	٤٨٤،٢٢٨،٠٠٠	»
مدارس الثغر النموذجية	٢،٣٤٧،٠٠٠	»
معهد العاصمة النموذجي	١،٧٣٩،٠٠٠	»
رئاسة تعليم البنات	٩٥،٤٤٠،٠٠٠	»
إدارة المعاهد والكليات	٣٧،٤٤٩،٠٠٠	»
الجامعة الإسلامية	٩،٤٨٥،٠٠٠	»
جامعة الرياض وكلية الهندسة	٤٦،٧٥٣،٠٠٠	»
كلية البترول والمعادن	١٩،١٤٧،٠٠٠	»

تميزت وزارة المعارف عن « الإدارة » بالتخطيط والدراسات قبل البدء في كل مشروع ، ووضعه موضع التنفيذ . وتعتبر « دائرة التخطيط » في المقام الأول بالوزارة . وتضم عدداً من الخبراء السعوديين والأجانب . وهي ترسم الخطة الواجب اتباعها في خمس سنوات ، وتراعي فيها الوضع الحاضر ، والقدرة المالية ، والظروف المختلفة ، وتقرر المدى الذي يجب أن تبلغه في نهايتها ، ثم تضعها رهن التنفيذ ، وتراقب التطورات التي تنشأ ، وتجمع النتائج أولاً فأولاً ، فإذا وجدت استحالة أو صعوبة في تطبيقها عدّلتها ، ثم تبدأ — على ضوء الخطة السابقة — في تخطيط الخطة الخمسية اللاحقة وهكذا .

كان أول ما فعلته الوزارة أن قسمت رقعة المملكة المترامية الأبعاد إلى إحدى وعشرين منطقة تعليمية ، ومنحت كلاً منها الاستقلال المادي ، والإداري ، وحرية التصرف ، والحركة ، ولم تقيدها إلاّ بالخطوط الكبرى للوزارة ، وبسياسة الدولة العليا ، مراعاة منها لظروف كل منطقة وأوضاعها .

وقسمت التعليم إلى فروع : عام ، وفني ، وجامعي — في داخل البلاد وفي خارجها — وإعداد المعلمين ، وشعبي .

١ً — **فالتعليم العام** يبدأ بانتساب الطفل إلى روضة الأطفال ، وينتهي بنيله الشهادة الثانوية . وهو على مراحل : **حضانة** ، والوزارة لا تهتم كثيراً بها ، وليس لها إلاّ ثلاث منها[١] . **وتعليم ابتدائي** ، وهو ليس إجبارياً كما هو الأمر في بلاد أخرى ، بل لا حاجة إلى إجبار الناس عليه ، فهم بطبعهم يتدافعون بالمناكب عند مستهل كل سنة دراسية ليسجلوا أبناءهم في مدارس الدولة . وتنال هذه المرحلة أكبر العناية من الوزارة ؛ فهي قاعدة الهرم التعليمي . وتمتد مدارسها من أقصى البلاد إلى أقصاها ، مشتملة على البادية ، والحاضرة ،

---

١ الأولى بالرياض ، والثانية بالدمام ، والثالثة بالهفوف . أما رياض الأطفال التابعة للتعليم الأهلي فقد بلغ عددها واحداً وأربعين روضة في إحصاءات التعليم ٦٩/١٩٧٠ م ّ.

والهُجَر ، وقلب الصحراء . مـــدة الدراسة فيها ست سنوات تنتهي بـ « شهادة إتمام التعليم الابتدائي » . والمواد المقررة هي : العلوم الدينية ، والعربية ، والرياضيات ، ومبادئ العلوم العامة ، والتربية الاجتماعية ، والفنية ، والبدنية . وقد بلغ عدد طلبة هذه المرحلة في سنة ١٩٦٩ / ١٩٧٠ م أكثر من ربع مليون ، ضمتهم ألف وأربعمائة وستون مدرسة ، وعلمهم اثنا عشر ألف وثمانمائة وواحد وخمسون معلماً .

وكان من جملة تجارب هذه المرحلة تطبيق نظام الترفيع الآلي من فصل إلى آخر – كما هو الحال في بعض البلاد العربية – وكانت النتيجة أن هبط مستوى التعليم، وارتفعت شكاوى المواطنين وتقارير الخبراء بعدم فائدة هذا السلوك، فتخلت الوزارة عنه إلى نظام الامتحانات ، وجعلتها مرتين في العام – عدا الاختبارات الشهرية الإجبارية[1] – .

وتعليم متوسط وهو امتداد لما سبقه وإتمام لغايته . وبمكنة كل حائز « شهادة إتمام التعليم الابتدائي » الالتحاق بالمدارس المتوسطة ، ويقضي فيها ثلاث سنوات بنجاح ، ينال في نهايتها «شهادة الكفاءة» . لقد تطورت مناهج هذه المرحلة مرات عدة . وهي اليوم لا تقل في مستواها وموادها عن مستوى ما يماثلها في البلاد العربية الأخرى . وقد بلغ عدد مدارسها ٣٦٣ ضمت ٥٤,١٥٣ طالباً في إحصاءات سنة ١٩٦٩/١٩٧٠ م .

وتعليم ثانوي مدته ثلاث سنوات . الأولى منها عامة، وفي التاليتين يختار الطالب الفرع الأدبي أو العلمي . فإذا اجتازهما بنجاح نال « الشهادة الثانوية » وفُتحت أمامه أبواب الجامعات . وعدد ثانويات المملكة قليل نسبياً لم يتجاوز أربعاً وستين ثانوية فيها ١٣,٦٦٤ طالباً وطالبة، والسبب في قلتها واضح لا

---

١ انظر في النشرة الرسمية التي أصدرتها وزارة المعارف تحت عنوان «تقرير موجز عن المنجزات التعليمية لوزارة المعارف في عشر سنوات ١٣٧٧ هـ – ١٣٨٧ هـ» في ص ١٠ .

يحتاج إلى بيان [1] . والجدير بالذكر أن الوزارة تسخو على المخابر والمعامل في الثانويات ، وكثير منها يحتوي على أجهزة قَلَّ نظيرها في مدارس العالم العربي .

وتعليم خاص وهو فرع من التعليم العام ، يقتصر على العناية بالمكفوفين والمكفوفات ، والصم والبكم ، ومبتوري الأطراف ، وضعاف العقول . وتسخو الدولة على هذا الفرع ، كما يتزايد الإقبال عليه ، وهو اليوم قائم في عشر مدارس تضم ١٢٤٨ طالباً وطالبة في إحصاءات ٧٠/٦٩ .

٢ً – **أما التعليم الفني** فيشمل المدارس الصناعية والتجارية والزراعية . وكانت الغاية من إنشائها تلبية حاجة البلاد إلى مختصين . وتهتم بها الوزارة كثيراً ، وتحاول أن ترفع من مستواها ، وتكثّر من عددها ، وتستقدم لها خير الكفاءات من خارج البلاد لتنهض بها .

٣ً – **والتعليم الجامعي** يتم في خارج البلاد وفي داخلها ، وقد سبق الأولُ في وجوده ، واندفع المتخرجون من « مدرسة تحضير البَعثات » في **بَعثات خارجية** سنة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠ م . وحين تسلمت وزارة المعارف قيادة التعليم استمرت في إيفاد الأعداد الكبيرة إلى كثير من دول العالم ، ولم تشترط على الراغب في الدراسة في الخارج إلاّ أن يحوز معدل ٧٠ ٪ سبعين بالمائة من مجموع درجات الشهادة الثانوية ، وأن يليق صحياً بتحمل الدراسة العليا في البلاد المبعوث إليها . ثم ضمت إلى المبعوثين رسمياً جميع الذين خرجوا يستكملون التحصيل على نفقة ذويهم الخاصة ، فراحت تنفق عليهم ، وتعنى بهم عنايتها بمبعوثيها الأصلاء ، واشترطت على كل طالب يدرس في الخارج على حسابه ويرغب في الانضمام إلى البعثة أن يكون ناجحاً في صف واحد على الأقل . أما اختيار الفرع فيكون شورى بين الوزارة والمبعوث ،

---

١ من الطبيعي أن يتوزع خريجو المرحلة الابتدائية بين مختلف ألوان التعليم أو الأعمال الخاصة، وكذلك خريجو المرحلة الإعدادية . لذلك فعدد طلاب الثانويات قليل – نسبياً – .

وغالباً ما توجهه إلى الاختصاص الذي تحتاج إليه البلاد . ومنذ افتتحت في داخل المملكة الكليات المختلفة تقلصت البعثات – إلى حد ما – وقد بلغ عدد الموفدين ١٧٨٩ طالباً في عشر السنوات الماضية [1] ، عدا الذين انضموا إلى هذا العدد بعد البدء في دراساتهم العليا في الخارج على نفقتهم .

أما التعليم العالي في داخل المملكة فقد أنشئ في مستهل سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٤٩ م حين أنشئت كلية الشريعة بمكة . وتوالى بعد ذلك افتتاح الكليات تدريجياً . وقد أسست جامعة الرياض – جامعة الملك سعود سابقاً – سنة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م ، وآخر ما أنشئ « كلية البترول » [2] سنة ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م بالظهران ، وكلية الطب التي باشرت أعمالها سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠ م . وتقوم الدراسات العليا اليوم داخل المملكة في جامعة الرياض التي تضم كلية الآداب ، والعلوم ، والتجارة ، والزراعة ، والصيدلة ، والتربية ، والطب ، والهندسة . وفي كليات الشرطة ، والحربية ، والقضاء العالي ، والشريعة ، واللغة العربية ، والتربية وجميعها بالرياض . والشريعة ، والدراسات الإسلامية ، والتربية بمكة . والبترول بالظهران . والجامعة الإسلامية بالمدينة ، وجامعة الملك عبد العزيز بجدة .

وأساتذة التعليم العالي فريقان : سعودي أنهى دراسته العليا في قلب المملكة

١ انظر تفصيل الأعداد في « التقرير الموجز عن المنجزات التعليمية لوزارة المعارف ، في عشر سنوات » الصادر عن وزارة المعارف من سنة ١٣٧٨ إلى ١٣٨٨ هـ/١٩٥٨ إلى ١٩٦٨ م . في الصفحات ٥٢ – ٥٧ ؛ وانظر في كتاب « عبد الوهاب عبد الواسع ، التعليم في المملكة العربية السعودية ص ٤٦ – ٥١ ففيه إحصاء كامل للمبعوثين مع تخصصاتهم ؛ وفي إحصاءات التعليم لعام ٦٩/٧٠ م .

٢ كلية البترول بالظهران مستقلة الإدارة وليست جزءاً من جامعة الرياض، ولكنها تابعة لوزارة البترول والثروة المعدنية مباشرة . وتنوي الحكومة تطويرها لتصبح جامعة بترولية متكاملة (عبد الوهاب عبد الواسع ، التعليم في المملكة ، ص ١٣٤) .

– وأغلب هذا الفريق متخصص بالعلوم الشرعية أو العربية – أو في خارجها ، فنال الدكتوراه أو الماجستير . والفريق الثاني أجنبي فيه الوافد من مصر ، وسورية ، والعراق ، وفلسطين ، والأردن ، والمغرب ، وفيه الوافد من انكلترا ، وأمريكا ، وباكستان ، والهند ، وأستراليا .

وعدد من الكليات كالعلوم ، والصيدلة ، والهندسة ، والبترول تلقي دروسها باللغة الانكليزية ، وقد أنشأت الجامعة والوزارة للطلبة « مخابر لغوية » على أحدث طراز في العالم لإتقان الإنكليزية قبل الشروع في الدراسة الأساسية في تلك الكليات .

والمواظبة على حضور الدروس في الكليات العملية إلزامي . أما في النظرية كالآداب والشريعة واللغة العربية فالطلاب قسمان : **منتسبون** وهم الذين لا تسمح لهم ظروفهم بالحضور ، ولا يحق لهم تقاضي المنحة الشهرية المقررة ، لكنهم يستطيعون التقدم إلى امتحانات نهاية العام الدراسي . ويتألف القسم الثاني من **منتظمين** ، وهم الذين يداومون على الحضور بنسبة ٧٥٪ من المحاضرات ، وتشجيعاً لهم على المثابرة يتناولون مرتباً شهرياً[١] طوال سنوات الدراسة . أما البنات فباب الكليات مفتوح أمامهن ، لكنهن يرجِّحْنَ دراسة الشريعة ، أو التربية ، أو اللغة العربية ، أو العلوم الاقتصادية والإدارية على دراسة العلوم الأخرى .

٤ً – ومدارس إعداد المعلمين أنشئت لغايتين : إيجاد المعلم الكفء الصالح ، والوصول إلى الاكتفاء الذاتي ، أملاً في الاستغناء التدريجي عن المعلمين

---

١ المرتب الشهري للطالب الجامعي « المنتظم » في حدود ٣٥٠ ريالا شهرياً – تقريباً – وقد قرر مجلس الوزراء حديثاً (١٩٦٩ م) إلغاء مكافأة طلاب الآداب والتجارة لشدة إقبال الطلبة على هذين الفرعين ، واستمرارها لطلبة بقية الفروع (مجلة « علمية » عدد ١٢ السنة الثالثة ص ٢١) .

الأجانب . لكنها أخفقت في تحقيق كلا الغايتين . ذلك أن الوزارة قبلت في أول الأمر أن ينتسب إليها الطلبة الحائزون الشهادة الابتدائية ، ويمضوا فيها ثلاث سنوات ، ويعيّنوا بعدها معلمين . ثم ظهر أن المتخرجين ليسوا أهلاً للمهمة التي ألقيت على كاهلهم ، ولم ينضجوا ثقافياً ومسلكياً ، وأنهم هبطوا بمستوى التعليم الابتدائي ، وكانت نتائجهم مع تلامذتهم أقل مما تطمح إليه وزارة المعارف . حينئذ عمدت هذه الوزارة إلى تصفية المعاهد الثلاثين المنتشرة في أرجاء المملكة ، ودفعت المعلمين الذين تخرجوا منها إلى دورات صيفية في مركزين أسستهما لهــذه الغاية بالرياض والطائف ، دعت كلاً منهما «مركز الدراسات التكميلية» ، وأغرت الناجحين بهذه الدورات بزيادة الراتب والمرتبة . وفعلاً اندفع إليها عشرة الآلاف المتخرجين يستكملون تحصيلهم . وغيّرت الوزارة نظام القبول في معاهد المعلمين، فاشترطت على المنتسب أن يكون حائزاً « شهادة الكفاءة » ويقضي ثلاث سنوات في الدراسة ليُعيَّن في نهايتها — إذا نجح في الامتحانات — معلماً . وما تزال المعاهد الجديدة قيد التجربة، وتراقب نتائج متخرجيها بدقة؛ ليصدر عليها الحكم النهائي نجاحاً أو إخفاقاً .

٥ً — **ولمكافحة الأمية** بين كبار السن الذين فاتهم أن يتعلموا في صغرهم أنشأت الوزارة **مدارس الثقافة الشعبية** . وراعت أن تكون الدراسة فيها مسائية ليتسنى للمنتسبين الجمع بين العلم والعمل . ورسمت لها خطة ، فجعلتها على مرحلتين : **المكافحة** ومدتها سنتان ، ويكون الطالب فيها قد بلغ مستوى الصف الرابع الابتدائي . **ومرحلة المتابعة** ومدتها سنتان كذلك . ويستطيع المتابع في نهايتها أن يتقدم إلى امتحانات الشهادة الابتدائية . ولقيت هذه المدارس إقبالاً طيباً . وقد بلغ عدد طلبتها ٢٤٫٣١٦ ضمتهم ٦٠٧ مدارس (في إحصاءات سنة ١٩٦٩ / ١٩٧٠ م) .

إحصاءات التعليم في عام ١٣٨٩/١٣٩٠ هـ (١٩٦٩/١٩٧٠ م) *

	الابتدائية	المتوسطة	الثانوية	الخاص	الفني	إعداد المعلمين	الدراسات التكميلية	التربية الرياضية والفنية	التعليم الليلي	الثقافة الشعبية	المعاهد الدينية
مجموع المدارس	١,٨٢٤	٣٦٣	٦٤	١٠	٦	٤٠	٢	٦	٤٥	٦٠٧	٣٧ إعدادية وثانوية
مدارس البنين	١,٤٤٦	٣٠١	٥٨	٨		٩		٢	٣٠ متوسط		
مدارس البنات	٣٧٨	٢٢	٦	٢		٣١		٤	١٥ ثانوية		
مجموع الطلبة	٣٩٧,١٥٣	٥٤,١٥٣	١٣,٦٦٤	١,٢٤٨	٨٤٠	٨,٨٣٢	٩١٣	١,٠٦٧	٦,٤٤٧	٤٢,٣١٦	٨,٢٧٧
البنون	٢٧٧,٣٦٤	٤٨,٨٤٨	١٢,١٧٧	١,٠٩٧		٣,١٣١		٢٧٦			٦,١٠٤ في المتوسط
البنات	١.١٩,٧٨٩	٥,٣٠٥	١,٤٨٧	١٥١		٥,٧٠١		٧٩١			٢,١٧٣ في الثانوي
مجموع الهيئة التعليمية	١٧,١٨١	٣,٤٦٥	٥١٢	٢٢٣	٢٧٥	٤٨٩	٦٥	٧٢		٤٠٤	
المعلمون	١٢,٨٥١	٣,٢٧٦	٤٩٨	١٨٠		٢٦١		٤٢			
المعلمات	٤,٣٣٠	١٨٩	١٤	٤٣		٢٢٨		٣٠			

* ملاحظة : لا يدخل في هذه الإحصاءات مدارس وزارة الدفاع

التعليم العالي في العام ١٣٨٩/١٣٩٠ هـ (١٩٦٩/١٩٧٠ م)

الكليات		المجموع	الذكور	الإناث	النظاميون	المنتسبون	الهيئة التدريسية
المجموع العام		٦,٩٤٢	٦,٥٠٨	٤٣٤	٥,٣٨٥	١,٦٤٨	٥٧٣
وزارة المعارف	الشريعة	٣١٣	٢٩٢	٢١	٢٩٢	٢١	٢٤
	التربية	٤١٥	٣٢٤	٩١	٣٢٤	٩١	٤٣
الكليات والمعاهد العلمية	الشريعة	١١,١٤٨	١,١٤٣	٥	٧٧٨	٣٦١	٣٢
	اللغة العربية	٧٩١	٧٩١	–	٥٨٦	٢٨٥	٢٧
	معهد القضاء	٧٠	٧٠	–	٢٠	٥٠	٨
وزارة البترول	البترول	٤٥٠	٤٥٠	–	٤٥٠	—	٥٩
الجامعة الإسلامية	الشريعة	٣٤٥	٣٤٥	–	٣٤٥	—	١٨
	الدعوة	٢٤٦	٢٤٦	–	٢٤٦	—	١٢
جامعة الرياض	الآداب	٨٣٠	٦٤٨	١٨٢	٣٤٧	٥٠٣	٦٠
	العلوم	٤٠٥	٤٠٥	–	٤٠٥	—	٧٠
	التجارة	٨٠٢	٧٦٥	٣٧	٤٦٥	٣٣٧	٢٨
	الزراعة	١٠٢	١٠٢	–	١٠٢	—	٣٣
	التربية	١٦٣	١٦٣	–	١٦٣	—	٣٢
	الهندسة	٣٩٧	٣٩٧	–	٣٩٧	—	٦٠
	الصيدلة	١٦٥	١٦٥	–	١٦٥	—	٢٥
	الطب	٣٥	٣٥	–	٣٥	—	٤
جامعة الملك عبد العزيز	الاقتصاد والإدارة	٢٣٥	١٥٨	٧٧	٢٣٥	—	٣٨
	الآداب	٣٠	٩	٢١	٣٠	—	

المعاهد والكليات :

وفي المملكة لون آخر من التعليم الثانوي والعالي لا تشرف عليه وزارة المعارف، ولا تتدخل في أمره، ويدعى بـ «**المعاهد العلمية والكليات**» [1] . تشرف عليه السلطة الدينية التي يرأسها مفتي المملكة [2] وحفيد محمد بن عبد الوهاب. ويبدو في المنشور [3] الذي أصدرته إدارة هذه المعاهد أن الغاية من هذه المعاهد والكليات « تكوين جيل صالح يؤمن بربه ودينه ، ويفهم الإسلام على حقيقته ، ليقتحم ميدان الحياة مسلحاً بسلاح العلم والثقافة العربية، سواء أكان **مدرساً**، **أو قاضياً** ، **أو داعياً** إلى الله ، أو **مديراً** لإحدى الإدارات . . . » وقد أُسّس أول معهد علمي بالرياض سنة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠ م ، ثم توالت المعاهد في الافتتاح بعد ذلك في جميع أرجاء المملكة . وقد بلغ عددها سبعة وثلاثين معهداً في سنة ١٩٦٩ / ١٩٧٠ م . وجعلت الدراسة فيها ست سنوات تبدأ بعد نيل الطالب الشهادة الابتدائية من مدارس وزارة المعارف ، ويقضي ثلاثاً منها في القسم المتوسط ، وثلاثاً أخرى في الثانوي . ينال في نهايتها « الشهادة العلمية الثانوية » .

أما مواد الدراسة في « المعاهد » فتقتصر على العلوم الدينية والعربية والاجتماعية والرياضيات .

وفي سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م أسست بالرياض كلية الشريعة، وتلتها في

---

١ يقصد بكلمة « المعهد العلمي » المدرسة الإعدادية والثانوية من هذا اللون التعليمي ، كما يقصد بـ « الكلية » القسم الجامعي الذي ينتسب إليه الطالب بعد نيله الشهادة الثانوية من المعهد العلمي .

٢ هو محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، رحمه الله .

٣ كتب المنشور بالآلة الكاتبة ، ومنه استقينا جميع الإحصاءات الواردة في هذه الفقرة .

السنة التالية كلية اللغة العربية، ليُقبَل فيهما – دون قيد أو شرط – مَنْ حاز شهادة المعاهد العلمية الثانوية . ومدة الدراسة في كل منهما أربع سنوات . يتخصص الطالب في الأولى بالعلوم الشرعية، وفي الثانية بالعربية . وتعادل إجازتهم الإجازة الممنوحة من الكليات الأخرى التابعة لوزارة المعارف . ويُقبِل الطلبة على المعاهد ثم على الكليات، ويزداد عددهم سنة فسنة . وقد بلغ عدد المسجلين في كلٍّ من الكليتين في سنة ١٩٦٩ / ١٩٧٠ م ٨،٢٧٧ طالباً . منهم ٦،١٠٤ في المرحلة المتوسطة و ٢،١٧٣ في المرحلة الثانوية .

ومما تجدر الإشارة إليه أخيراً : أن **الدراسة في المملكة في جميع المراحل مجانية، مهما اختلفت درجة ثروة الطلبة أو أوليائهم** . بل إنه لَتُتاح للدارسين فرص لا تتهيأ لغيرهم من الطلبة في أكثر دول العالم . يدرسون ، **وتقدم لهم الكتب والقرطاسية دون ثمن، وفي آخر الشهر تدفع لهم مرتبات** تتراوح بين مائة وثلاثمائة وخمسين ريالاً . وإذا مرض أحدهم وجد الطبيب في مدرسته نفسها ، وقدم له الدواء من صيدليتها ، وإذا اضطر إلى عملية جراحية فباب المستشفى الحكومي مفتوح أمامه ، وحين يستعصي علاجه يُرسَل إلى بلد خارجي مع مرافق على نفقة وزارته أو معهده . وتصل السيارة إلى بيته، فتنقله إلى مدرسته ثم تعيده . وتحل العطلة فتُقدَّم له بطاقة سفر جوي – إذا كان من غير أبناء البلد – ليقضيها بين أهله وذويه . ويفوز بالشهادة الثانوية فتستقبله الجامعات والكليات داخل المملكة مرحبة ، أو توفده الوزارة ببعثة . وقد يكون المبعوث متزوجاً وله أولاد، فتضمن له الدولة سفر أسرته معه، وتفرض له الراتب الكافي لحياة هنيئة مريحة ، وتتيح له زيارة أهله بين الحين والحين على نفقتها . فإذا تخرج وجد أبواب الوزارات والمؤسسات مفتوحة تستقبله، فيُعَيَّن في المركز المناسب بالراتب المغري .

أما **تعليم البنات** رسمياً فقد تأخر طويلاً في العهد السعودي إذ لم يُبدأ الشروع

فيه إلاّ بعد ثلاثين عاماً – تقريباً – من تأسيس المملكة . وخلال هذه المدة كان تعليم البنين قد عمّ وذاع وقطع الأشواط ، وحل في كل قرية وهُجْرة . ويلوح لنا أن الدولة نفسها لم تسْع إلى تعليمهن قصداً في مستهل نشوئها ؛ لأن الأوضاع السياسية والاجتماعية لم تكن قد استقرت فيها بعد ، وما كان أحوجها آنذاك إلى الهدوء والسكينة . لكنها لم تتخلّ عن هذا التعليم ، أو تلغه من برامجها . وحين ألِفَت الحكم استقر ، والخزائن امتلأت ، والساعد اشتد ، اتجهت إليه بكل قوتها ، وراحت تدفع المواطنين إلى المطالبة به من وراء حجاب ، وتشجع الصحف على الخوض فيه ، وإثارة المناقشات . وقد تمّ لها ما أرادت . وكثرت الاستفتاءات في « مسألة تعليم المرأة » ووُجّهت إلى العلماء والوجهاء والمثقفين وكثير من الناس الأسئلة : هل على الدولة واجب تعليم البنات ، بل هل يجوز أن تتعلم الفتاة ؟ وماذا يجب أن تتعلم ؟ وإلى أي مرحلة يكون علمها ؟

ووردت الأجوبة من كل فجّ ، واتفق معظمها على وجوب تعليمها ، وأن ذلك فرض على الدولة . ولكنها اختلفت فيما تتعلمه ، وفي المرحلة التي تبلغها . قال قائل[1] : « إن تعليم المرأة ضروري كضرورة الماء والهواء ، ولكن لا يتجاوز تعليمها المتوسط ، أما الجامعي فلا نحبذه » . وقال آخر[2] : « لا مانع من تعليمها بشرطين : الأول ، ألا يتنافى هذا التعليم مع تعاليم الدين . والثاني ، ألا يتنافى ووظيفتها في الحياة ». وقال ثالث[3] : « . . . إن الرسول

---

١ جمع الأجوبة سعد الدريبي في كتاب سماه « فتاة الجزيرة » . وهذا الرأي المؤطر بالأقواس لعلي بن محمد التويجري – مدير التعليم بمنطقة عسير « أبها » ص ٢٨ .

٢ القائل سعد الدريبي ، فتاة الجزيرة ص ١٢ .

٣ القائل الشيخ حسين شطا المدرس بالحرم المكي . مقتبس من كتاب عمر عبد الجبار : سير وتراجم ص ١٠٤ .

صلى الله عليه وسلم كان يعلم النساء، ويخصص لهن درساً يتلقين فيه منه أمور دينهن . ولقد سئلتُ عن تعلم المرأة الحساب والصحة وتدبير المنزل وغير ذلك فأقول : إن هذه العلوم تقاس على الأمور الدينية ، ويؤخذ منها بالقدْر الذي لا غنى عنه ممّا لا تستقيم الحياة إلاّ به ، ولكن يجب مراعاة البيئة قبل كل شيء . إن المرأة هي الخلية الأساسية التي يتركب منها جسم المجتمع ، فإذا كانت متعلمة ربّت جيلاً متعلماً يعتزّ به المجتمع ويفخر بأعماله ونشاطه في جميع الميادين ، وإنْ كانت جاهلة أنشأت جيلاً جاهلاً يكون وبالاً على المجتمع ». وقال رابع[1] : «تعلُّم المرأة الطبّ والتمريض لا يتنافى والدين، لكي تقي المرأة المسلمة أختها ضرورة كشف عورتها لدى كل طبيب . ويمكن أن تصل إلى هذه الغاية بإقامة كلية للطب وللتمريض خاصة للبنات . أما إذا كان القصد من دخول الجامعات مزاحمة الرجال على منصات الوظائف ، والبيع في الحوانيت ، والاختلاط بمن لا يـؤمَن، فلا أراه، بل أعتقد أن ذلك يضر بالمرأة دينياً وحسياً ومعنوياً ولا سيما إرسالهن إلى الخارج » . وقالت المرأة[2] : « أحبذ تعليمها الجامعي حتى تحصل على الماجستير ثم الدكتوراه لأنها أساس المجتمع ، وبلادنا في أشد الحاجة إلى الجامعيات والمتخصصات ، بشرط أن يتفق مع دينها وآدابها، وأن تعطى الحرية المعقولة في التعليم ، وفي التصرفات الشخصية حتى تحوز الثقة بنفسها مع مراقبة هذه الثقة » . وقال آخرون : لا يجوز أن تتعلم إلاّ القرآن في بيتها لتصحّ صلاتها . . . وأعلنت الدولة رأيها إذ قالت : « لا تستطيع الدولة إلاّ أن تتحمل مسؤوليتها تجاه من يطلب التعليم منهن، ويكفي أن توجد فتاة واحدة تطلب التعليم ، ويقرّ ذلك ذووها حتى تكون

---

١ القائل أحمد عبد العزيز المبارك، عالم أحسائي . مقتبس من سعد الدريبي ، فتاة الجزيرة ص ١٦ .

٢ هنية محمد النقادي من جدة . مقتبس من كتاب الدريبي ص ٢٧ .

الدولة ملزمة بتوفير هذه الفرصة لها [1] » . وفرضت التعليم ،وجعلته في الوقت ذاته تحت إشراف السلطة الدينية ومراقبتها . وأنشأت « **الرئاسة العامة لمدارس البنات** » وعيّنت عليها رجلاً موثوق الدين والعقيدة ، معروفاً بالتقى والورع [2]، وتركت له حرية اختيار أعوانه وموظفيه ، ورتبت لها ميزانية تكفيها، وتفيض عليها .

وابتدأت « الرئاسة » عملها . استأجرت المدارس ، واشترت حافلات كثيرة لتنقل البنات من دورهن إلى المدرسة وتعيدهن ، وسنّت الأنظمة ، وهيأت البرامج والكتب واللوازم المدرسية ، وأعلنت للملإ شروعها في قبول التلميذات ، وفرضت على الراغبة في العلم الحجاب الكامل من مفرق شعرها إلى أخمص قدمها ، كما فرضت على المعلمات الحجاب نفسه مواطنات كنّ أو غير مواطنات . وأوجبت أن يكون لكلّ من التلميذات والمعلمات ولي أمر شرعي يتولى تدبير أمورها ، ويراجع الرئاسة في كل ما يهمها؛ لأن الفتاة محظور عليها الوصول إلى ذلك الحمى . وسوّرت علاقة الرجال بالنساء بسور لا يمكن أن ينفذ منه أحد .

ست عشرة مدرسة ابتدائية للبنات [3] فتحت أبوابها في عامها الأول (١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م) ، ثم تضاعف العدد في السنة التالية، وظل يتضاعف إلى أن بلغ في ٦٩ / ٧٠ م (٣٧٨) مدرسة . واطردت الزيادة في عدد البنات فارتفع من ٥٢٠٠ إلى ١١٩،٧٨٩ في السنة المشار إليها . وتمتعت المنطقة الوسطى « نجد » بأوفى نصيب من هذه الأرقام .

---

١ نهاد الغادري ، التحدي الكبير ص ١٩٨ .

٢ أول رئيس لمدارس تعليم البنات كان الشيخ عبد العزيز بن رشيد،ثم خلفه الشيخ ناصر بن حمد الراشد ، وما يزال هذا إلى اليوم رئيسها العام .

٣ جميع الإحصاءات الواردة في هذا القسم مأخوذة من «الدليل الإحصائي لتعليم الفتاة السعودية» أصدرته الرئاسة العامة لمدارس البنات سنة ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م .

أما مواد الدراسة في المرحلة الابتدائية : فقد شملت العلوم الدينية ، والعربية ، — وهي في المقام الأول من حيث عدد ساعاتها — والاجتماعية ، ومبادئ العلوم ، والصحة ، والحساب ، والتربية المنزلية . وبلغ عدد المشرفات على تعليم هذه المرحلة ٤،٣٣٠ موظفة ، بين معلمة ومديرة ومفتشة .

ومنذ باشرت المدارس الابتدائية عملها ، واستقر التدريس فيها ، شرعت الرئاسة تخطط للتعليم المتوسط حتى يكون جاهزاً عند تخرج أول دفعة من الابتدائي ، وقد جاء في مشروعها على ثلاثة أقسام : متوسط عام ، ومتوسط فني ، ودور المعلمات .

أ — **أما التعليم العام** فيستغرق ثلاث سنوات دراسية . تدرس الطالبات فيها الدين ، والعربية ، والعلوم والصحة ، والتدبير المنزلي ، واللغة الإنكليزية . وتختلف عدد ساعات هذه المواد في الأسبوع الواحد بين ثمان وثلاثين وتسع وثلاثين ساعة . فإذا اجتازت الفتاة هذه السنوات بنجاح نالت « شهادة الكفاءة العامة » وأمكنها الانتساب إلى المدرسة الثانوية .

ب — **أما التعليم المتوسط الفني** فكانت الغاية من إيجاده تكوين معلمة مؤهلة لتدريس مادتي التربية الفنية والنسوية في المدرسة الابتدائية ، أو إيجاد الأم الصالحة الماهرة بتدبير منزلها في مستقبل أيامها . وفي هذه المتوسطات تتعلم البنات الدين ، والعربية ، والإنكليزية ، والرياضيات ، والعلوم ، والصحة ، ورعاية الأمومة ، والطفولة ، والتمريض ، والعلوم الاجتماعية ، ودراسة المجتمع ، ومشكلاته ، والتربية الفنية ، والأشغال اليدوية ، والتفصيل ، والتدبير المنزلي كالطهي والغسيل وكيّ الملابس ، وإدارة البيت ، وغير ذلك . وساعات هذه المواد أسبوعياً ثمان وثلاثون . وحين تجتاز طالبة المعهد الفني ثلاث السنوات الدراسية ناجحة تنال « شهادة الإعدادية الفنية » ، وتقف في دراستها إذ ليس أمامها ثانوية فنية .

وقد سبق التعليمُ المتوسط العام في وجوده التعليمَ المتوسطَ الفني إذ بدأ الأول في سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م وبدأ الثاني بعده بسنتين .

ج – **أما دور المعلمات** فقد باشرت عملها مع المدرسة الابتدائية في سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م وقُبلت كل فتاة دَرَست في المدارس الأهلية والخاصة قبل وجود «الرئاسة» . وجُعلت مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات بعد الابتدائية ، تدرس خلالها مواد ثقافية ، وأخرى مسلكية ، تؤهلها لأن تكون بعد تخرجها معلمة في المرحلة الابتدائية .

ولم تفتح الرئاسة في العام الأول سوى دار واحدة لإعداد المعلمات لم يتجاوز عدد الطالبات فيها السبع عشرة . ومع توالي الزمن كثرت هذه الإعداديات وانتشرت حتى بلغ عددها ٣١ داراً ، فيها ٥٫٧٠١ طالبة . والرئاسة مصممة على الإكثار منها لحاجة البلد الماسة إليها .

وتعاني الرئاسة من متخرجات هذه المعاهد ما تعانيه وزارة المعارف في مثيلاتها . فلقد أثبتت التجارب والنتائج ضعف قدرتهن العلمية والمسلكية . لذلك عمدت إلى افتتاح مراكز للدراسات التكميلية ينتسبن إليها بغية استكمال ما نقصهن ، ووعدت الناجحة في هذه المراكز بزيادة الراتب وعلو الدرجة . وفي الوقت نفسه فرضت على الطالبة الجديدة أن تكون حائزة « شهادة الكفاءة » وتدرس ثلاث سنوات بعدها ، أو تقضي خمس سنوات إن لم تكن حاملة إلاّ الابتدائية .

أما التعليم الثانوي فخطوطه الكبرى مقتبسة من وزارة المعارف . وليس في المملكة إلاّ ست ثانويات[1] . فيها ١٫٤٨٧ طالبة وتزمع الرئاسة أن تزيد عددها لتوافر حاملات الشهادة الإعدادية .

ولا بد أن **نتساءل عن مصير التعليم الأهلي الذي رأينا بعض مدارس قائمة**

---

١ هذا الإحصاء يقف عند حدود عام ١٩٦٩/١٩٧٠ م .

في **الحجاز قبل الحكم السعودي** . لقد حل هذا العهد فأبقى كل شيء على وضعه الأصيل، لم يؤخّر فيه ولم يقدّم . وحين أُسّست « رئاسة تعليم البنات » احتضنته ومدّته بنَسْغ جديد مادة وتوجيهاً ، وتحملت أن تدفع نصف أجرة مدارسه ، و٣٠٪ ثلاثين في المائة من رواتب إدارته وتدريسه، ومائة وخمسين ريالاً عن كل صف قائم في كل مدرسة ، إضافة إلى مليون ونصف مليون ريال معونة له . وإن الرئاسة تشجع كتاتيب البنات في القرى التي لم تنشأ فيها المدارس ، وتعتبرها بمثابة مراكز لمحو الأمية بين صفوف النساء .

وبعد، فإنه مهما كانت البداية في هذا التعليم شاقة وحرجة، فإن الثمرة التي آتتها تُهوّن تلك المشقة . ولئن تأخر البدء بتعليم البنت رسمياً في السعودية إنّ السباق الكبير الذي يجري في مطلع كل عام نحو مدارس البنات كفيل بأن يمحو آثار التخلف والتأخر .

لقد ذكرنا في مستهل الحديث عن التعليم في العهد السعودي أن عقبات ثلاثاً وقفت في وجهه في بدء ظهوره . تغلبت الدولة على اثنتين ، وبقيت الثالثة متمثلة في **توافر عناصر المدرسة الرئيسية** . ونتساءل اليوم وقد مضى على إنشاء هذا التعليم خمسون عاماً — تقريباً — عن مصير تلك العقبة، أظلت كما كانت، أم زالت ولم يبق لها وجود ؟ وهل بلغت المملكة المستوى الذي تستغني به عن استيراد المدرسين ؟ وهل توافر لديها الكِتاب الصالح المتفق مع العقيدة والمحيط؟ وهل هيئ لها المؤلفون الأكفاء الذين يضعون الكتب، فيستغنون بها عن كتب البلاد الأخرى؟ وهل وصلت إلى مرحلة تصنع فيها اللوح الأسود وطبشورة الكتابة ؟ .

الواقع يدفعنا إلى أن نعترف بتقدم المملكة أشواطاً بعيدة المدى ، وإلى أن نقرّ بتغلبها على كثير من المصاعب ، ووصولها إلى نتائج مُرضية في هذا السبيل . فالأفواج التي تتخرج سنة بعد سنة من المعاهد والكليات الجامعية ،

ومعاهد المعلمين والمعلمات ، أو التي تعود منتهية من دراستها في خارج البلاد يختار كثير منها مهنة التعليم ، وينتظم في المدارس معلماً أو مدرساً ، ويَحـُل محل الأساتذة الغرباء . وكاد يأتي الوقت الذي تستغني فيه المملكة تماماً عن المدرسين الغرباء ، وقد بدأ الكتّاب السعوديون يؤلفون كتباً للمرحلة الابتدائية ولبعض مواد المرحلة الإعدادية والثانوية . وهذه الكتب تَحـُل محل الكتب التي ألفها غير السعوديين أو استُوردت من خارج البلاد ، كما استطاعت المملكة بتقدمها الشامل في مختلف المجالات أن تهيئ كثيراً من احتياجات المدارس الرئيسة من منتجات البلاد نفسها كالمقاعد والألواح، فقد كانت في الماضي تُستورد من لبنان أو مصر ، فأصبحت تصنعها اليوم بيدها .

ويبقى – رغم كل شيء – أمام وزارة المعارف كثير من الصعوبات . أولها : تلك المستويات المنخفضة علمياً وتربوياً في الجهاز التدريسي الوطني ، والنقص الكبير في الأشخاص المتخصصين في الأعمال الإدارية في قلب الوزارة أو في المدارس، وفي عزوف كثيرين من المثقفين عن العمل في التعليم ، وإيثارهم الوظيفة المريحة وراء المنضدة، وآخرها : رغبة جميع المواطنين في التعلـُّم . وإذا تذكرنا أن أقل من نصف سكان المملكة بدو ، والكثيرون منهم لا يزالون يرحلون ، وكلهم يطالبون بحقهم من العلم والمعرفة، والوزارة مضطرة إلى أن تنشئ لهم المدارس المتنقلة التي تلحقهم حيثما رحلوا وأنّى حلوا ، أدركنا ما تبقى أمامها من عناء حتّى تتخطى تلك العقبة .

الفصل الثالث

المكتبات والمطابع

تطور مدلول كلمة « **مكتبة** »مع توالي الزمن تطوراً كبيراً . فقد كانت اللفظة في الماضي لا تعني أكثر من **مستودَع للكتب** يشرف عليه عالم أو أديب أو متعلم ، يتميز بحرصه على ما في « المستودع » خوف الضياع أو خشية التلف ، ولا يرحب بحرارة بالرواد والقراء، ولا سيما الراغبين في الاستعارة خارج حدود المكتبة . لا يغمض له طَرْف عمّا لديه إلاّ إذا أحكم إقفال خزائنه ، ورتاج أبوابها . وهو يُؤثِر أن يقصده طلبة العلم والمعرفة ويسألوه حاجتهم على أن يسعى إليهم ويعرض أمامهم بعض مقتنيات مكتبته ، فيعيرهم ما يحبون وهم في مناطقهم المختلفة ، أو يغريهم بزيارته في مكتبته ليضع بين أيديهم ضروب الكتب وألوان الثقافة . لكن هذا المدلول طواه الزمن ، وعفت عليه الأيام ، فمكتبة اليوم معمل للثقافة ، ومَخْبَر للفكر ، ومؤسسة اجتماعية وعلمية وتربوية . فيها يُحفظ تراث الإنسانية ، وتُجمع خبرات الأجيال وتجاربهم ، ثم توضع كلها بين أيدي الناس كافة ، دون تمييز في اللون والجنس والعرق والطبقة والعمر والمهنة ودرجة الثقافة والدين ، ويتم ذلك دون مقابل ودون إجبار . وصار الكِتاب في مفهوم المكتبة الحديثة **أداة** وجدت لتتداولها الأيدي بالاستعمال والتقليب، فإذا لم يكن لهذه الأداة ذلك الحظ فهي إذاً هَمَل وسَقَط . وإذا حُفظت لأنها أداة نادرة فحقها أن تُسمّى تُحفة لا كتاباً ، ومكانها في المتاحف ودور الآثار، وهي أولى بها من العمل العلمي الذي ندعوه: المكتبة ؛ كما أصبح **أمناء المكتبات** أسخياء وبشوشين ، يعرضون الكتب

في رفوف مفتوحة ويسلطون عليها الأنوار ، وينظمون لكل ما في المكتبة فهارس لتصفها وتعرّف بها وتدل عليها . وأكثر من هذا : غدت المكتبات إيجابية تسعى إلى الناس في مناطقهم ، وتعرض أمامهم بعض ذخائرها ، وتسهل لهم سبل الإفادة منها، وتغريهم باستعارتها وقراءتها أنّى شاءوا، وحيثما أحبوا .

ولقد عرفت البلاد السعودية المكتبة في مدلولَيْها القديم والحديث، متمشية مع تطور الزمن قدر ما تستطيع ، وما تملك من إمكانات وكفاءات .

أما المكتبات القديمة فقد عرفتها المدينتان المقدستان في منطقة الحجاز منذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وكان ذلك حين أمر ملك اليمن نور الدين بن صلاح الدين الرسولي[1] سنة ٥٩٤ هـ/١١٩٧ م بإنشاء رباط بمكة ، وأوقف فيه كتباً منها « المُجْمَل لابن فارس »[2] و « الاستيعاب لابن عبد البَرّ »[3] . ثم غدا هذا الرباط مع الأيام حافلاً بالكتب ، وما يزال يُعرف حتى الآن برِباط الحضارمة . كما أوقف الأمير شَرَف الدين بن عبد الله

---

١ مؤسس الدولة الرسولية باليمن . استقل باليمن بعد الأيوبيين، وانتظم له ولبنيه ملك الحجاز واليمن ٢٣٢ عاماً . له آثار جليلة في البلدين ومنها مدارس ومساجد (الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ١/٤٣ – ٨٨) .

٢ أحمد بن فارس : من أئمة اللغة والأدب ، تتلمذ عليه البديع الهمذاني وابن عباد . من تصانيفه « مقاييس اللغة » ٦ أجزاء ، و« المجمل » و « الصاحبي » و « جامع التأويل في تفسير القرآن » و « النيروز » و « الإتباع والمزاوجة » و « فقه اللغة » . توفي سنة ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٤ م ، (وفيات الأعيان ١/٣٥ ؛ يتيمة الدهر ٣/٢١٤ ؛ مجلة المجمع العلمي ٢٢/٥٠١) .

٣ يوسف بن عبد الله القرطبي المالكي، أبو عمر . من كبار حفاظ الحديث والمؤرخين . أديب بحاثة ، يقال له : حافظ المغرب، ولي قضاء لشبونة وشنترين . وتوفي في شاطبة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م . من كتبه « الدرر في اختصار المغازي والسير » و « الاستيعاب في تراجم الصحابة » و« العقل والعقلاء » (وفيات الأعيان ٢/٣٤٨ ؛ الضبي، بغية الملتمس ص ٤٧٤ ؛ ابن بشكوال ، الصلة ص ٦١٦) .

الشَّرابي العباسي[1] سنة ٦٤١ هـ/ ١٢٤٣ م كثيراً من المؤلفات في فنون مختلفة وجعلها في مدرسته المجاورة لباب السلام[2] من الحَرَم المكي . وأمر ملك فارس شاهْ شُجاع[3] بإنشاء رِباط قُرْبَ الحرم، وأوقف فيه سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م كتباً . وكذلك فعل الأشرف قايتْباي، وتقي الدين الفاسي[4] في القرن التاسع ، والقُطْبي[5] في العاشر ، والسلطان عبد الحميد، ومحمد رشدي الشَّرْواني[6]،

---

١ خادم المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر ، بنى بمكة مدرسة ووقف فيها كتباً كثيرة . (الحنفي ، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٨٢) .

٢ باب من أبواب الحرم المكي في الجهة الشرقية، يقع بين بابي الدريبة والنبي . ويعرف بباب بني شيبة وبباب بني عبد شمس ، وهو ذو فتحات ثلاث . ويدخل منه الحجاج لأداء طواف القدوم . (مرآة الحرمين ١/٢٢٨ – ٢٣٠)

٣ جلال الدين المظفر ، خلف والده مبارز الدين محمد على إمارة فارس وكرمان وكردستان ، ألقى بأبيه في السجن حيث مات سنة ١٣٦٤ م . قاتل أخاه شاه محمود ، الذي أقر بسيادته ، واستولى على أصفهان وتبريز (Pareja, Islamologie, p. 474) .

٤ محمد بن أحمد بن علي ، تقي الدين أبو الطيب المكي الحسني (٧٧٥ – ٨٣٢ هـ/١٣٧٣ – ١٤٢٩ م) مؤرخ عالم بالأصول ، حافظ للحديث ، أصله من فاس ، ومولده ووفاته بمكة ، دخل اليمن والشام ومصر مراراً . ولي قضاء المالكية بمكة ، وكان أعشى يملي تصانيفه إملاء ثم عمي . من كتبه « العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين » – ٤ مجلدات و « شفاء الغرام بأخبار البيت الحرام » و « المقنع من أخبار الملوك والخلفاء » و « ذيل كتاب النبلاء للذهبي ». (السيوطي ، ذيل طبقات الحفاظ ص ٢٩١ ، ٣٧٧ ؛ السخاوي، الضوء اللامع ٧/١٨) .

٥ قطب الدين الحنفي المكي عميد آل القطبي (٩١٧ – ٩٩٠ هـ/١٥١١ – ١٥٨٢ م) . أول من ولي رئاسة الفتوى في عهد العثمانيين . من مؤلفاته « الإعلام بأعلام بيت الله الحرام و« تاريخ مكة المشرفة » و « البرق اليماني في الفتح العثماني » (السباعي ، تاريخ مكة ٢/١١٢) .

٦ ولي أمر الحجاز بعد عزل محمد رشيد باشا في الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري – الثامن عشر الميلادي – وقد كان أحد العلماء . طلب من شيخ الإسلام رتبة قضاء فلم يلبه ، وكان الشرواني صديقاً للصدر الأعظم فؤاد باشا ، فأعطاه رتبة الوزارة، وأدخله في « سلك الملكية » وترقى إلى أن ولي الصدارة بعد عالي باشا ومحمود نديم باشا ، ثم عزل وأعطي ولاية الحجاز ، ولم يمض فيها شهران حتى توفي ودفن بالطائف (دحلان ، خلاصة الكلام ص ٣٢٦) .

والشريف عبد المطلب [1]، وغيرهم في القرن الثالث عشر . وخير عمل أمر به السلطان عبد المجيد في مكة بناء « مكتبة الحرم » لتجمع فيها أشتات الكتب المتفرقة هنا وهناك بين الأربطة والمدارس والمساجد ، وتنظم في الخزائن ويشرف عليها قيّم ، ويوضع لها فهرس ، وقد تم البناء بعد وفاته، وكان التنظيم .

والمكتبات العامة في المدينة المنورة أكثر عدداً وأوفر تآليف من مكتبات مكة . وقد عدّ صاحب « مرآة الحرمين » [2] ثماني عشرة مكتبة في أوائل القرن الرابع عشر – العشرين الميلادي – وأوصلها حمد الجاسر [3] إلى الثمانين قبل هذا التاريخ . ويبدو أن مكتبة « عارف حكمت » [4] خيرها جميعاً ، مقتنياتٍ وتنظيماً ، وبلغت مخطوطاتها ٤٥٠٠ ، ومطبوعاتها ٢٠٠٠ ، وكلها من الكتب النادرة . وقد استحوذت هذه المكتبة على إعجاب جميع الذين زاروها من

---

١ من أمراء مكة المشهورين (١٢٠٩ – ١٣٠٣ هـ/١٧٩٤ – ١٨٨٥ م) ولي إمارتها عدة مرات . وقعت في إحدى فترات حكمه فتنة بمكة، كان سببها منع بيع الرقيق فعزلته حكومة الترك لأنه تبنى المنع . وأخباره كثيرة . (المحبي ، خلاصة الأثر ٣/٨٦) .

٢ إبراهيم رفعت ص ١/٤٢٣ .

٣ سلفت ترجمته في فصل الصحافة . والمكان المشار إليه هو مجلة العرب ج ١٠ ، سنة ٢ ربيع الثاني ١٣٨٨ هـ/ تموز (يوليو) ١٩٦٨ م .

٤ ولد سنة ١٢٠٠ هـ/١٧٨٥ م وتقلب في عدة مناصب . منها : قضاء القدس ومصر والمدينة وآخرها منصب مشيخة الإسلام ثم اعتزل المناصب سنة ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣ م . توفي باستانبول سنة ١٢٧٥ هـ/ ١٨٥٨ م . من مؤلفاته « ديوان شعر » بالعربية والتركية والفارسية و « تذكرة الشعراء » بالتركية ، و « مجموع التراجم » لعلماء القرن الثالث عشر (لم يكمل) و « ذيل كشف الظنون » – إلى حرف الجيم . وأنشأ مكتبته في المدينة سنة ١٢٦٠ هـ/ ١٨٤٤ م . جمع فيها ما حصل من الكتب وفرش أرضها بالسجاد الثمين، وجعل فوق المكتبة قبة آية في الزخرفة العربية، وتعتبر خزانتها تحفة في فن النجارة العربي، وفي فنائها بركة من الرخام يتدفق الماء منها (العرب ج ١٠ سنة ٢ ربيع الثاني ١٣٨٨ تموز ١٩٦٨ م) .

الأدباء والعلماء والمؤرخين [١] . وتليها في الأهمية مكتبة السلطان محمود فالمكتبات الأخرى كالحميدية ، والحَرَم ، وبشير آغا ، والكَشْميري ، والشفاء ، ورباط سيدنا عثمان، وثروت باشا، وحسين آغا، والقازانية، والإحسانية ، والمؤقتية ، وأمين أفندي بورْسوي ، والشّونة، ورباط السّنود ، وخوشْبيقي، وأزبَك ، وقَرَهْ باش، وأمير بُخارى ، وأمان الله خوجة ، وطاهر إيشان ، والبساطي ، ووكيلي ناظري، ونور الدين باي ، وساقزلي ، والصافي ، وآل هاشم ، وآل مدني، والشيخ الوزير ، والشيخ السنوسي ، والصادقية ، وطوسون باشا ، والخوقندية ، وأمين الفنايرجي ، وسليم بك ، وغيرها . . [٢] .

وممّا حوته هــذه المكتبات مخطوطات رائعة . منها — في مكتبة عارف حكمت — : تفسير القرآن لابن عباس على رق غزال ، يعود تاريخه إلى القرن الرابع الهجري ، ونسخة من القرآن على رق نعام بخط أندلسي مذهب آخرها كتبت في القرن الخامس ، وكتاب « المحاضرات » بخط السيوطي نفسه ، ومخطوط بأسماء الجبال والبقاع المذكورة في أشعار العرب، ونسخة كامــلة من « طبقات الشعراء» لابن سلاّم الجُمَحي ، وكتاب « ذكر المسافات وصور الأقاليم » لأبي زيد البلخي [٣] ، و «الأفعال» لابن

---

١ إبراهيم رفعت ، مرآة الحرمين ١ / ٤٢٢ ؛ محمد لبيب البتنوني ، الرحلة الحجازية ص ٢٥٤ ؛ محمد كرد علي ، مجلة المقتبس مجلد ٤ ص ٧١٨ ؛ ومجلد ٧ ص ٧٧٤ ؛ ومجلد ٨ ص ٥٨ ؛ مجلة المجمع العلمي العربي ٤٩٤/٢٥ ، ٥٩١/٢٦ ، ١٠١/٢٨ و ١٨٩ ؛ حسني الكسم ، نفائس المخطوطات في دور كتب المدينة المنورة سنة ١٩٢٨ م ؛ مجلة العرفان بصيدا مجلد ٨ ص ٤٩٠ ؛ قطب الدين الحنفي ، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ١٠٥

٢ عبد الله عبد الجبار ، التيارات الأدبية ١٨٦/١ ؛ البتنوني ص ٢٥٤ ؛ مرآة الحرمين ص ٤٢٢/١ ؛ دى طرازي ، خزائن الكتب ١٤٦/١ و ٣١٦ ؛ مجلة العرب ج ١٠ سنة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ ص ٨٩٣ .

٣ أحمد بن سهل ، أبو زيد البلخي (٢٣٥ — ٣٢٢ هـ/ ٨٤٩ — ٩٣٤ م) أحد كبار الأفذاذ من علماء الإسلام ، جمع بين الشريعة والفلسفة والأدب والفنون . ولد في إحدى قرى بلخ ، وساح في الأقطار، وعرضت عليه الوزارة فأباها . وقد سبق علماء المسلمين إلى استعمال =

القُوطية[1] كتبت بالاسكندرية سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م، وكتاب أشعار فارسية خطه أبيض جميل . قال البتْنوني عنه : « وبينما نحن نعجب من جودة الخط وإتقان الصناعة ونظافتها وحسن تنسيق حروفها على صغرها ودقتها ، لفت نظرنا حضرة مدير « الكتبخانة »[2] إلى أن حروف الكتابة إنما هي ملصقة على الورق . فتأملناها فوجدنا شيئاً يَبْهَت الطّرف لرؤيته ، ويُعجِز اللسان عن نعته ، خصوصاً عندما أُخبرنا أنهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ثم يفصلونها بظفرهم ، ثم يلصقونها على ورقة أخرى . . . »[3] .

ولقد كان معظم هذه المخطوطات كتباً دينية في التفسير والأصول والمصطلح والحديث والفقه والتوحيد ، ثم أدبية ، فتاريخية ، فعلوماً أخرى ، كما أن فيها المكتوب بالعربية والفارسية والتركية والهندية والأوردية والجاوية

= رسم الأرض في كتابه « صور الأقاليم الإسلامية » ومن كتبه « أقسام العلوم » ، و« شرائع الأديان » ، و « كتاب السياسة الكبير » ، و « كتاب السياسة الصغير » و « الأسماء والكنى والألقاب » ، و « أقسام علوم الفلسفة » ، و « كتاب الشطرنج »، و« أخلاق الأمم والبدء والتاريخ » وغيرها . (معجم الأدباء ١/١٩٤ ، ٣/٢٩ ، ٦٤ ، ٦/٥٨ ، ١٦/١١١ ، ١٩/٦٢ ؛ العسقلاني ، لسان الميزان ١/١٨٣ ؛ التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ٢/١٥) .

١ محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم الأندلسي ، أبو بكر المعروف بابن القوطية، (ت ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م) مؤرخ ، من أعلم أهل زمانه باللغة والأدب . أصله من إشبيلية ومولده ووفاته بقرطبة . له كتاب « الأفعال الثلاثية والرباعية » و « المقصور والممدود » و « تاريخ فتح الأندلس » و « شرح رسالة أدب الكاتب » . وكان شاعراً صحيح الألفاظ واضح المعاني إلا أنه ترك الشعر في كبره . (السيوطي ، بغية الوعاة ص٨٤ ؛ وفيات الأعيان ١/٥١٢ ؛ يتيمة الدهر ١/٤١١ ؛ لسان الميزان ٥/٣٢٤) .

٢ كلمة تركية وتعني المكتبة .

٣ الرحلة الحجازية ص ٢٥٤ (ننقل هذا الكلام عن البتنوني ، دون التعليق عليه . وقد حاولنا التعرف على كيفية هذا العمل، وطريقة قطع الحروف بالظفر فلم نصل إلى ما يقنع، ونكتفي بنقله مع الإشارة إليه ، آملين أن يكون لأحد الفنيين علم بذلك، فيجلو ما غمض علينا) .

واللغات الأخرى [1] . وعددها جميعاً يزيد على خمسين ألف مجلد بين مخطوط ومطبوع في أواخر القرن الماضي أو في أوائل القرن الحالي .

كان إنشاء هذه المكتبات تقرباً إلى الله، وعمل خير في هذه البقاع المقدسة ، وهي صدقة جارية، وتَعْدِل كلُّ صدقة في المَكَّتَيْنِ آلافَ أمثالها في البلاد الأخرى [2] . لذلك كان السلاطين والأمراء والأتقياء يوقفون الكتب في مكة والمدينة، ويضمنون بأوقاف أخرى الإنفاق على القائمين بأمرها . وما كان يراقب هؤلاء الحفظةَ إلاّ اللهُ، ثم وجدانُهم . ولهذا اختلفت العناية بهذه المكتبات باختلاف حَفَظتها وسَدَنتها . فقد يُهيأ لإحداها رجلٌ أمين غيور حريص فينمّي عددَها ويسعى إلى حفظ ما فيها والعناية بها، كما فعل القُطْبي الذي تسلم أمانة مكتبة بمكة، ولم تكن محتوياتها لتزيد على عدة آلاف، وحين أسلم الروح كان عدد ما فيها أربعة عشر ألف مجلد [3] . وقد يكون حظ مكتبة أخرى تاعساً إذا تسلمها غير حريص أو أمين، فتمتد إليها الأيدي السارقة، وتتبدد مع الأيام ، وتذروها الرياح ، أو تجرفها السيول . فكم مرة أغرقت سيول مكة المكتبة داخل الحرم لأن غرفتها كانت واطئة [4] ، وكم تحدثت الأخبار عن « أمين بن حسن الحَلْواني » [5] أنه نقل آلاف المخطوطات النادرة من هذه

---

١ مرآة الحرمين ١/١٨٣ . ويشمل العدد جميع موجودات المكتبات في المدينة المنورة .

٢ انظر الحديث رقم ١٤ في صحيح مسلم من كتاب الوصية ؛ والباب الرابع عشر من كتاب الوصايا في سنن أبي داود ؛ والباب السادس والثلاثين من كتاب الأحكام في صحيح الترمذي ؛ والباب الثامن من كتاب الوصايا في سنن النسائي ؛ والجزء الثاني صفحة ٣١٦ و ٣٥٠ و ٣٧٢ في مسند أحمد بن حنبل .

٣ مجلة العرب – الجزء العاشر – السنة الثانية ص ٨٩٣ .

٤ المصدر السابق ص ٨٩٣ ؛ والعطار ، قطرة من يراع ص ٥٨ .

٥ رحالة ، له اشتغال بعلم الفلك ، كان مدرساً في الحرم النبوي بالمدينة . رحل إلى أوربا وغيرها يبيع المخطوطات التي كان جمعها. وفي سنة ١٣٠٠ هـ/١٨٨٢ م وصل إلى أمستردام=

الخزائن إلى أوربا فباعها[1] . ومنذ نشأت دولة « المملكة العربية السعودية » وتكونت وزارة الحج والأوقاف بمكة اهتمت بأمور المكتبات فجمعت الكتب المبعثرة هنا وهناك في مكتبة الحرم بمكة وفي مكتبة الحرم النبوي بالمدينة ، وجَرَدَت المحتويات وسجّلتها في السجلات الرسمية ، وعيّنت الموظفين المتعلمين للقيام بأمرها والعناية بها .

وإذا تخطينا منطقة الحجاز وجئنا مناطق المملكة الأخرى، صَعُب علينا العثور على مكتبة عامة بمدلولها القديم أو الحديث قبل ظهور دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب .

ولكنه منذ استقرار هذه الدعوة عمد كثير من الأتباع إلى جمع الكتب والاستزادة منها ونَسْخ العديد من رسائل « الشيخ » ، فتكونت بهذا مجاميع من الكتب بخط اليد ، ومن النادر أن يكون لدى أحد من الناس كتاب مطبوع . ويبدو من استقراء الأخبار أن الدرعية كانت المركز الأكبر للعلماء والكتب المخطوطة . وحين هدمت وأصبحت الرياض عاصمة ، واستوطنها أهل الحُكم والعلم جرت العادة بجَلب كتب من يُتوفى من العلماء إلى هذه المدينة ليطلع عليها الطلبة[2] .

وبذرة المكتبة العامة في نجد كله أجَنّت في بيوت الأمراء وأحفاد الشيخ .

= وليدن ، واشترت منه مكتبة ليدن بعض نفائس الكتب . وانصرف إلى بومباي في الهند ، فعكف على الأدب ، ونشر رسائل من تأليفه ، وقتل في رحلة ببادية طرابلس قادماً من المدينة (دائرة المعارف الإسلامية ٢/٦٥٩ ؛ داغر ، دليل الأعارب ص١٤٦ ؛ معجم سركيس ص ١٧٢٠ ؛ مجلة المنهل ١٣/١٨٦) .

١ مجلة العرب ١٠ س ٢ ص ٨٩٣ ؛ وأسعد داغر ، فهارس المكتبات العربية في الخافقين ص ١٠١ .

٢ حمد الجاسر ، مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ ص ١٣٠ .

وقد تجمع عندالمفتي محمد بن إبراهيم[1] وغيره عدد كبير من هذه الكتب . وأهلّت سنة ١٣٦٣هـ / ١٩٤٣م **فأنشأ الأمير مُساعِد بن عبد الرحمن** – أخو الملك عبد العزيز – أول **مكتبة عامة بالعاصمة** ، ووضع فيها قدْراً صالحاً من الكتب . وخصص للمطالعة جناحاً مستقلاً من قصره ، وعين فيها موظفاً يعنى بشؤونها ، وأباح لكل زائر الانتفاع بها فيها . وكان عمله الخطوة الأولى في إنشاء المكتبات العامة في المملكة كلها بعد الحجاز . وفي سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م – أي بعد عشر سنوات من افتتاح الأمير مكتبته – أسس المفتي محمد بن إبراهيم «**المكتبة السعودية**» بالرياض ، ووضع فيها ١٥٠٠٠ كتاب مطبوع و ١١٧ مخطوطاً لكن هذه المؤسسة – رغم حداثتها – لم تتوافر فيها الكفاءات العلمية ، المؤهلة للخدمة المكتبيّة بشكلها الحديث ، فدرجت على منهاج المكتبات القديمة من حيث ترتيب الكتب ، وتنظيم الفهارس ، ونظام الإعارة ، وساعات الدوام ، وطرز البناء . وقد خلت من الآلات المصورة والقارئة للمخطوطات ، وغلب على كتبها الاتجاه الديني ثم الأدبي ، وجميعها باللغة العربية . ومع ذلك فإنها لتؤاخذ على ضعف اهتمامها بتجميع المطبوعات الدورية وترتيبها وتنظيمها ، ثم حفظها والحرص عليها – كما ينبغي أن يكون الاهتمام – . ولا بد من الإشارة إلى أنها تسعى إلى خدمة طلبة العلم ، بكل ما تستطيع من إمكانات ، لا تألو في ذلك جهداً .

وفي سنة ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م أنشأت أمانة مدينة الرياض مكتبة عامة بحيّ « الملزّ » بجوار مباني جامعة الرياض ، ثم سلمتها لوزارة المعارف التي أعارت مبانيها للجامعة ، ونقلت مقتنياتها إلى دار الكتب الوطنية التي أنشأتها في قلب العاصمة سنة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م وافتتحتها سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م

[1] كان حياً حين إنشاء هذه الرسالة ثم انتقل إلى جوار ربه في ٢٤ رمضان ١٣٨٩هـ – ٣/١٢/ ١٩٦٩ م ، رحمه الله .

وقد روعي فيها جميع الشروط التي تتطلبها المكتبة الحديثة ــ تقريباً ــ . فالكتب التي تكونت فيها هدية من جامعة الرياض ، ومن وزارة المعارف ، ومن الشراء المباشر في داخل البلاد وخارجها . ولم تقتصر كتب هذه المكتبة على اللغة العربية كما هو الشأن في المكتبة السعودية بل صار فيها كتب فرنسية وإنجليزية وألمانية وغيرها . واتخذ النظام العشري أساساً في تصنيفها ، فقسمت البطاقات إلى ثلاثة أقسام : الأول بأسماء المؤلفين ، والثاني بأسماء الكتب ، والثالث بالموضوعات . وقد أشرف على هذا التنظيم خبراء من البلاد العربية ومن منظمة اليونسكو ، كذلك اتبعت طريقة الرفوف المفتوحة والكتب المعروضة بين أيدي الرواد مباشرة دون حاجة إلى وسيط مناول . وخصصت غرفة لتصوير المخطوطات بالطريقتين الحديثتين الفوتوستات Fotostat والميكروفيلم Microfilm وقراءتها . كما خصت غرفة أخرى لعرض الأفلام التربوية والعلمية ، وثالثة للمحاضرات والندوات والمناقشات ، ورابعة للأطفال . واعتنت هذه الدار بالصحف والمجلات فجمعت كل ما صدر في المملكة بطريقة الشراء أو التصوير .

بيد أنه **يؤخذ على دار الكتب** الوطنية ثباتها ، وعدم تحركها إلى المناطق المحرومة من المكتبات ، بل إلى فئات الناس المختلفة في قلب مدينة الرياض ذاتها ، وقلة اهتمامها بالتعرف على احتياجات المعاهد التعليمية من كتب ووسائل لتوفرها لها ، وتعينها على أداء مهمتها . ويبقى مأخذ آخر لا ذنب للمكتبة به وهو حرية الكتاب ، ونعني به أن الكتب الموجودة في جميع مكتبات البلاد لا تمثل إلاّ ما يوافق سياسة المملكة واتجاهاتها وعقيدتها الإسلامية .

ونتساءل عن مدى النجاح والإقبال الذي لاقته المكتبات الحديثة ، فنجده محدوداً . ويخيل إلينا أن ذلك طبيعي . فكثرة الأميين من ناحية ، وعدم التعود على ارتياد هذه المؤسسات الثقافية من ناحية أخرى ، ورغبة كثير من المتعلمين عن

المطالعة من ناحية ثالثة ، وعدم قيام هذه المكتبات بالتشويق والإغراء بالمطالعة من جهة أخرى ، ثم عدم تنوع الكتب في رفوف المكتبة ، وغلبة الموضوعات الأدبية على العلوم والفنون المختلفة ، ونقص المؤلفات الخاصة بالمبتدئين ، والمتصلة بقضايا التسلية والترفيه ، والفنون الشعبية ، وكتب التوجيه المِهني ، والعلوم المبسطة ، وقصص الأطفال . كل هذه العوامل تشكل بعض أسباب قلة الإقبال على هذه المكتبات . ولكنها – رغم كل ذلك – تبقى ذات فائدة لا يمكن إنكارها ، ويظل وجودها أمراً لازماً لا غنى عنه .

ولقد أدركت وزارة المعارف ما لهذه المؤسسات من أثر ، فراحت تنشئ في أكثر البلاد الكبيرة مكتبات ، وتزوّدها بالمؤلفات المختلفة ، ولكن مضمون ما فيها يغلب عليه الأبحاث الدينية والأدبية ، وجميعها لا تخرج عن دائرة اللغة العربية .

بقيت مكتبة عامة تتمثل فيها الشروط الحديثة بصورة تكاد تكون كاملة ، ونعني بها **مكتبة أرامكو بالظهران** . وتتميز بوجود المَكْتبيّين المؤهّلين فنياً لعملهم، وبالرفوف المفتوحة ، والنظام الدقيق في ترتيب الفهارس ، وفي دقة الدوام ، ووفرة الأفلام العلمية، وصُوَر المخطوطات ، والآلات المصوّرة، والقارئة ، وتعدُّد غرف المطالعة ، والعناية بجمع كل ما يصدر في داخل المملكة أو في خارجها من أبحاث أو دراسات أو مقالات حول المملكة ، بغض النظر عن لغة البحث أو هوية كاتبه . وفي سبيل الحصول على ما يجب أن يتوافر في المكتبة العصرية تنفق أرامكو بسخاء . وليس في البلاد من يقف أمامها قدرة على المنافسة إلاّ جامعة الرياض .

ونصل بعد هذا العرض إلى أن **المكتبة عريقة الوجود في البلاد العربية السعودية** ولئن كانت أوضاعها في القرون الخوالي منسجمة مع عصرها وعقلية أبنائها ، إن الزمن الحديث فرض في المكتبة فروضاً لا بد من توافرها ، وأوجب

شروطاً لا مندوحة عن وجودها . وما عاد أحد يرضى لمكتبة أسست في القرن العشرين أن تنهج منهج القرون الخوالي . وحتى تقوم بمهمتها على خير وجه لا بد من إصلاحات عدة .

نلاحظ أن مكتبات المملكة تتبع إدارات مختلفة . فمنها ما يتبع وزارة الحج والأوقاف كمكتبة الحرم ومكتبات المدينة المنورة . ومنها ما يتبع وزارة المعارف كمكتبة دار الكتب الوطنية بالرياض ، ومكتبات بُرَيْدَة ، وعُنَيْزة ، والدمَّام ، وغيرها . ومنها ما يتبع إدارة الفتوى كالمكتبة السعودية بالرياض . ومنها ما يتبع شركة البترول العربية ـــ الأمريكية بالظهران . وهذا التوزع يجعل نظام كل مكتبة ، ومحتوياتها ، وطريقة إدارتها مختلفاً عن الأخرى .

ونلاحظ ـــ أيضاً ـــ أن مدناً كبيرة خالية من المكتبة العامة كمدينة جدة التي يبلغ عدد سكانها ما يقرب من نصف مليون . وكذلك مدينة « أَبْها » في منطقة عَسير ؛ الأمر الذي يؤدي إلى نقص الثقافة ، وحرمان كثير من المواطنين من مؤسسة لازمة كل اللزوم في حياة الناس .

وهناك ملاحظة ثالثة تبدو جلية في قلب المكتبات ؛ ذلك أن كثيراً من العاملين فيها غير مؤهلين تأهيلاً فنياً لعملهم الدقيق ، وأن معظمهم من الأدباء . ولا شك أن الموظف المختص في العمل المكتبي غير الأديب ؛ فالمختص هو الذي يخلق في المكتبة انقلاباً ، ويجعل لها أثراً في المجتمع ، وبخبرته يمكنه أن يُدخل إلى رفوفها كتباً مناسبة لكل عمر ، وجنس ، وطبقة ، واتجاه . وهو الذي يستطيع أن يلوِّن موضوعات الكتب ؛ فلا يتركها قاصرة على الأدب والدين فقط . إن وجود المختص يحرك المكتبة من الداخل فيفتحها للنور ، ويحركها إلى الخارج فيربطها بالمجتمع ، ولا يتركها مجرد مستودع للكتب بل يجعلها معملاً للثقافة ، ومخبراً للفكر ويصل بينها وبين كل معمل ، ومصنع ، ومعهد ،

ومؤسسة في البلد . يستطيع بخبرته أن يذهب بالمكتبة إلى الناس ، أو يدعوهم إليها ، ويوفر لها كل جديد في عالم العلم ، وفي المخترعات الحديثة . وطبيعي أن الأديب لا يستطيع ما يستطيعه المكتبيّ المؤهَّل [1] .

فإذا ما انتقلنا إلى **دراسة المكتبات المدرسية والوزارية** وجب أن نفردها عن المكتبات العامة ، ونفصلها عنها ؛ لأنها ليست مفتوحة لسائر المواطنين ، كما لا نستطيع أن نعدَّها من المكتبات الخاصة ، لأنها ليست ملْك فرد معين ، وإنما هي ملك المؤسسة التعليمية ، وهذه ملك الدولة — في الغالب — .

والمكتبات المدرسية أصناف كثيرة . فيها الصغيرة التي لا تضم رفوفها غير بضع مئات من المؤلفات ، اشترتها الإدارة ، أو استهدتها الطلبة . وفيها المتوسطة ، التي أفردت لها غرفة خاصة ، وضمت خزائنها ألف كتاب أو عدة آلاف ، تجمعت سنة بعد سنة ، أغلب أبحاثها دين أو أدب أو علوم اجتماعية ، وجلها — إن لم نقل كلها — كتب باللغة العربية . وفيها المكتبات الكبيرة ، وهذه تكون — في الغالب — في الكليات والجامعات ، وأكثرها يضم عشرة آلاف كتاب أو أكثر .

ولا مجال هنا للحديث عن المكتبات المدرسية الصغيرة والمتوسطة . فأمرها بيّن ، والانتفاع بها محدود . ولكن الحديث عن المكتبات الكبيرة ، ودراسة ما فيها من كتب ملونة الموضوعات ، متنوعة اللغات ، وفهارس منظمة ، وما تضم من آلات بصرية وسمعية . وبحث في شخصيات القائمين على أمرها ، ومدى السخاء في تزويدها باستمرار بالمصادر والمراجع ، وصورة الاستفادة منها في المطالعة الداخلية ، أو في الاستعارة الخارجية ؛ كل هذا يحدد قيمة هذه المكتبات وأثرها .

---

[1] Jast L. Stanley, The Library and the Community, London, Nelson, 1939, p. 192.
وانظر أحمد أنور عمر ، المكتبات العامة بين التخطيط والتنفيذ ص ١٢ .

وتختلف كلٌّ من هذه المكتبات عن الأخرى بنواح كثيرة مما يجعل الحكم العام المطلق عليها متعذراً ، فكلٌّ منها يتمتع بمحاسن وتلحق به مساوئ . وما تتميز به مكتبة قد لا يتهيأ لأخرى . لذلك لا بد من الحديث الفردي عن كل منها تخصيصاً . ومع هذا فلسهولة البحث يمكن تقسيمها إلى فئتين كبيرتين — مع كثير من التسامح والتجاوز — .

الفئة الأولى : هي التي تتبع الكليات المتخصصة باللغة العربية ، أو الدراسات الدينية كالجامعة الإسلامية بالمدينة ، وكلية الشريعة في كلٍّ من مكة والرياض . وكلية اللغة العربية ، ومعهد القضاء العالي بالرياض .

والثانية : هي مكتباتُ جامعةِ الرياض ، وكليةِ البترول بالظهران ، وجامعةِ الملك عبد العزيز بجدة ، وكليةِ الهندسةِ ، والتربيةِ في كلٍّ من الرياض ومكة .

وقبل أن نتحدث عن الأولى يجدر أن نشير إلى أن السلطة الدينية هي المشرفة الرئيسة على جميع أمورها ونشير هنا إلى أن الإدارة المباشرة فيها غالباً ما تكون حصّلت علومها — في جميع مراحل الدراسة — ضمن المملكة ، ولم تخرج إلى البلاد الأخرى إلاّ لنزهة أو تعاقد أو استشفاء ، وأن العربية لسانها الوحيد . ومن هذه المقدمة يمكن أن نصل إلى نتيجة؛ وهي أن كل ما تتصرف به هذه الإدارة منسجم مع الدين ، والمجتمع ، والتقاليد ، والحدود المرسومة الموضحة. ومن ثمّ فإن المكتبة المدرسية فيها مقصورة على اللغة العربية في أبحاث أولها: الدين، ثم اللغة العربية، وتليها العلوم الأخرى . ومفهوم المكتبة هو الذي تواضع عليه الأوائل من السلف ، ودرجوا : خزائن عدة ، هذه للفقه ، وتلك للتفسير ، وثالثة للحديث ، وأخرى للأصول ، وخزائن للنحو ، ومثلها للأدب وهكذا . وليس للمواد العلمية من كيمياء وفيزياء وتشريع وغير ذلك أثر . ولا يستغرب هذا الفقدان لأن الكليات في حد ذاتها لا تدرس هذه المواد أصلاً . أما الذي

يلفت النظر في فهارس بعضها فهو الدفاتر وليس البطاقات . فلكل فن دفتر . ولكن الصعوبة قد تكون في تسجيل كتاب أدبي في دفتر البلاغة ، ومؤلَّف عروضيّ في دفتر الأدب — مثلاً — . وكثيراً ما يتلف الاستعمال أطراف هذه الدفاتر ، فينمحي جزء من أسماء الكتب ، وتستعصي قراءتها ، وحينئذ لا بد من تجاوز هذا الاسم واعتباره كأن لم يكن . هذا بالإضافة إلى أضطرار المستعير إلى أن يستعرض جميع ما سجل في الدفتر ليصل إلى كتابه المطلوب ، وربما استغرق هذا الاستعراض وقتاً طويلاً .

بعض هذه المكتبات يقتصر دوامه على الدوام المدرسي ، فيفتح في الصباح ويغلق وقت الانصراف ، والطلبة في هذه الآونة مشغولون بتلقي دروسهم ، وصَعْب عليهم أن يرتادوا المكتبة خلال ساعات دراستهم ، ويتوافد كثير منهم عند نهايته إليها بغية استعارة كتاب ، فيجدون موظفيها متهيئين للانصراف ، أو سبقوهم إليه . ويشب الجدل بين الطلبة والموظفين ، هؤلاء يريدون الكتب وأولاء يطالبونهم بالانصراف . ولقد وقعت مكتبات أخرى في خطإ جسيم إذ فرضت على كل مستعير أن يأخذ إذناً بالاستعارة من مدير الكلية أو عميدها عند طلب كل كتاب . وقد يحدث أن يكون هذا الرئيس غائباً ، فيكفُّ الطالب عن الاستعارة وقد يستغني عنها ، أو يرجئها ريثما يحضر مَن بيده الحل والعقد . ولقد عمدت بعض الكليات إلى التخفيف من هذه القيود ، فتراءى لها أن التدبير الصالح هو نقل قسم من الكتب إلى خزائن توضع في غرف الدروس ، ويجعل فيها من المؤلفات ما يتناسب والمواد المقررة في كل فصل ، ويوكل أحد التلامذة بالإشراف عليها ، وتنظيم الإعارة والاسترداد دون الرجوع إلى القيّم أو المدير . وصحيح أن هذه العملية أعانت على دنوّ الكتاب من أيدي الطلبة ، وسهلت سبيل الإفادة ، ولكن — نتيجة التجربة — ظهر إخفاقها . فقد يحدث أن يوصي أستاذ بقراءة كتاب معين ، أو يطلب إنشاء بحث ويدل

على مصدره ومكان وجوده ، فيتهافت الجميع على طلب الكتاب – إذا كان في خزانة الفصل – ويحار الطالب المسؤول فيما يفعل ، ويؤثر أن يتناوله هو قبل سواه أو يفضل صديقاً على آخر .

وتتجه أكثر الكليات اليوم إلى فرض الدوام الثنائي في الصباح وفي المساء لتكون المكتبة في خدمة الطلبة ، ويستطيعوا ارتيادها عند المساء والمطالعة فيها . وهذه الخطوة تعم قليلاً قليلاً وتكاد تطبقها جميع الكليات المشار إليها في أول هذا الحديث .

ومن نواقص هذه المكتبات أننا لا نعثر على أفلام تربوية أو علمية فيها ، بل لا نعثر على أفلام فيها صورة مخطوطة أو صحف أو مجلات . وأكثر من هذا أننا لا نجد مجموعات الصحف الحديثة الصادرة في المملكة ذاتها . وبدهي أن نرد ذلك إلى المكتبيين غير المتخصصين علمياً بهذه الخدمة . وهذا يدفعنا إلى ربط الأمور الأخرى ببعضها ، فنحكم على المكتبة بتقصيرها في التزود المستمر من الكتب والمصادر الواردة إلى محال بيع الكتب في قلب المدينة مكتوبة باللغة العربية ، وباحثة في القضايا الأدبية ذاتها .

أما مكتبات الفئة الثانية – ونعني بها مكتبات الكليات العلمية والفنية وجامعتي الرياض وجدة – فهي من الطرز الحديث . السبب الرئيسي في ذلك يتعلق بالجهاز الإداري والتدريسي فيها . إذ إن معظمه درس في جامعات أجنبية عربية أو غربية ، وكتب رسائل علمية للفوز بشهاداته العليا ، واضطر إلى أن يرتاد المكتبات المختلفة في تلك البلاد ويقف على مدى أهميتها في البحث العلمي . كما عرف الوسائل الحديثة التي تتّبعها المكتبة ليكون لها أثر في التقدم الحضاري . وهذه الفئة عمدت حين تسلمت زمام الإدارة أو التدريس إلى جعل المكتبة الجامعية في أمثل حالاتها ، وأسمى قدرتها على تأدية خدماتها . ويدهش زائرَها كثرةُ الكتب ، وتنوعُ موضوعاتها، وتعدد لغاتها،

وفهارسها الحديثة الدقيقة المنظمة ، ورفوفها المفتوحة ، وغرفها المتعددة المتمتعة بالهدوء والراحة ، وأنوارها الساطعة، وسهولة الوصول إلى كل كتاب ، وكثرة الوسائل المعينة على القراءة ، ووجود الآلات اللازمة للمكتبة ، واتساع المدة المخصصة للمطالعة . ويعجب حين يذكر له أن ميزانية بعضها السنوية تبلغ نصف مليون ريال . يرصد جزء منه للنفقات الإدارية ويُشترى بالباقي ما تحتاجه المكتبة من مراجع ومصادر ولوازم . الجميل في هذه المؤسسات **شدة اهتمامها بالقوائم التي تصدرها جميع دور النشر والطباعة** في مختلف بقاع العالم ، وحين تصل إلى الجامعة تضعها هذه بدورها بين أيدي المدرسين ، وتطلب منهم أن يطّلعوا عليها ، ويشيروا إشارة صغيرة بجانب اسم كل كتاب قد يلزم الطلبة ولو بعد عشرين عاماً مرة واحدة لتشتريه وتهيئه لطلبتها . ولقد مرت مكتبة جامعة الرياض في بدء تأسيسها بظروف حرجة حين رأت أنها تحتاج إلى مجموعات كاملة من صحف البلاد ومجلاتها وبعض المطبوعات الأجنبية ، ولكي تحصل عليها عمدت إلى أصحاب تلك المطبوعات فاتصلت بهم ، وكثيراً ما كان يصل الرد بالاعتذار عن تلبية المطلوب ، فتضطر إلى أن تعلن حاجتها في الصحف الوطنية والإذاعة المحلية وفي الصحف الخارجية ، وتكتب إلى دور النشر ومخازن بيع الكتب الكبيرة في أكثر أرجاء العالم تُعْلمها بذلك. وتطلب منها أن تترصّد لها بغيتها مهما كلفت من ثمن[1] . ولقد نجحت هذه الوسائل. واستطاعت المكتبة أن تضم في خزائنها ما عجزت عن الوصول إليه سائر المكتبات الأخرى . وهذا مثَلٌ عن نشاط إحدى هذه المؤسسات المكتبية . وعليها يقاس نشاط مكتبات الكليات الأخرى التي عددناها .

وأخيراً فإنه يمكن أن يضاف إلى هذا اللون من المكتبات **خزانات كتب**

---

١ هذه الخلاصة عن مكتبة جامعة الرياض مقتبسة من حديث مع وكيل الجامعة الدكتور عبد العزيز خويطر أثناء مقابلته في بيروت بتاريخ ١٩٦٩/٢/٢٤ م ، الموافق ١٣٨٨/١٢/٧ هـ .

بعض الوزارات . ولقد درجت العادة على أن يكون في كل منها غرفة تدعى بالمكتبة تضم كتباً تبحث – في الغالب – في موضوعات تتعلق بشؤون هذه الوزارة ؛ لتكون مرجعاً للموظفين حين يحتاجون إلى بحث نقطة أشكلت عليهم . ولا يسمح لغير الموظفين باستعمال هذه المراجع إلاّ في حالات خاصة . ويقوم على هذه المكتبات موظف مهمته أن يسجل الاستعارات ويعنى بأمر الكتب وما تضم المكتبة . وتعتبر خزائن «معهد الإدارة المالية» الموجودة في مبنى وزارة المالية والاقتصاد بالرياض خير المكتبات الوزارية وأغناها ؛ لأن فيها – عدا المصادر المتعلقة بالمالية والاقتصاد – جزءاً من مجموعات الصحف الصادرة بالمملكة في عهد الهاشميين والسعوديين ، كما أن فيها « ميكروفيلماً » لعدد من المطبوعات الدورية وآلة لتكبيرها ، وأخرى لتصويرها بطريقة الفوتوستات .

أما المكتبات الخاصة: فكثيرة العدد، ولا يكاد يخلو منها بيت علم أو أدب، ويبدو أن الكثير من المواطنين درجوا على حب الكتب واقتنائها والتباهي بها ، ولا سيما النفيسة والمخطوطة ، وهان عليهم دفع ثمنها الغالي بسخاء وطيب خاطر ، وقضت العادة أن يوصّى كثير من المسافرين إلى خارج الحدود بجلب كتب أو مجلات لا تصل إلى المملكة . وتتمتع تحقيقات المستشرقين ومطبوعات أوربا الغربية بنصيب وافر من الاحترام، والرغبة في الحصول عليها وخاصة عند المثقفين . وقد راجت في العصر الحديث تجارة الكتب ، وكثرت دور بيعها نتيجة للرغبة المتزايدة في إنشاء المكتبات الخاصة . ولقد يبلغ عدد كتب فرد واحد عشرة آلاف وأكثر ، وتحتل من منزله أكثر من غرفة ، وتطّرد هذه الزيادة متناسبة ومستوى ثقافة المواطن ، ودرجة علمه ، وقدرته المالية ، ومركزه الاجتماعي . ويعجب الباحث من ذيوع أنباء المؤلفات الجديدة ، وأخبار الكتب الصادرة في مختلف البلاد العربية، ومن سرعة وصولها إلى المملكة بل من وقوعها في أيدي المثقفين بالسعودية قبل أن تكون في متناول الكثير

من أبناء الأقطار الأخرى . وأعجب من هذا وجود بعض الكتب التي أصبحت نادرة في جميع البلاد ، وقد حدث مرة أنْ طُبع كتاب أدبي بمصر ، وبيع عدد من نسخه في القاهرة، ثم قضت المصلحة أن يُجمع الباقي ويحرق؛ لتضمنه آراء خاصة لم ترض عنها إحدى الجهات العربية ، وغدا من الصعب العثور على نسخة غير مباعة أفلتت من الحريق . وتسأل ذا مكتبة خاصة في قلب المملكة عن ذلك الكتاب؛ فيضعه بين يديك . وتسأل آخر فيقدمه إليك . وتعجب من سر وصوله بهذه الوفرة ، ولم يمض بين صدوره وحريقه إلاّ زمن قصير . وتصل إلى نتيجة هي أن كثيرين من السعوديين هواة للكتب جعلوا لهم في معظم العواصم العربية وكلاء دائمين من الأصدقاء، يشترون لهم باستمرار ما تنتجه المطابع الأولَ فالأولَ . ويبدو أن لكثرة المكتبات الخاصة علاقة بالوضع الاجتماعي والتعليمي في البلاد ، فالفراغ الموجود، واقتصار التعليم على مواد معينة محدودة ، وندرة المكتبات العامة ، أدت إلى تلك الكثرة، وقد يكون من جملة الدوافع حب التباهي والتزين بها .

ومهما يكن دافع إنشاء المكتبة الخاصة، فلا بد من الاعتراف بأثرها في رفع مستوى ثقافة ذويها ، ولا مندوحة عن الإشادة بفضل الذين وضعوا خزائن كتبهم الخاصة بين أيدي سائر الناس ، وفتحوا لهم أبوابها ، ولم يضنوا على أحد باستعمال ما فيها والإفادة منها[1] . ولا ريب أن إحصاء المكتبات

---

[1] نخص بالذكر الشيخ محمد نصيف عالم جدة . فلقد شهر بإيثاره طلبة العلم ورواد المعرفة بمحتويات مكتبته الزاخرة منذ أكثر من خمسين عاماً ، وبها عوض المدينة — جدة — عن فراغها من المكتبة العامة الرسمية . ووضع نفسه في خدمة المتعلمين لا يبتغي بعمله جزاء ولا شكوراً ، ويصرف كل وقته في العناية بها ، والعمل على تنميتها وإمدادها بكل جديد . ويترصد الفرصة السانحة عند لقاء كل باحث ليأخذ بيده إلى رفوفها ، ويدله على الكتب التي تنفعه في بحثه ، ويهديه إلى المصادر الأخرى التي يظن أن لها علاقة بموضوع دراسته . وكذلك الشأن في مكتبة الأميرين مساعد وعبد الله ابني عبد الرحمن وأخوي الملك عبد العزيز آل سعود، وإن كان الرجلان قد وكلا أمر مكتبتيهما إلى غيرهما ليقوم بما يقوم به شيخ جدة .

الخاصة الكبرى في المملكة عسير لأنها في بيوت غالبية العلماء والمثقفين .

وبعد ، فلقد رأينا أن معظم محتويات المكتبات العامة والمدرسية والخاصة مؤلف باللغة العربية ، وأن الكتب الدينية والأدبية والاجتماعية تحتل المقام الأول بين سائر الموضوعات . ولو استعرضنا مصادر هذه الكتب ، وفتشنا عن البلد الذي وردت منه لرأينا أن مصر تأتي في المرتبة الأولى ، ويليها لبنان ، فسورية ، فالعراق ، فالبلاد العربية الأخرى . وليس معنى هذا أن السعودية ليس لها نصيب من إصدار الكتب حتّى تقصّر في هذا المجال ، بل إن لها مساهمة ومشاركة ، وهي تزداد سنة بعد سنة . والمؤلفون السعوديون يكثرون يوماً بعد يوم . والكِتاب السعودي راح يشق طريقه وسط هذا الحشد الكبير من الكتب المستوردة ، ويأخذ مكانه في رفوف المكتبات المختلفة . ولقد صار قسم كبير من المؤلفات السعودية يطبع في داخل البلاد بعد أن كان يتم ذلك في الخارج . والسبب في ذلك **أن الطباعة في المملكة** تأخر ظهورها حتّى أوائل الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وظهرت حين استحضرت الحكومة العثمانية سنة ١٣٠٠ ﻫ / ١٨٨٢ م مطبعة تُدار بالقَدَم ، وأطلقت عليها إذ ذاك اسم « حجاز وِلايَتي مطبعَه‌ْ سي »[١] أي مطبعة ولاية الحجاز . وفي سنة ١٣٠٢ ﻫ / ١٨٨٤ م استحضرت السلطة التركية طابعة متوسطة ، ثم أتت بمطبعة حجرية بعد عدة سنوات ، دعتها « المطبعة الأميرية » وفيها كانت تطبع جريدة «الحجاز» المكية . وخلال الحرب العالمية الأولى صادر الأتراك « مطبعة زَحْلَة الفتاة » ونقلوها إلى الحجاز لتدعم المطبعة الأميرية . وبعد أن انتهت هذه الحرب ونودي بالحسين ملكاً على الحجاز أسس سنة ١٩١٩ م مطبعة صغيرة بمكة

---

١ رشدي ملحس ، الصحافة والمطابع في الحجاز ؛ جريدة أم القرى العدد ٢٠٧ رجب ١٣٤٧ = ١٤/١٢/١٩٢٨م والعدد ٢١١ رجب ١٣٤٧ﻫ = ١١/١/١٩٢٩م ؛ خليل صابات ، تاريخ الطباعة في الشرق العربي ص ٣٠ .

لطبع جريدته « القبلة » . وحين استتبّ الأمر للملك عبد العزيز آل سعود أطلق على مطبعة الحسين اسم « مطبعة أم القرى » . وقد عنيت هذه المؤسسة في عهدها الجديد بفن الطباعة فأحضرت عدداً من الخبراء العرب، وعقدت معهم اتفاقاً على تعليم بعض الحجازيين هذا الفن،وكان ذلك سنة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م . ثم أخذ تفكير المسؤولين يتجه نحو تشجيع هذا الفن وترقيته ، فبعثت في سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ م سبعة عشر شخصاً إلى مصر ليتدربوا على الطباعة في مطبعة بولاق ، كما أصدرت وزارة المالية قراراً يقضي بتغيير اسم « مطبعة أم القرى » إلى « مطبعة الحكومة » . وكان لهذه اهتمام خاص بطبع الطوابع الرسمية، ومجلة الحج ، والتقويم السنوي ، والأوراق الرسمية للدولة ، والأنظمة والتعليمات، وجريدة «أم القرى» ، كما كانت تستورد الورق من مختلف البلاد الأوربية والأمريكية . ولقد زاد عمال هذه المطبعة فبلغ عددهم مائة وخمسين عاملاً . ثم دخلتها التحسينات الكبيرة فتضخمت وأصبحت آلية تساير أرقى المطابع الحديثة . وفي سنة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٥ م أنشأت « الشركة العربية للطبع والنشر بمكة » مطبعة ليتم فيها طبع جريدة « البلاد السعودية » والمطبوعات التجارية المختلفة ، وبلغت ذلك ، بل صارت تطبع « مجلة المنهل » مدة من الزمن . ثم نشأت في العاصمة الدينية – مكة – عدة مطابع صغيرة اقتصرت مهمتها على إنجاز الأعمال الصغيرة . وفي المدينة المنورة ظهرت المطبعة سنة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٦ م على يد الأخوين علي وعثمان حافظ وسمياها « مطبعة جريدة المدينة المنورة » ، وفيها كان يتم طبع جريدتهما والأوراق الحكومية والتجارية . أما في جدة فقد أسست في سنة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م « مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر »مطبعة حديثة، وزودتها بأحدث الطابعات ، وبآلات الجمع المعروفة « باللينوتيب » ووفرت لها العمال الكثيرين المؤهلين، واستطاعت أن تطبع الأوراق التجارية والحكومية ومجلات «الإذاعة»

و « الحج » و « الأضواء » ثم « المنهل » و « جريدة الرياض المصورة » . ثم جاء تاجر آخر يدعى الأصفهاني بمطابع تضارعها حداثة وقوة ، ونال فيها قصب السبق . وراح يطبع عدداً من الصحف اليومية في آن واحد في الألوان المختلفة . ثم توالت المطابع في هذا الثغر ، وكثرت عدداً ، وسدت حاجة المنطقة الغربية . أما في الرياض فيبتدئ تاريخ ظهور الطباعة سنة ١٣٧٤ ﻫ / ١٩٥٤ م حين قام جماعة من أهل البلاد بتأسيس شركة دعوها « شركة الطباعة والنشر الوطنية » . وكان من أعمالها إنشاء مطابع الرياض[1] وقد باشرت أعمالها في ١٣٧٤/٨/٢٦ ﻫ / ١٩٥٤ م ، ثم تلاحق ظهور المطابع بعد ذلك التاريخ .

هذه المطابع السعودية يتم فيها طبع سائر الصحف والمجلات السعودية اليومية والأسبوعية والشهرية ، وأكثر الكتب المدرسية ، والأدبية والأوراق الرسمية ، والإعلانات التجارية . وقد توافر فيها من الخبرة الكثير ؛ فاستطاعت أن تقوم بالحفر وتصوير الرواسم « الكليشيهات » وتنفيذها بألوان مختلفة فيها جمال وحسن تنفيذ . ويبدو أن أجرة الطبع في هذه المؤسسات غالية ، ولذلك يعمد كثيرون من المؤلفين إلى طبع كتبهم في بيروت أو دمشق أو القاهرة بثمن أقل ، وإخراج أجمل . وقد يكون لشركات توزيع الكتب في البلدان العربية أثر في إيثار الطبع فيها . وأخيراً فربما لا يستغرب أن تكون

١ قصة إنشاء « مطابع الرياض » بدأت بصورة دعوة قام بها الشيخ حمد الجاسر حيث اقترح تأسيس شركة طباعية مساهمة . فلبى الدعوة طلاب المعهد العلمي وأساتذته بالرياض ، وبعض الأمراء والتجار . ولا تزال مطابع الرياض إلى اليوم شركة مساهمة ويملك حمد الجاسر النصيب الطيب من أسهمها . ولقد طبع في هذه المطابع – أول الأمر – « مجلة اليمامة » التي سميت بعد عدة أعداد بـ « اليمامة » وكانت قبل إنشاء هذه المطابع تطبع أعدادها بمصر ثم طبعتها بمكة ، ثم بلبنان . (من حديث شفوي مع الشيخ حمد الجاسر في بيروت بتاريخ ٢٥/٨/ ١٩٦٩ م) .

دار النشر السعودية الي تاسست بجدة نقلت مقرها إلى بيروت لهذا السبب .

ساعدت المطبعة السعودية على نشر الإنتاج الوطني ، وإذاعة الثقافة ، ونهضة البلاد . ولئن كانت المطابع تشكو قلة اليد الماهرة والمؤهلة ، إن المدارس الفنية التي افتتحتها الدولة ، وتزايد عدد خريجيها سنة بعد سنة قد تسد النقص ، وتملأ الفراغ ، وتقوم بحمل العبء الفني الذي ينهض به الغرباء إلى اليوم . ولا بد أن يأتي اليوم الذي تضارع فيه المطبوعات السعودية إنتاج المطابع العربية الأخرى ما دامت الأموال الوفيرة المساعدة على التحسين والتقدم جاهزة ، وما دامت الرغبة في بلوغ المثل الأعلى متوافرة .

إن الحكومة ساهرة على ما تنجزه المطابع ، مراقبة لكل ما يتم فيها ، وقد سنت القوانين التي تنظم شؤونها وتكفل سيرها وتقدمها وتحرص في الوقت نفسه على أن تظل هذه المطابع ضمن الدائرة التي رسمتها لها ، لتضمن لأصحابها الربح ، ولنفسها الهدوء وراحة البال .

الباب الثالث

الفنون الشعرية التقليدية

في هذه البيئة السياسية ، والدينية ، وتحت تأثير هذه العوامل المختلفة من صحافة ، وإذاعة ، وتعليم ، وكتب ، ومكتبات ، ومطابع ، ولد الأدب السعودي الحديث ، ونما ، وترعرع ، ثم انطلق .

والبدايات الأولى التي سمعناها من أفواه شعراء نجد والحجاز ، والمناطق الأخرى لم تخرج في مضمونها عن المدح والرثاء ، والتهاني ، والغزل ، والهجاء، والوصف، والفخر، والحكمة . ولا شيء أكثر من هذه الألوان . وهي في أدائها الفني ، ومعانيها ، وأسلوب صياغتها ذات ارتباط وثيق بأدب العصرين المملوكيّ والعثماني ، ذلك الأدب الذي غلَب عليه السجع ، والجناس ، والطباق ، والمقابلة ، والتورية ، والتصريع ، والترصيع ، وما إلى ذلك من تزاويقَ لفظيةٍ ممّا يمجّها الذوق ؛ لما فيها من إفراط ؛ ولأنها غدت غايةً لا وسيلة .

وحين بدت تباشير المدرسة المدنية الحديثة في الحجاز أو في الأحساء كان التدريس فيها — كما رأينا — باللغة التركية . فكان من نتيجة ذلك أن خرّجت جيلاً يحذِق التركية أكثر ممّا يتقن لغة آبائه وأجداده . وهكذا فرضت عصور الضعف السياسي لغة الغرباء ، كما فرض الجهل الذي كان منتشراً في معظم المناطق ما يتناسب والجهالةَ والتأخر . وكان من جرّاء ذلك أن ازداد سقم العربية ، وبان عليها الهزال ، وتعطلت حياة الفكر . وظلّ الأدب في انكماشه وغفوته السادرة يعيش في نطاق ضيق على ألسنة بعض الشعراء والكتّاب والمفكرين ؛ وهم من القلة بمكان .

ولقد حرّكت دعوة محمد بن عبد الوهاب نجداً والجزيرة العربية كلها حركة فكرية قوية ، ودفعتها دفعة شديدة إلى أمام ، وحاولت بكل قدرتها أن تزيل ما علِق بها من جهل وتأخر . كذلك كان لثورة الشريف حسين التي دُعِيت بـ « الثورة العربية الكبرى » أثر قويّ في نهضة الأدب وتوجيهه نحو أهداف جديدة ، لم يكن له من قبل سابق معرفة بها .

ونستطيع أن نقول – مع شيء من الاطمئنان – : إن الأدب السعودي وُلِد في مطلع القرن الرابع عشر الهجري – أوائل العشرين الميلادي – . وقد تضافرت على دفعه إلى عالم الحياة والحركة عوامل كثيرة . فيها البعيد الذي يرتبط بدعوة ابن عبد الوهاب ، وفيها القريب الذي يتصل بثورة الحسين ، وفيها المباشر الذي يتصل بولادة المملكة العربية السعودية ، ووحدة معظم أجزاء شبه الجزيرة العربية وحدة سياسية ، وفيها ما يتعلق بالتطورات الاجتماعية والاقتصادية ، والسياسية ، والثقافية التي جَدّت في عهد المملكة الناشئة .

ولا نستطيع أن نقول : إن عاملاً واحداً معيّناً كان سبباً في ولادة الأدب السعودي ، وإن تاريخه يبدأ في يوم كذا ؛ لأن هذا التحديد إن صحّ في كثير من أمور الحياة فهو لا يصِحُّ في قضايا الفكر والأدب .

ولقد أثارت الدعوةُ النجدية ، ثم الثورة العربية في الحجاز النزعة الدينية ، فالقومية . وانضمّت آمال الأدباء السعوديين إلى آمال غير السعوديين من الأدباء على صعيد واحد ، وراحوا ينادون – جميعاً – بإنقاذ أرض العروبة من الدخلاء ، والظالمين ، والمستبدين . وربطت الصحافة بين هذه الآمال والنداءات . فسمع النجديون استغاثة المصريين ، وأصاخ السوريون لحُوّار الحجازيين ، وأصغى الأحسائيون لأصوات الشاميّين ، كما ربطت الصحافة الأحداث الداخلية في المملكة بأحداث العالم الفسيح ، فنقلت ما كان يدور في الدنيا – قدر استطاعتها – إلى المواطنين ، وأسمعت الناس – قدر

طاقتها – صوت بلادها .

وكان تأسيس المدارس العربية الصِّرْف ، على نطاق محدود في أول عهد النهضة ، ثم على نطاق أوسعَ فأوسعَ ، وفَرْضُ التعليم بلغة عدنان ، وعودةُ البعوث من البلاد العربية والغربية عاملاً قوياً في تحرُّك الفكر ، وثورة الأدب . يضاف إلى ذلك : أن انفتاح الحدود على التيارات الوافدة من الشرق والغرب بصورة مدرسين ، أو بزيّ فنيّين ، أو بشكل كتب مطبوعة ، أو بهيئة مطابع ومخترعات ومكتشفات ، أعان على السير بثبات إلى أمام ، ودفع إلى ترسيخ النهضة ، وإرساء جذورها ، وإعلاء شأن الأدب مضموناً وأسلوباً .

ليس غرضنا في هذه الدراسة الحديثَ عن القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المملكة إلاّ بالقدْر الذي يتصل ببحثنا . أما هدفنا الأساسي فهو دراسة الإنتاج الأدبي ذاته ، ومعرفة ما يتصل به من قريب أو بعيد .

وفي سبيل دراسة الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية ، جمعنا ما استطعنا من نتاج سعوديّ في مجالَيْ الشعر والنثر ، فكان بين أيدينا على الأشكال التالية : وجدنا أمامنا ما يقرب من مائة وستين شاعراً وشاعرة ، ومثل هذا العدد من الناثرين والناثرات . تَوَزَّعَ هذا الإنتاج في مواطنَ عدّة : منه ما صدر في الصحف الفردية أو في صحف المؤسسات دون أن يظهر في كتاب مستقل . ومنه ما كان على شكل أحاديث إذاعية أو « تلفزيونية » أو محاضرات ألقيت في نوادٍ سعودية أو في معاهد أو جامعات في قلب المملكة . ومنه ما طبع ضمن مجموعات خاصة بأدباء الحجاز أو أدباء نجد ، أو أدباء هَجَر وساحل الذهب الأسود . ومنه ما ظهر في كتب مستقلة على صورة دواوين شعرية ، أو مجموعات مقالية ، أو قصصية لكاتب معين . وقد بلغ عدد الدواوين التي وصلت إليها يدنا خمسين ديواناً تقريباً ، ومائة كتاب نثري لأدباء مختلفي المواطن والاتجاهات ، هذا عدا المؤلفات المطبوعة الخاصة

بموضوع واحد ، أو عدة موضوعات ، وقد بلغ عددها قريباً من مائة مولّف [1] .

ولدى استعراضنا ما تضمنته الدواوين الشعرية والصحف والمجموعات ، ظهر لنا : أنّ بعض الشعراء قَصَر شعرَه على فنّ واحد كالمديح ، أو الغزل ، أو القضايا الاجتماعية ، أو السياسية . وأن بعضاً آخر جمع إلى الموضوعات التقليدية موضوعات جديدة . وظهر لنا — كذلك — أن أساليب هؤلاء الشعراء متفاوتة تفاوتاً بيّناً . فمنهم من حَرَص على الأداء الفني التقليدي المتوارث ، ومنهم من لوّن أسلوبه بين الأداء التقليدي والأساليب الجديدة المستحدثة في البلاد العربية الأخرى . من الشعراء من كان رصين العبارة ، سليم الأداء ، قويّ التعبير ، ومنهم من كان ضعيف العبارة ، ليّن الأسلوب ، وشعره أقرب إلى النظم ، أو رصفِ الكلمات لتُكَوّن بيتاً من الشعر ، ينطبق على بحر عروضي معيّن ، دون أن يقترب من أسلوب الشعراء البلغاء المحلقين .

ودراسة هذا الشعر كان يمكن أن تتم باستعراض إنتاج كل شاعر على حِدَة ، فتفصّل في جوانبه المختلفة ، وتظهر الصورة الواضحة التامة لأدائه الفني ، واتجاهه الفكري . ولكنّ مثل هذه الدراسة تشتّت الهدف الأصيل لدراستنا ، وتُوزّعه بين أفراد كثيرين ، ويكون فيها شيء كثير من التكرار الناتج من تماثل شعراء متعددين في فِكَرِهم وأساليبهم .

وكان يمكن أن تقوم على فصْل شعراء كل منطقة على انفراد ، فتستعرض هُويّاتهم ، وتدرس موضوعاتهم التي اهتموا بها أكثر من غيرها ، وتوضح الألوان المختلفة لأدائهم الفني . ولكن مثل هذه الدراسة ينقصها الدقة ، لأن الأديب ليس ابن منطقته فحسب ، بل هو نتاج عوامل كثيرة ، ليست البيئة إلاّ أحد أركانها ؛ وأن هناك عدداً من الأدباء ولدوا في منطقة ودَرَسوا في

---

[1] استغنينا عن تفصيل أسماء الشعراء والمؤلفات هنا ؛ لأنها وردت في ثنايا الدراسة في مختلف الفصول تفصيلا ، كما أعدنا ذكرها في قائمة المصادر و المراجع في نهاية هذا الكتاب .

أخرى ، وعاشوا في غيرها ؛ وكل من هذه العوامل أثّرت في الأديب أثراً ما وتركت بَصَماتها على إنتاجه ، فهل نضعه بين أدباء المنطقة التي ولد فيها ، أو التي درس علومه فيها أو التي عاش عليها ؟

وكان يمكن أن تتم الدراسة وفق أداء الشعراء الفني ، فتجعل الذين اختاروا النظم حسب طريقة القدماء في صفّ ، والذين مزجوا الطريقة القديمة والحديثة في صف آخر ، والذين تفردوا في سَبك موضوعاتهم وفق الأساليب المستحدثة في البلاد الأخرى في صف ثالث ، دون أن تلتفت إلى المضمونات الشعرية التي حواها إنتاجهم . وبهذه الطريقة يكون أمام أعيننا اتجاهات الشعر السعوديّ واضحة ؛ فنعرف المقلدين ، كما نعرف المجددين . ولكن مثل هذه الدراسة يعترضها الخلل من حيث إهمال أمر المعاني — وهي شيء رئيسٌ في البحث — ويدفعها نظمُ عدد من الشعراء حسب الطريقة التقليدية تارة ، والأداء الجديد تارة أخرى .

أما الطريقة التي رأيناها أفضل من كل ما ذكرنا فتقوم على استعراض الفنون الأدبية المطروقة في الشعر السعودي . فهناك فنون تقليدية معروفة منذ قديم الزمان كالمدح ، والرثاء ، والغزل ، والوصف ، وغيرها ؛ تحدث فيها السعوديون كما تحدث فيها غير السعوديين ، وعرفها المعاصرون كما عرفها القدماء من الشعراء ؛ وهناك فنون أخرى مستحدثة اقتضتها ظروف العالم العربي ، وظروف المملكة العربية السعودية ؛ فيها القضايا الاجتماعية الداخلية ، وفيها القضايا السياسية الخارجية .

والحديث عن الفنون الشعرية يجعل دراستنا للأدب السعودي موضوعية وشاملة،ويوقفنا على الاتجاهات العامة والرئيسة لهذا الأدب،ويظهر الفرق جلياً واضحاً بين الأدب السعودي وغير السعودي، وبين إنتاج القدماء والمعاصرين .

وبُغْية الاستفادة من مُعْطَيات الطرق الدراسية المتعددة التي ذكرناها ،

حاولنا أن نشير في خلال البحث ، وفي ثناياه وحواشيه إلى الفوارق المختلفة بين الشعراء أنفسهم وبين تأثيرات مناطقهم الخاصة . وما يمكن أن تقدمه طريقة الدراسة وفق الأساليب قد يتحقق لو أفردنا له باباً مستقلاً ينتظم فيه سائر الشعراء ، ويظهر من خلاله ميزة كل منهم على وجه التفصيل . وكذلك فعلنا .

لهذا ، فقد قسمنا دراستنا للشعر السعودي ثلاثة أقسام : الأول ، أفرد لدراسة الفنون التقليدية . والثاني ، للفنون التجديدية . والأخير ، للأداء الفني عند شعراء المملكة .

بقي أن نقول : إننا اقتصرنا في دراسة القسم الأول – وهو الفنون التقليدية – على فنون ثلاثة ، هي : الغزل ، والمدح ، والرثاء . وأعرضنا عن متابعة دراسة الفنون الباقية كالوصف ، والهجاء ، والحكمة ، والحماسة ، والإخوانيات ، وما أشبه ذلك ؛ اعتقاداً منا بأن دراسة عدد من هذه الفنون التقليدية فيه غَناء عن الباقي ؛ فحديث المعاصرين في الغزل والمدح والرثاء لم يختلف عن حديث الأقدمين ، وما قاله أبناء القرن العشرين في وصف المحبوبة – مثلاً – صورة تكاد تكون شبيهة بما قاله أبناء القرن الخامس ، أو السابع ، أو العاشر ، أو الخامس عشر . وما مَدَحَ به الأسلاف تكرر هو ذاته في شعر المعاصرين . وطبيعي أننا بعد هذا يمكننا أن نقول : إن مضمون الفنون التقليدية الأخرى التي لم ندرسها يتشابه إلى حد بعيد ومضمون الفنون التي تماثلها عند الأقدمين . ولا ريب في أن الحديث عنها سوف يكون تكراراً أو اجتراراً لآلاف الأبحاث والدراسات التي صدرت في شتى أرجاء العالم العربي وغير العربي لهذه الأغراض. وإذا كان هناك اختلاف بين القدماء والمعاصرين ، وبين السعوديين وغير السعوديين ؛ فهو : في الأداء الفني . وهذا ما لم نُفَرّط به ، أو نقصّر في استقصاء جوانبه المختلفة .

وها هي ذي صورة بعض الفنون التقليدية في الشعر السعودي .

الفصل الأوّل

فنّ الغزل

يشغل الغزل من الشعر السعودي المعاصر مكاناً واسعاً ، حتى ليكاد يكوّن شطر الإنتاج المنظوم . وما أشبه هذه الثروة الشعرية بالقطعة الذهبية ذات الوجهين : نقش الشعراء على صفحتها الأولى عواطفهم التي ابتعثها فيهم الحب ، وما يؤدي إليه من وصل أو هجر ، ومن سعادة أو شقاء ، ومن لذة أو غصة ، وصوروا هذه العواطف ، وسكبوا في تصويرها ملكاتهم ومواهبهم . أما الصفحة الثانية فقد جمعوا عليها كل أغراضهم الأخرى ، ونثروا في أطرافها كل الفنون والأغراض الثانية ، كائنة ما كانت هذه الفنون والأغراض .

ودراسة الغزل السعودي المعاصر توجب الإحاطة التامة بكل ما قاله شعراء البادية والحاضرة ، والإلمام بما نظمه القدماء في هذا الغرض ، وما صاغه المحدثون في الأقطار العربية أو في المهجر ، كما تفرض الكشف عن البيئة الخاصة التي يتقلّب فيها الغَزِلون من السعوديين ؛ وحينئذ يمكن ردّ الفروع إلى الأصول ، وبيان أثر السلف في الخلف ، وعلاقة هذا الفن بمثيله في الأقطار الأخرى . بعد هذا قد يصل الدارس إلى حكم عام عادل ، أو قريب من العدل ، على هذا الغزل .

وتعترضنا عدة صعوبات في تنفيذ مخططنا . أولاها : في أدب البادية المسمّى بـ « الشعر النبَطي »[1] في قلب الجزيرة العربية . فلغته وقوالبه تَلْتَوِيان

---

1 لتفسير هذه التسمية ، وأخذ فكرة عن هذا الشعر ، انظر في كتاب عبد الله بن خميس المسمى « الأدب الشعبي في جزيرة العرب » وفي الباب السابع من هذا الكتاب .

دارساً مثلي ، غريباً عن أرض الجزيرة عن هدفه ، وتقفان حائلاً دون فهمه أو تذوّقه . والدراسة الحقة لا تكون إلاّ بعد الفهم والتذوق . وهذا الشعر – كما نتصور – يشكل ثروة كبيرة من حيث كميتُه ، وما يتضمن من فِكَر . ونضطر – مكرَهين – إلى طرحه جانباً . وثانيتها : أن إعادة القول فيما نظمه القدماء يجعل الحديث مكروراً ؛ فلقد انكب المئات من العلماء والأدباء في القديم والحديث على دراسة فن الغزل ، حتى لنكاد نقع في معظم الكتب الأدبية القديمة ، وكثير من الدراسات المعاصرة على تحليل هذا اللون والخوض في موضوعه . والصعوبة الثالثة : استعراض الغزل العربي المعاصر ، فهو في جملته بحر زاخر ، يعجز المرء عن الإحاطة به واستقصائه . وهو ينشعب في تيارات ، ويتباين بتباين قائليه ، وظروفهم المختلفة .

ومهما تكن هذه الصعوبات عائقة عن بلوغ الهدف الأمثل ، فإنا سنحاول – قَدْر الطاقة – أن نستعرض هذا الغزل ، ونقرنه بما يماثله عند القدماء أو المحدثين ، عبر الأعصر المختلفة ، ونربط هذا النتاج بالبيئة الخاصة التي يتنفس فيها ؛ آملين الوصول إلى حكم عادل – أو قريب من العادل – .

وقبل الخوض في حديث الغزل ، لا بد من القول : إن هذا الشعر ينحصر في المرأة وحدها . وليس بين الغَزِلين السعوديين – ممّن أمكن النظر في دواوينهم – من تغزل بالمذكر . وإذا كانت هناك بعض القصائد، نَمّ ظاهرها على ذلك ، فواقعها على خلافه ، جرياً على عادة العرب في هذا الخصوص ، كما أنه لا مندوحة عن التذكير ببعض ما مرّ في ثنايا الفصول السابقة عن وضع المرأة في المملكة ، والنظرة إليها . فلقد رأينا – في فصل التعليم – أن تلميذات المدارس مفروض عليهن الحجاب الكامل . ونضيف هنا أن المرأة السعودية محتجبة عن أعين الناس ، في منزلها ، وفي غيره – إلاّ عمّن أحلّ الشرع – . وحجابها كثيف في الحاضرة ، رقيق في البادية أو معدوم . وهي في الغالب

بعيدة عن عالم الرجال ، فلا تختلط بهم في المنازل أو في المكاتب والدوائر والمؤسسات . واختلاط الجنسين بين أسر الأصدقاء قليل، إن لم نقل : إنه نادر . بَيْدَ أن كلمة « كرمك الله » التي كانت تقال حين تذكر المرأة ، وتوحي بالاحتقار والامتهان ، زالت – تقريباً – من الأفواه . وأخيراً فإنه لا يغرب عن البال أن هذا الغزل مولود في بيئة إسلامية ، تطبّق الشرع قولاً وفعلاً ، « والمُطاوِعَة » – رجال الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر – ساهرون بأمر الدولة على حراسة حدود الشريعة ، وعيونُهم مفتوحة على الشاردة والواردة.

في ظلال هذه المقدمة ، يمكننا تفسير عدد من المواقف ، والحكم على كثير من العواطف والانفعالات ، والقول في واقعيتها أو تخيّلها .

الشعراء في الجزيرة العربية ثلاثة أقسام : فريق يُعْرِض عن النظم في فن الغزل ويأبى أن يُنقل على لسانه قصيد فيه ؛ اعتقاداً منه أن ذلك يهبط بمقام الرجال ، أو لأن مركزه في المجتمع يفرض عليه أن يكون جاداً ؛ والغزل سمة الشباب ، وصاحبه تملكه العاطفة لا العقل ؛ أو لأن أفراد هذا الفريق في واقع حياتهم ، لم يحبوا حباً قوياً يكفي لتفجير الشعر الغزلي في قلوبهم وانطلاقه على ألسنتهم ، أو ربما كانت لهم فيه قصائد يحتفظون بها لأنفسهم ، أو لمن يحبون ، دون الناس جميعاً . من هذه الفئة الشيخ عبد الله بن خميس .

الفريق الثاني وقف كل فنه على الغزل ،ولم ينظم في المواضيع الأخرى شيئاً ، أو هي من الندرة كأنْ لا وجود لها . ومن هذا الفريق الأمير عبد الله الفيصل [1] ،

---

١ ولد بمدينة الرياض . تولى تربيته في طفولته جده الملك عبد العزيز ، ثم جاء به والده الملك فيصل إلى الحجاز ، حيث كان نائباً لوالده فيه . درس في الحجاز ، وتولى نيابة « نيابة » والده ، ووزارتي الصحة والداخلية ، واستقال منها عام ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٨م ، واتجه إلى الأعمال التجارية . له ديوان « وحي الحرمان » طبع بالقاهرة سنة ١٩٥٩ م ، وله ديوان آخر لما يطبع ، وكثيراً ما ينشر قصائده الجديدة في صحف المملكة الداخلية وفي الصحف اللبنانية وغيرها . (المنهل ٢٧/٧٠٩) .

وغادة الصحراء[1] .

أما الفريق الثالث وهو يشكّل الغالبية الكبرى فالغزل جزء من شعره . وتختلف كميته عند كل شاعر . فهناك من غلب على فنه التعبير عنه كالقُرشي[2] والزَّمَخْشَري[3] . ومنهم من غلبت الموضوعـــات الأخرى عليه ،

---

١ غادة الصحراء : اسم رمزي لفتاة يبدو أنها من الأسر الرفيعة . أصدرت في بيروت ديوانين « شميم العرار » و « عيناك » ، طبعا في بيروت ١٩٦٤ ؛ شعرها يتسم بالعنف والرقة معاً . ولقد راجت أقاويل في صحة نسبة الديوانين إليها . فإذا صح أنهما لها ؛ فلا شك أن الفتاة تملك الموهبة الشعرية الفياضة ، وأن تاريخ الأدب سيذكر أنها من شوامخ الغزلين في العصر الحديث .

٢ حسن عبد الله القرشي : ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٤٤ هـ/١٩٢٥ م ، ودرس بمدرسة الفلاح بمكة والمعهد العلمي السعودي فيها ، وحصل على الإجازة في الآداب – قسم التاريخ – من جامعة الرياض . عمل في وظائف عدة ، منها في الإذاعة السعودية ، ومنها في وزارة المالية ؛ وفي هذه الوزارة كان يترقى من درجة إلى أخرى حتى صار يشغل في هذه الأيام : « مدير المكتب الخاص لوزير المالية « برتبة » مدير عام وزارة » له دواوين ومؤلفات . أما دواوينه فهي « البسمات الملونة » ، و « مواكب الذكريات » ، و « الأمس الضائع » ، و « سوزان » ، و « ألحان منتحرة » ، و « نداء الدماء » و « النغم الأزرق » ، و « بحيرة العطش » ، و « لن يضيع الغد » . وله مؤلفات نثرية أخرى منها « فارس بني عبس » ، و « أنات الساقية » ، وهي مجموعة أقاصيص قصيرة ، و « شوك وورد » ، و « أنا والناس » . وله دواوين ومؤلفات قيد الطبع والصدور . طاف في أكثر بقاع العالم ، وشهد كثيراً من المؤتمرات الأدبية العربية ، وكان ممثلا المملكة فيها (مقتبسة من منشور مطبوع على الآلة الكاتبة كتبه القرشي وقدمه لكاتب هذه السطور شخصياً في ربيع عام ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م في مكتبه بالرياض) .

٣ سلفت ترجمته في فصل الصحافة ونضيف هنا أن من دواوينه المطبوعة : « على الضفاف » ، و « ألحان مغترب » ، و « أنفاس الربيع » ، و « أغاريد في الصحراء » ، و « أحلام الربيع » و « همسات » ، و « عودة الغريب » . وهو يعد للطبع ثلاثة دواوين جديدة ، هي : « الأفق الأخضر » و « إليها » و « أغاريد المذياع » . وقد أسهم في الشعر الغنائي الدارج للإذاعات =

كالعَوّاد[1] والآشي[2] ، وحسين عرب[3] ، ومحمد حسن فقي[4] ،

= العربية بأكثر من مائة أغنية ونشيد . درس شعره في كثير من الجامعات العربية كجامعة القاهرة ، وجامعة السودان ، ومعاهد اليونسكو . وكان من جملة الدارسين الدكتور عبد الرحمن الأنصاري الذي أعد عن الشاعر رسالة الماجستير في جامعة القاهرة وعنوانها « ظاهرة الهروب في شعر طاهر الزمخشري » وطبعت بجدة سنة ١٩٦٠ م . وترجم شعره إلى عدد من لغات العالم (المنهل ٢٧/٨١٥) .

١ سلفت ترجمته في فصل الصحافة . ونضيف هنا : أن من دواوينه : « آماس وأطلاس » ، و « البراعم » و « رؤى أبولون » ، و « في الأفق الملتهب » . ومن مؤلفاته النثرية : « تأملات في الأدب والحياة » ، و « خواطر مصرحة » في جزئين ، و « نحو كيان جديد » ، و « محرر العبيد » ، و « من وحي الحياة العامة » . مثل الشاعر بلاده في عدد من المؤتمرات الأدبية العربية . (المنهل ٢٧/٧١٩) .

٢ سلفت ترجمته في فصل الصحافة . وقد نشر شعره في الصحف السعودية ، وأورد له جامعا كتاب « وحي الصحراء » كمية وافرة من شعره .

٣ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٣٨ هـ/١٩١٩ م ، وتعلم فيها ، وتخرج من المعهد العلمي السعودي ، وعمل محرراً بجريدة « صوت الحجاز » ، ثم مديراً لمكتب إدارة السيارات العامة ، ومنها انتقل إلى ديوان نائب جلالة الملك ، ثم إلى وزارة الداخلية متدرجاً إلى وظيفة « مدير عام الوزارة » حيث استقال منها في رجب سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠ م ، ثم عين وزيراً لوزارة الحج والأوقاف سنة ١٣٨١هـ/١٩٦١ م ، واستقال منها سنة ١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ م لأسباب صحية ، نشر شعره في جريدة « صوت الحجاز » ، والصحف السعودية المختلفة . جمع له مؤلفا « وحي الصحراء » كمية وفيرة من شعره في كتابهما . (المصدر السابق ٢٧/٧٤٠).

٤ سلفت ترجمته في فصل الصحافة . ونضيف هنا : أن إنتاج هذا الشاعر غزير متدفق كأنه يغرف من بحر . لكنه لم يطبع منه سوى ديوان واحد ، عنوانه « قدر . . . ورجل » . وقد زرت الشاعر في منزله بجدة ، فأطلعني على ستة دواوين مطبوعة على الآلة الكاتبة يعتزم إصدارها ، كما أطلعني على عدة دراسات نثرية مطبوعة على الآلة الكاتبة جاهزة للطباعة . والشاعر ينشر في كل صباح رباعية أو قصيدة في إحدى صحف المملكة ، وخاصة في جريدتي « المدينة المنورة » و « البلاد » ، وأحياناً في « الندوة » .

وحمزة شُحاته[1] ، وأحمد السباعي[2] ، وخـــالد الفرَج[3] ، ومحمد عـــلي السّنوسي[4] ، ومحمد سعيـــد دفتّردار[5] وحسين سِراج[6] ،

١ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م . ونشأ بجدة ، ودخل بها مدرسة الفلاح وتخرج منها . سافر إلى الهند موظفاً ببيت « زينل » التجاري ، وأقام عدة سنوات ، ثم صار سكرتيراً للمجلس التجاري بجدة ، ثم مديراً لإدارة سيارات الحكومة والنقليات العامة ، ثم رقي إلى وظيفة مساعد لرئيس ديوان المحاسبات العمومية بوزارة المالية السعودية ، ثم عاد إلى الأعمال الحرة ، وأخيراً حلت به نكبة فهجر بلده ، واستوطن مصر ولا يزال فيها . يعد من فحول شعراء المملكة ، ويشبهونه بالبحتري ديباجة ، والمتنبي جزالة . وشعره منشور في معظم الصحف الفردية ، ولكنه لم يجمع في ديوان مستقل . أورد له الساسي في « شعراء الحجاز المعاصرون » عدداً من القصائد ، كما أورد له « وحي الصحراء » قصائد أخرى . (المنهل ٧٥٤/٢٧) .

٢ سلفت ترجمته في فصل الصحافة . ونذكر أن من مؤلفاته « تاريخ مكة » في جزئين ، و « دعونا . . . نمش » ، و« يوميات مجنون » ، وقصة اسمها « فكرة » . والسباعي شاعر ، نشر إنتاجه في الصحف السعودية الفردية ، ولم يجمعها في ديوان مستقل . ولا يزال إلى اليوم ينشر بين الحين والحين بعض القصائد والدراسات الأدبية والنقدية في صحف المملكة .

٣ ولد بالكويت سنة ١٣١٦ هـ/١٨٩٨ م ، وتوفي سنة ١٣٧٤ هـ/١٩٥٤ م . تلقى دروسه الأولية في الكويت ، وطاف في منطقة الخليج ، وزار بمباي ، واستقر في المنطقة الشرقية من المملكة ، وتزعم الحركة الأدبية ، ويعتبر من رواد التجديد فيها . من كتبه « علاج الأمية » و « ديوان أحسن القصص أو سيرة جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها » . ومن مخطوطاته : « الخبر والعيان » و « رجال الخليج » وديوان شعر اسمه « ديوان النبط » . (المصدر السابق ٧٨٩/٢٧) .

٤ ولد بجيزان سنة ١٣٤٢ هـ/١٩٢٣ م . عمل في الجمارك ثم أصبح مديرها ، وولي رئاسة بلدية جيزان . ديواناه : « القلائد » ، و « الأغاريد » (المصدر السابق ٧٩٠/٢٧) .

٥ ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٢ هـ/١٩٠٤ م . درس فيها وفي دمشق ، وبيروت ، والأزهر ، وعاد إلى المدينة ، وعمل في المعارف . أسس في بلده ما يزيد على ثلاثين مدرسة . من كتبه : « تاريخ الأدب والبلاغة » ، و « قصة الأفندي » . ينشر قصائده في الصحف السعودية . ولم يجمعها إلى اليوم في ديوان مع أنها تشكل ديواناً كبيراً . (المصدر السابق ٩٥٥/٢٧) .

٦ ولد بالطائف سنة ١٣٣١ هـ/١٩١٢ م، وتلقى علومه الابتدائية في مدرسة الفلاح بمكة،=

وحسين زيدان[1] ، وحسين سَرْحان[2] ، وضياء الدين رجَب[3] ، ومُقْبِل العيسى[4] ، وعلي زين العابدين[5] ، وعبد العزيز الرفاعي[6] ،

= ثم رحل إلى شرقي الأردن ، حيث أتم فيه علومه الثانوية ، ثم التحق بالجامعة الأمريكية ببيروت وحمل شهادتها . عمل في عدة وظائف ، منها : وكالة وزارة الخارجية الأردنية ، ورئاسة الديوان الملكي الهاشمي أيام الملك عبد الله بن الحسين ، وسفير الأردن في مصر ؛ ثم صار مديراً عاماً لرابطة العالم الإسلامي ، ولا يزال بها . من مؤلفاته : رواية « غرام ولادة » وهي رواية شعرية ، و « جميل بثينة » ، و « الظالم نفسه » . (المصدر السابق ٢٧/٧٩٦) .

١ ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م . وتعلم فيها ، ونال شهادة « المدرسة الراقية » . ساير الأدب والصحافة منذ نشأتها ، وعمل مدرساً ورئيساً لكتاب « رئاسة مشايخ الجاوى بمكة » ، وموظفاً في وزارة المالية ، ثم تقاعد . من مؤلفاته : « سيرة بطل » . معظم شعره منشور في الصحف الفردية ، وصحف المؤسسات . ولم يجمع في ديوان مستقل إلى اليوم . (المصدر السابق ٢٧/٨٣٥) .

٢ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٣٤ هـ/١٩١٥ م . تلقى دروسه بمدرسة الفلاح بمكة ، وتركها عام ١٣٤٩ هـ/١٩٣٠ م . واشتغل بالأدب . وهو يعمل الآن رئيساً للتحرير بمطبعة الحكومة في مكة المكرمة . له ديوان « أجنحة بلا ريش » (المصدر السابق ٢٧/٨٣٥) .

٣ سلفت ترجمته في فصل الصحافة . ونضيف هنا أن شعره موزع في مختلف الصحف السعودية ، ولم يجمع إلى اليوم في ديوان . ويمتاز هذا الشاعر بديباجة ندر نظيرها في الشعر العربي المعاصر .

٤ ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٤٩ هـ/١٩٣٠ م . دخل المدرسة الابتدائية الحكومية بالطائف ، ثم مدرسة « تحضير البعثات » ، والتحق بجامعة القاهرة ، وتخرج من « كلية الحقوق » فيها . عين في وزارة الخارجية ، وعمل في سفارات بلاده في بيروت ، وبرن ، والكويت . له ديوان مخطوط . تنشر له الصحف والمجلات السعودية بين الحين والحين قصيدة (المصدر السابق ٢٧/٨٩٢) .

٥ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٤٣ هـ/١٩٢٤ م ، ودرس فيها ، ثم أوفد إلى مصر ، والتحق بالكلية الحربية ، وتخصص في سلاح الفرسان « الدبابات والمدرعات » ، ثم أرسل إلى أمريكا . تقلب في مناصب عسكرية عدة ، منها : « إدارة الكلية الحربية » و « إدارة الصحة العسكرية » ، و « رئاسة هيئة العمليات الحربية » ، و « عضوية القيادة العربية المشتركة » ، وأصبح ملحقاً عسكرياً في باريس ، وقائد منطقة مكة العسكرية ، ثم أحيل إلى التقاعد بعد أن بلغ مرتبة « لواء » . له ديوانا شعر : « تغريد » و « صليل » ويعد هذا الشاعر الأول في شعر الحنين إلى الوطن ، ولا يزال إلى اليوم ينشر قصائده في الصحف المحلية . (المصدر السابق ٢٧/٨٧٠) .

٦ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٤٢ هـ/١٩٢٣ م. وبها درس . تقلب في وظائف مختلفة، آخرها =

ومحمد الفهد العيسى [1] ، وعبد الغني قستي [2] . وهاشم رشيد [3] ، وناصر بو حيمد [4] ، ومحمد إسماعيل الجوهري [5] ، وماجـد الحُسَيْني [6] ،

= في رئاسة مجلس الوزراء ، وشعره موزع بين الصحف الفردية والمؤسسات في قلب المملكة ، ويعد الرفاعي من فحول شعراء المملكة ، ولولا زهده في نشر شعره لاحتل مكانة أرفع ، ولطار صيته أبعد . ويعقد أسبوعياً في منزله بالرياض ندوة أدبية تضم عدداً من المثقفين والشعراء فيتناقشون في قضايا أدبية أو يقصرون ندوتهم على التغني بالشعر .

١ ولد بعنيزة سنة ١٣٤٣ هـ/١٩٢٤ م ، وتلقى دروسه الابتدائية في المدينة المنورة ، ثم دخل عالم الوظائف ، ووصل إلى وظيفة «وكيل وزارة العمل للشئون الاجتماعية» . وأصبح مستشاراً بوزارة الخارجية . له ديوانا شعر : «على مشارف الطريق» ، و «ليديا» . ويغلب على شعره طابع الحزن والتشاؤم ، ويعد من كبار الشعراء العاطفيين في المملكة . (المصدر السابق ٨٦٨/٢٧) .

٢ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٤٦ هـ/١٩٢٧ م ، ودرس في «المدرسة الصولتية» بها ، وتوظف حيناً ، ثم انتقل إلى العمل في جريدة «البلاد السعودية» ، وظل فيها حتى أصبحت مؤسسة صحفية ، فأصبح مدير تحريرها . أول دواوينه «أحزان قلب» . (المصدر السابق ٨٧١/٢٧).

٣ ولد بالمدينة سنة ١٣٤٩ هـ/١٩٣٠ م . وينتسب إلى أسرة «الغزي» السورية . درس بالمدينة على يد أبيه ، ومشايخ المدينة . وفي مدرسة العلوم الشرعية ، وكلية الصحافة المصرية . عمل في وظائف عدة : في اللاسلكي ، وإدارة التعليم ، وإدارة المطبوعات والإذاعة ، وتحرير الصحف . له ديوان مطبوع اسمه «وراء السراب» وعدد من الدواوين المخطوطة ، والكتب النقدية . (المصدر السابق ٨٨٨/٢٧) .

٤ ولد بمنفوحة – القرية التي أصبحت جزءاً من مدينة الرياض اليوم ، والتي عاش فيها الأعشى في الجاهلية – درس بالبحرين ، ثم التحق بالمعهد السعودي بمكة المكرمة ، وزاول التجارة مع والده في المنطقة الشرقية ، ثم سافر إلى ألمانيا ، فتعلم لغتها ، وعاد إلى الرياض ليعمل في التجارة . شعره مزيج من التأثرات العربية والغربية ، واسم ديوانه «قلق» (عبد الله بن إدريس : شعراء نجد المعاصرون ص ١٠٠) .

٥ ولد بمكة . ودرس بها حتى نال الإجازة في الأدب العربي من كلية التربية بمكة . له ديوان مطبوع اسمه «النغم الظامىء» (مقدمة ديوانه ص ٣) .

٦ ولد بالمدينة المنورة . وتلقى دراسته العلمية كلها بمدرسة العلوم الشرعية ، وتخرج من قسمها العالي ، وحاز شهادته . له ديوان شعر «حيرة» (المنهل ٩٥٨/٢٧) .

وأحمد إبراهيم الغزّاوي[1] ، وأحمد عبد الغفور العطار [2] ، وسعد البَواردي ، وصالح الأحمد العُثَيْمين[3] ، وعبد السلام هاشم حافظ [4] ، وأحمد قنديل [5] ، وغيرهم .

---

١ سلفت ترجمته في فصل الصحافة . ونضيف هنا ، أن الغزاوي يعتبر شاعر المملكة الرسمي ، ويلقي في معظم المناسبات الرسمية قصائده . والذي يحز في النفس أن هذا الشاعر بالرغم من فحولة شعره ، وغزارة إنتاجه ، وسعة اطلاعه لم يجمع إنتاجه في ديوان مستقل ، ولا يزال مبعثراً بين الصحف الفردية والجماعية ، ومجلة المنهل وغيرها أو في بطون دفاتره الخاصة .

٢ سلفت ترجمته في فصل الصحافة . ونضيف هنا ، أن العطار أفرد ديواناً كاملا للغزل ، أسماه « الهوى والشباب » . ويبدو أنه عزف عن قول الشعر أخيراً ، والتفت إلى البحوث العلمية ، والدراسات ، والتحقيقات .

٣ ولد وتربى في « عنيزة » ، وفيها تلقى دروسه الابتدائية ، وعين مدرساً في المدرسة السعودية الابتدائية ، ولا يزال مدرساً . له ديوان شعر مطبوع اسمه « شعاع الأمل » . (شعراء نجد المعاصرون ص ١٨٠) .

٤ ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣١٧ هـ/١٩٢٨ م ، ودرس في مدارسها الرسمية وفي المسجد النبوي الشريف . عمل في بعض وظائف الدولة ، ثم تركها ليعمل في التأليف والتجارة . من دواوينه المطبوعة « مذبح الأشواق » ، و « صواريخ ضد الظلم والاستعمار » ، و « الفجر الراقص » و « أضواء ونغم » ، و « راهب الفكر » . وله كتب نثرية في القصة والمقالة منها « قصة العذراء السجينة » ، و « سمراء الحجازية » ، و « حواء عارية » ، و « فاطمة وقصص أخرى » ، و « قلوب كليمة » ، و « ثورة الجزيرة – أو آل سعود والعصر الذهبي » . ويعتبر هذا الأديب من أنشط الأدباء وأكثرهم إنتاجاً . (المنهل – ٩٣٠/٢٧) .

٥ ولد بجدة سنة ١٣٢٩ هـ/١٩١١ م ، ودرس في مدرسة الفلاح ، وعين فيها أستاذاً عند تخرجه منها . رأس تحرير جريدة « صوت الحجاز » ، ثم تقلب في عدة مناصب بوزارة المالية ، آخرها منصب « مدير الحج العام » ، ثم تقاعد ، واشتغل بالأعمال الحرة . له دواوين ومؤلفات . من دواوينه المطبوعة « أغاريد » و « أصداء » و « أبراج » و « نار » وهي في اللغة الفصيحة و « المركاز » وهو في اللغة الشعبية وجاء في جزئين . ومن مؤلفاته النثرية « كما رأيتها » وهو يوميات عن زيارته لمصر . ولا يزال الشاعر ينشر في الجرائد السعودية قصائده . (المنهل ٧٥٦/٢٧) .

أما موقع الغزل في القصائد فيختلف باختلاف الشعراء . فيهم من جعله في مطالع قصائده . واتخذه وسيلة يمتطيها للوصول إلى غرضه ، كابن عُمَيّر [1] ، وعبد الله بن علي العبد القادر [2] ، وابن عُثَيْمين ، وابن مُشَرَّف . وفيهم من أفرد له قصائد مستقلة ، أو دواوين كاملة [3] .

وإذا استقصينا المناهل التي يستقي منها الغَزِلون المعاصرون فِكَرَهم وصورهم وأخيلتهم وجدناها متشعبة . فمنهم من يعكف على غزل العصر الجاهلي ، أو الإسلاميّ ، ويتخذه المثل الأعلى ، ويحذو حذوه موضوعاً وأسلوباً . ومنهم من يرى مَثَله في شعر البحتري في المشرق ، أو ابن زيدون في المغرب ، فيقتدي به ، وينهج نَهجه . ومنهم من ينظر إلى الغزل المعاصر في الأقطار

---

١ محمد سعيد بن عبد الله بن محمد الدولة آل عمير من قبيلة سبيع . ولد في قلعة الكوت من مدينة الأحساء سنة ١١١٠ هـ/١٦٩٨ م ، ودرس على يد أبيه ، وانحصرت ثقافته في علوم العربية والدين . عين قاضياً في الأحساء فانصبغ نتاجه الشعري صبغة فقهية علمية . ثم ترك القضاء وعمل في حقل التدريس . شعره يميل إلى النظم التعليمي ، ويكاد يكون خلواً من النبرة الموسيقية التي تميز شعر الفحول . (عبد الفتاح محمد حلو ، شعراء هجر ص ٤) .

٢ يلقبه علماء عصره بسحبان . ويعود نسبه إلى بني النجار من الخزرج في المدينة المنورة . هاجر أبوه « علي » من المدينة المنورة إلى الأحساء في صدر القرن العاشر الهجري مع جماعة من بني عمه . وولد له في بلدة المبرز من الأحساء « عبد الله » سنة ١٢٩٠ هـ/١٨٧٣ م . فأحفظه القرآن وعلمه علوم الدين والعربية ، وسمح له أن يعمل في التدريس والإقراء . خلف عبد الله والده في منصب القضاء في « المبرز » حتى مات ، ولم يترك عمله التدريسي أثناء توليه منصب القضاء بل جمع بينهما . يروى عنه أنه قليل حفظ الشعر مع كثرة اطلاعه عليه ، وكان يقول « إن إنشاء الشعر أهون علي من حفظه » . قصائده التي وجدناها تشف عن شاعرية فذة ، وأسلوب رائع ، وخيال واسع ، متعدد الصور والألوان . غلبت على موضوعاته الفنون التقليدية . (انظر ترجمته في : شعراء هجر ص ٢٠٨ وما بعدها ؛ وفي كتاب ابنه محمد بن عبد الله بن علي آل عبد القادر ، تاريخ الأحساء ٢/١١٢) .

٣ من الشعراء الذين ذكرناهم وأفردوا للغزل دواوين كاملة : القرشي ، والزمخشري ، والعطار . أما الباقون فالغزل يشكل قسماً من دواوينهم .

العربية المجاورة، فيقلده في المضمون وفي القالب. وإن منهم من يرى غايته في أدب عصور الانحدار، فهو يترسم خطى شعرائه، ويسير على منوالهم. المهم أن الغزل المعاصر تقليدي صرف، يتّبع سَنَن الآخرين، ولا يكاد يحيد عنه.

الصورة الجمالية للمرأة عند الأسلاف هي نفسها عند المعاصرين. فالزمان وتعاقب العصور، والآثار المختلفة التي جاءت بها الأيام لم تفعل شيئاً في هذه الصورة.

لقد كانت الحبيبة كما رسمها القدماء: بيضاء، غراء، فرعاء، نحرها مرآة صفاء ونقاء، وجيدها كجيد الغزال[1]، ومع بياض بَشَرتها فأسنانها بيض ناصعة مصقولة، بطيئة في مشيتها، دقيقة الخصر، عبلة الأرداف[2]، مدللة، مرفهة، نؤوم الضحى[3]، رقيقة الجلد، يفوح العطر من أعطافها[4].

---

١ من وصف امرىء القيس لفتاته قوله: (الديوان – تحقيق السندوبي – ص ٩٩)

مهفهفةٌ، بيضاءُ، غير مُفاضَةٍ ... تَرائبُها مصقولةٌ كالسّجَنْجَلِ

وجيدٍ كجيدِ الريم ليس بفاحشٍ ... إذا هي نَصَّتْه ولا بمُعَطَّلِ

وفرعٍ يَزينُ المَتْنَ أسودَ فاحمٍ ... أثيثٍ كقِنْوِ النخلة المُتَعَثْكِلِ

وكشحٍ لطيفٍ كالجديل مُخَصَّرٍ ... وساقٍ كأنبوب السّقِيّ المذَلَّلِ

٢ وقال الأعشى: (الديوان – تحقيق م. محمد حسين – ص ٥٥)

غَرّاءُ، فرعاءُ، مصقولٌ عوارضُها ... تمشي الهُوينا كما يمشي الوَجي الوَحِلُ

كأنّ مِشيتَها من بيت جارتِها ... مَرّ السحابةِ، لا ريثٌ ولا عَجَلُ

صُفْرُ الوِشاح، ومِلءُ الدِّرع بَهْكَنَةٌ ... إذا تأتّى يكادُ الخصرُ يَنْخَذِلُ

٣ وقال كثير عزة:

منَ الخَفِراتِ البيض ودَّ جليسُها ... إذا ما انقضت أُحدوثةٌ لو تُعيدُها

مُنَعَّمَةٌ لم تَلْقَ بُؤسَ معيشَةٍ ... هي الخُلْدُ في الدنيا لمن يَستفيدُها

٤ وقال جميل: (الديوان – تحقيق حسين نصار – ص ٧٦)

يكاد فضيضُ الماء يَخْدِشُ جِلْدَها ... إذا اغتسلت بالماء من رقّةِ الجِلْدِ =

وظلت حبيبة الشعراء إلى اليوم في حل وترحال ، تتخذ الإبل مطية ، والهوادج مجلساً ، والكِلّةَ ستاراً ، ولا تزال بدراً في وجهها ، دقيقة في خصرها ، ثقيلة في ردفها ، كأنه كثبان عالج [1] . صدرها ناهد عربيد ، ولون جسدها كالمرمر ، وساقها منحوتة تلمع وتبرق [2] ، والشعر ليل أسود ، كما أن الأسنان عِقد لآلىء [3] ، أما الرائحة فهي العطر والمسك . كلٌ هذا مستمدٌ

= وإني لمشتاقٌ إلى ريح جَيبها كما اشتاقَ إدريسٌ إلى جنة الخُلْد

١ يقول محمد بن عثيمين في فتاته : (الديوان ص ٢٣٥)

نظرتُ إلى الأظعان يومَ تحمّلوا فأشرقَني طَلٌ الدموع ووابلُه
مَضَوا ببدور في بروج أهلةٍ بِهِنّ حليمُ القلب يصبو وجاهله
وفيهنّ مِقلاقُ الوشاح إذا مشت تملّك حباتِ القلوب تمايلُه
يَلُوثُ على مثل الكثيب إزارُه وأعلاهُ بدرٌ قد تناهى تَكامُلُه

٢ ويقول عبد السلام هاشم حافظ : (المنهل ٢٧/٩٣١)

صدرُك الناهدُ عِرْبيدٌ بحانات الخيال
وبريقُ المرمر الشفّاف يَطغَى بالجمال
والشفاهُ الحمْرُ تُهدي خمرة الفن المثالي
يا صبا حُبّي ونجوى الحسن في صدر الليالي

* * *

يا ربيعَ الفتنةِ الحمراء ضمّي من ردائك
كلٌ ما فيكِ يُعَنّيني ، فأهفو لندائك
ساقُكِ المنحوتُ ، والنحْرُ المطلٌ من وشاحك
أو ذراعاك المليئان .. ورفّاتُ شفاهك

٣ يقول عبد الله الفيصل : (وحي الحرمان ص ٤٤)

كم أنتَ والله تُحْسَد باللحظ والروح والقَدّ
عيناكَ عينا مَهـــاة والشَّعرُ كالليل أسود =

من مَثَل القدماء الأعلى لهذه المحبوبة . الجديد في الصورة المعاصرة وصف الفتاة بـ « خفة الروح » – على حدّ تعبير أحدهم – ، وبعذوبة جَرْس صوتها[1] . ولا شيء أكثر من ذلك .

الأمر الثاني الذي جرى فيه المحدثون على نهج القدماء : استئثار الشاعر بالتعبير عن هواه فقط ، وعما يكابد من الحب ، وما يلقى من تباريحه . وهو يعبر دائماً عما يقع بنفسه عند لقائها ، أو عند وداعها ، أو عند تذكرها . كان جُلُّ حديثه عن معشوقته حديثَ المشتهي جسدَها ، الطامع إلى وصالها . وما كان يعنيه أن يلتفت إلى عواطفها ، أو يعبر عما يكويها ويحرقها ، بل ما كان ليدور على لسانه من أمرها ما هي عليه من عقل ، وما وراء جمالها من ذكاء ، وما بين حناياها من هَمّ وألم ، أو أمل ، أو مُثُل ، إنما هو مشغول دائماً بنفسه ، وهواه ، ورغباته ، وتطلعاته .

اتفق القدماء والمحدثون في هذه الناحية ، حتى لَيَصْعب التمييز بين الفريقين من ثنايا القريض . فالخَلَفُ صورة تكاد تنطبق كلَّ الانطباق على السلف . فشعراء اليوم هم العشاق ؛ لا ترقأ لهم دمعة . تُذْكَر أحبتهم فتهيج أشجان قلوبهم[2] .

= والثغرُ عِقْدُ لآلٍ يا ليتني فيه أُنْضَد

١ يقول محمد حسن فقي (الديوان ص ١٤٢) :

وخِفَّةُ روحٍ تستخِفُّ بسحرها عقولَ نَشاواها . . وتَذْهبُ بالحزن
ومزمارُ داودٍ كصوتي حلاوَةً فقد كان ذا جَرْس كمستعذَب اللحن

٢ يقول ابن عثيمين (الديوان – عج بي على الركب – ص ٣٨) :

قد كنت أحسَب أنّ الشمل ملتئم والحبلَ متصلٌ والحيَّ خُلطانُ
فاليومَ لا وصلَ أرجوه فيُطمِعُني ولا يُطيفُ بهذا القلب سُلوان
في ذمة الله جيرانٌ إذا ذُكِروا هاجت لذكرهمُ في القلب أشجان

تقتلهم ساعة الوداع [1] ، ويشوقهم الحنين إلى مغاني الحب ، ومرابع الأحلام . عواطفهم ملتهبة على الدوام ، قلوبهم متفطرة باستمرار ، عيونهم مُسَهّدة لا تنام ، بل شهوتهم عارمة في كل آن [2] .

عددٌ قليلٌ من المعاصرين لم يَعْكِف على ذاته وحدها ، بل التفت إلى حبيبته ، فنقل نجاواها ، ومناغاتها الحلوة ، وحديثها العذب ، وتساؤلها الرقيق عن ماضي الهوى ، وروائع الذكريات ، وسالف العاطفة ، بعد أن سحبت الأيام والليالي الطويلة أذيالها على القلبين الخافقين وَجْداً ، وفرقت بينهما عوادي الزمان [3] .

---

١ يصور « محمد الفهد العيسى » ساعة الوداع وشعوره فيها : (شعراء نجد المعاصرون ص ١١٦) :

. . . وقال لي الرفاق : ألا عزاء   فقلت : بلى ، بآلامي وبؤسي
بآهاتي . . بأشجاني . . بذُلّي   بتبريح الصبابة . . بالتأسّي
دعوني في تَعِلاّتي وَوَهْمي   دعوني بين أحلامي وهَجْسي

٢ طاهر الزمخشري يصف الحرقة والصبابة : (أغاريد في الصحراء – نفثة – ص ١٢٦) :

ويُلْهِب أشواقي الحنينُ لِوصلها   فتَسْكُبُ أنفاسي نشيداً مزاهري
وأوتارُها قلبٌ تفطَّرَ لوعةً   لِحُبٍّ تلظّت نارُه في سرائري
وما كنت أشكو جوًى في أضالعي   إلى أن أذاعت ما أعاني بوادري

٣ ضياء الدين رجب أحد هؤلاء . . يقول مصوراً حواراً بينه وبينها : (جريدة « البلاد » تاريخ ٢٤ محرم ١٣٨٧ هـ . القصيدة بعنوان « تقول ») :

. . . تقول : أما شاقتك مني بقيّةٌ   هي النفس كُلُّ النفس والقلبُ والحبُّ
هي العهدُ أبقى ما يلذُّ إذا انطوت   صبابته ، واستذكرَ النشوةَ الصبُّ
فآثار أقْدامِ الحياة على المدى   مساحبُ أذيالٍ يَبِين بها الدرب

* * *

فقلت لها : : يا ميُّ هل يَذْبُلُ الهوى   وهل تخصب الدنيا إذا عافها الجَدْب
وعُمْرُ الهوى فوق السنينَ وعَدِّها   وحَسْبُكِ رمزاً هذه الأنجمُ الشهب =

ومنهم من نقل – على لسانها – ثورتها العارمة على الشاعر ، حين أحست بنكرانه حبَّها وعواطفها ، فهو يعبر عن هذه المشاعر متلبساً انفعالاتها ، متخيلاً أحلامها وآلامها ، وآمالها الدفينة في حناياها[1] .

ورغم وجود هذه الفئة القليلة ، ورغم أنها خرجت عن مألوف الشعراء ؛ فإنها مقلدة ومتّبعة لا مبتدعة . ولقد تكلمت « فاطمة » في قصيدة امرئ القيس وأخبرته أنه عقر بعيرها وأنّ عليه أن ينزل . وكم نقل عمر بن أبي ربيعة في قصائده حوار النساء ، وكم صوّر – على لسانهن – مشاعرهن وأحاسيسهن !!

= فليست سِنيّ العمر غيرَ عواذلٍ   تنافسني . لكنّ قلبي هو القلب

* * *

فقالت : أنحن اليوم نحيا على مُنى   سوالفَ عاشت بين أعطافنا تحبو
أجَلْ . كلنا يا ميُّ . ذُبْنا ولم نزل   نقولُ بسرِّ الحب : يا ربُّ يا ربُّ

[1] محمد حسن فقي قال على لسان الفتاة التي أحبته وأنكر حبها (ديوان قدر ورجل – قصيدة « لست أنا الغادرة » – ص ٢١٩) :

ما كنتُ أعهَدُ منكَ نكراً بل كنتُ أعهدُ منك شكرا
كيفَ انطويتَ على المساءةِ ، واحتسَبْتَ الوصلَ هجرا
كانت أيادينا الحسانُ – وما تمنّ – عليك تتْرى
ومضت بنا الأيّامُ تنبضُ فرحَةً ، وتفوح عطرا
كمْ آهَةٍ لك عانَقَتْها آهَةٌ بحشايَ حَرّى
وتظلُّ تشكوني وتَحفِر للهوى في الصدر قبرا
ويَظَلّ قلبي في يديك تُبيحهُ ناباً وظفرا
قَدْ عشتُ راسفةً بقيدي [ما أريم] وعشتَ حرا
لَطَلَمْتَني وأدَرتَ ظهركَ لي وما استأهلتُ ظهرا

* * *

بردى ! أتذكره ؟ فليس ألذّ من ذكراه ذكرى

الأمر الثالث الذي ترسم فيه المحدثون خطى الأقدمين كثرة إطراء الشعراء أنفسهم ، والتمدح بمزاياهم ، وشدة شغف النسوة بهم . ولقد عهدنا الشاعر القديم يَدَّعي قدرتَه على اقتحام منازل حبيبته — وأهلها نيام — ، ودخوله عليها ، وهي في خبائها ، وقد يكون زوجها في الخباء راقداً ، كما رأيناه يختال تيهاً حين يذبح للعذارى مطيَّته [1] . وقرأنا في آثار عاشق آخر أن النساء يتعرّضن له ، ويرغبن في وصاله ، يخلطن الجد بالهزل ، وهو يتأبّى ويرفض [2].

= لو كان يَعْقِل كان سَطَّرَ حبَّنا سطراً فسطرا
عيناكَ تسحرُني وأنتَ تَذوبُ من عينَيَّ سحْرا
والخَمْرُ من شَفَتَيْك تسكرني وأنت تضيج سُكْرا

* * *

أنا ما أُدِلُّ عليكَ حُسْناً ، أو أتيه عليك فَخْرا
كلا .. وما أعلنتُ حبّك للورى خَتْلاً ومكْرا
خَفَقَ الفؤادُ فما أطقتُ ، وقد دهاني الحبُّ صبرا
إنْ كنتَ تَجْحَدُني الوفاء فقد أضعتَ عليَّ عمرا
أيْنَ المشاعِرُ من أولئكَ والنّهَى منهنّ طُرّا
قلبي .. وَدَعْ عَنْكَ الجمالَ .. أجلّ في الميزان قَدْرا

١ امرؤ القيس يقول في معلقته : (الديوان تحقيق السندوبي — ص ١٠٨)

سَمَوْتُ إليها بعدما نام أهلهــا سُمُوَّ حَبَاب الماء حالاً على حال
فقالت : سباك الله إنّك فاضحي ألستَ ترى السُّمّار والناسَ أحوالي
فقلت : يمينُ اللهِ أبْرحُ قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

وقوله : (الديوان ص ٩٥)

ويومُ عقرتُ للعذارى مطيّتي فيا عجباً من رَحْلها المتحمّل

٢ جميل بثينة يقول (الديوان تحقيق حسين نصار — ص ١٧٨) :

فَلَرُبَّ عارضةٍ علينا وصلَها بالجِدِّ تَخْلِطه بقول الهازل =

وكم صوَّر ابن أبي ربيعة شريفات القوم يخطبْنَ وُدَّه ، ويتقرَّبْن إليه ، ويحتلْنَ ضروب الحيل ليجتمعن به في يوم غابَ فيه عُذّالُه[1] . كل ذلك ورثه المعاصرون . ويبدو أن من أركان التعبير عن الصبابة أن يذكر الشاعر رأيَ الفتاة فيه ، ويتغنى في المزايا التي تحلّى بها حتى فضلته على سواه بحبها .

وقد تصل النرْجِسيّة[2] عند بعضهم إلى أن يهدد فتاته ألا تبطر بحسنها ، وتتيه دلالاً عليه ؛ فهناك الكثيرات مغرمات به ، يتمنين أن يشتعل رأسه شيباً كي ترغب النسوة عنه[3] . أو يطلب منها ألا تطرق مخدعه ، فقد سلاها قلبه وملتها جوارحه[4] . أو يضعها موضع الراكعة على قدميه ، المتوسلة إليه ،

= فأجبتُها في القولِ بعدَ تَستّرٍ حبي بثَيْنَةَ عن وصالِك شاغلي

١ عمر بن أبي ربيعة يقول (الديوان – شرح العناني – ص ٢٥١) :

قومي تصدّي لـه ليُبْصِرَنا ثمّ اغمزيهِ يا أختُ في خَفَرِ
قالت لها : قد غَمَزْتُه فأبى ثمّ اسبطرّتْ تمشي على أثري
قالت لها أختها الكبرى تعاتبها : لا تفسِدَنّ الطوافَ في عُمَرِ

٢ النرجسية : حالة الشخص المستغرق في حب ذاته والإعجاب بها . وهذا المعنى مأخوذ من أسطورة « نارسيوس » الفتى اليوناني الجميل الذي رفض أن يستجيب لحب آلهة المياه « إيكو » ، فعاقبته آلهة العدالة بإيقاعه في حب صورته المنعكسة على صفحة الماء ، وبعدما أغرق نفسه حولته الآلهة إلى زهرة النرجس .

٣ محمد حسن فقي يخاطب فتاته ويتيه عليها فيقول : (قدر ورجل « المركب الوعر » ص ٢٣٦) :

فلاتبَطَري بالحُسْن. يا رُبَّ غادةٍ تمنّتْ مشيبي بعد فوت شبابي
يسيلُ لعابُ التافهين على الهوى وَدُوداً . ولكنْ لا يسيلُ لعابي

يقول كذلك مطرياً جماله (ص ٢٥٧) :

رآها . وقد كان الحسانُ لواهفاً عليه . وقد كان الهوى عنده نَهبا
إذا لاح في درب تطلعْن نحوه وسِرْنَ – إذا ما سار – من خلفه ركبا

٤ حسن القرشي يسألها ألا تطرق مخدعه (ديوان الأمس الضائع ص ١٠٩) :

سألتك لا تطرقي مَخْدَعي فعقلي يناديك أن تَرجعي =

المتلهفة على وصاله ، الشاكية جفاءه وتحطيمه قلبها [1] . وقد يجعلها واقفة على شرفتها تنتظر مروره ؛ لتتملى من سحر عينيه، وروعة سمرته؛ فذلك يسكرها ، ويحملها إلى عوالمَ بعيدة [2] .

الأمر الرابع الذي التقى فيه المعاصرون والقدماء : لون الحب من حيث طهارةُ العلاقة ، أو عدم طهارتها بينهما ، أو تصنّع هذه الرابطة وافتعالها . فلقد وقفنا في الشعر القديم على غزل ماجن ، مادي ، وعلى غزل عفيف ، روحي ، وعلى لون آخر دعت إليه قوانين نظم القصيدة أو نهجها ليس غير ذلك . كذلك الشأن عند المعاصرين. ففيهم من وقف شعره على العفّة والبراءة ، ويكفيه في ساعة الوداع مصافحة اليد النبيلة لليد النبيلة ، أو يكفيه وقفة ملؤها الطهر والعفاف [3] . أو يدعو اللهَ العليّ القدير أن يرزقه الفتاة الكاعب الحسناء

= ويا من أطافح بركني دُجىً سألتُكِ لا تطرقي مخدعي

١ حسن القرشي يتكلم بلسان فتاته (النغم الأزرق « أنت الحياة » ص ٣٧) :

أنتَ يا مَنْ تركتَ قلبي رماداً إذا تلاشت من موقدي الجمَرات
أنتَ يا مَن جعلتَ حسّي جحيماً ثمّ غادرتَني وروحي فتات
أتراءاك في خيَالي وفِكْري كلّ حين فتسخر الذكريات
لِمَ حطّمْتني وخلّفت قلبي ثاكلاً لا تُثيرُه النّسَمات
كلّ شوقي مُجَسّمٌ فيك كل الـ حب أنت الغرام والخلجات

٢ ناصر بو حيمد يقول في هذا المعنى (شعراء نجد المعاصرون ص ١٠٥) :

تهمس بي وتضمر قائلةً يا أسْمَر
إنّ خطاك في الطريـ قِ طــائر ينقّر
يا عاشقي إنّي هنـــا في شرفـتي أنْتَظر
صَعّدْ إليّ طَرفكَ الـ ساجي لَعَلّي أسْكَر

٣ عبد الله الفيصل يسأل فتاته (ديوان وحي الحرمان « هل تذكرين » ص ٢٥) :

هلْ تذكرينَ وَدَاعيْنا مصافحةً أودعتِ فيها كريمَ الأصل يمناك =

التي تتصبى فؤاده ، كاملةَ العقل والدين والجمال ، ليقضي معها رحلة حياته بالحلال والرفاء والبنين ، وبها يبتعد عن الغرام المحرَّم ، والوصال الآثم[1] .

وفي الشعراء المعاصرين مَن صوَّر الوصال الجسدي أوضح تصوير ، وتحدث عن العلاقة المادية بينه وبين فتاته ببيان صريح ، ندرك منه بعده عن العذرية كل البعد . فهو ينعم بالخصر النحيل ، والطرف الكحيل ، ويقبل الثغر ، ويلمس ما في الصدر ، ويشد بيديه ظهرها إليه ليبذر فيها الشقاء[2] . . . وقد تدنو من وساده مترنحة فيطوّقها بالساعدين ، ويوسِّدها زنده ، ويحتضنها ويطبع على جيدها قبلتين ، فتطالبه بحق الوجنات ، ومجاري العطر فوق ترائبها[3] . ثم

= أو تذكرين بوادي « وَجٍّ » وقفتَنا   وقد أفاضت علينا الطُّهرَ عَينْاك
فإن نسيتِ وداداً كان يجمعنا   على العفاف فقلبي ليس ينساك

١ أحمد محمد جمال يدعو الله (ديوان الطلائع ص ٥٥) :

ربِّ إنّي أرجوكَ وحدَك إعثا   ري ، عليها ، فقد كَبَتْ أقدامي
ويكادُ الغرامُ يَطرُق قلْبي   وهو قلْب خصمٌ لكل حرام
إنّ خداً من زوجتي هو أروى   عِندَ تَقبيلِه لحرّ الهيــام

٢ محمد إسماعيل الجوهري يتحدث عن لسان فتاته (النغم الظامىء « لا . . الخائن أنت » ص ٨٣) :

هنا عند خصري النحيل   هنا عند طرفي الكحيل
نعِمْتَ بكلّ جميل   وكنْتَ نديمَ الهَناء

* * *

تقبِّل بالتيه ثَغْري   وتلمس بالوجْد صدري
تشُدُّ يديكَ بظَهْري   لِتَبْذُرَ فيَّ الشّقاء

٣ طاهر الزمخشري يصف وصاله (ألحان مغترب « صورة » ص ٥٣) :

فلمّا تدانتْ من وسادي ترنحَتْ   فطوّقْتُها خوفاً عليها بساعدَيْن
ووسدتُها زَنْدي فلما احتَضَنْتُها   طبعتُ على الجيدِ المنوَّرِ قُبلتَين =

تستزيده فيزيد . ومنهم من يذكر كيف سَرَت يمناه رفيقة فوق شعرها وهي تستلهم عينيها ، وخديها ، وثغرها ، ثمّ تلهّفتْ على نحرها ، ونهدها ، وصدرها[1] . كذلك صور أحدهم دخوله مخدع الأرملة التي مات عنها زوجها من عهد قريب ، فكانت أول الأمر تبكيه ، وتذكره بالخير كلما نظرت إلى صورته المعلقة على الجدار ؛ وما مرّ حين من زمن حتى ملّت بكاءها ، وطالبت الشاعر أن يسطع بواديها قمراً منيراً . فكان لها خيرَ مستجيب . واختفت صورة الراحل إلى الأبد[2] .

ويلفت نظرَ الدارس في غزل عدد من الشعراء السعوديين المعاصرين تقلّبُه بين العفة والمجون عند شاعر واحد . فهو تقي ورع في قصيدة ، لا تعدو علاقته

= فأغضت وقالت : كيفَ أهملتَ وجنةً وإنّ بها من ضاحك الروض وردتين
وإنّ مجاري العِطر فوقَ ترائبي على الصدر ناغت بالعبير حمامتين

١ ماجد الحسيني يصور هذه التجربة (ديوان حيرة « التجربة الأولى » ص ٩٥) :

.. وسرت يمنايَ رفقاً فوق شعرك
وهي تستلهم عينيك وخديك وثغرك
ثم تستتبع باللهفة والرغبة نحرك
ثم تهوي بين نهديك وتستتبع صدرك

٢ حسن القرشي يحكي هذه الحكاية (النغم الأزرق « صورة » ص ١٠٥) :

رأيت في مخدعها المعطّر
صورةَ زوج أشيب .. قد مات منذ أشهر
دموعها كالمطر .. عليه تذريها كفعل الصائد المغرّر

.. فاسطع بواديّ إذا شئت سطوع القمر

.. فلم أقل شيئاً لها .. لكنني قبلتُها .. عصرتُها .. حطّمتها في نَهَم .

مع فتاته القول الحلال ، وإعجاب الروح بالروح [1] ، وهو في أخرى يبدو غارقاً في اللذات الجسدية، تشف علاقته عن صلة محرمة — ولو في الظاهر — . ويقف الباحث حيران أمام هذه الظواهر المتناقضة لا يدري ماذا يقول عن جوهر علاقات هذا الشاعر . أهي البراءة الحقة ، أم هي الاثم المحرم ؟ وهل هناك إلاّ طهر أو اثم في كنه العلاقات ؟

وقد يقرن الباحث هذا الغزل بالبيئة التي يصدر فيها ، ووضع المرأة في البلاد، والعلاقات الأُسَرية والاجتماعية ، فيذهب به الرأي إلى أن ذلك الشعر أقوال قوم يقولون ما لا يفعلون ؛ لأن الحياة الإسلامية بحد ذاتها التي تعيشها المملكة لا تُقِرُّ هذا العبث بحال . لا تقره نكتة ، ولا ترضى عنه مزاحاً ، ولا تتمثله تخيلاً .طبيعة هذه الحياة أنها لا تطيق شيئاً من تساهلٍ في نطاق الأعراض والحرمات ، وأنها تُولي النساء صيانتهن ، وتحفّهن بالكرامة الكريمة لهن ، والحذر ممّا حولهن ، وترتفع بهن عن أن يكنّ لعبة شاعر ، أو عبث متخيل ؛ لأن ذلك يفرضه الإسلام ديناً .

فإذا جاء الغَزِلون يشقون هذا الطريق ، تقليداً للجاهليين ، أو للغزلين الماجنين في العصور المختلفة ، أو تشبّهاً ببعض خلعاء العصر الحديث [2] ، ويحتمون بالعَبَث من الجِدّ ، وبالشعر من الواقع ، وبأن الشعراء يقولون ما لا يفعلون ؛ فإن ذلك كله لا يكون مسوّغاً ، ولا يمكن أن يمضي في حساب

---

١ نذكر على سبيل المثال أسماء بعض الشعراء وقصائدهم العذرية :
طاهر الزمخشري في ديوان : أغاريد الصحراء « غنوة » ص ٧٦ ؛ محمد إسماعيل الجوهري في قصيدته « عتاب » ص ٣٥ ؛ ماجد الحسيني ، ديوان حيرة « يا خافقي » ص ٢٤ ؛ حسن القرشي ، ديوان بحيرة العطش « بوح » ص ١٠١ ؛ محمد حسن فقي ، قدر ورجل « اذكريني » ص ٢٣١ .

٢ انظر حسين مردان ، قصائد عارية .

هذه البلاد ، وحساب الشرع أولاً ، ولا يكون شيئاً عارضاً يضحك له المجتمع ، ويرضى عنه الناس الأتقياء .

ونعتقد – بما يشبه اليقين – أن هذا الفريق ، المتقسّم بين التعفف والتماجن لا يتسم بهذه ولا بتلك ، لأنه لو كان عفـّاً لأعرض عن الخوض في الثاني ، وأبى أن ينسب المجون إليه ، بلْهَ أن يقوله . ولو كان ماجناً فالأوضاع الاجتماعية ، والدينية . ومركز المرأة في البلاد ، وحجابها الشديد ، وانفصال العلاقات الأسرية لا تسمح بالمجون ، اللهم إلاّ إذا اخترق كل هذه الحدود – وهيهات – . ولذلك فغزَلُه وَهْم ، لا حقيقة له ، ولا واقع .

ولو تتبعنا مكانة المرأة المعشوقة في قصائد الغزلين لوجدناها تنسرب إلى جدولين : فهي في قريض فريق دَرْك حقير ، وفي قصائد آخرين درجة رفيعة . أما الفئة الأولى فقد نظرت إلى المرأة بمنظار عصور الانحدار ، ورأت فيها « الجنس »[1] الذميم . فهي «حيّة » تنفُث السموم ، و « شَرَك » أُعِدّ لاصطياد الرجال ، واستثارة غرائزهم الشهوانية ، و « مخلوقة » للاثم ، و « قائدةٌ » إلى سبيل الضلال[2] ، بل هي « الكذوب » الخداعة المنافقة ، تُبْطِن غير ما تظهر وتقول غير ما تفعل . ترتكب الفواحش ، وتدعي العفة ، وتقطر منها « الرَّغبة الحمقاء في مخدع الرجال »[3] .

---

١ يقول فقي في قصيدته « زجاجة العطر » ص ٢٤١ من ديوانه « قدر ورجل » :

يا زينة النّسْوة .. يا فتنةً للفكر ... حقّقتِ لنا المستحيل
كنّا نظنّ « الجنس » هذا بلا عقل ، فأخطأنا ، وكنتِ الدليل

٢ ويقول كذلك في قصيدته « جحيم النفس » ص ٢٦٦ :

إيه لا تغضبي فما أنتِ إلاّ صخرةٌ حطـّمتْ حديدَ القروم
حيةٌ تَنْفُثُ السموم ولكنّـ ي تجرعت كل هذي السموم

٣ يقول حسن القرشي في (الأمس الضائع « أنت والليل » ص ٤٢) :

وتَنْثّينَ لي بأنّكِ عذرا ءُ ، تهادتْ إلى عشيقٍ أمين =

لا نعتقد أن هذه النعوت التي رُميت بها المرأة – عامة – عقيدة الشعراء الثابتة ، لسبب بسيط ، قد يكون هو بذاته تافهاً . ولكنه ذو دلالة كبيرة . ذلك أن شاعراً كالفَقيي ، وهو مُكثِرٌ من ذم المرأة ، ناقَضَ نفسه بنفسه في « الجنس الذي كان يظنه بلا عقل » بزجاجة عطر أهدتها له إحدى بنات هذا «الجنس» – على حد تعبيره – ، فبرهنت على أنه المخطئ . وإذا كانت زجاجة عطر ، أو غير عطر كافيةً لزحزحة رأي ، وسَلْخ معتقَدٍ ، فما أهون الهدية ، بل ما أهون الرأيَ وأضعفه !

هناك فريق آخر اتخذ سبيلاً أخرى . رفع من مكان المرأة إلى الدرجة التي يتربع عليها هو ذاته ، فرأى فيها قسيم الحياة ، و« توأم الروح » و « نور البصر » و « الموحي بأهازيج الحياة » و « المبتدع في كل قلب وَتَراً »[1] . ولم يَسِفّ إلى دَرْك سحيق من حيث النظرة إليها حين يَشُبُّ خصامٌ بين الحبيب ومحبوبه ، وحين يندلع الحريق . يكفي أنه وحبيبته نجمان في فلك ، يتقاربان ويتباعدان ، مهما اختصما فالشوق كفيل بجمعهما ، ومهما افترقا ففلك الحب قمين بضمّهما أبداً[2] . وقد يراها ممثّلَةً كلَّ خفقة في الفؤاد ،

= أي عذراء تقطر الرغبـة الحمـ قاء منها في المخدع المجنون

[1] ينادي عبد الله الفيصل من يحب (وحي الحرمان « توأم الروح » ص ٤٠) :

يا تَوأمَ الروحِ ونورَ البَصَر ضاقت منى الروح بهذا السَّفَر
يا موحشَ النفس وفي النفس من هواه أشتات المنى والفِكَر
يوحي إلى الدُّنيا أهازيجَه مبتَدِعاً في كل قَلْبٍ وتَر

ويقول (في المصدر نفسه « يا شادي البان » – ص ١٤٥) :

يا مبعث الطُّهْرِ . يا أصل الجمال ألا أرجو من الدهرِ إرجاع الذي كانا

[2] ويقول عبد الله فيصل (المصدر السابق « يا ناعس الطرف » – ص ١٣٥) :

إنا وإيّاكُمُ نجمان في فَلَكٍ يديره الحبّ في آفاقِ ماضينا =

وبسمةٍ في الدنيا . إنها – في شعره – النجمة الهادية في ديجور الحياة ، والروضة الظليل في هجير الأيام . بها يكون للحياة معنى ، وبدونها يهون كل شيء[1] .

وإذا انتقلنا إلى دراسة الشكل الذي صيغ به هذا الغزل[2] وجدنا أول ظاهرة فيه رقة الألفاظ ، ورونقَ التراكيب . وليس هذا مستغرَباً ، فطبيعة الموضوع وجمال الفكرة ، وفن الغزل نفسُه تقتضي هذا الرونق ، وتوجب هذه الرقة . والغزل في الأدب العربي ، بل في الآداب العالمية ، من قديم الزمان ، إلى يومنا يتميز بعذوبة ألفاظه ، وسهولة تراكيبه . ولئن فُتِن الغزِلون في الماضي بتشبيه المرأة بأحسَن ما في الحيوان ، وأروع ما في الطبيعة ، إن المعاصرين فُتِنوا بالتشابيه ، ولم يشذوا عن القدماء إلاّ في نقاط قليلة . وظلت ملامح الجمال النسائي تُقْرَنُ بأجملَ ما في الحيوان والطبيعة . فترى الوجه مقروناً ببدر السماء ، أو بالكوكب الوهاج ، والخد بورد الرياض ، والعين بعين المَهاة ، والنظرة بالسحر يُودي بالألباب ، والأنف بأنف كليوباترا – وهذا التشبيه جديد – ، والشفة بالعُنّاب – ، وهو تشبيه يخالف ما تواضع عليه العرب ؛ لأنهم يصفون الشفاه باللّمى (وهو السواد) ، ويشبهون أطراف

= مهما اختصمنا فإن الشوق يجمعنا أو افترقْنا فإن الحبَّ يضنينا

١ يقول طاهر الزمخشري (ديوان أغاريد في الصحراء «أنت لي» ص ٦٩) :

يا مُنى كلِّ خفقةٍ في فؤادٍ عاش فيه الجوى ولاقى المنونا
أنتِ لي وردةٌ يفوح شذاها عاطراً يملأ الحياة فتونا
أنتِ لي غنوةٌ إذا رجّعتْها خفقــاتي ينساب لحني حنونا
أنْتِ لي بسمَةٌ تنيرُ سبيلي وسناها الطروب يذكي الشجونا

٢ سيرد في الباب الخامس تفصيل للأداء الفني عامة في الشعر السعودي . ولكننا تحدثنا هنا قليلا عن الشكل رغبة في ترابط أجزاء الموضوع ، والوصول فيه إلى الهدف الذي نرمي إليه .

الأصابع بالعُنَّاب الأحمر – ، والأسنان بالأقحوان ، والقوام بالغصن أو بالرمح ، والخصر بالسوار ، وملمس البطن بالحرير [1] .

أما من جهة القالب الموسيقي ، فالأمر واحد بين القدماء والمحدثين. الشعر قبل كل شيء هو الوعاء الذي يصب فيه الغزل ، والبحور العروضية التامة والمجزوءة قوالب العواطف ، ومعارضة سادة الغزل في الأدب العربي ، إنْ في الشكل أو في المضمون، شائعة ورائجة . فإذا كان السلف يكثرون من تعداد

---

[1] يمكن أن نقتصر على مقطعين من قصيدتين ، ففيهما تكاد تكتمل التشابيه ؛ يصف اللواء علي زين العابدين فتاته (المنهل ٢٧/٨٧٠) :

وجهٌ أعارته الرياض وروده فتورَّدا
الليلُ كحَّلَ مقلتيك ، وقبَّل الفجرُ اليدا
والأقحوان غدا بثغرك كالعقود منضّدا
والأحمر العُنّاب حام على الشفاه وأخلدا
والبدرُ أقسمَ أن يثوبَ إلى حِماك ويسجدا
والغصن تيّمه قوامك فاستحى وتأوَّدا

ومحمد حسن فقي يقارن بين ما كانت الحسناء عليه وما صارت إليه (قدر ورجل « مرآة الخريف » ص ١٤٢) :

وكان قوامي السَّبطُ كالرمح فانحنى — من الريح حتّى عاد قوساً من العهن
وخصري تناهى في النحول كأنّه — سوار يحزُّ اللحم في معصم لَدْن
وقد كان وجهي في الدُّجُنّة كوكباً — يضيء فيستهدي به خائض الدَّجْن
وأنْفي ككليوباترا متطلّعـــاً — إلى عاشقيه في تباعدِ مستدني
وردفاي هزّا باهتزازهما النُّهى — فضلّتْ وعاذت بالرشادِ فلم يغن
وبطن يخال اللمس أنّ أديمهـــا — حريرٌ فتستهويهِ ضامرةُ البطنِ
ولي . . بشرٌ . . لو مسه متخنّث — لَهامَ . . وموتور لكف عن الضّغن

المواطن التي تمّ فيها تلاقي الأحبة أكثرَ المُحدّثون من ذكر المواطن[1] . وإذا كان الناس يعجبون من وقع الموسيقى في نونية ابن زيدون نسج المعاصرون على منوالها[2] . وإذا حملت الموشحات ذخيرة فنية عبر العصور نظموا على شكل الموشحات[3] . وإذا امتلأت دواوين الأدباء العرب ، غير السعوديين ،

---

١ أحمد إبراهيم الغزاوي يقول (من عبد الله عبد الجبار « التيارات الأدبية » ص ٢٥٦) :

ألا يا حبّذا أيامُنا حولَ « قَروة » إذِ الناس في حظ من البِشْر دائب
وإذْ نحنُ لا نألو الشباب حقوقه ونمرحُ في نُعمى الأماني الجواذب
وتهفو بنا النسمات حين هبوبها إلى فرص اللذات تحت الكواكب
« بوجّ » وفي « وادي العقيق » ودونه وفي « لِيّة » أو بين « قَرْنِ النجائب »
وفي «الوَهَطِ » المخضر أو في «وهيطه » وفوق « الشفا » أو في أديم السحائب
ولا أنس « بالمَشْناة » ليلاتِ أنسنا وبين «الهَدَى »أو في جوار «الكباكب»
ولا « الجال » إذ تجلو كؤوس صفاته كأنّ بها ما بالثنايا العواذب

— ما وضع بين حاصرتين أسماء مواضع في الحجاز — .

٢ حسين سراج يعارض ابن زيدون فيقول (المصدر السابق ص ٢٦٣) :

أمست ليالي الهنا حلماً تناجينا وأصبحت ذكريات الحب تشفينا
كنّا خليليَنْ في دنيا الغرام وقد أضفت علينا من النعمى أفانينا
نُسقى حميا الهوى في الكأس مترعةً ممزوجةً بحنانٍ كان يحمينا
وللصبا في قشيبِ البُرْدِ روعتُهُ وللعيونِ نداءٌ كان يُغرينا

٣ ماجد الحسيني يقول في ديوان حيرة « التجربة الأولى » ص ٩٥ :

هنـــا

تلاقى بنا حبّنا ونادى الهوى موْهِنا

مساء ومـــاء

وكانت زهور تناجي زهور
وكانت طيور تناغي طيور

بشعر يشبه النثر ، أو بنثر يشبه الشعر ، قلدوهم وترسموا مناهجهم[1] . أما المدارس الأسلوبية المختلفة ، والتيارات التي تناوبت أداء هـذا الفن فستكون مفصلة في بحث قادم ، ينتظم الشعر السعودي عامة في شتى فنونه .

والآن ، هل يمكن أن نرى في الغزل السعودي المعاصر شخصية خاصة ، تميزه من غزل البلاد العربية الأخرى ، إن لم نقل من القدماء ؟ للجواب عن ذلك نستطيع أن نؤكد أن له شخصيته الخاصة ، على الرغم من مظاهر التقليد الكثيرة فيه .

=

عبير يثير

شبـــاب يفور وقَلْبٌ يَمور
ومـــلء الضلوع حنـــانٌ دفين
روتـــهُ الدموع طَوَتْهُ [السنين]
وأنْتَ هنـــا هناك على الصخرة
وهـــــذا أنــا تعذّبني وحدني
كلانا هنـــا وحـــــدنـــا
وهـــذا الظلام قـــد دنـــا

١ حسن القرشي يقول في (ديوان النغم الأزرق « قصيدة صورة » ص ١٠٥) :

رأيت في مخدعها المعطر
صورة زوج أشيب قد مات منذ شهر
دموعها كالمطر
عليه تذريها كفعل الصائد المغرر
تقول كان عُدّتي
وكان زاد سفري
كان يقيني من زمان أكدر
ذكراه في قلبي تموج
كالدم

أول سماته الخاصة : شخصيته الإسلامية . فأنت لا تقرأ قصيدة إلاّ وتقع على ألفاظ دينية ، أو تراكيب مقتبسة من القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو على معالم الأرض المقدسة ، وما يتعلق بها . هذا الغزل طافح بـ « لفظ الجلالة » وبألفاظ الحلال ، والحرام ، والركوع ، والسجود ، والإيمان ، والقَدَر ، والآخرة ، والنار ، والخطيئة ، والتوبة ، والاستغفار ، والفرض ، والنفل ، وغيرها [1] .

الطابع الثاني المميز : ظهور معالم البيئة بكل ما فيها من أودية ، وجبال ، وصحراء، وسراب ، وخيام، وحلّ، وارتحال، وشيح، وقَيْصوم ، وعَرار ، وخيول ، وسيوف ، ورماح ، وبطولات ، ونخيل ، ومقدسات . ويخيل

---

١ هذه قبضة من أبيات لم نخترها اختياراً . وفيها تظهر الطوابع الدينية :

فحسْبك أنْ ترنو إلى وجهي الذي ... يشعّ سناه من جمالي المحرَّم ... (العطار)

الفرض إنْ أقْذى العيو ... ن فإنها ستْراه نفلا ... (فقي)

ألا فانْعَمي إنّ هذا الوداد ... سيبقى إلى دارنا القادمة ... (ابن إدريس)

عصافر الخلد لا تقوى على قَدَر ... فكيف ينسخ من أحلامنا القدر ... (سرحان)

هدهدت حبي في المهاد ... ووأدته قبل الفطام ... (عبدالله الفيصل)

ميعاده يَوْمَ المَعَاد ... يومٌ تعادُ به العظام

يا منى النفس إلى الشط فقومي نتعفر
ثمّ نهوي في حنايا اللج نبكي نتطهر
فإلى الشاطىء للماء نصلي نتطهر
ونناجي الله بالتوبة في سرّ ومظهر
هو سوّانا رغاباً وحنيناً يتفجّر
أفلا يغفر زلّة — أفلا يصفح خلّه
صَـــهْ فإن اللهَ أكبر ... (الحسيني)

إلينا أنه لو سمع إنسان مثقف قصيدة من شاعر سعودي ، دون أن يدري السامع أن ناظمها من هذه البلاد ، لاستطاع أن يقدّر أنه من السعودية[1] ، أو أنه شعر من الجزيرة العربية – على أقل تقدير – .

الطابع الثالث : غلبة العفة ، ونظافة أسلوبه من صور الخلاعة والمجون . ومهما يكن عدد القصائد التي اقتربت من الخلاعة ، وصوّرت المجون ، فإنها

---

١ الشواهد أكثر من أن تحصى ، ونختار عدداً من الأبيات لثلاثة شعراء من ديوان وحي الحرمان :

أوتذكرين بوادي وَجّ وقفتنا   وقد أفاضت علينا الطهر عيناك (ص ٢٥)
أزمعوا بَيْناً وشدّوا رحلهم   فتوارى طيف أحلامي الجميل (ص ٣٣)
ولولا الحب في الأعناقِ رق   ملكتك باليمينِ وباليَماني (ص ٢٩)
وأين مني شهار أين هضبته   يا حبّذا فيه أفراحي وأحزاني (ص ٨٣)

ومن ديوان شميم العرار (لغادة الصحراء) :

قصتي أنني أنا أنت يا حلو .. وما نجد والعرار سواكا (ص ٢٢)
أحب الطبيعة .. ونجداً .. رفيق الشذى وربوعه (ص ٥١)
لا تجاف الود ، كن لي ما أنا ، أنا أهوى فوق ما البيد هوت (ص ٣١)
والسراب ، في البعيد ، ليس إلاّ وهج صحراء عنيد ، لا حراب (ص ١١٣)
وقامة كاهتزاز الرمح قد سكنت ، فطي جفوني أجمل الناس (ص ١٢٢)
بشَميم العَرار ، بالورد ، روض يحيي العظام (ص ١٤٢)
بي هتاف إليك ، ضج كما الطعن ، وضرب السيوف ، والنثْرات (ص ١٣٧)

ومن إحدى قصائد الغزاوي : (المنهل ٢٧/٧١٥) :

شاقني الرسمُ شاخصاً والوقوف   تتهجّى الأقلام فيه السيوف
بين فخٍ وبين وَجّ وسَلْعٍ   والعَوالي رفارف ودُفوف
والروابي كـأنّها هي خزَّ   وبها الآس والأقاح شُنوف
يسبِّحُ الطّير فوقَها ويغنّي   بمثـانيهِ عازفٌ وهَتوف

تبقى قليلة من حيث عددها إذا ما قيست بالغزل العفيف . والغزل السعودي – في غالبه – يميل إلى الطهارة ، ويتوشح بالحياء ، ويصطبغ بالخجل . وكثيراً ما يلجأ الشاعر إلى الرمز والإيحاء للتعبير عن معنىً مادي ، ويبقى لفظه مقبولاً لدى الأذن والمشاعر حين سماعه ، أو قراءته . وأعتقد أن عوامل مختلفة تقود إلى هذا الاتجاه . أولها : غلبة التديّن عند الناس ، والشعراء منهم . وثانيهما : أن قائليه عرب أقحاح ، تجري في دمائهم الشمائل العربية ، فيها الحياء ، وفيها النخوة ، وفيها الخجل ، وفيها المروءة والشهامة[1] .

الطابع الرابع المميز : بعده عن الميوعة والتخنث . تحس وأنت تسمع الشاعر ينشد قصيدته الغزِلة، أو تقرأها ، بالرجولة المتماسكة ، وبالعنفوان والصحة والقوة ، مهما كانت عاطفته صادقة ، جياشة ، قوية . وكل ما نلمسه فيه آثار الدموع على آثار الأحبة الراحلين، وقضاء الليل الطويل النابغيّ سَهَراً ، والذكرى الدائمة لهم ، والألم الكبير . ولا نرى السوداوية القاتلة ، والتشاؤم المرير ، والرغبة في الموت ، وإرادة التخلص من هذه الحياة بانتحار أو بغيره . لا نشهد شاعراً يصور ذل شخصه في غياب حبيبه ، أو تضاؤل شخصيته حتى تذوب بذلك البعد أو الجفاء . وإنما نحس إحساساً قوياً بالرجولة التي لا يَعيبُها

---

١ الغزاوي خير من يعبر عن أثر البيئة في موضوع الحب (التيارات الأدبية ص ٢٢٢) :

بأبي مَنْ رأيْتُها فاستَرابت ... نظرتي نحوها فقالت : عَلامَك
قلتُ صبٌّ أُصيب بالحب . قالت ... روّع الله مَنْ على الحبّ لامَك
أنت من « ليَّة » بدارة عَوفٍ ... حيث فرط العفاف يذكي غرامك
إنّ فيها من الظباء لَحُوراً ... يتناجَينَ في المروجِ مرامك
فاغضض الطرف إن علِمتَ وخالسْ ... نظرة الحب ، واستدِمّ أثامك
لا تغرّنْكَ بَسْمةٌ من كَعاب ... فتؤاتي على اغترار حمامك

أن تبكي في وقت يجدر فيه البكاء ، بل به تسمو ، وتتميز في مثل هذه اللحظات[1] .

وأخيراً فإن طابع هذا الغزل غلبة الألم عليه . وهي ظاهرة تكاد تميزه من غزل سائر البلاد الأخرى ؛ لا تمر على قصيدة فيه إلاّ وتطالعك صورة الألم بشتّى ألوانه كالبكاء ، والأنين ، والشكوى ، والسهد ، والقلق ، والتمزق ، والحرمان ، والشك ، وما أشبه هذه الأمور .

ولئن شذ فصوّر جمال اللقاء ، وفرحة الوصال ، وحلاوة الأيام ، إن ذلك أمر نادر فيه أو قليل .

وقد يقول قائل : « إن الغزل بطبيعته بدأ حزيناً ، وولد باكياً ، كما يولد الإنسان ، وظل كذلك خلال العصور لا يشذ إلاّ في القليل النادر ؛ ولعل مردّ ذلك إلى شقاء الحياة – في الماضي – وأتعابها بين الرمال ، والخيام ، وقسوة

---

١ عبد الله الفيصل يصور وجده حين رحل من يحب (ديوان وحي الحرمان « حيرة » ص ٣٣) :

أزمعوا بَيْناً وشدّوا رحلهم ... فتوارى طيف أحلامي الجميل
وتهاوى الدمع في آثامهم ... وهو كالجمر على الخد يسيل
إنها روحي أراها أدمعاً ... تملأ الأجفان « والليل يطول »

وحسين سرحان يصور كأس الرحيل (ديوان « أجنحة بلا ريش » ص ١٩) :

أنا لن أنساك حتى لو نسيت ... سوف تنساني ولا أنسى هواك
لو تراني يوم أضحي أو أبيت ... شارد الفكر ، فيا بُعْد مداك

* * *

أتراءاك وطرفي لا يراك ... مالئاً قلبي ، وذهني والضمير
كنت ألقاك على حلو صباك ... فإذا الأرض يباب في «عسير »

وحمزة شحاته يعاتب حبيبه (إبراهيم الفلالي : المرصاد ج ١ ص ٦٠) :

وُقيت الأسى لو أنصف الحب بيننا ... لَـمَا بتّ أرضى في هواك وتغضب
ولكنه المقدار يعبث بالفتى ... على وَضَح وهو البصير المدرّب

الجزيرة على أهلها ، والاضطرار إلى الرحيل والتنقل . وهذا الشقاء نفسه خلق الغزل . فهناك لقاء بين الحبيب والحبيبة ما يلبث أن ينقطع ، وهناك سعادة ما تلبث أن تزول ، وهذا الانقطاع والارتحال في سبيل الكلإ ، أو السعي إلى التجارة ، أو الرحيل إلى الغزو ، أو الانتقال في مصالح الحياة ، طبَع الغزل بطابع الفرح للّقاء ، والحزن للوداع ، وجعله أمانيَّ متلاحقة ، ودعاء متواصلاً في سبيل واحد ، هو الاجتماع الذي لا تفرُّقَ بعده[1] . وهذا القول صحيح إلى حد بعيد . ولكن إذا زالت مظاهر حياة النقلة والارتحال في سبيل الكلإ ، أو الغزو ، وغدت الحياة أكثر استقراراً ، وأوفر غنى ، وأسهل لقاء واجتماعاً . فهل حياة الجزيرة اليوم بما يسيطر عليها من مسيطرات مختلفة غيّرت النتائج ، وإن كانت قد غيرت الوسائل ؟ فإذا كان الجواب نفياً — وإليه نميل — فإن الألم يبقى سمة الغزل يميزه ، ويبرز شخصيته ، وصورة العاشقين من خلاله .

الخلاصة ، لم يختلف شعراء الجزيرة العربية عن الشعراء العرب القدماء ، والمعاصرين في البلاد العربية المجاورة في التعبير عن خلجات قلوبهم وعواطفهم اختلافاً كبيراً . فلقد أخذوا من القدماء النموذج المثاليّ للمرأة ، فهتفوا له ، وقاسوا عليه جمال فتاتهم ، فإذا بالفتاة المثالية في الجاهلية من حيث جمالُها هي هي ، لم تزد ، ولم تنقص بعد ما يقرب من ألف وخمسمائة عام أو يزيد ؛ كما قلدوا القدماء في كثرة الحديث عن أنفسهم مدحاً وإطراء ، وفي شرح لواعج أفئدتهم دون التعرض إلى الكلام عن مشاعر الحبيبة وعواطفها إلاّ ما ندر . كذلك كانوا كأسلافهم الشعراء ، فيهم الشاعر العفيف ، وغير العفيف ، وفيهم متصنع الحب لا هو بالعفيف ولا غيره ، لأنه يتصنع ولا ينفعل .

والصلة وشيجة بينهم وبين إخوانهم العرب في البلاد المجاورة ، حين

---

١ سامي الدهان ، الغزل ١/١٦ .

أخذوا منهم حرية التعبير عن العواطف دون وجل ، والدخول في وصف بعض لحظات الوصال ، أو أماكن التلاقي في البلاد الأجنبية ، والتغني بأمور لم يألفها أبناء الجزيرة كشقرة الشعر ، والسَّير معاً على ضفاف جدول ، أو الاجتماع معاً في مجلس عام . وكذلك في صبّ هذه العواطف بقوالب جديدة ، شاعت في البلاد العربية ، ولم يكن لها وجود في قلب الجزيرة .

ويبقى لهذا الغزل سماته الكبرى التي تميزه من سواه في أنه يرسم معالم البيئة في الجزيرة بكل ما فيها : من صحراء ، وأرض ، وسماء ، وجبال ، وبحار ، ومقدسات ، وتقاليد ، وأعراف ، ورجولة ، وعفة ، وتماسك شخصية ، ورقة عواطف .

الفصل الثاني

فن المديح

منذ تنفس الإنسان على هذه الأرض ، ووعى ذاته ، وما حوله ، وأحس بالفوارق المختلفة بينه وبين الآخرين ، وشعر باختلاف مواهبه عن مواهب سواه ، وقَدْره عن أقدار غيره ، ولد المديح، وخلق فن الثناء . وسواء أكان نابعاً من قرارة نفس المادح ، أم كان وسيلة زلفى إلى من شَعَر أنهم يفوقونه قوة ، أو مالاً ، أو مزايا خلقية ، فهو إقرار بالرياسة والزعامة ، واعتراف بالفضل والمكانة .

وما كان العرب بِدْعاً بين الأمم ، ولا خَلْقاً متفرداً عن جميع الناس . ولقد ساهموا في هذا الثناء ، وخاضوا ميدان إكبار المتفوقين ، وورثه الخلف عن السلف ، واتصلت حلقات السلسلة دون انقطاع ، غير مقتصرة على قطر دون قطر ، وعصر دون عصر .

ولربما كان ديوان المديح أكبرَ دواوين الشعر وأضخمها ، أو قد يعدل كثرةً ما قيل في الغزل والنسيب . وإن نظرة سريعة إلى ما خلّف لنا الآباء والأجداد من أشعار توقفنا على هذه الحقيقة ، وتطلعنا على التراث الضخم الهائل في فن المديح بشكل خاص . ولا شك في أن هذه الكمية من الثناء تلفت النظر ، وتسترعي الاهتمام .

وليس أبناء الجزيرة العربية إلاّ سلالة أولئك الآباء المداحين ، فلا غرو أن يرثوا من أسلافهم الأقربين والأبعدين حبَّ مديح الآخرين ، والثناء عليهم ، والاعتراف بأفضالهم أو مآثرهم . ولا عجب بعد هذا إذا تصفحنا ما نظمه

شعراء الجزيرة المعاصرون ، فوجدنا أن شطر الإنتاج — إذا لم نقل أكثره — كان في المديح والثناء والتمجيد .

وإن إحصاء بسيطاً نقوم به في كتاب واحد ضم نماذج ومختارات لشعراء منطقة معينة في عصر معين يوضح لنا كمية هذا اللون من الشعر . وليكن هذا الكتاب « شعراء هَجَر »[1] — على سبيل المثال — . فلقد تحدّث الكتاب عن اثنين وعشرين شاعراً ، عاشوا في المنطقة الشرقية المعروفة بالأحساء أو بهَجَر ، بين القرن الثاني عشر والرابع عشر من الهجرة — الثامن عشر إلى المتمِّم للعشرين من الميلاد — . وضم الكتاب ما يقرب من مائة وثمانين قصيدة عدا المقطعات ، والتخميسات ، والتشطيرات ، والألغاز ، وما أشبهها . ولدى إحصاء قصائد المديح نجدها بلغت خمساً وتسعين قصيدة ، تراوحت أبياتها بين المائة بيت والخمسين بيتاً . وبعملية حسابية سريعة يمكننا أن نرى نسبة شعر المديح إلى غيره من الفنون الشعرية الأخرى ، ونستطيع بكل اطمئنان أن نقول : إن شعر المديح وحده في هذا الكتاب زاد على مجموع ما قيل في الفنون الأخرى .

ولا نعتقد أن هذا الكتاب الجامع يتميز من سواه بكثرة إيراد قصائد المدح ، وأن غيره يضم عدداً أقل من القصائد المادحة ، فكلها تتشابه وتتقارب .

أ — هناك عدد من الشعراء جعلوا القول في المديح هدفهم الأول كابن عثيمين ، وكنعان الخطيب ، والغزاوي ، وفؤاد شاكر ، وخالد الفرَج . والمتصفح للدواوين يجد صدق هذا الكلام ، فالغزاوي يُعرف بأنه « حسان صاحب الجلالة » . ويتوقع الناس — بداهة — أن يسمعوا منه قصيدة في كل مناسبة رسمية تمر بها المملكة ، أو الأسرة السعودية ، ومثله فؤاد شاكر ، وكنعان الخطيب .

---

[1] جمع الكتاب عبد الفتاح محمد الحلو . وطبعه بمصر سنة ١٣٧٩ هـ/١٩٥٩ م .

ولا عجب بعد هذا إذا قرأنا مقالاً لأحمد عبد الغفور العطار [1] يعجب فيه من كثرة مداحي العصر الحديث حتّى قال : « . . . ولو جُمِع كل ما نظم وقيل في باب المديح في هذه الأيام لأربى على كل عصور الأدب العربي القديم مجتمعات » .

* * *

ونتساءل عن سر هذا الإكثار من المدح في البيئة السعودية ، ونحاول أن نصل إلى ما يطمئن إليه القلب من جواب ، فلا نقع على ما يشفي أو يكفي . وكل ما يمكننا أن نقول : إن هؤلاء الشعراء سلالة للشعراء القدماء ، وقد أغرم الآباء بهذا اللون ، وورث الأبناء عنهم هذا الغرام . كذلك فإن سبيل التقرب من الحاكمين وذوي الجاه والسلطان كثيراً ما يكون للتزلف والتحبب ، والتمجيد ، والتعظيم . وقد يكون الدافع إلى المديح الرغبة في نيل جائزة ، أو عطاء ، أو منصب ، أو قضاء إحدى الحاجات . وقد يكون الدافع إلى ذلك إيمان وعقيدة يؤمن بها الشاعر ، ويرى أن من واجبه أن يرفع الشكر والثناء إلى من يستحق ، وأنه إذا سكت عن ذلك فقد قصر في واجب كان عليه أداؤه ، ويصدق هذا على شعراء الدعوة الذين مدحوا الشيخ محمد ابن عبد الوهاب وأبناءه وأحفاده ، ولم ينتظروا على ذلك جزاء أو شكوراً ، كما يصدق على مدح ابن عثيمين للملك عبد العزيز ، فقد كان الممدوح بطلاً وإماماً ، ولكنه لم يكن غنياً ، ولم يكن عنده آنذاك من أموال فائضة ليكافئ الشاعر بما يستحقه ، وعاش ابن عثيمين فقيراً ، ومات فقيراً ، ولم يُعْرَف عنه أنه قصّر في مديح البطل الإمام .

ب — ومهما يكن مبلغ هذا النتاج فإنه يكاد يكون صورة مماثلة لمدائح

---

١ نشر المقال في جريدة عكاظ « الفردية » سنة ١٣٨٢ هـ/١٩٦٣ م، ثم ضمه إلى المجموعة التي حملت عنوان « كلام في الأدب » (ص ٣٥) .

الأقدمين . اتبع سنَنهم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع [1] ، حتى أوشك أن يُضيع شخصيته المحلية ، ويفقد طوابعه المميزة ، ويتلاشى في خضمّ الشعر القديم . ويخيل إلينا أنه لن تتضح حقيقة هذا الحكم إلاّ إذا استعرضنا الأماديح العصرية ، وقارنّاها بأماديح الأقدمين .

مدح القدماء ملوكهم ، وخلفاءهم وأفاضوا ، والتفتوا إلى أمرائهم ووزرائهم ووجهائهم فأغدقوا عليهم الروائع ، ووقفوا أمام العلماء والأدباء وحَبَوْهم بأطيب الشمائل المنظومة . ورفعوا رؤوسهم إلى الله فأثنوا عليه وشكروا له ، وصلّوا على نبيّه محمد – صلى الله عليه وسلم – بأطيب القصائد وأغزرها ، وأكرموا آل بيته ، كما كان لأوطانهم وبلدانهم نصيب من التجِلّة والثناء .

وجاء الشعراء المعاصرون فمدحوا الأسرة السعودية الحاكمة [2] ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وأبناءه ، ومن تبعه [3] ، وبعض الولاة العثمانيين الذين حكموا أجزاء من الجزيرة [4] ، كما مدحوا أسرة آل رشيد في حائل [5] ، والأشراف الهاشميين في منطقة الحجاز [6] ، وعدداً من الوزراء والأمراء

---

١ مقتبس من الحديث الشريف « والذي نفسي بيده ، لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع . . . » (مسند أحمد ٣٢٧/٢) .

٢ المجموعة الكبرى من المدائح قيلت في المرحوم الملك عبد العزيز . وتكاد جريدة « أم القرى » تمتلىء بذلك من سنة ١٩٢٤ إلى ١٩٥٣ م . وجل ديوان « ابن عثيمين » فيه . كذلك مدائح الغزاوي المنشورة في « أم القرى » وصحف المملكة الفردية والمؤسسات . وديوان « وحي الفؤاد » لفؤاد شاكر . ويليه بكثرة المدائح الملك المرحوم سعود وأخوه الملك فيصل . بعدهم تأتي الأسرة السعودية عامة في المرتبة الثالثة .

٣ انظر تفصيل ما مدح به الشيخ وأبناؤه والدعاة في فصل « الدعوة في الأدب » .

٤ انظر في تاريخ الأحساء ١٨٦/١ ؛ وفي شعراء هجر ص ٢٤٢ .

٥ انظر في تاريخ الأحساء ١٧٩/١ .

٦ انظر في جريدة « القبلة » في معظم أعدادها من ١٩١٦ إلى ١٩٢٤ م .

والوجهاء[1] ، وحكام المناطق المختلفة[2] ، وأشخاصاً كثيرين كان لهم في أيامهم مال ، أو جاه ، أو نفوذ .

وأفاض المداحون القدماء على ممدوحيهم روائع الحلل ، ورأوا فيهم البحرَ جُوداً ، والفرات في أكمل ما يكون امتلاء[3] ، والربيع ينعش الناسَ سَيْبُه ، والسيف القاطع[4] ، والشمس التي تتدانى الكواكب دونها[5] ، وأضفوا

---

١ من الوزراء السعوديين الممدوحين – الذين وقعنا على شعر فيهم : « محمد عمر توفيق » وزير المواصلات في ديوان فؤاد شاكر « وحي الفؤاد » ص ١٧٠ وص ٢٨٩ ، و « محمد سرور الصبان » وزير المالية – سابقاً – والأمين العام لرابطة العالم الإسلامي في « وحي الفؤاد » ص ١٤٧ و ١٤٩ و ١٦٨ ، و ١٧٥ و ١٧٦ و ٢١٦ وفي كتاب إبراهيم عبده « سيرة من الحرمين » في معظم صفحاته ، وفي كتاب عبد الله عريف « رجل وعمل » في معظمه كذلك . ومن الأمراء الممدوحين أولاد الملك فيصل ، وإخوته . وفي « وحي الفؤاد » وحده ١١ قصيدة في إخوة الملك عبد العزيز ، و ١٤ في أولاده ، و ٤ قصائد في زواج الأمراء السعوديين وما يتصل بذلك .

٢ انظر في كتاب هاشم بن سعيد النعمي « تاريخ عسير في الماضي والحاضر » ١/٢٠٣ و ٢٠٤ ففيه مدح حكام المنطقة العسيرية ؛ وانظر في كتاب محمد عمر رفيع « في ربوع عسير » ص ٥٢ ففيه مدح لحكام عسير ؛ وانظر في تاريخ الأحساء ١/١٨٦ ففيه قصيدة للشاعر عبد العزيز العلجي يمدح فيها « طالب باشا النقيب » القائد العثماني في ولاية الأحساء .

٣ مدح النابغة جود النعمان فقال : (التبريزي « شرح القصائد العشر » ص ٤٧٠) :

فما الفراتُ إذا جاشت غواربُه ترمي أواذيّه العبرين بالزبد
يوماً بأجود منه سيبُ نافلة ولا يَحُول عطاء اليوم دون غد

٤ وقال النابغة يمدح النعمان : (ديوانه « شرح وتحقيق كرم البستاني » ص ١١٤) :

وأنتَ ربيع ينعش الناس سيبُه وسيف ، أُعيرتْه المنيّة قاطع

٥ وقال النابغة : (المصدر السابق ص ٢٤) :

ألم ترَ أن اللهَ أعطاك سورةً ترى كل مَلْكٍ دونها يتذبذب
فإنّكَ شمسٌ والملوك كواكب إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهنّ كوكب

عليهم الشمائل الخُلُقية من وصل الأرحام ، وفك الأسير العاني ، وإهانة نفوسهم في سبيل المجد وطيب الذكر إذا تصاولت الرماح ، وعلا الغبار [1] . ووصفوهم بالتديّن ، والتقوى ، ونصرة دين الله [2] ، وحبهم الرعية ، وإخلاصهم لشعبهم ، وبرهم ببلادهم [3] ، وجَمْعهم القلوب على المودة والإخاء، ودفن الأحقاد والضغائن، وإلاّ أدبوها بالسيف . وعلّموها بالحزم [4] .

وقال الشعراء المعاصرون في ممدوحيهم ما قاله القدماء . فمديح الشعراء للحسين – شريف مكة – حمل شيئاً من نعوت السيادة ، والشرف [5] ،

---

١ مدح الأعشى الأسود بن المنذر اللخمي : (ديوانه « تحقيق م . محمد حسين » ص ٩) :

عنده الحزم والتقى وأسا الصر ع ، وحمل لمضلع الأثقال
وصلات الأرحام قد علم النا س ، وفك الأسرى من الأغلال
وهوان النفس العزيزة للذك ر إذا ما التقت صدور العوالي

٢ مدح أبو تمام المعتصم فقال : (الديوان « شرح التبريزي » ١/٧٨) :

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصُرت بالراحة الكبرى فلم ترها تُنال إلاّ على جسر من التعب

٣ مدح أبو نواس الرشيد فقال : (الديوان « تحقيق الغزالي » ص ٤٠٥) :

هارون ألّفنا ائتلاف مودّةٍ ماتت لها الأحقاد والأضغان
ملك تصورَ في القلوب مثاله فكأنما لم يَخْلُ منه مكان

٤ مدح مسلم بن الوليد الرشيد فقال : (الديوان « تحقيق سامي الدهان » ص ٧٧) :

إذا اختلفت أهواء قوم جمعتهم على العفو أو حدّ الحسام المهند

٥ مدح عبد الله العامودي – وهو شاعر مكي – الحسين فقال : (القبلة ، العدد ١٦ تاريخ ٨/١٢/ ١٣٣٤ ه) .

الحسين الهاشميّ العبدليّ سيد الأشراف أعلاهم مقام
سيد السادات مولانا الذي أظهر الحق وللشرع أقام

والشجاعة، والمروءة، و الكرم ، وابتهاج الدنيا له ، وزهو البلاد[1] به ، وفرح العباد ، وغيظ الأعادي[2] . وهو السيد الأروع الهمام ، الهاشمي ، العَبْدَلي ، سليل الرسول العظيم[3] ، جاءته خلافة المسلمين على قدر ، وزُفّت إليه كما تُزف العروس ، بل فُرضت عليه فرضاً[4] ، وأن قَبوله لها أرضى الدين ، وأفرح الشرع ، وأسعد الشعب ، ونشر الخير فعم جميع البلدان والأوطان[5] .

وفي مديـــح الحكام السعوديين أفاضوا ، ووصفوا معاركهم بالفتح

---

١ مدح أحمد النجار – وهو شاعر مكي – الحسين فقال : (القبلة ، العدد ٧٧٧ تاريخ ٣/٤/١٩٢٤ م) :

وافترّ ثغر الأماني وازدهت فرحاً ربـاع مكة إذ حازت به القمرا
أعني الحسين أمير المؤمنين ومَن نال الخلافة إذْ كانت له قَدَرا

٢ مدح عبد المحسن الصحاف – وهو شاعر مكي – الحسين فقال : (القبلة ، العدد ٣ سنة ١٩١٦ م) :

ثغر الشريعة من فرط الهنا ابتسما وأنف كل حسود في الثرى رغما
وأصبح الشعب مسروراً بدولة مَن بالروح جاد وللأوطان قد خدما

٣ مدح فؤاد خطيب الحسين فقال : (القبلة ، العدد ١ تاريخ ١٥/١٠/١٣٣٤ ه) :

فمن يكن عن إباء الضيم في صمم فَلْيسمع اليوم صوتاً يحسم الصمما
فقد تكلّم صوت النار مرتفعاً من الحجاز فشق البيد والأكما
يا ابن النبي وأنت اليوم ناصره قد عاد متصلاً ما كان منفصما

٤ مدح محمود شلهوب – وهو شاعر مكي – الحسين فقال : (القبلة ، العدد ٧٧٨ سنة ١٩٢٤ م) :

زُفَّتْ إليه خلافَةٌ قرشيّة غُصبت عصوراً ثم عادت ترفل
فرَضت على الملك الحسين قبولها فغدا لأعباء ثقال يحمل

٥ مدح عمر كردي – وهو مفتي الشافعية في المدينة المنورة – الحسين ، فقال (القبلة العدد ١ تاريخ ١٥/١٠/١٣٣٤ ه) :

فلأنت ظل الله صاحب هديه حامي حمى الحرمين من أعداء
ومعيد مجد العرب بعد عفائه ومعاذهم في السلم والهيجاء

المبين الذي يتهلل له وجه الدين ، وتتفتح أبواب السماء ، وتسمو البلاد إلى ذروة المعالي[1] ، وقالوا : إن الإمام هِزَبر هصور ، وجيشه المؤمن فريق من الأسود الأشاوس ، ولقد واجه الأعداء بقلب لا يهاب ، وعزم لا يلين ، وتركهم في خاتمة المعركة بين قتيل تنهشه سباع الأرض ، أو تخطفه طيور السماء وبين هارب لا يلوي على شيء ، ولا يجد أمامه إلاّ لجة البحر ملاذاً ومعاذاً[2] .

وقد يبدو لباحث أن في هذا المديح شيئاً من جديد ، مستدلاً بأن فيه كثيراً من إضفاء الروح الوطنية والقومية إلى جانب النزعة الدينية على الممدوح ، ويستشهد ببعض الشعر الذي قيل في الحسين محتجاً بأنه لم يثر لغاية في نفسه ، أو لعزّ يناله ، أو لمجد يرتقي إليه ، أو لعرش يستوي عليه ، بل ثار لإعزاز الدين الذي أبغضه شانئوه ، ولرفعة الوطن الذي أذله معادوه ، ولمجد العروبة التي أهانها خصومها . وقد يقول هذا الباحث : إن المديح الجديد اختلف عن مديح القدماء في قفزته من إطار الفردية الخاصة إلى إطار الأمة الكبيرة ، ومن الحدود الضيقة إلى أرجاء العالم الفسيح . وقد يدّعي الباحث أن الجديد في مديح المعاصرين يتجلى في تقليص الحديث عن ذات الممدوح ، وإسهابه في التعبير عن مشاعر الجماعات ، ويستشهد بما قيل في مدح العروبة

---

١ مدح ابن مشرف عبد الله بن فيصل بانتصاره على قبيلة العجمان فقال : (الديوان ص ٦٧) :

فمن ذلك الفتح المبين الذي له ... تهلّل وجه الدين وابتسم الثغر
تفتّح أبواب السّماء لمثلهِ ... ويعلو بسيط الأرض أثوابها الخضر

٢ وقال ابن مشرف في قصيدة يمدح عبد الله بن فيصل : (المصدر نفسه ص ٧٠) :

فلما أتى « الجهراء » ضاقت بجيشه ... وجالت بها الفرسان بين العساكر
فولّى العدا الأدبار إذْ عاينوا الردى ... بطعن وضرب بالقنا والخناجر
فما اعتصموا إلاّ بلجّة مزبدٍ ... من البحر يعلو موجه غير جازر
فغادرهم في البحر للحوت مطعماً ... وزاد لسرحان ، ونمر ، وطائر

ونضالها ، وحركات تحررها من قيودها [1] . أو يزعم الباحث أن الجديد في المديح يحمل في ثناياه ما يقدمه الممدوح إلى شعبه من إصلاح ، وما يسعى إليه من خدمة وطنه وبلاده في نشر العلم ، ليرفع عنها شقاء الجهل المردي [2] ، وأنه يبسط النور والعرفان ليُحله في أعلى ذرى المجد ، ويعلي في الربوع لواء الصناعة [3] ، ويشجع على الزراعة ، ويبعث البعثات العلمية إلى الخارج لتعود مؤهلة فتخدم وطنها [4] ، وأنه يحضّر البادية ، ويقضي على حياة التشرد في

---

١ القصائد التي تمدح العروبة ونضالها كثيرة في الشعر السعودي . ومن بواكيرها قصيدة محمد سعيد العامودي بعنوان « ظلموك يا أم المدائن » وكان يعني بها مدينة دمشق التي رزح عليها الاستعمار الفرنسي فقال : (محمد سرور الصبان ، أدب الحجاز ص ٥٣) :

القوم قومك والبنون بنوك   والطامحون إلى العلا أهلوك
إنْ جدَّ جِدُّ الأمر يا «سورية»   فهم الذين جنودهم تحميك
وإذا الوغى قد صاح صائحها فلا   تدعو الوغى إلاّ وقد جاؤوك
. .جيرون يا دار الأعزة والألى   بين الممالك في الذرى رفعوك
كم في الحوادث من مآثر جمة   للنابهين النابغين بنيك
والعبقرية والحماسة والنهى   صدق الذين بهن قد وصفوك
أدمشق يا بلد الكرام ومعقل الـ   أبطال في يوم القنا المشبوك
يا موطن الأحرار والسادات من   أهل الوفاء إذا دعا داعيك
أنتِ الفريدة بالسماحة والندى   بالفضل والعلياء قد عرفوك

٢ انظر في ديوان فؤاد شاكر « وحي الفؤاد » القصائد ذات الرقم ٦٤ و ٧٧ و ٨٨ و ١٩١ و ١٩٢ ؛ وفي جريدة « أم القرى » العدد ١٧٩ قصيدة أحمد حسن ستي ؛ والعدد ١٨٠ و ٢٢٨ قصائد الغزاوي .

٣ انظر في ديوان « وحي الفؤاد » القصيدة ذات الرقم ٩٠ ؛ وفي جريدة « أم القرى » العدد ١٨٠ قصيدة الغزاوي .

٤ انظر في « وحي الفؤاد » القصائد ٥٢ و ٧٦ و ٧٩ و ٨١ وفي « أم القرى » العدد ١٨٠ قصيدة الغزاوي ؛ وديوان إبراهيم خليل العلاف « وهج الشباب » ص ٦٥ .

الصحارى والقفار [1] ، ويقوّي الجيش [2] ويصون الحدود ، ويشيد المعامل ، ويبني المصانع [3] . ويرفع المدارس والمستشفيات ، ودور الأيتام [4] ، والملاجىء الخيرية للضعفاء والمساكين ، ويمد سكك الحديد [5] والإسفلت ، ويربط بين المدن والقرى [6] ، وأنه يدفع البلاد إلى الحضارة الحقة بعزم وإخلاص [7] .

ويخيل إلينا أن ذلك الادعاء فيه وهم كبير . ولو تصفحنا دواوين القدماء تصفحاً مطمئناً لوقعنا على كثير ممّا يُظَن أنه جديد وحديث . أوَلَم يمدح أبو العتاهية الخليفة بأن الخلافة أتته منقادة إليه تجررُ أذيالها [8] ؟ أوَلَم يقل البحتري في مدح المتوكل بأن الخلافة لما اهتز منبرها بجعفر أُعطِيَت أقصى أمانيها [9] ؟

---

١ انظر في « أم القرى » العددين ٢٢٩ و ٢٧٧ تجد قصائد خالد الفرج في هذا الموضوع .

٢ انظر في ديوان « وحي الفؤاد » القصائد ٦١ و ٦٣ و ٧١ و ٨٥ و ٨٩ و ١٨٨ و ٢١٤ .

٣ انظر في المصدر السابق ، القصيدة ٩٠ .

٤ انظر في المصدر السابق ، القصيدة ٥٠ و ٥١ .

٥ انظر في المصدر السابق ، القصيدة ٢١٥ .

٦ انظر في قصيدة عبد الله بن خميس ، جريدة « عكاظ » تاريخ ذي القعدة ١٣٨٨ هـ/١٩٦٧ م .

٧ انظر في ديوان « وحي الفؤاد » القصائد ٨٠ و ١١٧ و ١٢٠ و ١٣٥ و ١٦٩ و ٢٢١ قصائد الخطيب والغزاوي والقنديل ؛ وفي كتاب الأنصاري « تاريخ مدينة جدة » ص ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤١ ؛ وكتاب الشنقيطي « النهضة الأدبية بنجد » ص ٩٢ و ١٤٥ و ١١٥ ؛ وديوان محمد حسن فقي « قدر ورجل » ص ١٦٨ و ١٧١ .

٨ مدح أبو العتاهية المهدي فقال : (الديوان « تحقيق شكري فيصل » ص ٥١٢) :

أتته الخلافة منقادة ... إليه تجرر أذيالهـــا
ولم تكُ تصلح إلاّ له ... ولم يكُ يصلح إلاّ لها
ولو رامها أحد غيره ... لزُلزِلت الأرض زلزالها

٩ مدح البحتري المتوكل فقال : (الديوان « تحقيق كرم البستاني » ١/٣٦) :

إنّ الخلافة لما اهتز منبرهــا ... بجعفر ، أُعطِيَتْ أقصى أمانيها
أبدى التواضع لمّا نالها دعةً ... عنها ، ونالته ، فاختالت به تيها

أوَلم يمدح المتنبي سيف الدولة بأنه طول الحياة للروم غاز[1] ؟ أوَلم يقل أبو تمام[2] للمعتصم بأنه أبقى جَدَّ بني الإسلام في صُعُد ، والمشركين ودارَ الشرك في صبَبٍ ؟ فإذا كان ذلك ، فمديح المعاصرين لخلفائهم أو ملوكهم بأنهم ثاروا لإعزاز الدين ، وأتتهم الخلافة أو الرئاسة منقادة إلى أعتابهم فِكَرٌ قديمة مكرورة ، كثيراً ما رددها الشعراء السابقون . أمّا حديث المعاصرين عن الإصلاحات الداخلية ، وإشادة المدارس والمصانع والمشافي ، فيقابلها في أقوال القدماء إشادة البحتري ببركة المتوكل[3] ، وثناء المتنبي على سيف الدولة بأنه نشر السلام ، وأمّن العباد ، وقوّى الجيش ، وأعدَّ لكل شيء عدته[4] ، وتمجيد أبي تمام لأحمد بن أبي دُوَاد بأنَّ كاهله حمل الخطوب ، وأن ممدوحه

---

١ مدح المتنبي سيف الدولة فقال : (الديوان « وضع عبد الرحمن البرقوقي » ٣/٢٧٧) :

أنت طولَ الحياة للروم غازٍ فمتى الوعدُ أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أيّ جانبيك تميل
قعد الناس كلهم عن مساعيـ ـك وقامت بها القنا والنصول

٢ مدح أبو تمام المعتصم فقال : (الديوان « تحقيق محمد عبده عزام » ١/٥٢) :

أبقيتَ جدَّ بني الإسلام في صُعُد والمشركين ودارَ الشرك في صبَبِ

٣ مدح البحتري المتوكل ووصف بركته فقال : (الديوان « تحقيق البستاني » ١/٣٤) :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنساتِ إذا لاحت مغانيها
. . كأن جنَّ سليمان الذين وَلوا أمرها ، فأدقوا في معانيها
فلو تمر بها بلقيسُ عن عَرَضٍ قالت : هي الصّرح تمثيلاً وتشبيها

٤ مدح المتنبي سيف الدولة فقال : (الديوان « وضع البرقوقي » ٤/١٠٩) :

فتى تتبع الأزمان في الناس خطوه لكلّ زمانٍ في يديه زمام
تنام لديك الرسل أمناً وغبطةً وأجفان رب الرسل ليس تنام
وإنّ نفوساً أمّمتك منيعَةً وإنّ دماءً أمّلتكَ حَرام
إذا خاف مَلْك من مليك أجَرْتَه وسيفك خافوا ، والجوار تسام

كان لخطوب الزمان بالمرصاد[1] .

الجديد في المديح – في رأينا – يظهر في إحلال بعض الألفاظ محل غيرها . كان القدماء يهاجمون « الروم الأعداء » فأحل المعاصرون محلهم « المستعمرين ». وكانوا يشيدون بنصرة « الدين والإسلام » فأصبح المحدثون يهتفون بنصرة « العروبة أو القومية » . وكان القدماء يمجدون « المسلمين » فأصبح المعاصرون يمجدون « العرب أو المواطنين » . وكان الأسبقون ينادون الممدوح بـ« الخليفة » فأحل اللاحقون محلها لفظة « الملك ، أو الرئيس ، أو الزعيم » . ولا شك أن هذا كله لا يشكّل تجديداً ، ولا يعد ابتداعاً .

ولم يكن التقليد في فن المديح قاصراً على المعاني وحدها ، وإنما شمل الأداء الفني كذلك[2] . ولقد عوّدَنا المداحون من الأسلاف أن يصنّعوا قصائد الثناء ، فيختاروا لها أجزل الألفاظ ، وأقوى التعابير ، وأفخم الصور ، وينتقوا الوزن الموسيقي المناسب ، ويتخيّروا القافية ليجعلوا للقصيدة وقعاً يرغبون في إحداثه . وجاء المداحون المعاصرون فسلكوا ما سلك القدماء من حيث انتقاء الألفاظ ، واختيار الجمل ، واصطفاء الصور ، واعتمدوا – إلى حد بعيد – على القوالب العروضية القديمة التي نالت النجاح والقبول والشهرة ، فصاغوا على منوالها . وأقرب شاهد على صحة هذه الملاحظة قصيدة ابن عثيمين في مدح الملك عبد العزيز التي مطلعها « العزُّ والمجدُ في الهندية القُضُبِ » فهي صورة تكاد تكون معارضة لقصيدة أبي تمام « السيف أصدق إنباء من الكتب » والفرق الوحيد بين القصيدتين أن ابن عثيمين رفع اسم « المعتصم » وأحل محله

---

١ مدح أبو تمام أحمد بن أبي دواد فقال : (الديوان « تحقيق عزام » ١/٣٥٩) :

حمَـل العبء كاهلٌ لك أمسى   لخطوب الزمان بالمرصـــاد

٢ في الباب الخامس تفصيل كبير للأداء الفني ، لذلك لم نسهب في عرض أسلوب المديح .

« عبد العزيز » وحذف كلمة « الخليفة » ووضع مكانها « الإمام » وغيّر اسم المعركة « عَمُّورِية » وجعل بدلها « الأحساء والرياض » ثم أبقى كل شيء كما كان بحراً ، ورَوِيّاً ، وتعابير ، وشكل أداء . ومثل ابن عثيمين كثير .

الفصل الثالث

فن الرثاء

لا يمكن لباحث في أدب المملكة العربية السعودية أن يقول : إن شعر الرثاء في هذه المملكة يَعْدِل شعر المديح أو الغزل من حيث كميته وغزارته . ولكنه يستطيع أن يقول : إن الرثاء في الأرض السعودية فن تقليدي صِرف جرى فيه أصحابه من الشعراء على نهج القدماء ، شأنهم في هذا شأن شعراء الغزل والمديح .

ونعتقد أن حكمنا على هذا الفن بالتقليد لا يتضح إلاّ إذا قارنّا بين مراثي القدماء والمعاصرين ، وكشفنا عن مواضع اللقاء بين كل من الإنتاجين .

أما المصادر التي اعتمدنا عليها في هذا البحث فهي مصادرنا في دراسة الشعر السعودي . تبدأ بكتاب « تاريخ ابن غنام » وتنتهي بالصحف الصادرة في المملكة حديثاً . وتمر بين مرحلة البداية والنهاية على « تاريخ ابن بشر » ، و « تاريخ ابن عيسى » ، ودواوين « ابن مشرّف الأحسائي » ، و « ابن سَحْمان » ، و « ابن عُثَيْمين » كما تمر على دواوين الشعراء المعاصرين المطبوعة ، وكتب المجموعات التي تحدثت عن مناطق معينة ككتاب « شعراء هَجَر » و « تاريخ الأحساء » ، و « ساحل الذهب الأسود » ، و « تاريخ عَسير » ، و « في ربوع عَسير » ، و « شعراء نجد المعاصرون »، و « شعراء الحجاز المعاصرون » ، و « الموسوعة الأدبية » ، للسّاسي ، و « مجلة المَنْهَل » و « وحي الصحراء » وصحف المملكة ، وبخاصة «القِبلة» ، و « أم القرى » .

ولقد ظهر تقليد الشعراء المعاصرين للأقدمين في ثلاثة مظاهر . أولها :

في هُويّة المرثيين . وثانيها : في معاني شعر الرثاء . وآخرها : في أسلوب القصيدة الرثائية ، وشكل أدائها الفني .

فالمرثيون في الشعر السعودي هم مرثيو القدماء . والفارق الوحيد بينهم هو اختلاف الأسماء .

وإذا حاولنا تصنيف الذين بكاهم الشعر السعودي وجدناهم عدة فئات . أولاها : الأئمة والملوك ، وأفراد الأسرة الحاكمة ، والوزراء ، والزعماء والملوك المسلمون . وثانيتها : الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وأبناؤه ، وذريته ، ورجال الدعوة السلفية . وثالثتها : أسرة الشاعر من زوج ، وأم ، وولد ، وأهل ، وأصحاب ، وأحباب . وقد يرثي الشاعر نفسه قبل أن يبكيه الآخرون . وهناك رثاء للبلدان المنكوبة ، والأوطان المصابة ، والشهداء في سبيل الحرية ، كما أن هناك لوناً خاصاً من الرثاء كان في العلم ، أو في الدين ، أو في الأخلاق.

أما رثاء الفئة الأولى فطابعه العام رسميّ . والملوك الذين وقفنا على رثائهم هم: الإمام تركي ، وابنه فيصل ، وحفيده عبد الله ، وعبد الرحمن ، والملك عبد العزيز ، وابنه الملك سعود . ولم نعثر على ما رُثي به محمد بن سعود ، وابنه عبد العزيز ، وحفيده سعود الكبير ، وابن حفيده عبد الله الذي قتل في الآستانة . ولعل غياب هذا الشعر مرده إلى عدم الكتابة ، أو إلى ضياعه بسبب الإهمال ، أو لأنه كان مصوغاً بلغة نَبَطية لم نَطّلع عليها .

كذلك فقد وقفنا على رثاء سعودي في الملك محمد الخامس عاهل المغرب ، كما وقفنا على رثاء الأمير منصور بن عبد العزيز [1] ، وخالد بن محمد بن عبد الرحمن [2] ، والوزير عبد الله السليمان [3] ، ومحمود فهمي النقراشي ، وأفراد

---

١ تولى وزارة الدفاع والطيران . توفي في باريس سنة ١٣٧٢ هـ/١٩٥٢ م .

٢ ابن أخي الملك عبد العزيز . توفي سنة ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م .

٣ ولد في عنيزة سنة ١٣٠٥/١٨٨٧ . رحل إلى الهند والبحرين صغيراً ، وعمل في =

آخرين كانوا يتميزون في حياتهم بمكانة اجتماعية رفيعة .

ومضمون ما قيل في هذه الفئة يتشابه ومضمون ما قيل في أمثالها في الشعر القديم . وجُلّ المعاني دارت حول المصيبة التي حلت، فكانت منشاراً للقلب، تحز فيه وتقطع ، وأن الكارثة ليست مقصورة على الناس وحدهم ولكنها كارثة أصابت الشريعة الغرّاء التي مات عنها إمامها [1] . ولا بد في الرثاء من استعراض شمائل المتوفي ، وخصاله الحميدة التي كان يتمتع بها . وينقلب الرثاء إلى مديح ، إلاّ أن الشاعر يحافظ على التزام الفعل الماضي فيقول : كان المرحوم كريماً ، وكان أسداً ، وكان ، وكان ، ممّا تعودنا أن نراه في المديح التقليدي [2] .

= التجارة . استدعاه الملك عبد العزيز سنة ١٣٣٨ هـ/١٩١٩ م ليقوم بشؤون كتابته ، وتولى سنة ١٣٤٥ هـ/١٩٢٦ م وكالة المالية العامة ، ثم وزارتها حتى ١٣٧٣ هـ/١٩٥٣ م . حيث طلب إعفاءه فأجيب إليه . نفذ إدخال المياه إلى جدة ، ونشر الزراعة الحديثة في « الخرج » ، وأسس شبكة المواصلات اللاسلكية ، وعقد الاتفاقية مع الأمريكان للتنقيب عن البترول ، وأسس شركات الإسمنت ، وغيرها . (المنهل الفضي ص ١٩٧) .

١ رثى عثمان بن منصور – وهو من نواصر تميم ومن أهل حوطة سدير (ت ١٢٨٢ هـ) – الإمام تركي بن عبد الله فقال : (ابن بشر ص ٣٠٤) :

أبرق بدا من جانب الشرق يكشف ... يذكر ألاّفاً وللدمع ينشف

. . وفي القلب للأحزان وَشرٌ كأنه ... مناشر نَشّار من القلب [تشلف]

لِرزء عظيم حلّ في ربع ديننا ... إمام الهدى فيه القرابين تغلف

٢ رثى ابن مشرف الإمام فيصل بن تركي فقال : (الديوان ص ١٠٢) :

على فيصل بحر الندى والمكارم ... بكينا بدمع مثل صوب الغمائم

إمامٌ نفى أهل الضلالة والخنا ... بسمر القنا والمرهفات الصوارم

فكم فلّ مِنْ جَمْعٍ لهم جاء صائلاً ... وأفنى رؤوساً حزها في الملاحم

ومن رثاء عثمان بن منصور الإمام تركياً وآباءه قوله (ابن بشر ٣٠٤) : =

وجاء في رثاء الملك عبد العزيز إضافة إلى نعوته التقليدية المتوارثة : أنه كان حصن العروبة ، افتخرت به العوالم من عرب ومن عجم [1]. وأنه المصلح العظيم ، أسس دولة ، وجمع الأشتات والأحزاب ، وبدّل العداوات إخاء وحباً ، وضم شرق البلاد إلى غربها ، وشاد ملكاً خالداً مع الزمان [2] . كذلك جاء في رثاء الملك المغربي أنه ركل العرش بقدمه ، وقَبِلَ أن يُنْفَى من بلده ، ويتنازل عن تاجه الذي ورثه أباً عن جد ، ولا يتخلى قيد أنملة عن حرية وطنه ، وكرامة شعبه . وقارن الشاعر الراثي بين الموقف الرائع العظيم للفقيد وموقف

= أئمّة صدق يقتفون نبيّهم ... عليه سلام الله غضّ مُضعّف

هم القومُ للعافي غيوث هوامع ... أسود نجوم للهدى ما تحرّف

جوارهم عِزّ ، ورفدهم غنى ... وبأسهم ذل لمن يتخلّف

١ رثى علي حافظ الملك عبد العزيز (أم القرى ، العدد ١٤٩٠ ، تاريخ ٢٠/١٠/٩٥٣) ومما قال :

.. حامي الجزيرة قد ذُبْنا أسى وضنى ... ولوعةً عصفت بالشاب والهرم

لفقد عاهلنا المحبوب ، مَنْ رَفَعَتْ ... بـه العروبة رأساً غير منهزم

حصن العروبة والإسلام قد فخرت ... به العوالم من عرب ومن عجم

عليه من سحب الرحمن هاطلة ... بالعفو والفضل والغفران كالديم

٢ لفؤاد شاكر مراث كثيرة في رثاء الملك عبد العزيز نقتطف منها هذه الأبيات (ديوان وحي الفؤاد ص ٢٥٨) :

أيهـا المصلح العظيم سلام ... يتهادى إلى علاك انتسابا

كيف أسّسْتَ أمةً من هباء ... وجمعت الأشتات والأحزابا

كيف بدّلتهـا الضراوة ودّاً ... والعداوات ، ألفة واصطحابا

كيف ألّفت باقـة من قلوب ... ما استقرت من الحياة اضطرابا

كيف سوّيت بين شرق وغرب ... وجمعت الأضداد والأحبـابا

قد ملكت النفوس بالعرف والعد ... ل ، وبالفضل قد ملكت الرقابا

الأذلاء من الحاكمين الذين يرضَوْن بكل إهانة على أن يَسْلَم كرسي الحكم من تحتهم . وانتقل الشاعر من تمجيد بطولاته إلى إكبار شعبه العظيم الذي وَفَى لمليكه ، وصَبَرَ ، وجاهد ، وظل على ذلك حتى استعاد مليكه المنفيّ إلى عرينه [1] .

وما قيل في رثاء الأمراء والوزراء والسادة لا يختلف كثيراً عمّا قيل في رثاء الملوك والحكام . والفارق المميز بين اللونين : أن الجماعة الأولى تذكر لها صفة الملكية ، أو الإمامة مع النعوت المعهودة ، ويقتصر في رثاء الجماعة الثانية على تصوير هول الفاجعة ، وعلى تعداد فضائلهم .

والملاحظة الرئيسة التي تميز رثاء هذه الفئة ملوكاً وأمراء وسادة هي شدة المبالغة ، ولا سيما في مستهل القصائد . « فالهول قد طغى حتى هانت كل مصيبة وحتى أطاح بصواب الشاعر » ، و « يا ضَيْعة الدنيا ويا ضَلّة أهلها » [2] و « رفت العيون ، وتدفقت المدامع ، وانعقد اللسان ، وغاض المنطق » [3] ،

---

١ قال محمد حسن فقي في رثائه : (قدر ورجل ص ٣٣٩) :

رضيت بمنفاك الكريم ترفعـاً ... وأقصاك عن دار الهوان رحيل
فما زدت في منفــاك إلاّ توثّباً ... وإلاّ انطلاقــاً ليس فيه قفول
أبنت لأهل المغرب النهج فاستوى ... عليه رعيل دائب ورعيل
فما يملكون اليَوْمَ إلاّ سلوكه ... وقد قادَهم بالأمس فيه دَليل

* * *

مشيئة شَعْبٍ لم يكنْ مُتَزَلّفاً ... ولكن وفيـاً . . والوفــاء جميل

٢ رثى فؤاد شاكر الأمير منصور بن عبد العزيز فقال : (وحي الفؤاد ص ٢٥٩) :

طغى الهول حتى هان كل مصاب ... وحتى أطاح الهول كل صوابي
فيا ضلة الدنيـا وضلة أهلهـا ... وليسوا معاً إلاّ خـداع سراب

٣ رثى فؤاد شاكر الأمير خالد بن محمد بن عبد الرحمن فقال : (وحي الفؤاد ص ٢٦١) :

قلب يرف ومدمع يتدفق ... عقد اللسان له وغاض المنطق =

و « خـَرَّ طـَودٌ فهزَّ من تحته الأرضَ ، وريعت من حوله الأبصار ؛ لأن المتوفى كان « فسطاس » الدنيا ، فيا ويح دنيا زال عنها « فسطاسها »، «وإن الأمانيّ لتبكي عليه ، وإن الأوطار لتضج ألماً لفقده »[1] ، ولقد « حلت الفجيعة المروعة ، والخطب الذي يجل عن الوصف ، فنَعْيُ المتوفى — وهنا قد يذكر اسمه — أذهل الأسماع ، وأخذ بالألباب ، وما أحراه ألا يبكى عليه بالدموع وإنما بتمزيق الأكباد »[2] .

هذه المبالغات ليست غريبة عن شعر الرثاء ؛ فلطالما درج القدماء على مثلها ، وهوّلوا من شأن الكارثة ، وجسّموها . فجرير رثى الخليفة عمر بن عبد العزيز فوصفه بأنه « خير من حج بيت الله واعتمر »[3] وأبو تمام رأى في مصرع محمد بن حُمَيد الطّوسي « أن الآمال توفيت بعده ، وأصبح في شغل عن السَّفـَرِ السَّفْرُ، لأنه كان مال من قلّ مالُه ، وذخراً لمن أمسى وليس له

= فبكل جارحة أنين موجع وبكل جانحةٍ فؤاد يخفق

١ رثى محمد حسن فقي الوزير عبد الله السليمان فقال : (الديوان ص ٣٤٢) :

خـَرَّ طـَود فهزّ من تحته الأرض . . وريعت من حوله الأبصار
كان منها [الفسطاس] . . يا ويح أرض . .زال فسطاسها. .وثار الغبار
. . يا فقيداً بـَكـَتْ عليهِ الأمانيّ . . وضجـّتْ لفقده الأوطار

٢ فؤاد شاكر اشترك في حفلة تأبين محمود فهمي النقراشي في القاهرة ومما قاله : (جريدة الأهرام — ربيع الثاني ١٣٦٨ ﻫ/فبراير ١٩٤٩ م) :

فجعنا وروعنا بخطب مروع وقلّ له في الوصف خطب مروع
لقد ذهلت أسماعنا عند نعيه وطاشت له أحلامنا تتصدّع
بـَكينا عليهِ لا بدَمْعٍ وإنّما بأكبادنا الحرى عليه تقطع
وهيهات أن تجزي على الخطب أنّةٌ وهيهات أن يُجزي حنين مرجّع

٣ قال جرير في رثاء عمر بن عبد العزيز : (شوقي ضيف ، الرثاء ص ٥٩) :

ينعي النعاة أمير المؤمنين لنــا يا خير من حـَجّ بيت الله واعتمرا

ذخر [1] . والحسن بن وهب بكى ابن الزيات وزير المتوكل وزعم « أن قلبه كاد يطير من الجزع حين بلغه نعي الوزير ، وما ذلك إلاّ لأن ركناً من أركان الدنيا انهدم بوفاته [2] . ورثى شاعر أندلسي المنصور بن أبي عامر فحلف بالله إنه « لا يأتي الزمان بمثله » [3] .

أما رثاء الفئة الثانية، وهي الجماعة الدينية ، فطبيعي أن يكون لها نصيب من الرثاء والتأبين ، ولا سيما في بلد ديني كالبلاد السعودية . وقلما مات رجل عالم ، أو صاحب أثر في تآليف الشريعة إلاّ نعاه الشعراء ، وتحدثوا عن فضله ، وواسع علمه ، وجزيل خيره . وممن بكاهم الشعراء شيخ الدعوة النجدية وسيدها محمد بن عبد الوهاب ، وورثته من الأبناء والأحفاد الذين حملوا راية الدعوة بعده ، والعلماء الذين جاهدوا لإعلاء كلمة الله ، ونصرة الدعوة السلفية في داخل البلاد وفي خارجها . ولسنا نريد أن نستقصي أسماء المرثيين فهم كثر ، ويكفي أن نلقي نظرة على ما ضمه « تاريخ ابن غنام » و « تاريخ ابن بشر » و « شعراء هـَجـَر » والمجموعات الأدبية المختلفة ، ودواوين

---

١ رثى أبو تمام الطوسي ومما قال فيه :

.. توفيت الآمـال بعد محمّد ... وأصبح في شغل عن السّفَر السّفْر

وما كان إلاّ مال من قلّ ماله ... وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر

٢ رثى الحسين بن وهب ابن الزيات فقال : (ضيف ، الرثاء ص ٦١) :

يكاد القلب من جزعٍ يطير ... إذا ما قيل قد هلك الوزير

أميرَ المؤمنين هدمت ركناً ... عليهِ رحاكم كانت تدور

سيبكي الملك من جزع عليه ... وتبكي حين تضطرب الأمور

٣ قال فيه بعض الشعراء رائياً ؛ وقد نقشت على قبره (ضيف ص ٦١) :

آثاره تنبيك عن أوصافه ... حتّى كأنك بالعيان تراه

تالله لا يأتي الزمان بمثله ... أبداً ولا يحمي الثغور سواه

الشعراء لنقف على أسمائهم ، بل يكفينا أن نقول : إن معظم علماء هذه البلاد نالوا نصيباً طيباً من الثناء والبكاء حين انتقلوا إلى رحمة ربهم .

ولو استعرضنا مضمون ما قيل في هذه الفئة وجدناه لا يتعدى كون المبكي عليه « مُلِيء علماً ، وحُشي فهماً ، واتسع مداركه ، وقضى حياته ناصراً الشرع ، موضحاً المنهج القويم ، مزيلاً الشبهات . يدفع الحجة بالحجة، ويقيم الحدود ، ويعلي دعائم الدين [1] ، وأنه شمس البلاد ، وضحى المهتدين ، وأنه الحَبْر والبحر ، وأن مواعظه لتتألق منها القلوب ، وتبتهج الأرواح . آراؤه حزم ، وسيرته هدى ، وألفاظه نور ، ورؤيته ذكرى [2] . ولقد ضاقت بالناس من موته الأرض والدار . كان هماماً ، له في كل ناد ومشهد علوم تحاكيها الرياض والأزهار . كان وِرْده القرآن [3] . تكاد الأوراح تذوب أسى وتفجعاً

---

١ رثى الشيخ عبد العزيز العلجي الشيخ إبراهيم بن عبد اللطيف آل مبارك فقال (شعراء هجر ٤٨٧) :

.. تنكرت الأحساء يوم وفاته ... فسكانها حيرى وأرجاؤها [غُبْرا]
إمام إذا فخمته شهدت له ... أياديه فينا والمعالي التي تدرى
وأهل العقول الراجحات من الورى ... وكل حليم يشتري المجد إذ يشرى

٢ قال العلجي في رثاء إبراهيم آل مبارك : المصدر السابق ص ٤٨٧) :

مواعظ حَبْر عن كتاب إلهه ... وعن سنة المختار ينشرها نشرا
فآراؤه حزم وسيرته هـــدى ... وألفاظه نور ورؤيته ذكرى
مواقفـــه في نصرة الدين جمةٌ ... فخام، فسَلْ من قد أحاط بهخُبْرا

٣ رثى الشيخ عبد الله آل عمير الشيخ راشد آل المبارك فقال : (المصدر السابق ص ٥٧٣) :

عرانا ممات الشيخ ذي الرشد راشدٍ ... فضاقَتْ بنا من مَوْته الأرض والدار
همام له في كلّ نادٍ ومشهدٍ ... علومٌ تحاكيها رياضٌ وأزهارُ
وَوِرْدٌ وقرآنٌ وذكرٌ وفُتْيَةٌ ... من الناس يبغون الهدى منه أبرار
فيوسعهم صدْراً رحيبــاً وأبحراً ... من العلمِ لم يُدْرَك لهنّ قرار

لموته[1] . لتبكه المحاريب التي كان يتهجد بها ، والمدارس التي كان يعلم فيها ، والناس الذين كانوا يهتدون بهداه[2] ، وما أشبه هذه النعوت . ولا شك أن مثل هذه المعاني قد وردت في رثاء العلماء في الشعر القديم وجاء المعاصرون فلم يأتوا بجديد .

أما الفئة الثالثة : فهي رثاء الأحبة : أب يرثي ابنه أو ابنته ، وأخ يبكي أخاه أو أخته ، وزوجة تتفجع على زوجها، وزوج يندب شريكة عمره ، وصديق يتلوع على توديع صديقه ،وإنسان يعكف على ذاته فيبكيها ويرثيها .

هذا اللون من الندب نواح ، يتميز بالحرقة واللوعة ، ويغلب عليه الصدق ، وتسيطر على أبياته رنة الأنين ، ومسحة الكآبة . وهو أولى أنواع الرثاء بهذه التسمية لأن الجرح في قلب الشاعر ، والمصيبة في ذاته أو في بيته . واستعراض أدب هذا اللون في أشعار العرب القديمة يوقفنا على صور من المآسي والألم ، نجح الشعراء أيما نجاح في التعبير عنها ، وأبدعوا أيّما إبداع .

ولقد وقفنا في الشعر السعودي على عدد من قصائد هذا اللون ، إن تميزت بشيء فباللوعة والحرقة والألم الصادق . ماتت ابنة أحد الشعراء ولمّا تبلغ السنوات من عمرها ، وحملها الوالد المنكوب إلى لحدها وواراها التراب

---

١ رثى عبد الله آل عمير الشيخ راشد آل مبارك في قصيدة ثانية فقال : (المصدر السابق ص ٥٧٥) :

. . تكاد له الأرواح من حينما جرى … تذوب أسى من حرّه وتفجّعا
عشية يوم خرّ بدْرٌ من السّما … إلى الأرض أمسى آفلاً متصدعا

٢ رثى عبد الله آل عمير الشيخ عبد الله بن علي آل عبد القادر فقال : (المصدر السابق ٥٧٩) :

. . فسلْ عنه أرجاء المدارس هل ترى … له خلَفاً يبدي الهدى وهو خاسف
وسل عنه محراب التهجد في الدجى … يفدك بأن الحبر لله واقف
فأكرمْ به من حبْر علم قد اهتدى … بهدي له فينا الغبيّ المخالف

بيديه ، لكنه دفن معها فرحته بالحياة ، وبسمته للوجود ، ورغبته في البقاء ، وراح يبكيها صادق العبرات ، وينوح على فلذة كبده مرّ النواح [1] . وماتت زوجة شاعر فتأثر لفراقها تأثراً كبيراً ، وأكثر من رثائها ، وافتنّ في إظهار مشاعره الذاتية ، وإحساسه بالحزن واللوعة والألم لما يعانيه بعدها، وما تقاسيه بناته بوفاتها [2] . ولم يكتف أن يبكي عليها بقصيدة واحدة ، بل راح ينظم في رثائها القصيد تلو القصيد ، يصفها مرة كيف كانت طريح الفراش تعاني سكرات الموت ، ويعدد مناقبها مرة أخرى، وما كانت عليه في حياتها من سموٍّ ورفعة . ومرة يقول عنها : إنها كانت معنى وجوده ، وبهجة حياته ، وجمال دنياه . وحيناً يناجيها ، أو يعاتبها على موتها لأنها تركته في الحياة بلا سند ، وأورثت في قلبه وقلب بناته الحزن الدائم المقيم [3] .

إن مثل هذه الأحاسيس الحزينة في رثاء الأحبة أمر طبيعي ، يتفق مع

---

١ رثى أحمد قنديل ابنته فقال : (عبد الله عبد الجبار ، التيارات الأدبية ص ٢٦٧) :

غريبان عشنا في الحياة على لِقا ... بدنيا هوانا الصامت المتنقّب

إلى أن أشار الموت نحوك خاطفاً ... حياتك في صبح من الهول مرعب

وأفزعني الناعي بما هاج ساكني ... وأيقظ إحساس الأب المتعذب

٢ قال الزمخشري يخاطب زوجته وهي على سرير الموت : (أنفاس الربيع ص ١٠٩) :

ليس لي بعدك في الدنيا بقاء ... فاسلمي أو نُسلم الروح سواء

أنت لي بعض ، فوهمٌ أنني ... أتخلى عنك يطويك الفناء

لا تخافي صولة الداء فما ... خفت يوماً من تصاريف القضاء

والمآسي يا حياتي قِسَمٌ ... بين قلبينا كما شاء البلاء

فحرامٌ أنْ تذوبي ألماً ... بين عَيْنيَّ وأرضى بالبكاء

فارهفي عزمك للداء فما ... يقهرُ الأدواء إلاّ الأقوياء

٣ قصائد كثيرة للزمخشري في زوجته وبناته أخذت من ديوانه (أنفاس الربيع من الصفحة ١٠٩ إلى ١٢١) .

طبيعة الإنسان والعاطفة الصادقة التي تربط الناس بعضهم ببعض ، ولكن غير الطبيعي أن يرثي أب ابنته المتوفاة ، فنلمس في شعره جفاف العاطفة وشح الحنان ، وقسوة القلب . لقد وقعنا على قصيدة نظمها أب « شاعر » في رثاء ابنته « زينب » وكنا نتوقع قبل قراءة القصيد أن نقف على ندب حزين ، ونشهد أباً حزت المصيبة قلبه ، وقطعته ألماً ، وعلى عاطفة تذوب رقة وحناناً فتفيض لها عيوننا ، وتتصاعد لها زفراتنا مشاركة إنسانية . لكنا نصاب بدهشة حين نجد الأب «يصبّر نفسه لعل الله يرحم وحدته ،ويبدل عسره يسراً ، ويقول عن نفسه : إنّ الأحرى بالرجل الحر ألا يجزع مهما عظمت المصيبة ، وإنه سيفعل ذلك لأنه نبيل ، ثم يختم قصيدته بالفخر بنفسه»[1] . هذه المعاني أقل ما يقال فيها : إن فيها تصبّر الرجال وجلدهم أمام المصائب ، لكنها في مثل هذا الموطن ظهرت بعيدة عن عاطفة الأبوة ، وكان خيراً منه ذلك الشاعر الذي رثى ابنة أخيه ، فذكر أن لهيب الوجد يحرق الأحشاء ، وأن دمع العين سحٌّ سكوب ، وأن نار الحزن مضطرمة متقدة على فقيدة المثال ، وعديمة النظير ، وكريمة المحتد ، وكاملة العقل ، وعفيفة العرض ، وجليلة القدر ، وما إلى ذلك من شمائل ومزايا[2] ، ثم

---

١ رثى عبد الله عرفج – من شعراء نجد – ابنته فقال : (الشنقيطي ، النهضة الأدبية بنجد ص ٩٢) :

صبراً لعل الله يرحم وحدتي ... ولعل عسري باليسار يزول
صبراً فإن الحر ليس بجازعٍ ... مهما يكن ممّا يكون جليل
ما كانت الأيام تجهل شيمتي ... كلا . ولست أمامهنّ ذليل
ما كنت يوم وفاة زينب جازعاً ... وحياة ربي إنّني لنبيـــل

٢ رثى عبد الله بن عمير بنت أخيه فقال (شعراء هجر ص ٥٨١) :

لهيب الوجْد للأحشاء صال ... ودمع العين يجري بانْهمال
ونار الحزن شَبَّ لها ضرامٌ ... على فقد العزيمةِ للمثـال =

استطرد الشاعر إلى المتنبي في قصيدته التي رثى فيها أم سيف الدولة الحمداني فأورد الأبيات[1]، ثم قال ليست تلك المرثية بأولى من هذه الفتاة بهذه الأبيات، وانتهى إلى الدعاء لها أن يغفر لها الله، ويسكنها واسع جناته، ويلبسها أثواب الديباج التي لا نظير لها، وختم القصيدة كعادة سائر شعراء الرثاء في المملكة بالصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولعل من الغرابة بمكان أن نقول: إن رثاء الأسرة والأصحاب لم يكن في الشعر السعودي إلاّ نزراً قليلاً. ونحن أمام هذه الظاهرة نقف حائرين، بل عاجزين عن معرفة سبب نستريح إليه ويطمئن قلبنا له.

بقي رثاء الشاعر نفسه. ولقد وجدناه في الشعر السعودي قليلاً، أيضاً، بل لم نعثر عليه إلاّ عند شاعر واحد معاصر هو محمد حسن فقي، وما قاله هذا سدّ مسدّ الجميع. ويكاد ديوانه «قَدَرٌ ورجل» يطفح به، رغم تنوع موضوعاته، وتقلبها بين العروبة والإسلام، والحب، والتأمل، وموكب الحياة، والمراثي، وسواها. وعناوين قصائده تدل على نفس أضاعت شيئاً ما في حياتها، فراحت تبحث عنه، فلا هي عارفة ما أضاعت، ولا هي عارفة ما تبحث عنه. من هذه العناوين: تساؤل الشاعر «من أنا»[2]، و «غربة الروح»[3]، و «نفس تبحث عن نورها»[4]، و «الموكب الوعر»[5]،

=
كريمةُ محتد في العقل فاقت ... على الأقرانِ في كلّ الخصال
عفيفعرضها عن قول فحشٍ ... وعن دنسٍ وعن شرّ الفعال

١ يقصد الأبيات:
ولو كلّ النساء كمن فقدنا ... لَفُضّلت النساء على الرجال
فما التأنيث لاسم الشمس عيب ... ولا التذكير فخرٌ للهلال

٢ قدر ورجل ص ١٠٥.
٣ المصدر نفسه ص ١١٥.
٤ المصدر نفسه ص ١٤٥.
٥ المصدر نفسه ص ٢٣٦.

و « عذاب الحَيْرة »[1] ، و « قَدَر ورجل »[2] ، و « الوادي الظليل »[3] ، و « المقبرة الحانية »[4] ، و « رهين المَحْبِسَيْن »[5] ، و « الرحى والطحين »[6] ، و « خاتمة المطاف »[7] .

ويبدو الشاعر فقي في ديوانه ضائعاً أو كالضائع ، تلفه ظلمات بعضها فوق بعض ، وتعذبه الحيرة ، ويسحقه الشك ، وتؤلمه الظنون ، فهو يقف على المقبرة ، ويرى فيها مقبرته الحنون ، فيناديها بـ « يا مقبرتي » ، ويحدثها حديث نفسه القلقة : « إن الناس يبكون موتاهم غفلة وجهلاً ، كما أبكيهم أنا ، فيا لَغَبائنا جميعاً . نحن نبكي الذين ماتوا . ولكن كيف نبكي عليهم ونجزع لفقدهم ، وهم ينعمون براحة السماء ؟ إن الأحياء أولى بالبكاء وبالأسى . ولماذا لا نرثيهم والحياة تلهو بهم ، وتضربهم من كل جانب ؟ أجيبيني يا مقبرتي ! أنا تائه في الحيرة تصرعني ، وتعميني . من نبكي ؟ آلباقي في الفناء ، أم الفاني في البقاء ؟ »[8] .

---

١ المصدر نفسه ص ٢٧١ .

٢ المصدر نفسه ص ٢٨٥ .

٣ المصدر نفسه ص ٣٢١ .

٤ المصدر نفسه ص ٣٢٧ .

٥ المصدر نفسه ص ٢٦٣ .

٦ المصدر نفسه ص ٣٦٨ .

٧ المصدر نفسه ص ٣٧٤ .

٨ يقول الفقي في قصيدته « المقبرة الحانية » ص ٣٣١ :

مقبرتي . يَبْكي الورى غفلةً ... موتاهمو – مثلي – فيا لَلْغباء
وكيف يبكي مَن عَداه الردى ... مَنْ ناله . . كيف استحق البكاء
أيّهما أولى بهذا الأسى ... ينصب في الدمع . . وهذا الرثاء
هل هو هذا الميت . رهن البلى ... أم هو هذا الحي . رهن البقاء =

وفي قصيدة الشاعر التي عنوانها « هنري » المستوحاة من لوحة بهذا الاسم قدمها إليه ناشر أمريكي يدعى : « ماكس أولاف »[1] وأراد نشر انطباعات كبار الشعراء العالميين عنها، وقد اختار الشاعرَ محمد حسن فقي من المملكة، ردد في هذه القصيدة المعنى الذي أوردناه ، أو قريباً منه . وتخيل الشاعر أنه يخاطب نجيّه، فقال له : « إننا نمضي إلى الفناء ، وسوف نستعذب ماءه متى وردناه ؛ لأن في غمرته راحةً من عناء البقاء. إننا لن نجزع على ذهاب الحياة ، ولن نخاف من الموت ، وكيف نجزع على حياة كلها تعاسة وشقاء ؟ بل كيف نخاف من الموت وفيه نعمة وراحة ؟ يا نجيّي ! هذه الحياة ، وليس الموت ، أدعى لحزننا والرثاء. لقد بكينا الموتى ، ويا رب حياة هي أولى منا بهذا البكاء[2].

وغير خاف على مُطّلع أن مضمون هذا اللون من الرثاء عرفه الشعراء العرب الأقدمون ، وكم رثوا أبناءهم أو بناتهم ، أو زوجاتهم ، أو أنفسهم .

= هذا الذي في الأرض تلهو به دنياه أم هذا الذي في السماء
أيّهما . إنّي لَفي حَيْرَةٍ تصرعني . تركني في عماء
هل هو من يبقى بذاك الفناء أم هو من يفنى بهذا البقاء

١ ماكس أولاف Max Olaf ناشر في سان فرنسيسكو بولاية كاليفورنيا . والكتاب الذي سيظهر اسمه The special volume of the world's great livings poets .

٢ من قصيدة هنري ص ٣٠١ :

سوف نمضي إلى الفَناء . فنستعذب بَعْد الحياة وِرْدَ الفناء
إن في غمرة الفناء ارتياحاً لأولي العيش من عنـاء البقاء
كيف نخشى من الفناء . وما في العيش من راحةٍ ولا نعماء
رب حي يهفو به الفكر للمَوْت فتَأبى الحياة كلَّ الإباء
يا نجيّي . هذي الحياة . وليس الموت أدْعى لحزننا والرثاء
قد بكينا الموت . ورب حياة . هي أولى منّا بهذا البكاء

وما قصيدة أبي العلاء المعري في رثاء الحياة والأحياء ببعيدة عن الخواطر والأذهان[1] .

وإذا انتقلنا إلى رثاء المدن لم نجد إلاّ قصيدة فريدة لا شريك لها في الأدب السعودي كله ، كانت في رثاء « الدّرعية » التي تهدمت على يد إبراهيم باشا بن محمد علي باشا في حربه مع عبد الله بن سعود . وكل ما جاء فيها أن صاحبها وهو ابن مشرّف الأحسائي راح يتساءل : آلليل غَشَا الدنيا ، أم الأفق مسوَدّ بطبيعته ، أم الفتنة الظلماء قد أقبلت تعدو ، أم سرج نجد من العلماء والشرفاء أطفئت فأظلم لها الأفق وادلهمّت الدنيا ؟؟. ثم طفق الشاعر يجيب عن تساؤله بنفسه ويقول : نعم حدث كل هذا . فلقد كُوّرت شمس الهدى ، وبدا الردى حين حل بالشريعة خطب ، وحين دمّرت يد البغي دار العلم والنور . وظل يعدد ألوان المصيبة إلى أن تدرج إلى رسم ما آلت إليه حياة الناس من فوضى بعد دمار الدرعية . ومع هذا فإن القصيدة تبقى دون مستوى رثاء البصرة لابن الرومي، ورثاء بغداد للتنوخي[2] ، ورثاء الأندلس للرُّندي[3] .

أما رثاء العلم والأخلاق والتقوى فوفير . وجُلُّ المعاني التي قيلت في

---

١ المقصود بالكلام رثاء المعري لأبي حمزة الفقيه :

غيرُ مُجْدٍ في ملّتي واعتقادي نوحُ باكٍ ولا ترنّمُ شادِ

٢ هو إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبد الله التنوخي توفي سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٥ م.
ومن قصيدته في رثاء بغداد : (النجوم الزاهرة ٥١/٧) :

لِسائلِ الدمع من بغدادَ أخبارُ فما وقوفكَ والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تَفِدوا فما بذاك الحِمَى والدارِ دَيّار

٣ صالح بن شريف الرندي من شعراء القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي – وقصيدته الشهيرة في رثاء الأندلس مطلعها :

لكلّ شيء إذا مــا تمّ نقصان فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسان

هذا الصدد : « إن العين يجب أن تبكي دماً على العلم الذي درس، والدين الذي اغترب ، والجهل الذي فشا ، والعلماء الذين مضوا إلى ربهم » ، وما إلى ذلك . وغالباً ما ترد هذه المعاني في ثنايا رثاء العلماء ورجال الدين[1] .

وأخيراً ، فإن هناك رثاء وفيراً في الشهداء والمجاهدين ، نود أن نمهل الحديث عنه – لا أن نهمله – ونبقيه إلى فصل قادم ، يتحدث عن الأدب السياسي . وما رثاء الشهداء إلاّ عنصر أساسي في ذلك الفصل ، وهو يشكّل مع غيره «كُلاًّ » من الصعب أن يتجزأ أو ينفصل .

بقي الحديث عن شكل هذا الفن وصورة أدائه . ونعود إلى التأكيد : إنه تقليدي صرف ، ألفاظاً ، وتراكيبَ ، وصوراً ، وطريقةَ أداء . بل كانت قصائد كثيرة منسوجة على المنوال القديم ذاته ، لم يبدل الشاعر المعاصر فيها إلاّ أسماء المرثيين ، وما يلائم الموقف الجديد الذي هو فيه[2] .

---

١ قال ابن مشرف في ص ٣٤ من ديوانه :

واغربة الدين فاعجبْ من تغربه ... عند المصدق فضلاً عن مكذبه
ألا ترى الجهل بين الخافقين فشا ... والعلم أغرب من عنقاء مغربه
أعلامه درست في كلّ ناحيةٍ ... واليوم يصدح في أعلى مخرّبه
فاندبْه ندب محب للحبيب رثى ... بحرقةٍ من فؤادٍ في تلَهّبه

٢ سيرد تفصيل لهذا الإجمال في الباب الخامس .

الباب الرابع

موضوعات الأدب المستحدثة

الظاهرة المميزة لشعر ما قبل العصر الحديث غلبة الموضوعات التقليدية عليه ودورانه في أفلاك مرسومة معلومة ، لا تتجاوز المديح والرثاء والفخر والهجاء والوصف والغزل والتأمل في الطبيعة ، وما وراءها ، أو في الحياة . وقد يجنح الشاعر إلى مَدارات صغيرة لا تعدو مُقَطّعات في الألغاز والأحاجي[1] أو في تأليف عدد من الكلمات توافق تاريخاً لمناسبة ما ، كبناء جامع ، أو ولادة طفل ، أو وفاة إنسان ، أو تسنّم منصب ، أو حلول كارثة، وما إلى ذلك ، فيضعها ضمن بيت منظوم وفق بحر عروضي معروف[2] . أو يكثّف موضوعات النحو ، أو البلاغة ، أو الفرائض[3] ، أو الفقه في منظومة ليسهل حفظها على طلبة العلم[4] . وقد يكون غرض ناظمه تضمين الأبيات لوناً من ألوان البديع كالتذييل[5] ، والتشجير[6] ،

١ انظر في كتاب عبد العزيز محمد الأحيدب المسمى « الممتاز من الأحاجي والألغاز » ص ١٤١ – ١٧٧ ؛ وانظر في كتاب حمد الحقيل « كنز الأنساب ومجمع الآداب » ص ٢٦٣ – ٢٩٨ .

٢ انظر في تاريخ ابن بشر ص ٩٥ . قال يروي تاريخ إحدى النكبات على لسان أحد الشعراء :

وتاريخ الزوالِ أتى طِباقاً « وغار » إذ انتهى الأجل المسمى

وبحساب الجمل يكون التاريخ (الواو ٦ ، الغين ١٠٠٠ ، الألف ١ ، الراء ٢٠٠ فالمجموع ١٢٠٧) وهو تاريخ النكبة .

٣ هو علم المواريث .

٤ انظر في شعر محمد سعيد آل عمير ، شعراء هجر ص ٦ .

٥ التذييل : نوع من الإطناب . ويعرف بلاغياً بأنه توكيد المفهوم بما يرفع التوهم . أو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد (القزويني ، الإيضاح ٣/٣٠) .

٦ التشجير في اللغة : ضرب من ضروب التصنيف يقوم على تفريع كلمة من معنى كلمة أخرى، =

والاقتباس [1]، والتضمين [2] والتشطير [3]، والتخميس [4]، والتعشير [5]، مطلقين العنان لمهاراتهم في هذه الميادين لأنها خير عوض من تَنَكّبهم سبل الابتداع الحق في موضوعات الشعر، وصوره، وآفاقه، وأحاسيسه، وصيغ أدائه. وقد يلجأ شاعر إلى النظم في الإخوانيات [6]، وما ينضوي تحت لوائها من مراسلات، ومساجلات، ومعارضات، ومعاتبات. ولا تعدو معاني هذه «الإخوانيات» بثّ الشوق،

= وهكذا دواليك في استطراد وتسلسل. والتشجير في الأدب: نوع من أنواع المحسنات البديعية المعروفة «بالتسهيم» وهو المسمى «بالتوشيح» أو «التوشيج» أيضاً. (انظر في المزهر للسيوطي ١/٢٦٩). وقد فصل الرافعي (٣/٤٤٤) تعريفه إذ قال: هو نوع من النظم يجعل في تفرعه على أمثال الشجرة – وسمي مشجراً لاشتجار بعض كلماته ببعض، أي تداخلها. وكل ما تداخل بعض أجزائه في بعض فقد تشاجر – وذلك بأن ينظم البيت الذي هو جذع القصيدة، ثم يفرع على كل كلمة منه تتمة له من نفس القافية التي نظم بها، وهكذا من جهتيه اليمنى واليسرى، حتى يخرج منه مثل الشجرة. وإنما يشترط فيه أن تكون القطع المكملة كلها من بحر البيت الذي هو جذع القصيدة، وأن تكون القوافي على روي قافيته أيضاً. (عانوتي، الحركة الأدبية في بلاد الشام ص ٧١).

١ الاقتباس في البلاغة: تضمين المنثور أو المنظوم شيئاً من الكلام المقدس كالقرآن والحديث والأشعار أو من مصطلح العلوم على وجه غير مشعور به (المرجع السابق ص ٧١).

٢ التضمين: – في البلاغة –: استعارة الشاعر شطراً من غيره في شعره. وفي العروض: تعلق قافية بيت بالبيت الذي يليه على وجه لا يستقل بالإفادة (المرجع السابق ص ٧١).

٣ التشطير: – في الشعر –: العمد إلى بيت ما بالزيادة عجزاً لصدر، وصدراً لعجز. ويسمى أيضاً «التسميط» (المرجع السابق ص ٧١).

٤ التخميس: توطئة الشاعر إلى البيت من شعر غيره بأربعة أشطر تجانسه في المعنى المجانسة كلها (المرجع: السابق ص ٧١).

٥ التعشير: ضرب من المقاطع الشعرية يقوم على عشرة أبيات، يتقيد الناظم بمثل حرف القافية في أول كل بيت. وبذلك يغدو نوعاً من لزوم ما لا يلزم (المرجع السابق ص ٧١).

٦ شواهد ذلك كثيرة جداً منها في كتاب «شعراء هجر» في الصفحات ٢٧ و ٣١ و ٣٨ و ٤٢ و ٦٧ و ٧٢ و ٧٣ و ٩٣ و ١٠٠ و ١١٠ و ١٤٩.. وكتاب الحقيل «كنز الأنساب» في ص ٢٨٤ و ٢٨٥ وفي معظم الدواوين المطبوعة.

وتذكّر الأيام الخوالي ، والتشبث بعرى الود والمحبة ، أو نظم إجازة التدريس شعراً ، أو كتابة حُجّة إجارة ، أو صوغ وصية ، أو طلب استعارة كتاب ، أو مبراة أو قلم ، أو اعتذار عن زيارة ، أو تهنئة بالشفاء من مرض ، وما إلى ذلك بالنظم الشعري . وربما التفت الشاعر إلى النظم في التغنّي بالوطن ، والحنين إلى الأهل والديار ، وتذكر الصحب والأحباب ، ووصف مجالي الطبيعة ، وصور الجمال . أو ربما غلبته العاطفة الدينية فراح ينظم القصائد في مدح الرسول الكريم [1] ، والشوق إلى زيارة المسجد الحرام أو المسجد النبوي . أو يجعل موضوع قصائده في استغفار الله ، والتوبة إليه من الذنوب ، وفي البكاء على الآثام والخطايا ، واستدرار الرحمة والغفران [2] .

وفي هذه المعاني جميعها لا يتجاوز الشاعر – في الغالب – حدود فرديته الخاصة ، ولا يخرج عن نطاق التحدث عن آلامه وآماله ومطامحه ومطامعه . ولا يتعرض لقضايا مجتمعه ، وأحداث شعبه ، وتطلعات أمته ، وما يحز فيها من آلام ، وما يعترضها من مشكلات ، وما تصبو إليه من آمال .

وإذا صح هذا الحكم على شعراء البلاد العربية ، فإنه ليصح – كذلك – على شعراء الجزيرة قبل مطلع القرن الرابع عشر الهجري – العشرين للميلاد – .

أما التطور الفكري والأدبي فعهده غير بعيد ، وقد لا يزيد عمره عن قرن واحد – تقريباً – . ولئن سبقت البلاد العربية الأخرى إلى التطور وقطعت في مضمار النهضة أشواطاً بعيدة المدى عن نقطة الانطلاق ، إن المملكة العربية

---

١ انظر ديوان عبد الحميد الخطيب ، سيرة سيد ولد آدم محمد (ص) في معظمه ؛ وتاريخ ابن بشر ص ٥١ ؛ وكتاب سير وتراجم لعمر عبد الجبار ص ٢٨٨ .

٢ انظر في ديوان عبد القدوس الأنصاري « الأنصاريات » ص ٤٤ و ٤٥ ؛ وديوان محمد إبراهيم جدع « وحي الشاطىء » ص ٦٣ و ١٠٦ .

السعودية لم تتأخر عن أخواتها العربيات زماناً طويلاً . ومنذ بزغ فيها فجر النهضة اندفعت في مضمار التطور بخطى وئيدة في أول الأمر ، ثم انطلقت مسرعة حتى كادت تلحق بالركب العربي العام في مجالَي الفكر والأدب .

والجديد الذي طرأ على عالم الأدب تجلّى – في المقام الأول – في نزول الأديب ، والشاعر بوجه خاص ، من برجه العاجي العتيد ، وخروجه من شرنقة الحرير التي كان ينطوي فيها إلى خضم الجماهير الكبيرة ، يشاركها أحداثها ، ويتغنى بأفراحها ، ويأسى لمصائبها ، ويسعى إلى تقويم ما اعوج من أمورها ، ويرسم الطريق إلى مَثَل أعلى يريدها أن ترقى إليه ، ثائراً حيناً ، وهادئاً حيناً آخر .

وليس معنى هذا أن الأدباء جميعاً سلكوا هذه السبيل بمجرد دخول العصر الحديث ، واختاروا الحديث في قضايا أمتهم ، وطرحوا نهائياً ما درج عليه الأقدمون من فنون وموضوعات ، ولم يبقَ شاعر يمدح سيداً أو حاكماً ، أو يفخر بقبيلة ، أو يتغزل بحبيبة ، أو يهجو عدواً وخصماً ، أو يرثي شيخاً أو صديقاً ؛ بل استمرت هذه الموضوعات في مجراها الاعتيادي التليد ، واستُحدِث إلى جانبها موضوعات جديدة ، لم يكن للأدب من قبل سابق عهد بها .

لقد جاءت النهضة ، ففتحت العقول على ألوان من الحياة ، وأنماط من التفكير لم يعرفها الناس ، ولم تخطر لهم على بال . – ولكنها حملت – في الوقت ذاته – مشكلات وقضايا طارئة ، لم يجد الأدباء مناصاً من الخوض فيها وصفاً ، أو علاجاً ، أو خلافاً .

ولا بد من الإشارة إلى أن الأدباء السعوديين لم يكونوا جميعاً في مستوى واحد من حيث التفاعل مع الأحداث الطارئة والقضايا المستحدثة . فريق من الشعراء انحاز إلى الموضوعات التقليدية ، فكانت معظم قصائده في الغزل ،

أو في المديح ، أو في غيرهما كابن عثيمين ، وعبد الله الفيصل ، وغادة الصحراء ، ومحمد بن علي السنوسي ، وفؤاد شاكر ، وأحمد الغزاوي ، وأحمد جمّال . وفريق غلبت عليه الموضوعات الجديدة الاجتماعية أو السياسية كسعد البواردي ، وعبد الله بن إدريس[1] ، وعبد الكريم الجُهيمان ، وصالح الأحمد العثيمين ، وعلي غسّال[2] ، وإبراهيم حسين فطاني[3] ، وأحمد قنديل . وفريق ثالث ترجّح بين هؤلاء وهؤلاء ، فهو ينظم في المناسبة العارضة شعراً تقليدياً ، أو مستحدثاً . وأصحاب هذا الاتجاه هم معظم الشعراء المعاصرين .

وإذا أحصينا كمية الإنتاج في الموضوعات المستحدثة وجدناه ضخماً كبيراً ، يكاد يوازي الموضوعات التقليدية . وتُلفت نظرنا فيه ظاهرتان . تتجلى أولاهما في أن معظم هذا الأدب الجديد نثر جاء على شكل مقالة أو قصة . وإذا أردنا الترتيب من حيث الكثرة رأينا المقالة في المقام الأول ، ويتلوها الشعر ، ثم تأتي القصة في المرتبة الأخيرة . أما الظاهرة الثانية فتبدو في أصحاب هذا الإنتاج . فلقد تقع مرة على قصيدة في موضوع معين ، ثم ترى صاحبها نفسه كتب في الغرض ذاته أو في قضية أخرى مقالة نثرية ، وفي موطن ثالث ألّف قصة اجتماعية أو سياسية . فالشعراء في المملكة هم — في الغالب — الكتّاب.

---

١ ولد بحرمة من مقاطعة سدير سنة ١٣٤٩ هـ/١٩٣٠ م . ودرس فيها ، ثم بالرياض ، وتخرج من كلية الشريعة سنة ١٣٧٦ هـ/١٩٥٦ م . وعمل مدرساً ومفتشاً في وزارة المعارف ، ثم تسلم إدارة مؤسسة جريدة « الدعوة الإسلامية بالرياض » . من مؤلفاته « شعراء نجد المعاصرون » ، وديوان شعر قيد الطبع (شعراء نجد ص ٢٨٨) .

٢ ولد بمكة ودرس فيها وأتم علومه بجامعة القاهرة . ويعمل موظفاً في « جامعة الدول العربية » . له ديوان مطبوع « في فجر العمر » (المنهل ٢٧/٩٦٢) .

٣ ولد بمكة سنة ١٣٢١ هـ/١٩٠١ م ، ودرس فيها . عمل مدرساً وقاضياً . له ديوان « يور سعيد الخالدة » (المنهل ٢٧/٨٩٣) .

وأربابُ النثر لهم قصائد كثيرة .

لهذا فدراسة الموضوعات المستحدثة في الأدب السعودي لا يمكن النظر إليها من زاوية الفن الشعري وحده ، ولا من زاوية الفن النثري وحده . فكلاهما : الشعر والنثر يشكلان « كُلاً » لا يتجزأ . ويصعب على باحث – إن لم نقل : يستحيل أن يفرق بين هذين اللونين من التعبير حين يعرض لموضوع من الموضوعات .

صحيح أن كثيراً من دارسي التاريخ الأدبي لعصر من العصور ، أو لأمة من الأمم ، درجوا على فصل الشعر عن النثر ، والحديث عن كل فن على انفراد ولكنا في دراستنا هذه للموضوعات الطارئة ، وأمام تلك الظاهرتين اللتين ألمعنا إليهما ، لا نرى مناصاً من إدماج الشعر في النثر ، والاستشهاد بهما معاً في القضية الواحدة . ويخيل إلينا أننا لو لم نفعل ذلك لوقعنا في تكرار وإطالة فضلاً عن بتر الموضوع ، وعدم إيفائه حقه من البحث والتفصيل . فلقد يحدث أن يتحدث شاعر في موضوع كموضوع المرأة – مثلاً – ، فيطالب بقصيدة أن تتحجب ، ويكتب كاتب في الموضوع ذاته أو في فكرة مخالفة لقصيدة الشاعر . فكيف يمكن أن نعرض موضوع الحجاب والسفور إن لم نستشهد بالقصيدة وبالمقال معاً ؟ بل أيمكن أن نتحدث عن الحجاب في مكان – هو مكان الشعر – ونتحدث عن السفور في مكان آخر – خصص للنثر . ؟ أفلا يشتّت مثلُ هذا الفصل الموضوع ، ويجزئه ، ويبتّره ، ويجعل الدراسة مفككة وموضوعاتها ممزقة ؟

ولهذا السبب اضطررنا في عرض الموضوعات الأدبية الجديدة إلى إشراك الإنتاج الشعري والنثري في القضية الواحدة – إذا كان هناك شعر ونثر – ، وحاولنا – قدر الطاقة – أن نعتمد على الشعر في المقام الأول ، إلاّ إذا رأينا أن الاستشهاد به لا يُغْني أو يكفي . وكان من الطبيعي أن نسمّي الباب تسمية

تصح مع الخطة المتبعة . ولذلك دعوناه بـ « موضوعات الأدب المستحدثة » إيماناً منّا بأن لفظة « الأدب » تضم الشعر والنثر في آن واحد .

ولقد حاولنا أن نستعرض الموضوعات الجديدة في الأدب السعودي ، فوجدناها تنقسم إلى قسمين كبيرين : الأول يعالج الموضوعات الاجتماعية ، والثاني الموضوعات السياسية . وكل من هذين القسمين يتفرع إلى فروع وشعب. فيها الذي تحدّث عن قضايا جوهرية ؛ وفيها الذي تناول جزئيات صغيرة وعَرَضية . أخذنا الموضوعات الجوهرية ، وطرحنا العرضية بعد أن أشرنا إلى ما فعلنا . وبهذا انقسمت « موضوعات الأدب الجديد » قسمين . وكان كل منهما موضوعاً لفصل مستقل .

أما إحصاء هذه الموضوعات فليس دقيقاً جداً ، ويستحيل أن يكون كذلك، لأن الإنتاج دائم مستمر ، والصحف والإذاعات والكتب الحديثة والقصائد المنظومة لا تتوقف عن الحديث والصدور . ولكنا نقرّب الفكرة حين نقول : إن مجموع المقالات والقصائد والقصص التي تناولت القضايا الاجتماعية والسياسية — جوهريةً كانت تلك القضايا أو عرضية — بلغت حدود عشرة آلاف موضوع مطبوع أو مذاع — على أقل تقدير — ، واستغرق زمن إنشائها أو نظمها مائة سنة — تقريباً — . بدأت منذ ظهور الصحيفة الحجازية الأولى ، واستمرت إلى السبعينات — الميلادية — . ويكفي أن نلمع إلى أن كاتباً كالعطار ، أو الجهيمان ، أو البواردي ، أو باشميل[1] ، أو حسن عبد الله آل الشيخ ، كتب ما لا يقل عن مئات المقالات أو القصائد ، ثم جمعها وأصدرها في كتب مطبوعة .

---

١ محمد أحمد باشميل : سعودي الجنسية ، حضرمي المولد . تلقى مبادىء العربية والفقه بمدينة « تريم » بحضرموت ، والتحق بوظائف المملكة السعودية سنة ١٩٥٠ م ، وهو اليوم سكرتير رئاسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحجاز .

وأخيراً ، فإن عرض هذه الموضوعات الجديدة أوجب علينا النظر إليها من زاويتين في آن واحد . الأولى : اقتضت أن ننظر إلى مجموع الإنتاج في موضوع معين ، ومن خلاله كنا نبيّن آراء الأدباء ومواقفهم واختلافاتهم . والزاوية الثانية : أوجبت أن نعرض القضية الاجتماعية أو السياسية في واقعها الذي تعيش فيه المملكة ، ثم نستعرض الإنتاج الذي كان فيها، ونظهر مقدار النجاح والإخفاق ، أو الجرأة والجبن في مواقف الأدباء ، ونبين الأسباب التي دفعت إلى اتخاذ تلك المواقف . وبين الحين والحين كنا نقرن الإنتاج أو المواقف بما يماثلها في البلاد العربية الأخرى ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

الفصل الأول

الأدب الاجتماعي

ما إن أهلّ القرن المتمم للعشرين على الجزيرة العربية حتى راحت الإشعاعات الحضارية الأولى تتسلل شيئاً فشيئاً ، وتسطع فوق الأرجاء المترامية رويداً رويداً . ولم يكد يمضي حينٌ من الدهر حتى كادت أنوار الحضارة تعم الأرض العربية السعودية من أقصاها إلى أقصاها .

ولقد حملت هذه الحضارة معها ألواناً من الفكر والثقافة ، وصوراً من أنماط المعيشة والحياة ، ما كان لأبناء الجزيرة بها من قبل معرفة وخبرة ؛ بل نقلت إليهم فنوناً من الدراسات العلمية الحديثة ، وصوراً من حياة المجتمعات المتطورة الراقية ، ووجوهاً من الآراء والنظريات الجديدة ، جعلتهم يعتقدون أن التقدم الحق للمجتمع لا يكون إلاّ إذا أخذ الناس بأسبابها .

وأدرك الأدباء أن عليهم تجاه هذه الحضارة واجبين . أولهما : تطوير المجتمع ، وإفساح المجال للنور الجديد ؛ ليظل مشرقاً ساطعاً فوق ربوعهم . وثانيهما : التوفيق بين الحضارة وقيم البلاد ، وظروفها ، وإمكاناتها ، وتراثها. وعلى ضوء هاتين الملاحظتين نظر الأديب السعودي في مجتمعه بعين فاحصة ، فوجده مشدود الأصول إلى الحياة القبلية المتوارثة ، وأن بلده شاسع واسع أشبه بالقارة . ومع ذلك فإنه يكاد يكون خلواً من المدرسة ، والمستشفى ، والطريق ، خلوّه من المعلم ، والطبيب ، والمهندس ، ورجل المال والاقتصاد والإدارة . تعوزه حتى الخبرات المهنية الأولى ، وتتفشى فيه — بفعل القرون والأجيال الخالية — الأمية إلى جانب المرض والفقر ، ولا يميّزه من المجتمعات

الأولى البدائية إلاّ إيمان أهله بالإسلام ديناً سماوياً ينير طريق الدنيا والآخرة . وأيقن الأديب أنّ عليه مسؤولية التقدم الاجتماعي والتطوير الحضاري ، وأنه إلى جانب هذا يجب أن يتلاءم كلُّ تجديدٍ في المجتمع وواقع المواطنين ، وظروفهم ، وعقيدتهم .

على هذين المرتكزين اعتمد الأدباء السعوديون في إصلاح مجتمعهم ، وامتشقوا أقلامهم ، وراحوا يعملون في الفاسد تمزيقاً ، وفي الجيّد دعماً وتمكيناً ، هادفين إلى خلق مجتمع مثالي فاضل ، نقي من العيوب ، بعيد عن الظلم ، قريب من العدل والحق .

ولو استعرضنا المجالات التي خاضوا فيها ، والقضايا التي كانت مثار الجدل والنقاش لرأينا أنها نوعان . قضايا كبرى ، وتشمل البحث في « المرأة » و « الفقر والغنى » و « العمل والعمال » ، و « الأخلاق » ، و « محاربة التخلف » . وقضايا صغرى ، منها : «تمجيد الفروسية» و « الإشادة بالمشاريع العمرانية ، كمدّ خط إسفلتيّ بين مدينتين » ، و« إنشاء معمل » ، و « تأسيس مركز زراعي في قرية » ، وما أشبه ذلك .

وهدفنا في هذه الدراسة النظر في القضايا الكبرى لأهميتها البالغة في حياة الجزيرة العربية ، ولما تعرضت له اقتراحات الأدباء والمصلحين من أخذ ورد ، دون أن نتعرض للقضايا الصغرى لأن أصل الحديث فيها كان تعبيراً خافت الصوت ، مجرداً من العاطفة كما كان أكثرها مقولاً في مناسبات إطراء وتمجيد .

قضية المرأة

على الرغم من ذيوع الحضارة ، وتغلغلها في أرجاء الجزيرة العربية ، وتزايد الثروة ، وارتفاع المستوى الثقافي العام بين المواطنين ، وتطور الأفكار ،

وتقبلها كثيراً من الآراء والنظريات الحديثة ظل وضع المرأة جامداً ، لم يدخل عليه تبدُّل أو تجديد . وكان إذا خطر ذِكر المرأة على لسان قرنت بكلمة « كرَّمك الله » مهانةً واحتقاراً[1] . وكأن « كرَّمك الله » هذه خلّفت وراءها أثراً كبيراً في عقول كثير من الناس من حيث قيمة المرأة ومكانتها . وليس من المستبعد أن تكون معاملتهم لها منسجمة ومعنى « كرمك الله » . وحمل الأدباء راية الدفاع عنها ؛ ليضعوها في المكان الصحيح الذي خُلِقت له . وأطلقوا أقلامهم بكل قوة وعنف ، أملاً في زحزحتها عن مركزها الذي تحجرت عليه عبر الزمن الطويل . ومنذ بدأوا يخوضون في حديثها ، وُجّهت إليهم سهام نقد عنيفة ، فتحملوها ، وظلوا في دفاعهم عنها . كأنهم آمنوا أن الفكرة حين تنطلق ، تَجبَهُها فكرة مضاده ، فتلتحم الفكرتان المتناقضتان ، وتتولد منهما فكرة جديدة ، ثم تكوّن هذه وحدة مستقلة ، فيقوم ضدَّها ما يعارضها ، وتنشأ أخرى جديدة ، وهكذا يتم التطور الجَدَلي « الدّيالِكْتيكي » . ولا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا : منذ قُبِل مبدأ الجدل في قضايا المرأة ، بدأت تتحرك عن قواعدها الحجرية ، وتتغير النظرة إليها شيئاً فشيئاً ، وتتلاشى تدريجياً من الألسنة تلك الكلمة المعرّضة « كرمك الله » حين يمرّ ذكرها في حديث أو كلام .

لم نستطع معرفة نوع المنطلق الذي بدأ الجدال الأدبي فيه حول المرأة : أكان البحث في أمر حجابها أسبق زمناً من البحث في أمر زواجها ؟ أم كانت الدعوة إلى تعليمها أسبق من الحديث عن عملها ؟ وعلى الرغم من الجهد الكبير ، والتقليب المستمر في الصحف والمجلات ، وعلى الرغم من سؤال عدد من الأدباء والمثقفين في أرض المملكة لم نصل إلى شيء . لذلك آثرنا ترتيب

---

[1] انظر سعد البواردي ، أجراس المجتمع في المقالة التي عنوانها « كرمك الله تساوي امرأة » ص ٧٢ .

قضاياها ترتيباً منطقياً ، يتدرج مع مراحل حياتها . واقترحنا أن يكون على الشكل التالي : حجابها وملابسها . تعليمها . زواجها . عملها .

أما الحجاب والثياب فلم نعثر على أثر لأحد الأدباء تعرض فيه إلى ملابس المرأة ، أو طالب أن تصل إلى الأرض ، وتجرها وراءها حين تسير — كما هو وضع النسوة اليوم — . بل لم يَدْعُ أديب إلى وضع العباءة فوق الثياب ، ولم يطالب أحد بتعديل هذه الملابس ، وضرورة التخفيف من وطأتها . كأن هذا الموضوع متفق عليه ، مقبول ومألوف ، لا يحتاج إلى دفاع يؤيد الواقع أو ينكره . إنما جرى الكلام على نقد ملابس النسوة الوافدات على السعودية مع أزواجهن للعمل في حقل من حقولها . وتناول الإنتاج الأدبي « سفورهن وسيرهن في الشوارع بزينتهن ، وبمفاتنهن ، جاعلات الأسواق معارض زينة وإغراء ، دون أن يخجلن أو يستحين »[1] . وانصبّت مقالات جارحة على أزواجهن الراضين بهذا . ووصفهم أحد الكتّاب بـ « الدّيّوثين ودعاة الاستعمار »[2] ، كما وصف أديب آخر النسوة « الكاسيات العاريات ، المائلات المُميلات ، المبديات صدورهن ونهودهن ، الصابغات وجوههن ، الماشطات شعورهن بـ « العاهرات »[3] . أما السابحات أمام الرجال ، فهنّ — في رأي شاعر — « دعوة حارة إلى أن يكنّ مشاعاً بين الرجال ، كما هو الحال في أنثى الحيوان »[4] . ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى أن السعوديات لا

---

١ مقتبس من حسن عبد الله آل الشيخ (وزير المعارف) في كتابه « دورنا في الكفاح » ص ٣٨ .

٢ محمد أحمد باشميل : لهيب الصراحة يحرق المغالطات ص ٢١٣ .

٣ أحمد عبد العزيز المبارك في مقدمته لكتاب « فتاة الجزيرة » الذي ألفه سعد عبد الرحمن الدريبي . ص ١٨ .

٤ يقول طاهر الزمخشري (أنفاس الربيع « حواء العارية » ص ٩٦) :

= وليس قيمتها إلاّ مَلابسهـــا وبَهْرَجاً زخرفَ التمويه ألوانه

يظهرن بملابس غير محتشمة ، ولا يبدين زينتهن ، ولا يتخلعن في الأسواق ، ولا يسبحن في البحار السعودية . ولقد ألحّ الأدباء على مطالبتهنّ بالاحتشام ، والبعد عن هذه الرذائل . وكأنهم بهذا يتجاوزون الحدود الإقليمية لبلدهم ويصلون إلى المرأة العربية التي جاءت إلى المملكة ، أو التي لم تجئ ، فينصحونها ويَعِظونها [1] .

أما السفور عن الوجه فقد قرنه الأدباء بـ «فَرْنَجَة» الملابس ، ثم هاجموهما معاً . وحجتهم في ذلك : « أن المرأة وديعة الرجل ، يجب أن تبقى مصونة في خدرها ، آمنة في سربها ، لأنها نور القصر ، وبهجة السّرْب . والشوارع ملأى بذئاب الرجال ، وثعالب البشر . وشريعة الذئاب والثعالب قَنْص الظباء . إن الغيد لآلىء ، وشأن اللآلىء الكريمة الخفاء والصون عن العيون

= وإن تجرّدت الأنثى تُذكّرنا عصراً أطلنا مع الأجيال نسيانه
أيّامَ كنّا وكان الغاب موطننا نقاسم الوحشَ سكناهُ وأوطانه

[1] يقول عبد السلام هاشم حافظ (الفجر الراقص « لا يا فتاة الشرق » ص ٩٦) :

تتَفَنّنين وتسرفين في عرض جسمك والفتون
بالعُرْي في أوضاعه في حبكةِ الثوب المشين
أتراك راقصةً هنا بميوعةٍ تتخطّرين
ماذا تركت من الهوى والمغريات بنا تدور
(باريس) أنت عرضت مظهرها الحقير
مسكينة بين الضياع تبني تماثيل المتاع
أوهمت نفسك بالعلى وسفلت في بحر الصراع
لا يا فتاة الشرق لا هذا التبذل في القناع
هذا التبرّج للملا وخلاعة الجسد المثير
من قال : إنك لعبة الجنس الحقير ؟

الظمأى . وهنّ وَرْدٌ عَبِق ، سيفنى أريجه إن لمسته الأيدي ، أو مسّته الأنامل . هنّ أواني شوق وعطف ، تهزهن الخلوة في ظل الطبيعة ، وتروقهن الحفلات والقبلات المثيرة ، ويفتنهن الغَزَل الرقيق ، فيسهل صعبهنّ بعد عسر وجموح ، وتلين عريكتهن بعد تصلب وقساوة . يلذّهنّ وهجُ الطّلَى ، وفتنة النّغَم ، ويخطف أعينهن بريق الذهب ؛ ولذلك فالخوف عليهنّ شديد من ضعف مقاومتهن . وهل أدى السفور والتبذل في الملابس إلاّ إلى خراب البيوت ، وتقويض المجتمعات ، وتشرد الأطفال ، وامتلاء المحاكم بالشكاوى وخلوّ المساجد من العابدين ؟ »[1] .

أما تعليمها فقد مرّ معنا شيء من الحديث عنه في فصل سابق . ورأينا أن الذين طالبوا بضرورته قد تمسكوا بالمبدإ التالي : « إن المرأة نصف المجتمع ، وهي حصن الرجال وأمهم ، ومدرستهم الأولى . فإذا كان هذا الشطر جاهلاً ربّى الأطفال على الجهالة ، ورعاهم في ظلال التأخر والجمود والخمول ، بل غدت الأمة جمعاء جاهلة ، شلاّء لا خير فيها . ونحن — اليوم — في أمسّ الحاجة إلى مجتمع سليم صحيح ، تدبُّ في أطرافه الحياة ، والصحة ، ويسطع النور في كل جوانبه وزواياه »[2] . وها هي ذي الدنيا بأجمعها تعترف بحق

---

١ هذا القول مقتبس من إبراهيم هاشم الفلالي في قصيدته « السفور » (ديوان « ألحاني » ص ١٧٥) :

.. رفع النقاب عن النسا ء فبُؤْنَ بالثوب القصير
وإذا الشوارع كالمعا رض للخصور والنحور
وإذا الحريم يَنِم عن جسم أرق من الحرير
وإذا الأوانس كالزهو ر يَنُؤْن بالعَنَس المرير
وإذا الحرائر كالرقيـ ق جلسْنَ صفّاً للأجور

٢ ورد هذا المعنى عند محمد حسن عواد في قصيدته « المرأة » إذ قال : (ديوان آماس وأطلاس ص ٧٣) :

واجبٌ تهذيبها فهي لنا الـ أم والزوجة والحصن المكين =

المرأة في التعليم ، كما أن ديننا الإسلامي قد سبق ففرض العلم على كل مسلم ومسلمة »[1] . هذا الدفاع عن حق المرأة في التعليم مقتبس من قصائد الرصافي وحافظ إبراهيم ، وغيرهم من الذين خاضوا في هذا الميدان .

واهتم الأدباء المعاصرون بموضوع الزواج في السعودية ، وأكثروا من القول فيه حتى ليكاد الباحث يقع عليه في معظم القصص والمقالات ، والنتاج المنظوم . ويبدو — من الآثار الأدبية — أنه يشكّل مشكلة اجتماعية خطيرة ، يعسر حلّها ، أو تصعُب معالجتها . فالناس فريقان قَبَلي وحضريّ ، وغني وفقير . والراغبون في الزواج شباب وشيوخ ، ومتعلمون وجاهلون . والمهور مرتفعة غير معقولة ، والتقاليد تضغط على الناس حتى ليبدو كثير منهم عبيداً لها . ورؤية المخطوبة محرمة . والنساء بين جاهلة ، أو شبه جاهلة ، وجميلة ودميمة ، ومن أصل ينتسب إلى هذه الأرومة أو إلى تلك ، وتعدُّدُ الزوجات عاديّ ، وسكنى الضرائر في منزل واحد طبيعي ، والطلاق شائع ، والزواج من الأجنبيات يتفشى .

وراح الأدباء يعالجون هذه الموضوعات بشتى ألوان التعبير . تعددت

= هي تعطي الطفل من مبدئه ... وِجهة الفهم وسر المدركين
فإذا أهــدته من فطرتهـــا ... حكمة أمَّ طريق النابهين
وإذا مـــا نفثت فيـــه على ... جهلها الجهل نأى في الخاملين
ففتاة الشرق في الشرق هدًى ... وبنات الشرق آساس البنين

[1] ورد هذا المعنى في قصيدة « يد الإصلاح » لإبراهيم خليل العلاف : (ديوان وهج الشباب ص ٧٠) :

العلمُ في شرعة الإسلام مشترك ... ما كان وقفاً على جيلٍ فيحويهِ
وأفضلُ العلم ما يرعى أنوثتها ... حذار أن تدّري فيهـــا بتشويه
والأمّهات إذا ما كنّ في سَفَهٍ ... فاحكم على الجيل أن النقص حاديه

الوسائل وتوحدت الغاية . وفي ما كتبه الأدباء ظهر خَيْطٌ مشترك بينهم جميعاً ، يضع الأبَ في قفص الاتهام دائماً ، وأنه المسؤول الأول عن سوء التصرف ، وهو السبب الرئيسي في الجنوح والشذوذ . « فهذه فتاة – على سبيل المثال – في عمر الورد باعها أبوها بمهر كبير عجوزاً ليس من سنها ، ولا من هواها ، فعاشت معه كشيخها لا كزوجها . ولشدة غيرته عليها منع أولاده الشباب من زيارة بيته الجديد . ومرض الأب ودَنِف ، ومع ذلك فلم يسمح لأحد منهم بالاقتراب من منزله أو زيارته . وحين بلغ حدَّ النَّزْع اقتحم أولاده المنزل ليعودوه ويرعَوْه ، وفيهم ابنه الوسيم « عادل » ، وتوالت زيارات هذا . وولد الحب في قلبه وقلب زوجة أبيه الشابة الحسناء العطشى . ثم وقعا في الاثم . ومات الزوج . وما هي إلاّ أشهر حتى تحرك الجنين في أحشائها ، واضطرت أن تشرب السُّم ستْراً لفضيحتها[1] » . و « تلك فتاة تُجنّ لأن أباها حرمها من الزواج بمن تحب ، وكاد أخوها يلحق بها لأنه مُنع من الاقتران بفتاة مثقفة أحبها . وعلة المنع أن أهلها فقراء »[2] . « وذلك أب يحب المال ، ويحب الموسرين من عباد الله ، وإن كانوا حمقى ، ويرغب في تزويج ابنته بواحد منهم . وجاء غني عجوز ، وطلبها من أبيها ، فوافق ، ووعده بها . وأُخبرت الصغيرة ، فرفضت ، وصرحت بذلك لأمها . وقامت هذه ساعية بين البنت والأب ، وجاء رده بالرفض ، وأنه سيزوجها لمن وَعَد ، ولو كان دون ذلك خَرْطُ القَتاد ، وسيحافظ على كلمة الشرف مع صديقه الثريّ . وما كان أمام المسكينة إلاّ الإذعان . ودارت الأيام فإذا بالزوج شرس ، سيّئ المعاملة . ومات أبوها . وطُلقت الفتاة ، وانتهت أيامها متسوّلة في الشوارع ،

---

١ خلاصة قصة الكاتبة « سميرة بنت الجزيرة » ، « جناية أب » في مجموعتها « وادي الدموع » ص ٥٨ .

٢ المصدر السابق : ص ١٠٩

مستجدية على الأبواب »[1] .

وكثيراً ما كان يقف الأديب وجهاً لوجه أمام هؤلاء الآباء ، ويصرخ في وجوههم : « أن يفتحوا عيونهم ، ويطلّوا على الواقع ، ويدركوا أن سَوْق فتاة إلى زوج لا تريده ، أو لا تطيق الحياة معه ، إقدام على خطة انتحارية متعمدة رهيبة ؛ وأن بيع الفتاة في العشرين من عمرها أو أقل لابن السبعين أو الثمانين تحدٍّ لكل المشاعر الكريمة البريئة . وأن من حق البنت نفسها أن تختار طريقها بملء حريتها وإرادتها ، لا أن يختار ذووها لها زوجاً كلُّ ميزته أنه قادر على دفع ثمنها الباهظ كأنها آنيةٌ تُباع في السوق مَنْ يدفع أكثر ، غير مفكرين بما ينجم عن ذلك من فقدانها السعادة ، ومن بكائها المستمر ، ومن طردها من بيتها ، لأنها امرأة ناشز ، ثم مِن وقوعها في أحضان الخطيئة »[2].

ويتبع هذا أمر آخر هو : غلاء المهور . ويبدو أن أكثر الناس يغالون في مهور بناتهم ، ليكون ذلك فخراً واعتزازاً أمام الآخرين[3] . وكانت هذه مشكلة انبرى لها الأدباء معالجين ، فسوّدوا مئات الصحائف ناصحين « أن يفتح الآباء عيونهم ، لعلهم ينتبهون للمصير السيء الذي يمكن أن تنحدر إليه بناتهم إذا استمروا على ما هم عليه »[4] . بل لقد تمنّى أحد الأدباء وجود

---

١ سعد البواردي في مجموعته : شبح من فلسطين – قصة « المطلقة » صفحة ٣٩ .

٢ سعد البواردي ، فلسفة المجانين ، المقال « أيها الآباء افتحوا عيونكم » . ص ١١٣ .

٣ سألت كثيراً ممن أثق في حديثهم عن المقدار المتوسط للمهر ، الذي يدفعه معظم الناس ، وخاصة من متوسطي الدخل . وكانت الأجوبة تقف عند الرقم (١٠) آلاف ريال ما عدا نفقات حفلة العرس ، والولائم التي قد تبلغ (٥) آلاف ريال . وعدد من الناس ذكروا لي : أن مهر الفقيرة خمسة آلاف ريال ، ومهر المتوسطة عشرة آلاف ، ومهر الغنية بين العشرين ألفاً والملايين ، ولا حد في ذلك . وقد عمدت الحكومة مؤخراً إلى تحديد المهر بألفي ريال .

٤ انظر سعد البواردي ، فلسفة المجانين « غول أو مشكلة الزواج » ص ١٢٤ .

الأب « البطل » « الرائد » « الشجاع » الذي يحطم هذه السلاسل ، ويضرب عرض الحائط بالتقاليد والأعراف، ولا يبالي بما يقول السفهاء من الناس ، كما تمنى أن تتدخل الدولة فعلياً لمواجهة هذا الواقع المؤسف الحزين ، وتعمل على تلافي حدوثه في نهج تجريبي خبير ، وضمن إطار بارز من تعاليم الدين والتقاليد والكرامة ، كما تمنى أن تتشكل لجان شعبية أفرادها من مستويات مختلفة ، يتمتعون بثقة الناس وإجلالهم ، ليدرسوا المشكلة ، ويضعوا ما ينبغي لها من حلول »[1] .

وفي الجزيرة كثير من الناس يميلون إلى تعدد الزوجات ويعمدون إليه . وهذا أمر عادي لا يلفت النظر ، ولا يستحق الاهتمام . والزواج المتعدد قد يتبعه الطلاق ، وفي هذا وذاك آثار في الزوجة القديمة ، أو المطلّقة ، وفي الأطفال لا تخفى . ولقد أسهم الأدباء بنصيب طيب في معالجة هذه الناحية ، فتحدثوا عمّا تعانيه الزوجة القديمة من آلام نفسية ، واضطرابات عصبية ، حين ترى امرأة أخرى تشاركها في زوجها ، ولا سيما إذا كانت الجديدة شابة وهي عجوز ، وأجنبية وهي وطنية ، وذات حُظوة وهي المهملة التي أخنى عليها الدهر ، وخفيفة الحمل وهي ذات الأولاد الكُثْر . وتحدثوا عن الغَيرة تنشأ بين الضرائر ، وانعكاس ذلك كله على الرجل ؛ فتسودّ أيامه ، وتبيضُّ لياليه[2] . ومن الكتّاب من وقف ضد وحدانية الزوجة ، ودافع عن التعدد ، واحتجّ بالشريعة والمنطق وواقع الحياة[3] . ويبدو أن أثر الأدباء في الوقوف أمام تيار التعدد كان محدوداً ، إن لم نقل : معدوماً ؛ لأن بعض هؤلاء الأدباء

---

١ آراء مقتبسة من مقال لحسن عبد الله آل الشيخ ، عنوانه « الهاربون وراء الحدود » ، في كتابه « دورنا في الكفاح » ص ٥٣ .

٢ إبراهيم الناصر في مجموعته « أرض بلا مطر » قصة « الزوجة الثانية » ص ٨٥ .

٣ أحمد عبد الغفور العطار ، الإسلام طريقنا إلى الحياة ، مقال « التعدد والإسلام » ص ٩٢ .

قد وقع في المشكلة ، فتعددت في بيته الزوجات . وأدرك عدد من الكتاب أن الكلام عن هذه القضية لا يجدي ، فعمد إلى النصيحة والموعظة الحسنة ، داعياً إلى حسن معاملة الزوجات ، وخاصة القديمة فيهن ، ورعاية خاطرها ، وجَبْر قلبها المصدوع ، مطالباً بإبقائها في كنفه ، وتحت جناح رحمته ، وعدم التفريط بها طلاقاً أو إساءة في المعاملة ، مثيراً في الرجل مشاعر العطف والحنان، لأن المرأة « إنسانة رحيمة ، لا حَوْل لها ولا طَوْل . تُظلَم فلا تملك إلاّ البكاء ، تحركها الرقة ، ويَبوح بعينيها الحنان . أليست هي فوق كل ذلك أمانة في أعناقنا ؟ »[1] كما طلب الأدباء من الأزواج الراغبين في الطلاق أن يسرّحوا الزوجة المنكوبة بإحسان ، وألاّ يُطْلقوا ألسنتهم فيها سباً وبذاءة ليحولوا دون زواجها من جديد ، ولتبقى بعدهم طوال حياتها في البؤس والقسوة والحرمان والمعاناة .

ولا بد من الإشارة إلى أن الأدباء لم يخوضوا في موضوع « جنوح الأطفال » الذي ينشأ – في جملة ما ينشأ – من انفصال الزوجين ، أو تعدد الزوجات ، غير أن حديث الذين تعرضوا لهذا الموضوع اتّسم بسطحية الفِكَر، وسذاجة التحليل[2] .

أما عن عملها فقد تساءل فريق من الأدباء : هل يمكن أن تعمل المرأة السعودية إذا أنهت تعليمها ، ونالت الشهادات ، وحصلت على المؤهلات ، كما تعمل المرأة « الأجنبية »[3] ؟ وفي أي المجالات ؟ وانقسم الجواب تبعاً لانقسام العقليات .

فريق مانع في عملها ممانعة مطلقة دون قيد أو شرط ، ورأى من العيب أن

---

١ سعد البواردي ، أجراس المجتمع – المقال « إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » ص ٩٦ .

٢ إبراهيم الناصر ، أرض بلا مطر « الزوجة الثانية » ص ٨٥ .

٣ « الأجنبية » تطلق على كل امرأة غير سعودية، ومثلها « الأجنبي » عربياً كان أو غير عربي .

يخدم الرجل سواه ؛ لأن في ذلك مَعَرَّة وعيباً ، والمفروض أن يخدمه الآخرون، سواء أكانت خدمته عن طريق الوظيفة العامة في الدولة أم لم تكن كذلك [1] . فكيف بالمرأة ؟

وفريق آخر معتدل لم يمانع أن تعمل طبيبة للنساء ، أو ممرضة لهن ، أو معلمة للبنات ، بشرط أساسي هو : ألاّ يراها رجل ، ولا ترى رجلاً [2] .

وفريق ثالث رفع صوته مطالباً بحريتها المطلقة في اختيار العمل الذي تميل إليه ، وترغب فيه دون أن يمنعها من ذلك مانع ، ورغب في أن تكون مهندسة، أو طبيبة للرجال والنساء ، وموظفة في دائرة عامة ، تعامل الرجال ويعاملونها ، ما دامت تتحلى بالفضيلة والخلق الحميد [3] .

وقد طفقت المرأة السعودية — في واقع الحال — تعمل معلمة في مدارس البنات بشكل خاص ، وهي نادراً ما تعمل في مؤسسة خاصة ، أو حكومية إذا كانت المؤسسة لا توفر لها الاحتجاب الكامل عن أعين الرجال .

أما نظرة الأدباء إلى المرأة العاملة « الأجنبية » فلم تَعُدْ نظرة المحتقر لها ، بل صارت تبارك العمل الشريف ، وتشجع عليه، وتثني على صاحبته، وقد ظهرت قصائد كثيرة فيها احترام لمضيفة الطائرة [4] ، والممرضة [5] ، والمذيعة [6] ، والمربية [7] ، ولكل ذات مهنة شريفة .

---

١ بعض القبائل ترفض أن يتوظف أفرادها الرجال كيلا يخدموا الآخرين .

٢ انظر خلاصة الاستفتاء في كتاب سعد الدريبي ، فتاة الجزيرة ص ١٠ .

٣ منهم محمد حسن عواد في مقابلة تلفزيونية في برنامج « مجالس الإيمان » وقد بث في شهر نيسان (أبريل) سنة ١٩٦٨ م . في مدينة الرياض .

٤ طاهر الزمخشري : ديوان ألحان مغترب — قصيدة « في السماء » ص ١١٦ .

٥ طاهر الزمخشري : ديوان أنفاس الربيع — قصيدة « إلى ممرضة » ص ٧٧ .

٦ المصدر السابق : قصيدة « في التلفزيون » يشيد بالمذيعة أماني ناشد ص ١٣٣ .

٧ طاهر الزمخشري : ديوان أنفاس الربيع — قصيدة « راعية الطفل » ص ٧٩ .

والخلاصة ، إن دعوة الأدباء أثّرت في زحزحة المرأة عن وضعها القديم الذي اتصف بهوانها واحتقارها ، وكادت تزول من الألسنة كلمة «كرمك الله» حين يرِد ذكرها في حديث . واستطاعت تلك الدعوة أن تعيد إليها شيئاً من شخصيتها واحترامها فأصبح يُنظَر إليها – وهي الزوجة – كما ينظر إلى الأم الحنون ، والأخت الشفوق ، والبنت الرؤوم . وحين سَمَتْ معاملة الزوجة إلى مستوى معاملة الأم كان ذلك نصراً كبيراً حققه الأدباء في المجتمع . ورضي كثير من المواطنين أن تتعلم في المدارس الرسمية شتّى العلوم ما دامت لا تتعارض والدين ، ووظيفتَها في الحياة ، وأن تخوض ميدان العمل معلمة تربي بنات الوطن وتسهر عليهن . لكن الأدباء لم ينجحوا كل النجاح في إقناع الناس بإعادة النظر في المهور وتكاليف الزواج ، وواجبات تقاليد الأعراس ، وفي إمكان رؤية الخاطب خطيبته قبل الزفاف ، والوقوف أمام تعدد الزوجات ، وكبح الألسنة السليطة وراء المطلقات ، والانتصار على كثير من العصبيات والأعراف . ويخيل إلينا أن الزمن ، والحضارة ، وارتفاع مستوى التعليم ، وحكم العقل، كفيلة بوضع الأمور في نصابها ، وبإعانة الأدباء على تأدية رسالتهم ، وتحقيق آمالهم وأحلامهم في وطنهم .

قضية الفقر والغنى

شغلت دراسة الأوضاع الاجتماعية ، وتحليل القضايا الاقتصادية حيِّزاً كبيراً من إنتاج الأدباء السعوديين ، وقد هدفوا بكتاباتهم من وراء ذلك إلى بناء مجتمع متماسك متحابّ ، تسوده روح الأخوة ، وتفنى فيه مظاهر الألم والحقد . وكان يحثهم على ذلك عوامل عدة : منها الامتثال للواجب الإسلامي كالحضّ على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومنها الشعور بالواجب الإنساني والأدبي نحو الطبقة الفقيرة ، ومنها الدفاع عن قيم هذا المجتمع أمام

الفِكَر الجديدة الوافدة من خارج الحدود ، ومنها الشعور بالمسؤولية تجاه المواطنين بعد أن تخلى الشعراء في القديم عنها .

هذه العوامل وسواها دفعت الأدباء إلى التشمير عن ساعد الجد ، والسعي إلى إقامة العدالة الاجتماعية بين الناس ، وخلق مجتمع متراص ، وإذابة الفروق بين المواطنين ، وكان سلاحهم الشعر والنثرَ على حدٍّ سواء .

ونظرة هادئة إلى الإنتاج الأدبي الذي دُبّج في هذا الصدد تدفعنا إلى تقسيمه قسمين : قسم تميز بالهدوء والرزانة ، وتصوير أوضاع الفقراء والأغنياء ، ومحاولة إيجاد علاج نافع ، أو حل للمشكلة الاقتصادية . وقسم اتسم بالثورة والعنف ، واللهجة الخطابية ، والحماسة الشديدة للهدم ، وتقويض كل بناء قائم .

كلا الفريقين : الهادئ والثائر . صوّر الفقراء في بؤسهم وشقائهم ، والأغنياء في ترفهم ونعيمهم . والفرق بينهما كان في أسلوب العرض ، وطريقة الأداء .

لقد كان يحلو لكلا الفريقين – في المقام الأول – أن يرسم الفقير في أوضاع متباينة ، ولا سيما في العيد ، وأكثر من هذا أنهم كانوا يختارون الفقير صغير السن ، ويتيماً .

ففي قصيدة لأحمد العربي رأينا الفقير صغيراً ، يتيماً ، في أيام العيد خرج إلى الشارع ، فرأى أترابه الصغار يرفلون بأزهى الثياب ، ويتمتعون بألوان من النعيم ، ويضحكون بملء أفواههم وقلوبهم ، فانفعل أمام هذه المظاهر ، ولم يملك حبس دمعه ، فسفحه رخيصاً ؛ ألماً لحرمانه مما يتمتعون وينعمون ، ثم عاد إلى أمه يسألها عن سبب فقره ، وغنى غيره . ولم تُحِرْ أمه جواباً إلا بدمعات حَرَّى من عيون قرَّحها طول البكاء[1] .

---

[1] أحمد إبراهيم ، الأدب الحجازي ص ١٠٠ : يقول العربي :

أيها العيد رُبَّ طفل يعاني فيك من بؤسه عذاب الهون =

وفي قصيدة أخرى وجدنا الفقير صغيراً في صباح عيد يحاور صغيراً غنياً ، فيسأل ابن الغني تِـرْبَـه الفقير عن اسمه ، واسم أبيه ، وعن سبب كآبة وجهه . وحزنه ، وعدم ضحكه في يوم العيد ، فيجيبه بأنه جائع وشريد ، ويتيم ، ليس له أب حاضر يشتري له ثوب عيد، ولا أم تُعْنَى به . وراح يعدد له مظاهر بؤسه، وأسباب حرمانه . وينتهي إلى القول بأن عيده يوم يحضر أبوه فيُهادِنُه الجوع والبؤس [1] .

= هاجـه تِـربه بملبسه الزا ... هي وكم فيه للغبا من فتون

فَرَنا نحوه بطرف كليل ... ليس يقوى على احتمال الشجون

ثمّ ولّى والحزن يفري حشاه ... مستغيثاً بعطف أم حنون

وجثـا ضارعاً إليها ينـا ... جيهـا بدمع من مقلتيه هتون

ويحهـا ما عسى تنال يداها ... وهي خلو الشمال صِفْر اليمين

كل ما تستطيعه عبرات ... من عيون مقرحات الجفون

١ سعد البواردي في قصيدة « بدون عيد » : ديوان « أغنية العودة » ص ٩٦ يقول سعد :

ابن الغني : ابن من أنت ؟ مـا لوجهك كالفقر ذليل تضجّ فيـه الكآبة
لا أرى بسمة تداعب جفنيك فتمحو من نهر ريقك صبـابة
أنت في العيد . أين بردتك البيضاء ؟ تكلم . لله ماذا أصابه
أي شيء كوى فؤادكَ بالنوح ، ومن في الحياة مثل سنّك
ضمهم هاتف من العيد والفَرحَة

ابن الفقير : أواه كم قسوت بظنك
إنّي جائع شريد بلا أهل ، وظل ، حملت وهني ووهنك
منذ أن كنت ما تذوقت أعياداً ولا ذقت في حياتي . فرحة
خلفتني السنون للآه وحدي . . ورمتني الشجون ذلاً وقرحة
وعيوني ما كحلتها تباشير نهار حلو . . وكم رمت صبحه =

وفي قصة لأمين سالم الرويحي رأينا أماً مات عنها زوجها وخلف لها ولداً وفقراً . واقترب العيد . فسأل الصبي أمه عن أبيه ، ولِمَ لم يَعُدْ من سفره إلى اليوم ، وها هي ذي الأسواق تغص بالآباء العائدين من سفرهم ليشتروا لأبنائهم كل جديد ؟ فتصبِّر الأم وحيدها، وتحكي له الحكايات حتّى يتسلل النعاس إلى عينيه،ويغرق في نوم عميق . أما هي فتنسلُّ من بيتها ، وتخرج إلى الأسواق وتستعطي الآباء ، وترفع صوتها بالاستجداء لعل ذلك — في رأيها — يلين القلوب لها[1] .

وقد يخرج الأديب عن إطار العيد ولكنه يحتفظ بصغر سن الفقير ، ويقرن ذلك بمصيبة أخرى . فهذا « سعيد »[2] شقي طريد ، صورة لأحزان الإنسانية التي لا تفصل بين مراحلها فرحة، ولا تبدو من حلقاتها مسحة من أمل . جردت الأيام أباه من إحدى كفيه ، وإحدى قدميه ؛ لأنه سرق ، وأصابت الليالي أمه بذات الرئة ، فغدا بين أب غير قادر على المشي والعمل ، وأم تلفظ أنفاسها . فهو ابن أسرة مريضة الروح والبدن . ويضطر سعيد أن يسرق كما سرق أبوه من قبل ، فتجذ أطرافه من خلاف . فحقد سعيد على نفسه وحظه . ثم رغب في أن يعمل في أي مكان دون أجر إلاّ بما يسدّ رمقه ، فلم يقبل أحد أن يستخدمه لأنه سارق وابن سارق . . .

تلك نماذج من وصف حالة الفقراء ، وهي إن تميزت بشيء فبسطحية المعالجة ، والوصف ، والتصوير .

= . . أينه العيد . . ويحقلبك كم يقسوفما العيد في حياتي وعمري
كم خطا القادرون في فرحة الأعياد ثملى وما وعوا فيه أمري
إنما العيد أن يُهادِنَني الجوع ولو مرّةً فيثلج صدري

١ أمين سالم الرويحي في مجموعته « الحنينة » ص ٦ .

٢ سعد البواردي ، فلسفة المجانين « قصة الهازىء من الحياة » ص ٣٧ .

كذلك لم تكن أوصاف حالات الغنى والأغنياء خيراً منها، وأعمق، فلقد جاءت ملامح خاطفة، ونظرات سريعة، وصوراً عابرة.

فالموسر – حيناً – قد يكون محتكراً، جمع أمواله عن طريق اغتيال أقوات الناس، واحتكار حاجاتهم رغبة في رفع أسعارها؛ لعله يزداد ثراء على ثراء[1].

وهو – حيناً آخر – متكالب على الدنيا، لاهث وراء المال، لا يعرف صديقاً أو قريباً أو حبيباً، وفي سبيل جمعه، واكتنازه، يهجر أسرته بياض نهاره، وسواد ليله، حتى إذا ما نظرتَ إلى وجهه رأيته عبوساً قمطريراً[2].

ومما عالجه الأدباء آثار الثروة في نفوس بعض الفقراء، فالمال قد يخلق فيهم شيئاً من النفاق لصاحبه، ويدفع بهم إلى الخضوع له.

صور أحد الأدباء «برجوازياً» التف حوله نفر من الضعفاء، كان يضحك فيرقصون، ويعبس فيبكون، يتحدث بما يشاء فيصدقون. ويسكت فيملأون الدنيا ثناء عليه. هذا «البرجوازي» جرح أصبعه يوماً، فتباكى. وإذا بالجميع يضجون بالنداء «كلنا نفديك». ثم انهالوا على يديه مسحاً، وتقبيلاً، وعلى أصبعه تمسيداً وتدليلاً، ثم ارتفعت رؤوسهم إلى السماء تدعو الله أن يشفي إصبعه. ومات عشرون منهم حوله، من شدة الزحام. ولما برئت هنأ بعضهم بعضاً. ولكن ما سأل أحد عن الفقراء العشرين الذين ماتوا[3].

ولقد ركز الأدباء على وقع الثروة – مع سوء التصرف بها – في نفوس الفقراء، والضعفاء، وبينوا بوضوح وجلاء كبيرين كيف أنها في حالة سوء

---

١ انظر قصيدة الفاسي في التيارات الأدبية ص ٣١٧.
٢ انظر سعد البواردي، في فلسفة المجانين ص ١٧.
٣ انظر قصيدة «برجوازي» في ديوان «أغنية العودة» للبواردي ص ١١٧.

استغلالها يمكن أن تحوّل التيار الاجتماعي السليم إلى تيار منحرف كاسح هدام .

وكم رفع الأدباء عقيرتهم ينادون الأغنياء الذين يسيئون التصرف بأموالهم أن يتّعظوا بما يجري في كثير من بلاد العالم من أحداث ومآسٍ نتيجة لمثل هذه التصرفات ، وينادونهم بالويل والثبور إن لم يحسبوا حساب الزمن ، ويحذرونهم من طامة كبرى لا تبقي ولا تذر .

وبعد ، فلئن كانت ألوان تصوير الفقر والفقراء والغنى والأغنياء بسيطة إلى حد كبير في الإنتاج الأدبي إنها كانت قوية ، ونابضة في ألوان العلاج . وما كانت علاجات الأدباء بعيدة عن الشرع الإسلامي ، والواقع الذي فيه يعيشون .

لقد تمثلت ألوان العلاج في عدة اقتراحات .

في الزكاة : فالظلم — كما يرى بعضهم — فطري في الإنسان ، وهو أشنع شيء بعد الشرك بالله ، والظلم يؤدي إلى الحروب والفتن ، ولا يمّحي إلاّ بالعدل . والدين الإسلامي عرف هذا فحرّم الظلم ، ودعا إلى العدل ، وإلى تحرير الإنسان من عبودية الإنسان ، ونظّم ذلك ، وكان عن طريق فرض « الزكاة » . ولكن المسلمين نسوا الله فنسيهم ، فنشبت بينهم حرب الطبقات وتعادوا ، وحقد بعضهم على بعض ، والحقد سفينة المحرومين . ولو أدى كل فرد فريضة زكاة ماله لما حدث ذلك . وحساب بسيط يؤيد النظرية : فلو فرضنا أن دخل الدولة ثلاثة مليارات ريال ، فزكاتها التي هي بنسبة اثنين ونصف بالمئة تساوي خمسة وسبعين مليوناً في السنة . وهذه تسعد كل فقير على وجه البلاد ، وإذا أضيف إليها زكاة الفطر غدا الفقير غنياً[1] .

وفي الضرائب التصاعدية التي هي حل من الحلول الكثيرة لمشكلة الفقر .

---

١ أحمد عبد الغفور العطار : الإسلام طريقنا إلى الحياة ص ٤٩ .

وقد قارن أديب بين الشيوعية والديموقراطية ، فرأى أن الشيوعية سلبت كل شيء حتى الأمل والنشاط الفردي . والديموقراطية سنت بدل الشيوعية نظام الضرائب التصاعدية – كبريطانيا – فأخذت تسعين بالمئة من الأرباح . ولهذا نجد أن أصحاب الملايين يفضلون إنفاق الربح على عمالهم وتحسين معاملهم بدل دفعها كلها إلى الدولة ، والدولة الإنكليزية تعرف هذا وتباركه لأنه يخدم الغاية التي تتوخاهـــا هي . ويتدرج الكاتب إلى نظام الزكاة ، ويرى أنها محققة بزكاة الأنعام في الإسلام . وبإمكان الحاكم المسلم – لدرء الخطر عن بلده – أن يقيس على زكاة الأنعام زكاة الأموال ، ويجعلها تصاعدية تزيد بزيادة المال وربحه[1] .

وفي التأميم الذي كان مثار أخذ ورد عنيفين بين الأدباء، وانتهى كثيرون إلى قولهم : « إن التأميم حرام إذا سلب الناس أموالهم ، وألغى الملكية الفردية وقضى على نشاط الأفراد . ومن هذه الزاوية هاجموا الذين أمموا سلباً ، والذين دعوا إلى هذا النوع من التأميم . وأجاز الأدباء – كما أجاز الفقهاء – تأميم المرافق العامة والأوقاف لأنها تنفع الناس جميعاً ، ولا تضر بمصالح أحد[2] .

وفي الضمان الاجتماعي الذي هو عامل آخر يقضي على حرب الطبقات والحقد ، وقد ثبت صلاحه في أوربا . ولئن كان هذا الضمان جديداً في العالم الغربي المعاصر إنه في الإسلام من أيام عمر بن الخطاب حين تعقدت الحياة في زمانه ، وامتدت الفتوح ، وكثرت المشكلات ، « فدوّن عمر الدواوين ، ومنع تمليك المجاهدين الأرض المفتوحة ، وفرض العطاء الشهري أو السنوي لكل محتاج من الناس ، امرأة كان أو رجلاً ، حتى الرضع والمنفوسون قدّر

١ المصدر السابق ص ٥٤ .

٢ المصدر السابق ص ٧٦ .

مراتبهم وحاجاتهم ، كما تعهد الأرامل وذوي العاهات وأهل الذمة ، وراقب العطاء . وفي « عام الرّمادة »[1] قاد السفينة حتى فتح الله بالخير والخصب ، واستجلب العون من أبي عبيدة بالشام ومن عمرو بن العاص بمصر ، وحرّم نفسه من الزيت حتى اسودّ جلده ، وكان يوزعه على الناس ، ولم يقطع يد سارق في ذلك العام »[2] . بل إنه منع أخذ الجزية من يهودي رآه يتسوّل ، فقال : أكلنا شبيبته ، فلا يصح أن نأكل شيخوخته ؛ وفرض له في بيت المال فريضة – رغم كونه يهودياً –[3] . فإذا كان الضمان في فجر الإسلام ؛ فأحرى بالدولة أن توجده وتطبّقه وتحفظ عجز المواطنين وضعفهم ، وتسدّ عوزهم وحاجتهم حين يُعْوزون ويحتاجون .

وفي إقامة المشاريع الوطنية التي هي مسؤولية لا تقع على الدولة فقط ، بل على الأفراد ذوي الطاقات المالية الكبيرة التي قد يطيح بها الفقراء إن ثاروا . لهذا دعا الكثيرون من الأدباء المصلحين هذه الطبقة الثرية إلى إقامة المشاريع ، وبناء المعامل، وإنشاء المؤسسات ، لاستغلال الطاقات المادية ، وبهذا يخلقون إنتاجاً يسدّون به حاجة بلدهم ، ويمتصون الثورة التي يمكن أن تندلع إن لم تُسيَّر في مجرى سليم[4] .

وفي تنظيم الصدقات أيضاً . وقد اقترح الأدباء أن تُجمع في مكان أمين معيّن ، وتصرف في خدمة الذين يستحقونها، وجمعُها في مكان واحد يخلق

---

١ الرمادة لغة : الهلكة . وعام الرمادة : سنة جدب وقحط حدثت في أيام عمر بن الخطاب ، فأخر استيفاء الصدقة ، ومنع فيه قطع يد سارق . (اللسان – مادة رمد) .

٢ الكاتب محمد سعيد العامودي في مقال عنوانه « عمر بن الخطاب والضمان الاجتماعي » في كتابه « من تاريخنا » ص ٣٧ .

٣ المثل من أحمد عبد الغفور العطار في كتابه « الإسلام طريقنا . . » ص ٦٨ .

٤ دعا إلى ذلك البواردي في كتابه « فلسفة المجانين » ص ١٩ ؛ والعطار في « الإسلام طريقنا » ص ٢١٧ .

منها مبلغاً كبيراً ، به يمكن أن يكون رأسَ مال صغيراً لإنسان يريد العمل ولا يجد رأس المال ، أو يستر به عائلة ، ولولاه لَهُتِك سترها . وإذا بقي المال موزعاً ، ودفع رأساً إلى السائل أو المحروم لم يؤدّ الوظيفة التي يؤديها لو كان مبلغاً كبيراً .

وفي احترام الفقير لأن في هذا الاحترام معالجة معنوية ، أساسية . انتبَه إليها الأدباء . فقد وجدوا أن نظرة الازدراء التي يُرْمَى بها الفقير تخلُق فيه عُقَد النقص ، وتدفعه إلى الانتقام . فدافعوا عن الفقر وقالوا : « إنه ليس سُبّة ولا عاراً، وكم من فقير يملك الروح العالية ، والمشاعر الكريمة . والإنسانية المثالية تومِض في أعماقه ، وتشتعل بين جوانحه . والفقير إنسان خُلق بنصيب كغيره من الناس . ونصيبه الذي يَسّرَتْه له حياته مهما كان لا يعني هَوانَه في لائحة الوجود . ولا يعني أن قحطه في قاموس حياته المادية نقص في المكانة ، أو دليل على الإهانة . والذين قادوا مواكب البشرية ، والذين حملوا مشاعل الدعوة ، والذين أضرموا روح الحب والحياة في هيكل الأجيال الزاحفة ، كلهم أو جلهم كانوا فقراء . والفقير أهل للرحمة مني ومنك . إن لم تكن هذه الرحمة بأموالنا ، وطباعنا ، وتخفيفنا من آلامه وبؤسه ، فلا أقل من أن يجمعنا بهم حُسْنُ السلوك ، ورقة المعشر ، وبشاشة اللقاء . ثم إشعارهم بأن لهم كفة لا ينتقصها أنهم فقراء ، ولا يخفف من ثقلها أن يكونوا معدمين [1] » .

مظاهر معالجة الموضوع : تطالعنا لدى دراسة هذا الموضوع مظاهر مختلفة:

أولها : الاعتماد على تأييد الفكرة بالدين الإسلامي وشواهد التاريخ . فالزكاة وهي فريضة دينية يوجهها الأدباء في خدمة المجتمع . والصيام وهو

---

١ مقتطفة من سعد البواردي في مقالة « ليس عيباً أن تكون فقيراً » في كتابه « فلسفة المجانين » ص ٧٣ ؛ والمعنى ذاته يتكرر في إحدى قصائد فؤاد شاكر في ديوانه « وحي الفؤاد » ص ١٠٨ .

كذلك تذكير بالفقراء الجائعين. والحج رمز إلى تساوي الناس في كل شيء. ووقائع التاريخ العربي مستمدة من حياة الرسول عليه السلام، وسلوك الخلفاء الراشدين، ولا سيما عمر بن الخطاب. ومن النادر أن تمر على بحث اقتصادي كتبه الأدباء السعوديون دون أن تقع عينك فيه على آية قرآنية، أو حديث نبوي، أو خبر تاريخي حول سلوك أحد عظماء الرجال المسلمين. وكأني بهم، – وهم في أكثريتهم – متشبعون بالفكرة الدينية، ومجاورون للمشاعر المقدسة، وعائشون تحت سلطة الحكم الديني، ومتفهمون فكرة الإسلام يرون أنه لا بد لكل حل من الحلول أن يتوافر فيه الانسجام مع التشريع الديني، حتى إذا كان هناك حل لا يتفق مع الدين طرحوه جانباً، وأشاروا إلى حِرمانيته – على شكل معيّن – كما رأينا في موضوع «التأميم». وأكثر من هذا أن بعضهم كان جريئاً فحلل أن يُزاد مقدارُ النصاب في الزكاة على ما حددته الشريعة، بغية توفير الضمان الاجتماعي الكافي للطبقات الفقيرة المحرومة.

وثانيها: التخويف من «الشيوعية والاشتراكية». وهذه الظاهرة محسوسة في شتى آثارهم الأدبية. نرى الأديب يكتب، والشاعر ينظم، وهما يقصدان إلى إصلاح المجتمع، لا لأن من حق الإنسان أن يعيش إنساناً كريماً فقط، بل خوفاً من الشيوعية أو الاشتراكية» التي يمكن أن تكون متربصة خلف الجدران والأبواب. وإذا طالب الأدباء الحكومة بأخذ الزكاة من الأغنياء عنوة فلكي لا يقع المحرومون بين براثن «الشيوعية»، وإن طُولبت الدولة بالتأميم للمرافق العامة فلئلا تأتي «الشيوعية» فتأمم المرافق العامة والخاصة. وإن هتف المصلحون منادين بضرورة نشر الضمان الاجتماعي بين كافة القوى العاملة والمنتجة والفقيرة فلأن ذلك زعيم بدفع إغراء «الشيوعية» بأنها تكفل حياة الكادحين ومستقبلهم. وحين يوصي الأدباء الأغنياء بإنشاء المصانع والمعامل والمؤسسات المختلفة فلكي تمتص الطاقات الكبيرة من الجماهير الفقيرة

فلا تثور لعطالتها ، ولا تثأر لفراغ حياتها ، ولا تحقد لخواء أيديها من العمل والمال .

هذه اقتراحات لعلها تقضي على ما يخافه الأدباء والمصلحون والحاكمون . وميزة هذه المقترحات أنها حل عصريّ بأسلوب قديم ، يراعي التقاليد والعادات والدين الذي يضعه المواطنون فوق أرواحهم ، ويفدونه بالغالي والنفيس .

قضية العمل والعمال

مخطىء من يعتقد أن تمجيد العمل، وتعظيم العمال وليد العصر الحديث، وأن مباركة الكادحين ، والأخذ بناصرهم بضاعة مستوردة من شرق أو من غرب ، وأن الأدب الذي يحتوي هذه المعاني أدب حديث . ذلك أن الإسلام قرآناً وحديثاً سبق إليها منذ أربعة عشر قرناً ، وأفاض فيها خير قول وتشريع . لكن الجديد هو إقبال الشعراء والكتّاب عليها ، بشكل لم يعرفه الأدب العربي القديم بمختلف عهوده . ونعتقد أن أدباء المملكة لم ينزلوا إلى هذا الميدان إلاّ منذ وقت قريب حينما بدأت بواكير المصانع والمعامل تظهر ، وحينما شرعت الدولة تبني ، وتؤسس ، وتنشئ شتّى مرافق الحياة ، زاد الأدباء في القول وأسهبوا حين اشتدت الحاجة إلى اليد العاملة وإلى النظام الذي يصون لهذه الفئة من الناس حقوقها ، ويرعى مصالحها . ولم يتجاوز عمر هذه الحقبة ثلاثين سنة — على أبعد تقدير —

لا بد للباحث الذي يستعرض مضمون هذا الأدب من المرور — بادئ ذي بدء — على نفسية المواطنين ، ووضع البلاد قبل هذا العصر ليربط الواقع الذي تعيشه بالمعاني التي حملها الإنتاج الأدبي الحديث . وإذا تذكرنا أن العربي — منذ القدم — كان يؤثر الفروسية والتجارة على الصناعة والزراعة إيثاراً كلياً ، ويترك للموالي مزاولة الحرف اليدوية ، لأنه كان يرى أنه السيد الفاتح ،

له القيادة والسيادة والحرب ، وللأمم المغلوبة على أمرها العمل . هذه النظرة إلى العمل انقلبت إلى عادة بحكم مرور الزمن حتى عيّر جرير خصمه الفرزدق بجده الذي كان يصنع الشّنُف والأقراط وحُلِيّ النساء[1] ، كذلك حين نتذكر أن المملكة قبل نهضتها الحديثة كانت خِلواً من الأيدي العاملة الفنية المؤهلة ، واضطرت – تحت ضغط الحاجة – أن تستورد المختصين في ضروب الأعمال من مختلف البلاد لمصانعها الحديثة المستوردة ، ومشاريعها الكثيرة ، وتدفع لهم الأجور العالية المغرية ، وتضع بين أيديهم كبير الأشغال وصغيرها ؛ إذا تذكرنا كل هذا ، اتضح أمامنا الداعي الذي حدا الأدباء إلى سلوك نهج معين في هذه القضية ، وأدركنا السبب الذي دفعهم إلى لون خاص من المعاني ألحوا عليه حتى بدا كأنما لا شيء في الموضوع كله سواه . تدور المقالات والقصص والأشعار حول فكرتين كبيرتين أساسيتين هما نتيجة لحال المملكة السابقة في خُلُوها من اليد العاملة الماهرة ، ولكثرة العمال الوافدين . ويكاد حملة الأقلام جميعاً يضربون على نغم واحد من القول : « نحن أحق بمصالحنا »[2] و « أوْجدي يا حكومة المعاهد المهنية »[3] . ولا شك أن هذا النداء يدفع إليه حبُّ الوطن ، والرغبة في إعزازه ، ورفع مستواه ليكفي نفسه بنفسه . وواجب علينا أن نذكر كلمة الحق – في هذه المناسبة – وهي أنّ معظم العمال الوافدين يأتون إلى المملكة وقد حملوا معهم فكرتين : الإثراء السريع ، والاستئثار بالأعمال دون المواطنين . وليس عجيباً أن يطالب أحدهم لأمر صغير قام به بأجر غير معقول لا يتناسب والجهدَ ، والزمنَ ، ونوعَ العمل ، أو أن يرفض

---

١ عير جرير الفرزدق بأحد أجداده فقال : (الديوان ٢/٥٤) :

ألهى أباك عن المكارم والعُلا لَيُّ الكتائفِ وارتفاع المِرجل

٢ سعد البواردي ، أجراس المجتمع ١٣٢ .

٣ سعد البواردي ، المصدر السابق « المنديل الحلو » ص ١٠٩ .

تدريب مواطن على مهنة خشية أن يتمرس بها هذا ، فيحلّ محله . وحينئذ فليس أمامه إلاّ أن يخرج من البلد . وإذا كانت هذه الظاهرة واقعاً ملموساً ، وكان حب الوطن يدعو الأدباء إلى دفع الناس إلى العمل ، وحث الحكومة على تأهيل المواطنين صناعياً ؛ فإنه لا يجوز – في رأينا – أن تحمِل مقالات بعض الكتّاب على الوافدين جميعاً ، وتصفهم بالجشع وسيء النعوت ، كما رأينا في الآثار . أما الفِكَرُ الأخرى التي تضمّنها هذا الأدب فهي مطالبة الدولة بإيجاد العمل للعاطلين ، ليقضي على البطالة ، ومن ثَمّ على الجريمة ، والجنوح ، وما يتبع ذلك . وكم باركوا المشاريع العامة التي تنهض بها الدولة ، أو الشركات ، أو الأفراد ، ففي كل منها نفع للوطن ، وخير لأبنائه ، وحرب على الفقر ، ونضال ضد التخلف[1] .

وأصاخت الدولة إلى نداء الأدباء ودعواتهم ، وراحت تنفذها . أوجدت المعاهد المهنية في معظم المناطق . وشجّعت على الانتساب إليها ، وافتتحت المشاريع الضخمة فامتصت بها الأيدي العاطلة عن العمل ، ثم وضعت نظاماً لصيانة الطبقة العاملة ومن في حكمها ، فكفلت به حقوقهم ، وتقاعدهم ، وإعالة أسرهم بعد وفاتهم . ويكاد هذا النظام يكون من أحدث أنظمة العمال في الأقطار العربية .

أما قضايا الفلاحين فلم تظهر واضحة في الأدب السعودي كما ظهرت قضايا العمال ، ومع هذا فإن الدولة أسست « بنك التسليف الزراعي » في معظم البلدان ، وغايته أن يقرض الفلاحين المال بدون فائدة ، ويمدهم بالوسائل العلمية ، والخبرات الفنية مجاناً ، ثم حفرت لهم الآبار في كل مكان . وكأنها

---

١ انظر الغزاوي ، تاريخ مدينة جدة ١٣٩ ؛ وقصيدة عبد الله بن خميس ، « طريق مكة – الرياض » (في جميع الصحف السعودية شهر أيار ١٩٦٨) ؛ وفؤاد شاكر ، وحي الفؤاد ٥٣/٧٣/٨٤/٩٠/٢١٥ ؛ والبواردي ، فلسفة المجانين ٣٧/٧٨/٩٧/١٠٩ .

بهذا سبقت الأدباء ودعوتهم إلى الإصلاح ، ولم تبق أمامهم إلاّ مهمة تصوير تلك الإنجازات .

قضية الأخلاق

من نافلة القول أن نعرّف الأخلاق ، أو أن نتحدث عن أثرها في حياة الفرد وتقدم المجتمع . فلطالما دعا إليها الأنبياء ، والمرسَلون ، والصالحون ، والمصلحون على مرّ العصور ، وفي مختلف البقاع . وستظل القِيَم العليا غاية المرشدين إلى أن يَرِث الله الأرض ومَن عليها . وليس بدعاً إذاً أن تتصل حلقات هذه السلسلة الخيّرة في الجزيرة العربية من أقدم الأزمنة إلى يومنا هذا . لكن الطريف في الموضوع أن كثيراً من الدعاة — رجال دين كانوا أو أدباء — نسبوا إلى السلف كل خُلُق صالح ، وفعل حميد ، وقذفوا الخَلَف بكل طالح ، وعمل ٍ ذميم . فأبناء هذا الزمان — في عرفهم — فقدوا الصدق ، وأضاعوا الود ، وظلموا ، وجاروا [1] ، وارتكبوا كل موبقة . أما الأجداد فهم أبناء المعارك والأمجاد ورجالها ؛ فالعز عنوان حياتهم ، والنجيعُ صِباغ دروعهم ، وتقبيلُ السيوف أشهى عندهم من تقبيل ذوات القد والدلال [2] ،

١ علي بن عبد الله بن محمد بن عبد الشكور الحنفي ، المدرس بالمسجد الحرام والمتوفى سنة ١٢٦٢ هـ/١٨٤٥ م . يذم أبناء هذه الدنيا : (عمر عبد الجبار – سير وتراجم . ص ١٩٤) :

نظرتُ بني الدنيا فلم أرَ منهم ... أخاً صادقاً في وده وخطابه
وجربت أبناء الزمان فلم أجد ... سوى ظالم والظلم ملء إهابه

٢ محمد صبحي شاعر مكي أكثر من النشر في « القبلة » و « أم القرى » يقول : (محمد سرور الصبان : أدب الحجاز ص ٢٨) :

عزّ أتاكم من الأجداد يوم زهت ... بهم بلاد ، وكانوا قادة الدول
هم الألى قبّلوا بيض الصفائح في ... سود الحوائج واستغنوا عن القُبل
وعانقوا في الوغى الخطيّ واعتنقوا ... متن النجائب ذات اللجم والجدل =

والزمن الذي مضى وانقضى كان مترَعاً بالمعالي وبالمزايا وبالعدالة وبالمجد ململَماً من أطرافه . أما الحاضر عندهم فقد كُسفت فيه شمس الحضارة ، وهُتكت أستار الجلال ، وقُوضت صروح العلم ، وابتغى أبناؤه سُبُل الصغائر والدنايا ، والعز كل العز أن يسلك الأبناء سبيل الآباء[1] . وراح الأدباء يسهبون في تعداد المساوىء وشرحها وتبيان أضرارها . تحدثوا عن الظالمين[2] ،

= وصاحبوا الذابل الخطار معتدلاً   عن ذي قوامٍ ربيب الدل معتدل

وانظر المصدر نفسه (قصيدة محمد جميل حسن عنوانها « استعراض الماضي » ص ٦٩).

١ الشواهد على هذه الفكرة كثيرة جداً نختار منها ما يلي :

أ — عبد الوهاب آشي يقول في قصيدته « آلام وآمال » في مجموعة «أدب الحجاز » ص ٢٢ :

آه يا وطني المجيد متى أرى   شمس الحضارة في الربى تتألّق
ومتى أراك متوَّجاً بجلالةٍ   أيدي العلوم تحوكها لا تمزق
ومتى أرى أبناك قد جنحوا إلى   كسب العلا وعلى الفضائل أطبقوا

ب — محمد سرور الصبان في مجموعة « أدب الحجاز » ص ١٤٧ يقول :

مَنْ لي بشعب نابـه متيقظ   ثَبْتِ الجنان وصادق العزمات
مَنْ لي بشعبٍ عالم متنور   يسعى لهدم رذائل العادات
مَنْ لي بشعبٍ باسلٍ متحمس   حتى نقوم بأعظم النهضات
مَنْ لي بشعبٍ لا يكلُّ ولا يني   يسعى إلى العليا بكل ثبات

ج — محمد أحمد جمال في ديوانه « الطلائع » ص ٢٧ يقول :

وطني قد رُميت بالسوء في كلّ   مجالٍ للعزم فاهنأ بنومك
كيف فكرتُ في مصابك فالخُلـــــــف وخُبث النيات مَهْدف قومك
كلّما قلت ما خلا فات أمّا   ت مسيء الأعمال مرخص قومك
قام أنكى مساءةً منه قد كـا   ن يُرجى تحقيقه بعض رَوْمك

٢ انظر : عبد الله بن إدريس في قصيدته « في زورقي » من كتابه « شعراء نجد المعاصرون » ص ٢٩٠ ؛ وعثمان بن سيار في قصيدته « يا ليل » في المصدر السابق ص ٣٣٤ .

وعن الأوغاد والحاسدين[١] ، وقماقم السوء الذين يعملون في الظلام وهم يظنون أن الدسّ وسيلة إلى النجاح في الحياة[٢] ، وعن المتواكلين الذين لا يرون الخير إلاّ في الواقع — مهما كان[٣] — ، والسارقين[٤] ، والقذرين الذين عاشوا على القذارة واعتادوها حتى غدت شيئاً مألوفاً ، أو لازمة من لوازم الحياة والممات ، فنقلوها معهم إلى كل مكان حتى إلى المقابر ، إذ جعلوها مقذرَة يرمون فيها ما يقزز النفس ، ويبعث على القيء[٥] ، وعن المنتحرين لأتفه الأسباب[٦] ، والشاذين جنسياً[٧] ، والمقلدين غيرهم ؛ فقد يقلد فقير غنياً ، وصغير يحاكي كبيراً ، وضعيف يتشبه بقويّ[٨] . إن التعبير عن مثل هذه الفِكَر يكون في الغالب بإحدى وسيلتين : أولاهما ، التعبير المباشر عن الفكرة بالأسلوب التقريري ، واللهجة العادية ، والمعالجة المألوفة . وثانيتهما ، التعبير غير المباشر ، وغالباً ما يكون في أسلوب السخرية والهزء ، وقلب الحقائق ، كما يفعل كثير من الأدباء العرب من السعوديين[٩] وغير السعوديين .

---

١ انظر طاهر الزمخشري في قصيدته « وغد » من ديوانه « ألحان مغترب » ص ١٨٧ .

٢ انظر طاهر الزمخشري في قصيدته « قماقم السوء » من ديوانه « أنفاس الربيع » ص ٥٩ .

٣ انظر سعد البواردي في مقاله « الخير في الواقع » من كتابه « فلسفة المجانين » ص ٦١ .

٤ انظر طاهر الزمخشري في قصيدته « القلم » من ديوانه « ألحان مغترب » ص ١٧٩ .

٥ انظر سعد البواردي في مقاله « قبورنا الحزينة » من كتابه « أجراس المجتمع » ص ١٧٠ .

٦ انظر طاهر الزمخشري في قصيدته « الصخرة » من ديوانه « ألحان مغترب » ص ١٧٣ ؛ وانظر طاهر الزمخشري في قصيدته « سأعيش » من ديوانه « أنفاس الربيع » ص ٤٧ ؛ وعبد السلام حافظ في قصيدته « المنتحرة » من ديوانه « الفجر الراقص » ص ١٣١ ؛ ومحمد حسن عواد في قصيدته « خواطر منتحرة » من ديوانه « آماس وأطلاس » ص ١٩ .

٧ انظر أحمد محمد جمال في قصيدته « شهوة ثم قسوة » من ديوانه « الطلائع » ص ٤١ .

٨ انظر محمود عارف في قصيدته « أحلاس التقاليد » من ديوانه « المزامير » ص ١١٩ ؛ وجريدة القبلة العدد ١٠٩ تاريخ — ١٦/١١/١٣٣٥ هـ/١٩١٦ م ص ١ .

٩ انظر قصيدة سراج خراز في « التيارات الأدبية » ص ٣١٤ ؛ وقصيدة إبراهيم العلاف=

وهكذا تستمر الدعوة إلى الأخلاق على هذا المنوال . وكأن الأدباء بُهروا بالماضي المجيد فاعتقدوا أنه خِلْو من كل شائبة . ولو عادوا إلى التراث العربي لوجدوا القدماء قد اشتكوا ممّا يشتكون منه اليوم ، ولوقعوا على دعوات كثيرة لمصلحين كانوا يشيدون فيها بمن قبلهم ، وينعون على من لحقهم . كذلك شغف المعاصرون باتهام الناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، وأولعوا بوصمهم بالذنوب والسيئات ، ولو أنصفوا لقالوا : إن القدماء كالمعاصرين ، يخطئون كما يصيبون . وتلك فطرة الله التي فطر الناس عليها .

إن معالجة الأخلاق لدى أدبائنا المعاصرين قد اتسمت بالتعميم والسطحية . فالتعميم يبدو في صب كل ذميمة تخطر على بال الأديب المصلح فوق رؤوس الأحياء ، وفي نسبة كل فضيلة إلى الأموات . ومثل هذا التعميم مرفوض في منطق الفكر إن لم يبرهَن عليه بالدليل وبالإثبات . أما السطحية فتبدو في طريقة معالجة موضوع الأخلاق ، ذلك أننا لم نشهد أديباً واحداً تناول نقطة جزئية وتعمق في بحثها شرحاً واستقصاء وتحليلاً وخرج بخلاصة مركزة قدمها إلى الآخرين ، كما نلاحظ أن كل دعوة إلى الفضيلة قُرنت بالدين ، وارتكزت على مبادئ القرآن الكريم والحديث الشريف ، وسيرة السلف الصالح . كأن الأدباء يبرهنون بهذه الاستشهادات على وجوب القيام بها إن كانت خيراً ، وعلى الابتعاد عنها إن كانت شراً . ونحن معهم متفقون على صحة هذه الاستشهادات وقداستها والإيمان بها . وكنا نود أن نرى واحداً منهم دعا إلى الخير لأنه خير ، لذاته ، لحقيقته ، لا لأن الدين أو السلف أمروا به أو فعلوه . وهذا مطلوب في منطق الدين نفسه ، فقد روي عن عمر — رضي الله عنه —

= « السلوك الأعوج » من ديوانه « وهج الشباب » ص ٩٣ ؛ وقصيدة أحمد عبد الغفور العطار في « الهوى والشباب » من « التيارات الأدبية » ص ٢١٣ ؛ وقصيدة ماجد الحسيني في المصدر نفسه ص ٣٠٧ .

أنه قال : نِعْم العبدُ صُهَيْب ، لو لم يَخَفِ الله لم يعصه . والملاحظة الأخيرة على هذا اللون أن أصحابه تغافلوا عن تناول كثير من الجوانب التي تحتاج إلى نقد اجتماعي لدواعٍ غير موضوعية .

والآن – وقد استعرضنا الموضوعات الكبرى في الأدب الاجتماعي تعترضنا أسئلة كثيرة ، لا مناص من الجواب عنها : هل لهذا اللون من الأدب الاجتماعي سمات خاصة تميزه من الأدب التقليدي ، أو أنه امتداد له مضموناً وشكلاً ؟ ألَهُ شخصية بارزة يُعرف بها ، أم أنه امتداد لأدب البلاد العربية الأخرى ؟ هل جاء المصلحون السعوديون باقتراحات جديدة وآراء حديثة لم يعرفها غيرهم في الأقطار المجاورة ، أو أن ما نادوا به كان ترديداً لما قيل في غير بلادهم ؟ وأخيراً هل نجحت دعوتهم إلى الإصلاح نجاحاً تاماً أو كان ضعيفاً ، أو أن صيحتهم كانت في واد ، ونفخة في رماد ؟

قبل الإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها يجب أن نلقي نظرة على الوضع العام في البلد ، بكل عناصره المختلفة : تاريخه السياسي ، وشكل الحكم فيه ، والنظام الديني ، وهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والسياسة الاقتصادية ، والحالة الاجتماعية ، والبيئة الجغرافية ، والمواطن المقدسة ، والوجود القَبَلي ، والتقاليد ، والأعراف ، والعادات ، والمناطق المختلفة ، والأبعاد الشاسعة ، واختلاف المستوى الثقافي والاجتماعي ، والتخلف الذي امتد عبر القرون الخوالي، والإصلاح الكبير الذي تعيشه المملكة ، والنهضة التي تكاد تتسع حتى تصيب مختلف النواحي والأطراف ، كما لا بد من الأخذ بعين الاعتبار الوضع الاجتماعي والمالي للأدباء . فهم من الطبقة الواعية الناضجة ، والمملكة تستعين بكل المثقفين والفنيين من أبنائها ، وتحيطهم بعنايتها ، وتوفر لهم الحياة الهنيئة الرغيدة ، لتمسك بهم أن يفرّوا من خدمتها إلى أعمال خاصة وتجارة فردية .

من هذه المنطلقات يمكننا أن نقول : إن الأدب الاجتماعي الصادر في السعودية له شخصيته الخاصة المتميزة كل التميز عن شخصية الآداب العربية الحديثة الأخرى .

أول طوابعه غلبة الروح الدينية عليه . ولا نظن أنا بحاجة إلى تعليل وجودها . فلقد أسهبنا في الحديث عنها عَبْر الفصول السابقة جميعها ، ولا بحاجة أن نضرب الأمثال عليها لأنها ظهرت معنا في معظم الشواهد التي أوردناها .

والطابع الثاني أنه أدب مرهق بالضغط الاجتماعي ، المتمثّل بالتقاليد والعادات ، والحياة العامة بعناصرها الحالية . ويلاحظ في كثير من الأحيان : أن الأديب – شاعراً كان أم ناثراً – يقصد إلى هدف ما ، فتقف حواجز مختلفة دون ما يريد ، وقد تكون هذه السدود متمثلة في عرف سائد ، أو تقليد متبَع ، أو وضع قائم ، أو فكرة منتشرة ، أو أمر متواضع عليه ، فتَحول بينه وبين الإفصاح والبيان . وحينئذ لا يكون أمامه إلاّ أحد ثلاثة حلول : إمّا المجابهة ، وهي أقل الألوان وأضعفها ، وإمّا الالتواء في التعبير ، والجنوح إلى الرمز والتلميح ، وهي الصيغة المنتشرة . وإلاّ فالتعبير الخافت .

والطابع الثالث أنه أدب صحيح ، معافى . لم يحمل في طياته الرغبة في الهدم ولا الميل إلى التحطيم ، ولا الجنوح إلى يسار أو يمين . ولم يكن دعاته مرضى ، أو مصابين بعدوى المبادئ المستوردة الغريبة . فهم يريدون تطبيقها على مجتمعهم صَلُحت أم لم تصلح ، وإنما كانوا عقلاء ، يعرفون واقعهم حق المعرفة . وهم بهذه الخبرة العملية يصفون العلاج المناسب ، ويضعون الدواء على موضع الداء . ومن هذا المبدأ يمكننا أن نقرر – ونحن مطمئنون – أن الأدب الاجتماعي في السعودية يسلك في نهج الإصلاح طريقاً يختلف عمّا سار فيه الأدباء الآخرون في البلاد المجاورة مضموناً وهدفاً .

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى ناحية أساسية في دعوتهم هي أنهم يقترحون ،

فتنظر الدولة في أقوالهم ، وغالباً ما تضعها موضع التنفيذ ؛ لأنهم في نظرها البناؤون والمخلصون ، وألسنة الشعب ، وممثلو الأمة وروحها النابضة . وهكذا تشابكت يد الدولة وأيدي الأدباء، وأخذ الإصلاح يَمُدُّ جذوره رويداً رويداً في شتى الاتجاهات في نهضة شاملة وعميقة وهادئة على واقع المجتمع السعودي لأنه استهدف تبديل معالمه الأساسية في التعليم ، والصحة ، والإدارة ، والعمران وتنمية الاقتصاد ، والنظام المالي ، والعدالة الاجتماعية . إلاّ أن هذا التعديل الجذري لم يسلك طريق الثورة الدامية ، ولا أثار الحقد والكراهية بين المواطنين للوصول إلى حرب طبقية ، ولا اتبع سياسة التشفّي والمصادرة والاعتقالات ، وإنما انتهج طريق التطور والتكيف المبنيّ على قواعد مدروسة ؛ واسترشد بنواميس النشوء والارتقاء ، وأخذ بعين الاعتبار – في المقام الأول – طبيعة الإنسان العربي في السعودية ، وواقعه ، وقابلياته ، وإمكاناته ، ومثله ، ومفهوماته ، وعقائده الروحية والدينية .

ولا بد – للإصلاح – من أسلوب « المُدَاوَرَة » لأن السحق ، والبتر ، والدم ، ليست الوسائل الأساسية في خوض المعركة للانتصار على التخلف ولا الأدوات الأصلية في اقتلاع العادات والأساليب العتيقة التي تعيق التقدم . وكثيراً ما تحقق « المداورة » نتائج أفضل من الصدام وهي ترى أن الوصول الأسهل والأسلم إلى الطرف الآخر من الطريق حين يعترض جبل ، لا يكون بنَسْفِه ، وتمزيق صخوره بالديناميت ، بل يمكن أن يكون بالالتفاف من حوله . فإذا نجح المرء في ذلك وصل – حتماً – إلى الطرف الآخر من الطريق ، ووصلت معه قافلة التطور بسلام . أمّا إذا كان نجاح المداورة من الأمور المستحيلة فلا بأس من اللجوء إلى وسيلة أنجع .

ونتساءل إلى أي حدٍّ استجابت الدولة إلى مطالب الأدباء ، وما المدى الذي بلغه المصلحون من دعواتهم ؟ ونعتقد أن ضرب مَثَلين يكفي لتقرير

المدى ، وإيضاح الجواب . الأول : في مجال الضمان الجماعي . والثاني في تحضير البدو .

فالدولة أوجدت نظام الضمان الجماعي[1] الذي يرتكز على نقطتين أساسيتين :

أولاهما ، تخصيص قَدْر ضروري من المال يكون دورياً دائماً ، وتخصيص مساعدات وقتية للعاطلين الفقراء ، أو المرضى المعوزين ، وتتوقف هذه الإعانات عندما يتم تشغيل الفقير المتعطل ، أو شفاء المريض المعوز .

وثانيتهما ، تأهيل القادرين من المحتاجين ليعملوا في صناعات تدربهم عليها مؤسسات الدولة ، حتى إذا استطاعوا كسب رزقهم الحلال عن طريق عملهم تَمّ تحررهم من العَوَز ، كما أفاد منهم المجتمع في زيادة إنتاجه . وبموجب هذا النظام أصبح لكل مُعْوِز « الحق » في الحصول على معاش يدوم ما دامت حالة العوز . واعتُبر من المستحقين كل يتيم أو يتيمة . ونُصّ على أن مجهول الأب أو مفقوده في حكم اليتيم ، كما اعتُبر معْوِزاً كل عاجز عن العمل عجزاً كلياً بسبب الشيخوخة أو غيرها من الأسباب الصحية ، وكل امرأة لا عائل لها سواء أكانت متزوجة أو مطلقة أو أرملة . كما أوجب الضمان الاجتماعي إعطاء مساعدات نقدية أو عينية للأفراد وللأسر المحتاجة التي لا ينطبق عليها نظام المعاش الدائم في حالات الكوارث والحريق والسيول وغيرها . فإذا أضفنا إلى هذه الميزات التي يتمتع بها كل مواطن من تطبيب ومداواة ، داخل المؤسسات الصحية أو خارج البلاد ، والدراسة مجاناً في سائر المراحل ، كان معنى ذلك أن الدولة تستجيب للإصلاح ، وتدعمه ، ما دام سبيلاً إلى خير المواطنين[2] .

---

١ انظر المرسوم الملكي الصادر سنة ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م القاضي بإقامة « نظام الضمان الاجتماعي وأجهزة تنفيذه » .

٢ انظر « نظام العمل والعمال » في المواد : ٢٧ ، ٢٩ ، ٥٠ ، ٧٥ ، ١٢٨ ، ١٤٣ ، =

والمثل الثاني في تحضير البدو . انطلقت فكرة الإصلاح من النظرية التالية : إنه إذا كانت المجتمعات البشرية في بلاد العالم جميعها تقسم إلى سكان مدن ، وسكان قرى ، بحكم العامل الجغرافي ، وعامل التطور الحضاري الذي بلغته ؛ فإن المجتمع السعودي لا يمكن إخضاعه لمثل هذا التقسيم التقليدي ؛ لأنه يمتاز بوجود البادية والبدو في أرجائه ، بالإضافة إلى وجود حياة الحاضرة ، وحياة الريف . وإذا لاحظنا أن البوادي تشكل الجزء الأعظم من مساحة البلاد ، وأن حياة البداوة تعم حوالي نصف سكان هذه الدولة ، وتمثل ظاهرة اجتماعية وجدناها تخلق مشكلة صعبة ، لا تعالّج بسذاجة ، وأنّ موضوعها حيوي يتصل اتصالاً مباشراً وعميقاً بصميم التكوين الوطني للمملكة ، كما يتصل بصميم تكوين المجتمعات الأخرى في بقية البلاد العربية . فما من بلد عربي إلاّ والبداوة مظهر من مظاهر حياته الاجتماعية بنسب متفاوتة . لهذا لا يجوز الاتجاه إلى الأخذ بالنظرية القائلة : إن معالجة مشكلة البداوة تكون بتوطين البدو ، أو نقلهم إلى مجتمعات كبرى تمتصهم ، لتصفيتهم ، وإنما تكون بمعالجة ظاهره البداوة على أساس إدماج المجتمعات البدوية في المجتمع الوطني للدولة ، وإشراك هذه المجتمعات في نشاط المجتمع العام ، وتمكينها من الإسهام في برامج التنمية بمظهريها الاقتصادي والاجتماعي .

إن إدماج البدو كأفراد في مجتمعات كبرى تمتصهم معناه : تحويل البدو مهاجرين إلى مجتمعات جديدة ، تقاليدها غير تقاليدهم ، ومفهوماتها ومثلها غير مفهوماتهم ومثُلهم . وتحويلٌ كهذا تنجم عنه مشكلات اقتصادية واجتماعية معقدة للغاية ، كما أن تنفيذه يحتاج إلى وقت يصعب تحديده مقدماً ،

= ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٣ .

وانظر « نظام التأمينات الاجتماعية » في المواد : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .

بالإضافة إلى أنه يحول أفراداً يشعرون بالسعادة في عيشهم التقليدي إلى أفراد تعساء لا يندمجون في المجتمعات الجديدة بسهولة ، ولا تمتصهم هذه المجتمعات وتشركهم في حياتها بالرضى والطواعية . في حين أن إدماج البدو كمجتمعات في الكيان الوطني للدولة ، وتطوير هذه المجتمعات ، وتنميتها ، وتجنيد إمكاناتها يحوّل البدو إلى مواطنين سعداء ، ويجعلهم يؤدون واجباتهم نحو مجتمعهم الكبير ، فيساهمون في زيادة الإنتاج القومي ، وهم يحافظون على كيانهم وشخصيتهم وكرامتهم ومثلهم ، مما يساعد على وصل البادية بكيان الوطن ، فتتخلص من عزلتها ، وتدمج مواردها البشرية والطبيعية في موارد مجتمعها الكبير ، فتفيد من خطة الدولة في تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، كما تفيد من المجتمع الكبير في تنفيذ دورها ، وفي تحقيق نموه العام .

ومن هذه المنطلقات تم الإصلاح وكانت الغاية تنمية البادية وتعميرها وليس تهجيرَ سكانها . وهذه التنمية تعني تنفيذ برامج ، ومشروعات إنعاشية تستهدف رفع مستوى حياة البدوي الفرد كمواطن وكإنسان ، وإعانته على اكتساب المعرفة والخبرة اللتّين تساعدانه على مواجهة ظروف حياته القاسية ، وتنمية مهارته تنمية تسلحه بالمزيد من الإمكانات المنتجة البناءة ليبدل ظروفها ويخضعها لسيطرته . وفعلاً أوجدت الدولة الجهاز الفني اللازم لهذا المشروع ، ورسمت له المنهاج ، وأمدته بما يلزم ووضعت بين يديه تجربة الملك عبد العزيز في إنشاء « الهُجَر » ومنجزات العلم التكنولوجية ، ودفعته إلى العمل . هذا وقد أنشأت الدولة عدة مشروعات على سبيل التجربة حتى إذا نجحت عممتها في سائر البوادي .

ختاماً ، إن الظاهرة المميزة للأدب الاجتماعي في السعودية هي اقتران الأقوال بالأفعال ، وانسجام الأدباء مع الحكام ، وسعي الجميع إلى إصلاح ما يمكن إصلاحه .

الفصل الثاني

الأدب السياسي

هذا فن جديد في الأدب العربي عامة ، وفي السعودي خاصة ، وهو ليس أدب هجاء ، تتراشق به جبهتان متعاديتان من الشعراء ، كلّ منهما يمثّل جهة تحتمي بحاكم معين . وليس أدب مديح ، أو رثاء ، يُهال على سيد ، ويُنعَى به فقيد . وإنما هو لون من ألوان القول جاء به العصر الحديث ، وخلقته السياسة ، ودفعت إلى وجوده حاجات الأمة العربية الماسّة . هو لون له اتجاهات وفروع ، تصدر عن ينابيع مختلفة ، وتنطلق في مجارٍ متباينة . فيها ما ينتسب إلى أرومة دينية . وفيها ما ينتمي إلى أصل عربي. وفيها ما يخرج من معين إسلامي . وفيها ما يكون من منطلق عالمي . لهذا فقد رجح لدينا أن ندعوه بالأدب السياسي ، وأن ننأى عن تسميته بالأدب القومي ، فهو إلى السياسة بكل أبعادها وتقلباتها أقرب منه إلى الفكرة القومية بمعناها الضيق المحدود .

ولقد أخذنا على أنفسنا ، في هذا الفصل ، ألاّ ندّخر جهداً في رصد هذا الأدب وتتبع تياراته الكثيرة ، من منبعها إلى مصبها ، ولا نقصر في تصويرها على امتداد سيرها ، ولا نغفل عن الوقوف المطمئن عند المنعطفات الرئيسية ، والنقاط البارزة ، وتفصيل القول فيما لها أو عليها. حتى إذا انتهينا من هذه الخطوة كان علينا أن نختم الفصل في كلمة عامة تقوّم هذا الأدب ، وتضعه في المكان الذي يجب أن يوضع فيه ، سواء أكان بالنسبة إلى الأدب السعودي عامة أم بالنسبة إلى نظيره في البلاد العربية المجاورة .

* * *

كان نجد مصدر البواكير الأولى التي تفتحت أكمامها في عهد الشيخ محمد ابن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود . وقد ظهرت هذه البواكير في غير المظهر الذي تواضَعَ عليه الناس وألِفوه . لأنها تنقّبت بنقاب الدين ، وتسترت برداء العقيدة . والآثار الدينية والأدبية سواء أكانت في مؤلفات الداعية وأتباعه أم في قصائد الأنصار حملت فكرتين : ظاهرة ، ومستترة . أما الظاهرة فهي تعاليم دينية محض ، تهدف إلى الهداية والإرشاد ، كما أن الحاكم السعودي فيها إمامُ المسلمين « جميعاً » . طاعته فرض ، والانضواء تحت رايته واجب . والهجرة من « ديار الشرك » حَتْم على كل موحّد قادر ؛ وأن « نجداً » مطلع النور ومشرق الهدى . عز المسلمين بعزه ، وذلهم بذله . وأنه بسيوف أهله الأقحاح ينتصر الشرع ، وتزدهي الدنيا . أما الفكرة المستترة — كما يبدو لنا — فهي زحزحة السلطة العثمانية عن أرض الجزيرة ، ثم القضاء عليها — إن أمكن — ، وتكتيل المناطق المختلفة حول الحكم النجدي ؛ وتوحيد البلاد في ظل الراية السعودية — السلفية ، وإضعاف قوة الخصوم المادية والمعنوية بإذاعة وجوب الهجرة من بلادهم لأنها مواطن « شرك » . ويؤيد اجتهادنا ما أوردنا من شواهد وأدلة في فصول الباب الأول. وما نقلنا من آراء المؤرخين الشرقيين والمستشرقين في هذا المجال . ولا جدال في أن الهدف السياسي للدعوة موجود وقويّ ، لكنه مموّه بصباغ الدين ، شأنه في ذلك شأن الأدب الخارجي والشيعي والزبيري أيام الدولة الأموية ، بل ما كانت غايته لتزيد كثيراً على غاية تلك الأحزاب .

ومن غير الحق أن نجري في الطريق الذي جرى فيه عدد من الباحثين [1] فحمّلوا أدب المديح ، والرثاء ، والهجاء ، والفخر ، والدين فكرة القومية

---

١ انظر شفيق جبري في كتابه عن المتنبي ؛ وعمر دقاق في دراسته الاتجاه القومي في الشعر العربي المعاصر .

العربية ، وجعلوا أبا تمام ، والمتنبي ، وابن الرومي ، وغيرهم شعراء يدعون إلى القومية العربية لمجرد أن ورد في بعض قصائدهم تمجيد بالعربي والعروبة، أو الإسلام والمسلمين . ونعتقد أن تلك القصائد أولى بها أن تُدرج في سلك الأدب السياسي من أن تُسلَك في سلك الأدب القومي ، وليس من الجائز أن تدعى بـ « الأدب القومي » لمجرد وجود خط صغير فيها يلتقي ومقومات القومية العربية في شكلها المعاصر . ولربما جاز لنا أن نُقَرّبها من الشعر «الوطني» مع كثير من التسامح والتساهل ، ونجد لذلك بعض المسوّغات .

تلك حال البواكير الأولى للأدب السياسي في نجد وبعض مناطق الجزيرة التي خضعت لدعوة ابن عبد الوهاب كعَسير ، وجزء من المنطقة الشرقية ، أما بواكيره في الحجاز فأمرها مختلف . ولو رصدنا تطور الأدب السياسي في هذا الجزء من الجزيرة لوجدناه يجري في اتجاهين : اتجاه إسلامي صرف ، واتجاه عربي محض . الأول سابق ، والثاني لاحق .

أما الاتجاه الإسلامي – السابق – فهو امتداد للروح العامة المسيطرة على الشعر من عهد العباسيين ، والأيوبيين ، والمماليك ، والعثمانيين . وهو – في الوقت ذاته – انعكاس للمقدسات الإسلامية والمشاعر الدينية التي تمتلىء بها أرض الحجاز . وظل هذا الاتجاه الديني واضحاً في الإنتاج الأدبي حتى عهد العثمانيين ، على الرغم من جنوح بعض الإنتاج الأدبي في عدد من الأقطار العربية عن هذا الخط . ويظهر لنا سبب اختلاف وجهة الأدب الحجازي عن وجهة أدب غيره من البلدان – في مطلع هذا القرن – أن الحجاز لم يعان ما كان يعانيه سواه من الأقطار . فقد كان العثمانيون – في أواخر أيامهم – يَعْسِفون بالبلاد العربية إلاّ بالحجاز ، ويسوقون الشباب العرب إلى معارك طاحنة ، خاسرة في النهاية ، ويستثنون أبناء الحجاز ، ويجمعون الضرائب العادلة والجائرة من كل بلد إلاّ من الحجاز ، بل إن العثمانيين كانوا يسوقون في كل مناسبة

الأموال والأرزاق والهدايا إلى حكام الحجاز وأشرافه وسكانه . لذلك لم يجد الحجازيون – والأدباء منهم – مسوّغاً للجنوح عن خط طاعة السلطان ، وإجلاله وتعظيمه، بل أوجبوا البقاء على السمع له والطاعة لأنه خليفة الله وحارس شرعه . وكم كان الألم يحز في أفئدة الحجازيين حينما كانت تحمل إليهم الأنباء خبر ثورة على الخليفة أو خسارة لحقت بجيشه في معركة من معاركه الكثيرة مع الأعداء ، ويفسرون ذلك تفسيراً دينياً دائماً . فالثورة على السلطان ثورة على الإسلام نفسه ، وعلى وحدته الممثلة بشخصه الحاكم . والهزيمة في الحرب معناها تغلّب القوى الكافرة على القوة الإسلامية . وإذا بدا لأحد الحجازيين أن يهاجم الدولة ، فليس حقداً عليها ، أو هدماً لها ، بل رغبة في النصح ، وحباً في الإصلاح ، كما يهاجم الأب فلذة كبده ، ويقسو عليه إذا حاد أو أخطأ . ولعل خير مثل لهؤلاء الأدباء الشيخ إبراهيم الأسكوبي[1] شاعر المدينة المنورة الذي صبّ ألمه وحقده معاً في قصيدة تحدث فيها عن هزيمة العثمانيين أمام الطليان – قبيل الحرب العالمية الأولى – في حرب طرابُلُس الغرب . تضخمت الهزيمة في مخيّلته فأصبحت مأساة تجرح قلب كل مسلم ، وحمل في الوقت نفسه على حكومة الآستانة ، لأنها اغترت بأهل أوربة ، وركنت إليهم ، فنامت غير عابئة بما يحيط بها من خطر . وتقدم الأوربيون

١ هو إبراهيم بن حسن بن حسين أسكوبي . ولد بالمدينة المنورة سنة ١٢٦٩ هـ/١٨٥٣ م. وتعلم فيها ، ونبغ في العلوم الدينية والأدبية والفكرية . ودرس في المسجد النبوي العلوم الدينية والعربية . كان من أبرز شعراء المدينة . اتصل بالشريف «عون الرفيق» فأحبه وأكرمه ، فمدحه الشاعر بعدة قصائد . سافر إلى لبنان للاستشفاء كما زار دمشق للنزهة . وله في البلدين قصائد . وبعد عودته إلى المدينة نظم قصيدة نصح بها العثمانيين من غوائل الغرب وحكوماته ، فعلقت الصحف كثيراً على القصيدة ، واستدعي إلى الآستانة ، وجاءها فحاكمه الاتحاديون ، وبرؤوه في آخر الأمر ، ثم عرضوا عليه منصباً كبيراً فرفضه . وعاد إلى المدينة وفيها توفي سنة ١٣٣٢ هـ/١٩١٤ م ، (الساسي الموسوعة الأدبية ١/١ – ٣) .

وبدأوا يجهزون عليها تمزيقاً إرباً إرْباً[١] . ومع ذلك فقد دفع الأسكوبي – ثمن هجومه فاستُدعي إلى الآستانة ، وحُوكم ، وكاد يحكم عليه بالموت ، لولا أن سَلّم الله .

ولم يُثِرْ دستور العثمانيين الذي أعلنوه سنة ١٩٠٨ م مشاعر الأدباء في الحجاز كما أثار أدباء البلاد العربية الأخرى ، للأسباب التي بينّاها منذ قليل . لكن الذي أغضب الحجازيين تسلّم الاتحاديين مقاليد السلطة ، وإزاحة السلطان الشرعي عن كرسي خلافة المسلمين . وشعروا أن حكام تركيا الجُدُد يسعَوْن إلى إذلال العرب عامة ، ويسعون إلى « تتريكهم » ، ويعملون على نزع

---

١ أورد محمد سعيد العامودي في كتابه « من تاريخنا » ص ٢٢٨ قصيدته الطويلة في هذا الموضوع وكان منها هذه الأبيات :

يا آلَ عثمان فالمغرور مَنْ غُرّا ... بأهل أوربة أو عهدهم طرّا
أتــأمنون لموتورين ديــدنهم ... أن لا يروا منكم فوق الثرى حرّا
تمــالأوا فخذوا حــذراً فإنهم ... يرون إبقاءكم بين الورى ضُرّا
فهذه دولةُ الطليانِ حين رأت ... أسطولكم ليس يغني فــاجأت غدرا
. . دون الدنية إيثار المنية في ... قوم من البُغْضِ وَدّوا محوكم مكرا
لا تحسبوا أنهم ناسون ما فعلت ... أسلافــكم بهم في سالــف مَرّا
أيقظتموهُم بضرب الهام فانتبهوا ... من نومهم ورقدتم أنتم الدّهرا
. . يا للرجال ثقوا أنْ ليس ينفعكم ... إلاّ ثَباتُكُمْ أن تركبوا البحرا
وأنْ تخوضوا غمار الموت مترعةً ... من كل أغلب . من ليث الشرى أجرا
مسَلّحين بمــا وافى العدو بــه ... من السلاح وأن توفوا له صبرا
فهــذه العرب والأتراك قاطبةً ... ما عندهم عُدد تكفيهمُ قَدْرا
فرخّصوا لجميع المسلمين بــه ... بل اكشفوا عن صنعه السرّا
. . لو ألف عام طلبتم علم أوربــة ... وحالكم هكذا . . لم تبلغوا العُشْرا
لم يكفِ مــا طار من صيت لهم خبراً ... حتى يطيروا فصاروا فوقكم خبرا

المناصب العليا من أيديهم، ويثيرون بينهم العداوة والبغضاء ، ويدعون إلى العصبية التركية ، ويدمرون أركان الدين وكان هذا كله حافزاً للحجازيين أن يقفوا إلى صف إخوانهم العرب ، والثورة إلى جانبهم ضد الاتحاديين [1] .

---

[1] خير ما يمثل سبب الثورة العربية المقال الافتتاحي لجريدة القبلة في أول أعدادها الصادر بتاريخ ١٥ شوال ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م . وننقله بنصه :

« أما بعد : فقد تشمر العرب لصدع أغلالهم ، وتحفزوا للخروج من ربقة عقالهم بعدما صبروا على طوارق الحدثان ، وعانوا من بوائق الزمان ما طمس معالم تاريخهم، وكاد يقوض دعائم مجدهم ، ويغادرهم بين لهوات الموت ومخالب البوار . ولعمري إن في صبرهم على ذلك المضض لدليلا قاطعاً ، وبرهاناً ساطعاً على إيثارهم المصلحة العمومية ، وحرصهم على الوحدة الإسلامية ، وإن كانوا باسمها تباح محارمهم ، وتباع أمصارهم ، وتجدع أنوفهم . ولكن مهلا فلا صبر اليوم ، فقد انقشع الشك ، وانحسرت الشبهة ، وثبت للملأ قاطبة أن المملكة العثمانية — وا أسفاه — أفضت إلى فئة طاش بها الغرور ، وأخذتها العزة بالاثم ، فشنت على الإسلام حرباً عواناً في كل عمل من أعمالها ، ودبت إليها بالفتنة من كل قول من أقوالها ، ليقال عن أربابها : إنهم عصريون ، وإنهم متمدنون ، وإنهم لا يعبأون بدين ، ولا يبالون بشرع ، وتلك كتبهم شاهدة عليهم . فمن كتاب « قوم جديد » إلى « اتحاد إسلام » . بل جاوزوا ذلك إلى نصوص القرآن الكريم ، فسنوا من الأنظمة المبتدعة ما شاء إلحادهم ، ورامت زندقتهم ، وسددوا خناجرهم إلى نحر كل ناصح ، وشهروا سيوفهم في وجه كل صالح ، فاضطرب حبل الأمن ، وماج تيار الضلالة ، وطمح الأجنبي في مملكة انفصمت عراها ، وتفككت أوصالها . فوالله ما العقد أسلمه نظامه، ولا الثوب خانه نسجه ، بأسرع انحلالا ، وأعجل انتكاثاً من تلك الدولة البائسة في أيدي أولئك المتغلبين الأفاقين ، ومن شاء فلينظر إلى خريطة المملكة العثمانية ، وليقارن بين ما كانت عليه قبل الاتحاديين ، وما صارت إليه بعدهم ، وليذرف الدمع ، وليصعد العبرات ، إن كان في القلب إيمان وإسلام . أجل لقد تغمدنا للاتحاديين كل هفوة ، وتلمسنا لهم كل عذر . وقلنا : إنهم فتيان غير مجربين ، وشباب غير مدربين ، وإنهم وثبوا من الوظائف الحقيرة إلى المناصب الكبيرة ، فكان اضطراب الشؤون حتمياً ، واختلال الأحوال سنة طبيعية ، وإن الصبر عليهم قد يؤدي إلى تمرسهم بالدهر ، واكتسابهم بعض الخبرة ولكنهم — ولله الأمر — تمادوا في غرورهم، واسترسلوا في شرورهم، وعملوا على النكاية بأبناء دينهم =

وولدت « الثورة العربية الكبرى » سنة ١٩١٦ م .

وكان من نتائج هذه الثورة أولاً : أنْ ذكت العصبية العِرْقية في نفوس العرب جميعاً ، ووضعت بين أيديهم سلاحاً فعالاً للمطالبة بإعادة مجدهم التليد ، وأصبح الملك حسين بطل العرب ، والمطالب الأكبر بحقوقهم [١] ، ولا سيما حين أعلن عن ثورته أنها « عربية تشمل كل عربي » . وحين قال : « نحن عرب قبل أن نكون مسلمين » [٢] . وصفع بهذا كل من قال من الاتحاديين عن ثورته : « إن حكومة الشريف حسين حكومة إسلامية دينية ، ليس للمسيحيين واليهود والعرب علاقة بها إلاّ إذا كانت علاقة العبيد بالسادة » [٣] .

= من العرب والمسلمين لغير ما علة تعرف : اللهم إلا ما كان من إباء العرب لقبول ما ابتدعوه ، والرضى بما شرعوه ، وحبهم لتلك اللغة التي ورد بها الوحي ، ونزل القرآن الكريم ، وجاءت الشريعة المطهرة ، فكان حب العرب لدينهم ووطنهم ولغتهم جريمة لا تغتفر في شرع الاتحاديين ، وأصبحوا يحاربونهم بكل ما رزقوا من بطش ، وبلغوا من قوة ، فأثاروا أمراء العرب بعضهم على بعض ، وزرعوا بينهم العداوة والإحن ، وأعداؤهم من خلفهم ، ومن بين أيديهم يتربصون كل ساعة للإيقاع بهم ، والانقضاض عليهم ، ولم يكفهم ذلك حتى دعوا إلى العصبية التركية هاتفين صارخين . . »

١ أنيس المقدسي : الاتجاهات الأدبية ص ١٤٦ .

٢ جريدة القبلة – العدد ١٥٢ الاثنين ٢٢ ربيع الأول ١٣٣٦ هـ/١٩١٧ م .

٣ القبلة : العدد السابق نفسه – ويبدو أن هناك اتجاهاً في هذه الثورة لفصل الدين عن الدولة . فقد نادى « الحزب الوطني العربي » بمبادئه التي نشرتها « القبلة » في العدد ٣١٥ تاريخ ١٨ أيلول ١٩١٩ م/١٣٣٧ هـ ، والتي جاء فيها في المادة الخامسة : « إننا نعترف بجلالة ملك الحجاز الشريف الحسين بن علي الهاشمي علينا ملكاً ، تتوارث من بعده ذريته عرش الدولة العربية . وفي المادة الثانية عشرة : « إننا ننادي بفصل الدين عن السياسة لتحكم البلاد حسب الشرائع المدنية الحديثة ؛ وليتمتع جميع أفراد الشعب بالمساواة التامة على اختلاف مذاهبهم من حيث الحقوق والواجبات ، فلا يحول دين رجل دون تسنمه أسمى المراكز متى توفرت فيه الأهلية المطلوبة » . ويبدو أن هذا المبدأ والحزب لم يلقيا التأييد ولا المعارضة من سكان الحجاز .

وكان من فوائد هذه الثورة ثانياً : أنها رسّخت في أذهان العرب فكرة الاستقلال والوحدة . وكان الملك حسين يؤكد قوله : « أنا لا أرضى ولن أرضى إلاّ بتحرير البلاد العربية وحكمْ نفسها بنفسها بأي وجه كان ، وعلى يد أي عربي كان »[1] . وبرزت فكرة « الدولة العربية المتحدة » ، أو « الجامعة العربية » ليس بمفهومها الحالي ، بل بمعنى الوحدة العربية[2] الشاملة التي لا تعترف بتجزئة وحدود وتفرقة[3] .

وأما الفائدة الثالثة للثورة : فإنها أعطت كل عربي الثقة بذاته والقوة النفسية ؛ يستطيع بهما الوقوف أمام التيار الاستعماري المتدفق طمعاً بالبلاد العربية ، فيعبر عن غضبه بالسنان أو باللسان ، دون أن يشعر بالخوف من حاكم أو سلطان ، لأنه بدأ يحس أنه سيد بلاده ، ومالكها الحقيقي[4] ، وهو المسؤول عن تدبير أمورها ، ورسم مستقبلها .

ولقد ربطت الثورة العربية — أخيراً — بين سكان الحجاز الذين كانوا معزولين عن أحداث العالم العربي — تقريباً — وبين أبناء البلاد العربية الأخرى ، فصاروا يشاركونهم آلامهم ، ويبكون لأتراحهم . ويهجون أعداءهم ، ويرثون شهداءهم ، ويفرحون لآمالهم ، ويغنون لأفراحهم . وأصبحت

---

١ القبلة ، السنة الخامسة ، العدد ٤٤٣ تاريخ ٢٣/١٢/١٩٢٠ م .

٢ المصدر السابق ، السنة الأولى ، العدد ١ — ١٥/ شوال ١٣٣٤/١٩١٦م ، وانظر المصدر نفسه : العدد ٥٨١ والعدد ٦٠٣ والعدد ٣٠ ؛ كذلك انظر : أنيس المقدسي ، الاتجاهات الأدبية ص ١٤٦ .

٣ عبد الله عبد الجبار ، التيارات الأدبية ص ١٤٤ .

٤ امتلأت القبلة بهذه الفكرة . ومن أعدادها الطافحة بالهجوم ما يلي : ١ ، ٢ ، ٣ ، ١٦ ، ٥٦ ، ٨٢ ، ٣٣٩ ، ٥٨١ ، ٦٠٣ ، ٦١٥ ، ٧٦٩ ، ٧٧٧ ، ٧٨٥ ، ٧٩٤ ، وقد هاجم الأدباء الدولة العثمانية والفرنسية والبريطانية . وهناك هجوم آخر على النجديين في أواخر سنوات الثورة .

أحداث دمشق أو بيروت هي أحداث مكة والمدينة ، وآمال الأرض المقدسة هي آمال بلاد الشام نفسها[1] . وأصبح شعراء الحجاز الناطقين باسم إخوانهم في البلاد الأخرى ، كما أخذ شعراء الأقطار العربية يعتبرون أن الثورة ثورتهم ، وأن الحكم حكمهم .

ولا يغيب عن بالنا أن نذكر في هذا المجال عدداً من فحول الأدب هجروا بلدهم وجعلوا مكة لهم مقراً ؛ لأنهم وجدوا فيها المنطلق الرحيب الفسيح للتعبير عما يشعرون به بملء حريتهم ، وبكل كرامتهم . ومن هؤلاء فؤاد الخطيب ، وخير الدين الزركلي وغيرهم .

والتحمت مشاعر المشارقة جميعاً بمشاعر المهاجرين العرب إلى بلاد الغرب ، وأصبحت مكة المنارة السياسية والأدبية للشرق العربي ، كما غدت جريدة « القِبلَة » المرآة التي تعكس هذه الآمال كلها . وانصهروا كلهم في بوتقة واحدة ، تفيض بشعار الوحدة والحرية والمساواة . ويبدو أن حماسة الحجازيين كانت أشد من حماسة غيرهم ، فقد خيِّل إليهم أنهم بالتفافهم حول الثورة يستطيعون أن يجعلوا بلدهم المقدس قائداً للعالَمَين الإسلامي والعربي ، كما كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، إلا أن الآمال قد تهاوت واحداً بعد آخر ، وانهارت الثورة ، ونفي قائدها الحسين . وهكذا طويت هذه الصفحة وصارت حديثاً للدارسين .

تلك هي البواكير الأولى للأدب السياسي في الجزيرة العربية ، والخمائر

١ أكثر شعراء الحجاز – آنذاك – شاركوا في أحداث البلاد العربية وخاصة « بلاد الشام » وسبب هذا الاهتمام واضح . من هؤلاء الشعراء : عبد المحسن الصحاف القبلة العدد ٣ – ٢٧ شوال ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م ؛ عبد الله العامودي القبلة العدد ١٦ – ٨ ذي الحجة ١٣٣٤ هـ/ ١٩١٦ م ؛ الطيب الساسي القبلة العدد ٥٦ – ٤ جمادى الأولى ١٣٣٥ هـ/١٩١٧ م؛ عمر كردي القبلة العدد ٣٢٠ – ٧ تشرين الأول ١٣٣٨ هـ/١٩١٩ م ؛ يحيى دفتردار القبلة العدد ٣٣٩ – ١٣٣٩/١٢/٢٣ هـ/١٩٢٠ م .

الأصيلة لهذا اللون الأدبي في عهد « المملكة العربية السعودية » . وإذا ما حللنا هذه الخمائر وجدناها ترتد إلى عنصرين رئيسين : الدين والعروبة . الدين في نجد والأحساء وعسير والحجاز – قبل ثورة الحسين – . والعروبة في الحجاز خلال ثورة الشريف وحكمه . وحين ولدت « المملكة » ورثت العنصرين معاً ، وحملتهما معها ، بل جمعتهما على صعيد واحد بعد أن اختصما ردحاً من الزمان. ونأتي إلى دراسة الأدب السياسي في أرض المملكة الوليدة ، فنجده يحمل في طياته الصبغة الدينية المتسربة إليه من نجد ، والبقاع المقدسة في أرض الحجاز ، والصبغة العربية المتسللة إليه من الثورة العربية الكبرى . ثم انهالت الأحداث الطارئة على المملكة الناشئة ، فأمدت الأدب السياسي بألوان جديدة . فكان من هذا المزيج كله الأدب السياسي السعودي . ويخيل إلينا أننا لن نستطيع رصد أبعاده الحديثة المختلفة ما لم نضع نصب أعيننا المعالم الكبرى ، والسمات البارزة لهذه الدولة الفتية .

تتلخص تلك المعالم في القضاء على النعرات الإقليمية بين المناطق ، والضرب بيد من حديد على رأس كل من يدعو إليها ، وفي سبيل هذه الغاية : ألغيت التسميات القديمة من « حجاز » و « نجد » و « عسير » و « الأحساء » و « حائل » وغيرها ، وحلّت محلها تسميات جديدة . فهناك « منطقة شرقية » ، و « منطقة غربية » ، و « منطقة وسطى » وهكذا . وفي ارتباط المملكة مع دول كثيرة باتفاقيات ، ومعاهدات ، ومصالح ، وتشابك علاقاتها مع دول العالم والمنظمات الإقليمية كالجامعة العربية ، والهيئات الدولية كالأمم المتحدة وسواها ، وفي اضطرار المملكة إلى الأخذ والعطاء مع البلدان الشقيقة والصديقة ، وفي تحولها من دولة سلبية تماماً إلى دولة تسهم في الإنتاج ، ومن حكومة فقيرة إلى غنية بفضل البترول المكتشف في أراضيها ، كما أن المملكة وجدت نفسها مرتبطة برباط وثيق وأخواتها العربيات تجاه كثير من القضايا المصيرية .

فالفرنسيون يسحقون السوريين واللبنانيين ، والإنجليز يطردون العرب من فلسطين ليُحِلّوا محلهم الصهيونيين ، وهم يعيثون في مصر والعراق والأردن فساداً . والشمال الإفريقي العربي يئن من ويلات الطليان والفرنسيين ، ويعاني ما يعاني . وإذا ظلت المملكة منطوية على نفسها ، لا تتحرك إلاّ بما يملي عليها « مبدأ التوحيد » فمعنى ذلك تَخَلّيها نهائياً عن المشاركة في قضايا العروبة ، ومشكلات المسلمين في أقطار العالم . وكيف بها تقف مكتوفة اليدين ، وهي مضطرة — لدعم نهضتها — أن تستعين بأبناء الشقيقات العربيات ؟ وهذا يجبرها على أن تغض الطرف — بعض الشيء — عن تطبيق الدعوة بحذافيرها ؛ فإن للظروف أحكامها ، وللأحوال الطارئة متطلباتها وواجباتها . وغضُّها الطرف لا يعني تخليها عن الدين ، وترك الأمور تسير كما تشاء الأهواء إكراماً لهذه الأمور الجديدة . بل إنها التزمت بالدين نظاماً لحكمها ، وفي ضوء تعاليمه يمكن أن تَسنّ القوانين ، وتنظر في القضايا الداخلية والخارجية . والذي نعنيه بكلمة « الدين » تلك العقيدة الواحدة التي تربط المسلم بالمسلم من شرق الدنيا إلى غربها ، دون النظر إلى الفروق الجزئية بين مذهب ومذهب ، وطائفة وأخرى . إن هذا الانفتاح هو جوهر التطور في الحياة العامة ، وفي الإنتاج الأدبي السياسي الجديد .

من هذه المحصلة يمكن أن نقول مطمئنين: إن الأدب السياسي في العهد الجديد اعتمد على دعائم ثلاث : الدين ، والقومية ، ومصالح الدولة المختلفة . وانطلق في اتجاهات أربعة : وطنيّ ، وعربيّ ، وإسلاميّ ، وعالميّ .

أما الاتجاه الوطني : فنعني به التغنّي بالجبال ، والسهول ، والوديان ، والأرض ، والبحر ، كما نعني به تبني الأديب قضايا الأمة السياسية الخاصة ، والوقوف بجانبها حين يكون نزاع مع الدول الأخرى .

وأما العربي فنقصد به الدعوة إلى وحدة كلمة الشعوب العربية ، وإعزاز

شأنها ، ونصرتها على أعدائها ، والفرح بأمجادها ، والتألم لمآسيها .

والاتجاه الإسلامي نريد به مشاركة المجموعة البشرية المسلمة في شتى القارات بآمالها وأحزانها ، ودعم قضاياها والدفاع عنها إن لزم الأمر .

أما الاتجاه العالمي فيتجلى في تبني الحركات التحررية للبلاد المستعمرة ، والأخذ بيد البلدان النامية ، وإعانتها على نضال الدول المستعمرة ، والأمم الظالمة.

ولسنا ندري بدقة أي الاتجاهات الأربعة سبق غيره من حيث الظهور ، وأيها تلا ولحق . ويخيل إلينا أن الأدب المتجه نحو العروبة ، في — عهد المملكة الوليدة — كان أسبق الاتجاهات جميعاً ، لأنه امتداد للأدب القومي الحجازي أيام الثورة العربية الكبرى . وصحيح أن الدولة الجديدة أسقطت نظام الحكم الهاشمي ، لكنها لم تقتلع المشاعر العربية من أغوار الصدور ، ولم تُسكت لسان الأديب العربي ، بل ليس في إمكانها أن تفعل ذلك ، فضلاً عن أنها تبنّت الاتجاه العربي ذاته . ويأتي الأدب الوطني تالياً لأنه عالج عدداً من القضايا السياسية الناشئة في زمن متأخر نسبياً كمشكلة البُرَيْمي واليمن . وفي الاتجاهين الإسلامي والعالمي تداخلٌ وتشابُك ، وليس هناك تقديم أو تأخير إلاّ ما تفرضه الأحداث نفسها ، فقد تكون مشكلة « كشمير » أسبق زمناً من قضية « الكونغو » ، وقد يكون نضال « قبرص » مقدماً على حوادث « زنجبار » تأريخاً . ومع ذلك فإنّا سنحاول تلمس إنتاج الأدباء في هذه النواحي متدرجين من الحلقة الصغيرة إلى الكبيرة فالأكبر .

في الاتجاه الوطني نجد أول القضايا السياسية التي أثارت معظم الأدباء ودفعتهم إلى أن يقفوا في صف حكومتهم ، ويعلو صوتها كانت مشكلة « واحة البُرَيمي »[1] تلك الأرض السعودية التي ظهر فيها البترول ، فهرعت القوات

---

[1] البريمي — جغرافيا — هي تلك الرقعة من الأرض المنبسطة على مساحة ٧٣٫٥٥٤ كيلو متراً مربعاً . تقع جنوب الخليج العربي بين « شبه جزيرة قطر» غرباً و « شبه جزيرة رؤوس=

البريطانية المرابطة في الخليج العربي ، فاحتلتها وأعلنت الحماية عليها ، مدعية أنها جزء من « مَسْقِط »[1] . فثارت المملكة لحقها ، وثار الأدباء داعمين نضال دولتهم ضد الحماية المزعومة ، فسخروا من الإنكليز ، ومن افتراءاتهم بل سخروا من الوجود البريطاني غير المشروع في شرقي الجزيرة العربية ، وهزئوا من تدخلهم فيما لا يعنيهم ، وجأروا في وجه المعتدي صارخين ، ووضعوه أمام أمرين : إما أن يثوب إليه رشده ويرعوي . وإما أن يقبل حكم

= الجبال » شرقاً . تتألف من تسع قرى ، وتفصل بينها مساحات صحراوية متفاوتة الاتساع . دخل أهلها في عقيدة التوحيد طوعاً أيام الإمام عبد العزيز بن محمد ، وخضعوا للحكم السعودي ، وأدوا له الزكاة . ولم تتراخ القبضة السعودية عليها إلا بعد معركة الدرعية ، وعاد الإمام تركي فاستردها كما استرد بقية أجزاء البلاد ، ودفعت الزكاة إليه من جديد . وبالرغم من محاولات أمراء « مسقط » استردادها واستعانتهم بالإنكليز فلم ينجحوا ، ولم تبال انكلترا بطلباتهم . ولما منحت السلطة السعودية امتياز التنقيب عن البترول لشركة أمريكية سنة ١٣٥٢ هـ/١٩٣٣ م . بيتت انكلترا الشر ، وأعلنت أنها تابعة لمسقط بموجب التحديد التركي . فرفضت السعودية معلنة ألا حق للترك بتخطيط بلادها وتقسيمها . وامتد الجدل بين الفريقين إلى نشوب الحرب العالمية الثانية ، فسكت الطرفان . وحين وضعت أوزارها ، عادت الشركة إلى التنقيب ، وأخذت انكلترا تحتج ، ثم احتلت الواحة عسكرياً ، وقتلت الشرطة السعودية فيها . واقترحت المملكة إجراء استفتاء ، فرفضت انكلترا . ثم اتفق الطرفان على رفع القضية إلى محكمة العدل الدولة في ٣٠/٤/١٩٥٤ م . وخافت انكلترا النتيجة فسيطرت نهائياً على الواحة وتركت السعودية تحتج . (قدري قلعجي ، الخليج العربي ص ٥٨٣ – ٥٩٣) . واليوم – وقد استقلت مسقط وعمان – وإمارات الخليج العربي، وانزاح النفوذ البريطاني عنها ، فإن القضية أصبحت بين أيدي إخوة أشقاء .

١ مسقط : اسم لمدينة ، ولمساحة من الأراضي شرقي شبه الجزيرة العربية . كانت لها أهمية تجارية ، أخذتها عنها مدينة « مطرح » حيث تبدأ القوافل إلى الداخل . استولى عليها البرتغاليون من ١٥٠٨ – ١٦٤٨ م ، ثم الفرس . وتنافس عليها الهولانديون والإنكليز . وانتصر الأخيرون نهائياً ، وولوا عليها حكاماً يأتمرون بأمرهم . ثم استقلت أخيراً ، وراح أبناؤها الأحرار يقودون دفة الأمور فيها ويرعون مصلحة الوطن والمواطنين .

السيف العربي ، وهو حكم رهيب[1] .

وأما القضية الثانية فهي انقلاب اليمن ، وانقسام شعبه بين مؤيد للنظام الجمهوري ، وبين مناصر للنظام الملكي . وتدخلت – نتيجة لذلك – قوة ثالثة لنصرة أحد الجانبين ، وشنّ غارات جوية على نجران ، وجيزان السعوديتين . ويبدو أن أرباب القلم لم يشتركوا في الحديث عن هذا الموضوع اشتراكاً تاماً[2]

---

١ من الذين سخروا من الحماية الإنكليزية فؤاد شاكر في قصيدته «غضبة الحق للبريمي» (الديوان ص ١٥١) قال :

تلك الحماية أو تلك الوصاية أو ... تلك الأضاليل وهي السم في الدسم
وما البريمي، وما أنتم ، ومالكُمو ... بأهله من صلات القرب والرحم؟
لا يأخذنّك فيمن طاش جامحهم ... عن شرعة الحق يوماً ولو من يلم
الرأي عندي، وفيه الخير لا جرم ... وعنده تتلاقى صفوة الحكم :
بأن يثوب عن العدوان مغتصب ... ويرعوي عن خداع الرأي والوهم
أوْلا . فإن الحسام العضب منسلط ... إذا امتشقناه في إقدام معتزم
فيه الشفاء لمن في رأسه حمق ... أو في جوارحه مَسّ من السقم

٢ تولى فؤاد شاكر زمام الهجوم على المعتدين فنظم عدداً من القصائد . ومما قاله في نجران : (وحي الفؤاد ص ٣٤٥) :

نجران ما تلك القذائف أُلقيت ... ليُدكّ صرح فيك أو أركان
لكنها عبث الوليد هفا بـه ... مَسّ تخبّط وهمه شيطان
نجران معـــذرة إليك فإنّمـــا ... سكت القريض لعله وسنان
قومي من الشعراء أين بيانهم ... أفغاض منهم في هواكِ بيان

وفي جيزان (المصدر السابق ص ٣٤٧) :

دلفت إليك القاذفاتُ ذليلةً ... دلفت إليك وملؤها بهتان
الطائرات مغيرةً ، وكأنهـــا ... بين الهضاب ، وفي الربى أشطان
وتعثرت وتخبطت، (وتأرجحت) ... كالعود قد عبثت به النيران
تخذت من الليل البهيم ستارها ... ليفرّ في جنح الظلام جبـــان

وكأنه حزّ في قلوبهم أن يتنازع الأشقاء ، وتراق دماء الاخوة بأيد عربية ، وتمنوا أن يكون الرصاص والمدافع والغارات لا على هذه المدينة العربية أو تلك ولا على هذه القبيلة أو أختها ، بل أن تسدّد إلى صدور الصهاينة في فلسطين ، وفوق معاقلهم وحصونهم . وآثر الأدباء السكوت ؛ وأشبه موقفهم قول الحارث بن وَعلة الذُّهْلي[1] .

قومي همو قتلوا أُمَيْم أخي فإذا رميت يصيبني سهمي[2]

هاتان القضيتان هما الوحيدتان اللتان عثرنا على إنتاج أدبي فيهما . وقد تكون هناك قضايا أخرى ، لكنها لم تقع في أيدينا ، ولم تبلغ مسامعنا . وإذا حاولنا تعليل قلة هذه الأمور السياسية ، وبالتالي قلة المشاركة الأدبية ، وغمس القلم في مواضيعها وجدنا افتراضين . إما أن تكون سياسة الدولة الرسمية مسالمة ، لا ترغب في إثارة النزاع مع غيرها ، بقدر ما تسعى إلى تحسين العلاقات ، وتصفية الجِواء بينها وبين معظم دول العالم . وإما أن الشعراء يؤثرون أن تحل الدولة مشكلاتها السياسية في جو هادئ ، يقتصر على المفاوضات والمناقشات الرسمية ، ولا يرغبون أن يتدخلوا في تعكير الجواء وإساءة العلاقات أكثر .

ذاك الذي أفضنا عنه الحديث – آنفاً – إنما هو مجمل ما قالوه عن الشق الأول من الأدب الوطني .

أما الشق الثاني فهو التغني بهذا الوطن . لقد عرفه القدماء وظهر في أدبهم على صورة الحنين ، وأكثر فيه المحدّثون نازحين كانوا أو مقيمين . وسيبقى

---

١ من شعراء الحماسة . أورد له صاحب الأغاني في الجزء العشرين والصفحة ١٣٢ خبراً عند حديثه عن وقعة ذي قار ، كما أورد الآمدي في كتابه « المؤتلف والمختلف » نسبه في ص ١٩٧ .

٢ حماسة أبي تمام ١/١٩٩ – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

هذا التغني ما بقي للإنسان قلب وعواطف . ولقد أكثر السعوديون من الإشادة بتاريخهم وأمجادهم ، وبطولاتهم ، وناجوا السماء ، وغنوا للبحر ، والبر ، والسهل ، والجبل ، وحبات الرمال[1] . ولكنهم بكوا على مصائبه ، وهزجوا في أفراحه[2] ، ودعوا أن يكون أعظم وطن في الدنيا[3]، وشعبه أرفع شعب في الوجود[4] . بل صار عند بعضهم في مقام المهجة ، والدم ، والهوى وخفقة

---

١ يتغنى الشاعر حمزة شحاته بمدينة جدة فيقول : (عبد الله عبد الجبار ، التيارات ص ٣٣٢) :

النّهى بين شاطئيك غريق   والهوى فيك حالم ما يفيق
ورؤى الحب في رحابك شتى   يستفزّ الأسير منها الطليق
ومعانيك في النفوس الصديّا   ت إلى ريها المنيع رحيق

* * *

« جدتي » أنتِ عالم الشعر والفتنـــــة يروي مشاعري ويروق
تتمشى فيــك الخواطر سكرى   ما يحس اللصيق منها اللصيق
كلها هــائم بعالمه المخمو   ر يهفو بــه شذاه العبيق

٢ قال الغزاوي يبكي على مجد وطنه (أحمد إبراهيم ، الأدب الحجازي ص ٤٦) :

فما بنفسي ممّا تشتكي حرق   ولا تعشّقت آراماً وغزلانــا
لكن سكبت دمي دمعاً على وطني   قد كان في المجد والتاريخ ما كانا
أرسى قواعده الأبطال من مضر   فراح ينشدُ فوقَ النّجم أكنانا

٣ محمد سرور الصبان يقول مخاطباً وطنه (المصدر السابق ص ٩٧) :

أنــا لا أزالُ شقيّ حبـــــك هائماً في كل واد
زَعَمَ العوازل أنّني   أسلو وأجنح للرقاد
كذبوا وحقك لست أقـــــدر أن أعيش بلا فؤاد
ولسوف أصبر للمصا   ئب والكوارث والبعاد
حتى أراك ممتعــاً   بالعز ما بين البلاد

٤ يتمنى الصبان كذلك الأمنيات الغالية لوطنه فيقول : (التيارات ص ١٤٧) :

مَنْ لي بشعب نابغ متيقظ   يسعى لهدم رذائل العادات

الفؤاد . ومثل هذه الخلجات جدير بها أن تكون في سلك الأدب الوطني . وإنْ تميزت بشيء فبالعاطفة الحارة ، والصدق في التعبير ، والمتانة في الأسلوب. وغلبة الشعر على النثر . بهذا نغلق باب الحديث عن الأدب الوطني ونفتح باباً جديداً ندخل منه إلى قضايا الأمة العربية كلها .

أما الاتجاه العربي فاجتهدنا في توقيته أنه كان أسبق من الاتجاه الوطني السياسي ؛ للأسباب التي رأيناها . ولا بد أن نضيف هنا : أن الفكرة العربية المحض التي تبناها الشريف حسين قد تزحزحت ، ودخل فيها عنصر جديد هو الإسلام في ظل المملكة العربية السعودية . لقد فَصَلَ الشريف بين العروبة والإسلام ، وادعى أن ثورته عربية محض[1] ، فجاء السعوديون وصَبّوا « الإسلام » في العروبة ، ولم يقبلوا أن تُبحث الأمور بنظرة عربية مستقلة ،

= مَنْ لي بشعب عالِم متنوّر ثَبت الجنان وصادق العزمات
مَن لي بشعب نابل متحمس حتى نقوم بأعظم النهضات

وأحمد عبد الغفور العطار يناشد أمته أن تستيقظ فيقول : (أحمد إبراهيم ، الأدب الحجازي ص ٩٩) :

يا أمّي حطمي الأغلال واطرحي عنك الخمول وهذا الدرب فانطلقي
واستيقظي فشعوب الأرض قاطبة تسعى حثيثاً بعزم غير مفترق
فمجدك الضخم في الغبراء منبسط وفي السماء تعالى كالسنا اليقق

وأحمد قنديل صوفي بحب بلاده (التيارات ص ٣٣٢) :

بلادي بلادي لاعدمتك موطناً حبيباً ألى قلبي ونفسي وخاطري
ذكرتك والذكرى من الحب روحه ومن خلجات النفس وحي الضمائر
وذكرك في الأحياء همسة واجد وترديد إيماء وقولة عـــابر
ولكنه في مهجتي ودمي هوى سرى كحياتي فيك مسرى الخواطر

١ القبلة العدد ١٥٢ . الاثنين – ١٣٣٦/٣/٢٢ هـ – ١٩١٧ م .

بل إنهم رأوا أن الدعوة إلى العربية فرع من الدعوة الإسلامية ، وأن الاقتصار على فكرة « العروبة » عصبية جاهلية نهى الشرع عنها[1] . ومن هذا المنطلق العربي – الإسلامي تابعوا حلقات السلسلة القومية التي ابتدأت في عهد الهاشميين. وظلت الدفقة الحماسية كما كانت ، وبقيت المشاعر حارة ، عنيفة ، صادقة . واستمر الحلم الكبير في الوحدة العربية يداعب أخيلتهم ، ويدغدغ خواطرهم . ولم يقتصر هذا الحلم على الحجازيين بل نزل إلى الميدان شعراء المناطق الأخرى وكتّابها . وتراءت الوحدة عند بعضهم أنها « هي السعادة الأبدية الخالدة ، والعز المكين الذي ما بعده عز ، والفرحة الكبرى التي ما بعدها فرحة ، يوم ينظر العربي إلى بلده ، فيرى خدوده تمتد من صنعاء إلى بردى ، ومن الخليج الثائر إلى المحيط الهادر »[2] ، ووجدها آخرون « رمزاً للقوة والحرية والكرامة ،

---

١ كتب إبراهيم الشوري (أديب تولى عدداً من الوظائف : في المعارف ، وفي الإذاعة ، ومستشار أمير المنطقة الشرقية، وهو اليوم موظف في رابطة العالم الإسلامي) في جريدة أم القرى (العدد ٤١٨ – السنة التاسعة – ١٦ /١٢/١٩٣٢ م) مقالا عنوانه : دعوى الوحدة بين العروبة والإسلام . فقال :

« . . الدعوة إلى الوحدة العربية ليست بدعاً من القول ، وزوراً من الدعاوى ، ولكنها حركة بعيدة المدى ، ترجع إلى أحقاب بعيدة متتابعة ، كما أن الدعوة إلى الإسلام واجبة على كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، والذين يدعون إلى العربية يرمون إلى تقوية عرى الشعوب المتقاربة المتماسكة المتحدة جنساً وديناً ولغة حتى تقوى على مصادمة الهجمات العنيفة . ودون إعراض عن الإسلام ، ولا تأييد لأولئك البؤساء الذين يقولون : « الوطن للجميع والدين لله » ولا يحسبن الذين يظنون ظن الجاهلية أن الدعوة إلى العربية تدعو إلى كراهية المسلمين من الأجناس الأخرى ، بل المؤمنون إخوة . إن الدعوة إلى العربية فرع من الدعوة الإسلامية متى كانت خالية من الغلو ، ومن الدعوة إلى العصبية الجاهلية التي نهانا الشرع الشريف عنها » .

٢ محمد حسن العواد يقول متمنياً (التيارات الأدبية ص ١٥٣) :

عرب الجزيرة كم تكون سعيدة   هذي الحياة بوحدة الأبعاد   =

فالمرابض بها تغدو قلاعاً ، والشباب مشاعل ثورة ، والصحراء منابع بطولات وآنئذ يمحق العرب إسرائيل ، ولا يُبقون على أرضها من الصهيونيين دَيّاراً »[1].

ولمّا لاحت بوارق تبشر بإنشاء « الجامعة العربية » واجتمع بمصر ملوك العرب ورؤساؤهم لهذه الغاية سنة ١٩٤٤ م تدفق الأدب السعودي يهتف بالمجتمعين وبالجامعة [2] ، وطار بهم الأمل العريض إلى أنها ستعمل لتحقيق الوحدة

....

= تتوحّد الأشتات في مجموعهـــا ويعزّز المجموع بالأفراد
فيقوم من بردى إلى صنعـــائها أمل يرن صداه في بغداد

١ إبراهيم هاشم الفلالي يقول في هذا المعنى (المصدر السابق ص ٣٥٥) :

أخي بالوحدة الكبرى نعيش العمر أحرارا
ونجعل من مرابضنا قلاعاً تنفثُ النّـــارا
ونصنع من شبيبتنا ليوم الثأر ثوّارا
ونجلي عن أراضينـــا أثيمــاً لوّث الدّارا
أقام بأرضنـــا زمنــاً وأورث قومنا عارا
سنمحو العار لا نُبقي بأرض العرب أشرارا
ولا نُبْقي بـــإسرائيـــــــل بين العرب دَيّـــارا
فصهيونٌ عرفنـــــاهُ مدى الأيّام غدّارا
سنجليــه بوحـــدتنا ونجلي كلَّ مَنْ جارا

٢ قال فؤاد شاكر (ديوان وحي الفؤاد ص ٢٤٨) :

لمن مجلس في جانب النيل مشرق إليه عيون الكون ترنو وتحدق
تطلّعت الأنظار من كل جانب إليه بآمال العروبــة تخفق
عليه جلال من بنيه لأنّـهُـمْ بأقطابه الغر الكرام تعلقوا
فيـــا مجلساً زانته آمال أمّة يؤيدهـــا عزم ورأي ومنطق
تَنَزّت جراحات العروبة كلّما ألمّ بها عسف من الظلم مرهق
بكيت وأشجتني جراحات أنفسٍ توالت وما فيها من الهَوْل مشفق

العربية[1]، وربطوا بينها وبين تحرير كل أرض محتلة، أو مغتصبة، وأنها ستكون العامل الأول في إنقاذ العرب من مستعمريهم[2] . أما مشاركة الأقطار الشقيقة في فرحها وترحها فلم تنقطع بل ازدادت ، واتسعت آفاقها فشملت الإمارات العربية على ساحل الخليج ، وسورية ، ولبنان ، ومصر ، والأردن ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب ، وغيرها .

تميز الأدب المتعرض للإمارات المعذبة بالعنف الشديد ، والثورة اللاهبة على الانكليز وأذنابهم الخونة ، وكم ألِمَ أنْ يكون العربي ، ابن الجزيرة ، وأخوهم في الحياة الصحراوية ، والإباء العريق ، مهاناً بدخيل ، ذليلاً بعِلجٍ روميّ ، مستعبَداً بمستعمر ؛ فامتشقوا سلاح القلم ، وتلبّسوا موقفه ، وأعلنوا باسمه أنه لن يظل يَرْسُفُ في قيوده إلى الأبد ، ولن يبقى على تمزقه بين الماضي المجيد والحاضر الحقير ، وبين إسلامه واستعماره ، وبين حقيقته وواقعه ، وأقسموا باسمه يمين الحق أنْ سيحطم أغلاله ، ويستعيد إسلامه وحقيقته ،

---

١ وطاهر الزمخشري يقول (ديوان أنفاس الربيع ص ١٣١) :

نسب نادى بنيه فأهابوا ... ودم ثار ، فلبوا وأجابوا
عرب هاجت بهم ثاراتهم ... فإذا الوحدة للمطلب باب
قد دعوا للمجد في صيحتهم ... فإذا الدنيا سؤال وجواب
كتبوا للخلد في ميثـاقهم ... كل سطر في حواشيه كتاب
صفحة «الميثاق» لا تعدو دماً ... إن دعت جلّى فأرواح تذاب

٢ تمثل أحمد محمد جمال الجامعة العربية حسناء منسية بين أهلها فهي عاتبة خاطبة ومما قالت : (ديوان الطلائع ص ١٠) :

هنالك لا يبقى دعي مشرد ... ينازع أبنائي فلسطين ابنتي
فلسطين ركن في كياني وبضعة ... من الروح إن توخز فيا حرّ وخزتي

ولو فُرش الطريق إلى ذلك بالأشلاء ، وسالت فيها الدماء أنهاراً[1] . وصبوا جام غضبهم على الغاصبين ، ونعتوهم بأقذع الصفات ، فهم « عملاء ، بلداء ، قرود ، كلاب ، أدنياء » . ورفعوا مقام المجاهدين إلى الدرجات العلى ، وبشروهم بنصر الله ، والظفر بحريتهم واستقلالهم وكرامتهم[2] .

أما الأقطار الأخرى : فقد شاركوها أحداثها ، وبثوها أحلى قصائد الانفعال ولم يغادروا صغيرة ولا كبيرة إلاّ غنّوا لها ، أو بكوا عليها . غير أننا نقف هنا لنتساءل : بأي عين نظر هؤلاء إلى قضايا الأمة العربية ؟ وكيف عبّروا وعن أي مَعين صَدروا ؟ أعبّروا عن خوالج نفوسهم ، وصدروا عن فيض

---

١ سعد البواردي تخيل نفسه « سجيناً بعدن » فقال : (ديوان أغنية العودة ص ٧) :

.. سنحطم السور الكبير ونملأ الدنيا زئيرا
سنحيل قوقعة الرحاب لتختفي شبحاً حقيرا

* * *

سنشيد من أنفاسنا ومن الدما تاريخ أمة
سنذيب في حنق الرياح سجوف ليلٍ مدلهمّة

* * *

والتائهون بلا ديار سوف يبنون الديار
فبناتها أشلاء ماضٍ ذاب في حممٍ ونار

٢ قال سعد البواردي في قصيدته « عمان الثائرة » في ديوان (أغنية العودة) ص ٣٦ :

بأرض « عُمانٍ » ترامت جنود وأثقلها غاصب وحقود
بأرض عُمان لهيب عنيد يواكبه في الرزايا عنيد
بأرض عُمان ثلاثون ألفاً دعاهم إليها عميلٌ بليد
كأنّهم بين سبل الجبال وبين الصخور الرواسي قرود
تلاحقهم من أكف المنايا حربٌ تسيلُ دماً ووعيد
ويفزعهم في سهول الصحارى « عوا » رددته صحارى وبيد
ثلاثون ألفاً من الغاصبين وكلب يمجدهم ويشيد

عواطفهم الذاتية، أم نظروا إليها بعين حكومتهم وقالوا ما أملته عليهم سياستها ؟

يخيل إلينا أن الجواب يسير إذا استعرضنا الموضوعات القومية التي تناولوها. ولقد كان جلها من النوع العام الذي لا تختلف فيه نظرة الأفراد عن نظرة الحكومات . فثورة مصر الكبرى سنة ١٩٥٢ م ، وتأميم قناة السويس سنة ١٩٥٦ م ، والعدوان الثلاثي على أرض الكنانة في العام نفسه ، وقضية فلسطين وثورات السوريين واللبنانيين والجزائريين على فرنسا « المستعمرة » ، وشبيه هذه الأحداث ، لا يختلف فيها عربي عن عربي ، ومحكوم عن حاكم . لهذا فالأدباء مثّلوا مملكتهم تمثيلاً رسمياً وشعبياً في اتجاههم العربي . إلاّ أن هناك عدداً من القضايا مالت إلى تصوير رأي الدولة في المقام الأول كهجاء المعتدين المغيرين على نَجْران وجيزان .

واستعراضٌ سريع لموضوعات العروبة يوقفنا على صحة ما نذهب إليه . فمصر هذا القطر الحبيب إلى قلب العروبة شغل هواه الجناح الأكبر من أفئدتهم ، فغنوا له وتغنوا به ، طبيعة ساحرة ، ونيلاً خالداً[1] وآثاراً رائعة ، وشعباً عظيماً . عاشوا أمانيه وآلامه . طُوفان النهر أشجاهم ، وأبكاهم[2] ، والوحدة مع السودان أخذت بمجامع قلوبهم لأنها تمكنت من قلوب أبناء وادي النيل

---

١ حسن القرشي يعبر عن مشاعره في قصيدته « يا مصر » فيقول (الأمس الضائع ص ١١٠) :

يا مصر ! يا أغرودة الدنيا وملحمةَ الدهورِ
يا صفحة الماضي المجيد ويا رؤى الآتي النضيرِ
يا فَرْحَةَ الأملِ الشهيّ ونَفْحة الحلم المثيرِ
يا نَغْمَةً تَنْساب مُشْجِيَةً كأنفاسِ العبيرِ
كم هدّني شوقي إليكِ وراح يدفعني شعوري

٢ طاهر الزمخشري يعبر عن ذلك في قصيدة « غضبة النيل » : (أنفاس الربيع ص ٨٤) :

أثارك الحقد ، أمْ قد هاجك الغضب   فسرت والهول في مسراك يضطرب   =

أنفسهم[١] . ورقص الشعر والنثر في السعودية طرباً لتأميم القناة لأن مصر ذاتها رقصت له[٢] ، وخلدوا الموقف البطولي الذي وقفه جمال عبد الناصر ، وشعب مصر من العدوان الثلاثي. لقد كان الأدب وشيج الصلة بأواصر الأخوة العربية . يفرح بكل نصر تحققه العروبة ، ويبكي لكل مصيبة تصيبها .

بارك الوحدة العربية بين بعض الأقطار ، وتألم لمصيبة لبنان سنة ١٩٥٨ م ، وهجا الأتراك الذين حشدوا جيوشهم على حدودها الشمالية . وكان لكل من أقطار شمالي إفريقية العربية قصائد ومقالات ضاحكة[٣] أو باكية[٤] .

= أب تقوم على الأبناء ثورتـــه ومن عجائب دهر أن يثور أب
يرمي بَنيهِ بـــأمواجٍ معربـدةٍ فيها المخاطر والأهوال تصطخب

١ حسن القرشي يقول في قصيدته « إلى النيل الخالد » هذا المعنى : (مواكب الذكريات ص ٣١) :
ما مصر والسودانُ إلاّ دوحةٌ أروى ثراهـا نيلها المتحكّم
جَمَعَتْ أواصرها العتيدة وحدة بيد الإله وثاقها مستعصم

٢ عبد الله الحمد السناني يقول في قصيدته « في المعمعة » (شعراء نجد المعاصرون ص ٢٧٧) :
بني مصر ما هذي القناة تخصكم ولكنها دون العروبة باب
أقامتكم دنيا العروبةِ حارساً عليه فمن رام الدخول يصاب

٣ كثيرون الذين أظهروا هذه العاطفة . ونكتفي بأبيات لعلي حافظ من قصيدته « هذا المغرب » (جريدة المدينة العدد ١٢٣٧ تاريخ ٢١/٤/١٩٦٨) :
بلدٌ به تلقَى الليوث صوامِداً شموساً سيوفهم تُخيف وتُرعِب
كم رابطوا كم جاهدوا كم ناضلوا آثارهم قد دُوّنت وستكتب
شادوا لدين الله حصنا شامخـــاً فوق المحيط بناؤه لا يثقب
لم تقوَ قوات الضلال عليهم مهما تجمّع جمعهم وتحزّبوا
وبنوا مفـــاخر أمّةٍ عربيّةٍ عدنان نِسبتها إذا ما استنسبوا

٤ كثيرون الذين بكوا مصيبة أغادير تلك المدينة النائمة على شاطىء الأطلسي.تقع جنوب الدار=

أما صورة فلسطين وقضيتها الكاملة فتكاد تكون تامة في الأدب السعودي . ولا تمر حادثة عبر تاريخها إلاّ وريشة الفن تلتقطها ، وتصوغها الصياغة الفنية الملائمة . ولقد أخذت من النتاج الأدبي القِدح المُعَلّى ، إنْ في السعودية أو في البلدان العربية الأخرى . وقد تحدث أدباء الجزيرة عن وعد بلفور ، والتقسيم ، واللاجئين ، ونكسة حزيران ، والضمير العالمي الهزيل ، والسلام المزيّف ، كما اقترحوا للنصر وسائل عدة منها : الحرب ، والوحدة ، والعودة إلى الدين ، والبذل ، وسلاح البترول . وكانوا في تناولهم هذه القضية ، وفي اقتراحاتهم ينهجون نهجاً معيناً ، له أسسه وسماته المتميزة من تناول الأدباء العرب الآخرين واقتراحاتهم ؛ كما أن نظرتهم إلى القضية الفلسطينية تختلف عن نظرتهم إلى القضية الجزائرية . وفي كل ذلك تفصيل ، هذا بيانه :

تحدثوا عن وعد بلفور . والذين عالجوا هذا الموضوع نظروا فيه من إحدى زاويتين : الأولى تخاطب الوزير الإنكليزي « بلفور » والإنكليز ، وتَصمهم بالخسّة والغدر ، وأنهم تصرفوا فيما لا يملكون . والزاوية الثانية ، سخروا

= البيضاء ، وتبعد عنها حوالي ٥٥٠ كم . من الشعراء الذين نظموا في مصيبتها : سعد البواردي في قصيدته « أغادير » قال فيها (ذرات في الأفق ص ٥٦) :

ماذا أرى ؟ هيروشيما أم نجازاكي	أم أنها يا بلادي بعض مرآك
أطلال قوم تداعت . . فهي جاثمة	تزيد في رؤية الأحداث رؤياك
قِرّي أغادير عيناً واملئيه فما	ما ناصب الخطب ضعفاً حين أرداك
مهلاً أغادير لا تأسي لجائحةٍ	قد ضمخت بعبير الصبر دنياك
مهلاً أغادير ما اهتزت وما ارتجفت	أرض بزلزالها المجنون .. لولاك
الثائر الخطب لا يرمي سوى بطل	يخشاه..والدهر منك الثائر الشاكي

وانظر كذلك الزمخشري في ديوان « أنفاس الربيع » ص ١٠٠ ؛ وفؤاد شاكر في « وحي الفؤاد » القصائد ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥.

فيها من الوعد المشؤوم ، وزعموا أن العرب سحقته ، وأبطلته وستزيل آثاره الباقية كلها . كان أصحاب الاتجاه الأول أكثر عدداً . فيهم من تساءل : هل وكَلَت العرب « جَنْبول »[1] ليكون وليّ أمرها ؟ وهل هم مُلزَمون بالصهاينة إذا شردتهم وطردتهم أمم العالم ؟ ومع ذلك فالسيوف العربية قادرة على حماية أرضها وطرد الدخلاء منها[2] ، وكذلك تفاءل أصحاب الاتجاه الثاني ، فزعموا أن العرب قد محت الوعد البِلْفوري ، وأنهت أمره[3] . وأعتقد

---

1 جنبول : رمز للإنكليز ، كما تطلق كلمة « العم سام » رمزاً للأمريكان .

2 إبراهيم الفلالي يعبر عن هذه الفكرة في ديوانه « ألحاني » في قصيدته « إنذار » ص ١١٥ ومنها :

« أجنبول » حقوق العر	ب كيف اليوم تبخسها
وترعى عصبة خسئت	على الأقذار مجلسها
« أصهيون » لها دار	وأرض العرب مغرّسها
متى كانت أوائلنا	بعار الأرض توكسها
وإنْ بلفور منّاها	بأوطان يؤسسها
وأعطاها [مواثيقاً]	وجنبول يدارسها
فإنا لا نقوّمها	ونمحوها ونرمسها
فما بلفور قيّمنا	ولا جنبول وارثها
أيعطيها مرابعنا	أيحكمها ويخلسها
أيعطي أرضنا فئةٌ	بأرجاسٍ تدنّسها
سنمنعها بأسيافٍ	ونحميها ونحرسها

3 من هذه الفئة حسن عبد الله القرشي إذ يقول (لن يضيع الغد ص ٢٩) :

أبلفور ضاع اليوم وعد الخنا البالي	محاه غطاريف بنار وزلزال
فلسطين أرض العرب مثوى بطولة	لأجدادنا من كل أروع رئبال
تسامت ثرى أن تستلين لغاصب	وعزت شرى أن تستكين لختال

ألاّ حاجة بنا إلى التعليق على أقوال هذه المجموعة .

وفي قرار التقسيم ، قال الأدباء : « إنه لن ينفذ » ، ولما خاب ظنهم ونفذ ، بل بولغ في تنفيذه ، قال الشعراء ، « سنجلي اليهود بسيوفنا »[1] . ونشير بهذه المناسبة إلى أن أرباب القلم لم يطالبوا بإقرار التقسيم كما يطالب به سياسيو البلاد العربية وحاكموها .

وتكلم الأدباء في موضوع اللاجئين ، وأكثروا من القول فيه . واتخذوا لذلك طرقاً شتّى في معالجته . فاللاجئ – مرة – ينادي أمه ، ويخبرها : «أنه الإنسان الذي كتب عليه اللجوء من بلده إلى الخيام ، والذي نُزعت عنه كل ذكرى إلاّ أمه العجوز رمز وطنه . تلك المخلوقة المطرودة الضائعة الساعية في الحياة بلا هدف ، أو اثم ، أو جرم ، تحمل الذل فوق ركام سنيها . وإذا التفت إلى نفسه رآها نفساً لاجئة في هيكلٍ جسديّ لاجئ ، من مفرقِ رأسه إلى أخمص قدمه . إنه حليف العُري والفقر والأسقام ، رهين باب الغوث والإعاشة ، حبيس الذل الذي يجري في دمائه . وإذا استعرضَ صور الوطن المحبوب ، وبسمة الأهل وحفاوة الدنيا ، ونغمة الناي ، وزقزقة العصافير ، وأريج البيّارات ، وحدّق في واقعه أفزعته الحقيقة ، وأرعبته الخيمة الصفراء

---

[1] طاهر الزمخشري يرفض التقسيم أصلا فيقول (أنفاس الربيع ص ١٣٥) :

ليس في الأرض للذليل ديار ... وفلسطين للعروبـة دار
وقرار التقسيم أسود داج ... وجلاء اليهود عنها نهار

* * *

أعلوج ترى ادعاء حمانـا ... صيحة العلج إن توارت خوار
يا لثارات مجدنا وهو صرح ... لم يصدع . ولو طغى الفجار
إن تناسوا حقوقنا في حماها ... سوف يحمي حقوقنا البتّار

التي تحكي سقمه ولون ذله »[1] . أو ينفصل الشاعر عن اللاجئين تارة أخرى ، ويقف مستقلاً عنهم ليرسم بقلمه صورة البؤس والذل الذي تبصره عيناه فيهم . فهم ألوف الألوف في عددهم ، كلهم ضالون ، يفتقدون الرحمة ، ويطوون ظلام السنين وهم في ظلامتهم يرزحون . تراهم سُكارى وما هم بسكارى . ولكن عربدة اليأس في صدورهم تمزقهم . فيهم الطفل الصغير الذي وُلد في الخيمة ، والشيخ الكبير الذي تردّى من الثكل ثوب الأجير ، والأعمى الذي يسير دون دليل ، والخَوْد المهلهلة الثياب ذات الغد المظلم ، عدا مآسي المرض والجهل والفقر التي تتمثل في كل بيت . وقد يلتفت الأديب إلى بني العرب فيدعوهم إلى الثورة الحمراء ، والثأر العنيد . لكنه لا يلبث أن ينطوي على نفسه ، ويميل برأسه إلى صدره ، ويتمتم بكلمات مهموسات يائسات ، « نحن العرب نُجَعْجِع بالقول ، ونَعْجز عن الفعل . نجأر بالتهديد ، ونزرع الأماني على الرمال . نفتح أعيننا فلا نجد إلاّ حقارتنا وذلّنا وضعفنا »[2] .

---

١ من أجمل القصائد قصيدة أحمد قنديل التي عنوانها « أنا اللاجىء » في ديوانه « نار » ص ١٤٥ يقول فيها :

أنا اللاجىءُ يا أماه   للمسطور من قسمي
ومن بلدي وفي بلدي   إلى صف من الخيَم
وأنت بجانبي الذكرى   مشت بالدمع بين دمي

إلى أن يقول :

أنا اللاجىءُ . . يا أماه   من رأسي . . إلى قدمي
فهل أحسستِ يا أمـا   ه.. بالذل الذي بدمي
أبَعْدَ الموطن المحبوب   تصبح..موطني..خيمي

٢ حسن عبد الله القرشي أورد شيئاً من هذه المعاني في قصيدته « اللاجئون » في ديوان « نداء الدماء » ص ٨١ ومنها :

ألا سوأتاه لما ندعي   من الثأر من ذمة من وفاء =

وقد يتخذ الأديب لتصوير المأساة صوراً شتى مختلفة ، تشترك كلها بصفة العنف والمرارة والألم الدفين[1] .

أما نكسة حزيران ١٩٦٧ م فقد تناول موضوعها أكثر الشعراء وكتب فيها كل أديب ، ولكنّ هناك شاعرين خصص كلّ منهما ديواناً شعرياً تاماً لها . أولهما أحمد قنديل وديوانه « نار » وثانيهما سعد البواردي وديوانه « صفارة الإنذار » .

إن « نار » كان أسرع إلى الظهور من أخيه « صفارة الإنذار » . والغريب في « نار » أنه مـليئ برمزية موغلة في الخفاء ، بدأت منذ المقدمة حيث عنونها بـ « الوتَر المقطوع » وقال فيها : « أقسى ما يعانيه الفرد العربي اليوم أنه يمشي في نهاره على اللظى ، وأنه يبيت ليله الطويل مع الحزن اللاذع — جمراً — فوق جمر . وربما استعان بالأحلام . أحلام اليقظة . ونبْت الآمال ، مخدّراً مباحاً له ، يتعاطاه في أيامه الحزينة الشاحبة ، ولياليه الرهيبة القاتلة . إنه ملفوف في ذهول كبير نادر . ذهول قد يفضي به إلى سبات عميق ، أو قد ينتهي به إلى اليقظة المدمرة » . حتى يقول : « ولقد تكون هذه السطور وجوداً مهملاً في عدم كبير . جناية رقعة متناساة أو مَنْسيّة . ذنْب إهمال أو إغفال .

=

نجعجع بالقول في كل حين ويعجزنا الفعل يا للمجون
ونهتف سوف نفكّ الإسار ونحيي الديار ونحمي الذمار
ولا يتبقى لها من هتاف سوى أننا — يا أخي — هازلون
وأنا قد اصطلمتنا خراف وأنا جميعاً .. ضعاف .. ضعاف

١ انظر ديوان « ذرات في الأفق » لسعد البواردي ص ١٠٤ ؛ وانظر ديوان « شعاع الأمل » لصالح العثيمين في ص ٢٦ و ٣١ و ٤٠ و ٤٢ و ٤٥ و ٤٩ و ٥٠ ؛ وانظر ديوان « أغاريد الصحراء » لطاهر الزمخشري في ص ٣٥ ؛ وانظر جريدة « البلاد ، العدد ٢٠٢١ تاريخ ٢٠ صفر ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م .

إلاّ أنها – قبل ذلك وبعده – يتحرك بقلب الجزيرة . وفي مهبط الوحي والنور . لقد بدأت شعراً . في لحن رهيب ، محموم ، منهوم . ولكنها منذ البداية عرفت نهايتها . عرفتها في حسرة وندم ، فأحست أنها من الذات العربية ولها . ألحان ضائعة متقطعة . ألحان وقّعها وتَرَ مقطوع »[1] . واستمرت هذه الرمزية في القصائد كلها حتّى لتحس أن الشاعر ضائع لا يعرف ماذا يريد أن يقول . أو يعرف ولكنه لا يستطيع أن يقول . إنه حائر ممزق . ينظر إلى نفسه مرة ، ولا تكاد تستقر عينه حتّى تقفز إلى الجيوش المهزومة . وتطير النظرة فجأة لتستقر على الماضي ، وليست قادرة على الاستقرار .

« ماذا أقول ؟ وما تقول ؟ والليل أقسَمَ لن يزول
وأنا وأنت بجوفه . وكأننا فيه بقايا من طلول
عاثتْ بها الأشباح ساخرة الهوى ، سكرى ، معربدة ، تحول كما تحول
داست على الصفحات من تاريخنا إلاّ فصول
أين الصفوف الزاحفات على صدى تلك الطبول
ويل الحشود إذا غدت في سيرها الواني فلول
تاهت على رمل السفوح ، تناثرت ، فتبعثرت ، والبدر يجنح للأفول
ويلي ! وويلك خلفها أملاً يطول ، وقد يحول

ويزيد غموض الشاعر في قصيدته « يوم الدم » وقد جاء فيها :

ويلاه ! ويلاه . . ما تَعنّي ؟ وما تعنيه باطل
ويلاه ! ما تُغنْي إذا ما ارتد جافل ؟
وإذا توقفت المواكب والجحافل
فأنا وأنت وراءها كالظل حائل

---

١ مقدمة ديوان نار .

ويلاه في عدد الصفوف ، وما تطوله
ويلاه في طعم الحتوف ، زَكت فلوله
يسطو ، يقهقه ساخراً . للموت غولُه .
ويلاه ! بل ويل المنافق ! مدها مهلاً وختلا
وأطالها بحثاً ، وتسويفاً ، ومَطْلا
وعلى سراب الوهم أعلى صوتَه في المقعد الخدّاع عدلا
وأنا وأنت بشطنا ، ونعيشه للمد جزرا
والزورق المهتز جاب القاع بحرا

ونحاول جاهدين أن نصل إلى ما يريده الشاعر فنشعر به شعوراً خفياً ، ويبقى ذلك « المنافق الذي مدها مهلاً وختلا » . مسربلاً مقنعاً وراء حجب من سحاب . وبالرغم من فيض المرارة والغموض فالشاعر يختم الديوان بأبيات مشرقة واضحة . « أجل خسرنا معركة ولم نخسر الحرب »[1] .

وسعد البواردي في « صفارة الإنذار » يعتذر في المقدمة لقارئه ، بأن النكسة التي حدثت في الخامس من حزيران من عام ١٩٦٧ م وبعده ، أوجدت شيئاً من الفوضى والاضطراب الفكري الحاد في نفس كل عربي ، أفضت

---

١ قال قنديل في ديوان « نار » ص ١٨٩ :
لا تَحنْنِ قامتَك المديدةَ ، فالنزال لمّا يزلْ . دربُ الرجال مع الرجال
لا تحنِها . فالحرب في الدنيا سِجال
ولقد مشت في يومنا للحرب ربّات الحجال
لا تحنْـها
فالذل إنْ سكن النفوس . هوت إلى درْك المحال
ونفوسنا . . للعز قد خلقت . به نحيا . ولا نخشى القتال

به قسراً إلى أن يبحث عن المتنفّس . وأن يندفع مع شعوره في تيار المعاناة الصاخب وراء فكرة ولو محدودة ضيقة وصغيرة ، يحمّلها خواطره وأحاسيسه وأمانيه تُجاه قضيته وأمته ، ويترجمها في كلمات أو أبيات تحمل – ولا شك – شيئاً من الاضطراب والقلق .

يرمز البواردي بـ « صفارة الإنذار » إلى الخطر الصهيوني الداهم المتربص بالعروبة كلها دون أن يستثني أحداً أو أيّ دولة قريبة من حدوده كانت أو بعيدة . وكأن هذه الصفارة المنذرة تبغي إيقاظ النائمين ، وتحريك الخاملين الذين لم تهزّهم النكبة الرهيبة . فهي تعدّد لهم المآسي وما حدث في حزيران القريب ، وتستغيث بالمروءة والشرف وثمالة الكرامة – إن كانت –[1] .

ويتخيل أن هذه الصفارة دائمة الصفير ، لا تتوقف وفي كل صفرة في

---

[1] يقول سعد في « صفارة الإنذار » ص ١٩ :

صفارة الإنذار صوتها يرنّ
مع النسيم صوتها يرن
مع الرياح دفعها يجن
على حراب الظلم . جرحها يئن
تصرخ في مسامع الزمان :
« يا أيها الإنسان
المستفيض في دجى الأحزان
عيناك ، والضباب ، والسبات
لا بد أن تفيق
دنياك ، واجترار الترهات
والمرتع الصفيق
لا بد أن يهب النائمون »

كل لحظة معنى جديد[1] . ونلحظ الرمزية عند البواردي ولكنها بدرجة أقل من رمزية قنديل ، كما نلحظ أنه لم يجعل اليأس مسيطراً على نفسه . فقد أنهى القصيدة بإرادة النصر والظفر بالحياة .

ولقد اكتفى بعض الشعراء بالتعبير عن إحساسه بالنكسة والنكبة في قصيدة أو عدة قصائد دون أن يكوّن ذلك مجموعة تفرد في ديوان مستقل . ولم يتجاوز الذين ساروا في هذا السبيل فكرة التعبير عن الألم ، وتهديد الصهاينة ، والأمل العريض بالنصر في نهاية المطاف[2] .

---

١ المصدر السابق ص ٤٧ :

صفـــــارة الإنـــذار
في قلبنـــا تدق
في دمنـــا تسير
يضمنا بزجرها المصير
مصير شعب مسلم كبير
له تراث —
له سجل حافل مدة الحياة
. . لا بد أن يعيش فهمَهُ الجديد
فيَقْهرَ الغَبـــاء
ويقبرَ النحيب والبكاء
ويدفن الخصام حيث الانقسام
ليورق الســلام
في ربَى السلام

٢ من هؤلاء محمود عارف إذ قال في قصيدته : أجراس النكسة (جريدة الندوة تاريخ ٩ آذار ١٩٦٨ م) :

مجدُ الكرامةِ في الوغى   شرف تعلق باللواء   =

لم يمر أدباء السعودية بمشكلة فلسطين مروراً عَرَضياً ، كما أنهم لم يكتفوا بتصوير النكبة وتعداد المصائب التي نجمت عنها ، وإنما انفعلوا بها ، واهتموا بوضع حلول قدموها على شكل نصائح أو اقتراحات . عثرنا – لدى البحث – على عدد منها ، كان أغلبها يقوم على مبدأ الحرب الجَذْرية مع اليهود أول كل شيء . وعلى الوحدة العربية الحقيقية المتماسكة . وعلى الإيمان بأن هذه الحرب « جهاد مقدس » . أما سلاح البترول فلم يكن في الحسبان – عند معظمهم – وكذلك البذل الماديّ . وهذه النقطة الأخيرة وجدت ، لكنها شلاء أو خافتة الصوت . ويظهر أن الالتزام الماديّ الذي أخذته السعودية على عاتقها – مع الكويت وليبيا – ، وهي الدول العربية – البترولية – في دفع معونة سخية للبلاد المتضررة بالعدوان الأسرائيلي في الخامس من حزايران سنة ١٩٦٧م وللمنظمات الفدائية ، جعل أصوات الأدباء خافتة ، ودعوتهم إلى البذل ضعيفة

وإذا حاولنا استعراض ألوان الحلول الجذرية لمشكلة فلسطين – كما وردت في الأدب – وقعنا على السلاح الأول وهو :

الحرب والفداء . فقد وَجَد الأدباء أن قضية فلسطين لا تُحَلّ إلاّ على أرض فلسطين ، وبالسيف والحديد والنار يُحَقّ الحق ويُزْهَق الباطل ، وطلقة مدفع صائبة ، أو غارة جويّة مُحْكَمَة ، تفعل ما لا تفعله ألف شكوى وخطبة في مجلس الأمن والجمعية العمومية للأمم المتحدة . وهذا الحل

= نادى به العرب الأما ... جد واستقر على الفداء
يا جند صهيون المُمَزّ ... ق بالتفكك والخواء
أطماعكم فشلت على ... رغم التوسّع باجتراء
لا تحسبوا هـذا التو ... سع نافعاً لدم اللقاء
سنعيدُ أمجـاد العرو ... بـة بالمعارك والمضاء
سنعود فَوْراً للديـا ... ر ، وللتراب وللجواء

هو الذي يـُجدي[1] . ومن دون ذلك فليس إلاّ البقاء على الذل ، والنوم على الهوان[2] . إنّ سبيل النصر شوك ودم[3] ، فلا سياسة ، ولا دبلوماسية ، ولا مؤتمرات ، ولا مفاوضات إلاّ الحرب . وهي التي تعيد فلسطين إلى العروبة[4] .

---

١ فؤاد شاكر في ديوانه وحي الفؤاد في صفحة ٢٤٢ يقول :

فمالكُمُو إلاّ الحديد مسوماً ... تُزمجر فيــه بالحديد المسوم
فإن شئتمو فالجو غضبان مرعد ... عليــه دويّ المرعد المتهزم

٢ ويقول الشاعر نفسه في ص ٢٤٩ :

بني قومي دعوتكم لرأي ... به سبل السداد لمن ترامى
خذوا بالعزم حقكم فإني ... رأيت الحقّ أعزل لن يُراما
فمن دبابةٍ قذفت جحيمـاً ... ومن طيّارةٍ نفثت سُماما
وإلاّ فاستكينوا واستنيموا ... وذلّ مَن استكان أو استناما

٣ حسن عبد الله القرشي يقول في ديوانه « لن يضيع الغد » وقصيدته « لن يضيع الغد » كذلك ص ٤٠ :

وسبيلُ النصر شوكٌ ودمٌ ... نحن جزناه فلن نرهب نحسا
وحيِّي الصفَّ قوياً واجمعي ... من بني عدنان للهيجاء شمسا
وارفعي الرايات يوم الملتقى ... يتدانى ، والجراحات ستؤسى

٤ أحمد قنديل في « نار » وقصيدة « واليوم » ص ١٨٨ يقول :

أنا لا أريد اليوم إلاّ ما يقول به ضميري :
خلّ السياسة حرفـة بين الوزارة والوزير
مدّ الإشارة أنملاً أفتى بها كف المشير
وانصت إلى الدقات من قلبي ، فإنّ بها شعوري
إنّي أريد الحرب ، طبعاً ، للحياة وللنشور
فالحرب مرآة الورى ، والحرب صانعة العصور
لاقى القرين بها القرين
وحمى الهصور بها العرين

وتكلموا – في جملة الحلول المقترحة – على الوحدة العربية ، بالمعنى الحقيقي لهذه الوحدة : وحدة القلوب ، والأعلام والجيوش والهدف ؛ لأنه لن تطول إلى العلا قامة ، أو ترتفع هامة ، إلاّ إذا عاد العرب قلباً واحداً ، وعيناً للمكائد راصدة ، وصفاً يشده إلى بعضه مودة وصفاء[1] . وما انكسرت الجيوش العربية السبعة إلاّ لأنها سبعة[2] ، مختلفة الرأي ، والهوى ، ممزقة

---

١ أحمد قنديل يقول في « نار » ص ١٢٥ :

هيهات أن ترقى بنا أحلامنا
أو أن تطول إلى العُلا قاماتُنا
إلاّ إذا عدنا قلوباً واحدة
إلاّ إذا عشنا عيوناً للمكائدِ راصدة
إلاّ إذا سرنا صفوفاً بالمودّة حاشدة
وعلى الشدائد للشدائد صامدة
عزّ المجاهدِ أن يكون مجاهدا

٢ عبد الرحمن الحمدان – مدير عام مكتب وزير المعارف – يشير إلى الوحدة العربية والنكسة في قصيدته « ياعيد » فيقول فيها (جريدة عكاظ – العدد الخاص – ١/١٠/١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م) :

جئنا القتال
على خلاف بيننا
وسلاحنا بخصامنا
للثأر لم نخضعه يوماً
لكن إلى أكبادنا
وصدورنا .
نرهفه حدا
حتّى تفرق شملنا
أتراه ينصرنا الإله
ونحن أغضبنا الإله

الوحدة بخصوماتها ، وبخلافاتها [1] . ولعَمْري ما انتصرت أمة في التاريخ إلاّ برَصّ الصفوف وتوحيد الأهداف ، وما انكسرت أمة إلاّ بعد أن أوهنت الخلافات عضلاتها ، ونخرت الأنانية هيكلها ، فقعدت عن طلب العلا لحماً على وضَم .

ولقد كان الرجوع إلى الله والتمسك بالإسلام ثالث الحلول ؛ كان الرجوع إلى الله ، ولا يزال سلاحاً رهيفاً في معركة الانتصار لإعادة الحق إلى نصابه . فالإسلام أعتى جدار نستند إليه ، وأقوى حبل نعتصم به كلما جَدّ الجِدّ ، وعَزّ الفداء . فإذا ما تم ذلك انقلبت الحرب جهاداً مقدساً . تقاتل الجموع المؤمنة تحت لوائه لتكون كلمة الله هي العليا . عندئذ ، وعندئذ فقط ، تتألق على الأفق ابتسامة الفجر مؤذناً بقرب البزوغ . كيف لا ، والله يقول : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤمِنِين ﴾ [2] ؟

إنّ دعاة هذا الحل فئة تعتقد أن المسلمين بما هم عليه اليوم ، قد بَعُدوا كثيراً عن تعاليم الدين الحنيف ، وأعرضوا عن ينابيعه الطاهرة ، والتجأوا يطلبون العون من العاجزين عن العَوْن ، وشدّوا الرحال إلى من يجب ألا تُشَدّ إليه الرحال ، فباؤوا بالخيبة والخسران . ألا إن استعادة الوطن السليب لا تكون بالقعود عن القتال ، مع الاكتفاء بتسطير المقال ، إنما بإيجاد الصلة بالله تعالى حتّى تنهض بالمسلم عن مهاوي الضلال ، ومتاهات الزيغ والانحراف إلى قمم

---

١ إبراهيم المحمد الدامغ يقول في قصيدته « عربي » (شعراء نجد المعاصرون ص ٢١٩) :

يا بني العرب والمنى زاهيات ... حطموا القيدَ واسترقوا اللجاما
فمن العار أن نظل ونبقى ... طُعمَةَ الغدر فُرْقةً وانقساما
أدرك الغرب أننا سوف نحيا ... ورأى الشرق سِلْمَنا والسلاما
فاستهامت غرائز الشر فيهم ... قاذفاتٍ [جنادلاً] ورجاما

٢ الروم ، ٤٧ .

الإباء والعنفوان ؛ ليكون قادراً على انتزاع حقه المغتصب بالقوة والإيمان .

وهو إذ يندفع إلى هذه الأهداف بتيقن وفي إيمان عميق ، ينتهي إلى خير ما يتمناه : نصرٍ على الأعداء ، وإعزازٍ لدين الله ، وبلاء في سبيله ، أو شهادةٍ يَفِدُ بها على ربٍّ أوضحَ له الطريق ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ الله أمْواتاً ، بَلْ أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بالّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾[1] . والله هو القائل : ﴿إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أقْدَامَكُمْ﴾[2]. إن هذه الفئة ترى الحلَّ بالجهاد المقدس حين تكون فيها كلمة « اللهُ أكبرُ » شعار المجاهدين[3] .

وأخيراً سلاح البترول . والمملكة العربية السعودية من بلاد العالم الكبرى المصدّرة للبترول ، تستغلّه متعاونة مع شركات عدة . منها أمريكية ، ومنها يابانية . والبترول هو المورد الأول للملكة في دخلها .

وحين حلت نكبة حزيران ١٩٦٧ م وأشيع أن الولايات المتحدة تدخلت – بصورة مباشرة أو غير مباشرة – لصالح إسرائيل المعتدية ، ضحّت المملكة بواردها الأول ، فقطعت البترول ، ومنعت ضخّه ، واستخراجه على الشركات الأمريكية ، ووقفت مع الصف العربي جنباً إلى جنب ، وكانت قبيل العدوان أرسلت فريقاً من جيوشها إلى فلسطين يرصّ صفوفه بصفوف الجيوش العربية الأخرى .

ثم بدا للجامعة العربية ، وللحكومات العربية أن الإشاعة كانت أضخم

---

١ آل عمران ، ١٧٠ .

٢ محمد ، ٧ .

٣ آراء مقتبسة من مقال حسن عبد الله آل الشيخ في كتابه « دورنا في الكفاح» ص ٨٠ – ٨٤، ومن قصيدة للفلالي في ديوانه « ألحاني » ص ١١٤ .

من الحقيقة، فسمحت للشركات البترولية باستئناف ضخه كما كان قبل العدوان. لكنها في الوقت نفسه حملت على عاتقها متعاونة مع الكويت وليبيا المساعدة على إعادة تسليح الأقطار العربية التي تحطمت أسلحتها بالعدوان ، وراحت السعودية تدفع ما يزيد على خمسين مليون جنيه استرليني سنوياً للدول المتضررة ، وتعهدت باستمرار الدفع حتى يتحقق النصر . ويعاد بناء الجيوش كأحسن وأقوى ممّا كان قبل العدوان .

ونكسة حزيران بكل ما ضمت ، دفعت الأدباء إلى إنتاج غزير . وانقسم أرباب القلم إلى فريق طالب بوقف ضخ البترول ، وفريق دعا إلى استمرار ضخه واستخدامه سلاحاً في معركة الكرامة والنصر ، وكلا الفريقين كان ينضح وطنية وعاطفة . وأخوة عربية ، وإخلاصاً .

ولم يكن موقف الدولة الرسمي يختلف عن موقف الأدباء ، والمواطنين . لهذا فقد صدرت مئات المقالات والقصائد تبارك للدولة مواقفها ، وتعتز بهذا السلاح الفعّال الذي كان له أكبر الأثر في إعادة الثقة إلى نفس كل عربي في كل أرض عربية .

وخير ما يمثل موقف الأدباء قصيدة « نار » لأحمد قنديل يبارك فيها المجاهدين من جهة ، وسلاح البترول الذي كان في خدمة المعركة ، وسيظل يبقى من جهة ثانية .

يا من بخط النار ، للنار الغذاء
إنا معك ، إنا معك
إنا سواء ، إنا سواء
هذه الأكف تشابكت
وتعانقت أفراحها
في كل أرض ، عزّ في أرجائها

بترولها . بترولها
عصب الحياة ، سلاحها
يغزو المعارك ، لا تلين
ولا تهون ، حتى تكون
حتى تكون لك الوقود
حتى تصون لك الحدود[1]

وأما القضية الثانية التي شغلت حيزاً كبيراً من الأدب السعودي بعد قضية فلسطين فهي الثورة الجزائرية الكبرى . تلك الثورة التي استعرت سبع سنوات ضد الغزاة الفرنسيين . ومما يلفت النظر أن ما قاله السعوديون في هذه المعركة الطاحنة كان ضخماً ، فيضاً من ألوان التعبير ، قصيدة ، وقصة ، ومقالة . حتى ليخيل للباحث أن القضية الجزائرية سعودية بحتة ، وأن الشعب السعودي هو صاحب الجرح وحامله .

اتخذ الأدباء في التعبير عن هذا الموضوع مواقف عدة . فمنهم من وقف بعيداً عن حمّى المعارك ، وتراشق النيران ، وراح يرصد الأحداث ، ويرقب التضحيات ، ويصيخ إلى التنهدات ، فيهتز طرباً ، أو يجهش بكاءً ، أو يصرصر غيظاً . ويعكس هذه المشاهد والمشاعر ، ويُحمّلها أفانين العواطف ، والانفعالات ، ويُغرقها فخراً أو تألماً[2] . فالجزائر — في رأيه — نبع بطولات ، وفيض

---

١ ديوان نار ص ٣٨ .

٢ من هؤلاء صالح الأحمد العثيمين الذي يقول (شعاع الأمل ص ٨٦) :

هناك المعاقلُ في عزهـــا بأوراس في عاليات القمم
بها يجثمُ الويل ضافي الرداء وتَدْوي بهـا قهقهات العدم
فكم من ملاحم ثارت بهـا لمعنى الحياة ومعنى الشمم
لسحق الدعيّ ولِصّ الشعوب وثأراً لما خبّأته الرجم

معجزات . و « ابن بلاّ » رمز الشباب العربي ، و « جميلة بوحريد »[1] مثال الفتاة العربية . رَسْفُها إلى السجون خطرات غضة . وقيودها خلاخيل ، ودموعها عطر . ودماؤها وَرْد . وأنينها زمجرات تهيب بالجزائر إلى الشهادة . بل هي أغنية الزمن . وحُداء القوافل السائرة نحو الموت . جميلة رمز الجزائر ، والشرق . ونجمة الصبح الهادية[2] .

وفريق آخر — وهو الأعم الأغلب — تخيل أنه فدائي جزائري — لَبِسَ

---

١ بطلة جزائرية ، عملت مع جبهة التحرير ، واشتركت في المعارك . أسرها الفرنسيون ، وعذبوها ألوان العذاب ، وصمدت لهم ولم تعترف بأسرار الجبهة فحكموا عليها بالموت ، وظلت صامدة . تدخلت معظم الدول لدى فرنسا لتخفيف الحكم عنها فاستجابت للتدخل . ورميت في السجن حتى استقلت الجزائر فأفرج عنها . وعادت اليوم — كسائر المجاهدين — مواطنة عادية .

٢ هذه الصور من سعد البواردي في قصيدته « جميلة » (ذرات في الأفق ص ٤٥) :

« جميلة » كم أنت في خـــاطر الشرق دنيـــا جميله
« جميلة » كم أنتِ في خاطِر السجنِ دنيـــا البطولة
دماؤك ورد ، دموعك عطر ، وهيكلك المكدود نعم الخميلة
وقيد الحديد كقيد الحرير ، وأنت على القيد أسرى غليله
« جميلة » يا أمنا في النضال ، وأسطورة الحافلات الجليلة
أنينك في السجن أنشودة للكفاح ، نغني بها كل يوم وليلة

وطاهر الزمخشري يقول في قصيدته « جميلة » (أغاريد في الصحراء ص ٣٢) :

القرون الطوال من أي عهد لم تخلد بطولةً كجميلة
خطرت غضة تميس إلى السجـ ـن خلاخيلها القيود الثقيلة
وعلى زندها سوار حديد رقّ كالخزّ فوق كفّ نحيله
حسبوا أنها تحس وثاقـــاً فإذا بالوثاق خير وسيلة
للفداء المحبوب ، للخلد ، للإيثا ر قد مَهَّد العذارى سبيله

مع المجاهدين لأمة الحرب ، وتمنطَقَ بالرصاص ، وتنكب السلاح ، وحمل كفنه ، وانخرط في الصف ، وسار إلى الموت وهو يغني نشيد الظفر أو الفناء [1] .

أو تصور أنه ودع أمه وأباه وصديقه ، وأخاه ، وأهله ، ومرابع صباه ، وقصد عرين الثوار ، وانضم إليهم ، وردّد معهم النشيد العظيم « النصر أو القبر » وهتف هتاف الجزائر بلده ووطنه . وحينما كان يتحدث عن أسباب الثورة كان يروي قصة الدم والدموع والآهات والقيود وأنين الأطفال وبكاء الثكالى والأسى والجوع والحرمان وركام الظلم وجرح الكرامة ولهيب السياط والتنكيل والليالي الغارقة بالنجيع المهراق ، والعذاب المقيم . « ذاك الفرنسي الأثيم كم أذَلّني وسحقني . كسرة الخبز السوداء ، ما أُعطيتُها أيام جوعي ، الخرقة الممزقة ما أبصرتها تسترُ ضلوعي ، الدمعة المحرقة ما أحسستها تنشف من خدودي ، الظلام الرهيب غطى بلادي . وبعد هذا هل أظل صابراً ؟ » [2]

---

١ عبد الله بن إدريس في قصيدته « صوت الجزائر » يقول (شعراء نجد المعاصرون ص ٢٩٥) :

لا . لن نحيد عن الكفاح
ولن نحار . ولن نهون
أو يستبد بنا السكون
رغم المقاصل والسجون
حتى نُمَرّغ طاغيا
طاغ وقاح
في بؤرة الخزي الفظيع
ونذيقه البأس المريع .

٢ وسعد البواردي يقول على لسان الجزائري في قصيدته « سلاح الكفاح » (أغنية العودة ص ٣٨) :

بدمي ، بالدمعة الحرى ، بآهي ، بقيودي
بأنين الطفل والثكلى ، بإيمان وجودي =

وحين استقلت الجزائر ، صدح الشعراء غناء ونشيداً . كأنهم هم الذين انتصروا ، وكأن الفرحة فرحتهم قبل فرحة الجزائريين أنفسهم . وكان شعوراً رائعاً [1] .

= بالأسى ، بالجوع ، بالحرمـــان ، بالحقد العنيد
بركام الليل ، بالأشباح ، بالسهد ، وبالجرح الجديد
بلهيب السوط ، بالتنكيل ، بالآتي ، وبالماضي البعيد
بالذي ألقى سلاحـــاً في يدي يصنع « عيدي »

مِنْ هنا يدوي صياحي
مِن هنا يأتي صباحي
مِنْ هنا ألقي سلاحي
مِنْ هنا تحكي جراحي

كسرة من خبزة سوداء . ما أعطيتها أيام جوعي
قطعة من « خرقة » رتقاء . ما أبصرتَها توري ضلوعي
مسحةٌ من لمسة سمحاء . ما أحسستها ترقي دموعي
شمعة في الليلة الليلاء . ما ألفيتها تهدي جموعي
كيف لا يـــدفعني الثأر . وما شحّت ربوعي

من هنا يأتي صياحي
من هنا يأتي صباحي
من هنا ألقي سلاحي
من هنا تحكي جراحي

١ حسن القرشي في قصيدته « كفاح مقدس » يقول (نداء الدماء ص ٣١) :

استريحي جماجم الشهداء
وتسامَيْ في « جنة » فيحاء
راعدُ الصوت قد سرى في الفضاء =

وهكذا نصل بعد هذا العرض إلى القول إن الأدباء السعوديين لم يقطعوا الصلة التي ربطها زملاؤهم بالبلاد العربية في أيام ثورة الشريف حسين ، بل أحكموا وثاقَها . وزادوها متانة وتماسكاً ، كما كانوا أرحب منهم أفقاً ، وأبعد مدى . فلقد تجاوز اهتمامهم « الهلال الخصيب » الذي شُغِل به « الشعراء الهاشميون » — إنْ صحت هذه النسبة والتسمية — وقد كان موزّعاً بين أبناء الشريف . وامتد نطاق الأدب إلى كل أرض عربية سيطر عليها الاستعمار ، وأذاق أهلها أفانين الويل والهوان . فشمل حديثهم قضايا بلادهم وقضايا البلاد العربية جمعاء . . آزروا النضال العربي العنيف في عُمان ، ومسقط ، وعدن ، والشام ، والعراق ، وأرض الكنانة ، والشمال الإفريقي بأجمعه ، واهتموا بشكل خاص بقضيتي فلسطين والجزائر ، فحبَوْهما بأطيب قول ، وأصدق مشاعر .

ولكن الدارس يلاحظ أن « الجزائر » نالت منهم حظاً أوفر من حظ « فلسطين » . فقد تحدثوا عن القطر البعيد كأنهم يروون الأساطير . تَشِف كلماتهم عن سيماء العزة والفخار ، وتسمع من ثنايا قصائدهم أزيز الرصاص ، وقصف المدافع إلى جانب أنين الأطفال ، ونشيج المعذّبين .

= وتعالَى الزئير في البيداء
قد أخذنا الحقوق دون امتراء
وجزينـــا بأرضنا السمراء
أرض « إفريقيا » مهاد الإباء

وفؤاد شاكر في قصيدته « استقلال الجزائر » يقول (وحي الفؤاد ص ١٩٨) :

فاليوم لا تهنا الجزائر وحدها — فالقوم قومي والسّلاف سُلافي
البهجة الكبرى تعمّ ديارنا — من أرؤس فيها . ومن أطراف
هذا الرحيق لنا وتلك مناهل — للواردين ، هي الرحيق الصافي

وحكاية[1]. ولكل من هذه الأنواع مقومات لا بد منها، وترتكز على الموضوع، والشخصيات، والحوار. كذلك فإن هذا الفن بجوهره الأصيل ينسرب في اتجاهات عدة، فقد يكون في خدمة المجتمع، أو السياسة، أو يكون عرضاً للعواطف الإنسانية، أو للأحداث التاريخية وغيرها.

لا يعنينا – في هذا المجال – أن نلاحق البدايات الأولى للقصة العربية في العصر الحديث بمصر، أو سورية، أو لبنان، أو الأقطار الأخرى، فقد أسهب في تقصيها كثير، ووصلوا إلى نتائج[2]. إنما يعنينا أن نفتش عن بواكيرها في أرض السعودية، والوقوف على أنواعها، والتبصر في الكيفية التي عولجت بها، ثم النظر في الموضوعات التي طرقتها.

المصادر الرئيسة والأولى للقصة السعودية هي الصحف والمجلات الدورية. ولقد قلنا في فصل سابق إن معظم الصحف الأولى ضائعة أو في حكم الضائعة، فإن وجدت فهي مبعثرة بين المنازل، ومكتبات الأفراد. ونادراً ما يمكن لباحث الوصول إليها. يضاف إلى ذلك أن المؤلفين – على قلة عددهم – أهملوا

---

١ وتدعى «Récit» وهي سوق واقعة أو وقائع حقيقية أو خيالية، لا يلتزم فيها الحاكي قواعد الفن الدقيقة. بل يرسل الكلام كما يواتيه طبعه. والحكايات في الأكثر منقولة عن أفواه الناس. وصاحبها يعرف بالحكاء أو السمير. (المصدر السابق ص ١٠٠).

٢ من الذين تقصوا تاريخ القصة العربية «كراتشقوفسكي»، في الأدب الحديث .– بحث نشر في مجلة الرسالة في عدة أعداد سنة ١٩٣٦ م. مترجماً بقلم محمد أمين حسونة – وزيدان، تاريخ آداب اللغة العربية – الجزء الرابع –؛ ولويس شيخو، الآداب العربية في القرن التاسع عشر ١ – ٢، في الربع الأول من القرن العشرين؛ ومحمد يوسف نجم، القصة في الأدب العربي الحديث؛ عبد العزيز عبد المجيد The Modern Arabic Short Story؛
Pérès, H., Le Roman dans la Littérature Arabe Moderne, Annales de I'Institut d'Etudes Orientales d'Alger, 1938.
Brock. Geschichte der Arabischen Literatur, Supp. 3.

الفصل الأول

فن القصة

القصة التي نعنيها في هذا الفصل : « عرض لفكرة مرت بخاطر الكاتب ، أو تسجيل لصورة تأثرت بها مخيّلته ، أو بسط لعاطفة اختلجت في صدره ، فأراد أن يعبّر عنها بالكلام ليصل بها إلى أذهان القراء، محاولاً أن يكون أثرها في أنفسهم مثل أثرها في نفسه »[١] . وهذا اللون من التعبير له أصول وقواعد وألوان . فهو من حيث القالب والمظهر أنواع أربعة : أقصوصة[٢]، وقصة[٣]، ورواية[٤]،

١ محمود تيمور ، دراسات في القصة والمسرح ص ٩٦ .

٢ يكاد النقاد يجمعون على أن الأقصوصة « Conte » قصة قصيرة . يعالج فيها الكاتب جانباً من حياة ، لا كل جوانب هذه الحياة . فهو يقتصر على سرد حادثة أو بضع حوادث يتألف منها موضوع مستقل بشخصياته . على أن الموضوع مع قصره يجب أن يكون تاماً ناضجاً من وجهة التحليل والمعالجة ، ولا يتهيأ هذا إلا ببراعة يمتاز بها الكاتب الأقصوصي، إذ ان المجال ضيق أمامه محدود ، يتطلب التركيز الفني. وغاية الرأي في هذه النقطة أن الأقصوصة على أصولها المقررة يجب ألا تتناول موضوعاً مترامي الأطراف ، تستغرق الحياة فيه حقبة طويلة من الزمن. فإذا تورط الكاتب الأقصوصي في معالجة موضوع واسع، فقدت الأقصوصة قوامها الطبيعي ، وأصبحت نوعاً من الخلاصات والاختصارات للقصص الكبيرة . وليس هذا من الفن في قليل أو كثير . (محمود تيمور ، دراسات في القصة والمسرح ص ٩٩) .

٣ وتدعى « Nouvelle » . وتتوسط بين الأقصوصة والرواية . وفيها يعالج الكاتب جوانب أرحب مما يعالج في الأولى ، فلا بأس هنا بأن يطول الزمن ، وتمتد الحوادث ، ويتوالى تطوره في شيء من التشابك . (المصدر السابق ص ١٠٠) .

٤ وتدعى « Roman » . وفيها يعالج المؤلف موضوعاً كاملا أو أكثر ، زاخراً بحياة تامة واحدة أو أكثر . فلا يفرغ القارىء منها إلا وقد ألمّ بحياة البطل أو الأبطال في مراحلها المختلفة . وميدان الرواية فسيح أمام القاص ، يستطيع فيه أن يكشف الستار عن حياة أبطاله ، ويجلو الحوادث مهما تستغرق من الزمن . (المصدر السابق ص ١٠٠) .

القوة والصحة . وفئة مالت إلى التفكك والضعف والتهافت . وعرضنا نماذج كثيرة من هذه وتلك ، وقلبناها على وجوه عدة ، ثم انتهينا إلى أحكام ، مراعين في كل دراسة لمجموعة أو فئة الفوارق الفردية بين الكتاب القصاصين ، غير ناسين ما بين القصص ذاتها من فوارق كالأقصوصة ، والقصة ، والرواية . وفي آخر المطاف بدا لنا أن نقول كلمة في مستقبل هذا الفن القصصي في الأرض السعودية مستهدين بما وقفنا عليه من آثار ، وبما وصلنا إليه من معلومات لم نجد ضرورة لتسجيلها .

أما دراسة « فن المقالة » فقد كانت محرجة وعسيرة إلى حد بعيد . ذلك أن الإنتاج المقالي غزير ومع هذه الغزارة فإن له أدواراً متعددة . وكان في كل دور اتجاهات وألوان . وفي كل اتجاه أفكار وآراء ، ولكل فكرة أنصار وخصوم ، ولكل أديب أسلوب ونهج . ولا شك أن الإحاطة بكل هذا أمر عسير ، ولا سيما إذا تذكرنا أن هذه الدراسة هي الأولى من نوعها في تأريخ المقالة السعودية ودراستها .

رغم كل هذا نود أن نقول : إن خطتنا في دراسة هذا الفن اعتمدت على تقسيم المقالة إلى أطوار ، ودراسة كل طور من حيث الأفكار ، والأساليب ، والكتّاب ، ومقارنة إنتاج الطور بنظيره في البلاد الأخرى — إن كان له نظير — .

بعد ذلك عدنا إلى الإنتاج كاملاً من جديد ، وقسمناه تقسيماً آخر بحسب الموضوعات . فهذه مقالات في الدين ، وتلك في الأدب ، وثالثة في النقد ، وأخرى في الاجتماعيات ، وهكذا . وفصّلنا كل فرع ، وذكرنا أشهر أصحابه ، واستشهدنا بكتاباتهم ما تطلب البحث منا ذلك .

وأخيراً نود أن نشير إلى نقطة صغيرة هي : أننا حاولنا — قدر الطاقة — ألا نتطرق « للقضايا » الاجتماعية والسياسية والأفكار التي عبرت خلال هذه الدراسة ، وكنا نلمّح إليها تلميحاً خفيفاً إذا اقتضت الحاجة منا ذلك .

وأمين سالم رُوَيحي [١] ، وعبد الله الجَفْري [٢] ، وعبد الرحمن النّفيسة [٣] ، وإبراهيم الناصر [٤] ، وغيرهم . .

أما كتّاب المقالات فهم الأدباء السعوديون جميعاً سواء أكانوا شعراء أو غير شعراء .

والنقطة الثانية المراد توضيحها تتصل بطريقة دراسة كل من القصة والمقالة .

وقد رجح عندنا وجوب فرز الإنتاج القصصي إلى مجموعات : الأولى هي البواكير ، وقد استعرضناها من زواياها المختلفة : الفكرية ، والطريقة الفنية ، وأسلوب العرض القصصي ، وانتهينا إلى حكم عليها .

والمجموعة الثانية هي الّتي توافرت فيها العناصر الفنية الصحيحة فعرضناها من جهاتها المختلفة ، وخلصنا بعدها إلى حكم عليها .

والمجموعة الثالثة هي القصص الّتي ترددت بين سمات المجموعة الأولى والثانية فرأينا لزوم توزيعها إلى فئتين : فئة رجح فيها التماسك الفني وجانب

---

١ ولد بجدة سنة ١٣٤٢ هـ/١٩٢٣ م . وتعلم فيها،ثم التحق بالطيران المدني،وتدرب على أصول الاتصال الدولي ، واصطلاحات الطيران ، وهو يعمل اليوم في هذا الميدان . من أعماله الأدبية : مجموعة « والأذن تعشق » و « الحنينة » و « الأصابع المحترقة » . (المنهل ٢٧/٨٦٠).

٢ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م. ودرس حتى توقف في مرحلة « التوجيهية ».عمل في الأمن العام ، وفي إدارة الجوازات والجنسية موظفاً ، ثم انتقل إلى وزارة الاعلام في في مديرية المطبوعات ، من أعماله : مجموعة قصصية بعنوان « حياة جائعة » . (المنهل ٢٧/٩٠٦) .

٣ ولد سنة ١٣٦١ هـ/١٩٤٢ م . ودرس على يد والده العلوم الشرعية ، وأكمل دراسته في الرياض . عمل في وظائف عدة كالتدريس وفي الأمانة العامة لمجلس الوزراء . له أبحاث كثيرة وقصص نشر معظمها في الصحف المحلية (المنهل ٢٧/١٩٣٨) .

٤ كاتب نجدي ، درس في الرياض . وهو يعمل الآن في إحدى دوائر الدولة بالعاصمة . من مجموعاته القصصية : « ثقب في رداء الليل » و « أرض بلا مطر» و « أمهاتنا والنضال » . وجميعها مطبوعة في مطابع المملكة .

ومحمد مَليباري[1] ، وعبد الرحمن الأنصاري[2] ، ومحمد زارع عقيل[3] ، وشكيب الأموي ، وخالد خَليفَة[4] ، وعلي جَميل[5] ، ونبيه الأنصاري[6] ،

---

١ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٥٠ هـ/١٩٣١ م . ودرس بالصولتية والفلاح . عمل في مختلف الصحف السعودية ورأس تحرير جريدة الرياض ، وهو اليوم عضو بمؤسسة عكاظ الصحفية . من كتبه القصصية : المجموعة « مع الحظ » و « غربت الشمس » و « عالمنا الكبير » . (المنهل ٢٧/٩٠٠) .

٢ ولد في المدينة المنورة سنة ١٣٥٦ هـ/١٩٣٧ م . ودرس فيها ، ثم ابتعث إلى جامعة القاهرة ، فنال الإجازة في الآداب ، وعمل معيداً في جامعة الرياض مدة ابتعث بعدها إلى انكلترا ، فلبث فيها خمس سنوات ، وعاد حاملا شهادة الدكتوراه في التاريخ . وهو عميد كلية الآداب في جامعة الرياض . له أقاصيص منشورة ، ومؤلفات منها : « ظاهرة الهروب في أغاريد الصحراء لطاهر الزمخشري » و « ظاهرتان في حياة أبي الطيب : نسبه وتنبؤه » . (المنهل ٢٧/٩٢٧) .

٣ من مواليد جازان ١٣٣٩ هـ/١٩٢٠ م. تعلم فيها ، وعمل في دوائرها الحكومية المالية ، والجمارك، والبلدية، ويعد اليوم أديب جازان . من قصصه : « ليلة في الظلام » و « الوفاء » و « أمير الحب » . (المنهل ٢٧/٨٥٣) .

٤ ولد سنة ١٣٣٠ هـ/١٩١١ م . أتقن الإنكليزية والنوبية والعربية . وظف في ديوان ولي العهد، ثم نقل إلى التشريفات الملكية ولا يزال بها . أولع بكتابة القصة منذ نعومة أظفاره . من مؤلفاته القصصية : « في وادي عبقر » و « قصص أخرى » . (المنهل ٢٧/٨٥٨) .

٥ ولد بمكة المكرمة ١٣١٨ هـ/١٩٠٠ م . ودرس فيها على يد والده ، وأتم علومه بالمدرسة الراقية ، ثم التحق بالمدرسة الحربية بمكة . وتخرج برتبة ضابط . وتدرج في المناصب العسكرية حتّى وصل إلى رتبة « لواء » ، واستقال لأسباب صحية ، ولكن الملك عينه في مجلس الشورى ، ثم رئيساً لديوان التشريفات الملكية . له إنتاج أدبي غزير ، معظمه في الفن القصصي ؛ نشره في الصحف السعودية . (المنهل الفضي ص ٥٥) .

٦ ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٥٦ هـ/١٩٣٧ م . ونشأ بمكة ، وفيها درس ، وحمل شهادة مدرسة تحضير البعثات . وظف في المالية ، والجمارك ، والإذاعة ، وإدارة المطبوعات . له قصص عدة معظمها منشور في الصحف والمجلات . (المنهل ٢٧/٩٣٢) .

في المقام الثاني ، والباقون — وهم قلة — من المناطق الأخرى . كذلك يلفت نظرنا أن الشعراء الذين كتبوا القصص قليلون . وكان منهم القرشي ، والزمخشري والبواردي ، وسَرحان ، والعامودي ، والأنصاري ، والفِلالي ، وعبد الله عبد الجبار ، وأحمد الفاسي ، والرفاعي ، وآشي ، وعبد السلام هاشم رشيد . أما القصاصون الآخرون — وهم الغالبية — فلم يُشهر عنهم نظم الشعر إلاّ فيما ندر . وكان منهم محمد أمين يحيى [1] ، ومحمد عالم الأفغاني [2] ، ومحمد علي مغربي [3] ، وأمين مدني ، وأحمد السباعي ، ومحمد علي قُطُب [4] ، وأحمد علي [5] ،

---

١ ولد بجدة سنة ١٣٤٢ هـ/١٩٢٤ م ، وتخرج من مدرسة الفلاح . وشغل عدة وظائف حكومية في وزارتي المالية والعمل والشؤون الاجتماعية . وله اشتغال بالأدب ، وإنتاجه القصصي نشر معظمه في مجلة المنهل . (المنهل ٢٧/٩٥٧) .

٢ ولد ببلاد الأفغان ، وتعلم في المدينة المنورة . ونبغ في القصة . ونشر كثيراً من إنتاجه في المنهل وصوت الحجاز . عمل في التعليم ، ووزارة الخارجية ، ثم أصيب بمرض ألزمه داره إلى اليوم . (المنهل ٢٧/٩٥٦) .

٣ ولد بجدة سنة ١٣٣٣ هـ/١٩١٥ م ، ودرس في مدرسة الفلاح ، وعين رئيساً لتحرير جريدة « صوت الحجاز » ثم عكف على مزاولة التجارة . وله مقالات وقصص وبعض قصائد نشرت في الصحف المحلية . (الأنصاري ، تاريخ مدينة جدة ص ٤٩٢) .

٤ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٤٦ هـ/١٩٢٧ م. وتلقى دراسته في مدرسة الفلاح وتحضير البعثات . عمل مدرساً ومترجماً من الفرنسية ، وموظفاً في أحد مصارف جدة ، ثم انتقل إلى إحدى الوظائف في مؤسسة الخطوط الجوية السعودية . له قصص كثيرة نشر معظمها في الصحف المحلية (المنهل ٢٧/٨٧٨) .

٥ ولد بالهند سنة ١٣٢٥ هـ/١٩٠٧ م . ودرس بمكة . أتقن الفارسية والإنجليزية والعربية . تنقل في وظائف عدة ، بدأها بمعلم في مدرسة ابتدائية ، ووصل إلى عمادة كلية الشريعة بمكة . له مؤلفات مختلفة . منها كتاب عن « آل سعود » وقصص كثيرة منشورة (المنهل ٢٧/٧٩٨) .

الأساطير والحكايا الشعبية والفصيحة ، وهذه لم ندرجها في دراسة « فن القصة » وأرجأنا الحديث عنها إلى باب آخر يهتم بعرض البحوث والدراسات وألوان التأليف في أرض المملكة .

ولا نريد أن نرمي التّبِعة علينا وحدنا . ونقول : إن ضعف إمكاناتنا ، أو قصور وسائلنا ، أو تقصيرنا ، كان سبباً في قلة عدد القصص التي وصلنا إليها . فقد يكون هذا الاتهام صحيحاً إلى حد ما ، ولكنه ليس صحيحاً صحة مطلقة . فالأدباء أنفسهم يحملون معنا جزءاً من المسؤولية . ذلك أن الكثير منهم — إن لم نقل معظمهم — يؤثرون الراحة على التعب ، ويفضلون أن ينظموا قصيدة ، أو مقطّعة ، أو يدبجوا مقالة ، أو مائة مقالة على أن يكتبوا قصة واحدة . وهم يدركون أن كتابة قصة تقتضيهم تفكيراً ، وتخطيطاً ، وتنظيماً ، وكتابةً وفق قواعد فنية تكاد تشبه القوانين العلمية في دقتها وإحكامها . ومثل هذا العمل يتطلب مجهوداً كبيراً ، وبراعة فائقة ، وفناً ناضجاً ، وتلك أمور لا يتطلبها نظم القصيدة ولا تحبير المقالة . لذلك فإنتاج القصة ذاته قليل في الأرض السعودية . وهذا بعض تعليل لقلة ما وصلنا إليه .

أما ما عثرنا عليه من مقالات فهو كثير . وإذا قلنا : إنه يكاد يصل عدد المقالات إلى نحو عشرة آلاف ، ضمتها الصحف الصادرة منذ أيام العثمانيين إلى يومنا ، واحتوتها الكتب الخاصة المطبوعة التي جمعها أصحابها من هنا وهناك ، ثم أصدروها في كتب مستقلة ، لم نكن مبالغين .

ولو استعرضنا أسماء هذه الكتب « المجموعات » ، وهي تبلغ الخمسين ، وأحصينا عدد ما فيها من مقالات ، وجدناها تضم ما يقرب من ثلاثة آلاف مقالة . فكيف بالصحف والمجلات ، وأكثر ما فيها لم يجمع ؟

ونتساءل عن هويّات القصاصين والمقاليين ، فنجد أن كتاب القصة هم من المنطقة الغربية « الحجاز » في المقام الأول ، ثم من المنطقة الوسطى « نجد »

يهتم هذا الباب بدراسة الفنون النثرية المستحدثة التي كانت أثراً من آثار الحضارة والنهضة ، وارتفاع المستوى العلمي في أرض المملكة السعودية في عصرها الحديث .

وما نودّ دراسته ينحصر في فنين لا ثالث لهما ، أولهما « فن القصة » ، وثانيهما « فن المقالة » . وقد ضربنا صفحاً عن « فن المسرحية » لأنا لم نجد فيه إنتاجاً سعودياً يستحق الدراسة لغناه كمّاً أو كيفاً . ونعتقد أن قطعة أو قطعتين كتبتا على صورة مسرحية لا تستحقان أكثر من الإشارة إليهما ولاسيّما إذا كانتا من اللون الهزيل فكرة أو فناً .

وقبل دراسة فني القصة والمقالة نريد أن نوضح نقطتين ، نرى وجوب توضيحهما بادئ ذي بدء . الأولى في كمية ما بين أيدينا من قصص أو مقالات . وثانيتهما في الطريقة التي سندرس كلاًّ من الفنين .

أما عن الأولى : فنود أن نعترف سلفاً أننا قبل أن نخطّ حرفاً واحداً في كلا الفنين نقّبنا عن كل قصة سعودية نشرت في صحيفة أو مجلة ، أو كتاب ، في داخل المملكة ، وخارجها ، إضافة إلى محاولات كثيرة بذلناها في سبيل تعرُّف القصاصين ، والاتصال بهم شخصياً ، وسؤال أهليهم ، وذويهم ، وأصدقائهم عن حياتهم ، وما يتصل بها . واستغرق ذلك من الزمن ما يزيد على العامين . ورغم كل هذا ، فقد عرفنا شيئاً ، وغابت عنا — دون شك — أشياء . ولم نعثر على أكثر من خمسمائة قصة سعودية بين قصيرة ، ومتوسطة ، وطويلة . وعمرها لا يزيد على خمسين عاماً — على أبعد تقدير — . هذا عدا

الباب السادس

الفنون الأدبية المستحدثة

١

العقل ، وتميز بها الشعر في صيغته وأدائه من النثر . ثم أضاف قائلاً : « وأما رأيي الذاتي فإني أرى أن التزام الأوزان في الشعر العربي هو من خصائصه المميزة له ، غير أنه لا يشترط أن تكون القصيدة برمتها من وزن واحد ، ويمكن أن يصاغ على أوزان مختلفة متناسقة ، منسجمة الموسيقى ، لتمتلك الأسماع والنفوس بعذوبة وقعها عند القراءة والأداء ، علاوة على ما يحتويه من روعة المعاني والخيال ونصاعة الديباجة . وأما القافية فلا أرى لزوم اشتراط أن تكون القصيدة كلها من قافية واحدة . وانتهى الآشي إلى قوله : وأما أن يطلق الشعر من أوزانه وقوافيه إطلاقاً كلياً فأولى به حينئذ أن يكون ويسمى نثراً ، أو شعراً منثوراً » .

وعلى مثل هذه الآراء المعتدلة درج كثيرون من الناقدين .

أولئك من ظنوا القديم خرافة ومن زعموا التهريج فناً مجددا
ولا وزر للشيء القديم لأنّه قديم ولا الشيء الجديد بلا صدى
كمن يرسل القول الهجان وهمّه إشاعة هذا الفحش في الناس سرمدا

لكن هذه الفئة قليلة العدد .

أما الفريق الثاني فيقف موقفاً منطقياً ، يناقش الموضوع في جوهره الأصيل ويكون كالقاضي العادل ، يحكم لهذا أو ذاك إذا تمّت لديه القناعة ، ورضي الوجدان . فأحمد السباعي – مثلاً – سئل عن رأيه في الشعر الحر فقال [1] : « ترى ماذا يعيبون على الشعر الحر ؟ أيعيبون عليه أنه فقد الوزن والقافية ؟ . لئن كان هذا كل ما يعيبونه ، لم يجب أن ينسوا أن الوزن والقافية كلاهما بدعة ابتدعها مبتدع في زمن ما ، ليكنْ هذا قبل آلاف السنين . فهل يرون أن البدعة إذا تقادمت عليها الأجيال أخذت شكل الأصيل ؟ . ليتركوا إذن أصحاب الشعر الحر ، وما ابتدعوه ، فالزمان كفيل بأن يحيل أمرهم إلى شيء أصيل . الشعر الحر في رأيي ما خاطب شعورك ، وهزّ وجدانك . ولستُ أشكّ أن هذا هو رأي الملايين ممن عاشوا قبل أن يعرف الوزن ، وقبل أن تخلق القافية » .

وسئل عبد الوهاب آشي عن رأيه في الشعر التقليدي والشعر الحر فأجاب [2] : إن أصالة الشعر وسموّه لا يبدوان في أوزانه وقوافيه ، وإنما يتمثلان في معانيه السريّة ، وصوره الرائعة ، وأخيلته المجنحة ، وأهدافه السامية ، وأسلوبه المشرق . وأما الأوزان والقافية فما هي إلاّ لتضفي على الشعر لوناً شكلياً خاصاً ، وجرساً غنائياً عذباً تطرب لها الآذان ، وتبتهج بها النفس ، وينسجم معها

١ جريدة البلاد : العدد ٢٥٢٠ .
٢ جريدة البلاد : العدد ٢٧٢٤ .

وحطمتْ أغصانَ
دوحتي الرياح
من ذا الذي يطرق نافذة بيتي ؟
أيها الآتي
من وراء الأبعاد
اذهبْ
لن تجدَ أحداً هنا
لن تجد إلاّ القلق
إلاّ اليأس .

يبدو أن الأحرى بتسمية هذا اللون بـ « النثر الشعري » لوجود الخصائص التي يتصف بها هذا النوع من النثر .

وأخيراً ، لا بد من كلمة نقولها حول رأي الشعراء التقليديين في الشعر الحر هذا . إنهم ينقسمون فريقين : الأول يهاجمه ويعتبره « لوناً من ألوان السخرية والتهريج ، بل هو فحش من القول ، وأحرى بأصحابه أن يرعووا إلى الحق ، وينصاعوا إلى الشعر الموزون المقفى ، ففيه الخير كل الخير »[1] . وقد مثّل هذه الفئة فؤاد شاكر ، ونظم قصيدة بهذا المعنى ، عنوانها : « الشعر في حقيقته »[1] . ومما قال فيها :

أقلاّ على الشِّعر المَلام وفَنِّدا ... أقاويل مَنْ للبُطْل والسحر ردّدا
أجدّكما هذا الذي ترسلانــه ... من القول دفاقاً على الشعر مصعدا
لقد روّع الشعرَ الأصيلَ عصابةٌ ... تأوّلَت الشِّعر الفصيح المنضدا
يقولون إن الشعر « حرّ » ولم نكن ... لنعلم في « الشِّعرى » إماءً وأعبُدا

---
١ وحي الفؤاد : ص ٢٩١ .

فهي من وزن **الرَّمل** ، جاءت على التفعيلات التالية :

١ ـ فاعلاتْ
٢ ـ فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتْ
٣ ـ فاعلاتن فاعلاتن فا
٤ ـ علاتن فعلاتن فاعلاتن

ويبدو أنها رغم التدوير استطاعت أن تحتفظ بليونة النهايات ، والجرس الموسيقي أكثر مما فعل قنديل .

وإذا كان عدد من الشعراء الشباب سلك طريق النظم على صورة الشعر الحر المؤسّس على التفعيلة العروضية التقليدية ، فجعلها تفعيلة أو اثنتين أو أكثر في الشطر الواحد ، فإن هناك بعض الشعراء من قذف بالتفعيلة نفسها ، وانطلق حرّاً حتى من التفعيلة الحرة شأنه في ذلك شأن عدد من شعراء الغرب . فهذا ناصر بوحَيْمَد في قصيدته « قلق » يتبع هذه الطريقة فيقول [1] :

من ذا يطرق نافذة بيتي ؟
الظلامُ الرهيب
يكفّنني بجلبابه
منزلي على قارعة الطريق
يرصد العابرين في قلق
والمدلجين في ذعر .

مَسْرَجتي
قد أطفأتْها العاصفة

---

١ ديوان « قلق » : ص ٧٣ .

الكلمة . والسبب الأول لهذا المنع أن تدوير التفعيلة قد يجرد الشطر من الموسيقى ، وهي من المقوّمات الرئيسة في الشعر الحر . فإذا خلا هذا اللون من الشعر من الموسيقى ضاعت ميزته التي خُلق من أجلها .

وإذا عدنا إلى قراءة قصيدة القنديل كما أوردها هو في ديوانه افتقدنا ليونة الموسيقى ، ووقع النغمة التي كان يسعى إليها ولا سيما حين يقول :

وأنا وأنت بجوفه
وكأننا
فيه
بقايا من طلول

فالسطر الذي يقتصر على « وكأننا » أو على لفظة « فيه » يفقد اللدونة الموسيقية فقداناً مطلقاً . ولكنا نجد للشاعر عذراً إذا قلنا : إنه أخطأ في تقسيم الكلمات على الشطور اعتباطاً ، وهو في حقيقة الأمر محافظ على الوزن الموسيقي بشكل عام في القصيدة ، ونتثبت ذلك لو أعدنا ترتيب الأسطر على الصورة التي رأيناها قبل قليل .

* * *

ووقعت « غادة الصحراء » فيما وقع فيه القنديل ، إذ دوّرت التفعيلات ، وحافظت على وحدة الكلمات في الشطر الواحد . قالت في قصيدتها « تعال » [1] .

١ — في الغمامْ
٢ — في ضباب الحلم . . في نجوى الهيامْ
٣ — يا حبيبي ، كنت
٤ — وها أنت مرارتي وَصَابي

١ ديوان « شميم العرار » : ص ١١٣ .

إلى موضوع « التدوير في الشعر الحر » فمنعوه إذا لم تكن له ضرورة ماسة .

تقول نازك في كتابها « قضايا الشعر المعاصر » : « إن التدوير يمتنع امتناعاً تاماً في الشعر الحر ، فلا يسوغ للشاعر على الإطلاق أن يورد شطراً مدوَّراً . وهذا يحسم الموضوع »[1] . أما أسباب امتناع التدوير في الشعر الحر فتبسطها نازك في الحقائق التالية[2] :

أولاً – لأن الشعر الحر شعر ذو شطر واحد وذلك يعني :

أ – أن شعر الشطر الواحد لدى العرب ، في العصور كلها ، قديماً وحديثاً ، شعر يستقل فيه الشطر استقلالاً تاماً ؛ فلا يدور آخره . وذلك منطقي ، وهو يتمشى ومعنى التدوير الذي لا يقع إلاّ في آخر الشطر الأول ليصله بالشطر الثاني ، وذلك في القصائد ذات الشطرين وحسب . وعلى ذلك فإن التدوير ملازم للقصائد التي تكتب بأسلوب الشطرين وحسب .

ب – وأن التدوير يعني أن يبدأ الشطر التالي بنصف كلمة ، وذلك غير مقبول في شطر مستقل . وإنما ساغ في الشطر الثاني من البيت لأن الوحدة هناك هي البيت الكامل لا شطره . وأما في الشعر الحر فإن الوحدة هي الشطر .

ج – وأن شعر الشطر الواحد ينبغي أن ينتهي بقافية ، أو بفاصلة تشعر بوجود قافية . من خصائص التدوير أنه يقضي على القافية لأنه يتعارض وإياها تمام التعارض .

لقد قلنا : إن القنديل « دوّر التفعيلات » ولم نقل : إنه « دوّر ألفاظ الشطر » . وهناك فرق بين التدويرين . ذلك أن التدوير في التفعيلة حفظ اللفظة كاملة في الشطر الواحد ، وهذا يختلف عمّا تريد منعه نازك الملائكة بعض الاختلاف . وفي رأيي أن المنع ينبغي أن يكون لتدوير التفعيلة أسوة بتدوير

---

١ قضايا الشعر المعاصر ص ٩٥ .

٢ « « « ص ٩٦ .

على خمس ، والثالث على ست ، والرابع على أربع . وكل من السطور الأربعة ينتهي بـ « متفاعلان » .

إذا وزنا السطور على وضعها الذي جاءت عليه في ديوان « نار » وجدناها على الصورة التالية :

١ – متْفاعلن . م
٢ – تَفاعلان .
٣ – متفاعلن . متَفاعلان
٤ – متفاعلن . متفاعلن
٥ – متَفاعلن
٦ – متفا
٧ – عِلُنْ . متْفاعلان
٨ – متفاعلن . متْفاعلن . متَفاعلان
٩ – متْفاعلن . متْفاعلن . متَفا
١٠ – عِلُن . متَفاعلان
١١ – متفاعلن . متفاعِ
١٢ – لن . متْفاعلن
١٣ – متْفاعلان

إن الذي نلاحظه في هذه الأوزان أن الشاعر لجأ إلى التدوير في التفعيلات ، بين الأول والثاني ، وبين السادس والسابع ، وبين التاسع والعاشر ، وبين الحادي عشر والثاني عشر . دون أن تلجئه الضرورة إلى هذا التدوير .

وقد يكون تقليد القنديل للشعر الحر جاء عفو الخاطر ، ودون دراسة لأصوله الفنية . ذلك أن عدداً من الدارسين وعلى رأسهم نازك الملائكة تطرقوا

٢ – وما تقول ؟
٣ – والليل أقسم لن يزول
٤ – وأنا وأنت بجوفه
٥ – وكأننا
٦ – فيه
٧ – بقايا من طلول
٨ – عاثت بها الأشباح .. ساخرة الهوى
٩ – سكرى .. معربدة
١٠ – تجول .. كما تجول
١١ – داست على الصّفحات
١٢ – من تاريخنا
١٣ – إلاّ فلول [1] .

إن وزن هذه القصيدة في أصله من البحر الكامل . ولو حاولنا إعادة كتابة القصيدة على النمط التقليدي لوجدناها بالصورة التالية :

١ – ماذا أقول . وما تقول . والليل أقسم لن يزول
٢ – وأنا وأنت بجوفه وكأننا فيه بقايا من طلول
٣ – عاثت بها الأشباح ساخرة الهوى سكرى معربدة تجول كما تجول .
٤ – داست على الصفحات من تاريخنا إلاّ فلول

فإذا ما وزنا هذه السطور وجدنا الأول يحتوي على أربع تفعيلات ، والثاني

١ ديوان نار : ص ١٥ .

عمر عرب في قصيدة أسماها « عصر الشباب » [1] وقد جاءت على الشكل التالي :

حدثيني عن الصبا والشباب عن زمان الهناء بين الصحاب
حدثيني

حدثيني عن الهوى يا مهاتي إن هذا الحديثَ يحيي رفاتي
حدثيني

واحنيني إلى ارتشاف لَمَاك واحنيني إلى اجتلاء سناك
واحنيني

واحنيني لقطف ورد الخدود واحنيني لهصر بان القدود
واحنيني

آه إنْ تنظري بعين العليم ما أقاسي من العذاب الأليم
ترحميني

ولعل أجرأ المحاولات التجديدية في الأوزان تلك التي نهض بها عدد من شباب المدرسة الرومنسية كالفقي ، وقنديل ، والشِّبْل ، وغادة الصحراء . فقد طرحوا البيت الشعري التقليدي ، واتجهوا إلى الاعتماد على التفعيلة المستقلة في السطر الشعري ، وكانوا مرة يقصرون السطر على تفعيلة وتارة على أكثر من واحدة ، ولكنهم ظلوا مخلصين للموسيقى ، وللجَرْس المنغوم في السطر الشعري . فالقنديل في ديوانه الأخير « نار » حَطّم البيت العروضي التام والمجزوء ، وصاغ شعره فيه على المبدإ الجديد . وممّا جاء على هذا الأسلوب .

١ — ماذا أقول ؟

---

١ وحي الصحراء : ص ٣٠٢ .

وقد يمزج شاعر آخر أسلوب الموشح بأسلوب القصيدة التقليدية فينظم عدداً من الأبيات على قافية واحدة ، ثم يأتي ببيت مستقل تختلف قافيته عن الأبيات التي سبقته ، بعده يعود الشاعر في أبيات عدة إلى قافية جديدة موحدة ؛ ثم يأتي ببيت واحد تتحد قافيته مع البيت المفرد الذي سبق الأبيات . ونضرب على ذلك مثلاً من شعر محمد هاشم رشيد في مقطوعته المسماة « أنا وابني والعيد »[1] .

قال لي طه . وطه يا أخي القارئ ابني
عمره خمس سنين وشهور أربعـــة
عاشها وهو قرير في أمان ودعة
مثل أطفال بلادي لم يكافح زوبعة
أو يفتح جفنه الغـــا في لهيب المعمعـــة
عمره خمس سنين . عاشها وهو يغني

مستهاماً بالدمى الحلو ة بالزهر النضير
بالصواريخ — صواريـ خ بلادي بالعطور
بمرائي العيد بالأفـ راح .. بالثوب الحريري
وبأشياء سواهـــا تستبي كل صغير
فهو طفل كل دنياه . . ابتهاج وتمنّ

وتمضي القصيدة جميعها على هذا الطراز الموسيقي ، ولولا طولها لأدرجناها في سلك الموشحات . ويبقى هذا اللون من النظم قليلاً .

ومن الشعراء من لم يلتزم القافية الواحدة في القصيدة مع التزام البحر الواحد وتذييل كل بيت بتفعيلة ليضيف لحناً إلى ألحانها ، كما فعل الشاعر

1 المنهل : ٨٨٩/٢٧ .

بعض لتشكل بناء كاملاً .

أما الأوزان في الشعر السعودي فإن أول ظاهرة تطالعنا هي محافظة هذا الشعر على أوزان الخليل المعروفة . وتكاد هذه المحافظة تعم تِسْعَة أعشار الشعر المعاصر على اختلاف مدارسه ، واتجاهاته ، وموضوعاته .

وثمة قصائد قليلة آثر فيها أصحابها النظم على نمط الموشح ، أو المخمس ، أو نحوهما من الأنماط التي تحافظ على وحدة الوزن ، وتسمح بتنويع القافية .

وقد يكون الشعراء الشباب أسبق من الشعراء الشيوخ إلى ركوب هذا المَهْيَع في النظم ، وأكثر تقبلاً له ، ورضًى عنه من الذين سبقوهم ، بل ربما فضلوا النظم به — ولا سيما في معاني الغزل — على النظم وفق الأبحر التقليدية لما فيه من موسيقى وخفة ورشاقة .

فهذا عبد الله بن إدريس في قصيدته « سلوان » ينزع إلى نمط الموشح فيقول[1] :

يا سارق الأحلام من بين جفنيّا
وزارع الأسقام من نبع عينيّا
طف بي مع الأنسام في الروض والزهر
لعلني أسلو

رجّعْ أغانينا في سكرة الروح
واندب أمانينا بلحن مجروح
واذكر مغانينا في هدأةِ الفجر
آهٍ .. متى أسلو

ومثل ابن إدريس كثيرون أولعوا بالموشح .

١ شعراء نجد : ص ٢٩٢ .

على نفسه وثيقة أبدية . وإن أهدت له شيئاً ما ـ صَغُر أو كَبُر ـ وجد فيه معنى الحياة ، وجمال الوجود ، وروعة الذكرى .

إذا ما انتقلنا إلى بنية القصيدة السعودية موسيقياً وشكلياً طالعتنا أشكال مختلفة من الأوزان والقوافي . فالشاعر اليوم ليس ملتزماً أن يخلص لقافية واحدة من مطلع القصيدة إلى منتهاها . بل كثيراً ما يلجأ إلى التلوين والتنويع ، فقد يجعلها على شكل سباعيات ، أو خماسيات ، أو رباعيات ، أو مزدوجات ـ كما في قصيدة « اذكريني » ـ . لكنه يظل وفياً للوزن الموحد .

وأمر آخر نحسه في الإنتاج الشعري الحديث هو عزوف الشاعر عن الاعتماد على الصور البالية ، والعبارات المعادة ، والفِكَر المتداولة عند الأسلاف ، وتفضيله المعاني الجديدة البراقة ، والصور المتلألئة ، وإن كانت في بعض الأحيان بعيدة عن بيئته ، وجوّه العام الذي يعيش فيه .

ولقد يكون شعراء النزعة التقليدية في أفكارهم وصورهم أقرب إلى بيئة الجزيرة العربية من شعراء المدرسة الرومنسية ، وأصدق تعبيراً بالرغم من وجود معان كثيرة بعيدة عن جزيرة العصر الحديث . ويبقى شعراء كلا المدرستين التقليدية والرومنسية في خط مشتّرك من حيث اعتمادهم على وحدة البيت ، والتفريط بوحدة القصيدة .

صحيح أن وحدة الموضوع في الشعر السعودي ـ عامة ـ متوفرة إلى حد كبير ، إذ يلتزم الشاعر بالفكرة الرئيسية التي يطرقها ، ولا يخلخلها إلاّ بالحكمة ـ في غالب الأحوال ـ لكن الوحدة العضوية للقصيدة ـ وهي شيء يختلف عن وحدة الموضوع ـ لا وجود لها في جل القصائد السعودية . ذلك أن كل بيت عالم مستقل بذاته ، لا يحتاج إلى ما قبله أو إلى ما بعده في بعض الأحيان ويبدو أن هذا المفهوم سائد في أذهان الشعراء جميعاً ، وكأنهم يظنون أن القصيدة مجموعة من الأحجار ينحت كل منها على انفراد ، ثم يضم بعضها إلى

وفي أبيات تالية تبدو ظلال نرجسية الشاعر ، إذ يصف نفسه بالحسن ، وبالرجولة ، وبالخلق الرفيع ، والحنان ، ورفعة قدره بين الناس ، ويكفي الحبيبة فخراً أنه أحبها ، وامتلكت قلبه .

أنت لو أنك يوماً تفخرين كان من فخرك قلبي ورضاه

وهو روح عبقريّ مثلما كان حسن المعشوقة في الناس عبقرياً :

أنا روح عبقريّ الألم مثلما حسنك فينا عبقريّ

ولعل أثر المدرسة الرومنسية يظهر — أكثر ما يظهر — في كتابة عهد الحب والوفاء بالدم بدل المداد . ولطالما عبّر الرومنسيون الغربيون والشرقيون عن مثل هذه الفكرة . ولا شك أن شاعرنا يخطو على سنتهم ، ويدور في فلكهم .

هاكِ عهداً من يراعي بدمي كُتبت أحرفه أنّي الشجي

والخلاصة ، إن في هذه القصيدة — كما في معظم قصائد الديوان — اختلافاً ملحوظاً في لون المعاني والفِكَر التي صارت تنطوي عليها قصائد كثيرة من الشعراء الشباب . وهنا تبدو الفروق كبيرة بين معاني القدماء وصورهم ومعاني المحدثين وصورهم . فالمرأة — اليوم — جسم وروح ، يحسها الشاعر في نفح الندى ، ولفح الهاجرة ، يجد فيها النقيضين : الرقة المتناهية ، والعنف المحرق ، كما يجد فيها اللحن الساجي ، والشذا الذي يملأ الروح عبيراً :

إنّني أهواك لحناً ساجيا وشذا يملأ روحي بالعبير

وتشبيه الفتاة بمَلَكٍ من ملائكة السماء فيه قليل من طرافة وبعض من جدّة . كذلك فالعاشق إنسان جديد ، يختلف عن الإنسان القديم في نظرته إلى المرأة ، وتقديره إياها . فإذا ما عبر اليوم عن مشاعره كتبها بدمائه ، وسجلها

فإذا ما تحدث عن نفسه – وما أكثر ما تحدث – ذكر أنه « يلقاها في جنح الدجى ، مثلما يلقاها في ضوء النهار . يلقاها جسماً فاتناً ، مثلما يلقاها روحاً أكثر فتنة . ولقد يحسب قلبه خائناً إن رأى في غير عينيها المنى . يلقاها في نفح الندى ، وفي لفح الهجير ، ويطربه صداها كما يسكره عبيرها . يؤكد لها أنه لا يرى في دنياه إلاّ إياها حتى لو أقصته عنها فسمادير الخيال تكفيه ويقنع بها . إنه لا يريد إلاّ ما تلهمه عيونها . وبحسبه شجونه التي لا محيد له عنها ، فهو يقتات بالشجن ، ولا يشكو النوى ، ولا يألم من الجوى ، بل كيف يشكو أو يألم وقد كانت له فردوساً وجحيماً .

وينتقل الشاعر إلى فكرة طريفة . يطلب منها أن تذكره بين أطفال صغار ، وقرين لم تخنه وفاء . ونحن نتخيل أو نتوهم أن هذه الفتاة قد تكون زوجاً لغيره ، وأما لأطفال صغار – غير أطفاله طبعاً . وهو – رغم ارتباطها بغيره – يحمل لها تلك المشاعر الحارة كما تحمل له المشاعر الودية . ودلنا على مشاعرها هديتها الصغيرة له . فلقد أهدته خماراً كانت تلف به رأسها ، وتلم به شعرها ، قدمته إليه معطّراً ، وتسلّمه منها . والشاعر يخبرها بأنه يلقيه على وجهه حين يدجو الليل ، فينشق من سداه ولحمته عَبَق المسك ، وطيب الشذا ، بل إنه يراه مقدساً أثيراً – رغم كونه نسيجاً ، والنسيج لا يقدس – لأنه من روحها ، ولأن أنفاسها امتزجت فيه فأرّجته .

اذكريني بين أطفال صغار	وقرين . لم تخونيه وفـاء
أنت لا تدرين ما يدري الخمار	حين ألقيه على وجهي مساء
إنّني أنشق مـن لحمتـه	وسُداه عبق المسك الفتيت
ولقد ضاعف من حُظْوته	أنه لَمَّ من الشَّعر الفتيت
إنّه منك فمـا أقـدسَه	أثراً عندي وإن كان نسيجا
هو من روحك ما أنفسه	حينما يملأ أنفاسي أريجـا

شعر كثيرين ممّن ضمته المجموعات العامة أو نشرته الصحف كشعر محمد عمر عرب ، ومحمد سعيد العامودي ، وعبد الوهاب آشي ، وحمزة شحاته ، وضياء الدين رجب ، وحسين سراج ، وحامد الدمنهوري ، وعبد العزيز الرفاعي ، واللواء علي زين العابدين ، ومحمد السليمان الشبل ، ومحمد سعيد المسلم ، وعبد رب الرسول الجشي ، وحمد الحجي ، وإبراهيم الدامغ ، وسعد أبي معطي ، وعبد الله الصالح العثيمين ، وعلي حسن غسال ، وعثمان بن سيار :

* * *

عنوان القصيدة الأنموذج « اذكريني »[1] . جاءت في ديوان محمد حسن فقي « قدر ورجل » الرابعة والعشرين . وقد ألحقت بالمجموعة المسماة بـ « حبي ».
عدد أبيات « اذكريني » ثلاثة وأربعون .

ومضمون القصيدة يمكن أن يُستوحى من عنوانها ، فهي نفحة عاطفية هبت من جوانب القلب ، لا تحمل الشحنة المنطقية أو العقلية بقدر ما تسيل فيها المشاعر الوجدانية والأحلام والخيال .

استهل الشاعر قصيدته بقوله :

اذكريني كلّما الليل سجا ... واذكريني كلما الصبح استنار
إنني ألقاك في جنح الدجى ... مثلما ألقاك في ضوء النهار
إنني ألقاك في نفح النـدى ... مثلما ألقاك في لفح الهجير
ولقـد يطربني منك الصدى ... ولقد يسكرني منك العبير

وتنساب المعاني العاطفية في مجموع الأبيات ، وتقتصر على التردد بين قطبين ليس غير . بينه وبين « تلك التي أسعدته حيناً من الدهر ، « س » الفاتنة الخالدة في الفكر والشعور » — كما ذكر في مقدمة القصيدة — .

---

١ قدر ورجل : ص ٢٣١ .

جاء على صورة رباعيات ، أو خماسيات أو سباعيات ، أو دوبيت .

وأمر آخر دعا إلى الاختيار أن الشاعر يمثل فئة كبيرة من شعراء المملكة ، تميزت بثقافتها الحديثة أكثر من ثقافتها القديمة ، وتأثرت بالمدارس الشعرية المعاصرة وظهرت بصمات هذا التأثير في شعرها أوضح ممّا ظهرت في شعراء الطبقة السالفة التي تحدثنا عنها ورأينا نموذجها في قصيدة فؤاد شاكر .

يمكننا أن نضع في صفّ محمد حسن فقي عدداً من الشعراء يسيرون على الخط ذاته – بوجه عام – ولا يختلفون إلاّ في طريقة إبراز الموضوع وصبغه ببعض الألوان الخاصة التي يميل إليها كل شاعر وفق مزاجه وهواه وخصائصه الذاتية . من هذا الفريق :

الأمير عبد الله الفيصل في ديوانه « وحي الحرمان » . وأحمد قنديل في « أغاريد » و « أصداء » و « الأبراج » و « نار » . وماجد الحسيني في « حيرة » . ومحمد فهد العيسى في « على مشارف الطريق » و « ليديا » . وحسن القرشي في « مواكب الذكريات » ، و « الأمس الضائع » ، و « سوزان » و « لن يضيع الغد » ، و « بحيرة العطش » ، و « نداء الدماء » ، و « النغم الظامئ » . وطاهر الزمخشري في « عودة الغريب » ، و « أحلام » الربيع ، و « همسات » ، و « أصداء الرابية » ، و « أغاريد الصحراء » ، و « على الضفاف » ، و « ألحان مغترب » . وسعد البواردي في « ذرات في الأفق » ، و « لقطات ملوّنة » و « أغنية العودة » ، و « صفارة الإنذار » . ومحمد إبراهيم جدع في « وحي الشاطئ » . ومحمد حسن عواد في « آماس وأطلاس » ، و « رؤى أبولون » و « البراعم » ، و « نحو كيان جديد » ، و « في الأفق الملتهب » . ومحمود عارف في « المزامير » و « إبراهيم هاشم فلالي في « ألحاني » ، و « صدى الألحان » . وعبد الغني قُستّي في « أحزان قلب » . وأحمد عبد الغفور العطار في « الهوى والشباب » . وأحمد جمّال في « الطلائع » . وفي

بـ « العرين » صورة قديمة بليت من شدة الاستعمال ، والعرب بـ « الليوث » كذلك . وتشبيه المستعمر بـ « الحيوان ذي الأنياب والجشع إلى الفريسة » جار في كثير من الشعر القديم ، وما أشهر بيت أبي ذؤيب الذي شبه « المنية بالوحش الذي ينشب أظفاره في فريسة فلا تنفع بعد ذلك تميمة » . كذلك الدعاء على انكلترا بـ « عدم السقيا » ، و « مناشدتها الله » ، و « صلات القربى والأرحام » ، و « الحسام العضب المشوق الذي يشفي من في رأسه حمق » : أمور جرى عليها الأسلاف ، واجترّها من جاء بعدهم حتى لم يبق لها بهاء أو رواء .

والاختلاف : هو في البداية التي طرقت الموضوع مباشرة أو غير مباشرة ، وفي تعرض الشاعر لقضايا أمته ، ودفاعه عنها ، وهجومه على أعدائها ، وحض الشعب على الثورة ضد المعتدين ، وتوجيهه الحديث إلى المواطنين . وقد كان الشاعر السابق – ابن عثيمين – يوجهه إلى سيده الحاكم . وتبقى هذه التجديدات محدودة كما يبقى أصحاب هذه القصائد معدودين في حساب المدرسة التقليدية .

* * *

أما قصيدة المدرسة الرومنسية فيمكن أن نقتطفها من ديوان « قدر ورجل » لمحمد حسن فقي .

والداعي إلى هذا الاختيار أن الديوان مطبوع حديثاً وفيه أربع وخمسون قصيدة ، تراوح عدد أبيات القصيدة بين ثلاثة وثلاثين ومائة وعشرة أبيات ، كما تلونت موضوعاتها . فكانت تسع قصائد في « أغوار النفس » ، وسبع في « العروبة والإسلام » ، وثلاث في « أمم وشعوب » ، وإحدى عشرة في « حب الشاعر » ، وثلاث عشرة في « موكب الحياة » ، وخمس في « المراثي » ، وست قصائد في « التأملات » . كذلك فقد كانت القصائد بين موزونة محافظة على الأبحر العروضية التقليدية ومتحررة من قيود الوزن والقافية ، كما أن من القصائد ما جاء على صورة القصيدة الموروثة ومنها ما

الشاعر أن ابتدأ فيه من جديد بفعل أمر .

قل للبغـــاة : تطلّعتم إلى فلكٍ النجم أدنى إليكم منه في الحُلُم

ثم طفق يهجو المعتدين — دون أن يسميهم أو يعرّف جنسيتهم — وكان ممّا رماهم به: وصف دولتهم بالعجوز الشمطاء، في أنيابها الجشع إلى الفريسة، وشيّب الدهر فَوْدَيْها ، وولّى زمانُها ، ودعا عليها بألاّ تسقى ديارها بالغيث . ثم انتقل إلى سؤال هذه الدولة الباغية عن الذين جعلوها وصية على الأمم ، وسألها عن كُنْهِ عاطفة الخير التي تصطنعها لتوقع دولاً بريئة بين براثنها في صورة حماية أو وصاية ، كما سألها عن صلتها بالبريمي وأهله ، وعلاقتها به ، وليس لها — في حقيقة الأمر — قربى فيه أو صلات أرحام .

والشيء الذي قلناه عن الرابطة بين الفكرة الأولى والثانية نقوله عن الثانية مع الثالثة . لكن هذه الفكرة الثالثة لم تبدأ بالأمر ، إنما جاءت الجملة الخبرية المؤكدة في مطلعها :

الرأي عندي — وفيه الخير لا جَرَمٌ وعنده تتلاقى صفوة الحكم

ولم تطل الخاتمة ، وإنما اقتصرت على أربعة أبيات .

بين قصيدة ابن عثيمين — السابقة — وقصيدة فؤاد شاكر اتفاق واختلاف .

فالاتفاق : يبدو في وجوه عدة ، منها التصريع في البيت الأول ، والمحافظة على الوزن الواحد التقليدي ، والقافية الموحدة في الأبيات جميعها ، واغتراف الفِكَر والأخيلة والصور من مَعين القدماء ، بل الاعتماد عليهم في كل شاردة وواردة . فتشبيه الأحداث بالليل قريب من تشبيه « الجيش بجنح الليل » عند بشار بن برد . والحكمة قريبة من حكمة المتلمّس ، وتشبيه الماضي والحاضر بـ « هالة المجد » مكرور في معظم قصائد الفخر . وتصوير الأرض العربية

عنوان القصيدة الأنموذج « غضبة الحق للبريمي » [1] وتاريخ نظمها يعود إلى سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م يوم احتلت انكلترا بقوة السلاح واحة البريمي ، واشتبكت مع الحامية السعودية ، وقتلت بعض أفرادها ، وناصبت المملكة العربية السعودية العداء .

عدد أبياتها سبعة وعشرون . جاءت مقسمة على فِكَر ثلاث : الأولى – في عشرة أبيات – فيها يحض الشاعر قومه على الثورة، والنهوض . والثانية – في ثلاثة عشر بيتاً – يهجو الإنكليز ، ويصفهم بالبغي ، والجشع ، والشيخوخة ويطالبهم بالرحيل . والثالثة – في أربعة أبيات – يقترح لحل المشكلة أحد حلين : إما أن يرحل المعتدون على طيب خاطر ، وإما أن يقبلوا بحكم السيف العربي .

بدأت القصيدة بدءاً مباشراً بالموضوع ، وانطلق الشاعر مفتتحاً كلامه بفعل أمر ، وتنبيه الغافلين ، ووصف الخطب العظيم .

انهضْ – فديتك – فالأحداث لم تنم كأنّها الليل في داجٍ من الظلم

ثم تدرج بحكمة وتؤدة إلى الفخر بالعرب ، وما لهم من أمجاد يعتز بها الحاضر ويفخر بها الماضي . وذكر أن الذين يستكينون أمام الأحداث ويصبرون على الذل ليسوا هم العرب ، بل البهائم والأنعام .

لا يستنيمُ إلى عسف ومظلمةٍ غير الأذلّين من عَيْر ومن بَهَم
إنّا وإنْ لان منا جانب كرماً فالعنف في موضع ضرب من الكرم

ومثل هذه الحكم نطق بها يوماً المتلمِّس، ثم كررها المئون من الشعراء بعده .

أما القسم الثاني فقد كان الرابط بينه وبين سابقه رقيقاً ، كل ما صنعه

---

١ وحي الفؤاد : ص ١٥٠ .

والوزراء ، والأعيان ، وعرف كبار الشخصيات السعودية والعربية ، وعاصر الأحداث المختلفة التي مرت بالبلاد ، ويسرت له ظروفه أن يكون على صلة طيبة بشعراء مصر ، وعلى رأسهم أحمد شوقي ، وبشعراء العالم العربي ، كما سهلت له وظيفته أن يطوف بأرجاء المملكة ، والعالم العربي ، ويكون على اتصال مباشر بالتيارات الفكرية والسياسية في قلب المملكة وفي خارجها .

حياة الشاعر — إذاً — مليئة ، مفعمة بالمؤثرات المختلفة . ولهذا فدراسة إحدى قصائده قد تنير أمامنا السبيل للتعرف على بنية قصيدة سعودية تختلف عن بنية قصيدة ابن عثيمين .

ولا شك أن لفؤاد شاكر كثيراً من الأشباه ينهجون نهجه ، وإن تفاوتوا ، كلّ بحسب ظروفه وبيئته ، ومستوى دراسته .

في ديوان الشاعر مائتان وخمسون قصيدة ، تراوحت الواحدة منها بين خمسة أبيات وخمسين بيتاً . وامتد نظمها ما يقرب من أربعين سنة ، وبالتحديد بين ١٣٤٩ و ١٣٨٧ هـ / ١٩٣٠ و ١٩٦٧ م . واختلفت موضوعاتها باختلاف الظروف ومتطلبات الأحوال . وفي إحصاء سريع وجدنا ثمانين قصيدة في المديح ، وخمس عشرة في الرثاء ، وخمساً في الغزل ، وعشراً في الدين ، وثلاثين في الوصف ، وأربع عشرة في الإخوانيات ، وثماني وثلاثين في السياسة العربية والإسلامية ، وأربعين في خدمة المجتمع ، وعشرين متفرقات .

ونعتقد أن كثيراً من شعر الشاعر لم يضمّه الديوان ، وخاصة في الملك الراحل « سعود بن عبد العزيز » إذ ليس من المعقول أن يكون الشاعر مدح الملك عبد العزيز وابنه الملك فيصل ، والأسرة السعودية فرداً فرداً ، ولم ينس أن ينظم في المناسبات المختلفة كولادة أمير ، أو سفر آخر ، أو عودة ثالث من رحلة ، أو شفائه من مرض ، أو غير ذلك ، ويبقى الملك سعود وحده دون ذكر على لسان الشاعر .

ولكنه قد ينقص كثيراً عما ابتدعوه . . وما أشبهه بالآلة المسجلة على الرغم من الفارق الكبير بين الأصل والفرع .

مع كل هذا ؛ فإنه يبقى لابن عثيمين فضل تقليد الفحول القدماء بدلاً من تقليد الضعفاء الذين ولع بهم معاصروه .

ومثال الطائفة الثانية من النزعة التقليدية الحديثة — ونعني بها الفئة التي حافظت على الديباجة العربية ، وخاضت في موضوعات جديدة — نجده في قصائد الشاعر فؤاد شاكر .

أما سبب اختيار هذا الشاعر دون غيره فيعود إلى عوامل عدة . منها أن الشاعر مخضرم ، عاش عهداً من حياته في أيام المملكة الهاشمية ، والعهد الآخر في ظل المملكة العربية السعودية . ذلك أنه ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م ، ودرس في المدارس الرشدية ثم في المسجد الحرام ، وأكمل تحصيله في القاهرة إذ كان في عداد أول بعثة علمية سعودية إلى مصر سنة ١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م . فثقافته مزيج من الثقافة القديمة ، ومن العصرية المتطورة .

كذلك فقد تَنَوَّعت أعمال الشاعر . عمل في رئاسة تحرير « أم القرى » سنة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م ، وكان قبلها رئيساً لتحرير « صوت الحجاز » ، كما عمل في التأليف الأدبي فأصدر سبعة عشر مؤلفاً بين صغير وكبير . من هذه المؤلفات : « صور الحياة » ، و « كيف تكون صحفياً » ، و « غزل الشعراء بين الحقيقة والخيال » ، و « أدب القرآن » ، و « تخليد ذكرى إنشاء السد السعودي » ، و « أحاديث الربيع » ، و « للوفاء والذكرى » ، و « رحلة الربيع » و « دليل المملكة العربية السعودية » ، و « حدائق وأزهار » ، و « رحلات في ميادين العمل والجهاد » ، و « أحاديث وخطب » ، و « سلسلة من أمجاد الثقافة العربية » ، و « ديوان وحي الفؤاد » .

وعمل في التشريفات الملكية ، فشهد احتفالات المملكة ، ومجالس الملوك ،

إن ما لاحظناه في هذه القصيدة حرص الشاعر الشديد على أن تكون مـدحته مخططة تخطيطاً منطقياً في مراحلها المختلفة ، وأن تبدو محكمة الترابط بين أجزائها المتعددة ، وأن تظهر بالمظهر اللائق، والشكل المقبول بين قصائد المديح الأخرى التي تنهال على عبد العزيز من كل صوب . ولقد تم للشاعر ما أراد ؛ حافظ في مستهل القصيدة على تصريع البيت الأول ، كما حافظ في الأبيات جميعها على القافية والرويّ والبحر الواحد جرياً على السنة المألوفة في تاريخ الشعر العربي .

وليس يعوزنا الدليل على عقلية ابن عثيمين المحافظة ، فالاستمساك بنهج القصيد كان في عهد ابن قتيبة لوناً من ألوان المحافظة ، فما بالنا بشاعرنا وهو ابن العصر الحديث ، وبينه وبين ابن قتيبة أحد عشر قرناً من عمر الزمان ؟

ولم تكن المحافظة لتقتصر على نهج القصيد وحده بل تعدتها إلى المحافظة على الألفاظ ، وشكل التراكيب ، وإيراد الصور ، وتخيّر التشبيهات ، إلى درجة أننا لو نسبنا هذه القصيدة إلى شاعر أموي ، أو عباسي لكان فيها كثير من الدلائل على تلك النسبة .

ما تغيرت — بعد ألف وخمسمائة سنة صورة المعشوقة . إنها هي بذاتها عند الأعشى ، والنابغة ، وزهير ، والجاهليين . وما تغير الممدوح — على امتداد القرون — . وما تغير الشاعر ، فقد بقي على حاجته ، وفقره ، وأمله بالممدوح أن يجبر كسره ، ويشد أزره ، ويرأب صدع حياته .

أما الذي تبدّل — مع توالي الزمان — فهو النبع الذي يستقي منه الشعراء أخيلتهم وصورهم . كان الشاعر القديم يفيض خياله — في الأعم الأغلب — من ذات نفسه ، ومن خوالج وجدانه ، ويصدر عن طبعه . أما شاعر اليوم — ونعني به ابن عثيمين وطبقته — فهو ربيب الثقافة ، والمتزود من زاد الأسلاف يقول ما قالوه ، وينهج النهج الذي سلكوه ، لا يزيد شيئاً عما أفاضوا به ،

قد كنت أحسَب أنّ الشمل ملتئم والحبلَ متصل والحيَّ خُلطان
فاليوم لا وصلَ أرجوه فيطمِعُني ولا يطيف بهذا القلب سُلوان
في ذمة الله جيران إذا ذكروا هاجت لذكرهم في القلب أشجان

واستغرقت هذه المقدمة ثلاثة عشر بيتاً . ثم مهّد لموضوعه الأصيل — وهو المديح — بستة أبيات . قال فيها : إنه فارق الأحبة ليمتري أخلاف سائمة يسوقها واسع المعروف ، لعل نفحة جود من مواهبه تخلق للشاعر جناحاً يطير به بعد أن حصّته الأقدار ، وتعاونت على سحقه أيام الزمان . وعلّل هذا التنقل والسفر من أرض الكرام آخذاً بنصيحة الحكماء الذين طالبوا بضرورة تنقل الرجل الكريم من أرض إلى أخرى ومن مكان إلى آخر لتظهر فيها مواهبه ، وتزداد معارفه ، وتكثر صلاته . ونحن نلمح في هذه التوطئة صدى لحكمة أبي تمام المشهورة « وطول مقام المرء في الحيّ مُخْلِق لديباجتَيْه . . . » وظل ينتقل من فكرة بعيدة عن موضوعه إلى فكرة أقرب فأقرب حتى دخل في غرضه الأصيل . ولهذا فقد كان في الدخول نفسه رفيقاً إذ بدأ يمدح الأسرة السعودية عامة في ستة أبيات ، ثم انتقل إلى تخصيص عبد العزيز من بينهم . وكان جد موفق في خطواته جميعاً :

لكنّ أوراهم زنْداً وأسمحهم كفّاً وأشجعهم إنْ جال أقران
عبد العزيز الذي نالت به شرفاً بنو نزار ، وعزّت منه قحطان

وطفق يصفه بالشجاعة ، والكرم ، والقوة ، والتقوى ، وحب الله له ، ونصره على أعدائه ، وغير ذلك من الصفات التي عرفها شعر المديح منذ غابر الأزمان . وقد استغرق الثناء على شخص عبد العزيز وحده ثلاثة وعشرين بيتاً ، ثم انثنى ببيتين فقط إلى شكوى دهره وانتهى في آخر القصيدة بالصلاة على الرسول الكريم .

الشعر السعودي وحرفت اتجاهه من اللحاق بركب عصر الضعف والانحطاط إلى اللحاق بركب الفحول من الشعراء القدماء. ولا شك أن لهذا الشاعر الفضل الأول في فتح باب النزعة التقليدية الجديدة في العصر الحديث ، رغم وجود النزعة التقليدية الصرفة في نتاجه الشعري .

وفي ديوانه المطبوع بدار المعارف بمصر أربعون قصيدة تقريباً . ثلاثون منها في الملك عبد العزيز آل سعود وابنه سعود ، والباقي في مدح «آل ثاني» ، وآل خليفة ، وفي رثاء من تُوفي منهم ، وقصيدة في الحض على التقوى . وتراوحت أبيات القصيدة الواحدة في الديوان بين الواحد والثلاثين والسبعة والسبعين بيتاً .

ونعتقد – واثقين – أن كثيراً من شعر هذا الشاعر قد ضاع أو أتلف ، إذ ليس من الطبيعي أن يكون تاريخ القصيدة الأولى سنة ١٣٣٩ هـ / ١٩٢٠ م أي أنّ عمره كان سبعين سنة أو يزيد حين نظمها .

مطلع القصيدة المختارة يبدأ بالشكل التالي :

عُجْ بي على الربع حيث الرَّنْدُ والبانُ   وإنْ نأى عنه أحباب وخِلاّن
فللمنازلِ في شرع الهوى سُنَن   يَدْري بها مَنْ له بالحب عِرفان[1]

وتاريخ نظمها سنة ١٣٣٩ هـ / ١٩٢٠ م . وعدد أبياتها ثلاثة وخمسون . ولقد درج فيها ابن عثيمين على منهج الشعراء الجاهليين ، حيث استهلها بالوقوف على الأطلال وتذكر الأحبة ، ووصف الفتاة الحبيبة تفصيلاً من مفرِق شعرها إلى أخمص رجلها دون أن يعرّج على أخلاقها وطباعها وهواها ؛ اللهم إلاّ ما تميزت به من قوة تأثير فيه حتى إنه ما كاد يسلوها رغم مرور الزمان ، وتباعد الأوطان :

---

١ الديوان : ص ٣٨ .

عشر والقرن العشرين – وبالتحديد بين سنة ١٢٦٠ و ١٣٦٣ هـ / ١٨٤٤ و ١٩٤٣ م . بمعنى أنه عاش مائة سنة تقريباً .

وفي حديث موجز عنه في فصل « الدعوة في الأدب » استعرضنا سجل حياته ، فشهدناه يتيماً في « حَوْطَةِ بني تميم » ، وعرفنا أن دراسته الأولى اقتصرت على كُتّاب القرية ، ثم تتلمذ لقاضي السَّلَمِيّة الشيخ الشاعر عبد الله الخَرْجي فمحمد بن مانع . وبعد ذلك تابع الدراسة مستقلاً .

ومن خلال شرح ابن عثيمين نفسه لإحدى قصائده [1] أدركنا أن هذا الإنسان امتاز من سواه بحب المطالعة ، والتعمق في دراسة أمّات المصادر العربية ، والدواوين الشعرية . فلقد استشهد أثناء الشرح بأقوال وأبيات من حماسة أبي تمام، والأغاني، وحياة الحيوان للدَّميري، ومقدمة ابن خلدون ، والعقد الفريد ، والقاموس المحيط ، كما أورد من الحوادث التاريخية أموراً لا يضمها كتاب واحد .

وإلى جانب هذه الثقافة الواسعة كانت للشاعر ثقافة اجتماعية وسياسية ودينية . فهو صديق حاكم قَطَر في زمانه الشيخ « قاسم بن ثاني » ، وصديق حكام البَحْرَين « آل خليفة » . وهو الشاعر الأكبر الذي سجّل انتصارات عبد العزيز آل سعود في قلب الجزيرة بقصائد كادت تكوّن معظم قصائد ديوانه المطبوع .

أما ثقافته الدينية فتبدو بوضوح في ثنايا قصائده المختلفة ، مدحاً كانت أو رثاء ، أو في موضوع الدين وعقيدة ابن عبد الوهاب نفسها ، وفي القصائد المتبادلة بينه وبين سليمان بن سَحْمان رجل العقيدة وحامي حماها أمام الشعراء الخصوم .

لذلك فاختيار قصيدة لابن عثيمين يوقفنا على مرحلة جديدة طرأت على

١ ونعني بها قصيدته التي مطلعها « عج بي على الركب حيث الرند والبان » في ديوانه : ص ٣٨ .

الفصل الرابع

نهج القصيدة السعودية

ننتقل الآن إلى دراسة نهج القصيدة السعودية من حيث عدد أبياتها والرابطة بين البيت وأخيه ، واقتصارها على موضوع واحد ، أو تعدد الموضوعات فيها ، ومحافظتها على وزن موحد ، أو تنقلها من وزن إلى آخر ، وتقيّدها بقافية أو عدم تقيدها ، وما إذا تطورت — مسايرة القصيدة غير السعودية — أو لم تتطور ، والعوامل التي تدفع بها إلى التجديد أو إلى الجمود ، والموضوعات التي يكون فيها التقليد أو التجديد، والأشخاص الذين يمثلون هذه الفئة أو تلك .

ويتراءى لنا أن دراسة قصيدة واحدة لكل من ممثلي المدرسة التقليدية الحديثة ، والمدرسة الرومنسية ، كفيلة بأن تحيط بدراسة بنية القصيدة السعودية وتعرّف على كافة النواحي المسؤول عنها ، وتعطي فكرة واضحة عن كثير من تلك الاستفهامات .

أما التيار التقليدي الحديث فقد سبق أن قسمناه طائفتين :

الأولى : اقتصر أصحابها على إحياء الديباجة القديمة المشرقة يضمنونها فنون الشعر المعروفة . ومثّلنا عليها بابن عُثيمين وآخرين .

والثانية : أحيا أصحابها تلك الديباجة . وألمّوا بفنون الشعر التقليدية ، ثم أضافوا إلى ذلك موضوعات عصرية ، أو أفكاراً باقية ، فكانوا لذلك أرقى مكانة من سابقيهم . ومثّلنا عليها بفؤاد شاكر وآخرين .

وسنحاول أن ندرس لكلّ من الممثلين قصيدة واحدة .

فابن عثيمين عاش بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين — التاسع

عبقَريّ من النّغَم رجعُه الحبُّ والألم
نبعــه قلبُ شاعر شارفَ النور في القمم
ناح قيثــارُه الشّجيّ بمـــا رقّ وانسجم
وعـــلى خـــده جرت عبرات من النّدَم[1]

فنجد صورة « الشاعر » عند ماجد الحسيني تكاد تكون صورة سلفه المصري . قال ماجد :

هام بالروض والزهر والنسيمات والسَّحَر
وإذا أقبل الظلا م على الكون فانستر
راح للبدر والنجو م تناديه للسّمر
وحَنَى فوق عوده يبعث الشجوَ في وتر
دغدغت صوته الحنو نَ وهاجت له عِبر[2]

فالشاعر في كل من القصيدتين محب ، ومتألم ، عبقري يسهر الليالي ، يناجي السماء وما فيها ، وينحني على قيثاره أو على عوده ، فينوح بأعذب الألحان ويبكي . لكنْ تبقى صورة الأستاذ غير صورة التلميذ فناً وإبداعاً .

وأخيراً ، فمن العدل أن نقول : إن الشاعر السعودي لم يجمد على اقتباس صور القدماء ، أو رسم صور البيئة ، ولم يكتف بترسم المحدثين من زملائه العرب ، بل كان يمزج القديم بالحديث ، ويضيف إليها ألواناً محلية مناسبة . فنجح إلى حد مقبول . وكان يحلق تارة ويبدع ، وأخرى يقلد ويلتمس قبسات من الأجداد فهو بين مدّ وجزْر . لكنه لم يستطع – في الغالب – أن يبقى في مستوى واحد من التقليد والإبداع في قصيدة واحدة .

١ ديوان « زهر وخمر » : ص ٥٦ .
٢ ديوان « حيرة » : ص ٢٧ .

التقليدية المتوارثة عن القدماء ، والعصور السحيقة . ويتميز أصحابها بحداثة سنهم النسبية ، وشدة تفاعلهم مع الآداب الحديثة . ولقد سبق أن بينّا أن فئة من الشعراء السعوديين آثرت أن تسير على خطى المدرسة الرومنسية العربية وقد تم لها ذلك ، ثم نجحت في شق طريق جديد للشعر السعودي نجاحاً ملحوظاً ، وكان بينها وبين المصدر الذي ترسمه سمات مشتركة ، وصفات متشابهة . وما كان أشبه الشعر السعودي والشعر الرومنسي العربي بالأم وابنتها ، أو بالأب وابنه ، فالجوهر واحد ، والدم واحد ، والملامح جد متقاربة .

وحين نأخذ قصيدة لشاعر عربي في موضوع معين ونقرنها بقصيدة في الموضوع نفسه لشاعر سعودي نَجِدُ صلة نسب وقربى بين القصيدتين ولا سيما إذا كان كل من الشاعرين من مدرسة واحدة .

هذا عمر أبو ريشة يخاطب فتاته فيقول :

لا تُغَنّي فإنّ حشرجَةَ الميْت ... وجهش النعاة في مَسْمَعَيّا
أتُغَنّين ذكرياتي وكانت ... كوثراً في فم الزمان شهيّا
أسمعيني على أنينِ الأماني ... من عِثار الشباب لحناً شجيّا [1]

ونحس أن روح الشاعر انتقلت إلى القرشي في قصيدته :

أيقظيني فقد جهلتُ مكاني ... واغمري خاطري بعطر الأماني
واسكبي في مسامع النفس نجوى ... عذبةَ السِّحْر ثرةً بالمعاني
لا تنثّي عليّ أسطورة الما ... ضي وهاتي خوالجَ الوجدان
وذريني أريق في مسمع الرو ... ض أغاريد حاضرٍ فَيْنان [2]

وهذا علي محمود طه يصف « الشاعر » فيقول :

---

١ الديوان : ص ٢١٦ .
٢ مواكب الذكريات : ص ٣٦ .

داس العرينَ وحوشٌ جدُّ ضاريـــة   فأنشبتْ ظفرَها والنابَ في العرب [1]

والأمر نفسه يقال عن بيئة عسير أو الأحساء . ويرد على الخاطر سؤال : هل يمكن بهذه الصور المحلية تمييز شعر حجازي من نجدي؟ أو شرقي من شمالي في قلب جزيرة العرب ما دامت القصائد تحمل صور البيئة الخاصة ؟ أو على الأقل هل يمكن التمييز من خلال هذه الملامح المحلية تمييز الشعر السعودي من غير السعودي؟

يخيل إلينا أن الإجابة عن هذا التساؤل بالإيجاب فيها كثير من الاندفاع والثقة ، وبالسلب ،فيها كثير من التجنّي والغَمْط . ذلك أن بعض القصائد التي تطرق موضوعات الوصف ، والغزل ، والتأمل ، والنجوى قد تساعدنا على اكتشاف هويتها دون أن نعرف قبلاً شخصية صاحبها . وأن قصائد أخرى كالمديح والفخر وموضوعات السياسة والاجتماع قد تحبط مسعانا ، فلا تهدينا إلى شخصية صاحبها ، أو إلى البيئة الصادرة عنها ؛ لأنها في الغالب تشترك في صفات تتشابه وصفات قصائد غير سعودية في ملامح كثيرة . ومن جهة أخرى فإن هناك بعض الشعراء يميلون بوعي أو دون وعي إلى طبع صورهم بطوابع البيئة التي يعيشون فيها ، كما أن هناك فريقاً آخر تختفي شخصياتهم ، ومن ثمَّ تختفي صور بيئاتهم في أبيات قصائدهم ، أو تذوب في التأثرات التي غرقوا بها . ولا نغالي إذا قلنا : إن كثيراً من الشعر السعودي يبدو كأنه لشاعر مصري أو سوري أو لبناني ، وما ذلك إلاّ من شدة التقمص والتأثر والذوبان .

بقي أن نقول : إن صوراً كثيرة تتراءى في الشعر السعودي ليست وليدة الذاكرة والمحفوظات . كما أنها ليست وليدة البيئة والمناخ ، وإنما هي أثر من آثار الأدب المهجري ، ومدرسة أبولو ، والشعراء العرب المعاصرين .

تتميز الصور الحديثة بنجاحها في الخروج من الإطار الحديدي للصورة

---

[1] شعراء نجد : ص ٢٩٤ .

والحفر مميزات الصحراء ، وجزء من بيئة نجد .

وهذا سعد البواردي يقف على الشاطئ ، ويناجي الأمواج – ومثله وقف لامارْتين على شاطئ البحيرة وناجاها – فتنتشر في نجواه صورة الرمال ، والغبار ، والمعارك ، والمطايا ، والسنام ، لكأنَّ الشاعر في الصحراء ، أو في معركة ، وليس أمام بحر :

يا بحر ما لك كالضجيعة تلطمُ وعلى غبار الذكريات تسلم
شاهدتُ كفَّك تارةً مهزومة تُطوى . وأخرى للرمال تسلم
وعلى سَنام الموج مركبةُ الفنا للعابرينَ مطيّة تتسلّم [1]

وعثمان بن سيّار يدعو الشباب إلى التعلم ، وينصحهم بمحاربة التخلف فتنطلق في دعوته صور الحُداة ، والأطلال ، وطبيعي أن هذه بعض معالم الصحراء في الزمن الحالي :

يا حُداة الفجر من مشرقــه أشرعوا الأقلام واحدوه نِزاها
فوق هذي الأرض منا أمة فَنِيَتْ إلاّ رسوماً تتباها [2]

وعبد الله بن إدريس يتحدث باسم المواطن الجزائري ، فيهيب بقومه إلى الكفاح ، ويصور عسف المستعمر وظلمه ، فتطغى على قصيدته صُور البيئة النجدية حيث القطيع والأنعام، والكرامة ، والشيم ، والصحراء ووحوشها :

لا دَرَّ درُّكم يا قومُ إنْ تَهِنوا عن الكفاح وعن تمزيق مغتصب
ضحّوا بكلّ نفيسٍ في كرامتكم بالنفس بالمال لا الأعراق والحَسَب

---

١ «ذرات في الأفق» : ص ٧٢ .
٢ شعراء نجد : ص ٢٣٠ .

فإلى الشاطئ للماء نُصلّي نتطهر
ونناجي الله بالتوبة في سرٍّ ومظهر [1]

وتلك صور لا تعدو بيئة الحجاز ، وأرض المقدسات . ومن المرجح أن البيئة الدينية ، والجو المسربل بالتقى هما اللذان أوْحيا بها .

وانطوى نجد على المروءات ، والفروسية ، والرمال ، والنخيل ، والسيوف والرماح ، والسراب ، والشمس الساطعة ، والليالي الرائعة . وهذه كلها تنسل في القصائد . شَعَرَ الشاعر بها أو لم يشعر ، وتظهر صوراً واضحة تدل على نفسها بنفسها أنها من بيئة نجد . فهذه « غادة الصحراء » تتحدث عن نفسها فتقول :

عُمْري كما الليل في الفِكَر
شارد على وامضٍ وحَرّ
حيث لا ندى . حيث لا شجر
بالهوى . ويا طيبه . كفر
عُمْري أنا الآل والضجر

* * *

ما الحرير والنهر من صُوَر
في الخباء ، ما الشمس ، ما القمر
سيف ! أنت بي أرأف الحفر
اقطعَنْ ولا يأمر البشر [2]

فالحر ، والآل ، والضجر ، والخباء ، والشمس ، والقمر ، والسيف

---

١ ديوان « حيرة » : ص ٩٩ .
٢ ديوان « شميم العرار » : ص ١٩ .

قنديل يناجي نفسه ، فتتسلل إلى نجواه صورة التائب ، المستغفر ، القابع بجوار الكعبة الشريفة يدعو الله ويسترحمه :

أقلقتِ مني ضميراً هاج مشتعلاً   يا ويلتاه إذا ما اهتزّ وارتعدا
فاستسمحيه وصَلّي الآن تائبة   واسترحمي ملكوت العفو خير هدى
واستغفري وهلمي عند كعبته   أمام عزته الكبرى نمدّ يدا[1]

وحسين سرحان – ابن مكة – يعاتب حبيباً على هجرانه ، فتكون الصورة الدينية مُتّكأه في العتاب والغزل :

أتتّقي اللهَ خوفاً ثمّ تقتلني   من يقتل النفس لا يخشى من الله[2]

وضياء الدين رجب – ابن المدينة المنورة – يناجي الطير فتكون النجوى حديثاً دينياً ، وتكون الطير بشيراً ونذيراً ، وتهيمن الصورة الشرعية والمحلية :

يا طير أنت بقية الإنسان في الدنيا الغَرور
يا طير أنت الفن أنت بشيرنا أنت النذير
يا طير عَزّ الوحي والإلهام وانطلق الصفير

وماجد الحسيني يهتف بمن أحب أن تَقْدُم معه إلى الشاطئ فالأمواج ليبكيا ، وليتطهرا ، وليصلّيا ، وليناجيا الله بالتوبة ، والاستغفار ، فالله صفوح وغفور :

يا منى النفس إلى الشط فقومي نتعفّر
ثمّ نَهْوي في حنايا اللّج نبكي نتطهر

---

١ وحي الصحراء : ص ١٢٦ .
٢ وحي الصحراء : ص ١٤٩ .

الذي صبت فيه . وهذا يقود إلى العقل وخمود جذوة الإبداع ، لأن العواطف والمشاعر متحولة متغيرة ، ولا يمكن أن تؤديها حق الأداء عبارات أو صور جاهزة ثابتة ، وأن التجربة ممعنة في الذاتية ، وليس بوسع العبارة التقليدية أن تطابقها . إن الانفعال ثورة . والثورة تجديد وشق لدروب غير مطروقة .

وربما كان هناك تعليل آخر لكثرة تقليد الصور القديمة في موضوعات خاصة كالمديح والفخر والهجاء والرثاء بل الإصلاح الاجتماعي والسياسي . ذلك أن الشاعر التقليدي الحديث في هذه المرحلة من حياة قومه حريص كل الحرص على الوعي الكامل ومحاسبة النفس الشديدة إبان نظمه ، فهو – غالباً – ما يجنح لتركيز صورته ، وتسليط نور ذهنه عليها ، ليجعلها جليّة مستقيمة محددة في إطار التطابق المنطقي ، وهو يريد – بكل ما ملكت مشاعره ، واختزنت خواطره – أن يستقصي جوانب الصورة ، ويوضح أبعادها ، ويظهر دقائقها . لهذا فهو مضطر أن يمتح من هذه الخزينة التي يحملها في قلبه وعقله ووجدانه . وكم تظهر الصورة – في كثير من الأحيان – كأنها صورة لأبي تمام ، أو زهير ، أو البحتري أو غيرهم . .

أضف إلى ذلك طبيعة الموضوع ذاته ، فالمدح ، والفخر والرثاء أمور استنفدت القول فيها ، ولم تعد تحتمل المزيد . فلا غرابة إذن أن يمدح أو يرثي الشاعر المعاصر ، فيبدو عليه التقليد في الصورة ، والتقليد في الفكرة ذاتها ويضيع على الغالب الأثر النفسي لمثل هذا الإنتاج .

ومن الطبيعي أن تكون الصورة الشعرية قد تأثرت في بعض الأحيان بالبيئة المحلية ، وانبثقت عنها . والجزيرة العربية متنوعة في أجوائها وربوعها وطبيعة أراضيها . وقد انطوى الحجاز على المقدسات الدينية ولا عجب إذاً أن نجد كثيرين من الشعراء أبناء الحجاز يتعرضون عن عمد أو عن غير عمد لتلك المقدسات فيذكرونها في أشعارهم ، ويرددونها في ثنايا أحاديثهم . هذا أحمد

كان ضئيلاً في القصيدة السعودية حتى الثلاثينات من هذا القرن . وقد يكون جَدْبُ الصور أو دورانها في فلك صور القدماء أوضح وأظهر في موضوعات الرثاء والمديح والفخر والهجاء منها في فنون أخرى كالغزل والوصف والتأمل .

وربما يكون تعليل هذا التقليد الكبير لصور القدماء كثرة ما اختزنه الشعراء من رواسمَ وصور عريقة . وهذا التعليل قد يكون صحيحاً إلى درجة كبيرة . ونحن لا نحمل على التقليد ، أو نذمّه ونحمل على أصحابه لأنه تقليد فحسب أو لأنه من القدماء فقط . ولا نستطيع أن نطلق القول في أن العبارة التقليدية ، أو الصورة القديمة لا تصلح بالضرورة لأسلوب هذا العصر ، ومن ثمّ لا تستحق الحياة . ذلك أن مقومات الفن بصورة عامة لا تخضع لهذا القانون خضوعاً مطلقاً ، وإلاّ وجب أن ينعدم التراث الفني منذ سالف عهود البشر ، وأن ينسخ كل عصر أدب العصر الذي سبقه . فالجديد ما لاءم النفس الإنسانية في كل زمان ومكان ، ومظاهر النشاط الإنساني ليست وليدة فرديته بقدر ما هي ناجمة عن الرواسب الاجتماعية في « لا شعوره » . وهذا يعني أن في أعماق الأديب قدْراً من الطاقة والتعبير ليس له ، وإنْ بدا أنه منه .

إن المرء لا يستطيع دائماً الانفلات التام من تأثير مجتمعه ، وإن الأديب لا يستطيع في كل شيء أن يخرج خروجاً تاماً عن العبارات والصور المتوارثة لأنها دخلت في رصيد فِكَرِه ، وغدت جزءاً من كيانه . على أنّ هذا لا يعني أننا نعفي الأديب من تبعات التجديد والابتكار ، ونرضى له أن يجتر ما سبق قوله . فالتجديد المطلق أمر متعذر المنال .

إن العبارات الجاهزة ، والصور المعادة التي تنبثق من الذاكرة قبل أن تنبع من حقيقة التجربة أشبه بالنقود التي يذهب برونقها كثرة الاستعمال . وإن الاعتماد المطلق على الزاد المتوارث ؛ واستعارة الصور من شعر الآخرين ، والاكتفاء بما تختزنه الذاكرة معناها : أن الصورة ثابتة وجامدة في القالب

وجهها كالبدر ، عبلة الروادف ، دقيقة الخصر ، تميل كعود الأراك وتهتز كغصن البان . وكأن أربعة عشرَ قرناً من عمر الزمان لم تفعل شيئاً في صورتها وأوصافها ، وبقي إلحاح الشاعر – كشأن أسلافه – على التشابيه العادية والصور الحسية .

وإذا اقتطفنا أبياتاً من قصيدة أخرى لشاعر آخر . ومن موضوع غير موضوع الغزل ، فإنّا سنرجع إلى النتيجة نفسها . هي التقليد ولا شيء غير ذلك . مثل هذا ما مدح به عبد العزيز بن حَمَد آل مبارك الأحسائي بعض إخوانه فقال :

لا يعشقون سوى المكارم والعلا ما منهمُ من لا تراه حليما
لا تملك الحَفَراتُ فضلَ حلومهم فهم الجبال الراسيات حلوما [1]

فعشق الممدوحين المعالي والمكارم ، وتصويرهم بصورة الحلماء ، وإضفاء سمات العقل وقوة الشخصية عليهم . بل تشبيههم بالجبال الراسيات أمور عرفها القدماء ، وأعادوها مراراً وتكراراً حتى بليت من كثرة الاستعمال إلى درجة أن أبا تمام وهو من أبناء القرن الثالث للهجرة – التاسع الميلادي – رفضها ، وصوّر ممدوحه بعكسها .

رقيقُ حواشي الحِلم لو أن حلمَه بكفَّيْكَ ما ماريْتَ في أنه بُرْدُ [2]

لكن الشاعر السعودي اليوم يعود إلى الصورة الأكثر قدماً من صورة أبي تمام ليجترها ، ويكررها ، ، ويهيلها على ممدوحيه .

والحق أن عنصر الإبداع في الصورة – وهي من أبرز مقومات الشعر –

١ شعراء هجر ص ٢٣٢ .
٢ الجرجاني ، أسرار البلاغة : ص ٨٦ .

الفصل الثالث

الصورة الفنية في الشعر السعودي

نتساءل الآن عن الصورة الشعرية الفنية ، ونتعرفها . كيف كانت قبل فجر النهضة الأدبية ، ثم كيف صارت بعده ؟ وهل كان من اليسير على الشعراء أن يبدعوا في هذا المضمار ، وإلى أي حد بلغوا في العهد الحاضر ؟

لا ريب أن صناعة الشعر ، وسائر فنون القول يُعْوِزها أول الأمر الاقتداء بالنوابغ والفحول ، واحتذاء نماذجهم ، والنسج على منوالهم . ولكن هذا الأمر ينبغي أن ينظر إليه من حيث أنه مرحلة فحسب ، وإلاّ بقي الشاعر يدور في فلك سواه ، وغابت شخصيته في غمار أساليب الآخرين .

ولقد سار الشعر السعودي في بواكير عهد النهضة سيرة تقليدية في العبارات والتراكيب – كما رأينا – وسرى التقليد إلى الصورة نفسها . فإذا ما قرأنا مطلع قصيدة لابن عثيمين كالتي يقول فيها :

لله أحْوَرُ ساجي الطرف مقتبلُ عذبُ اللَّمى لؤلؤيُّ الثغر فتانُ
عبلُ الروادف يندى جسمه ترفـاً ظامي الوشاح لطيف الروح جذلان
كأنّما البَدْر في لألاء غُرَّتـــه يا ليت يصحبُ ذاك الحسنَ إحسانُ
يهتز مثل اهتزاز الغصن رنّحــه سُكر الصِّبا فهو صاحي القد نشوان [1]

وجدنا فيها صور القدماء تعود على لسان ابن عثيمين . فالمرأة هي هي منذ عهد امرئ القيس إلى أيام ابن عثيمين . عذبة اللمى . لؤلؤية الأسنان ،

---

[1] ديوان « ابن عثيمين » : ص ٣٨ .

وفَلَكُ الشاعر فيه ائتلاف كما فيه اختلاف عن فَلَكِ « أبي ماضي » .

وإذا قلنا : إن الشاعر متأثر بفلسفة « دافيد هيوم »،أو نظريات « ديوي » أو « مذهب البراجماتزم » أو « أوغست كونت » ، أو « نيتشه »، أو «شوبنهاور » نجد صعوبة في إيجاد ما يؤكد هذا التأثير ، وما يبرهن على صحة ما نذهب إليه.

وإذا قلنا : إنه أخذ من « عمر الخيام » ، و « ابن سينا » ، و «الغزالي » و « المعري » ، والمفكرين المسلمين لَـمَا أعجزتنا القصائد التي تربط بين الفريقين .

وإذا قلنا : إنه تأثر « بإيليا أبي ماضي » ، و « نسيب عريضة » ، و « جبران » رأينا بين أيدينا شواهد من شعره تدلّ على ذلك .

وإذا قلنا : إنه حصيلة هذه التأثرات المختلفة ، وإنه كان كقَوْس قُزَح ، جمع أطيافه من هنا وهناك ؛ فكوّن هذا الشكل المنسجم الموفق ، كنّا أكثر صواباً . ومصداق ذلك أن هذا الإنسان ولوع بالمطالعة ، وتكاد غُرُفات دارته الفسيحة بجدة تغصّ بالكتب العربية والغربية . ويكاد الشاعر يكون رهين بيته أمام كتبه آناء الليل وأطراف النهار . وقد قال لي عن نفسه : أشترك مع شعوب العالم بالألم والأمل ، فالألم عالمي . وقال لي يصف نفسه : « أنا أحترق وأحترق ، وهذه القصائد دخان احتراقي . . أنا ألتذ بمنظر الحريق الذاتي ، فالحريق عالمي وناري ولذتي وحياتي [1] . ومثل الفقي كثيرٌ .

الخلاصة ، إن الشعر السعودي يتفاعل ومؤثرات عدّة . بعضها قديم يتصل بالأدب العربي العريق ، وبعضها حديث فيه ما جاء من الأقطار المجاورة ، وفيه ما عَبَرَ من خلف البحار ، وفيه الأجنبي قَدِم بلغته الأصلية ، أو مترجماً إلى اللغة التي يتحدثها أبناء البلاد .

---

١ زرت الشاعر مرتين في منزله بجدة – الكيلو خمسة – بتاريخ ٢٥ رمضان ١٣٨٧هـ/٢٦/ ١٢/١٩٦٧ وفي اليوم التالي . وقد سجلت هذه الكلمات خلال المقابلة ذاتها .

إن روحي تجيش بالحب للنـــا س، وتطوى بين الضلوع السلاما
هي لو تستطيع عـانقت الكو ن ومن فيه ، صبوة وغراما
جذبتهـــا إليه نزعة منهـو م إلى الحب ، ما تطيق الفطاما
تستفز الحيـاة للحب فالحـ ب ربيـع ينضّر الأياما[1]

والحقيقة ، إن الحيرة تملأنا في تقصي هذه الروافد ، والوصول إلى أصلها ومصدرها .

نقول مرة : إن مصدرها غربي ، فنجد ألف شاهد وشاهد .

ونقول مرة أخرى : إن الرافد عربيّ ، تسللّ من وراء المحيط ، وكان مصدره إيليا أبا ماضي في « طلاسمه » . ويؤكد هذا الزعم مضمون القصيدة « عذاب الحيرة » حيث أكثر الشاعر من السؤال والتطلع ، والتحديق في أعماق الذات ، وقوله عن نفسه : إنه يكره القديم ، ويتطلع إلى الجديد ، فإذا ما تحقق له الجديد هرب إلى طلب جديد . وكلا القديم والجديد يشقيه ، فلا هذا يرضيه ، ولا ذاك يكفيه . يَحِنّ إلى الحميد من الأمر . ثم يتركه ويهيم بالذميم ، ثم يعزف عن كليهما . ويسأل نفسه ماذا يريد ؟ ويرد هو بذاته على ذاته بأنه بَرِم بما يريد وبما لا يريد . ويظل الشاعر يترجّح إلى أن يبلغ نهاية القصيدة فنجده قد هوى إلى جبريّة واضحة ، ودعوة إلى الرضا بالواقع واستسلام للأقدار .

فإذا سخِطْتِ فإنّه قَدَرٌ يسير كما يشاء
وإذا رضيتِ فقد يكون رضاكِ قنطرةَ الرجاء

لكنّ طلاسم إيليا ليست كل شيء في هذه القصيدة تأثيراً وتوجيهاً ،

---

١ قدر ورجل : ١١٩ .

ولو ذهبنا إلى تلمس بصمات هذا الأثر الأجنبي لرأيناها طافحة بالديوان ، بل في كل قصيدة من قصائده – على وجه التقريب – .

ونكاد نقول : ان التساؤل يملأ قصائده ، ويلح عليه ، ويدفعه دائماً إلى هدف واحد يتلخص في « من أنا ؟ » .

ولعل قصائد القسم الأول من ديوانه « قدر ورجل » الذي عنونه « من أغوار النفس » وضم فيه تسع قصائد خير شاهد على ما نذهب إليه .

ويبدو لنا أن الحكمة اليونانية القديمة المحفورة على أحد أحجار معبد « دلف » والتي تدعو الإنسان إلى معرفة نفسه ، كانت هاجس الشاعر ، بل كانت هاجس هؤلاء النفر من الشعراء الذين ينتمون إلى هذا الاتجاه .

أما الأمل بالحب الكبير ، ذلك الحب الذي يبدأ بحديث الرسول العظيم (ص) « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وينطلق إلى أن يشمل الوجود بأجمعه ، حيث يتلاقى الإنسان بأخيه الإنسان ، في كل زمان ومكان ، دون تمييز في العرق والجنس كان لوناً آخر من ألوان شعر هذه المدرسة .

قد يقول قائل : إن التبشير بالحب الكبير ليس أثراً من آثار الثقافة الغربية ، وإنما هو أصل راسخ في الإسلام ، والديانات السماوية الأخرى ، وهو عنصر أصيل في فطرة الإنسان وطبيعته، فلماذا نضمه إلى المؤثرات الأجنبية؟

وجواباً عن ذلك نقول : إن الاعتراض صحيح ، وإنا لواثقون أن رده الرد الكامل إلى المؤثرات الأجنبية فيه كثير من التجني على الحقيقة التي لا مراء فيها . ولكن الذي دفعنا إلى هذا الزعم كثرة ما وجدنا من قصائد غربية فلسفت الحب ، وأغرقت في تحليل أصوله وفروعه في المدرسة الرومنسية قديماً ، وفي أدب الإنسانيين المعاصرين حديثاً ، وفي الدعوات العالمية التي تطالعنا صباح مساء .

عاش القويّ مقدّساً وممنّعاً يمحو الضعيفَ ويستبد كما يريد
وعليه إكليل السيادة صاغــــه بيد الدهاء وساعد البأس الشديد[1]

وقال آشي أيضاً :

إنّ القويّ على البناء مواظب وعلى الطبيعة أمره لا يُدفع
لا ينثني إلاّ الضعيف وإنّه لِقُوى الطبيعة دائماً يتوقّع

ومع ذلك ، فمثل هذه الأفكار التي صدرت عن « نيتشه » أو «شوبنهاور » بصيغة مذهب فلسفي متكامل ، وسار في ذكرها الشبان في الفكر الغربي والشرقي على السواء – وفي الشرقيين كان جُبران على رأسهم – وآلت في أوربا إلى نزعة متطرفة ، وكان من نتائجها ظهور الفاشيّة والنازية ، فإنها في أرض السعودية لم تَعْدُ الأقوال المجردة ، والتقليد الظاهري ، والفكرة العابرة السريعة .

ثمة أثر أجنبي آخر ، يتراءى في الشعر السعودي ، وبخاصة في قصائد الفقي ، والحسيني ، ومحمد الفهد العيسى ، وحسن عبد الله القرشي ، ويتجلى في التأمل ، والشغف بالتساؤل ، والانعطاف نحو الطبيعة ، والأمل بحب كبير يشمل كل شيء في الوجود .

ولعل « محمد حسن فقي » خير مثال ونموذج لهذا التيار ، وربما كانت عناوين قصائده في ديوانه « قَدَر ورجل » تومئ إلى اتجاهه ونزعته في التأمل والتفكير . فمن تلك العناوين « من أنا ؟ » . « إزميل وتماثيل » . «غربة الروح ». « وساوس الإيمان » . « نفْس تبحث عن نورها » . « جحيم النفس » . « عذاب الحَيْرة » . « جدار الظلام » . « ازدواج الشخصية » . « رهين المحبِسَيْن » . « الرحى والطحين » . «خاتمة المطاف » .

---

١ وحي الصحراء : ص ١٢٥ .

ولأن الشعراء العرب – عامة – لا يميلون كثيراً إلى التعمق في فهم الآثار الأدبية الغربية بلغاتها الأصلية . فتكون أفكارهم – على الغالب – مقصورة على لون معين من الثقافات ، ونعني به الثقافة العربية . ومع ذلك يبدو أن الشعر السعودي قد عكس شيئاً من ملامح هذه الأفكار الغربية ، وأنه احتفظ بشيء من ظلالها في بعض جوانبه . مثَل ذلك ما نقرأه في قصيدة عبد الله عمر بَلْخير – وهو خريج الجامعة الأمريكية ببيروت – .

أبناءَ يعربَ والنفوس فداؤكم ... ما للشباب على الهوان مَقام
فالمُلك يُخطَبُ بالصوارم والقنا ... لا الكتبُ تخطبه ولا الأقلام
والحق يُعطى للقويّ ومن يكنْ ... غِرّاً فإن الفاتكين قيام
فاخطوا بأمتكم فقد ضاقت بها الـ ... ـدنيا فلا روح ولا إقدام
لغة المدافع والقنابل والقنا ... يشفي الخطاب بها والاستفهام
لا الاحتجاج ولا التظلم نافع ... كَذَبَ اليراع وصَدَّق الصمصام[1]

ربما نقول : إن واقع العرب الحديث كان الباعث الأول على نظم هذه المعاني ، وربما يكون لما ذكرنا من أثر « فلسفة القوة » وانتشارها ظل في هذه القصيدة ، كقوله « الملك يخطب بالصوارم » و « الحق يعطى للقويّ » و « لغة المدافع يَشفي الخطاب بها » . وهذا شبيه بما يعتقد به المفكر الألماني « نيتشه » . وفي البيت الثالث لمح من آراء « شوبنهاور » حيث يقرر أن « الإنسان ذئب على أخيه الإنسان » ، وأن « مبدأ القوة ، وتَحكُّم الطغاة بالضعفاء من مظاهر القانون الأزلي » .

وموقف « القنديل » شبيه بموقف زميله « بَلْخير » . طالَب بالثورة على الضعف ، ومجّد القوة كما طالب بهذا « نيتشه » سابقاً . قال قنديل :

---

١ وحي الصحراء : ص ٢١٧ .

وإن لم يتبلّر اتجاهاً فلسفياً شعرياً يدعون إليه، كما نريد أن نقول إن تأثر الشعراء السعوديين بالتيارات الأدبية الحديثة السائدة في العالم العربي كان كبيراً ، وإن أدب المهجريين — ولا سيما أدب الرابطة القلمية كان له بصمات واضحات في إنتاج الشعراء الشباب في المملكة الوليدة .

بقي أن نفتش عن المؤثرات الأجنبية — غير العربية — في الشعر السعودي ، ونعرف أكان لها وجود أم لا ؟ وإذا كانت فمَنْ هم المؤثّرون ؟ ومن هم المتأثرون ؟ وكيف تَمّ ذلك ؟

قبل الإجابة عن هذه التساؤلات ، لا بد أن نضع في ذاكرتنا صورة للمرحلة الأدبية والفكرية التي صارت إليها البلاد ، ولا سيما بعد نشوء المملكة واتساع التعليم ، وتكاثر الكتب الوافدة عربية كانت أو مترجمة . بعد ذلك يمكننا أن نقول : إن مرحلة بَعْثٍ أدبي خُلِقت في البلاد إلى جانب مرحلة بعث اجتماعي .

وطبيعي في مثل هذه المراحل من حياة الأمم والشعوب أن تكون أوجه النشاط الإنساني شديدة الارتباط بالماضي الذي يُشيع فيها الثقة والإيمان ، ويمدّها بنَسْغ الأمل والحياة . ولكن هذا لا يعني أن يُصِمّ الأدباء والمثقفون آذانهم عن المؤثرات الثقافية الخارجية ، وخاصة إذا كانت منسجمة والجو العام الذي يعيشون فيه .

ولقد لاحظنا — فعلاً — ظلالاً لبعض آراء المفكرين الغربيين في الشعر السعودي ، ولا سيما تلك الأقوال التي اتخذت من القوة محوراً تدور حوله . ومن أهمها آراء نيتشه وشوبنهاور وغيرهما من المفكرين الذين مجّدوا القوة والعنف وثاروا على اللين والضعف .

وإذا كنا لا نجد بين الشعراء من اعتنق بصراحة هذه الآراء ، فلأن الشعر بحكم طبيعته ضئيل التجاوب مع الأفكار الجديدة ، والعلمية منها بخاصة ،

هل غصّ عيشك بالمكا ره والتشاؤمِ واللغوب
فغدوت من فوضى الحيا ةِ على ذهول المستريب
توّاقـــةٌ نحو الفرا ر من الدنى للِقـا شعوب [1]

وإذا كان الرومنسيون يندفعون إلى الطبيعة فيناجون الطيور ويبثونها أشجانهم ، فضياء الدين رجب خاطب الطير وبثه زفرات صدره فقال :

يا طير هل يشكو الطليـ ق كما شكا القيدَ الأسير
ويئن منبسط الجنـــا ح ويمرح الطير الكسير
وتغرد الدنيـــا لمفـ ؤود ويكتئب القرير [2]

وإذا كان الشعراء الرومنسيون يُغْرِقون في التشاؤم ، ويفضلون الموت على الحياة ، ويستعذبون الآلام ، فحسن القرشي يصور حياته وشجونه بقوله :

لو كنت مثلي في شوقي وأغلالي ما كنت يوماً قرير العين والبال
تحيّر الناس من صمتي وما علموا بأن ما بيَ يأسٌ جِدُّ قتـــال
أهوى انتحاري ، لاخل يساومني بالغدر طيّ دخيل الود ختال [3]

ويطول بنا الحديث والتمثيل إن مضينا نعرض صوراً رومنسية لشعراء « أبولو » في السعودية ؛ لندلّ على أن المفهوم العام الذي يتبعونه ، والطابع المميز الذي يطبع شعرهم هو طابع الرومنسية بشياتها ومفهوماتها كما عرفها الغربيون وشعراء مصر بعد الغربيّين . ولكنا نريد أن نقول : إن شعراء السعودية « الشباب » مدرسة واحدة ، يجمعها اتجاه واحد ، هو الاتجاه الرومنسي ،

١ المنهل : ٢/٨٩٥ .
٢ المنهل : ٢/٨٤٢ .
٣ « مواكب الذكريات » : ص ١٨٦ .

ولربما ألقى الملام عليكِ في   ما كان بينكما كفعلِ الدُّون[1]

وإذا كانت الرومنسية تدفع إلى معايشة النفس والهروب من المجتمع ، فناصر بو حَيْمد يَهيم بعيداً عن عالم الناس ويقول :

يا أيّها العملاق   قد ضَمّك الرمس
الناس حولي جثثٌ   لموتهـــا عرس
آعبُرْ بنا الآفاق   قد ضاقَتِ النفس
أخـاف أن يفلت منّي   الغـــد والأمْس
دونك هـذا معبراً   تضيئـــه الشمس
فَلْنَنْطلقْ عـــلى   دروبـــه لا نقسو
فالنـــاس فيه عالمٌ   يرعِشـــه الهمس[2]

ومحمد حسن عواد يتحدث إلى « الليل في مَجْثَمه » فيخاطبه قائلاً :

هل أنت مثلي أيهاذا الظلام ؟
تشعر بالويل ، فتخفي العُرام ؟
وتلبس الصمت ، فتعلو الأنام ؟
برهبة القانت في قمة   ونظرة الخاشع في همة
وفكرة الشيخ ، وروح الصغير ؟[3]

وعباس الحَلْواني ينفث « نفثة مصدور » بقوله :

يا نفسُ ويحك ما دهـــا   ك من الأمور فلم تجيبي

---

١ ديوان « قدر ورجل » : ص ٢٥٢ .
٢ شعراء نجد : ص ١٠٢ .
٣ المنهل : ٢/٧١٩ .

كلّما لَفّني الدجى بِرِداه   قلت يا ليل هل يُصبحك أُنسي[1]

وهذا ماجد الحسيني يصور حياة « شاعر » :

هامَ بالروضِ والزّهَرِ   والنّسَيْماتِ والسّحَرِ
شاطَرَ الطيرَ لهْوَهـا   في الأماسيّ والبُكر
واصطفى الجدول الخفو   ق على شاطىء نَضِر
مفرداً لا تروعـه   جفوةُ الناس بالكَدَر
راضيـاً من حيـاته   بالخيـالات والذ كَر
مَلَّ من عِشْرةِ الأنا   م ومن قسوة القَدَر[2]

وإذا كانت الرومنسية تستَكْنِهُ أعماق القلب ، وترفع منه أمام سلطان العقل ، فالقرشي يسير على الدرب نفسه فيخاطب قلبه :

فؤادي لا تخفق وحسبُك زفرةً   نُثِرتْ وأخرى فالزمان رقيب
تحمّلْ فما تجديك لوعةُ يائس   كئيبٍ عَرَتْه أزمةٌ وخطوب
تجلّدْ فإعصار الحياة مزمزمٌ   له وَلْوَلاتٌ جَمّةٌ وشُبوب[3]

وإذا كانت الرومنسية تعطف على ضحايا المجتمع غير مبالية بالتقاليد السائدة ، فمحمد حسن فقي ينهج نهجها ، فيحدث عن امرأة بغيٍّ مشفقاً عطوفاً ويقول :

ولعلّ ذنبَكِ لا تَرِفُّ جفونُه   جَزَعاً وكيف لمثلِه بجفون
أنتِ التي تتحمّلين شجونَه   وهو الذي يمضي بدون شجون

---

١ شعراء نجد المعاصرون ص ٢٤٧ .
٢ ديوان « حيرة » : ص ٢٧ .
٣ ديوان « مواكب الذكريات » : ص ١١٨ .

كثير من شعر وكتابة مسيحيي لبنان تُسْلِس عن قيادها . ثم وجدتها في مترجمات فولتير وموليير ، وشكسبير ، وبايرون ، وجوته . فقلت واهاً لمجد شعراء العرب »[1] .

وتتابع الهجوم ، وازداد معه تدفق الصحف المصرية ، والمهجرية ، والدواوين الجديدة ، وراح الأدباء يقرأون ، ويعبّون ، ويعجبون ، وظهر أثر ذلك في شعرهم الجديد .

نستطيع إذاً أن نقول : إن مدرسة « أبولو » فرع من المدرسة المهجرية ، وتحقيق لحلم مدرسة « الديوان » . وجميع هذه التفرعات تلتقي في مجرى واحد ، هو المجرى الرومنسي الوافد على السعودية .

وتحقيقاً لجلاء الفكرة نضرب على ذلك الأمثلة مقارنةً بما يناظرها في المدرسة الرومنسية العربية أو الغربية :

إذا كان الرومنسيون يهربون إلى الطبيعة يستوحونها ويصادقونها بعيداً عن شرور المدنية ، وفراراً من المجتمع ، فإن إبراهيم الدامغ قد فَعَل الشيء ذاته . ومما يقول :

أرى النجوم تواسيني فأخطبها ودّي كأني أناجي طرفها الراني
وأبصر الليـــل تخفيني غلائلُه كأنه في حداد الموت ينعاني
وأسمع الوُرْق تبكيني فأطلبها كَفَّ النواح بصوتٍ واهنٍ وانِ[2]

كذلك كان موقف عبد الله الجَلْهَم في قوله :

أنا في لجّة الحيـاة أسير بين شُكسٍ من الخلال وشُرس
عالَمي عـابثٌ بعيدٌ عن الأ لفة يجري وراء مَيْنٍ وفَلْس

---

١ خواطر مصرحة : ص ٢٦ .

٢ شعراء نجد المعاصرون ص ٢٢٤ .

ولقد ساعدت تضاريس الحياة في السعودية على نمو الاتجاه الرومنسي المتمثل بمدرسة « أبولو » كما ساعدت على ازدهاره في مصر وبلاد الشام من قبل .

وإذا تذكرنا أن المجددين العرب حاربوا الاتجاه الكلاسيكي في الأدب العربي ، ليفسحوا المجال للتيارات الجديدة الحية ، ونجحوا في هجومهم إذْ خلقوا التيار الرومنسي ، وفرضوه على الأدب فَرْضاً . فكذلك نجح الشباب السعوديون في خلق التيار الرومنسي ذاته في بلادهم ، أو في نقله إلى أدبهم .

ابتدأ التمهيد لهذا الاتجاه بهجوم عنيف بمقال لمحمد حسن عواد سنة ١٩٢٦ م عنوانه « الأدب في الحجاز »[1] قال فيه « بعض شبابنا الأدباء وبعض من قراء الكتب الدارجة يقرض القطع الشعرية البديعة الناصعة — ناصعة والحق يقال — . ولكن ماذا يضمنها من الأفكار ؟ ينظمها في الخمريات حتى يسابق أبا نواس ، وفي الغزل حتى يغلب الشاب الظريف ، وفي المديح حتى يفوق البحتري ، وفي الحماسة حتى ينسينا ذكر عنترة ، وفي الحكمة حتى لا يضاهيه أبو العتاهية . وكل هذه من الأفكار البالية التي دُفنت مع عصور أبي نواس والشاب الظريف والبحتري ، وأبي العتاهية ، فلا تصلح لنا . أما إذا لم نستطع أن نأتي بفكر جديد — ولدينا من الأفكار والمقاصد والأغراض الشعرية ما يكمّم أفواهنا عجزاً وقصوراً عن استيعابه — فأحْرَ بنا أن نحطم أقلامنا ونسكت » .

وتحدث العواد نفسه عن البلاغة العربية فسخر في مقال طويل من جواهر الأدب ، والبردة والهمزية ، وكتب الأشياخ والمقامات ، وكُتب السعْد والجُرْجاني ، ومن شعر المولّدين ، والمعلقات ، والجرائد حتى قال : « وجدتها رعداً يقصف من نبرات القرآن فوقفت خاشعاً أمام معبدها . وجدتها ألَقاً يلمع في مقالات بعض كتاب سورية فهززت يدي وصافحتها . وجدتها في

[1] خواطر مصرحة : ص ٥٠ .

تضم كبار أدباء المهجر أمثال جُبْران ، وأبي ماضي ، ونُعَيْمة ، وعبد المسيح حداد ، ووليَم كاتْسِفْليس ، ونسيب عَرِيضة ، ونَدْرة حداد ، ورشيد أيوب . حتى إذا تكوَّنت جماعة أبّولو عام ١٩٣٢ ظهرت آثار المهجريين في شعر أعضائها وعلى الأخص أبي القاسم الشّابي وحَسَن كامل الصَّيرفي ومحمد عبد المُعْطي الهَمْشَري . ولا ننسى هاهنا أنّ جيل شعراء أبولو كان قادراً على الاطلاع على الأدب الأوربي دون وساطة ، وأن عملية استيعاب هذا الأدب كانت قد بدت وآتت ثمارها ، فإذا بجماعة أبولو تمثّل دفعةً متطورة في انطلاق شعرنا العربي الحديث إلى أرض جديدة لا تمت إلى الصحراء بصلة . ومن هنا كانت الاستجابة السريعة لأدب المهجر في الثلاثينات ، ومن هنا أيضاً كانت السلاسة والبساطة والتحرر الأسلوبي والبعد عن الخطابية . وهي جميعاً ميزات لم تتوافر في شعر جماعة « الديوان » . وعلى أية حال فقد تضافرت جهود رجال « الديوان » ، مع دعوة « المدرسة المهجرية » ، ومدرسة « أبولو » في توجيه الشعر العربي الوجهة الوجدانية التي لا تزال تلازمه حتى اليوم [١] .

ويمكن أن نجمل تعاليم أبولو باعتمادها على احتقار الصنعة والتقليد ، والاحتفال بالشعر الصادق ، والطلاقة الأسلوبية ، والأخذ عن الأدب الغربي ، وحب الطبيعة ، والاهتمام بالموضوعات الفنية والإنسانية ، والتصوف ، وحب الجمال . وكان موقف الشعراء من الحب بما يحمل من أسى وحَيْرة وقلق أكبرَ من موقف فردي تُجاه إنسانية عاطفية ، فقد كانوا يُعَبّرون عن موقفهم من الحياة والمجتمع خلال التعبير عن هذه التجربة ، فكانت المرآة يعكسون عليها كل ما يشعرون به من الضياع والفشل في مجتمع لم يبلغ من التقدم حداً يتيح لهم أن يحققوا ما يراود نفوسهم المتطلعة .

١ كمال نشأت ، أبو شادي وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث ص ٢٧٨ .

عنوانها «لا ، الخائن أنت »[1]. فلنزار مقطوعة عنوانها «رسالة من سيدة حاقدة »[2] .

وهكذا نجد انسياباً أدبياً يسري من فحول الشعراء العرب إلى قصائد السعوديين . ولا شك أن تتبع جميع التأثرات عسير . ويكفي أن تكون النماذج المعروضة دليلاً على ذلك .

أما أثر الأدب المهجري ومدرستي الديوان وأبّولو فقد كان شديداً . ولا سيما في أواخر الحرب العالمية الثانية . وهذا الأثر ظهر في شعر الشباب السعودي أكثر مما ظهر في شعر الشيوخ . وقد تعرضنا لذلك بالذكر — .

ولو حاولنا جلاء هذا التأثير لوجب أن نقدم لمحة موجزة عن كُنْهِ المدرسة المهجرية وأبولو ، وطريقة معالجتهما الموضوعات المختلفة . والأساليب المفضلة عند أصحابهما ، ثم نقف على الأسباب التي حدت بشعراء السعودية أن يذوبوا مع شعراء المهجر وأبولو في بوتقة واحدة . ولا مناص من تقديم عدد من الشواهد توضيحاً وتثبيتاً لذلك التفاعل .

إن « مدرسة الديوان كانت دعوة تخطيط نقدية ، ومحاولة هدم كل قديم بالٍ ، دون أن يكون لدى أصحابها النموذج الكامل من نتاجها لهذا الذي تريد ، بل ربما كانت الرواسب الباقية في نفسَي المازني والعقاد من الأدب العربي القديم ، وضَعْفُ مواهبهما الشعرية ، ومن ثَمَّ ، عجزُهما عن تقديم النموذج الكامل المطابق لآرائهما النقدية ، الطريقَ الذي حوّل اهتمام جمهرة قارئي الأدب إلى ألوان جديدة تأتي عبَر المحيط من المهجر الشمالي . فقد تكوَّنت « الرابطة القلمية » سنة ١٩٢٠ م أي قبل صدور كتاب « الديوان » بسنة ، وابتدأت تنشر أدبها الجديد المتحرر في الصحف والمجلات ، وكانت

---

١ « النغم الظامي » : ص ٨٣ .

٢ « قصائد من نزار » : ص ١٣٧ .

بلغتُ الباب . . والضوء الـ ضعيفُ بثقبــه يبـدو
وما أطبقته حتّى اقـ شعرَّ الشَّعْر والجلِد[1]

فيقول القرشي في قصيدته « ثورة » :

تنهّد وانثنى بَرِماً ونَوْحُ القلب يشتد
وفي جَنْبَيه أسرار وفي ناظره سهد[2]

أما تقليد نزار قباني فإن قصيدة القرشي التي عنوانها « النغم الأزرق » والتي قال القرشي فيها :

اقتربي كالظن لا تقلقي مصباحنا من طلعة المشرق[3]

تكاد تكون صورة لقصيدة نزار :

زيْتيّةَ العَينينِ لا تُغْلِقي يَسْلَم هذا الشّفَقُ الفستقي[4]

كما أن قصيدة نزار :

ويْحكِ في أصبعك المُخْمَلي حمَلْتِ جثمان الهوى الأول[5]

تشبه في إطارها العام قصيدة القرشي :

سألتكِ قولي ولا تخجلي أخادِعَي أنتِ بالمأملِ[6]

وبصمات « نزار » واضحة في قصيدة محمد إسماعيل جوهرجي التي

---

١ « شعر » لعمر أبي ريشة : ص ٩٩ .
٢ ديوان « مواكب الذكريات » : ص ١٣٨ .
٣ ديوان « النغم الأزرق » ص ٢٩ .
٤ ديوان « قالت لي السمراء » ص ٧٨ .
٥ ديوان « قالت لي السمراء » : ص ٩٤ .
٦ ديوان « سوزان » : ص ٨١ .

وقصيدة بدوي الجبل « سليمان الأحمد » التي مطلعها :

ليس في الأرض للضعيف حقوق طمعُ الأقوياء غالَ السلاما [1]

وكان لشعر بشارة الخوري أصداء وآثار في قريض السعوديين فقصيدته :

الهوى والشباب والأمل المنشو دُ توحي فتبعثُ الشعر حيّا [2]

ترسّمها كثيرون . منهم الزمخشري في قصيدته :

طاف بي الحب حول دار الثريا فترشفت من شذاها الحميا [3]

وحسين سرحان في « ساعة رضا » :

ما رأيت ابتسامة منك حتى أشرقت ساعة التجلي علَيّا [4]

ومن الشعراء السوريين عمر أبو ريشة ، قلده كثيرون . منهم الشاعر القرشي ، كما قلد « نزار قباني » الشاعرُ حسنُ القرشي وغيره .

يقول عمر أبو ريشة في قصيدته « عرس المجد » :

يا عروس المجدِ تيهي واسحَبي في مغانينا ذيولَ الشّهُب [5]

فنسمع صداها في قصيدة القرشي :

مَلِكٌ حُمّلَ مجدَ الأبَدِ عَبَرَ الأرض لأسمى مقصدٌ [6]

ويقول عمر في قصيدته « مصباح وسرير » :

---

١ مقدمة وحي الفؤاد : ص ١٠ .
٢ الديوان : ص ١٤٢ .
٣ ديوان « عودة الغريب » : ص ١٥٧ .
٤ وحي الصحراء : ص ١٥٠ .
٥ « مختارات لعمر أبي ريشة » ص ١٢٠ .
٦ ديوان « مواكب الذكريات » ص ١٣٥ .

وأغنّ أكحلَ من مهـا بـَكفيّةٍ   علِقتْ محاجرُه دمي وعلِقته[1]

ومرثية فؤاد شاكر لأحد الأمراء :

قَلْب يرفّ ومدمع يتدفّق   عـُقِـدَ اللسانُ له وغاض المنطق
فبكلّ جارحةٍ أنين موجِـعٌ   وبكل جانحة فؤاد يخفق[2]

صورة من مرثية أحمد شوقي لفوزي الغزّي :

جـَرْحٌ على جرح حنانَكِ جِلـّقُ   حـُمـِّلْتِ ما يوهي الجبال ويـُزهق[3]

وإذا قرأنا قصيدة أحمد العربي التي يصف فيها اليتيم بالعيد ، ويحمل على مساعدته والتي فيها يقول :

أيها العيد ربَّ طفل يعـاني   فيك من بؤسه عذاب الهون
هاجـَهُ تِرْبُه بملبَسِـهِ الزا   هي وكم فيه للغبّا من فـُتُون
فرنـا نحوه بطرف كليـل   ليس يقوى على احتمال الشجون[4]

تذكرنا قصيدة الرُّصافي في الموضوع نفسه :

وقفتُ أجيل الطرف فيهم فراعني   هناك صَبيٌّ بينهم مترعرع[5]

كذلك ، فإننا نقف على صورة من التشابه بين قصيدة محمد صبحي – الشاعر المكي – :

ما أخفَّ الشكوى وأحلى الملاما   لو يكونانِ يـُطفئانِ الأوامـا

١ الشوقيات : ٢/١٤٩ .
٢ وحي الفؤاد ص ٢٦١ .
٣ الشوقيات : ١/١١٠ .
٤ وحي الصحراء ص ٧٨ .
٥ ديوان الرصافي ، ص ٦٠ .

ونلمح في ثنايا الأبيات روح البارودي الذي ثار ليرفع شأن مصر ، وأخفقت ثورته ، فنفي عن وطنه ، ونظم في منفاه كثيراً من شعر التصبر والتجلد :

فما كنت إلاّ الليث أنهضه الطوى   وما كنت إلاّ السيف فارقه الغِمْد
صؤول وللأبطالِ هَمْس من الونى   ضروب وقلبُ القِرْن في صدره يعدو
فما مهجةٌ إلاّ ورمحي ضميرها   ولا لَبَّة إلاّ وسيفي لها عِقد[1]

كذلك الأمر مع شعر شوقي . فلقد كان له بصمات واضحة في إنتاج كثيرين . ويكفي أن نقرأ قصيدة عبد الله الفيصل :

يا شادي البان ما أشجاك أشجانا   إن الذي قد سقاك الشوق أسقانا
كأس من الصاب والآلامُ مترعة   من لي بكأسٍ إليها كنت ظمآنا[2]

حتى نذكر قصيدة شوقي :

يا نائحَ الطلح أشباهٌ عوادينا   نأسى لواديك أم تأسى لوادينا[3]

وقصيدة الفقي :

في حي « مايْفِير » صادتْني حبائله   يا ليتني لم أشاهد حَيَّ « مايْفِير »
أغنٌ تحسبه من فَرْطِ رِقّته   طيفاً تلفّع فيه العطر بالنور[4]

شبيهة بقصيدة شوقي :

السحرُ من سودِ العيون لقيته   والبابليُّ بلحظهنَّ وُقيته

---

١ ديوان البارودي – طبعة دار الكتب ١/١٧٠ .
٢ وحي الحرمان ١٤٥ .
٣ الشوقيات ٢/١٠٣ .
٤ قدر ورجل ٢٤٩ .

و ﴿وتَرَى النّاسَ سُكارَى ومَا هُمْ بِسُكَارَى ولَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾[1] .

كل ذلك ينمّ بجلاء على مدى تغلغل التراث العربي العريق ، وأنماط التعبير التقليدية في قرائح الشعراء السعوديين المعاصرين .

أما المصدر الثاني الذي يستقي منه الشعراء السعوديون فهو عربي حديث ، يتمثل في شعر البارودي ، وأحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم من مصر ومعروف الرصافي من العراق ، وبدوي الجبل ، من سورية ، وبشارة الخوري من لبنان . إلى جانب مصدر عربي آخر أكثر حداثة وأشد انطلاقاً وأوسع آفاقاً من سابقه يتمثل في شعر « المَهْجَريّين » ، و « مدرسة الديوان » ، و « أبولّو » .

وبهذه المقدمة نستطيع أن نقول : إن للمدرسة التقليدية الحديثة بمصر والبلاد العربية الأخرى أثراً ظاهراً في التقليدية الحديثة السعودية ، كما أن للمدرسة الرومنسية المصرية واللبنانية والمَهْجَرية أثراً آخر في الرومنسية السعودية . وفي سبيل إيضاح ذلك نورد هذه الشواهد :

سئل محمد سرور الصبان أن يكتب سيرته بعد أن كتب عن أكثر الأدباء ، واختار أحلى أشعارهم ، وطبعها في كتاب خاص ووزعه ، فاعتذر ، ثم ألحوا عليه ، وأقنعوه أن ذلك حق العلم والحقيقة والتاريخ ، وليس حقه . فما كان منه إلا أن استجاب لهم ، وذكر في كثير من الاستحياء والتواضع شيئاً يسيراً عن ذاته ، وبيّن أنه في حقبة من حياته كان مولعاً بنظرة المعري إلى الحياة ، وأنه نظم في تلك الآونة قصائد . منها :

ويحي أيعترض القنوط عزيمتي   والحزم من طبعي ومن عاداتي
ولقد أكر على الخطوب فتنثني   جزعاً أمام مهندي وشباتي[2]

---

[1] الحج ، ٢ .
[2] أدب الحجاز ص ١٤٦ .

ويقول العربي[1] :

يتوارى من سوء منظره المُزْ ري ومن حاله الكريه المَهين

ويقول آشي[2] :

وقد يجنحون إلى ضدها ويسعَوْن كي يطفئوا نارها

ويقول ابن عثيمين[3] :

صبَّ الإله على أهل الكويت بهم سَوْط العذاب الذي في طيّه الغضب

ويقول عبد الله عمر بَلْخير[4] :

يُرَوْن سُكارى سابحين وما همُ سُكارى. ولكن ذلك الجهل لا السكر

وهذه الأبيات فيهــا اقتباس من القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ ﴾[5] ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيم . يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِن سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ ﴾[6] و ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾[7] و ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾[8]

---

١ المصدر السابق ص ٧٩ .
٢ المصدر السابق ص ١٧٥ .
٣ الديوان ص ١٢٥ .
٤ وحي الصحراء ص ٢٢٤ .
٥ البقرة ، ١٥٥ .
٦ النحل ، ٥٨ .
٧ التوبة ، ٣٢ .
٨ الفجر ، ١٣ .

يقول خالد الفرج في قصيدة « الشرق والغرب »[1] :

ستأكل الهرّة أولادها ويحصُلُ القط على حصته

ويقول عبد العزيز آل مبارك ناصحاً آل خليفة[2] :

وتيقظوا فالسيل قد بلغ الزبى يا أيها [النومى] على الأنطاع

ويقول حسن فقي[3] :

شرّ الخليقة أن تسير مع الهوى وتطيع فيك نوازع المجنون

ويقول فؤاد شاكر[4] :

فكن يا عصامُ كما يشتهي لك المجد والمُثُلُ العالية
إذا لم تسوّدْك نفس امرئ تسوّدُه همّة عالية

كلها أبيات تتضمن أمثالاً عربية قديمة كقولهم «كهرة تأكل أولادها » و « بلغ السيل الزُّبى » و « آفة الرأي الهوى » و « نفس عصام سوَّدَتْ عصاما ».

ومن نافلة القول أن نذكر أن هؤلاء الشعراء قد عبّوا من معين القرآن الكريم والحديث الشريف ، وظهر أثر ذلك في شعرهم . ويكفي أن نشير إلى وَشَلٍ من هذه الاقتباسات التي تجلت في ثناياها الثقافة الدينية .

يقول الغزاوي[5] :

إنّما هذي الحياة بلاء فدع الهوى واتخذها سبيلا

---

١ شعراء نجد ص ٨٢ .
٢ شعراء هجر ص ١٧٩ .
٣ قدر ورجل ص ٢١٦ .
٤ وحي الفؤاد ص ٢٩٤ .
٥ وحي الصحراء ص ٥٦ [هكذا ورد البيت مختل الوزن] .

حدّث ولا حرجٌ يا دهرَنا فينا   هاتِ الأحاديثَ من أمجاد ماضينا
وأسْمع الكون ما نلناه من شرف   ومن فخارٍ وعزٍّ في معالينا
إنّا بنو المجد والتاريخ يعرفنا   فليس في الناس أقوام تدانينا[1]

تبدو كأنها قطعة من قصيدة الحلّي :

سلي الرماح العوالي عن معالينا   واستشهدي البيضَ هل خاب الرجا فينا[2]

كذلك قصيدة عبد العزيز بن حمد الأحسائي في شكوى الرقيب والغزل :

أما لِسقَام العاشقين طبيب   يعالج قلباً كاد فيك يذوب
وهل من كريم ذي إخاء أبثه   أحاديث أشواق لهن ضروب[3]

نجدها جد قريبة من قصيدة ابن الدُّمَيْنة :

أحقّاً عبادَ الله أن لستُ وارداً   ولا صادراً إلاّ عليّ رقيب
.. وإن الكثيب الفرد من جانب الحمى   إليّ وإنْ لم آتِهِ لحبيب ؟
فلا تتركي نفسي شَعاعاً فإنّها   من الوَجْدِ قد كادت عليك تذوب[4]

وهكذا نجد القرابة وشيجة ، والنسب موصولاً بين الشعراء السعوديين المعاصرين وأسلافهم تبعاً لأصالة الثقافة العربية وعمق جذورها في النفوس .

وإذا اكتفينا بهذا القَدْر من ملاحظة أثر الشعر القديم في الشعر السعودي المعاصر كان علينا أن نكشف جوانب أخرى للثقافة العربية تعدو مجال الشعر إلى الأمثال على نحو ما نجده في الأبيات التالية :

---

١ هاشم النعمي ، تاريخ عسير ٦٦ .
٢ ديوان الحلي – طبعة بيروت – ص ٧٠ .
٣ شعراء هجر ص ٣٧٣ .
٤ حماسة أبي تمام ٢/١٣٨ .

أبي ربيعة « فبت أناجي النفس أين خباؤها . . . » وفي قول فؤاد شاكر عن الحرب « فأضحت كشافاً بـُعـَيـْدَ الحـَمـْل بالشر تـُتـْئِـم » صورة تكاد تكون تامة عن قول زهير « وتـَلـْقـَحْ كِـشافاً ثم تـُنـْتـَجْ فتـُتـْئِـم » . والأمر نفسه نلمحه بين قول الفقي :

ولا اغتربنا فما نرتـد من سفر إلاّ ونحن من الذكرى على سفر

وقول ابن زريق الأندلسي :

ما آب من سفر إلاّ وأزعجه رأيٌ إلى سفر بالرغم يتبعه

وقول عبد الرسول الجشّي : ألقى عصاه على فسيح جنانها [1] « شبيه بما تمثل به أبو جعفر المنصور « وألقت عصاها واستقر بها النوى » . وكذلك قول سرحان « مَن عاجَ بالأطلال يعتامـُها [2] قريب من عبارة أبي نواس « عاج الشقي على رَسْم يسائِلـُهُ » . وقوله : « ما كنت أحسب أن الموت مرتقب » شبيه ببيت المتنبي الذي أوله : « ما كنت أحسَبـُني أبقى إلى زمن . . . » وتصغير الشاعر سرحان « أصحاب » في قوله « وقال أُصَيحابي لقد فاتك الهوى » يذكرنا بعبارة أبي فراس « وقال أصَيْحابي الفرارُ أو الردى . . . » . ومثل هذا كثير .

بل إن روح القدماء تقمصت عدداً من الشعراء المعاصرين مثل الغزاوي ، وابن عثيمين ، والحسن بن علي الحِفظي العَسيري ، وعددٍ من شعراء هَجَر ، بحيث بات من العسير على ناقد أن يرى فارقاً يـُذكر بين أشعار الخلف وأشعار السلف . فإذا ما قرأنا أبيات الحفظي في الفخر :

---

١ ساحل الذهب الأسود ٢٤٦ .

٢ وحي الصحراء ١٤٦ .

أواخر القرن الماضي – يطلب زيارة أصدقائه :

أيجوز في شرع المحبة والصفا   صدّ عن الصافي الذي لم يجرم
من أجل أقوام [عبثت فعالهم]   إذ لم يراعوا الحق للمتقدم
فلذا تراني منشداً ومضمناً   متظلّماً والحقّ للمتظلّم
« غيري جنى وأنا المعذب فيكمُ   فكأنّني سبّابةُ المُتَندّم »[1]

فالبيت الأخير لابن شرف القيرواني .

وبيت عبد الكريم الجهيمان الذي يقول فيه :

وليس يصبر للإذلال يدهَمُه   إلاّ الذي بات عبد الذل حيرانا[2]

فيه مضمون بيت المتلمِّس :

ولا يقيم على ذلٍّ يُراد به   إلاّ الأذلاّن عَيْرُ الحيّ والوتدُ

ومع أن اعتماد الشعراء على هذا الأسلوب كان ضئيلاً إلاّ أنه يشير – على كل حال – إلى أن الشاعر الحديث كان يتخذ من شعر القدماء – في بعض الأحيان – مثلاً أعلى ، ويحرِص على ترصيع قصيدته بشيء منه . ومن جهة أخرى نلاحظ أن الشعراء لجأوا – في الغالب – إلى هذا التضمين أو الاقتباس عندما كانوا في طور المحاكاة والتقليد قبل أن تستقل شخصياتهم بأساليب متميّزة .

وقد نعثر على حظ كبير من ألفاظ أو تراكيب درج عليها الأقدمون ، فاستعارها المحدثون ، وسلكوها في عداد ألفاظهم وتراكيبهم . فإذا قرأنا قول ابن عثيمين : « فظل يناجي النفس أين مَراحه . . » لمسنا أثر قول ابن

---

١ المصدر السابق ص ٥٤٥ . [كذا وردت الأبيات] .
٢ شعراء نجد المعاصرون ص ١٧٠ .

بمؤتلق المعنى مدلٍّ بحسنه ترى الفذّ منه يستفزك توأما
تعارضه مدّاً فيأتزّ ديمةً وتعرضه حدّاً فيهتز مخذما
وعاد ، ولكن ليس لله درّه أيحسوه بعد المَري صاباً وعلقما[1]

وكثيرون هم الشعراء الذين نسجوا على منوال القدماء ، وقبسوا منهم عبارات وصوراً مستمدة من بيئتهم وحياتهم . ولعل أوضح ما يشير إلى هذه الظاهرة حرص عدد من الشعراء على أن يضمّنوا في شعرهم أبياتاً من الأدب العربي القديم تشبه في مضمونها ما يجنح الشاعر الحديث لمعالجته . من ذلك ما أورده فؤاد شاكر في الحرب :

فما لكمو إلاّ الحديد مسوّماً نزجر فيه بالحديد المسوّم
فإن شئتمو فالجو غضبانُ مرعد عليه دويّ المرعد المتهزّم
وإن شئتمو فالبحر نار وشعلة وأمواجه الحمراء تصخب بالدم
«وما الحرب إلاّ ما علمتم وذقتُم وما هو عنها بالحديث المُرَجّم»

فالبيت الأخير لزهير بن أبي سُلمى .

وما عارض به عبد الله بن علي آل عبد القادر الشاعر الجاهلي طرفة بقوله :

ولولا ثلاث هنّ من عيشة الفتى وَجَدّك لم أحفل متى قام عودي

فقال الشاعر السعودي :

ولولا ثلاث هنّ من لذة الفتى وحقّك لم أحفل متى قام عودي[2]

ومن ذلك ما قاله عبد العزيز بن عمر عكّاس — أحد شعراء هَجَر في

---

١ ديوان « أجنحة بلا ريش » ص ٣٨ .
٢ شعراء هجر ص ٢٨٣ .

أمست ليالي الهنا حلماً تناجينا   وأصبحت ذكريات الحب تشقينا
نسقى حميا الهوى في الكأس مترعة   ممزوجة بحنان كان يُحيّينا [1]

وقصيدة ابن زيدون :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وإن دل هذا على شيء فهو يدل على أن الشعراء شديدو التشبه بالقدماء ، يعجبهم أن يترسموا خطوات الفحول من الشعراء .

ولقد امتلأت ذاكرة بعض المعاصرين من حفظ روائع القدماء ، فاحتذاهم في الطراز حتى كاد يكون إياهم . فهذا ضياء الدين رجب صورة قريبة من البحتري ديباجة ، وجزالة ، وجرساً . قال في إحدى مدائحه للمدينة المنورة :

جادكِ الغيث أماناً وسلاماً   ورضى سمحاً ويُمناً وابتساما
يا دياراً حَلُم الغيث بهـا   يتحراها سحاباً وغماما
فإذا ما انبجست أنواؤه   ذاب حباً في مغانيها وهاما [2]

وكان حسين سَرحان في ديوانه « أجنحة بلا ريش » [3] متبدّياً في خياله ومعانيه وألفاظه ، وطريقة حياته . تسمع شعره فيخيل إليك أنك تسمع شاعراً عربياً قديماً عاش في العصر الأموي أو العباسي ، بل يذكرك أحياناً بشعراء عصر الجاهلية في متانة نسجه وإحكام قوافيه ، وتشبيهاته ، واستعاراته المستمدة من حياة البادية .

مضى راغباً بالشعر يحسب أنه   يسوق الدراري أو يقود العرمرما

---

١ التيارات الأدبية ص ٢٦٣ .
٢ جريدة البلاد ، العدد ٢٨٣٢ .
٣ طبع ببيروت سنة ١٩٦٧ م .

فنحس بأثر قصيدة الحطيئة في الموضوع ذاته وقوله :

ألا طرقتنا بعدمـــا هـَجـَعـُوا هند   وقد جـُزْنَ غـَوْراً واستبان لنا نجد

وقصيدة عبد الحميد الخطيب التي مطلعها :

أمن تذكر بيتِ الله والحرم   ووقفةٍ بخشوعٍ عند مُلْتَزَم[1]

صورة لقصيدة البوصيري :

أمن تذكرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ   مزجتَ دمعاً جرى من مقلة بدم

كذلك نحس بالاتفاق بين قصيدة عبد الله عمر بَلْخير :

تلألأت الأنوار مذ سطع الفجر   وهبَّ نسيمُ الوصل وابتسم الزهر
.. فمن رام وصل الغانيات فإنه   يكون سخياً لا يهولَنّه المَهْر[2]

وقصيدة أبي فراس الحمداني :

أراك عصيَّ الدمع شيمتك الصبرُ   أمَا للهوى نهيٌ عليك ولا أمر
.. تهون علينا في المعالي نفوسنا   ومن يخطبِ الحسناء لم يَغْلُهُ المَهْرُ

وبين قصيدة محمد إبراهيم الجدع :

سفورٌ أم حجاب في الحياة   لَحَقٌ تلك إحدى المعضلات[3]

وقصيدة أبي حسن الأنباري :

علوٌ في الحياة وفي الممات   لحق تلك إحدى المعجزات

وبين قصيدة حسين سراج :

---

١ الجندي ، أعلام الأدب والفن ٢/٥٠٩ .
٢ وحي الصحراء ص ٢٢٣ .
٣ ديوان وحي الشاطىء ص ٣٢ .

الفصل الثاني

مصادر الشعر السعودي

وننتقل الآن إلى تلمّس المصادر التي يستقي منها الشعراء السعوديون فِكَرهم ، وأشكال تعبيرهم وألوان صورهم ليمكن التمييز بين الدخيل والأصيل ، والقديم والجديد ، والوطني والأجنبي ، وما هو من أثر الثقافة أو من أثر البيئة ، أو من الإبداع الذاتي .

ويظهر لنا أن تأثير الثقافة العربية القديمة كبير في شعر المدرسة التقليدية الحديثة بوجه خاص . وفي الشواهد التالية دليل على ما نقول :

مدح ابن عثيمين الملك عبدالعزيز آل سعود وهنأه بانتصاره على أعدائه فقال :

العِزُّ والمجدُ في الهنديّة القضُبِ ... لا في الرسائل والتنميق والخطب
تقضي المواضي فيمضي حكمهـا أمماً ... إن خالج الشك رأيَ الحاذق الأرب [1]

وسرعان ما تخطر في بالنا قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ومدح المعتصم :

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حَدّه الحَدُّ بين الجِد واللعب
والعلم في شهب الأرماح لامعـةً ... بين الخميسَين لا في السبعة الشهب
بيض الصفائح لا سودُ الصحائف في ... متونهن جلاء الشكّ والرِّيَب

ونقرأ قصيدة أحمد إبراهيم الغزاوي في مدح نجد وأهله :

أجل هذه هند فهل شاقك الرَّنْد ... وهَبّتْ صَباها فاستقرَّ بك الوجد [2]

---

١ الديوان ص ٢٩ .

٢ وحي الصحراء ص ٣٩ .

سعيد المُسَلّم ، وعبد الله بن إدريس ، وعبد الله بن خميس ، وعبد الله الفيصل وآخرون كثيرون اشتركوا في الدعوة إلى الإصلاح ، ونادوا برفع شأن الوطن ، وعبّروا عن تضامنهم مع كفاح البلاد العربية الأخرى ، وناصروا قضايا الشعوب المستضعفة ، ودعوا إلى السلام وهتفوا للحرية ، وهاجموا الاستعمار . ولقد مرّ بنا في الفصول السابقة شواهد كثيرة من أشعارهم .

ونحن حين نقف أمام هذه الأسماء ونذكر أن كلاً منها قد نسبناه إلى مدرسة ، وصنفناه في اتجاه ، وهو الآن معدود في شعراء هذا التيار ، لا يجوز أن نستغرب ذكر ذلك أو نعتقد بوجود تناقض . فالذي يُسَوّغ الذكر ، هو الموضوع وشكل الأسلوب . ولا نظن أن شعراء البلاد العربية الأخرى يختلفون عن شعراء السعودية في هذا المجال .

أوَليست اتجاهات الأدب اليوم تدعو إلى المزاوجة بين الواقعية والرومنسية؟ وإذا كانت الرومنسية ترتكز على العواطف فإن الواقعية تعتمد على الذكاء . وما دامت حياة الإنسان مزيجاً من العواطف والذكاء ؛ فلا يمكن لأحد أن يتمتّع بواحدة دون الأخرى . ومن الحق أن يقال : إن أغلب الناس يتمتعون بقسط من الرومنسية أكبر ، ومن الواقعية أقل ، في أيام شبابهم . فإذا كبروا أمكن أن ينقلب الوضع رأساً على عقب . ولذلك فمن المستحيل أن نحلل كاتباً ، وأن نحلل عملاً أدبياً بالطرق الكيماوية في التحليل النوعي والكمّي لنحدد النسبة المئوية من الرومنسية والنسبة المئوية من الواقعية .

وعلى ذلك فإن عنصري الذاتية والموضوعية أو الرومنسية والواقعية أمران لا غنى عن وجودهما معاً في العمل الأدبي ، إلاّ إذا أمكن وجود عصاً ذات طرف واحد ، أو نسبنا القَطْع إلى إحدى شفرتي المقص دون الأخرى . وقد يطغى أحدهما على الآخر في القصيدة مثلاً ، أو يضمحل ؛ ولكنه لا يستقل بوجوده ، ولا يتلاشى .

وأسلوب تقليدي ، وتارة أخرى في موضوعاتٍ هي من خصائص موضوعات الرومنسيين ، وفي أسلوبٍ هو أسلوبهم . ونعتقد أن هذا التنوُّس طبيعيٌّ لا غبار عليه . فتيار التقليد هو التيار المحترم ، والمعجبون به فكراً وأسلوباً أكثر عدداً من معجبي التيار الثاني . وجلُّ هؤلاء المعجبين من المثقفين ثقافات دينية وعربية قديمة ، وقد درجوا على أن يكون الأداء الفني للقصيدة الشعرية على نمط قصائد القدماء من الشعراء . ولهذا فإن بعض المحدَثين ينظم على طريقة القدماء في موضوعات يغلب عليها التقليد كالمديح – وهو قليل – والرثاء ، والإصلاح ، وما أشبه ذلك . أما إذا أراد أن يعبر عن آلامه وخلجات قلبه ، فإنه يركب المركب الجديد ، وينطلق به .

وأخيراً ، فإنّ هناك فئةً قليلة جداً لا تكاد تشكل تياراً مستقلاً ، له معالمه وسماته ، اختارت أن يكون فنها للمجتمع ، أو أن تكون « ملتَزِمة » بالقضايا الاجتماعية والحيوية . وهي بذلك تخطو خطوات المدرسة الواقعية التي كادت أن تسيطر على أدب بعض البلاد العربية .

أما الموضوعات التي تتطرق إليها فهي الإصلاح الاجتماعي والسياسي ، والدعوة إلى خَلْق مجتمع متطور يقف جنباً إلى جنب مع البلدان الراقية المتقدمة .

وإذا قلنا : إن هذا التيار لم تتضح معالمه بعد، فذلك لأن شعراء الواقعية لم يحصروا فنهم في قضايا الإصلاح فقط ، بل عالجوا الموضوعات الرتيبة والرومنسية إلى جانب القضايا الإصلاحية . ولم يكن فيهم كبدر شاكر السيّاب في العراق ، أو سليمان العِيسى في سورية ، أو محمد الفيتوري في السودان ممّن قَصَروا شعرهم على قضية واحدة .

ويمكننا أن نقول : سعد البواردي وأحمد عبد الفاسي ، وماجد الحُسَيْني ، وعبد السلام هاشم حافظ ، والعَوّاد ، والعطار ، وأحمد العربي ، وحمزة شُحاتَه ، وعلي غسّال ، والقنديل ، وإبراهيم فلالي ، والقُرَشي ، ومحمد

ولا شك أن لمدرسة « المَهْجَر » و « الديوان » و « أبّولو » أثراً في دفع الكثيرين إلى هذا الاتجاه الجديد . وقد نقول — كذلك — : إن الرومنسية في الشعر السعودي ، بل في الشعر العربي عامة أثر من آثار الصوفية السلبية المتحكمة في الشرق . وإذا كان الحجاز بخاصة بلد القداسة والعبادة والتأمل والتصوف ، وانطلاق الروح في العالم القدسي ؛ فقد يكون عاملاً من العوامل الكثيرة المؤهّلة للرومنسية[١] . وأخيراً فإن الإعجاب بالأدب الرومنسي الغربي سواء أورَدَ بلغته الأصيلة أم عن طريق المدرسة المهجرية أو المصرية أم مترجَماً ، له أثر في التوجيه نحو رومانسية سعودية .

وشعراء الرومنسية في السعودية كثيرون معظمهم من الشباب ، تراوحُ أعمارهم بين الثلاثين والأربعين . وأشهرهم محمد حسن عوّاد (١٣٢٠ هـ / ١٩٠٢ م) ومحمد حسن فقي (١٣٣١ هـ / ١٩١٢ م) وهما أكبر الجميع سناً . وعبد السلام هاشم رشيد (١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م) وعبد الله الفيصل (١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠م) ومحمد هاشم رشيد (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م) ومُقْبل العيسى (١٣٤٩هـ / ١٩٣٠ م) وإبراهيم العلّاف (١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م) وهم جماعة الحجاز .

أما شعراء نجد فمنهم محمد العامر الرُّمَيْح (١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م) ومحمد السليمان الشِّبْل (١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م) وعبد الله بن إدريس (١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م) وناصر بوحَيْمَد (١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م) وعبد الله الصالح العُثَيْمين (١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م) .

ومن شعراء المنطقة الشرقية محمد سعيد المسلّم (١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م) وعبد الواحد الخُنَيْزي (١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦م) .

ولا بد أن نذكر ظاهرة عند عدد من الشعراء السعوديين وهي أن بعضهم يترجح بين النزعة التقليدية والرومنسية ، وينظم تارة في موضوعات قديمة

---

١ التيارات الأدبية ٢٧٣ .

وعارفاً ، والأنصاري ، وشاكراً ، وسرحان ، وجمالاً ، والزمخشري ، والعطار ، والسنوسي ، فكل من هؤلاء له ديوان أو أكثر ، وتطرق إلى موضوعات مختلفة فيها القديمة وفيها المبتكرة، وحرص على التقليد المتوارث في طريقة النظم، وآثر الجزالة والقوة في أسلوب التعبير. وإذا كان فرق بين الطائفة الأولى والثانية، فهو في ظهور المعاني الجديدة في القصائد، وبروز أثر الحضارة والتفاعلات الفكرية والثقافية المستحدثة . وهذا معدوم في آثار الفئة الأولى.

وإلى جانب الاتجاه التقليدي الحديث راح يظهر في أواخر الحرب العالمية الثانية تيار آخر ، يقوى مع الزمن شيئاً فشيئاً ، ويزداد عمقاً وثباتاً ، ويكثر أنصاره ومحبوه إلى أن كاد يسود ويتغلب على التيار السابق .

هذا الاتجاه الطارئ الجديد يمكن أن ندعوه « بالتيار الإبداعي » أو « الرومنسي » ؛ لأن هذه التسمية تعني في الأدب الأوربي النزعة إلى الفردية ، والذاتية ، والخلو بالنفس ، والشعور بالوحدة ، والحزن ، والتماس إيناس تلك الوحدة عن طريق الشعر ، وموسيقاه الحالمة الآتية من مصدر خفي .

ولقد كان ظهور هذا التيار في قلب الجزيرة نتيجة لعوامل تشبه العوامل التي أدت إلى ظهوره في الغرب . ونجمل أهمها فيما يأتي : « حياة القلق والاضطراب التي تسود العالم العربي عامة ، وشعور الأدباء بتخلخل المجتمع ، وعجزهم عن تحقيق مآربهم وآمالهم واصطدام المطامع العظيمة في نفوسهم بالعقبات والسدود . وقد دفعهم هذا إلى أن يلتمسوا لهم مَهْرَباً يفرون إليه من واقعهم المرير ، فلاذوا بالطبيعة يبثونها شكاتهم ، ويتجاوبون وإياها تجاوباً روحياً حزيناً ، كما حلّقوا في سماء الخيال ، وهاموا بأودية الرؤى والأحلام والأوهام ، وسبحوا بأرواحهم فيما وراء الطبيعة . إضافة إلى هذا يمكن أن نقول : إن المزاج الانطوائي الذي يفرض على بعض الشعراء أن يعيشوا في أبراجهم العاجية ، وينطووا داخل نفوسهم ؛ عامل آخر أدى إلى الرومنسية .

الصبان (١٣١٦ هـ/١٨٩٨ م) وأحمد قنديل (١٣٢٢ هـ/ ١٩٠٤ م) وعبد الحق نَقْشبندي (١٣٢٢ هـ/ ١٩٠٤ م) ومحمد سعيد عامودي (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥ م) وعبد الوهاب آشي (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م) وعبد القدوس الأنصاري (١٣٢٤ هـ/ ١٩٠٦ م) وعلي حافظ (١٣٢٦ هـ/ ١٩٠٨ م) وعثمان حافظ (١٣٢٧ هـ/ ١٩٠٩ م) وفؤاد شاكر (١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م) وحمزة شحاتة (١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م) ومحمود عارف (١٣٢٩ هـ/ ١٩١١ م) وإبراهيم الجَدَع (١٣٣٠ هـ/ ١٩١١ م) وحسين سراج (١٣٣١ هـ/ ١٩١٢ م) وحسين سرحان (١٣٣٢ هـ/ ١٩١٣ م) وطاهر الزمخشري (١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م) وأحمد عبد الغفور العطار (١٣٣٧ هـ/ ١٩١٨ م) وحسين عرب (١٣٣٨ هـ/ ١٩١٩ م) وسراج خراز (١٣٣٩ هـ/ ١٩٢٠ م) وعبد العزيز الرفاعي (١٣٤٢ هـ/ ١٩٢٣ م) وعلي زين العابدين (١٣٤٣ هـ/ ١٩٢٤ م) وأحمد جمَال (١٣٤٣ هـ/ ١٩٢٤ م) وعبد الغني قُستي (١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٧ م) وعبد العزيز الربيع (١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٧ م) وضياء الدين رجب، وعبيد المدني وأحمد العربي (ولم نعثر على تاريخ ولادتهم) وهؤلاء جميعاً من الحجاز.

ومن شعراء نجد خالد الفَرَج (١٣١٦ هـ/ ١٨٩٨ م) وعبد الكريم الجُهَيْمان (١٣٣٣ هـ/ ١٩١٤ م) وعثمان الصالح (١٣٣٥ هـ/ ١٩١٦ م) وعبد الله بن خميس (١٣٣٩ هـ/ ١٩٢٠) وعثمان بن سيّار (١٣٤٨ هـ/ ١٩٢٩ م).

ومن جِيزان محمد بن علي السنوسي (١٣٤٢ هـ/ ١٩٢٣ م).

ومن المنطقة الشرقية محمد سعيد الخُنَيْزي (١٣٤٣ هـ/ ١٩٢٤ م) وعبد رب الرسول الجِشّي (١٣٤٤ هـ/ ١٩٢٥ م) ومحمد سعيد المُسَلَّم (١٣٤٤ هـ/ ١٩٢٥ م) وأحمد المبارك (لم نعثر على تاريخ ميلاده).

ولقد تركت هذه الفئة دواوين كثيرة، ونخص بالذكر العَوّاد، والقنديل،

وإسماعيل صبري ، والمازني ، والعقاد ، والرافعي ، وطه حسين ، وأحمد أمين ، وزكي مبارك ، والزيات ، ومحمود محمد شاكر ، وسيّد قطب ، وسعيد العريان مدارس فكرية وأسلوبية لها تلامذتها الكثيرون . ولم يكن يصدر لأحد هؤلاء أو لغيرهم كتاب أو ديوان حتى يسارع هؤلاء القراء إلى شرائه ودراسته :

وإذا انصرف الجيل الجديد في مصر والبلاد العربية اليوم عن تلك المعارك النقدية ؛ لأنه انشغل بألوان جديدة من الفكر والأدب ، فإن عدداً من أدباء الجزيرة لا يزالون يهتمون بتلك المعارك ، ويقارنون بين العقاد وطه حسين ، ويتناقشون في إمارة شوقي للشعر ، وهل كانت عن حق أو عن غير حق . ويبلغ بهم الاهتمام أن يستفتوا طائفة كبيرة من أرباب القلم والرأي في موضوع من الموضوعات الأدبية ، كما فعل عبد السلام الساسي في كتابه « نظرات جديدة في الأدب المقارن وبعض المساجلات الأدبية » .

إن معظم شعراء المملكة المعاصرين هم من هذا الاتجاه الأدبي . وفي محاولة سريعة لتقصي أعمارهم وجدناها بين الخمسين والسبعين سنة بوجه عام . وقليلون من الشعراء الذين يصغرون سنّاً عن الخمسين يبقون محافظين على النهج القديم التقليدي المحض . ومعظم هؤلاء الشباب متأثرون بالتيارات الجديدة ، ولها في أشعارهم بصمات وملامح واضحة ، ومظاهر بيّنة .

ومن العدل أن نذكر أن هذا العدد الضخم الذي يميل إلى طريقة النظم الرزين المحافظ قد تفاعل والفِكَر الجديدة ، واطلع على المدارس الشعرية المستحدثة ، وأخذ عنها ما أعجبه ، وظهر أثر هذا الأخذ في شعره . وهو — بصورة عامة — محسوب على هذا التيار الجديد لأن معظم شعره كان وفق قواعده .

ومن هذه الفئة المحافظة يمكن أن نعدد (دون أن يكون لتعدادنا صيغة الإحصاء والاستقصاء) الشعراء مع الإشارة إلى تأريخ ميلادهم : محمد سرور

حول العيون الجارية في الأحساء ، وغير الأحساء .

وهناك ظاهرة تستحق الاهتمام ، هي أن هؤلاء الشعراء – وبخاصة شعراء هَجَر – لم يطرقوا شعر الهجاء والمجون ، ولم يَبْدُ له أثر في إنتاجهم الوفير . لكنهم اهتموا – أكثر ما اهتموا – بشعر المراسلات ، والبعد بالمديح عن مواطن طلب الرفد والإعانة ، واستجداء الملوك . والتمسّح بركابهم . وهذا ما يدفعنا إلى القول إن كثيراً من شعر المديح الأحسائي لا يتعدى إبراز الحقائق وبَلْوَرَتها .

أما الطائفة الثانية : فقد أتيح لها أن تعبّ من الثقافة الحديثة قدْراً أكبر ممّا تسنى للطائفة الأولى ، إلى جانب تمرسها بالأساليب العربية العريقة ، وتضلّعها بها . ولقد درس معظم أفراد هذه الفئة في أوائل حياتهم دراسات دينية ، وتتلمذوا على علماء في الفقه ، والعربية ، والعلوم السائدة في بيئتهم كما قُيّض لكثيرين منهم أن يَلِجوا أبواب المدارس الجديدة التي استحدثت في عهد الشريف حسين ، ثم في عهد المملكة العربية السعودية ، كما هُيِّئَت لكثير فرص ومناسبات ليستكملوا دراساتهم في مصر والبلاد الأخرى .

ولقد كان لتتابع وصول الكتب والصحف والمجلات الأدبية من البلاد العربية ، وخاصة من مصر ولبنان أثر كبير في تطوير الحياة الفكرية والأدبية ، وتثقيف العقول ، وتكوين الاتجاهات الأدبية . وكان لمجلة المُقتطف ، والهلال ثم الرسالة ، والثقافة ، جمهور من المثقفين ، ينتظرون مواعيد صدورها ووصولها بلهفة ، ويتابعون ما يُكتب فيها متابعة عميقة ناقدة . وينقسمون أحزاباً وشيعاً فكرية : يناصرون هذا الأديب أو ذاك ، ويغرقون في مناقشات أدبية خصبة في مجالسهم الخاصة ، وفي مجتمعاتهم العامة ، وعلى صفحات الصحف والمجلات ، يؤيدون الآراء ، أو يفندون الأدلة التي يسوقها الأدباء الكاتبون في تلك المجلات . فكان لشوقي، وحافظ ، والجارم ، والبارودي ،

١ – طائفة اقتصرت على إحياء الديباجة القديمة المشرقة يضمّنونها فنون الشعر المعروفة .

٢ – طائفة أخرى أحيت تلك الديباجة ، وألمّت بفنون الشعر التقليدية ، وأضافت إلى ذلك موضوعات عصرية أو فِكَراً باقية انصهرت في بوتقتهم ، فكانوا لهذا أرقى مكانة من سابقيهم .

من شعراء الطائفة الأولى: محمد بن عُثَيْمين النجدي ، وأحمد إبراهيم الغَزاوي ، وأحمد بن عبد الله آل عبد القادر [١] ، وأحمد آل ماجد [٢] ، وعبد اللطيف بن إبراهيم آل مبارك [٣] ، وعبد العزيز آل مبارك [٤] ، وأحمد آل مبارك [٥] وعدد من آل الملا [٦] ، وآل مشرف [٧] ، وآل العِلْجي [٨] في الأحساء .

لقد اتحدت مشارب هؤلاء الشعراء ، ولا سيما الأسر الأحسائية ، فكلهم في دراسته كان يلتزم طريقة الأقدمين من الجلوس إلى شيخ يتلقى عنه علمه في مادة من المواد حتى إذا ما فرغ منها انتقل إلى شيخ آخر وهكذا ، حتى إذا أجيز في العلوم المتواضع عليها ، جلس للإقراء ، أو راح يضرب في الآفاق ، أو يعمل في عمل يميل إليه .

وتشابهت الموضوعات التي تناولها أفراد هذه الطائفة فمن مديح ، إلى رسائل ، إلى غزليات ، إلى وصف ، إلى سياسات ، إلى زهديات ، إلى مراث. ونبرتهم جميعاً تكاد تكون واحدة حتى ليمكن أن نستشهد بشعر واحد منهم ، فنعرف مستوى الآخرين .

والأمر المشترك الآخر بينهم ، أنهم على وفرة إنتاجهم ، لم يتخذوا الشعر بضاعة ، ولم يركنوا إلى الأدب حرفة . وإنما كان الشعر أقل شأنهم ، والاشتغال بالأدب روحاً يتفكهون به في مجالسهم ، وندواتهم ، وفي بساتين النخيل ، أو

---

١ – ٨ ترجمتهم في « شعراء هجر » وأغلبها متشابه .

ويمكننا أن نجعل خصائص « النزعة التقليدية الحديثة » في نقاط عدة :

أولها : الاستعداد الفطري للقريض. فشعراء هذه النزعة يندفعون في هذا التيار بموهبة قوية تمكنهم من الإجادة والتحليق في سماء الشعر بأجنحة مكينة .

وثانيها : المحفوظات الشعرية الضخمة من شعر القدماء والمحدثين . وذلك يمكّن رجال هذه الفئة من استصفاء أحسن الأساليب والألفاظ الملائمة لكل موضوع وتمثلها ، وتطويعها لما يدور في نفوسهم من معان وأغراض .

وثالثها : الصياغة المتقنة والمحافظة . وتلك نتيجة طبيعية للموهبة والمحفوظات وهي تتيح لأصحابها القدرة على صياغة متقنة تسير وفق تقاليد الشعر العربي ، وطرائقه في أسلوب التعبير وحفاظه على نهج القصيد الرتيب .

رابعها : تناول الأغراض التقليدية . وأرباب هذه النزعة يجنحون في حدود هذا الإطار إلى الأغراض الشعرية التقليدية ، ويلمّون بالصور والمعاني التي ألـمّ بها أسلافهم من الشعراء ، وربما طرقوا موضوعات مستحدثة ، أو غير مألوفة لدى القدماء .

خامسها : اختفاء شخصيات الشعراء في أدبهم . ولكنْ ربما وفق بعضهم إلى حقائق باقية ، أو ربما عالجوا أفكاراً خاصة نبتت من عقولهم وقلوبهم ، وصبوها في الإطار التقليدي .

وأخيراً الاتزان : والنقاد عادة يجعلون من خصائص هذه النزعة الاعتدال والاتزان ، وعدم جموح الخيال ، ثم التغني بالفضيلة ، وذم الرذيلة »[1] .

وبالنظر في تلك الخصائص يلاحظ أن « الموهبة » و « المحافظة على عمود الشعر » هما الأساس المشترك بين شعراء النزعة التقليدية الحديثة الذين يتفاوتون في شاعريتهم بحيث يمكن أن نقسمهم قسمين :

---

١ التيارات الأدبية ص ٢٦٠ .

لسائر الروافد . وأكثر الشعراء في هذه المرحلة كانوا استمراراً للشعراء القدماء ، يؤثِرون لشعرهم الثوب التقليدي ، ولكنهم ينسجون خيوطه من خير ما وصلت إليه لغة الشعر من قوة وجمال .

ولقد ساعد على هذا النسج الجديد عوامل كثيرة . منها : وصول التراث العربي الشعري مطبوعاً إلى أيدي الشعراء وذوي الملكات الأدبية ، وزيادة الاتصال بالبلاد العربية وبالخارج الذي كان يقوى مع مرور الزمن ، إلى جانب عوامل عدة ، سبق أن تعرضنا لكثير منها في الفصول السالفة .

وكان من فعل هذه المؤثرات أن أصبح المثل الأعلى لدى الشعراء الجدد أبو تمام ، والبحتري ، والمتنبي ، والشريف الرضي ، وأبو العلاء ، وابن زيدون ، وسواهم من الفحول . وتلاشى شيئاً فشيئاً تقليد شعراء عصور الضعف والانحدار وفي هذه النقلة في التقليد بدأت مرحلة جديدة في الشعر السعودي يمكن أن نسميها بـ « النزعة التقليدية الحديثة » [1] .

لقد كان آل عُمَيْر ، والحنفي ، والصَّحاف ، والسّنوسي ، وابن سَحمان مقلدين . وهذه الفئة التي سنأتي على ذكرها كذلك من المقلدين ؛ لكن الفرق بينهما : أن الفئة الأولى كانت تقلد شعراء العصرين المملوكي والعثماني وتنهج نهجهم . أما الفئة الثانية فقد راحت تقلد شعراء عصر القوة والمجد الأدبي . وشتان ما بين المقلّدين .

ولهذه الأسباب أمكننا أن ندعو الفئة الجديدة بجماعة « النزعة التقليدية الحديثة » ، ولم ندعها بالمدرسة « الكلاسيكية » — بالرغم من انطباق كثير من سماتها عليها — لأن لهذه الكلمة مدلولاً في الأدب الغربي يختلف عن مدلولها في الأدب العربي ، كذلك لرفض بعض الدارسين هذه التسمية المستوردة .

---

١ ونعني بها « الكلاسيكية الجديدة » .

وجازم الفعل والماضي بظـــاهره   ومَنْ سواهُ ضميرٌ جاء يَسْتَتِر
والحذف والنقص من حرف البناء إذا   ما جاء فهو على شانيه ينحصر

فالمبالغة ، وترسُّم نهج القدماء ، وانعدام ذاتية الأديب ، والإشادة بالحكام ، وشيوع الكلمات المميتة ، والتعبيرات المحنّطة ، ومصطلحات النحو الجافة ، كلها سمات للنزعة التقليدية الجامدة[1] نراها في هذه الأبيات وفي النماذج التي سبقتها .

ختاماً ، من الإنصاف أن نذكر أن هذه الأشعار التي تمثّلْنا بها ليست إلاّ شواهد للفكرة التي أوردناها ، ولأصحابها نظم خير منها ، ليس فيه من السقم والركاكة مثل ما رأينا ، لكنه يظل تقليدياً ، وتبدو عليه آثار التعب والإنهاك .

وما إن أهلّ القرن المتمم للعشرين على الجزيرة العربية حتى لاحت تباشير النهضة ، وبدأ الشعر يخلع ثوبه الخَلِق ، ويتحلّل من أسلوبه المهلهل جاهداً في التخلص من إطاره السقيم الذي ران عليه دهراً طويلاً . وبخاصة في العهد العثماني . ولم تكن الثورة على ذلك النمط من التعبير الهزيل إلاّ جزءاً من الثورة الشاملة في نفوس العرب تُجاه مختلف أوجه الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية وأخذ الشعراء ينزعون إلى تحرير الأسلوب متساوقين مع نزعة تحرير الأفكار والأوطان .

وطبيعي أن الثورة على الأسلوب المهلهل لا تتم بين عشية وضحاها . فالمرحلة التاريخية التي عاشت فيها الجزيرة في الربع الأول من القرن العشرين كانت تحتّم على الشعر العربي أن يسير في الطريق التقليدي أول الأمر ، إذ لا بد للتيار الأصيل من أن يأخذ مجراه ثم يفسح صدره بعد ذلك كلما أوغل في سيره

---

[1] التيارات الأدبية ص ٢٠٥ .

فاستهل بالغزل ومما قال :

بروحي مهاة قد غدا سحر بابلٍ بمقلتها النّجلا الّتي قتلت جـَمعا
إذا نظرتْ عيني أراقم فرعهـا يخيّل لي من سحرها أنها تسعى

ليس في هذا الغزل عاطفة أو جمال ، أو شيء يستحق الاهتمام ، وكان همّ الناظم أن يأتي باستعارة في قوله « بروحي مهاة » وتشبيه في « أراقم فرعها » واقتباس في « يخيل لي من سحرها أنها تسعى »[1] . ومعظم شعره على هذا النمط .

وابن سحمان نظم في كل ما خطر بذهنه ، حتى في تعليم الكتابة كقوله :

اكتب ككتبي كما قد كنت أكتبه كتْباً ككتبي لهذا الكتب في الكتب
كذاك كنا فكن في الكتب كيف نكن إلاّ تكن كيف كنا كنت ذا كأب
سطر بسطر كهذا السطر أسطره سطراً سليماً سوياً تسْمُ في الرتب
حرف بحرف على حرف كأحرفه واحذر من الحَيْف في حرف بلا سبب

وطبيعي أن هذا ليس شعراً ، وإنما هو صورة من الرصف لألفاظ ينطبق على مجموعها وزن من الأوزان ، وأما أشعاره الأخرى فليس فيها هذه الألاعيب ولكنها لا تخرج عن حدود النظم .

وأخيراً علي السنوسي المولود بمكة سنة ١٣١٥ هـ/١٨٩٧م والمهاجر إلى زَبيد والمراوعة — من جهات اليمن — للدراسة والتعلم . مدح الملك عبد العزيز آل سعود ومما قال :

.. ومفردٌ بالمعالي جاء منحصراً في نعته المبتدا المرفوعُ والخبرُ

---

١ مقتبسة من قوله تعالى في سورة طه ، الآية ٢٠ « فإذا هي حية تسعى » .

وعلي الحَنَفي الحجازي[1] . وهو أحد مدرّسي الفقه الحنفي في المسجد الحرام . (توفي حوالي سنة ١٢٦٠ هـ / ١٨٤٤ م) شكا حال الدنيا وما فيها من مفاسد فقال :

نظرتُ بني الدنيا فلم أرَ منهم   أخاً صادقاً في وده وخطابه
وجرّبت أبناء الزمان فلم أجد   سوى ظالم ، والظلم ملء إهابه
فجرّدتُ من كنز القناعة صارماً   يُبيد ، وما أبديته من قِرابه
غني بلا مالٍ عن الناس كلّهم   وعز الفتى للنفس خير اكتسابه
وحرص الفتى فقر وإن كان [مثرياً][2]   وليس الغنى إلاّ عن الشيء لا به
ومن ظنّ أن الظلم يَعْمر بيتـه   فما هو إلاّ جاهلٌ عن صوابه
«ومن لم [يكن] بالعدل يعمُر دارَه »[3]   فقد حدّثته نفسه بخرابه

إن عرض صور الناظم على محك النقد ، ومناقشته في « تجريد الصارم من كنز القناعة دون أن يخرج من قرابه » ، « وفكرة الغنى عن الشيء لا به ». « وعبارة الشطر الأول من البيت الأخير » تدفعنا إلى الحكم الجائر على الأداء الفني عند علي الحنفي في هذه القصيدة وفي قصائده الأخرى المماثلة ؛ وتضطرنا أن نُخرج مثل هذا النظم من دائرة الشعر ، ونقول عنه : « إنه كلام موزون مقفّى له معنى » ولا شيء أكثر من ذلك .

وعبد المحسن الصحاف شاعر البلاط الهاشمي مدح الشريف « حُسيناً » .

---

١ له ترجمة موجزة في كتاب « سير وتراجم » لعمر عبد الجبار ص ١٩٤ . ولم يشر المؤلف إلى وجود ديوان للمترجم له .

٢ وردت في الأصل « ثريا » ونحن الذين أضفنا للكلمة « ميماً » ليستقيم الوزن .

٣ هكذا ورد في الأصل مكسور الوزن ونحن أضفنا كلمة [يكن] . وواضح أن الشطر بتركيبه سقيم .

بمحاكاة شعراء عصور الضعف في أساليبهم ومضامينهم ، والميل إلى المبالغة في التصوير ، وتصيّد ألوان البديع والعناية بالأسلوب المزخرف أكثر من العناية بصحة المعنى أو رفعته ، وانعدام شخصية الشاعر الفنية ، واستمداد عواطفه ، وأفكاره ، وأحاسيسه من ذاكرته ، وما ترسّب فيها من رواسم قديمة ، وتعبيرات عتيقة قد تكون بَلِيَت من كثرة الترداد ، كما يتميز هذا اللون بتصويره مزاج السادة الحاكمين ، دون أن يبدو فيه أثر مزاج الشاعر ، وآراء الناس وأمزجتهم .

من أعلام هذه « النزعة التقليدية الجامدة » محمد سعيد بن عبد الله آل عُمَيْر ، وعلي بن عبد الله الحَنَفي ، وعبد المحسن الصحّاف ، وعلي السّنوسي وابن سَحْمان .

فالأول هو محمد سعيد آل عُمير [1] من مواليد الأحساء سنة ١١١٠ هـ/ ١٦٩٨ م . انحصرت ثقافته في علوم العربية والدين ، وانحصر عمله في القضاء والفتوى وتدريس العلوم العربية . ومن شعره في علم النحو :

الحمد لله الذي قد فتحا … باب العطاء دائماً لمن نَحَا
ملتبساً بخفضه ذا كَسْرِ … مُعَلَّق القلب بفعل الأمر
منتصباً بحال شكر لازمه … مُجَنِّباً لفعله جوازمه

وإذا كان مثل هذا الكلام يعتبر في زمان الشاعر براعة استهلال ، ودليلاً على الشاعرية ، فإنه في زماننا لا يعدو أن يكون رَصْفاً لألفاظ لا معنى لها يُسمن أو يُغْني أو يُسرّ .

[1] تفصيل ترجمته في « شعراء هجر » لعبد الفتاح الحلو ص ٥ . ويشير المؤلف « الحلو » أنه ليس للشاعر ديوان .

الفصل الأوّل

التيارات الأدبية

إن الحديث عن الأداء الفني في القصيدة السعودية المعاصرة لا تستقيم بين أيدينا طرائقه إلاّ إذا وصلناه بالماضي القريب على الأقل؛ ليمكن الوقوف على الفرق بين أسلوب القدماء وأسلوب مَن أتى بعدهم، وليمكن – كذلك – معرفة النواحي التي يسبق إليها التطور، والنواحي التي تتخلف عن مضماره. وسنحاول أن يكون الحديث عن هذا الماضي حديثاً مقتضباً أقرب إلى اللمس العابر الخفيف. وبحسبنا إشارات موجزة تغني عن التفصيل.

في عهود الجمود الفكري والتشتت السياسي، والضعف الاجتماعي تسود القيود اللفظية في الأدب، كما تنعكس مظاهر الحياة الخالقة على أساليب الأدب، فتبدو مهلهلة سقيمة رثّة، لا بهاء فيها ولا رواء.

ولقد رأينا صورة الحياة العامة السياسية والفكرية والثقافية التي سادت الجزيرة العربية قبل نشوء المملكة العربية السعودية في الفصول السابقة. لذلك فلا بِدع أن يكون الأدب في تلك الفترة صورة عن الحياة العامة، ولا غرابة إذا طالعنا الإنتاج الشعري الذي ساد آنذاك، فرأيناه محشواً بالتعابير الفقهية والنحوية، وفنون البديع المختلفة. إن ذلك كله نظم لا يختلف عن نظم شعراء العصرين المملوكي والعثماني.

ويمكننا أن ندعو هذا اللون «بالنزعة التقليدية الجامدة»[1] وهي تتميز

---

[1] ونعني بها «الكلاسيكية القديمة».

وإلى جانب هذه الشخصية المتميزة عند الفنان لا بد لكل أثر فني كي يُفهم ، أو يُؤوّل ، أو يقوّم ، في ظل فرديته ، أو في ظل أصالة مؤلفه من أن يُقرن بالبيئة العامة التي عاش فيها المؤلف ، وظهر فيها الأثر . فالأديب فرد وثيق الصلة بما حوله . وقصيدته عمل جزئي ، لا يمكن أن تُدرس وكأنها حالة فردية ، بل تدرس على ضوء البيئة ومؤثراتها .

وعلى هذا الضوء الذي يشير إلى وجوب ربط النتاج الأدبي بالبيئات الاجتماعية والثقافية السائدة نعرض لأسلوب الشعر السعودي ، تاركين مجال الحديث عن أسلوب النثر إلى الفصول التي تتحدث عن فنونه كالمقالة والقصة والمؤلفات المختلفة .

ونبادر إلى القول — تبعاً لذلك — : بأن هذا الشعر ، بألوانه ، وأساليبه ، وخصائصه ، كان أشبه بالنبتة التي انبثقت عن بيئتها وظروفها الخاصة من حيث التربة والمناخ والحرارة والهواء . فهو وليد هذه البيئة من حيث شكله أو محتواه .

ونتساءل إلى أي مدى كان الشاعر السعودي من حيث منحى أسلوبه يصدر عن البيئة الاجتماعية ، أو بكلمة أخرى ما نصيب شعره من العناصر المنبثقة عن ذاته المبتكرة ، أو من العناصر التي اكتسبها من مخزون ثقافته ، ومن ثم ، ما مدى التقليد والتجديد في القصيدة السعودية ؟

وعلى هذا الأساس ، فإنا نريد في هذا الباب أن نتحدث عن التيارات الأدبية في الشعر السعودي ، ونقف على ما كان « تقليدياً جامداً » أو « تقليدياً متطوراً » ، وعلى ما كان يجري في طريق « الرومنسية » ، أو في طريق « الواقعية » ، أو ما كان يزاوج بين هذه وتلك . ثم نعوج على تلمس المؤثرات العامة في الشعر السعودي ومصادرها القديمة والحديثة والعربية والأجنبية ، ثم نقف على بنيات لقصائد متباينة في أشكالها أو في أوزانها . ونفصل القول في الأوزان والقوافي السائدة في مجموع الشعر السعودي المعاصر .

إن العبارة في الشعر تختلف عمّا هي عليه في النثر . فهي تحمل شحنة منيرة وموحية . والمعنى في الشعر غيره في النثر . فهو يخضع للقرينة ، ويتّسم بالمرونة ، ولا يكون له ذلك المدلول الثابت الذي نراه في النثر [1] .

فالشعر تؤدّى معانيه في حلة من الصور والمجازات والرموز ، وهو في ذلك يوحي ولا يقرر ، يثير ولا يجزم . والفرق بينه وبين النثر كالفرق بين الرقص والسير . فالمرء في النثر كمن يسير نحو هدف متبعاً في ذلك طريقاً مرسوماً ، ويقصد إليه قصداً مباشراً متوخياً فيه الاقتصاد في السير وتوفير الجهد .

وفي فنون الشعر – عامة – ربما لا يهتم الناقد أو الباحث بأحداث العصر التي انطوى عليها هذا الشعر بذاتها بقدر ما يهمه صداها في نفس الشاعر ، وانعكاسها في شعره ، ومدى ما تثيره في نفسه من دوافع . فالحدث الخارجي ليس غاية في ذاته في الفن ، وليست مهمة الفنان أن ينقله حرفياً ، وأن يكرر نُسَخاً متماثلة عنه ؛ لأن في الأصل والواقع ما يغني عن ذلك . والشأن كل الشأن في صدق التجربة ، وأصالة التعبير عنها .

إن طرافة التعبير ، وجدّته ، ومبلغ فنيّته ، وذاتية التجربة الشعورية ، هي التي تميّز شخصية الفنان ، وتفرده عن سواه ، وتبرهن الحقيقة القائلة : إن الأسلوب هو الرجل .

---

١ استلهم هذا الباب من نظيره في « الاتجاهات القومية في الشعر العربي الحديث » للدكتور عمر الدقاق .

الباب الخامس

الأداء الفني في الشعر السعودي

بالضاد إن انتُزعت العقيدة من صدورهم .

وثاني البراهين أن أدباء السعودية محايدون سياسياً. يحاربون الشيوعية لأن مبادئها – في نظرهم – تخالف الدين وتقضي على المطامع الفردية والحرية الإنسانية .

والإسلام قرر أن لكل مواطن حق التملك ، وحق الحرية . والأدباء يحاربون في الوقت ذاته انكلترا وفرنسا وهولاندا والبرتغال وأمريكا لأنها تسفك الدماء ، وتمتص خيرات العالم ، وتذيق الناس أفانين العذاب ، وتزرع الفقر والخراب في كل أرض تحل بها . ومن هذا المنطلق : نود أن نصحح وهْماً طالما زعمه الكثير من الناس حين قاسوا على السياسة الرسمية اتجاهات الأدباء ، وربطوا بينهما ، فإذا كان بين المملكة وبين الشركات البترولية علاقات ومعاهدات ومنافع ومصالح وجب – في زعمهم – أن يكون بين الأدباء السعوديين والشركات تلك المصالح والمنافع نفسها ، ومن ثَمَّ ، فالأدباء حماة الشركات البترولية ومحاموها ! وهذا وهْم كبير. والمتصفح للنتاج الأدبي يجد مئات المقالات والقصص والقصائد تنعى على الأمريكان أفعالهم ، وتُسَفّه مواقفهم ، وتهاجم استعمارهم وحروبهم وظلمهم ، وتأييدهم لإسرائيل . ويبدو أنْ لا تناقض بين موقف الدولة من الشركات وموقف الأدباء من الاستعمار الغربي بكامله ، والأمريكي بشكل خاص . لكنه إذا جنح أديب – عن خط الاعتدال – إلى الفوضى – ولم أجد لهذا وجوداً – أمكن رده إلى الصراط المستقيم .

وثالث البراهين أن الرجولة سمة طاغية على هذا الأدب .. وحين نقف على التيارات الفكرية المتضاربة الوافدة من خارج الحدود وداخلها ندرك ما يعانيه الأدباء من صعوبات في سبيل هذا التعبير. ولا شك في أنه وراء هذا الفيض الأدبي، ووراء هذا الانطلاق إلى شتى قضايا العالم ، قريبه أو بعيده، تكمن شخصيات أول سماتها : الرجولة ، والصمود أمام الواقع والحدود ، بشجاعة وإيمان .

والمقارنة المطمئنة لَتَتثبّتان هذه الحقيقة وهي : أن الأدباء السعوديين ساروا في خطٍّ موازٍ للخط العربي ، ولم يتخلفوا عنه في شيء بل لم يستطع الأدباء العرب أن يتقدموا عليهم في سباق . قد يكون أبناء العروبة — غير السعوديين — أكثر إنتاجاً وأغنى صوراً ، وأجزل أسلوباً من أبناء الجزيرة وهذا عائد إلى انتشار الثقافة في بلادهم ، وعراقتها ، وإلى الحدود المفتوحة لمختلف ألوان الفكر والأدب تَرِدُ من العالم الخارجي بحرية أوسع ، وتستقبل بصدر أرحب ، وإلى العدد الكبير من حَمَلَة الأقلام الرفيعة إذا قيس بعددهم في الأرض السعودية . ولكن إذا قرنّا كمية الإنتاج السعودي الصادر في عهد النهضة بمثيلها في بلد عربي آخر اعترتنا الدهشة لوفرتها ، وغزارتها ، وحرارة عاطفتها . هذه الغزارة تجمعت من الروافد المتعددة التي انصبت في مجرى الأدب السياسي : الدين من ناحية ، والعروبة من ناحية ثانية ، والنضال الآسيوي الإفريقي من جهة ثالثة . وطبيعي أن هذه الروافد تشكل شلالاً في اجتماعها ، وتلاقيها . وهذا ما حدث .

وبعد ، فهل لهذا الأدب السياسي شخصية خاصة تميزه من مثيله في الأقطار العربية الأخرى ؟ إنّا لنميل إلى الجواب بالإيجاب . واجتهادنا في ذلك يقوم على البراهين التالية :

أولها : أن هذا الأدب ينطلق من مبدإ راسخ هو العقيدة الإسلامية . فكل مشكلة داخلية أو عربية ، أو إسلامية يُنظر إليها من زاوية دينية قبل كل شيء ، فاضطهاد العُمَانيين ، والعَدَنيين ، وحريق دمشق ، ووحدة مصر وسورية ، ونضال الجزائر ، وفلسطين ، وغيرها ، إنما هي مشكلات إخوة في الإسلام ؛ تذلهم « علوج » وتسحقهم قوات «كافرة » ، ونصرتهم هي نصرة للدين وأهله . وحين نظر الأدباء إلى القومية وجدوا أن الدين جوهر أصيل يجب أن يكون فيها ، فلا قومية بدون دين ، ولا رابطة متينة بين الناطقين

فلسطين [1] والجزائر [2] ما لم تنله قضية أخرى في الآداب العالمية، قديمها وحديثها. كذلك انطلقوا من الدائرة العربية إلى الدائرة العالمية ، فوقفوا إلى جانب الشعوب المستعبدة ، وأخذوا بناصرها ، ونادَوْا بحقها في الحياة الحرة [3] ، وحملوا على الاستعمار الغربي حملة شعواء ، وهتفوا بالسلام للعالم أجمع ، وسفّهوا دعاة الحروب والمتسابقين إلى التسلح ، والمتنافسين على ابتكار وسائل الموت والدمار [4] .

أولَم تكن هذه المنطلقات العربية هي نفسها المنطلقات السعودية ؟ أولَم يخض أدباء هذا البلد فيما خاض فيه الأدباء الآخرون ؟ أولَم يكن صوتهم عالياً ، وإخلاصهم نقيّاً كصوت المجاورين وإخلاصهم ؟ . إن الدراسة الهادئة ،

---

١ انظر في دواوين بشارة الخوري ، ومحمد مهدي الجواهري ، وعمر أبي ريشة ، ونسيب عريضة، وإيليا أبي ماضي، وإلياس فرحات، وجورج صيدح، ومحمد علي الحوماني، وخليل مردم بك ، وشفيق جبري ، وأنور العطار ، ومحمد حسن إسماعيل ، وإبراهيم طوقان ، وفدوى طوقان ، وعبد الكريم الكرمي (أبي سلمى) ، ويوسف الخطيب ، وهارون هاشم رشيد ، وعلي هاشم رشيد ، وعيسى الناعوري ، وحسن البحيري ، ومحمود الحوت ، وكمال ناصر ، وسلمى الخضراء الجيوسي ، وعزيزة هارون ، وعمر بهاء الأميري ، ونزار قباني ، وعلي محمود طه ، وأحمد زكي أبو شادي ، والشاعر القروي ، وأحمد فهمي ، وأمين شنار ، وسليمان العيسى .

٢ انظر في دواوين سليمان العيسى ، وكاظم جواد ، ومؤلفات مالك حداد ، «الحرية ومأساة التعبير» ، و «الشقاء في خطر» ، و «الانطباع الأخير» ، و «سأهديك غزالة» ، و «أنا المعلم والتلميذ» ، و «رصيف الورد لم يعد يجيب» ، و «اسمع وأناديك» ، و «الأصفار التي تدور في الفراغ» ؛ ومفدّى زكريا في «اللهب المقدس» ، و«أهازيج الزحف المقدس» ، و «انطلاقة ست سنوات في سجون فرنسا» ، و«حواء المغرب العربي في معركة التحرير – الثورة الكبرى» ؛ وسعد فؤاد زغلول ، «الجزائر في معركة التحرير» ؛ والجنيدي خليفة ، «من وحي الثورة الجزائرية» .

٣ انظر في دواوين سليمان العيسى ، وكاظم جواد .

٤ تكاد دواوين الشعراء العرب جميعها تحتوي على هذا المعنى .

من تحتها ، وسلقوا الاتحاديين بألسنةٍ حداد [1] ، وحملوا على ظلمهم وعسفهم ، وجنوحهم إلى التتريك ، واضطهادهم للزعماء العرب ، ونصبهم المشانق لكل من ينادي بالتحرر والنجاة من نيرهم [2] . وكم أغدق هؤلاء الأدباء على الثائرين وطلاب الحرية [3] بالثناء العاطر ، وكم أفاضوا طيب القول على الفدائيين ، والشهداء والمواطنين المصابين في أموالهم وأرواحهم [4] . وحين تكالب الاستعمار على الشرق العربي إنهالوا عليه لوماً وتجريحاً ، وحضوا الناس على الثورات ، وتقديم الأضاحي والقرابين على مذابح الاستقلال والحرية والكرامة [5] ، وجعلوا قضايا العروبة على رأس الأمور التي يهتمون بها في حياتهم ، فنالت قضيتا

---

١ انظر في : ديوان خليل مردم ص ٤٧٦ ؛ جورج صيدح ، «أدبنا وأدباؤنا في المهاجر » ص ٤٠٧ .

٢ انظر في : ديوان القروي ص ٢٧٥ ؛ وشفيق جبري ، « أنا والشعر » ص ٤٩ ؛ رفائيل بطي ، « الأدب العصري في العراق » – وقصيدة الزهاوي المسماة بـ « النائحة » ص ١٨ ؛ وديوان خليل مردم ص ١١٨ ؛ وعمر دقاق ، « الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث » ص ٣٩١ .

٣ انظر في ديوان إلياس فرحات ص ١٧١ ؛ والشوقيات ٣/٢٢٧ ؛ وديوان خليل مردم ص ١٣١ ؛ وديوان الجواهري ٣/٢١٦ .

٤ انظر في : الزركلي ، ديوان الثورة ص ٣٠ ، ٨٥ ؛ والشوقيات ٢/٨٨ ؛ وديوان إبراهيم طوقان ص ٣٨ ؛ وديوان عمر أبي ريشة ص ١٩٩ ؛ وحسين محمد، « الاتجاهات الوطنية » ٢/١٥٥ .

٥ انظر في : أمجد الطرابلسي ، مجلة الرسالة سنة ١٩٣٦ ص ٥٥٠ ؛ وديوان خليل مردم ١٤٩ ؛ ومحبوب الشرتوني ، « ديوان الإلهام» ص ٨٣ ؛ وديوان أمين ناصر الدين ٤/٩٢ ؛ وبشارة الخوري « الهوى والشباب » ص ١٥٦ ؛ وديوان الشاعر القروي ص ٣٤٣ ؛ جورج صيدح، « أدبنا وأدباؤنا » ص ١٤٥؛ وديوان الجواهري ص ٨٥ ؛ وديوان فؤاد الخطيب ص ٥٤٢ ؛ وديوان الصافي ص ٤١٥ ؛ وعلي الجندي ، « أغاريد السحر » ص ٩٧ .

تلك هي الاتجاهات الرئيسة للأدب السياسي في المملكة العربية السعودية دارت في أفلاك أربعة : ديني ، وعربي ، وإسلامي ، وعالمي .

أما المعاني الجزئية التي نهض بها هذا الأدب فيمكننا أن نجملها في استنهاض الهمم ، والتنديد بالواقع الأليم ، والتذكير بالماضي المجيد ، والدعوة إلى التآخي ونبذ التفرقة ، والحث على وحدة البلاد العربية ، والإشادة بالبطولة والشهادة والفداء ، والهتاف للحرية ، وأخيراً بالدعوة إلى السلام العالمي .

وإننا لنتساءل بعد هذا العَرْض الموجز السريع أين يلتقي الأدب السياسي في البلاد العربية المجاورة ونظيره في السعودية ، وأين يفترق ؟

في اجتهادنا : أن مواطن اللقاء بين هذين الأدبين متعددة ، وهي أكثر من مواطن الافتراق . فلقد تعرض عدد من الأدباء العرب في مستهل العصر الحديث إلى الخلافة الإسلامية المستوية على عرش الآستانة فأشادوا بها ، وبرجالها ورأوا أنها الحصن الحصين للإسلام والمسلمين[1] . ثم وجَموا حين انهار العرش

= وتسوقني نحو الزريبة كلّما ولّى النهار
بعصاك تلهب ساعدي وبالشتيمة والصغار
أعرفتني
أعرفتني من ذا أكون ؟ وفي يدي مفتاح أمرك
أعرفتني . أشهدت طوفاناً سيجرف ثقل قصرك
أعرفتني

وانظر قصيدة القرشي « الحارة الزنجية » في ديوانه « نداء الدماء » ص ٥٦ فهي في المعنى ذاته .

١ انظر في محمد المبارك : «الأمة العربية في معركة تحقيق الذات » ص ٦٠ ؛ والبارودي ديوانه ٣٧/١ ؛ ومحمد عبده « تاريخ الأستاذ الإمام » ٩٠٩/١ ؛ وديوان أحمد محرم ٤/٢ ؛وديوان حافظ إبراهيم ١٨/٢ ؛ وشوقي « الشوقيات » ٣٠/١ ، و١٠٦/١ ، و٣٨٢/١ ، و٣٥٨/١.

الأحرار في وجه الطغاة والمستعمرين . وتأتي على رأس تلك الموضوعات قضية الكونغو والحوادث الدامية التي دارت بين « لومومبا » و « تشومبي » . وقد اتخذ الأدباء موقف المناصر للأول ، لأنهم رأوا فيه رمز الحرية ، وموقف المهاجم للثاني ؛ لأنهم وجدوا فيه رمز العبودية والعمالة للأجنبي [1] . ولم تكن قضية التمييز العنصري بين السود والبيض في جنوب إفريقية بالقضية التي لا تلفت أنظارهم ، بل خاضوا فيها ، واتخذوا جانب نصرة الوطنيين السود . وكان بعضهم شديد العنف في لهجته حتى لقد تمثل نفسه أنه المواطن الأسود يخاطب المستعمر الأبيض، ويذكّره بما كان يعامله به في الماضي ويُريه كيف يجب أن يحترم الأسود [2] .

---

١ عبر سعد البواردي عن هذه المشاعر بقصيدته « شرارة في أفق إفريقيا » فيقول (أغنية العودة ص ١٢٩) :

سل الأيام تَصْدقك الشهود ... بأي خطى مضى فيها الشهيد
لومومبا هل مضى ولأي درب ... مضى والعمر ليس له حدود
وهل يُمحى من الأيام عار ؟ ... تشومبي كان حامله البليد
سلِ الأيام كيف رأت لومومبا ... وقـد آذاه سمسار لدود
مضى بطل وعاش الدهر عَمْداً ... وهَبَّ لحقه الكونجو العتيد

٢ سعد البواردي اتخذ ذلك الموقف في قصيدته « الطوفان الأسود » فقال : (أغنية العودة ص ١٤) :

أعرفتني أنا أسود . أنا مارد كرؤى القدر
أنا عابس ملأت خطاي الأرض يدفعها الضجر
أنا لعنة البيض الذين دعوا سوادي للحفر
أعرفتني
أعرفتني . بالأمس كنت لديك أخدم كالحمار =

على إعجاب بغَانْدي ، وخطته في الكفاح السلمي [1] ، كذلك نضال « جُوا » [2] للحكم البرتغالي [3] ، وتنديد بالأمريكان الذين قذفوا هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين بالقنابل الذرية ، وأبادوا المدينتين ومحقوهما [4] .

وإذا انتقلنا إلى إفريقية فإنا لَنُطالع في شعرهم – خاصة – صدى زئير

---

١ سعد البواردي نظم في ذلك المعنى بقصيدته « المجهر الكبير » ديوان « أغنية العودة » ص ١٠٥ :

انظر إليه إنّه يا أبي — طفل بساح الذل غُلّت يداه
ما كان ذا جرم سوى أنه — طفل أتى لما دعته الحياة

٢ جوا : اسم المقاطعة الهندية التي استعمرتها البرتغال .

٣ سعد البواردي عبر عن ذلك ورمز للاستعمار البرتغالي بـ « فرعون » فقال (ذرات في الأفق ص ٥٠) :

أتى الأمر يا فرعون وانفلق البحر — وران على الأتباع في لجه الذعر
كأنك والطوفان كبش ومدية — أطاح بها الجزار فانقصم النحر
ثملت في الصهباء حتى كأنما — خلقت على الدنيا ليسلمك السكر
وعجلت للأحرار قيداً وذلّةً — فجدّ وثاق القيد وانتفض الحر

٤ صالح العثيمين يتحدث عن قنبلة هيروشيما بقصيدته « القنبلة الذرية والإنسان » فيقول (شعاع الأمل ١٣٤) :

فها هي « هيروشيما » سَلْ أرضها — فقد سحقتها أكف العدم
فأضحت طلولاً تناجي الذرى — وتبكي على عهدها المنهزم
رمتها على قلبها « ذرة » — تحيل القصور كبعض الأكم
فزلزلت الأرض من هولها — وأغشى الفضاء ودك العلم
فستونَ ألفاً دهاها الردى — وفرق من شملها ما التأم
سقتهم كؤوس الردى صرفها — فغطوا بليل عبوس الغسم

وكذلك انظر محمد حسن الفقي في قصيدته « اليابان » من ديوانه (قدر ورجل) ص ٢٠١ .

المملكة إلى أن يتجاوزوا الدائرة الصغيرة إلى العالم الإسلامي الواسع ، دون أن تقيدهم آراء جزئية ، واجتهادات فردية .

أما الأدب الذي ينحو منحى عالمياً إنسانياً : فقد دفع إليه انتشار وسائل المواصلات ، وشيوع المخترعات الناقلة للأخبار الدولية، وتوافرها في المملكة . وكان أكبر ما أثار الحماسة العاطفية في نفوس الأدباء تلك الحركات التحررية المتفجرة في مختلف البقاع الآسيوية والإفريقية ، تطالب باستقلالها ، وحريتها وارتفاع مستوى حياتها الاقتصادي ، والفكري ، والاجتماعي . وكان مؤتمر « بانْدُونغ » المنعقد في أندونيسيا في سنة ١٩٥٥ م واشتراك المملكة فيه ، وتبنّيها لتوصياته المنطلق الأكبر في هذا الاتجاه الأدبي الجديد[١] .

وإذا رحنا نتلمس انعكاسات هذا الاتجاه في الآثار المكتوبة ، وقعنا على تأييد عنيف لنضال القبارصة بقيادة الأسقف مكاريوس تحت لواء منظمة « أيوكا »[٢] بغية التحرر من نير الاستعمار البريطاني للجزيرة[٣] . ووقعنا

---

١ عبر عبد الرحمن العبد الكريم العبيد عن فرحه بنتائج مؤتمر باندونغ فقال (شعراء نجد المعاصرون ص ٢٥٣) :

« باندونغ » يا أمل التحرر مرحباً — قد زدت تقرير المصير يقينا
هي ثورة الأحرار سفر خـالد — وطىء البغاة وروّع الطـاغينا
الآسيويون الذين تضـامنوا — ورنوا إلى إفريقيا يشدونا
جمعتهم الثورات من أجل المنى — ومواكب النجوى ومن يرجونا

٢ اسم يوناني لمنظمة فدائية . ظلت تناضل الإنجليز حتى انتزعت استقلال قبرص من انجلترا .

٣ قال البواردي على لسان مكاريوس في ديوانه أغنية العودة ص ١٠ :

اقطعوا رأسي . فما كنت ذليلاً أو حقيرا
اقطعوا رأسي . فما كنت عميلاً أو أجيرا
اقطعوا رأسي . فما ذلي بأن أقضي أسيرا
إنما ذلي حياتي حـانيَ الرأس . صغيرا

إن بين بلاد المسلمين كثيراً من المصالح المشتركة ، وكثيراً من التشابه في المشكلات التي يعانون منها ، وفي الأخطار التي تهددهم ، وتقتحم عليهم ديارهم ، سواء أكانت أخطاراً استعمارية ، أم أخطاراً استثمارية ، أم أخطاراً عقدية [1] .

من هذا المنطلق سعت المملكة إلى إنشاء « رابطة الشعوب الإسلامية » .

نبتت هذه الفكرة في موسم حج سنة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م حين اجتمع « غُلام محمد » الحاكم العام في الباكستان ، و « جمال عبد الناصر » رئيس حكومة الجمهورية المصرية والملك « سعود » ملك المملكة العربية السعودية ، وتباحث الثلاثة في شؤون المسلمين ، وما آل إليه أمرهم من ضياع ، ثم اتفقوا على إنشاء « رابطة إسلامية » للعمل على رفع مستوى المسلمين دينياً وتعاونياً ، واجتماعياً لتقوية أواصر الصداقة والأخوة بينهم [2] . وسارت مصر في الخطوات الأولى ، ثم توقفت . أما المملكة وباكستان فتابعتا المسير ، وانضم إليهما دول كثيرة منها إيران ، وتونس ، والمغرب ، والنَّيْجر ، ونيجِريْا ، وتركيا ، وغيرها . ولهذه الغاية أُسّس في مكة هيئة سميت « رابطة العالم الإسلامي » ، وأصدرت مجلة شهرية تحمل الاسم نفسه ، وجريدة أسبوعية تدعى « أخبار العالم الإسلامي » . ويبدو من خلال الخطب التي ألقاها ملوك المسلمين ورؤساؤهم المنضمون إلى « التضامن » أن إلى جانب رفع المستوى الديني والاجتماعي عند المسلمين تحصينهم من الوقوع بين براثن الشيوعية ومخالب الاستعمار الشرقي بوجه خاص .

بعد هذا يمكن أن نقول : ذلك هو جزء من السبب الذي دعا الأدباء ورجال

---

١ انظر أحمد عسة في كتابه « معجزة فوق الرمال » ص ١٨٠ .

٢ انظر البلاغ الرسمي لهذا الاجتماع في جريدة أم القرى ، السنة الثانية والثلاثين العدد ١٥٥٥ — ١٩٥٥/٣/٤ م .

ونتساءل : ما الذي حدا الأدباء على هذا الاتجاه ؟ وما الذي جعلهم يتجاوزون الدائرة الصغيرة المحدودة المغلقة إلى الدائرة الكبرى والآفاق الرحيبة الوسيعة ؟ بل ما الذي بدّل نظرتهم إلى « المسلمين » ؟

يبدو أن الجواب ذو فروع وشعب – إضافة إلى ما ذكرنا في مطلع هذا الفصل : – أولها : وضع المملكة الجديد ، بكل ما يحويه من عوامل داخلية سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وحضارية وغيرها . وثانيها : الواقع الدّولي المعاصر . وقد شُغف العالم اليوم بإنشاء الأحلاف والتكتلات [1] ، ثم بتقسيم السياسة بين اتجاه « شرقي شيوعي » و « غربي رأسمالي » ، كلّ منهما يسعى إلى ضم أكبر عدد من الدول إلى فَلَكه الخاص .

إن منطق العصر الحديث هو منطق الكتل الكبرى ، وما دام هذا هو نهج دول العالم ، فلم لا تسعى البلاد الإسلامية إلى أن تجتمع في كتلة ، وأن يكون اجتماعها هذا تحت راية القرآن ، وأن تتعاون وتتضامن بينها في كل ما فيه خير لها جميعاً ، وفي كل ما يساعدها على أن تحافظ على استقلالها وسيادتها ، وفي أن ترد كل خطر يهددها ، وفي أن تتبادل الإفادة والمعونة في الخبرة الفنية ، وغير الفنيّة ، وفي أن تتعاون ثقافياً ، واقتصادياً ، وسياسياً لتستطيع الخلاص من دور الدول النامية لتصبح في عداد الدول المتقدمة ؟

= وفي قوة المؤمن المجالد لما كان هناك شعب مشرد يملأ كهوف تونس ومراكش ، وإخوة له يعيشون في مغارات الأوراس ، يكحل مآقيهم بريق القذائف ، ويشنف مسامعهم أزيز الطائرات ، ولعلعة المدافع الجبارة وهي تطمن السكون في جنون ووحشية ، وتمزق مع السكون صدوراً ؛ كل ذنبها أنها تدافع عن وطنها . إنكم لو فعلتم ذلك في حرارة الإيمان ، وفي قوة المؤمن المجالد لما كان هنا في قلب الشرق وعلى مسمع من قبة الصخرة المقدسة دولة بغي وإثم وعدوان في أرض عربية ، تمتص من دماء عربية ، وتبيت السوء لكل عربي ومسلم .. »

[1] نذكر منها حلف الأطلسي ، حلف وارسو ، حلف بغداد ، حلف جنوب شرقي آسيا ، دول عدم الانحياز ، رابطة الشعوب البريطانية ، دول أمريكا اللاتينية .

كثيرة ، يُستضعَفون فيها فيُضطَهدون ، وتساء معاملتهم ، ويُقتَّلون ، ويُذبَّحون ، وتَلْقى أخبارُهم في تُرْكستان ، والحبشة ، وكشمير ، وغيرها الأذُنَ الصاغية ، والاستجابة الفورية [1] .

والتطور الثاني الجديد في هذا الخط الأدبي أن الفروض الإسلامية كالصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، صارت تفسّر تفسيراً – جديداً إضافة إلى كونها واجبات عينية – ، ويشرح الأدباء مقاصدها شرحاً لم يكن معهوداً من قبل . فالحج – مثلاً – « قوة ، ورسالة . قوة للمسلمين حين يتحدون . ورسالة للأخوة حين يجتمعون في وقت واحد . ومكان واحد ، ولهدف واحد . وهذا يدفعهم إلى أن يُجمعوا كلمتهم على الحق ، وعلى نصرة إخوانهم الذين يئنون ذلة من مستعمر ، وينطوون ثقلاً من عبودية ، ويقارعون النار والحديد في ميدانٍ هم وحدهم فيه » [2] . وهكذا النظرة إلى الفروض الأخرى .

---

١ انظر مقالات محمد أحمد باشميل في كتابه «لهيب الصراحة يحرق المغالطات» ص ١٥٠ ؛ وحسن الكتبي في « ملامح من شخصية البلاد العربية السعودية » ص ٣٦٥ ؛ وفؤاد شاكر في ديوانه « وحي الفؤاد » ص ١٨٠ ، ٢٤٣ ؛ وحسن عبد الله آل الشيخ في « دورنا في المعركة » .

٢ سعد البواردي في « فلسفة المجانين » كتب مقالة في الوقت الذي كان فيه الاستعمار منشباً أظفاره في معظم البلاد العربية وخاصة في الشمال الإفريقي . عنوان المقالة : « أيها الحجيج أسمعونا أصواتكم » ص ١٠١ نلخص منها الفقرات التالية .

« للحج صوت لم نسمعه ، وللحجيج قوة لم نرها . فأين هو ذلك الصوت ؟ أين هي تلك القوة؟ أين رسالة الحج؟ رسالة الوحدة بين إخوة يئنون ذلة من مستعمر ، وينطوون ثقلا من حمل عبودية ، ويقارعون النار والحديد في ميدان هم وحدهم فيه عوامل الكفاح والاستبسال والدفاع . أين هي الوحدة في المجهود الإسلامي الذي نادى له الحج ودعا إليه ؟ أين هي المشاكل التي تتعرض لها بعض بلادنا دون أن نحلها ، دون أن نجمع حولها كلمة واحدة ، أو رأياً واحداً ينفذ من طور الفكرة إلى طور التنفيذ ، إلى دور المعالجة والحل السريع .

ما أكثر الشياطين يا إخوتنا الحجيج ! فأين هي حجارتكم لتلقوها عليهم متحدين مجتمعين ؟ أين هي كلمتكم لتصبوها عليهم حانقين مستبسلين ؟إنكم لو فعلتم ذلك في حرارة الإيمان،=

لم يعد الأدب السياسي مهتماً بالجزئيات الصغيرة ، ولا شغوفاً بالفروق المحدودة بين هذا البلد المسلم وذاك ، ولا في تتبع الخلافات الدقيقة بين فكرة هذا الفريق أو ذاك ، إنّما المهم اليوم أن يقف المسلمون جميعاً صفاً واحداً كالبنيان المرصوص أمام الخطر الكبير الداهم عليهم من الشرق والغرب ، وأمام موجة الإلحاد الطاغية المندفعة صوب العالم الإسلامي من كل اتجاه .

وهذه تركيا ، خير شاهد على صحة القول الذي نقول . انها تذكر اليوم فتُمْدَح . ويقال — من جملة ما يقال فيها — « إنها البلد المسلم الذي ساق الفيالق ، والجحافل إلى شتى أصقاع العالم لنصرة الإسلام ، وإعزاز كلمة المسلمين ، وقد فعلت الأعاجيب بالكفر وأهله . ولقد سجل الأتراك في تاريخهم كل عظيمة وعجيبة ، فاستحقوا نصر الله وتأييده [1] » . ومثل تركيا بلاد للمسلمين

---

١ نشرت جريدة « أخبار العالم الإسلامي » في العدد ٦٣ تاريخ ١٩٦٨/١/٢٩ (٢٩ شوال ١٣٨٧ ﻫ) قصائد لشعراء متعددين يحيون زيارة « سوناي رئيس الجمهورية التركية » ومنها قصيدة محمد حسن فقي إذ يقول :

سوناي . حيّاك منا سيّد العرب ... من أرض يَعْرُبَ ذاتِ المجد والحسب
أتيت في موكب قد كان أوله ... يهزّ إن سار . عن بعد ، وعن كثَب
فيالق راعت الدنيا جحاجحهـا ... بالدين — بالعزة القعساء — بالقضب
للهِ ما سجلوا من كل مفخرة ... يكاد يسلكها التاريخ في العجب
قـد دوخت كل معتز بقوتـه ... من الفرنجـة حتى لاذ بالهرب
ما كان إلاّ لدين الله نُفْرَتُهُم ... فأيّد الله منهم كل محتَرِب
لا يلفتون إلى الدنيـا مآربهم ... فما لهم . غير مجد الدين من أرَبِ

كذلك مدحه الغزاوي بقصيدة مطلعها (المصدر نفسه والتاريخ ذاته) :

يا ضيف فيصلنا المحبوب قد فُرِشت ... لك التحيات من وردٍ ومِنْ آس

وكنعان الخطيب بأخرى مطلعها (المصدر السابق ، والعدد ذاته) :

الله أكبر إنّ الشمل ملتئِمٌ ... واليوم نحن بحبل الله نعتصم

وخلالها ، وبعدها «شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة يَنْتَسب » فاتفقوا بهذه النداءات والشعارات مع اتجاه السعوديين القومي ؟

أم لأن المسافة الفاصلة بين الجزائر والسعودية أبعد من المسافة بين فلسطين والجزيرة . والبعد يزيد في الأشواق ويُلهب الحنين ، ويحرك المشاعر أكثر من القرب واللقاء ؟

أم لأن عوامل سياسية خفية أخفتت – إلى حد ما – صوت الأدب في قضية ، وأعلته في أخرى . ولقد اتَّهَمت فرنسا – أيام الثورة الجزائرية – مخابرات البيت الأبيض بأنها تمدّ الجزائريين بالمال ، والسلاح وشتّى المعونات ، لتزيح النفوذ الفرنسي عن الجزائر ، وتُحِل دولتها محلها ؟

الاتجاه الثالث للأدب السياسي : إسلامي محض . وإنه من لَغْو الحديث أن نتحدث عن مقام الدين في هذه المملكة، وأثره في حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية . لكن الجديد أن نتحدث عن الصورة التي صارت إليها العقيدة ، والشكل الذي آلت إليه، بل نتحدث عن العين التي يُنْظَر بها إلى المسلمين اليوم في جميع الأقطار ، ومن ثَمَّ ، عن انعكاس هذه الصورة الجديدة على صفحة الأدب الحديث . ويخيل إلينا أنه لا بد من استذكار الفكرة السابقة عن الدعوة في الخاطر ، ليمكن بها إظهار الفوارق بينها وبين الجديدة .

تلك النظرة القديمة المتعصبة الضيقة ، كادت تنمحي اليوم . لقد أصبح المسلمون – في نظر المملكة وأدبائها – في مختلف البقاع ، على شتّى مذاهبهم ، وطوائفهم ، واتجاهاتهم ، وطرق حكمهم ، واختلاف نظمهم ، إخوة ، وواجبي المناصرة . لقد غابت من الأدب السياسي تلك الأشعار العنيفة ، وحل محلها إنتاج غزير ملؤه الحب والتآخي ، والعاطفة الصادقة ، والصور اللامعة البراقة . أصبح شعار اليوم : مزيداً من الالتحام بالعالم الإسلامي ، والوقوف جبهة واحدة أمام أعداء المسلمين .

ونتساءل عن سر هذا الدلال للجزائر دون غيرها ؟ وتخطر في البال خواطر شتى جواباً .

أكان ذلك لأن ثورة الجزائر بدأت في وقت نَضَج فيه الوعي القومي في السعودية ، فاستطاعوا التعبير الناضج عن الثورة وغاياتها ؟

أم لأن قضية الجزائر أخذت من عمر الزمن المسافة القصيرة ، وكانت خلال هذه الفترة مُفْعَمة بالأضاحي ، مترعة بالبطولات ، متصلة الحلقات آخذاً بعضها برقاب بعض ، لم تترك مجالاً للتراخي أو الانقطاع أو التعقد ، فلا هدنة فيها ، ولا مفاوضات ، ولا شكاوى مستمرة إلى مجلس الأمن والهيئات المحلية أو الدَّولية ، إنما بدأت لتَحْسِم موضوع استقلالها بشكل نهائي ، ولم تعبأ بآلاف الشهداء يتهاوَوْن سراعاً على الأرض ، ولم تخف من سيول الدماء تجري طاهرة على الثرى وفي كل الأرجاء ؟

أم لأن هذه الثورة لم تتعقد كما تعقدت قضية فلسطين ، وظلت بين فرنسا وحليفاتها من وراء ستار ، وبين الشعب الجزائري وإخوته من العرب والمسلمين؟

أم لأن الثائر العربي في إفريقية أبى أن يذل أو يلين رغم عذابه في ثورته ، ومطاردته ، وإحراق بيته ، وتدمير كل شيء يملكه في دنياه ، وصب ألوان العذاب فوق رأسه . ومع هذا فقد أبى أن يخضع ، أو يستسلم أو يهجر وطنه أو يتشرد في الآفاق ، أو يكون عالة على موائد الآخرين، أو ينتظر في آخر كل شهر هيئات البر والإحسان تتصدق عليه بدريهمات غذاء ، أو برُقَعٍ من كساء ؟

أم لأن الجزائريين لم يكونوا عالة على الأمم يستَجْدون منهم المال والعون ووسائل الحياة ، واقتصروا على طلب السلاح فقط ولو صَدِئاً ؟

أم لأنهم — حين ثاروا — جعلوا شعارهم « الله أكبر » و « حَيَّ على الجهاد » و « حيَّ على الشهادة » ووضعوا على رأس نشيدهم قبل المعارك

الحديث عن القصة السعودية تأريخاً أو بحثاً . كأنهم يحقرون كل خيال إلاّ خيال الشعر ، أو كأن القصة بعضٌ من اللعب والوقت المضيّع . ومتى كان المؤلفون يعترفون باللعب أدباً ، أو بنسج الرؤى بياناً جديراً بالتسجيل والحرص والقيمة ؟ ولسنا نريد إلى الفخر والزهوّ ، ولا إلى شيء منهما ، إذا ذكرنا هذه الحقيقة ، وهي أن هذه الدراسة لقصة « القصة » في السعودية المحاولة الأولى من نوعها ، فإنه ليغتفر فيها — كما نرجو — بعض العثرات . ولقد يترك هذا لها على الدرب فرصة لكبوة أو أضلولة ، لعلها تغري باحثاً أكثر عمقاً ، ووسائل بأن يضع الحقيقة في المكان الذي تستحق . فنحن — مع الأسف — لم نستطع الوقوف على البواكير والبراعم الأولى ، وضاعت عنا ، فلسنا نجدها . وكم قلبنا الجرائد — التي قدرنا على الوصول إليها — الصادرة في عهد العثمانيين ، والهاشميين ، بل صحف السعوديين الأولى ، ثم رجعنا صفر اليدين .

ويخيل إلينا أن المحاولات الأولى التي كتبها القصاصون لقيت زراية القراء ، واحتقارهم ولم يقيّض لها أن تدخل الأدب إلاّ من الباب الضيق ، حين ارتضت أن تكون « أجيراً » للنقد الاجتماعي ، قبل أن تصبح سيدة الألوان الأدبية ، وكان الإصلاح الاجتماعي هو « حصان طروادة » الذي أدخلها حصن الأدب . ما دخلت لأنها أحداث تركض في ميدان النادرة والسلوى أو الفن والحياة ، ولكن لأنها حملت القيم الفكرية والاجتماعية لدى المجتمع الجديد ، وعبرت عن المفهومات الحديثة عنده ، في الأخلاق ، والمجتمع ، والحياة . ولعلها — لهذا السبب — لقيت القبول لدى القراء ، وفُتِح أمامها الباب الموصد .

هذه الحصيلة الأولى لم تكن ترجمة من الأدب الغربي ، ولم تكن تعريباً كما كان شأن القصص الأولى في البلاد العربية الأخرى ، إنما كانت عربية البذار والأرومة ، نَسْغُها ونسيجها مُستمدّان من الشمس العربية والأرض السعودية ذاتها . وإذا كان من الغبن ، وتطفيف الموازين أن نقيسها بالمقاييس

الحديثة ، وأن تُحمل القصص الأولى على الجري في شوط واحد مع القصص الأخيرة ، فإن ذلك لا يمنعنا من أن نميزها بعدد من الخطوط العريضة في الوصف. فالقصاصون مسلمون جميعاً ، لم يخرجوا من حدود بلدهم إلاّ لزيارة ، أو نزهة ، أو عمل سريع . ومعظمهم – إن لم نقل كلهم – لا يتقنون لغة أجنبية واحدة . وكانت غاية القصة عندهم الوعظ الاجتماعي . وكثيراً ما كانوا يرمون إلى إثارة الدهشة والعجب ، أو إلى التنديد بعادات ضارة ، وتقاليد بالية . ولم تكن « القصة » شحنة فنية ، ولا قطعة من الحياة ، ولا إنتاجاً « بديعيّاً » ، ولكن مجموع مقالات ، وخطب ومواعظ ، يجري خيط الرواية بينها حادثاً بعد حادث ، وكأنما ابتُكِر ليلصِق بعضها ببعض ، حتى تخلص في النهاية إلى مغزى لا بد أن ينص عليه الكاتب ، ولا بد أن يكون انتصاراً للخير أو للفضيلة . ومن الجَوْر على هذا الفريق أن نناقشهم ، أكان فنهم للفن أم لخدمة المجتمع . فتلك دوامة لا تحتملها طراوة إنتاجهم . ولكنا نرجح أنهم كتبوا على أساس من خدمة الفن للمجتمع ، وإن يكن ذلك بالشكل الساذج البسيط ، ودون كبير تفكير ، أو مناقشة نظرية للأمر . أما في الفن القصصي و « تكنيك » القصة فالإنتاج أقرب إلى المحاولة الابتدائية منه إلى الإنتاج الآسر . ونعتقد أن الحديث عنه مفصلاً بعد استعراض ألوان من قصص هذه المدة أجدى وأقوم . وسبيلنا في الاختيار يعتمد على البعد الزمني الذي ظهرت فيه هذه المحاولات ، وكلها لا تعدو الحرب العالمية الثانية ، ويعتمد – كذلك – على أعمار الكاتبين ، وعلى النهج المتقارب الذي ساروا فيه .

أول هذه القصص للكاتب « أحمد السباعي » كان عنوانها « فِكْرة » . وهي قصة راعية عرفت باسم « فكرة »[1] ، عاشت لأفكارها ودانت لما تعتقد ،

---

[1] اسم لبطلة القصة ، ويبدو أنه رمزي محض . و « فكرة » عنوان القصة ذاتها – طبعت بمصر .

لم تخضع لتقليد لا يؤيده منطق ، أو تدعمه بيّنة . وهي على ما يتألق في أهدابها الوُطْف ، وأجفانها الدُّعْج ، ومحياها المشرق ، تأبى إلاّ أن تعيش العيش الخَشِن ، وتُجالِد مجالدة الأقوياء ضد أوضاع الحياة ، وتسخر سُخْر الفلاسفة بأوضاع المجتمع . ويلتقي بها شاب عاش لرجولته وأخلاقه السامية بقدر ما ترفّع عن تهافت الشباب الرقيع ، فيأبى عليه سوء طالعه ، أو حسنه – إن شئت – إلاّ أن تنفتح نفسه لما تألق في أهدابها وأجفانها ، ويسحره ما أشرق في محياها من الفتنة . فيغدو صريع هواها ، وتغدو ساخرة بأفكاره التقليدية في الحب والحياة . ثم يمضيان معاً في مذاهب كثيرة في ضواحي الطائف ، ويتمتعان بينها بمشاهد جميلة أخاذة ، ومناظر طبيعية فاتنة ، ويتناول حديثهما صنوفاً شتّى من ألوان الحياة ومناحيها بالتفنيد والتعقيب في روح الساخر بأوضاعها ، الهازىء بتقاليدها . وتمضي بهما القصة إلى أن تقنع الفتاة صاحبها بالعودة إلى أهله الذين تركهم ليلحقها ، وإلى أولاده الذين أهملهم لينظرها ، وإلى تجارته التي وَدَعَ أمورها إلى غيره ليكون معها في شِعاف الجبال ومهابط الأودية ، فيقنع بكلامها ويعود . ويقترب موعد الحج ، فيصعد صاحبنا مع الصاعدين إلى عرَفات ، ويقف مع الواقفين ، ثم يَزْدَلِفُ مع المزدَلِفين . وفي الطريق إلى « مِنى[1] » يحس بقضيب يلمس رأسه لمساً خفيفاً ، فيرفعه فيرى « فكرة » . ويثور الهوى من جديد ، ويحلو الحديث والنجوى ، ثم تودّعه ويفترقان . وتنتهي القصة باكتشاف أسرته أختاً له ضاعت منها في سفر قديم ، وكان عمرها سنتين ، وها هم أولاء اليوم يجدونها ، ويتثبّتون منها بالعلامات الخاصة في جسدها ، وتكون الأخت هي « فكرة » الفتاة التي أحبها[2] .

١ منى : مشعر من مشاعر الحج ، بين عرفات ومكة .
٢ تقيدنا – قدر الطاقة – بعبارات القاص السباعي حرفياً .

القصة الثانية للأديب حسين عَرَب تحمل عنوان « البائسة »[1] . بدأها الكاتب بقوله[2] : « الليل مُرْخٍ سُدوله على البشر ، والنوم يرسل جيوشه على الأجسام فيميتها ، والكون ساكن لا يحركه إلاّ صوت تلك البائسة العذراء والمنكوبة الحسناء . إنها شبح تحجبه عن أشعة القمر المنيرة « جدران الحمّام » من محلّة « القَشّاشية[3] » . فتراه من بعيد يبدو ويغيب . وما تكاد تقترب منه حتى تأخذك رهبة . وتكرر النظر فيه ، فترى جبيناً زاهياً ، ووجهاً أبيض ساطعاً ، وعموداً فضياً تكسوه بعض خروق بالية . وتنكر على هذا الجبين هاتيك الدموع التي تنهمر انهماراً ، وعلى ذاك الجسم هاتيك الأنات المتوالية . ويئن ذلك الشبح ، فلا تسمع إلاّ صوت البؤس ينادي . وما هي إلاّ برهة حتى تميل نحوها وتسألها : « أيتها الفتاة : من أنت ، وماذا حل بك؟ وأخبريني عن أمرك عسى أن يجعل الله فيّ خير أنيس يذهب عنك هذا البؤس ، ويزيل هذا الترح ، ويشفيك لو كنت مريضة » . تخاطبها وهي تزفر زفرات الموت وتتأوه ؛ « آه .آه . آه . » ثم تصمت برهة بعد إتمام حديثك ، وتُدَلّي رأسها نحو ركبتيها فكأنها فارقت الحياة . وبعد هنيهة تفيق من غفلتها وترفع رأسها ، وتجيبك : « أنا ؟ ؟ » نعم أنت .

« أنا ابنة زكي فاضل التركي الكبير . رفلتُ في بحبوحة أبي . ولما قضت المنون عليه انقضّ عليّ أبناء عمي كالذئاب ، فسلبوني كل ما أمتلكه ، بل أخرجوني من داري ، ورموني في الشارع أستعطف المارة . وها أنا ذا الليلة أتذكر والدي لثلاث ليال مضت على وفاته ، وإني ما أرى أحسن من

---

١ مقتبسة من كتاب « نفثات من أقلام الشباب الحجازي » الذي جمعه « الزواوي ، وفدعق والسامي » ص ١١٩ .

٢ تقيدنا – قدر الإمكان – بعبارات القاص حسين عرب .

٣ والقشاشية : حي في مكة المكرمة .

هذه الحالة إلاّ الموت . فعسى أن يحسن الله لي في الخاتمة » . ثم تتابع أنينها ، وسرعان ما تشهق آخر شهقة من أنفاسها فيسقط رأسها على الأرض وتودع الحياة . فتشعر أنها سارت إلى رحمة الله . وتسرع بإخبار إدارة الصحة فتتسلمها هادئة آمنة . وتبحث الحكومة عن سبب موتها ، حتى إذا انتهت من أمرها زفتها إلى قبرها في أمان واطمئنان » .

النموذج الأخير لعبد الله عبد الجبار [1] يحمل عنوان « أمي » تدور حول امرأة لم يكن لها من أمل بعد زوجها الذي استشهد في حرب فلسطين سوى طفلها « صالح » . رعته خير رعاية ، وبذلت في سبيله ما ورثاه من الراحل الكريم . حتى إذا نفدت وجدت نفسها مضطرة أن تعمل عملاً شريفاً يمسك عليهما حياتهما . وكانت بارعة في عمل الإبرة تنسج بيدها الصَّنَّاع المحارِمَ وغيرها ، وتطرزها وتفتنُّ في تنميقها ، وتدفعها إلى بعض النسوة يبعْنَها في الحَرَاج . ولما ازدادت مصروفاتها اضطرت أن تنسج ما تنسجه ، وتنزل بنفسها إلى السوق وتبيعه . وظلت تخفي عملها عن ابنها زماناً خشية أن يشب فيحس بالضعة والهوان لأن أمه تغشى الحَرَاج ، وتبيع وتشتري وتخاطب الرجال . فكانت تنتحل له شتى المعاذير تسويغاً لغيابها .

وودّ « صالح » أن يدخل المدرسة أسوة بصديقه وجاره أحمد . وتحملت الأم المصروف الزائد الذي تتطلبه المدرسة ، وضاعفت لذلك عملها وسهرها ، واستهانت بصحتها ونفسها ، فوقعت فريسة الأمراض والعلل . وتأخر «صالح»

---

[1] ولد بمكة المكرمة ، وتعلم بمدارسها . ثم التحق بالجامعة في مصر ، وتخرج منها . وعين مدرساً بمدرسة تحضير البعثات بمكة ، ثم رئيساً للبعثة العلمية السعودية بمصر . من مؤلفاته : « قصة الأدب في الحجاز » بالاشتراك مع محمد عبد المنعم الخفاجي ، و « التيارات الأدبية في قلب الجزيرة العربية » . ومن القصص : « أمي » ، و « العم سحتوت » وغيرهما . (المنهل ٩٦٢/٢٧) .

في إحدى الأمسيات عن العودة إلى الدار فخرجت تسأل عنه جارتها أم السعد ، فأخبرتها أنه مع ابنها « أحمد » على السطح يلهوان بتطيير طيارة ورقية . فاستدعته ، ووبخته على تأخره إلى الليل . فاعتذر لها ، وأضاف : إن ما أخره شيئان : اللعب بالطيارة ، وحكاية الحصان المسحور قصّها عليه أحمد ، وكيف أن هذا الحصان يطير بأجنحة بيضٍ ، ينقذ الغرقى ، ويهدي الضالين في الصحارى وينقل الهلكى إلى واحات خُضْر ، فيها ظلّ ظليل ، وماء نمير ، وفاكهة كثيرة . فقبلت أمه عذره . وطلبت منه ألاّ يتأخر فيما بعد ، ووعدته أن تقص عليه قصة الطفل الذي ملأ بجسمه ثغرة السدّ التي رآها تتسع وتتسع ، والسيل يكاد يغرق المدينة ، ومات وهو يسد الثغرة . وتمنى « صالح » أن يكون في المستقبل قاصاً ، حتى يكتب نظير القصة التي حكتها له أمه . ومرت الأيام . وازدادت صحة الأم سوءاً ، والبيت فقراً . وأدرك « صالح » أن عليه أن يترك المدرسة ويعمل لإنقاذ أمه . وفعلاً عمل عند فوّال ، وداوم على ذلك . وفي إحدى الأمسيات دخل « أحمد » دار « أم صالح » باكياً صائحاً : لقد دهست السيارة صالحاً ومات . وسمعت الأم بالنبإ الأليم فخرجت سافرة تولول وتبكي وتشد شعرها . وهامت على وجهها ولم تعد إلى البيت بعد ذلك . وفي الحقيقة لم يمت صالح ، وإنما أصيب بكسور ورضوض فنقل إلى المستشفى وعولج . وكان يرعاه العم « سالم » مع ابنه « أحمد » . ثم عاد به إلى منزله بعد أن تمّ شفاؤه . وعوضته أسرته من حنان أمه وأبيه . ومرت الأيام . وثقلت على نفس « صالح » الرعاية الكبيرة والحب الزائد ، فقرر أن يتخلص من هذا ويهرب . ونفذ ذلك . ونام ليلتئذ في الحرم المكي . وأيقظوه فجراً ليؤدي الصلاة جماعةً . ولم يَحِنْ وقت الظهر حتى نهشه الجوع . وحاول أن يسرق رغيف خبز ، لكن شبح أمه تراءى له ، فصده ، فتراجع ، ووقع مغشياً عليه ، فحمله بائع الخبز ، وأعاد إليه وعيه ، وملأ بطنه بطعام وشراب ،

وصرفه . ودهمه الليل ، فقصد المقبرة التي قيل له : إن أمه دفنت فيها ، ونام هناك . واستطاع في اليوم التالي أن يعمل عند بائع « متقادم » لقاء طعامه ونومه داخل الدكان ، محتملاً شراسة خلقه ، وقسوة قلبه . وظل صالح في الدكان عاملاً في النهار ، وطالباً يداوم على دروسه في الليل . ونال الشهادة الابتدائية والثانوية . ونجح في بعثة حكومية إلى مصر ، فدرس فيها الحقوق . وحين عاد وظف مفتشاً قضائياً . وتضخم راتبه مع الأيام ، وظل على خُلُق عظيم . وذات صباح فاجأته امرأة ونادته باسمه ، فعرف فيها « فاطمة » أخت « أحمد » . واستدل منها على مكان أمها وأخيها . فزارهم وبَرَّهم ، ورفع من شأنهم بعد أن علم أن الدهر وضعهم بعد موت رب أسرتهم ، وبعد أن تسلّم تَرِكَتَه أحمدُ ، وبَذَّرها على رفاق السوء ، وطلب « صالح » أن يتزوج « فاطمة » فرحبت به الأسرة صهراً . وفي ليلة الزفاف اقتحم دارَ العرس امرأتان يمنيّتان . كانت أمه إحداهما . فعرَّفته نفسها ، فعرفها ، وشمَّ فيها رائحة أمه الحقيقية ، وقصّت عليه ما جرى لها حين صُدمت بنبإ دهسه ، وكيف هامت على وجهها ، وكيف رعتها هذه الأسرة اليمنية وحفظتها . فشكر لله هذه المفاجأة . وقضى حياته ناعماً بجوار أمه ، وحب زوجه ، وعاكفاً على كتابة القصص الرائعة حول أمه ، وأبيه ، وبني وطنه .

هذه النماذج الأولية – على قلتها – حملت الأفكار الاجتماعية .

« ففكرة » وحبيبها : انتقدا أوضاع الحياة ، وسخرا ، « سخر الفلاسفة بأحوال المجتمع » .

و « البائسة » وقعت بين براثن أبناء عمها ، فسلبوها كل ما ورثته عن أبيها ، ثم لفظوها لفظ النواة ورموها إلى الشارع مهلهلة الثياب ، تستعطي الناس ، حتى ماتت .

وفي قصة « أمي » مات الزوج فأنفقت الأم مع صغيرها تَرِكَتَه ، ثم

نزلت إلى ميدان العمل الشريف ، ودفعت وحيدها إلى طريق العلم . والصغير قضى طفولته وفتوته وشبابه وكهولته في الجد والعمل وخدمة الحق ، وعون الضعفاء .

مثل هذه الخطوط تندرج في الإصلاح الاجتماعي . لكنها – كما جاءت في القصص – كانت سطحية ، ميالة إلى الاتجاه الخطابي والوعظي أكثر من عكوفها على دراسة الأسس الفكرية والاقتصادية للنواحي التي عالجتها .

أما العرض الفني الذي يتطلبه هذا الفن فلم يكن قد فُهِم ، أو ذاب على الأقلام بعد . وقوام كل قصة وردت : سلسلة الحوادث ، والمقالات ، لا دراسة الشخصية في تطورها ، وردود فعلها في الحياة . لقد كانت أقرب إلى الحكاية منها إلى أي شيء آخر . والشخصية فيها فكرة لا كائن حيّ قائم . لم تكن تسيل فيها آلاء الحياة ، وانفعالات الإنسان ، بل لم تكن ذات حجم وامتداد في الزمان ، كانت بسيطة أو مسطّحة « flat » ذات بُعْدَيْن فقط . وكان قوام كل منها فكرة واحدة ، وكثيراً ما تمثل الفضيلة كأنها رموز خلقية ، لا كائنات حية متطورة . والقصاصون لم يُعْنَوا ببنائها بقدر ما اعتنوا بظواهرها الخارجية .

ويتبع هذا بالطبع أن تكون العواطف والأخلاق بسيطة لا تعقيد فيها ، ثابتة لا تحول لها . فحب الكاتب السباعي « لفكرة » لم يتغير ، ولم تزده الأيام عمقاً ، أو تمحه . كذلك حبها وعقلها . و « صالح » ابن « أمي » مستقيم منذ طفولته المبكرة حتى أواخر عمره لم يخطئ ، ولم يَزِلّ ، ولم يسرق حين جاع ، ولم يتلكأ عن صلاة ، ولم ينس صديقه « أحمد » ، ولم يترك « فاطمة » أخت صديقه على جوعها ، بل تزوجها ، وبَرّ أهلها . و « البائسة » مظلومة ، مجنيّ عليها ، وأبناء عمها أشرار لا مراء في ذلك . و « القاص » برّ ، عطوف ، حاوَرَها ، وسمع شكواها ، وأخبر عن موتها ، وأوصلها إلى

مثواها الأخير . فالإخلاص – كما ورد في القصص – مطلق ، لا يرقص فيه طيف من شك ، أو خوف . والشر دائماً شر لا يتحول . وكأن الأدباء قصدوا إلى تربية عاطفة الحب ، وإلى التنبيه على الشر قصداً في أعمالهم ، فانقلبوا واعظين مرشدين ، لكنهم ابتعدوا عن وصفهم بالقصاص .

ونحن نعتقد أن تزييف المشاهد ، وتزوير المواقف ، والانتهاء بها إلى نتائج مرسومة سلفاً إنما هي أشبه برجل ينحت تماثيل من حجر ، أو من مرمر ، أو من ذهب ، إلاّ أنها آخر الأمر تماثيل لا حركة فيها ولا حس . لُبابها تزوير على الحياة والأحياء ، وقَوامها مثالية لا يعرفها الواقع ولا يشهدها الناس . ولعل ارتياح القراء لهذا الضرب من القصص يرجع إلى أننا – نحن الشرقيين – نحيا في دنيانا هذه ، وعلى أخلاقنا وسلوكنا قناع غليظ . قلما نقول ما نعتقد وقلما نصارح بما نجد ، وقلما نعبّر عمّا تطويه السرائر . كلنا متستّر يداجي ويوارب ، ويظهر على غير حقيقته . لهذا رضينا بالقصص يماثل حياتنا تلك ، حياة الكذب والنفاق . فأبطال قصصنا إما أخيار مثاليون ممدوحون سعداء ، وإما أشقياء مذمومون ينتهون إلى شقاء. فالناس في هذا اللون من القصص ليسوا من البشر ، ولكنهم بين ملائكة وشياطين ، وهم أبطال من حياتنا الواعية، ومظاهرنا السافرة ، لا نماذج إنسانية حية ، نحس بيننا وبين أنفسنا في نجوى الضمير ، وخلوة الوجدان ، أنها تخفي مثل ما نخفي من الدوافع والأسباب ، وتبدي ما نبدي من المظاهر والصور . وإذا كان لهذا القصص شأن عند من يبتغون ظاهراً من نُصرة المثل العليا ، ويقيمون في أخيلتهم مجتمعاً فاضلاً من الناس قَوامه عدل وحق وخير ، فهو عند الأدباء الفنانين قصص غير فنّي . بَرْقُه خُلّب ، وماؤه سراب . والقصص الفني هو القصص الذي لا يقتصر على الجانب الواعي من حياتنا اليومية ، واللون البادي من مجتمعنا الظاهر . بل يتغلغل فيما وراء الوعي ، وينفذ إلى باطن الحياة والمجتمع وأعماق الناس

حتى تتجلى له تلك الطوايا التي إليها مرجع الحفز والتوجيه[1] .

الأمر الثاني الذي نلحظه في هذه القصص الجنوح إلى الإغراق ، والمبالغة والتهويل . ففي شعاف الجبال عاشت « فكرة » لأفكارها ، لم تخضع لتقليد لا يؤيده منطق ، تسخر سخر الفلاسفة من أوضاع المجتمع . ويهيم بها رجل عاش لرجولته ، وترفع عن تهافت الشباب الرقيع ، فيدع — من أجلها — تجارته ، وأهله ، وولده . و « البائسة » ذات الجبين الزاهي ، والوجه الأبيض الساطع ، والعمود الفضي . دموعها تنهمر انهماراً ، وتتأوه « آه . آه . آه » وتحكي قصتها فنجد أبناء عمومتها « ذئاباً » سلبوها « كل » ما ورثته ، وأخرجوها من الدار ، ورموها في الشارع . و « الأم » — . . . . — عند عبد الجبار — بارعة في عمل الإبرة ، يدها صَنَاع ، تطرز ، وتفتنّ ، وتنمق . والولد بار ، مطيع تقي ، خلوق ، وصاحبه مبذر أضاع مال أبيه ، وفرط في أسرته ، وتركهم إلى الضياع المدمّر .

إن الذي التزم به القصاصون الوقوف على صفة واحدة ثابتة في أبطالهم لم ينفكوا عنها ، ولم يملكوا عنها محيداً . الخير أو الشر بأروع صوره ، وأبلغ معانيه مكتوب على جبين الأبطال ، ثابت لا يريم ، مفروض كالقضاء والقدَر حب جارف عنيف اتصلت أسبابه فهو خالد ، وشر ما بعده من مزيد أدى بذات العمود الفضي إلى الآهات فالموت ، أو حياة نقية كالثلج درج عليها إنسان من المبتدإ إلى المنتهى . أوَليست مثل هذه الرسوم مكذوبة على الحياة ، وعلى المجتمع ، وعلى الفضيلة والرذيلة جميعاً ؟ كنا نود أن يشوب الفتى في عاطفته مع « فكرة » في شعاف الجبال ما يشوب بني الإنسان ، وكنا نرغب أن يكون للفتاة ذنب أو لأبناء عمها بعض عذر ، أو ألاّ تموت بعد تأوهات

---

١ محمود تيمور ، دراسات في القصة والمسرح ص ٨٨ .

ودمعات على جانب « القشاشية » ، وكنا نتمنى أن يكون من « صالح » ما يكون في الصغار أو في الكبار من حسنات وسيئات .

والأكبر من كل هذا تلك النهايات الثلاث في الأقاصيص الثلاث . الحبيبة تتمخض فتصبح أختاً . وابنة التركي الكبير تموت في الشارع فتلتقطها البلدية وتتكفل بدفنها بكل هدوء وسكينة . وأم « صالح » غابت عن العيون حتى اعتقد كل الناس أنها لاقت وجه ربها تبعث حية بصورة امرأة يمنية في ليلة زفاف وحيدها . ومثل هذه الخواتيم إما أنها نوادر الوجود ، وطرائف الحياة سجلتها الدهور على أرض مكة قبيل الحرب العالمية الثانية ، فنقلها الكاتبون قصصاً تروى ، وأعاجيب تحكى . وإما أنها صور مزيفة توهم متخيلوها أنهم يستثيرون إعجاب القراء بهم ، ولم يدروا أنهم بذلك هَوَوْا بفنهم ، وابتعدوا عن نواميس الحياة .

أما الأسلوب الذي صيغت به قصص هذا العهد فيمتاز بالانسياب ، والرشاقة لكأنا نقرأ لكُتّاب العرب الكبار كالجاحظ ، أو التوحيدي ، أو كأنا نتلو صحفاً من رصف المنفلوطي ، أو نسيج العقاد ، أو جزالة الرافعي . ويبدو أن التأثر بهؤلاء المحدّثين من المصريين كان أكبر من كل من عداهم . وهذه الحلاوة والرشاقة عوَّضتا من نواقص كثيرة في « تكنيكية » القصة ، ومقوماتها الفنية ، وهذا ما سهّل لها أن تنساب بين أيدي القارئين ، وتلقى من المجتمع القبول والغفران .

تلك هي سمات المرحلة القصصية الأولى : أسلوب أدبي رائع ، ووصف للصور الفنية والأخيلة المجنحة ، واختيار متقن للألفاظ تعجب هواة الأساليب العربية الرفيعة ، فيهتزون لقراءتها ، ويطربون . ويقرأها هواة القصة الفنية ، فلا تثير فيهم الحماسة ولا الانفعال بل لا تشدهم إلى ملاحقة حوادثها ، لأنها بحد ذاتها تفتقد هذه الجاذبية وتخلو من هذا الإغراء ، وربما أثارت نهاياتها

فيهم الرغبة في الابتسام لتكلفها ومجافاتها للطبيعة الإنسانية . وقد يحكمون عليها بالتكلف ، والبعد عن الواقعية ، ويربطونها إلى « الأفلام السينمائية المصرية » الولوعة بمثل هذه الغرائب . وبعد هذا يحق لنا أن نسميها بمرحلة القصة الإنشائية أو بالقصة المقالية .

* * *

أما المرحلة الثانية فقد بدأت في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وفي مطلع النصف الثاني من القرن العشرين . وبالتحديد حين عاد الشباب السعودي الموفدون لاستكمال دراساتهم العليا في الخارج إلى بلادهم مزودين بالثقافات المختلفة ، والكثير منهم قد أتقن لغة أجنبية ، أو أكثر . وفي الوقت نفسه ، ازدحمت آلاء الحضارة في المملكة ، وتوطد الاستقرار ، وأخذت القصة مكانها اللائق .

ويبدو أن الكتّاب الجدد المطعّمين بالثقافات الملونة أدركوا أن القصة ليست رصف كلام جميل ، بل هي عناصر فنية ، ومقومات لا تكون القصة الحقة إلاّ بها . وكان المرحوم حامد الدمنهوري الرائد والطليعة [1] . ولئن كانت دراسته لا تختلف عن دراسة سواه في المعهد العلمي السعودي بمكة ، إن الذي

---

١ ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٤٠ هـ/١٩٢١ م . وأخذ دروسه بالمدارس الحكومية ، ونال الشهادة الابتدائية سنة ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م . وانتظم في سلك المعهد العلمي بمكة وأخذ شهادته سنة ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م . ثم التحق بالبعثات السعودية بمصر . ومن « دار العلوم » تخرج ، إذ نال دبلومها العالي سنة ١٣٦٣ هـ/١٩٤٣ م . ودخل كلية الآداب بجامعة فاروق الأول (جامعة الاسكندرية – لاحقاً –) وبعد عامين أخذ شهادة الليسانس في الآداب سنها بدرجة جيد جداً . عاد إلى الوطن فعين مدرساً بمدرسة تحضير البعثات الثانوية بمكة . ثم نقل أستاذاً بالمدرسة النموذجية بالطائف ، ثم مفتشاً بديوان نائب جلالة الملك بمكة . ثم انتقل إلى وزارة المعارف فعين وكيل وزارة بها . له شعر ونثر . شهرت قصتاه « ثمن التضحية ، ومرت الأيام » شهرة كبيرة . توفي سنة ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م . (المنهل ٢٧/٨٤٦) .

يختلف هو تعمقه في الدرس والبحث في القاهرة في دار العلوم وفي جامعة الاسكندرية – فاروق الأول سابقاً – ، وإتقانه اللغة الانكليزية ، وفوق كل هذا نظرته الهادئة إلى كل الأمور ، ومنطقه السليم في تعليل الأمور ، وعمقه في بحث ما يعرض عليه ، حتى إن أحدهم ظن أنه أخرس لكثرة صمته [1] ، وكثرة استماعه دون أن يحرك شفة بحرف ، لكأن هذا الصمت العميق يضج من خلفه عالم كبير رهيب ، زاخر بالأمواج والصخب والانفعال العنيف ، وكله في عقل حامد وقلبه .

ومن العجب أنه لم يكتب إلاّ روايتين طويلتين فقط . الأولى بعنوان « ثمن التضحية » وقد نشرت عام ١٩٥٩ م ، والثانية بعنوان « ومرت الأيام » ونشرت عام ١٩٦٣ م .

ولو حاولنا الوقوف على المدى الزمني الذي لزم الدمنهوري لتأليف القصة الفنية الناضجة لوجدناه قريباً من خمسة عشر عاماً . ذلك أنه تخرج من الجامعة المصرية سنة ١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٥ م ، ونشر قصته الأولى « ثمن التضحية » سنة ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م أي بعد أربع عشرة سنة من تخرجه ، ونشر الثانية « ومرت الأيام » سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م أي بعد ثماني عشرة سنة من نيله الإجازة . إذن هناك فاصل زمني بين تخرجه وإنتاجه ، حده الأدنى أربع عشرة سنة . فهل من المعقول ألاّ تكون له محاولات متعددة في كتابة القصة الفنية الناضجة قبل ظهور إنتاجه الأول « ثمن التضحية » ؟ ؟ . إنّا نميل إلى الجواب أن له محاولات كثيرة ولكنها – مع الأسف – لم تنشر لأسباب نجهلها . وما نميل إليه من رأي هو منطق الأشياء والحياة .

وطريقة حامد تعتمد على « المونولوج الداخلي » أو ما يسميها علماء النفس

---

١ من حديث لعبد الله عبد الجبار عنه .

بـ « الاستبطان » . وهو يعني رسم الأمور كلها من الداخل لا من الظاهر . وطبيعي أن هذه الطريقة جديدة في أسلوب معالجة القصة السعودية ، وإن كانت متداولة معروفة خارج هذه المملكة . إضافة إلى هذا فهو ضليع باللغة العربية ، وذو أسلوب سهل فصيح .

هذا السلوك في كتابة القصة تفرد به الدمنهوري وحده في السعودية ، لم يكن له سلف ، ولم يعقبه — حتى اليوم — خلف . كأن القصاص أدركوا صعوبة هذا النهج فحادوا عنه ، وقنعوا أن يركبوا المركب الذلول ، ويسيروا في الطريق السهل الآمن — مما سنراه بعد قليل —. وظل حامد فارس الميدان والوحيد بين الأقران .

وإذا حاولنا التعمق أكثر ، وإذا طالبنا بالخطوط الرئيسة لمنهج الكاتب وجب علينا أن نلخص كلاً من عَمَلَيْه ، لنقف على ميزة تلك الخطة . وحينئذ يحق الحكم ، ويصدق الحديث ، ويظهر الفرق بينه وبين من سبقه ومن لحقه .

ثمن التضحية

تدور حوادث القصة بين مكة والقاهرة . « فأحمد » وهو بطل القصة ابن الشيخ « عبد الرحمن » ذي الأسرة المكوّنة من أربعة أبناء ، ثلاثة ذكور — وأحمد منهم — وبنت واحدة . و « فاطمة » وهي الشخصية الثانية في القصة « بنت عم أحمد الشيخ عبد الرحيم » الذي لم يرزق من الأولاد سواها . الأخوان « عبد الرحمن » و « عبد الرحيم » متزوجان بأختين شقيقتين ويعملان شريكين في متجر واحد . متحابان كل الحب ، متفاهمان على كل شيء . وتسري الحياة في الأسرتين رضيّة هنيئة لا يكدرها إلاّ أن يطرأ طارىء يزعج فرداً فيهما ؛ أو حينئذ تتداعيان له بالسهر والحُمّى . ويبرز

جديد في حياة الأسرتين ، فقد انتهى أحمد من دراسته الثانوية في « مدرسة تحضير البعثات بمكة » وهو يرغب أن يأذن له أبوه في السفر إلى القاهرة لدراسة الطب ، ولكن الأب لا يأذن ، شفقةً على بِكْرِه أن يُتعبه السهر ، وترهقه الدراسة ، وخوفاً على نفسه أن يذيبه الشوق ، ويضنيه البعاد . ويحزن « أحمد » ويقع فريسة الحمى . وتسهر الأسرتان المتحابتان حول سريره تدعوان له بالشفاء ، ويُسِرّ أبوه في أذنه موافقته على سفره ، بعد أن شاور أخاه « عبد الرحيم » في ذلك فحبذ وشجع ، وفعلت الكلمة في « أحمد » فعل السحر ، فشفي ، وأشرق وجهه . وعاد الفرح يدب على الأرض يعانق الأسرتين . وقبل أن يسافر أقام له أبوه وعمه حفلة فرح ، دَعوَا فيها وجهاء مكة وعلماءها ورفاق أحمد وفرقة موسيقية والمأذون الشرعي ، وعقدا له على ابنة عمه « فاطمة » ، لعل ذلك يعصمه من الزلل في القاهرة ، ويدفعه إلى الجد مفكراً أن زوجته تنتظره يوم يعود ناجحاً . وفي مصر يتابع دراسته ، ولم يتعرف كثيراً من الناس كما تعرف رفيقه إبراهيم . وكان كثيراً ما ينطوي على نفسه ، كأنه كَلِفٌ بالحديث الدائم معها أو الكشف عن خباياها . وكان صامتاً أكثر أيامه ، وإنْ شارك في حديث ، فإنما يشارك في الجوانب الهادئة منه وبخاصة مع أناس لم يألفهم . وكان لصمته أثر في عدم تكوين صداقات مع زملائه في الكلية . وكل ما استطاع أن يظفر به في هذا السبيل تعرفه زميلين معرفة سطحية أولهما « مصطفى لطفي » الذي كان يرافق أحمد في مجيئه وذهابه إلى الكلية لأن طريقهما واحد . ولقد جمع هذا التصاحب بينهما فزاد التعارف ثم كان تزاور . وفي بيت « مصطفى » تعرف أحمد « فايزة » أخت زميله . فتاة بيضاء اللون قَدَّر لها من النظرة الأولى ستة عشر عاماً ، في سن فاطمة ، وفي عينيها تلك النظرة الهادئة التي تبث الاطمئنان في النفس الحائرة ، وتبعث الراحة في النفس القلقة ، وإنها نظرات فاطمة التي لا ينكرها . ومع توالي

الزيارات يزداد تعرفه « فايزة » وإعجابه بها . ولقد بدأ يحس أنه صار يعتني بتصفيف شعره ، والتأنق بملابسه ، ولم يكن له عهد بهذا من قبلها . وعاد إلى نفسه فرأى أنه من أجل فاطمة ومن أجل أن يرى في « فايزة » عيون زوجته وهدوءها ، صار ينزلق في عالم العاطفة ، بل صار تفكيره يفرّ منه ويطير إلى هذه القريبة من عالمه ، وقرر الابتعاد إنقاذاً لنفسه . وفعلاً نفّذ ذلك ، وأسدل على قلبه حجاباً . وقبيل تخرجه بأشهر مات عمه « عبد الرحيم » . وذهب أحمد لأول مرة في ست السنوات التي قضاها في الدراسة إلى مكة ليعزي أباه و « فاطمة » ، ويساعدهما على تدبير أمور أسرة عمه . ثم عاد إلى القاهرة فحمل الشهادة النهائية ورجع إلى مكة وبنى بفاطمة .

إن « ثمن التضحية » أول رواية لحامد الدمنهوري صدرت ، وصفحاتها لا تقل عن الأربعمائة صفحة . ولقد استطاع الكاتب أن يرسم البيئة الحجازية في الحديث عن « هول الليل » و « الدّجيرة » ، وحياة الأسرة الحجازية المتوسطة ، وتقاليد البيع والشراء في « سُوَيقة » ، وهموم التجار ، وأحاديثهم عن إيجار الدكاكين والمنازل ، « أتكون كالعام الماضي أم تكون طليقة حرة ؟ » . هذا التصوير للبيئة الحجازية كان في حقبة متصلة بالعهد الحاضر ، تبدأ بالحرب العالمية الثانية ، كما كان رسماً للتطور الذي طرأ على تلك البيئة ، والعوامل الجديدة التي اقتضت تغيراً عقلياً وحيوياً في حياة المثقفين الذين اتصلوا بالتعليم الجامعي خارج بلادهم ، وأصبحوا أطباء أو مهندسين ، أو زراعيين ، أو اقتصاديين .

وهي من ناحية أخرى . تصوّر مشكلة خطيرة اقتضاها تفتح أعين المتعلمين الجامعيين ، على بنات مثقفات من بيئة أخرى غير بيئتهم ، يتجاوبن معهم تجاوباً روحياً وثقافياً . وهذا التجاوب الثقافي جعل بعض الشبان يختارون شريكات حياتهم من تلك البيئة . وبطل القصة إذ يدوس على قلبه ، ويضحي

بحبه في سبيل الزواج بإحدى بنات وطنه يضرب لشباب بلاده مثلاً رائعاً عن الواجب المقدس حيال فتيات الوطن اللواتي لا ذنب لهن فيما هنّ عليه من جهل وتخلف .

وحامد نفسه لم تَنِدّ عنه فلسفته ، فهو متزوج من ابنة عمه ، أو من ابنة عمته[١] ولعل لوناً أو ألواناً من الصراع في قصته هذه تمثل طرفاً أو أطرافاً من حياته العاطفية .

وفي هذه القصة يتمثل لون آخر من التطور الذي حدث في قلب الأسرة الحجازية ، فابتعاث البعوث إلى الخارج شيء لم يألفه الناس من قبل. « حقّاً ، إن « أحمد » سيعود من مصر وشيكاً ، وسيعود طبيباً يشرّف نفسه وأسرته ، ويخدم وطنه أجَلّ الخدمات ، وكذلك سيفعل أخوه « يحيى » وسيسرّ والدهما – بلا شك – بارتيادهما هذا المجال الجديد في الحياة . ولكن الشيخ « عبد الرحمن » شعر بعد وفاة أخيه بالفراغ . شعر أنه يوشك أن يودّع شيئاً عزيزاً عليه . ولم يكن يؤلمه ما سيؤول إليه محله التجاري من كساد قَدْر ما كان يؤلمه هذا التغير المنتظر في حياة الأسرة . فهذه الأيام ليست كأيام الكساد السالفة التي كثيراً ما تعرض لها المحل . ليست سحابة صيف ثم تنجلي ، وإنما سيُقرَّر فيها مصير تاريخ الأسرة في المستقبل . ليس هناك في الأسرة من سيحل محله في القيام بشؤون تجارته ، فابناه قد توجها إلى دراسة أبعد ما تكون عن التجارة . ولم يكن الشيخ « عبد الرحمن » يفكر في سعة الحياة ورغدها ، إذ ان ابنيه سيكون في وسعهما أن يوفرا هذا الجانب ، وإنما كان تفكيره منصرفاً إلى تتبع تاريخ أسرته في التجارة ، تاريخها الذي وعاه من أبيه وجده في مجالسهما ،

---

١ أخبرني بذلك شفهياً أحد أقربائه الأستاذ بكر الدمنهوري حين كنت أستقصي حياة « حامد » من أهله وأصحابه بمكة المكرمة والرياض .

لقد كان تاريخاً حافلاً بالكفاح المرير والجهاد الطويل ، تاريخاً يتسم بالأمانة والاستقامة وهما رأس مال التاجر . هل قُدر لهذا التاريخ أن ينتهي في هذه الأيام ، وتبدأ الأسرة حياة جديدة تبعد بها عن ماضيها ؟ وهل قدر أن يكون هو نفسه الصفحة الأخيرة من هذا التاريخ ؟ »

« تغيرت مواعيد الشيخ « عبد الرحمان » في الدكان ، فكان بقاؤه فيه لا يتعدى ساعة قبل الظهر وساعة بعد العصر . وما تبقى من الزمن يتركه للصبيان يباشرون العمل ، ويقدمون له الحساب اليومي في مطلع كل مساء . حتى لكأنه بهذا التصرف يستسلم للأمر الواقع ، ويتعجل النهاية . نهاية هذا التاريخ الطويل من أعمال التجارة » .

ولم يكتف « حامد » بالعبارة القصصية المتقنة ، وإنما عمد في بعض الأحيان إلى توخي الجمال الفني في الأسلوب . ومن السهل على القارىء أن يلاحظ ذلك .

وقصة حامد هذه مليئة بالصراع الذي نشأ في نفس البطل « أحمد » بين زواجه بابنة عمه « فاطمة » والاكتفاء بوظيفة حكومية عادية ، وبين إكماله الدراسة في مصر حيث يصبح طبيباً يقدم لوطنه أجلّ الخدمات الإنسانية . وتمضي الفصول متدرجة حتى إذا بلغ القارىء الفصل الحادي عشر بعد دخوله الجامعة ، وتعرفه صديقه « مصطفى » يقفز قفزة جديدة ، لأننا نجد لوناً جديداً من الصراع وهو تعرفه « فائزة » تلك التي رأى فيها صورة ثانية لـ « فاطمة » . وتتطور تلك المعرفة التي بدأت باستلطاف ، فإعجاب ، فحبٍّ عنيف . ولكن « أحمد » لا يلبث أن يثوب إلى عقله ، ويتذكر عهده ، والرباط المقدس الذي ربطه بابنة عمه ويضع حداً لهذا الحب الجديد الذي لا يجد له أثراً كبيراً في « فايزة » .

وكان بإمكان حامد أن يرفع الصراع إلى مستوى أعلى ممّا فعل ، ويغيّر

في موقف « فايزة » فيقوّي دقات قلبها ويزيد عددها ، ويبث الحرارة في قلب « أحمد » ويسيّره على غير ما فعل . وقد تكون القصة بهذا أقوى صراعاً وأشد جذباً وتشويقاً . ولكن الدمنهوري جعل البَطَل يتصرف التصرف الهادئ الرزين الذي غلب عقلُه على هواه بعد مناقشة ذاتية عميقة . كذلك كان بإمكان حامد وقد عاد أحمد من مكة إلى القاهرة بعد موت عمه أن يفعل شيئاً في نفس أحمد ويوقعه في أزمةٍ ما . ولكن القصة تمضي إلى ختامها دون أن يجد ما كان يتوقعه ويترقبه بلهفة وشوق .

تلك الميزات نلمسها ثانية في قصته الثانية التي عنوَنها بـ « ومرت الأيام » وتتحدث عن امرأة لم يخلف لها زوجها إلاّ طفلين والدموع والفقر والترمل . وكان يحز في قلبها أن رجلها مات قبل أن يرى ولده الثاني « منصور » . وأمضت أيامها حانية على الصغيرين ، صابرة على المصائب ، واستطاعت أن تقيهما من العوز حين برعت في خياطة ملابس السيدات ، وكثرت الطلبات عليها ، واشتد الإقبال . وفي كل مرة ينظر إليها « إسماعيل » يدرك أنها تغوص صحتها يوماً بعد يوم لينمو مع أخيه الأصغر وينطلقا في حياة النور . وقرر أن يترك المدرسة ، ويدخل عالم الوظائف ، فهو في هذه السنة يُقبل طلبه لأنه بلغ السابعة عشرة ، وحَلُم أن يكون خير عون لأمه المسكينة التي كاد النور يفر من عينيها ، ولأخيه الصغير ليتمم دراسته ، ويواجه طلبات مدرسته ومدرسيه ، ونفّذ ذلك رغم اعتراض صديقه الوحيد « كمال » ابن الثري الكبير . ونجح « إسماعيل » في الحصول على وظيفة في « دائرة المالية » وشفع له سرعة توظفه أن المدير كان يعرف أباه . ووجد « إسماعيل » في وظيفته الجديدة خليطاً من الموظفين ، متبايني المشارب والعقليات . وقام بعمله بجد وإخلاص . ولم تمضِ عدة شهور حتى انتقل بعض من كانوا يعملون معه إلى وظائف أخرى ، وشَغَر منصب « مدير » مكتبه . وساعد الحظ إسماعيل ، فحل

محل مديره . ثم بدا له في الأفق طلائع ترفيع جديد ، إلاّ أنه كان يطمح إلى المزيد . والذي دفعه إلى هذا الطموح تاجر لبناني اسمه « نبيل توفيق » تعرف عليه إسماعيل في مكتبه من خلال مراجعاته الكثيرة ، وزيّن « نبيل » له العمل الحر ، وشجّعه عليه لما وجد فيه من متانة خلق ، وعزيمة صلبة . وفعلاً ترك الوظيفة ، وشارك « نبيل توفيق » وصارا يجمعان السيارات القديمة البالية ويبيعانها « خُرْدَة » وحديداً . ودَرَّ عليهما هذا العمل الربح الوفير وشجعهما على الاستمرار . وغابت عن ذهن « إسماعيل » قسوة الرفض الذي مُني به حين خطب « سميرة » أخت رفيقه « كمال » رغم اللباقة التي صيغ به جواب الرفض . واستمر إسماعيل يعمل ، وظل الربح يتدفق عليه . وفتح عينيه ، فرأى أنه أصبح في مستوى أغنياء البلدة الكبار . ونقل عمله من « مكة » إلى « جدة » ، وزاد عددَ موظفي مكتبه وعماله وخَدَمه .

وظل على هذه المثابرة خمس سنوات دون أن يدري أن الذي يشجعه على التحمل والتعب بنت شريكه « سلوى » التي كان لها من الجمال الشرقي ما يسلُب الألباب ، ويأخذ بمجامع إسماعيل والرجال . كان إسماعيل يحس من خلال لقائه بها في بيتها وعلى مشهد من أبويها أنها تكنّ له شيئاً فوق الإعجاب . ولم يكن شعوره نحوها بأقل من شعورها . ومرت الأيام . وكبر « منصور » ، وبعثه أخوه الأكبر إلى مصر إكمالاً لدراسته العليا ، كما نَقَل أمه إلى « جدة » وأنزلها منزلاً فخماً ، وجعل بين يديها ورهن إشارتها خَدَماً وحَشَماً ، كما رتّب بين يديها كل ما يكفل أن يجعل حياتها هنيئة رضيّة . وضحكت الأيام لاسماعيل وزادته غنى وسعادة .

وبلغته أنباء « سميرة » — الفتاة الأولى التي أرادها لقلبه وبيته — أن أباها زوّجها رجلاً كهلاً ثرياً ، ثم مرض الأب ، وطال عليه المرض ، واضطرت أسرته لمعالجته أن تسحب أمواله من متَاجره إنفاقاً عليه ، ثم باعت المتاجر

نفسها ، وألحقتها ببيع الدور بعد الأثاث ، ورغم كل هذا فقد كان الموت له بالمرصاد ، كما رأى أخوها « كمال » نفسَه مجبَراً على أن يتوظف في وظيفة صغيرة ليعيل أمه وأخته ، وبلغه أن زوج « سميرة » قد أساء معاملتها ، ثم طلقها . سمع إسماعيل بكل هذا وهو قاعد في صدر مكتبه في « الرياض » من أخيه « منصور » الذي عاد من مصر ناجحاً ، وفضل أن يعمل في ظلال أخيه .

أما سلوى فقد كانت مطمئنة إلى أن إسماعيل يحبها . وأوضحت له مشاعرها صراحة بل أيقنت بأنه لن يمر زمن طويل حتى يطلبها من أبيها ويتزوجها . وفعلاً كان « إسماعيل » مصمماً على هذا . وكم رفضت خطبات كثيرة تدفقت عليها في السنة الأخيرة في سبيل أن تبقى له ، وأبواها يعلمان كل هذا ، وهما راضيان بالشريك زوجاً . ودخل « نبيل » مكتب شريكه « إسماعيل » يوماً فأنبأه أنه سيسافر إلى لبنان مع أسرته ، وأن بقاءه سيستمر ستة شهور على أقل تقدير ، وأشار له بطرف خفيّ أنه إذا أراد أن يخطب « سلوى » ويتزوجها فهو موافق وَلْيعجل في ذلك . وأدرك « إسماعيل » مغزى قوله فاستمهله في أمر الصغيرة . ومرت أسابيع ، و« إسماعيل » لا يتعرض لأمر الخطبة تصريحاً أو تلويحاً حتى وَقَر في ذهن والديها أنه غير جاد في أمره ، بل لعله لا يريدها ويمنعه أدبه الجم من أن يكشف لهما عن هذا الرفض . وفزعت الأسرة من هذا الموقف المحيّر ، وازدادت الشكوك فيها حتى أيقنت بخداعه . وقرر « نبيل » أن ينفصل بعمله عن « إسماعيل » محتجاً بسفره . وكان له ما أراد . وسافرت الأسرة إلى لبنان وتابع « إسماعيل » عمله وحده . تناساهم في أول الأمر ، ثم غلبته العاطفة فأرسل إليهم رسالة تلو الرسالة وهم لا يجيبون . ومرضت سلوى في لبنان ، وبدأت مع مرور الأيام تذوي وتذوب ، وإسماعيل لا يدري من أمر مرضها شيئاً . وعرضها أبوها على كل طبيب في بيروت ،

فلم يُجْدِها ذلك نفعاً . أخذها إلى أوربة مرة بعد مرة ، وسلوى تزداد نحولاً ، وتشتد مرضاً ، والدموع الحزينة الصامتة تحفر في خديها الأخاديد ، وتأبى على أبيها وأمها أن يعرّضا بإسماعيل ، أو يقولا عنه شيئاً لا يرضيها . ثم هوت ميتة . وكتب « نبيل » إلى إسماعيل هذا تنفيذاً لوصية وحيدته سلوى » .

وتنتهي القصة بمشهد في غرفة داخلية جلس فيها « منصور » يقرأ لأمه هذه القصة من مذكرة « إسماعيل » ، والدموع تسيل من عينيها .

* * *

في هذه القصة رسم حامد الدمنهوري معالم البيئة في مكة وجدة ، وما يدور فيهما من أحاديث ، وما يحفظه مسنوهما من أخبار وتاريخ ، وما كان يجري في أحياء مكة من حوادث أيام الأتراك والأشراف ، كما رسم « جدة » بشوارعها وحدائقها ومنازلها وتجارة أهلها ، والعقلية التي يعيش عليها أبناء الحجاز حين يرغبون في زواج أو تزويج ، وما يطلبونه من طلبات ، وكيف أن المال يطغى على فكر الكثير من الآباء ، فيبيعون بناتهم بيع النعاج لمن يدفع في مهرهن ثمناً أكثر دون أن يفكروا في الشروط الأخرى التي يجب أن تتوافر في الزوج ، كما صوَّر الرجل الغريب اللبناني بعقليته التجارية ، ونفسيته المتفتحة على الآخرين ، وحبه النفع والخير ، ورغبته في أن يفيد ويستفيد . فنبيل يخلص لإسماعيل ، وهو يسلمه مقاليد أعماله ، ويثق به ثقة مالية كبرى ، ويترك حساباته المالية بأجمعها بين يديه ، ويظل هو يسعى نحو الأصلح والأكمل ويفتش عن مشاريع جديدة تدرّ ربحاً جديداً ، ويدفع صديقه إليها بعد أن يشبعها دراسة ، كما صور عقليته الناضجة وسعيه لسعادة ابنته ، وثقته بأخلاق شريكه ، وسماحه له بزيارة منزله ولو كان غائباً ، ورسم مدى التماسك الأخلاقي عند الفتاة وأبيها وأمها وعند إسماعيل كذلك .

وكان حامد ماهراً في هذا الرسم فقد جعل أم إسماعيل تعمل « خياطة »

بعد موت زوجها لتعيل ولديها ، وهذا عمل مقبول من المرأة في البيئة المحلية . ولم يجعلها تشتغل عاملة في معمل ، أو « سكرتيرة » في متجر ، أو خادمة في منزل ، فتلك أعمال لا تقدم عليها فتاة ابنة تلك البيئة .

وكان ماهراً في رسم البيئة الزمانية حين صوّر الشيوخ وما يلبسون ، والمقاعد التي عليها يجلسون ، وتكلم بلسانهم عن تواريخ أحياء مكة ، فعرفنا منه شيئاً عن « الشاميّة » و « حي الباب » و « شارع أجْياد » و « زقاق الباشا »[1] ، كما حدثنا عن الفرقة الموسيقية التي تعزف أمام قصر الشريف « عَوْن »[2] « البَشارف[3] التركية » ، وكيف كان الناس يتجمهرون حولها يسمعون ويطربون .

وشخصيات القصة محدودة العدد : إسماعيل بطلها . وحوله تدور الحوادث بمهارة ودقة . وأمه وأخوه وسميرة وأخوها وأبوها ونبيل شريكه وبنته سلوى وأمها . وهناك شخصيات صغيرة أقل أهمية لَـقيـتَها في الوظيفة لم تعقّد القصة بقدر ما أوضحت عدداً من العقليات ، وألقت النور على إسماعيل واتجاه تفكيره .

ومهر « حامد الدمنهوري » في إعطاء كل نقطة ما تستحقه من الاهتمام أو التركيز ، وألبس كل إنسان الملابس اللائقة به ، وتحدث باللغة التي تناسبه وجعل لكل مقام المقال المستحق .

وقد يكون التوفيق جانبه في عدد من النقاط . فإسماعيل طلب « يد » سميرة من أخيها ، ورجاه أن يتحدث مع أبيه في هذا الموضوع الذي يشغل باله ، وتمنى من كل قلبه أن يقبل به الأب زوجاً ، وعَقَد على ذلك الآمال . وفي

---

١ أسماء أحياء بمكة .

٢ والد الملك حسين شريف مكة .

٣ مفردها « بشرف » كلمة تركية تعني قطعة موسيقية صامتة .

هذه الأثناء ترك إسماعيل الوظيفة وبدأ في العمل الحر ، فنسي « سميرة » نسياناً تاماً ، ولم يذكر ذلك إلاّ بعد مرور ما يزيد على عشرة أيام . وربما كان هذا بعيداً عن الصدق والواقع . كذلك فإنه جعل أمور الحب ، وخطبة سلوى ، ثم سفرها إلى لبنان ، ثم موتها ، لا تترك أثراً كبيراً في نفسه . ولم يعلل حامد سبب ذلك ، بل لم نفهم منه أكان ذلك من أثر المال الكثير الذي صار لديه ، أم أنها مشاعر تبلدت ، وقد وصفه من قبل في مواضع كثيرة بالإحساس المرهف ؟

الناجح في « ومرت الأيام » أسلوب عرضها الهادئ الناعم يأخذ القارئ القصة بين يديه فلا يكاد يمضي فيها حتى يرتبط بحوادثها ، وتشده إلى متابعتها حتى السطر الأخير . هذا الأسلوب الذي كتب بلغة متينة سَمَا بالقصة إلى حيث اقترب من أسلوب كتابة قصاص المرحلة الأولى الذين عددنا منهم السباعي ، وعرباً ، وعبد الجبار .

والنقطة التي تميز معالجة فن القصة عند الدمنهوري عن معالجة القصاص الأول تسويق الأحداث « actions » والمحاورة والمونولوج الداخلي أو حديث النفس. والدمنهوري في قصَّتيه « ثمن التضحية » و « ومرت الأيام » يبدو من عشاق هذا اللون من الحديث . فهو يترك البطل أو سواه يتحدث إلى نفسه عمّا يدور فيها من خلجات ، يناقشها ، ويعترض عليها ، يوافقها أو يخالفها . وكل ذلك دون أن يحرك به لسانه . اسمعه حين طلب سميرة من أخيها وجلس بعد هذا يفكر وتضاربت في نفسه الأفكار : « إن قضيته خاسرة لو حكّم فيها أحد أبويها . وعاد يفلسف الأمر على هَدْي عقله وتفكيره ، وتساءل في مرارة كما تساءل قبل الآن كلما واجه عقبة من عقبات الحياة : لماذا مات والدي وأنا صغير ؟ لكي أواجه هذه الحياة بوجهها السافر ، وألقى العنَت من سوء الموازين واختلاف المقاييس ؟ لن يسأل أهلها عني ولا عن مستقبلي ، فقد

عرفوا من حياتي ما يكفي لحكمهم بالرفض ، أما مستقبلي المنتظر ، وكفاحي في سبيله ، وبناء حياتي فكل تلك الأمور لا تدخل في حسبانهم أو تقديرهم . حَسْب ابنتهم زوجٌ يملك من المال ما يملكون ، وبيت كبير شاهق في مظهره . المظهرُ فحَسْب . أما ما وراء الجدران فذلك ما لا يهمهم أمره [1] » .

وفي مكان آخر يقول لنفسه وقد أخبره أخوه وهو في الرياض عمّا جرى لسميرة وعائلتها . « . . وكان إسماعيل — وهو يناقش سكرتير المكتب — يسترِق النظر إلى صديقه [2] ، نظراتٌ ملؤها التساؤل ، تساؤل المتردد : تُرى لو طلبتُها [3] الآن ماذا يكون الجواب ؟ . ويهتز لهذا التساؤل الوافد ، لقد قالها كلمة من قبل أعوام في مناسبة يذكرها الآن ، نقاش حاد جرى مع أمه ، أجاب خلاله عن هذا التساؤل ، وبعد : فما قيمة القبول في نظره بعد أن رفضت هذه الأسرة طلبه قبل أعوام .. فوزٌ لا يعتزّ به، ولا تبتهج به نفسه [4] .. :

هذا الأسلوب الذي اتبعه الدمنهوري في عرض روايته صَعُب على معظم الكتاب لأنه يوجب على الكاتب أن يوجه عنايته إلى الشخص الرئيسي للقصة ، باعتبار أن « الاستبطان » — وهو أسلوب عرضه — معناه أن يقبع الكاتب داخل البطل ويحلل مشاعره لحظة فلحظة ، وأن ينظر إلى العالم الخارجي من وجهة هذا البطل وحده . وهذه الطريقة تعني — من ثمَّ — عدم الاهتمام بالشخوص الآخرين إلاّ من خلال هذه النظرة الداخلية للشخص الرئيس : « أهو الشعور بتحقيق ما عجز عن تحقيقه في ماضيه ؟ ما أتفهه من شعور ،

---

١ ومرت الأيام : ص ٨٧ .

٢ المقصود « كمال » صديق الطفولة وابن الثري .

٣ الضمير يعود على « سميرة » أخت كمال التي رفض **أهلها** تزويجها من إسماعيل يوم كان فقيراً .

٤ ومرت الأيام : ص ٣٠٧ .

ليَحْمَدْ تلك الظروف التي دفعته إلى العمل وغيرت اتجاهه في الحياة . هو اليوم غيره بالأمس ، ذلك الأمس الذي أحس فيه بالضياع . وما جدوى التفكير في أمس ؟ تركه وراء ظهره . ما جدوى بَعْثه من جديد ؟ ومع ذلك فهناك من هي أولى منها بالتفكير والتساؤل : ترى ما أخبارها ، منذ أربع سنوات ؟ ويْلي كيف استطعت أن أقف منها ذلك الموقف ؟ كأنما طمست بيدي صفحة أشرقت سطورها بأجمل تاريخ سعدتُ به على مدى الأيام ، والآن ، ماذا بقي لي ، لا شيء ، ومن الحماقة أن أفكر »[1] .

إن اللجوء إلى طريقة « الاستبطان » في عرض القصة تحتاج إلى مزيد من معرفة خبايا النفس الإنسانية واكتناه أسرارها . وذلك لا يتأتى لكثير من القصاصين العرب الذين يصرفون اهتمامهم الأول إلى وصف العالم الخارجي ، وهو سهل ميسور لا يزيد على ملاحظة المرئيات وتصورها . وهذا بخلاف القصة النفسية – السيكولوجية – التي كان من روادها « جيمس جويس »[2] الإرلندي و « هنري جيمس »[3] الأمريكي . فلقد جاءت رواية « أُوليس »

---

١ ومرت الأيام : ص ٣٠٧ .

٢ جيمس ، جويس (١٨٨٢ – ١٩٤١ م) روائي إرلندي ، ومن كبار الشخصيات الأدبية في العالم ، ولد في دبلن ، وتعلم بالمدارس اليسوعية ، وتخرج من جامعة دبلن . عاش متنقلا بين بلدان أوربا ، وكان يكتب في جو من الفقر والبؤس . من مؤلفاته : « قصص من دبلن » و « صورة الفنان في شبابه » و« أوليس » كتبها بين سنة ١٩١٤ – ١٩٢١ م . وهي أعظم ما أنتج ، لأنه خرج فيها عن الشكل المألوف في القصة ، وأظهر فيها براعة لغوية فائقة ، وبالصدق الفني في التعبير عن الظروف والأشخاص والطريقة الخاصة في أسلوب العرض المعتمدة على مجرى الشعور أو المونولوج الداخلي .

٣ هنري جيمس (١٨٤٣ – ١٩٢٦ م) من أشهر الروائيين الأمريكيين ، درس القانون في جامعة هارفارد ، ولكنه كرس حياته للأدب ، عاش في أوربا واستوطن انجلترا ، وتجنس بالجنسية الأمريكية ، وتعرف أثناء إقامته في أوربا على كبار الروائيين والكتاب الواقعيين أمثال « فلوبير» ، و « موباسان » ، و « زولا » ، و « تورجنيف » ، وكان =

لجيمس جويس وفيها استقطب الكاتب أحاسيس البطل في يوم واحد من أيام عمره ، واستغرقت هذه الأحاسيس والمشاعر ر اية برمتها زادت على ثلاثمائة صفحة ، وهذا لا يتأتى لكثيرين من كتاب القصة المعاصرين .

ونهاية الرواية موفقة ، منسجمة مع تساوق الأحداث وجو الحزن ، وقد ابتعد الدمنهوري عن النهايات السينمائية الغريبة المفاجئة ، فجاءت هادئة لا تكلف ولا تصنع فيها . لقد كانت النهاية بضع دمعات تسكبها الأم والأخ في إحدى الغرف الداخلية على إسماعيل ، وربما على سلوى كذلك . وهما يقرأان سفر مذكراته الدامعة .

وبعد ، فإن حامداً الدمنهوري عَبْدُ الرواية – إذا صحت هذه التسمية – لكثرة ما كان يحكّك فيها ويصنّع وينظر . ويخيل إلينا أنّ الرواية الواحدة كانت تأخذ منه أكثر من حول كامل تحكيكاً وتصنيعاً ونظراً . ويؤسفنا أننا نفتقد مسوّدات هاتين الروايتين لنطلع على مدى التباين بين الكتابة الأولى والأخيرة ، ونفتقد كذلك البواكير الأولى وما تلاها من كتاباته ومحاولاته لنرى من خلالها التدرج الفني الذي سار فيه الكاتب ، فهي مع الأسف مفقودة أو معدومة . ولا ريب في أن عدداً كبيراً من المحاولات والتجارب مرّ بها حامد في كتابة القصة القصيرة فالطويلة حتى وصل إلى هذه المرتبة الرفيعة في روايتيه « ثمن التضحية ، ومرت الأيام » كما يؤسفنا أن يكون الدمنهوري – وحده – صاحب هذه الطريقة التحليلية . وهو وحده لا يشكل اتجاهاً ،

= جيمس يهوى المقارنة بين الأمريكيين البسطاء الجذابين في معظم الأحيان والأوربيين المثقفين . من رواياته : « ديزي ميلر » و « ميدان واشنطن » و « صورة سيدة » و « ما عرفته ميزي » و « جناحا الحمامة » و « السفراء » و « الإناء الذهبي » وغيرها . وتعتبر رواياته متميزة من روايات غيره من الكتاب بمعالجتها الموضوعية الواقعية للشخصيات ، والتحليل العميق للدوافع الخفية ، وبأسلوبها المعقد الدقيق .

ولكنا دعونا اتجاهه بالطريقة تجاوزاً وزيادة إيضاح وتفاؤلاً .

ولقد نالت رواياته إقبالاً طيباً من القرّاء ، وتشجيعاً من الناقدين واستحساناً من الهيئات العلمية والرسمية ، حتى إن كلاً منهما قد جزّئ إلى مقاطع ، ومثّلت وراء المذياع السعودي وأعيدت مرات ، ولا تزال تعاد وتكرر ؛ وكان المتوقع أن يكون هذا النجاح حافزاً للقاصين الآخرين بترسم خطى حامد ، والسير على نهجه لينالوا ما نال ، ويُقَدَّروا كما قُدر ، ولكنه مع الأسف ظل الوحيد في الميدان ، ومات ولم يشهد من يقوم مقامه في هذا المجال . وقد نعذر القاصّين على عدم ترسم خطى حامد ، فكثير منهم لا يملكون من الثقافة مثل ما ملك ، ومن الرغبة الدائمة التي بلغت حد النهم عنده في القراءة والمطالعة ، وتتبع رأي الناقدين في كل أثر جديد يظهر ، ثم هم لا يتقنون – على الأغلب – لغة أجنبية كما كان يتقن . وأكثر من كل هذا أنه كان يعتقد الضعف في نفسه والعجز والقصور ، وأنه في أول الطريق . في حين أنّ كثيراً من الكتاب الآخرين – وهم لا يدانونه – يظنون أنهم أرباب القمم ، وفي ذرى المجد ، وإنتاجهم لا يدانيه إنتاج ولا يقترب منه ، أو يزعمون أن كل كلمة نقد توجه إليهم قبض ريح ، أو نفخة في واد .

المرحلة الثالثة

نشأ بعد الحرب العالمية الثانية اتجاه آخر يوازي اتجاه الدمنهوري . هذا الاتجاه حاول أصحابه التقيد بأصول الفن ، وقواعده ، قدر ما استطاعوا . دفعهم إلى ذلك عوامل شتى : منها استقرار الأوضاع السياسية في الداخل ، واضطرابها في عدد من البلاد المجاورة ولا سيما فلسطين ، وتطور الحياة الاقتصادية إلى انتعاش ، وظهور طبقة جديدة من الأثرياء ، ما كان لها وجود قبل الحرب ، وانفتاح البلاد على التيارات الفكرية الأجنبية ولا سيما العربية

والغربية ، وذيوع التعليم وانتشاره وابتعاث البعوث ثم تغلغله في الطبقات الشعبية ونشوب الصراع العقلي بين واقع يجثم كالكابوس ، وأمل يتراءى كالحلم ، وتمزق فريق بين هذين التيارين ، تيار يشده إلى التقاليد والعادات ، وتيار يدفعه إلى التأثر بأوربة والغرب . وأبسط مظاهر هذا الصراع يمكن أن نشهده في الملابس . فالكل خاضع للعباءة ، والثوب الفضفاض ، وغطاء الرأس ، والعقال ، والبيت في الوقت ذاته طافح بأحدث مبتكرات أوربة ، والأثاث المصنوع فيها ، حتى كأنْ لا صلة بين داخل البيت وخارجه ، أو بين الساكن والمسكون فيه . وتوغل هذا الغزو الشامل في بطء وأناة ، وعلى اختلاف الألوان ونفذ حتى أعماق الصحراء ، كما ظهر في المجتمع وافد جديد هو الإيمان بالفرد ، وحرية الإنسان وتساوي الناس ، وظهرت قيم حديثة في الأخلاق والحكم والحياة . وكان لا بد لهذا التطور الاجتماعي الشامل من أن يعبر عن نفسه بأقلام جديدة اللون والنبرات . وحملت الصحف المتكاثرة عبء التعبير عن تطلعات هذا المجتمع الجديد ، وأبانت عن هذه التيارات المتدافعة ، وكان يتجاذبها فريقان من الناس : الفريق الأول : هم الأدباء « الأكاديميون » وهم الذين يسيطرون على «السوق » ويستأثرون بأسمائه الكبرى كالغزاوي ، وشاكر ، والعطار ، والعواد ، وشحاتة ، وزيدان ، والأنصاري وعرب ، والعامودي ، وآشي ، والسباعي ، والسنوسي ، وابن خميس ، ورجب ، وجمال . كان لهم القافية وعمود الشعر ، ولهم الأدب والدين وتدريسهما ، ولهم المدرسة الموقرة فيه . فتكرست بهم « أسلوبية » الأدب ، والجملة « الأكاديمية » ، وبين أيديهم كان يتكون الفريق الثاني من الأدباء كالقنديل ، وعارف ، وعنبر ، وعبيد ، وأبي الفرج ، والزمخشري ، وعُرَيف ، والصالح ، والقرشي ، وفقي ، وباروم ، وحافظ ، والدمنهوري ، والرفاعي ، والعيسى ، وزين العابدين ، والربيع ، والأموي ، وهاشم رشيد ،

والجهيمان ، والبواردي ، والنّفيسة ، وباعَشَن ، والناصر ، والرُّوَيْحي ، ونور ، ومَشْخص ، وغيرهم[1] . ونزل الفريقان إلى ميادين الصحف والمجلات ، وأخذوا يتبارون في الكتابات كأنهم في صراع ، وراحوا يتقارضون النقد والمدّ والجزر ، هؤلاء يدعون إلى التمسك بالقديم ، وأولئك ينادون بالثورة والتجديد والانبعاث .

في هذا الجو من التطور ولدت القصة الفنية في السعودية . ونقول « ولدت » لأنه لم يكن ثمة من صلة قوية بين تلك المحاولات الأولى وهذه القصص وليس من صلة أبوّة وبنوّة بين أعمال السباعي وأعمال النفيسة – مثلا – . ومع ذلك فلم تستطع القصة أن تتخلص من العبء الاجتماعي الثقيل الذي كان يسوّغ وجودها وظهورها بين الناس . لكنها تخلصت – إلاّ قليلاً – من الوعظ ، وأصبحت تُكتب لذاتها ، ولما تحمل من نفع اجتماعي وإنساني . إنها بكلمة أخرى ، لم تتخلّ – في الواقع – عن مهمتها الاجتماعية ، ولكنها غيّرت الطريق إلى فهم تلك المهمة وأدائها . غدت اجتماعية بالمضمون والمحتوى ، بالصور الإيحائية ، بالموضوع الذي تعالج ، وليس بالمواعظ والإرشادات الدائمة .

وتنوعت الموضوعات فكان منها « الرومانتيكي » ومنها « الواقعي » ، ومنها « التاريخي » ، ومنها « الصور الاجتماعية » ، ومنها أخيراً « الأسطورة » وقد نجد عدة ألوان منها عند الكاتب الواحد تبعاً لمراحل تطوره ، – وتبعاً أحياناً – لآخر كتاب قرأه . ولقد يدل هذا التنوع على أنّ الكتّاب كانوا يتلمسون الطريق ، ولكنه يدل في الوقت نفسه – أيضاً – على خصب الانطباعات . على أننا نستطيع أن نرى في معظم القصص نوعاً من القلق والهرب . كأنّ القصاص يفتشون عما يريدون ، ويبحثون عن الطريق ،

---

[1] انظر ترجمتهم في المنهل ٢٧/٧٠٣ – ٩٦٢ .

في الأحلام تارة ، وفي البكاء أخرى ، وفي الاندماج في الواقع ، أو في التمرد عليه [1] .

ومن الخطإ أن نزعم أنهم نجحوا في الوصول إلى ما يريدون . فلقد تعثّر بعضهم على الدرب ، وأخفق في النجاح ، وبعضهم وصل وهو يلهث تعباً ، وفريق آخر بلغ المرمى خفيفاً ناشطاً . ولعلنا نستطيع أن نوضح كل ذلك في دراسة الإنتاج الذي بين أيدينا . وتسهيلاً للغرض يمكننا قسم القصص إلى فرعين كبيرين : قصص متماسك ، وقصص غير متماسك .

أما الأول فنعني به الفكرة الرزينة التي يقبلها العقل ، ولا يرفضها المنطق ، والعرض الحسن للأحداث والنجاح في رسم الشخصيات سواء أكانت مرسومة من الخارج أم من الداخل ، والحوار المنسجم مع الفكرة ، والشخصيات ، والتوفيق في خلق أزمة وصراع يمكن للقاص بهما أن يمسك بالقارئ فلا ينفلت قبل قراءة القصة حتى آخرها ، وأخيراً الأسلوب العربي الصحيح الذي صيغت به القصة .

من نماذج هذه القصص المتماسكة « شبح من فلسطين » لسعد البواردي [2] . وهي قصة وطنية بدأت بالحديث عن رجل عجوز لقيه القاص في إحدى الخيام في معسكرات « نابلس » . كان يزحف على قدميه حول أروقة الخيام . كل ما فيه ميّت صامت إلاّ عينيه المتحركتين ، والدمعة الباهتة الصفراء بين أهدابهما المتقلصة . كان العجوز يبكي كلما شهد طفلة في عمر صغيرته ، وشاباً في طول وحيده ، وامرأة تزحف نحو عقدها الخامس . ولقد بكى حين رأى القاص الذي كان في عمر ابنه « خليل » . وطلب منه العجوز « واحدة »

---

١ انظر مقدمة محمد بن أحمد النفيسة في مجموعته القصصية المسماة « لمحات من الواقع » .

٢ سمى سعد مجموعته القصصية بهذا الاسم من قبيل المجاز المرسل .

فمدّ يده ، وأخرج ليرة ودفعها له ، فلم يأخذها . وظن أنه يريد أكثر ، فأعطاه أكثر ولم يأخذها . ثم فهم منه أنه يريد « قُبلة » . وعجب من الطلب ، وظن أن العجوز خَرِف ، أفقدته الأيام والمصائب وعيه . وأعاد العجوز الطلب بتوسل . ثم علّل سبب طلبه للقُبلة بأن محدثه يشبه إلى حد كبير ولده « خليل » الذي صرعه الرصاص اليهودي أمام عينيه . ورضي الكاتب فقدّم له صفحة خده . فانهال العجوز عليها تقبيلاً ، ثم انخرط في بكاء مرير ، ولقدكان سعيداً بذلك البكاء . اعترف للشاب بأنها أول فرحة تدخل قلبه منذ ثمانية أعوام ونصف العام ، منذ كانت مأساة الفردوس المفقود فلسطين الشهيدة ، وأنه كان أول غريب يُدخل على نفسه السرور . واحتج الكاتب على العجوز بكلمة « غريب » قائلا : إنه ليس بالغريب ، إنه عربي من المملكة العربية ، مواطن في كل وطن عربي . وما إن سمع العجوز باسم المملكة حتى تواردت عليه ذكرياته يومَ أن حجّ ومعه زوجته وخليل .

واستطرد العجوز قائلاً : إن الغرباء يزورون اللاجئين في المخيمات ، وكثيراً ما يضحكون عليهم ، ويشيرون إليه إشارات يقصدون بها أنه مخبول معتوه .

ثم انتقل إلى الحديث عن حياته الأولى حين كان في قريته ، ومعه زوجته و « خليل » وبنته الصغيرة « فدوى » ، ثم أخبره عن الحرب التي دارت في عام ١٩٤٨ م ، وكيف اقترب العرب من النصر ، وتراجعوا في الهدنة ، ثم انكسروا بعدها . وبدأت « إسرائيل » تمزق المدن العربية بقنابلها حتى أجبرت الباقين على قيد الحياة على الهرب . ولقد هرب مع خليل ذات ليلة ، وفي طريقهما فجأهما يهوديٌّ كمَنَ في حفرة ، وصوّب رصاصه إلى « خليل » فقتله ، وهرب هو وحده ، وظل يزحف حتى وصل إلى أحد المخيمات في « رام الله » .

وامتدت الأيام ، وبلغه أن زوجته وبنته « فدوى » في مخيم في « نابلس » فنزح إليه يدفعه الأمل إلى لقائهما ، وما إنْ وصل حتى وجد في عينيهما الذهول وفي جسمهما الهزال ، وفي مظهرهما البؤس ، وما هي إلاّ أيام حتى ماتت « فدوى » بالذبحة الصدرية ، وتبعتها الأم بمرض التيفوئيد ، وها هوذا اليوم يعمّر أيامه بالدموع وبالحقيقة السوداء بين ضحايا الغدر ، وضحايا الذبحة والتيفوئيد ، وما يزال يعيش بمداد من الماضي . يطبع خيالُه صوراً ثلاثاً : فدوى وخليلاً وأم خليل .

وهمّ الكاتب أن يعود وكانت الدموع تملأ عينيه لمأساته . ورجاه العجوز إذا ما وصل إلى الحجاز أن يذكره عند أستار الكعبة ، ويذكر معه مليوناً ونصف مليون لاجئ ، ويدعو لهم بالرحمة ، وبالجنة . وله الحسنة من الله [1] .

الموضوع في هذه القصة قومي يتصل بمشكلة العروبة الأولى فلسطين . والمضمون صورة من صور هذه المأساة الدامية في القرن المتمم للعشرين ، اختارها الكاتب من زاوية اللاجئين والخيانات التي جرّت إلى الهزيمة والعار .

اقتصرت شخصياتها على اللاجئ العجوز والقاص . وسيقت الأحداث على شكل محاورة بين الرجلين . وانتهت بتعبير عن اليأس الذي كاد يقتل اللاجئين . وقد صيغت بأسلوب طيب ، عرف به البواردي شاعراً وكاتباً .

أما الذي يؤخذ على « فنية » القصة فأمور عدة : أولها تراخي الأحداث حتى لتكاد تصرف القارئ عن متابعة قراءتها . فهي متراخية بل هي خالية من الأزمة والصراع ، وكأنها بدأت مقالة ثم تحولت بالقلم البارع إلى قصة . إلاّ أن آثار الأسلوب المقالي ظل عالقاً بها . كذلك فإن الكاتب لم يستطع تصوير المأساة وما فعلته في غير اللاجئين ، وكان بقدرته أن يعكس ما يعتمل

١ حافظنا قدر الطاقة على عبارات الكاتب .

في الصدور من حقد على الخيانات ، ومن ألم لهذا المآل الذليل . ومثل هذا ميدان رحيب للحديث والعمق . واكتفى برسم الظواهر السطحية للأشخاص والوقائع ، كما كانت النهاية باردة – وإن كانت معقولة – . وكان بودنا لو صعّد رغبة العجوز فنقلها من الدعاء له بالغفران إلى الدعاء في طلب الوحدة ، والنصر ، والإخلاص في العمل ، والخلاص من كل خوّان ومستعمر .

وهذا مثال آخر للكاتب نفسه في موضوع اجتماعي عنوّنه البواردي بـ « دعوة إلى الآخرة »[1] .

« كانت الفتاة الصغيرة تصيح بأعلى صوتها : « دعني ، دعني يا أبي لا أريد أن أذهب » . ويستيقظ أهلها على صراخها ، وتناديها أمها « فوزية ، فوزية » فتستيقظ الصغيرة ، وتقص على الأم حلماً كان فيه أبوها يجذبها في إصرار إليه ليحملها على كتفه ويذهب بها وهي ترفض وتستغيث ، لأنها تخاف من الذهاب معه . وتهدّئ الأم روعها ، وتقص عليها من الأخبار ما يحبّبها بأبيها ، وتهدهدها حتى تنام من جديد . وتسهر الأم مع الألم والأرق والخوف على الصغيرة من الحلم الرهيب . وتعتقد أنه يعني أن البنت ستلحق بأبيها الذي رحل منذ تسعة أعوام . ومر الليل ودمعها لم ينقطع . وأشرقت الشمس ، وارتفعت في السماء ، والصغيرة لم تصحُ من رقادها . واقتربت الأم من سريرها ، وبكل حنان أيقظتها . لقد هالها شحوب وجهها الصغير وما عليه من معالم خوف مرتسمة . ولم يأتِ المساء إلاّ وراحت البنت تقيء ، وتتعثر في خطاها حتى تكاد لا تقوى على حمل جسدها ، ولزمت فراشها الصغير تحيطها دموع أخيها وأمها ، وترعاها دعوات ونظرات حزينة . واشتد بها الإعياء ، وأخذ كيانها يذوب أمام وهج الآلام المحرقة . لقد

---

[1] البواردي ، المصدر السابق : ص ١٧ .

قاوم جسدها المرض في أوله ، ثم انهار واستسلم له ، ولم يبق فيها من معالم الحياة إلاّ ذلك النّفس المتصاعد ، وتلك الحشرجة في صدرها . وقبيل النزع بيوم وليلة كانت أمها بجانبها تبلل رأسها بقطرات باردة من الماء . فصرخت فوزية : انظري إليه . لقد جاء . لقد مد إليّ ذراعيه ليأخذني . إنه يدعوني . ألا تسمعين ؟ لا . لا . لا أريد أن أمضي معك . أريد أن أبقى مع أمي . وفهمت أمها كل شيء . وعبرت عن فهمها بالدموع الصامتة ، وظلت تمسح رأسها بالماء البارد . وإنْ هو إلاّ يوم وليلة حتى كانت فوزية ممدّدة فوق نعشها ، تحملها أكتاف أربعة لتحتل مكانها الضيق في عالم الأموات .

وعادت الأم ذاهلة إلى البيت ، وخيل إليها أنها ترى زوجها « فوزي » ، وخرج الأب من الباب ، ثم عاد يسأل عن « فوزية » يريد أن يأخذها معه ، ونادت الأم « فوزية » أن تلبي رغبة أبيها . ولم تُجبِ الصغيرة . ودخل الأب غرفتها ، وحملها على كتفيه ليعبر بها الطريق الغامض الطويل . وصَحَت الأم . وكانت دموعها تنساب من عينيها ، وتبلل الأرض »[1] .

الأقصوصة أقرب إلى المحافظة على الفن الصحيح . سردت أحداثها بمهارة وانفعال وسرعة ، وكان فيها ما يشبه الأزمة . استطاعت أن تشد القارئ بشوق حتى نهايتها . وجاءت نهايتها الحزينة واقعية انسجمت مع سياق الحوادث ، وانتهت انتهاء طبيعياً .

وأجاد الكاتب في رسم الوهم الذي يسيطر على كثير من الناس في أحلامهم حين يرى أحدهم ميتاً زاره ، فيؤمنون باستسلام كبير إلى أن هذا المطلوب ميت عن قريب لا محالة . فلا يتكلفون لإحضار طبيب ، أو تشخيص مرضه ، أو البحث عن علاج كما حدث لفوزية إذ استسلمت أمها

---

١ شبح من فلسطين : ص ٢٢ .

للواقع ، وقبعت بجانبها حتى ماتت . وكنا نريد لو جنح القاص في هذه الأقصوصة إلى تصوير انفعالات الأم وهي بجانب فوزية تمسح رأسها بالماء البارد ، فيكثر منه ويطيل . والأقصوصة تتطلب ذلك، وموقف الأم أجدر بهذه الأحاديث الباطنية الذاتية . كنا نوده لو فعل ذلك أكثر مما اعتمد على الأسلوب الأدبي الذي قام على الإنشاء الجميل والوصف الخارجي السطحيّ .

المثال الأخير يعالج تضحية المرأة ، وإنقاذها سمعة أهلها بتصرفها النبيل . اختار لها البواردي عنوان « كيف تضحي المرأة »[١] .

« احتضنها عمها بعد أن مات أبواها ، وعاشت في ظلال حبه وماله . وكبرت « سارة » وتقدم إليها الخاطبون ، فرفضتهم جميعاً . ودارت حول رفضها شائعات بأنها ستتزوج القمر ، أو تطلب الأمير . ولم تبال . وكان عمها يقف إلى جانبها يحميها من كل ظنّ ، ويفديها بكل غال ، ويزيد مع الأيام حُبّـاً بها . ومرت الأيام . وخسر العمّ أمواله ، واضطر أن يستدين من عبد السميع ألفي جنيه ليحافظ على سمعته التجارية أمام الناس . ولكن عبد السميع كان يطمع أن يتزوج بسارة الشابة يجعلها زوجة رابعة تجلو صدأ أيامه التي يفنيها مع ثلاث عجائز هرمات . وخطبها من عمها ، ووعده أن يتنازل عن الألفي جنيه إذا وافق . وسمعت « سارة » الحديث الذي دار بينهما ، كما سمعت رفض عمها ذلك الطلب ، وأدركت « سارة » الموقف . فطلبت من عمها أن يوافق. وهي تريد سراً أن تحفظ كرامته فلا يذل لعبدالسميع ، ولا يبيع داره الجميلة ، ولا يريق له ماء وجهه . ورفض العم . وأصرّت سارة دون أن تبدي له سبباً . وتم الزواج . ومرّت سنوات أربع تكاتف على سارة زوجاته الثلاث ، وأبناؤهن وعقل عبد السميع الصغير . فطلقها . وعادت

---

١ سعد البواردي ، المصدر السابق ص ٢٥ .

إلى عمها وهي فرحة أنها أنقذته وإن ضحت بشبابها وأجمل أيام عمرها دون أن تجعله يدري أن هذه التضحية كانت في سبيله » .

نجح القاص في رسم معالم البيئة ، حيث يسهل الزواج بأكثر من زوجة لمجرد الشهوة . أو تحت ضغط مادي ، كما رفع القاص من مكانة المرأة فجعلها الأنموذج المخلص تنقذ عمها ، ومع هذا الإخلاص تتحلى بالصمت دون أن تمنّ عليه ويصل إخلاصها إلى أن تضحي بشبابها في سبيل عمها الذي تحبه ، وتقدم على ذلك طائعة مختارة . وقد جاءت الخاتمة منسجمة مع الأحداث، ومنطق الأمور . وقد كتبت بلغة سهلة طيبة . وتبقى الملاحظة نفسها أنّ القاص لا يستطيع استبطان أشخاصه ولا القدرة على تصوير ما يدور في ذواتهم .

والملاحظة نفسها تنطبق على أقاصيصه : « المطلّقة »[1] . واللعنة الكبرى »[2] و « من يكون أبي يا أماه »[3] و « المنتقم »[4] .

وإذا انتقلنا إلى غالب أبي الفرج[5] ، وجدناه يقص كذلك قصصاً متماسكة ، فيها تقيد بقواعد الفن إلى حد كبير . مَثَل ذلك « عروس من القاهرة »[6] بدأها بقوله :

---

١ من مجموعة « شبح من فلسطين » ص ٣٩ .

٢ المصدر السابق . ص ٥٥ .

٣ المصدر السابق . ص ٦٩ .

٤ المصدر السابق : ص ٧٥ .

٥ ولد في سنة ١٣٤٩ هـ/١٩٢٩ م . بالمدينة المنورة ، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في المملكة ، ثم تخرج من جامعة القاهرة بمعهد الأشعة والراديوم ، وعمل خبيراً فنياً في وزارة الصحة ثم انتقل إلى الديوان الملكي ، فمديرية الإذاعة والصحافة والنشر . وهو اليوم مديرها ، له إنتاج كثير في المقالة ، والقصة ، منها : مجموعة « من بلادي » القصصية . (المنهل ٢٧/٧٩٥) .

٦ من مجموعة « من بلادي » ص ١٦٤ .

« رآه في غاية الهدوء والسكون يناقش نفسه ، وقد ارتسم على وجهه الألم ، وسأله عن السبب ، فأجابه بأن موسم الحج كاد أن ينتصف ، ولم يُرزق إلاّ بحاجّة مصرية شابة مع أبويها ، وهو رجل فقير قضي عليه أن يعيل والديه العجوزين وأخته العانس ، لذلك فهو متألم من هذا التقتير عليه في الرزق . وأضاف قائلاً : والعجيب في الأمر أنّ هذه الحاجة الشابة قد لاحظت شرودَهُ وألمه . فكانت تسأله دائماً عن سره . فلم يشأ أن يفصح لها في أول الأمر . ثم صارحها بكل همومه . ومرت أيام . وأعطته الفتاة رزمة من الخطابات ليضعها لها في البريد . ولم تمض بُرْهة حتى جاءه الخبر بأن خمسين حاجاً مصرياً يودون النزول عنده باعتباره المطوّف الموصى به . وفرح أيّما فرح ، وعجب من سر هذا العدد ولا سيما أنّه لم يسافر هذا العام إلى مصر ، ولم يتصل بأحد فيها ، كما كان يفعل في الماضي . ووصل حُجّاجه من « جدة » ، وكل منهم يحمل بطاقة توصية من رجل واحد لا يعرفه . وراح يقلّب الأمر في نفسه حتى علم أن اسم حاجته الشابة قريب من اسم البطاقة . وعرف سرّ ذلك أخيراً . فلقد أرسلت إلى عمها مجموعة بطاقات ترجوه أن يسلم كل حاج بطاقة منها حين يعطيه جواز سفره باعتباره موظفاً في إدارة الجوازات . وبلغ العدد الأخير لحجاجه أربعمائة . وفاض عليه بهم الرزق . وسأل أباها عنها ، فأخبره أنها متخرجة من الجامعة الأمريكية وتحمل دبلوم الصحافة ، وأنها متديّنة ، كما أضاف الأب إعجابه بمطوّفه الشاب المتديّن . وانقضت أيام الحج ، وعاد الناس إلى بيوت مطوّفيهم يتهيأون لعودتهم إلى بلادهم . ودخلت الشابة غرفة مطوّفها ، فوجدت عنده كتباً إنجليزية ، فاختارت منها « رباعيات الخيام » وناقشته فيها . ثم عادت إلى بلدها . ومضت مدة ، فأبرقت له أنها ستزور « جدة » مع والديها . فاستقبلها في المطار ، وقضى مع أسرتها أياماً سعيدة . ولم تستطع أن تصارحه

بحبها ، كما أنه لم يستطع مصارحتها بعاطفته ، ثم استدعته إلى مصر لتهمس في أذنه كلمة ، فطار إليها ، وحين عاد إلى مكة كانت معه ، وقدمها لأهله على أنها زوجته .

هذه الأقصوصة تصور جزءاً من حياة المطوفين بمكة ، وما يدور في عالمهم من رغبات وآمال ، وما يقومون به من دعاوات لأنفسهم في البلاد الأخرى ليكثر حجاجهم ويفيض رزقهم . وقد عالج القاص « غالب » الأقصوصة بكل براعة وإن تخلّى عن خلق أزمة فيها كما تخلى عن اللجوء إلى التحليل الباطني ، ولم يجعل للصراع النفسي أثراً فيها . ونجح في جعل الخاتمة مقبولة وطبيعية ، إلاّ أنه يؤخذ عليه فيها أنه بدأها بداية كان فيها يحدث صاحبه عن قصته وكان الألم آنذاك مرسوماً على معالم وجهه ، فانتهت الأقصوصة نهاية مفرحة . ولسنا ندري لِمَ كان الألم في أولها يسيطر عليه مع أنّه يقص على صاحب قصة نال في نهايتها ما تمنى ، وأن جميع الأحداث قد تمت وانتهت على خير ما يرام ؟ .

وإذا انتقلنا إلى إبراهيم الناصر الكاتب الذي يكاد يقتصر إنتاجه على القصة وقعنا عنده على عدد من الإنتاج الفني المتماسك ، ولا سيما الذي صدر أخيراً بعنوان « أرض بلا مطر » وهي مجموعة من أربع عشرة قصة قصيرة . كانت الأولى تحمل العنوان الذي وسم به المجموعة « أرض بلا مطر » .

بدأت القصة بقوله : « كانت كثبان الرمال تحيط بنا في أقصى الصحراء من كل جانب ، فتغدو في العتمة الحالكة كالمردة والأشباح . . . بينما الرياح تصفع بعنف سقوف خيامنا المقامة هناك ، بصفوفها المتراصة بانتظام ، ككتلة من الجند تستعد لاستقبال آمرها بالتحية ، . . . »

وتمضي القصة الهوينى ، تصور مظاهر الطبيعة القاسية ، وعواصف الرمال ، وجمال الليالي ، ورطوبة البحر ، وشدة الحرارة ؛ ثم تدلف إلى

قصة شاب لم يتجاوز العشرين من عمره ، جاء إلى هذه البقعة ، تحدوه الرغبة الصادقة في أن يحقق أحلامه الواسعة العريضة في الغنى والثراء .

ويعاني الشاب ما يعاني من آلام ، مصدرها هذه الطبيعة القاسية ، وذلك العمل الشاق ، وتلك الحياة الصعبة طوال عام كامل .

على أنه كان يؤلمه ويسره في آن واحد ما كان يدور بين رفاقه من أسمار في الليالي المقمرة ، وما كانوا يصدرون عن فلسفات متناقضة ، بعضها مغرق في اليأس ، وبعضها طافح بالحياة ، مما يبعث الرضى حيناً ، والغضب أحياناً .

وتدور الأيام ، وينقضي العام ، ويتجمع بين يديه الفا ريال ، فيودعها عند أحد أقربائه ، صاحب كوخ خشبي . . ويذهب إلى المدينة البعيدة ليشتري بعض الهدايا لأمه ، ويقضي فيها ثلاثة أيام ، يعود بعدها إلى مركز عمله ، وإذا به يفاجأ بنبأ رهيب ، هو أن حريقاً شب في القرية ، قضى على الأخضر واليابس ، وأخذ من جملة ما أخذ جميع الأكواخ الخشبية .

وعاد إلى أهله كسير القلب . فلقد ضاعت نقوده ، كما ضاع عامه . وتلقاه الجميع بفرح ،وقص عليهم قصته ونهاية عامه، فلم تعقب أمه بشيء، لكنه لحظ دمعة تترقرق في عينيها ، أما أبوه فقدنظر إليه شزراً ، وبصق على الأرض وهو يقول : «كنت أعلم أنك ولد غير نافع » .

الانطباع الأول الذي تتركه القصة لدى قارئها هو اللذة ، والحكم عليها بالنجاح . فلقد مضت رفيقة ، مشوقة ، تنتقل من تصوير جو إلى آخر ، ترسم هذا من جوانبه المادية الخارجية ، وترسم ذاك من عالمه الداخلي النفسي . كل ذلك برفق ومهارة كأن كاتبه صائغ ماهر ، يعرف صنعته ، ويدرك أعمق أسرارها .

على أنّه لا بد من أن نعتب على الكاتب الذي شغف بحشد الأوصاف المتراصة ، بعضها وراء بعض ، كقوله : بينما الرياح تصفع بعنف سقوف

خيامنا المقامة هناك ، بصفوفها المتراصة بانتظام ، كتلة من الجند تستعد لاستقبال آمرها بالتحية؛ فتهتز قوائم الخيام وسقوفها تفرقع بأصوات مستغيثة، وكأنّما هي فرقعة سياط تلهب ظهور جياد هدها التعب والإعياء ، فلم تعد تشعر بسعير الألم فوق ظهورها » . كذلك كان الأجدى به أن ينقح أسلوبه فلا يقع في أخطاء نحوية كقوله : « حيث يقبع في وسطه بناء خشبي مستطيل اتخذه الخبراء والرؤساء في الشركة مكاتباً لهم » و « كانت تلك القرية مزرعاً لهم » و « سوف أحقق الحلم الذي يرف على شفتي أمي المتيبّستان » . ولو تلافى ذلك لكان نجاحه أكبر وتأثير أقاصيصه أكثر .

والنموذج الثاني من كتابات الناصر نأخذه من القصة المعنونة « شقاوة » [١] . يدور موضوعها حول الأساطير والخرافات التي تنتشر في البيئة المغلقة الجاهلة . والكاتب يتحدث فيها عن اعتقاد الأطفال بالنهار الذي يقاوم وحشاً ينقض عليه فيفترسه كل مساء ، وبالجن الذين يسكنون كل شبر من الأرض ، ويؤذون الناس أو يحرسونهم . وبالأرواح الشريرة التي تقطن بين الخرائب والأنقاض وتتربص بالمخلوقات الدوائر . وشيخ الجامع الذي يقرر هذه الخرافات ويثبتها ، ويفسر بعض ما يحدث للناس تفسيراً يوافق منطق الجن والمردة ؛ فأبو مصطفى يستشير الناس وشيخَ الجامع بتأويل ما يلقاه في كل ليلة في داره ، حيث نرشق داره بالحجارة في الوقت الذي يكون فيه الناس نياماً . ويطلب من الشيخ وأصحابه النصيحة ، فيشيرون عليه أن يترك الحي أو القرية . حتى إذا نفّذ ذلك أخبر أحد الشباب رفيقه بأنّه هو الذي كان يقذف الحجارة على دار أبي مصطفى لا الجن ولا الشياطين ، وهو الذي فسّر له معنى رشق الحجارة وطلب منه الرحيل عن القرية لأنه مدين له بمال

---

١ إبراهيم الناصر . المصدر السابق : ص ٢٧ .

كبير . وما هذه التصرفات الليلية إلاّ من عمله ، وأن شيخ الجامع والناس صدّقوا هذا التأويل وأجمعوا عليه » .

بمهارة وقدرة جمع القاص كل ما يدور في البيئة المحلية المغلقة من أوهام وأساطير ، وما يعتقدونه من خرافات ، وما يفسرون به كل أمر من أمور حياتهم ، حتى شيخ الجامع – وهو الرجل الذي كان عليه أن يكون العاقل فيهم – لفّه الجهل ، وغمرته الخرافة . فراح يجاري الآخرين في تفكيرهم وتخيّلهم .

ولقد نجح « إبراهيم » في جميع أقاصيصه في رسم البيئة المحلية ، وكان أخلاقياً في نهاياتها . لكنه لم ينجح في التحليل ولا في حسن صب الموضوع بالقالب العربي الفصيح والخالي من اللحن والضعف .

وننتقل إلى « أمين الرويحي » وقد وهب قلمه للقصة فنقف على لون آخر من القصص المتماسك . أوله بعنوان « الضحية »[1] .

« شَقَحْا » فتاة بدوية ، رائعة الجمال ، في أوج صباها . خطبت لـ « حمدان » صديق طفولتها ، وزميل مرعاها ، والشاب القوي الجميل الذي تحلم به كل فتاة . وكان الاثنان على أهبة الزواج لولا أن انتدبته قبيلته لإحضار بعض الأغذية لها من المدينة البعيدة . فلبى طائعاً ، وغادرها بعد أن ودع « شَقَحْا » أحرّ وداع . وطالت غيبته فاشتد بها الحنين ، فأخذت تنطلق صباح مساء إلى قمة جبل قريب تتطلع إلى الدرب لعل قافلته تعود ، فتكتحل عيناها بحبيبها قبل الناس جميعاً . وكوفئت على صبرها ذات صباح إذ لاحت لها القافلة العائدة . وانطلقت غزالاً تستقبله . ووقع نظر « حمدان » عليها فوثب يستقبلها ، وتناجيا طويلاً . ومرت القافلة عليهما وخلّفتهما ظهرياً .

---

١ من مجموعة « الحنينة » ص ٧٣ .

ثم أردفها على بعيره ودخل بها القرية ، فاستقبلا بالزغاريد . وأقيمت الأفراح ، وغدوا أسعد زوجين ، ورزقا بغلام سمياه « سَطّام » . ولما بلغ الرابعة عشرة قرر أبوه أن يختنه في القرية ويقيم فرحاً لذلك . فرفضت الأم محتجة بصغر سنه . فأمهل الأمر مدة ، واستمهلته أكثر ، ثم صارحته برغبتها أن تتم العملية في المدينة ، فالجراحة فيها أسلم وأضمن . وثار « حمدان » لكرامة القرية ، فصفعها صفعة ألقت بها أرضاً . وما حل المساء حتى بدأت العملية الوحشية [1] ، والأم المسكينة كانت تسمع عويل وحيدها أول الأمر ، ثم خفَتَت صوته . ولما انتهى الخاتن من عمله كانت دماء « سطام » تلطّخ ملابسه ، وتسيل على الأرض . فالتفت الولد إلى أمه وسألها إن كان قد بيّض وجه عائلته بعدم صراخه لئلا يتهم بالجبن فترفض بنات القرية الزواج منه في مستقبل الأيام . ومرّ يومان فثالث ، وفي اليوم الرابع كان جرحه قد امتلأ صديداً ، وتسمم جسده ، وفقد القدرة على النطق ، فالوعي . وما غربت الشمس إلاّ غربت روحه مع غروبها . وجنّت الأم وهامت على وجهها بين المضارب تبكي مرة وتزغرد مرة وتنادي « واسطّاماه » .

القاص أمين الرويحي شبيه بزملائه الآخرين يرجو إصلاح مجتمعه بتصويره ما يدور فيه من أعمال تؤدي — دون أن يتبصر أصحابها — إلى أسوإ العواقب ، وذلك عن طريق إبراز حادثة من الحوادث وتشييد أقصوصة حولها لتكون أكثر تأثيراً في نفوس الناس من مقالة في المعنى ذاته . كذلك فهو كغيره من القصاص ، ينظر إلى الحوادث من الخارج فقط ، ولا يستطيع أن يثير أزمة ويخلق عقدة لكنه يملك أسلوباً أدبياً صحيحاً يميزه من غيره ، ويضع خاتمة للفكرة توافق المنطق الطبيعي لسير الأحداث .

---

[1] انظر في فصل الصحافة ففيه تفصيل عن عملية الختان المنقرضة .

و « التكنيك الفني » نجده عند الكاتب ذاته في قصة أخرى عنوانها « المتسولة »[1] .

« عندما انطلق مدفع الإفطار امتدت يد الوالدة إلى طبق التمركي تفطر ، ولم تكد تفعل حتى قال لها طفلها : أماه أين أبي . فغصّت المرأة ، وأجابته وعيناها تفيضان دمعاً : إنه في سفر بعيد . وتبرم الصغير من طول غياب أبيه ، وعجب منه كيف صبر على الفراق مع أنه كان لا يطيق ذلك ساعات . وأوهمته أن أباه في سفر بعيد ، ولن ينساه أبداً . وسألها ثانية عنه ولا سيما أن العيد اقترب ، ولم يشتر له أحد ملابس العيد ، وأصدقاؤه جميعاً يذهبون كل مساء بصحبة آبائهم إلى الأسواق ، ويعودون محمّلين بالملابس وبكل ما يشتهون . فأجابته بأنها ستشترى له كل ما تشتهيه نفسه . فهتف بها محذّراً أن تخرج من الدار لئلا يغضب أبوه عندما يعود لخروجها ، ووعدته ألاّ تخرج ، ثم قبلته ، وحملته إلى الفراش ، ونامت بجانبه ، وراحت تنشد له ، وتهدهده حتى استغرق في النوم . وحين تأكدت من نومه دثّرته جيداً ، وارتدت ملابسها ، وتسللت إلى الشوارع تستجدي أكف المحسنين بكل ما تملك من توسل وضراعة لعلها تستطيع تلبية رغبة صغيرها الوحيد اليتيم . ولكن القلوب التي واجهتها كانت كأنها فقدت الرحمة ، وانتُزع منها الحنان ؛ وكلّت قدماها من السير في الشوارع الطويلة ، فاتخذت لها مقعداً أمام أحد الحوانيت الكبيرة ، وقد عرض صاحبه فيه ما تشتهيه كل أم لأطفالها . وشُدّت عيناها إلى ما عرض ، وتخيّلت أنها حملت منه كل ثوب ، وألبسته وحيدها ، وراح يختال فيه ، ويطلق أحلى الضحكات . وردها الواقع ، فرأت نفسها لا تزال في مكانها . ولم تصحُ إلاّ حين أحسّت ببرودة البلاط

---

[1] المجموعة السابقة الحنينة » : ص ٦ .

تؤلمها . فلملمت نفسها ، وهمّت أن تعود وإذا بها شعرت بيد توضع على كتفها ، ففزعت . والتفتت فرأت شاباً يقول لها بكل حنان : أنا صاحب المتجر هذا . راقبتك طوال مدة وجودك هنا ، وأدركت أن في عينيك المسمّرتين إلى المعروضات سرّاً . واستجوبها . فحكت له حقيقة أمرها . ورق قلبه ، وقادها إلى متجره طالباً منها أن تختار كل ما يحلو في عينيها لصغيرها . فأخذت تشير ، والعمال يُحضرون ، وهو يشجعها على المزيد ، ونفحها بمال وفير ، وخصص لها راتباً شهرياً ، واعتذر لذلك بأنه ذاق اليتم والمرارة والذل ، وها هي ذي الفرصة سنحت له يشكر الله فيها . وانصرفت الأرملة تدعو له وتؤمن أن الله لا ينسى أحداً » .

إن الأقصوصة تحمل هدفاً أخلاقياً تحمله المرأة وطفلها والتاجر . قصت بأسلوب ممتع ، وانتهت بنهاية شبه طبيعية تشوبها المبالغة إلى حد ما بهذه المصادفة العجيبة . وهي كالأقاصيص الأخرى للكاتب ، وللفئة الأخرى من الكتاب في هذا الفن في مراحلها الفنية الأولى .

* * *

أما المرأة فقد نزلت في هذا الدور إلى الإنتاج الأدبي ، وصارت تنشر في الصحف والمجلات ، ثم تطبع إنتاجها في كتب مستقلة . وقد شهرت بذلك كثيرات ، نختار إحداهن وهي المسماة « بسميرة بنت الجزيرة »[1] ونحاول أن نستعرض شيئاً من إنتاجها القصصي ، ثم نعرضه على محك النقد لعلنا نصل إلى حكم عادل عليه . قصتها الطويلة التي استغرقت كتاباً كاملاً عنونته بـ « ذكريات دامعة » نلخصها في الكلمات التالية :

كانت الزوجة قابعة في بيتها ، تبكي ذكريات زوجها الراحل ، ولم تصح

[1] هذا الاسم رمزي وهي من أسرة آل خاشقجي .

من حالتها التي استمرت عليها زمناً إلاّ حين سمعت صهرها يطرق الباب ، ودخل عليها وهو يحمل طفلة صغيرة . وذهلت الأم إذ رأت الصهر ووليدةً ولم تر ابنتها . فأخبرها أنها ماتت وهي في وضع الولادة . وازداد بكاؤها من جديد إلا أنّه سلمها رسالة خطية من ابنتها تطلب منها فيها أن تعتني بوليدها إن حدث لها شيء في أثناء ولادتها . وفعلاً انحنت على الوليدة حناناً وحباً ورعاية . ومرت السنون وكبرت « عهد » . وحدث أنها كانت تلعب في الكرة في حديقة منزلها مع رفيقة لها ، فسقطت الكرة في ساحة الجيران ، وذهبت « عهد » لأخذها ، فناولها إياها « علاء » ابن الجيران الشاب الصغير . وهنا أحس كل منهما برعشة في قلبه دون أن يدري تفسيرها . والتقى « علاء » بـ « عهد » مرات عدة ، وتوثق الحب في قلبيهما . وتقدم الزمن . فحمل الشهادة الثانوية وبعثه أبوه إلى سويسرا لإكمال دراسته . وغاب علاء، لكنه ظل على صلة مستمرة بفتاته ، كما حافظت « عهد » على حبها له ووفائها بعهوده . وجاء الدكتور « عادل » إلى « عهد » خاطباً فرفضته أول الأمر ، فارتد لكنه بقي معجباً بها ، وحائراً لا يدري سبب رفضها . وأكمل « علاء » دراسته ونجح ، وقبيل عودته إلى مصر بلده، وبلد حبيبته « عهد » دعاه رفاقه إلى نزهة جبلية للتزلج على الجليد . فذهب وفي أثناء تزلجه هوى من حالق فارتج مخه وفقد سمعه . وعجز الأطباء عن إعادة سمعه إليه . وحاول أبوه أن يجري له عملية في سويسرا فامتنع الأطباء ونصحوه أن يذهب به إلى لندن . فلبى الأب ورفض الطبيب في لندن كذلك أن يجري العملية قبل مرور سنة على الحادثة . وعاد علاء إلى مصر إلاّ أنّه قرر أن يقطع الصلة بعهد لئلا يرهقها بعاهته . وانعزل عن المجتمع ، وسكن في مستقر قريب من مواطن ذكرياته الحبيبة . وراح يكتب في الصحف مقالات باسم مستعار ، واستحوذ على إعجاب قرائه . وأما « عهد » فاعتقدت أنّه نسيها

أو هجرها . فذوت ، وذابت كالشمعة . وأخيراً وافقت على زواجها من « عادل » واستمهلته بالزفاف ريثما تنتهي من دراستها الجامعية ، وما مانعت أن يعقد عَقْدَه عليها فوْراً . وظل سرها خفياً عن عادل . وفجأة حضر « شريف » وهو صديق « علاء » إلى الدكتور « عادل » الطبيب المشهور بالأذن ، واستشاره في أمر أذن صاحبه ، فزاره وفحص أذنه ، وتردد عليه كثيراً . وارتبط « عادل » « وعلاء » بصداقة قوية دون أن يدري كل منهما سر الآخر . وقبل أن تنتهي « عهد » من دراستها ظن عادل أنها لا تزال تحمل حباً في قلبها لغيره لم يستطع — رغم مرور الزمن — أن يصرفها عنه . فكتب لها رسالة تخلى بها عنها إلى من تحبه . وكان قد اكتشف بوساطة « شريف » أن « عهداً » تحب « علاء » وهو باق على حبها ، فهداها إلى مكانه . فذهبت إلى الصخرة التي كانا يلتقيان عليها قبل أن يسافر إلى سويسرا . فلقيته أصمّ ، حطمته الحياة والآلام . وعاد القلبان إلى الخفقان معاً ، كما كانا من قبل ، وكما أقسما أن يظلا إلى الأبد . أما عادل فتزوج رفيقتها « ندى » التي كانت تلعب معها بالكرة يوم سقطت — أول مرة — في ساحة بيت « علاء » .

« ذكريات دامعة » قصة طويلة بلغت ما يقرب مائتين وعشرين صفحة ، وقسمت إلى عشرين قسماً . فيها رسمت الكاتبة حوادث القصة محاولة أن تكون مستوفية عناصرها الفنية وقد نجحت في ذلك إلى حد بعيد .

ويؤخذ على الكاتبة وقد سمت نفسها بـ « سميرة بنت الجزيرة العربية » أن قصتها ما فيها من رائحة الجزيرة إلا اسم الكاتبة فقط ، فلا الحوادث ، ولا المكان ، ولا الشخصيات ، ولا الروح العامة تمت إلى الجزيرة بصلة أو نسب من قريب أو بعيد . والحوادث نفسها تدور بين القاهرة والإسكندرية وسيدي بِشْر وسويسرا . والمأخذ الكبير على « ذكريات دامعة » ذلك الضعف اللغوي ، والأخطاء النحوية الفاحشة . فلا تمر صفحة إلاّ وعدد من اللحون

فيها تصدم القارئ وقد تنفره . وأمر آخر يعيب « ذكريات دامعة » أنّ الكاتبة كانت تشدها المبالغات السينمائية المتكلفة أكثر مما يسيّرها الواقع ومنطق الحياة . « الحب من أول نظرة » . « الصخرة الرومنسية » بعد نجاح علاء « أصيب بارتجاج المخ والصمم » . « قرر البعد عنها لئلا يثقل عليها بعاهته » . « نجاح رائع في الكتابة الصحفية وإعجاب الناس به » . « لقاء محبة بينه وبين خطيبها الدكتور عادل طبيب الآذان » . « شهامة الدكتور الذي دلّها على حبيبها » . « لقاء العاشقين على الصخرة الرومنسية » . . . الخ . إن المبالغة فيها أكثر مما تحتمله قصة واحدة .

تلك هي بعض نماذج قصص ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ولدت على أقلام شباب ، فتحوا أعينهم على النهضة تسري في جميع الأرجاء ، وعلى الثقافات تتدافع إلى معظم الجهات ، وعلى صراع عنيف بين العقليات الجامدة والمتطورة . وكان فن القصة قد استوى على قدميه ، وأخذ مكانه اللائق بين الفنون الأدبية الأخرى . ولقد عالج هؤلاء الشباب الموضوعات المختلفة بوساطته ، وحاولوا خلال ذلك أن يتقيدوا قدر طاقتهم بأصوله الفنية ، ومبادئه الرئيسة . فنجحوا في ذلك إلى حد مقبول . وكان خير من سار في هذا الدرب حامد الدمنهوري . ودربه الذي سلكه يختلف عن درب الآخرين . لقد كان مولعاً بالتحليل ورسم الأحداث وتصوير الأشخاص من الداخل النفسي أكثر من الخارج الظاهري ، وكان يسري في قصته من مبتداها إلى منتهاها بأناة وصبر عجيبين . أما الآخرون فلم تكن لمعظمهم ثقافته ولا صبره . فاختاروا الدرب الأسهل والطريق الآمن ، وقصوا ما يريدون وفق القواعد العامة البسيطة لهذا الفن ، فأصاب بعضهم حظاً طيباً من النجاح ، وبعضهم حظاً أقل . وتعثر آخرون فهووا ، وكان إنتاجهم هزيلاً ساذجاً . السقطات فيه تكاد تغلب النجاح ، والخطأ يعدل الصواب أو يزيد عليه . ولهذا فإنا ندعو

هذا القسم بالقصص المتفكك .

وسبب هذا التفكك قد يعود إلى تهافت الفكرة ، أو سوء العرض أو التخبط في الأحداث ، أو تفاهة الأزمة والصراع ، أو ضعف النهاية أو ركاكة الأسلوب وتهلهله . ونضرب على ذلك الأمثلة .

فهذا « محمد بن أحمد النفيسة »[1] يقص علينا قصة اختار لها عنوان « من آثار الأنانية البشعة »[2] وهي : مناقشة بين «مقاوِل »[3] وصديقه. وهذا الصديق يوبخ « المقاول » على ما يدبره لأحد الناس من مكائد . فيعلل المقاول ذلك بأنه « شيء طبيعي في محيط العمل والتعامل ، وكل ما يمت إلى الاستغلال بصلة ، ويحدث أيضاً كلما تضاربت المصالح الذاتية ، واصطدمت الشهوات النفعية ، وكان لغير التقدمية النصيب الأوفى »[4] . وتظل المناقشة دائرة بين الرجلين ، حتى تنتهي باعتراف « المقاول » بذنبه . وتنتهي الأقصوصة بلعنة المقاول لصديقه حين أدار ظهره .

أصعب ما في هذه الأقصوصة — إن صحت تسميتها بالأقصوصة — أن يعي القارئ مضمونها من القراءة الأولى . إذ لم يكن فيها فكرة واضحة تبدأ من نقطة وتنتهي بنقطة معينة . ويخيل إلينا أنها أقرب إلى الموضوع الإنشائي الذي يكتبه طالب يتدرب ، منه إلى « أقصوصة » تأخذ مكاناً في كتاب مطبوع . فلا المقدمة واضحة ، ولا البيئة الزمانية ، ولا المكانية ، ولا الحوار ، ولا سير الحوادث ، ولا العقدة ، ولا التحليل الخارجي بله الداخلي .

---

١ من أبناء المنطقة الوسطى . درس في الرياض ، وعمل في إحدى الدوائر الرسمية .

٢ للقاص : محمد بن أحمد النفيسة من مجموعته المسماة بـ « لمحات من الواقع » : ص ٨ .

٣ سيرد بعد قليل تفسير كلمة « المقاول » خلال مناقشة القصة .

٤ تلك هي عبارات القاص حرفيا .

زد على ذلك أن الأخطاء اللغوية والنحوية كبيرة وكثيرة ، منها قوله : « محدثاً أباه عن رجل بسيط في عمله مخلصاً في أداء واجبه » و « أن الواعون منهم الذين لا تأخذهم المظاهر » و « إنما هو مختالا متربصاً » و يا أسفاه على ثقة وضعتها في غير محلها ، وسراً أودعته » .

والذي يلفت النظر أن في « من آثار الأنانية البشعة » عدم الأخلاقية وهو أمر شاذ عن سائر القصص السعودية . فكلمة « المُقاول » تعني في المملكة العربية أحد معنيين : الأول : « كل غريب » — وجل الغرباء عرب — يعمل في السعودية في حقل من حقول الإنتاج والبناء الرسمي أو غير الرسمي ، فمعلمو المدارس يطلق عليهم « مقاولون » ، وموظفو الدولة من غير السعوديين « مقاولون » أيضاً . والمعنى الثاني : يطلق على أصحاب الشركات والمؤسسات التي تقوم بالتعهدات والالتزامات للدولة أو للأفراد وتسمى شركتهم بـ « شركة مقاولات » . ومهما يكن المقصود من كلمة « مقاول » فقد وصفه الكاتب بالخسة والدناءة وضَعَة الأخلاق . فإن كان يقصد الموظفين — غير السعوديين — فقد أساء إلى نفسه ووطنه العربي الكريم ؛ وإن قصد « المقاول » بمعناه الثاني فقد أساء إلى مواطنيه . وفي كلا الحالين هو غير مصيب .

النموذج الثاني لهذا الكاتب قصة عنوانها « البشرى بمشروب جديد »[1] . هي أقصوصة تصور ولداً دخل على أبيه يريد أن يخبره خبر العمر ، كاد الولد يطير من الفرح ، وكانت الدنيا ترقص في عينيه ، فيرى أباه على كرسي وثير ، عابس الوجه ، غارقاً في تفكيره مطرقاً برأسه إلى الأرض . وتمر برهة يظل الأب فيها على وضعه والولد جالس أمامه وقد أعيته السبل في لفت

---

١ من مجموعة « لمحات من الواقع » ص ٤٣ .

نظر أبيه إليه ليبشره بالخبر العظيم . وبعد مدة يرفع الأب رأسه ويسأل ابنه عما عنده من أخبار فيقول له : إن مصنعاً لـ « سينالكو » و « ليمانكو » سيبدأ بإنتاج صنف جديد من المشروب لا يوجد إلاّ في البلدان الراقية . فيخطب الأب في ابنه خطبة طويلة تدور حول وجوب أن تكون الشركات وطنية لا أجنبية » .

هذه الأقصوصة كسابقتها خالية من كل عنصر فني . ولكنها مليئة إلى درجة الإشباع باللحن والأخطاء ويلفت نظر القارئ ما يعمد إليه القاص عند شرح فكرته المطول كأنه يستجهل قارءه . وكذلك حين يبالغ في الوصف والتعبير كقوله « . . عندئذ جلس غير بعيد من أبيه ، محاولاً لفت انتباهه ، وانتزاعه من خضم أفكاره المتلاطمة ، إلاّ أن أباه قد لاحظ منذ الوهلة الأولى أن ابنه غير عادي التفكير للاهتمام والتحفز [البادیان] [1] عليه لكنه لا يدري ما سر هذا التغيير المفاجئ ، فهو لذلك يرقبه ويحملق فيه بعين فاحصة في الوقت الذي يتصور فيه « سمير » أنه ممعن في التفكير ، مغرق في التأمل ، مستسلم للهواجس ، وأنّه لا بد من لفت نظره ، وانتشاله من هذا الخضم المتلاطم من التفكير ، فهو لا يدري أنّه بدخوله المفاجئ هذا « قد قطع على أبيه خيط تفكيره » وشتت ما تجمع لديه من أحاسيس ، ومزق السكون الذي كان يسود الغرفة قبل مجيئه ، ولكن له العذر فقد دخل على أبيه وفي رأسه أفكار ، وفوق لسانه نبأ عظيم يسر المخلصين ، ويثلج صدور المواطنين وبخاصة [التقدميون المتفانون] [2] في خدمة بلادهم [والعاملون][2] على تطويرها ، [الحريصون] [2] على حفظ اقتصادياتها » .

ومثل ما قيل عن هاتين الأقصوصتين يقال عن بقية أقاصيص المجموعة .

وقد لفت نظرنا إهداء الكتاب الذي جاء في مقدمة هذه المجموعة قال

---

١ كذا

٢ كذا

فيه : « إلى أولئك الذين رفعوا من درجة أزيز مرجل كظيم حتى نفث محتواه في غير أوانه . إلى إخواني الشباب الذين تجرعوا كؤوساً مترعة من الصعاب العلقم ، [والمهدّدون][1] في كل حين وآن بالاضمحلال من الذوبان في بوتقات الأنانية ، وضعف الإمكانات ، والتردد المميت ، أو بفعل التصرفات المشبوهة ، والضمائر الموبوءة ، والوجدانات الهامدة ؟ ؟ . وفي تصدير الكتاب قال : « ومن عجب أنني لبثت ردحاً من الزمان أنتظر انفراج الضائقة عن المحاولة الأولى – قصص من الواقع – وأن تتمخض عن تجربة جريئة . لأستطلع[2] فيما عسى أن تحدثه من صدى ، وتثيره من نقد ، لعل ذلك يفيدني في مستقبلي ، غير أن هذه الضائقة مع الأسف ظلت مشتدة خانقة . كما كنت أيضاً أنتظر انفساح الوقت لتهيئة مناسبة أخرى [وافتراصها] إلاّ أن الضائقة بقيت مشتدة وخانقة والوقت يزداد ضيقاً وتعقيداً ومرارة . وأنا لا أجسر أن أتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ، حتى نفد صبري من انتظار عقيم قد فرضته قسراً ظروف قاسية وعوامل مختلفة في غاية من العسف والجبروت » . ويستمر التصدير على هذا الأسلوب وينتهي القارئ العادي وغير العادي من قراءته فلا يعرف ماذا يريد الكاتب بكلامه وماذا يقصد وإلى من يشير .

كذلك فإنا نشهد شيئاً مماثلاً عند الجفري يتجلى في بعض عناصر القصة الفنية . ونضرب على ذلك مثلا قصته « أم بلا حنان »[3] .

فرغ عم « باسْوِيد » من شحن « الإتْرِيك »[4] بالهواء ، وامتدت يده

---

١ كذا   ٢ كذا

٣ طبعت المجموعة دون أن يذكر مكان الطبع أو تاريخه . و « أم بلا حنان » إحدى قصصها : ص ٨٩ .

٤ الإتريك : يقصد به المصباح الذي يضاء بزيت الكاز وقد يطلق عليه اسم « لوكس » في بلاد أخرى.

إلى أعلى لتعليقه بالسلسلة المدلاة من سقف متجره ، فزلت قدمه اليسرى ، فانهار أرضاً . وقبل أن ينهض سمع نحيباً متقطعاً ينحدر إلى أذنه من نافذة البيت المجاور لمخزنه . إنّه نحيب زوجة المرحوم « حسين » فهي لم تتوقف عن البكاء منذ مات زوجها الذي خلّف لها – وهي ابنة الخمسة والعشرين – أربعة أولاد صغار . وتألم عم « باسويد » لبكائها الدائم ، وشبابها الغض ، وجمالها الفاتن ، وفقرها الظاهر .

وينتقل القاص الجفري إلى الأرملة « فاطمة » فيصور حيرتها في أولادها وفي مستقبلها . وكيف ودت لو لم تتزوج ذاك الذي رحل وتركها ، وتمنت لو بقيت في بيت أبيها سعيدة لا يزعجها مزعج ، ترفل في بحبوحته ووفرة أمواله . وعتبت – في نفسها – على أبيها الذي رفض أن يزوجها إلاّ لمن يكسب خبزه بعرق جبينه . ولم يكن نصيبها إلاّ « حسين » ذا العمر القصير . ولكن ماذا تفعل فتلك مشيئة الله .

وخطر لها أن تزور والدها تستعين به على حياتها ، وتدفع بماله سواد أيامها وسارت إليه . وكان في الغرفة الكبيرة متصدراً مجلسها ، عقاله على رأسه ، وعباءته بجانبه وأصابعه تدحرج حبات المسبحة برتابة ، والصرامة لا تختفي من عينيه . وسلمت عليه بأدب . فعاتبها لرفضها العودة إلى بيته . فصارحته أنها آثرت البقاء وحدها مع أولادها لئلا تزعجه بصغارها ومتاعبهم . ثم كشفت له عن حاجتها إلى قليل من ماله تسُدّ به جوعتها وأطفالها ريثما تُصفّي تَرِكة زوجها ، ويفصّل حقها وحق أولادها عن حقوق الورثة الآخرين . فرفض الوالد عونها ، وطلب منها أن تتزوج رجلاً يسير بها وبأولادها في طريق الحياة متكفلاً غذاءهم وكساءهم ورعايتهم . واحتجت « فاطمة » بأنها تخاف من الزوج الجديد أن يظلم صغارها . فاهتاج الأب وثار وازداد رفضاً لمساعدتها . فخرجت كسير الخاطر . وفي طريق عودتها

مرت على متجر « الشيخ سليمان الصائغ » ورجته أن يقبل ابنها عاملاً عنده يتعلم الصياغة ويعين أمه على حياتها . فهز رأسه موافقاً . ومضت الأيام وكبرت ابنتها وتعلمت الخياطة . وانتسبت الثانية إلى مدرسة مهنية تتعلم فيها الخياطة كذلك . وظل الولد الرابع الأصغر يداوم على مدرسته . وكان لا يزورها في منزلها إلاّ أمها العجوز تخفف عنها بلواها . وجاء أبوها إليها فجأة يجر عصاه بيده وأعلن إعجابه بابنته ، ورضاه عليها ، ومباركته خطواتها ، وما هي إلاّ ثلاثة أسابيع مرت على هذه الزيارة حتّى انتقل الأب إلى جوار ربه .

ودار الزمن فتزوجت الكبرى بشاب تخرج من الجامعة ، واصطحبها معه إلى لندن لإكمال دراسته ، كما عاد الابن الأكبر من القاهرة بشهادة عليا بينما كان الأصغر لا يزال فيها يواصل تعلمه . ولم تبق إلاّ الصغيرة. وها هم أولاء الخاطبون يطرقون الباب عليها ، وهي موافقة على أحدهم .

أما ابنها الكبير فقد طلب يد ابنة معلمه الأول الشيخ سليمان الصائغ ، فوافق أبوها وزوّجه إياها . وانتقلت الأم إلى منزل ابنها الذي تزوج . مرت الأيام والجميع في هناء لولا أن النساء لا يصبرن على حالة واحدة . فثارت بعض المشكلات بين الأم والزوجة وقرر الابن أن يفصل أمه في دار مستقلة ويدفع لها شهرياً ما يقيم أودها . فوافقت مرغمة وفصلت متاعها عن متاع زوجة ابنها استعداداً للانتقال .

وانتهت القصة بنظرة تلقيها « فاطمة الأم » على متجر عم باسويد وهو يشحن الإتريك بالهواء ويستعد لتعليقه بسلسلة السقف .

إذا كانت الأقصوصة تقاس بطولها وزمن قراءتها فهذه أقصوصة ، وإن كانت تقاس بحوادثها فهي قصة .

حاول الجفري أن يصور لنا معالم البيئة المكانية فرأيناها في مواضع قليلة : في الإتريك ، وعقال الأب ، وعباءته ، وأشعة الشمس « المخضبة بالشفق

القاني تنحدر وراء الجبال الشامخة التي شهدت الكثير من أحداث الحجاز »[1] وما عدا ذلك فليس في القصة معالم تدل على البيئة . كذلك حاول القاص أن يكون واقعياً فصوّر كل شيء على الشكل الذي رآه فيه ، ولم يتكلف أن يصبغ أحداً بغير الصبغة التي هو فيها . فالأب كان فظاً وغليظاً ومجرداً من العاطفة ، ولم يحاول الكاتب أن يظهره في غير مظهره . ومثل ذلك فعل في المواقف الأخرى ملتزماً الصدق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وحاول أن يستقصي أحداث القصة من جميع جوانبها ، فسرد كل ما يتعلق بعم « باسويد » ووالد الفتاة وزوجها وأولادها وما صاروا إليه ثم ما آلت إليه هي كذلك . واستغرق ذلك من الزمن ما يزيد على العشرين عاماً . بدأت بوقت لم تُصفَّ فيه تركة زوجها بين الورثة إلى وقت تزوج فيه جميع أولادها .

وكان يمكن للقاص أن يكون أكثر نجاحاً لولا أمور صغيرة أخطأ فيها . لم يكن دقيقاً في وصف الشمس حين قال : « إنها مخضبة بالشفق القاني تنحدر وراء الجبال الشامخة التي شهدت كثيراً من أحداث الحجاز » ونحن نعلم أن الشمس تغرب من جهة البحر الأحمر وحين « تتخضب بالشفق القاني » فلا تكون وراء الجبال بل تكون غائصة في البحر ، وليس بينها وبين العين المراقبة جبال .

لم يوفق في رسم حركة عم باسويد عند تعليقه « الإتريك » بسلسلة السقف حين قال : « وفرغ عم باسويد — الحضرمي المتخلف — من شحن « الإتريك ». وفي اللحظة التي أوشك فيها أن يعيد « قدميه » إلى الأرض زلّت قدمه اليسرى فتدحرج «كالبالون» العائد من الفضاء وبه ثقب . ومع ارتطام جسده بالأرض سمع صوت النحيب المتقطع الخافت الذي ينحدر إلى أذنه كل ليلة

---

١ حياة جائعة : ص ٩١ .

من نافذة البيت الذي يقع « تحت » متجره المتواضع . وحمل جسده بين قهقهات الكثير . وجزع القليل من المارة والجيران » . ونتساءل كيف استطاع عم باسويد أن يرفع قدميه الاثنتين حين همّ بتعليق الإتريك . هل أمسك بالسلسة بيد . والإتريك بيد ، ورفع جسمه كله كالرياضي الماهر ليعلق الإتريك . وعهدُنا بالرجل يرفع رجلاً ليستند على الأخرى أو يرتفع على رؤوس أصابعه . ونعجب لدحرجته « كالبالون » العائد من الفضاء وبه ثقب « وهل يتدحرج البالون إذا كان مثقوباً . ونستغرب وضع البيت الذي يقع « تحت » متجره المتواضع . هل تسكن فاطمة القبو ، وهو في نهاية القصة قال : « ورأت عم باسويد وقد أحالته السنوات إلى هيكل عظمي متهالك وهو يجلس أمام الإتريك يشحنه بالهواء »[1] ونعتقد أنه لو قال : « من البيت الذي يقع في جوار متجره المتواضع » لكان أكثر صواباً .

قال القاص : « ويتمم الحضرمي : منذ توفي « حسين » وامرأته لا تفارق الدموع عينيها »[2] . ونتساءل : هل هذا الحضرمي يراقبها وينظر في عينيها منذ توفي حسين ؟ وكيف يتم له ذلك إذا كان بيتها « تحت » متجره المتواضع . ولو كان بجواره فهل هو من الطول بحيث يستطيع أن ينظر إليها رغم نوافذها العالية ، وهل تبكي وهي واقفة طوال الوقت أمام النافذة ؟

قال الجفري : « واستمر الأنين المخنوق ، ثم تطور إلى نحيب متواصل يجرح الرقة المتناهية في صوت الباكية زوجة « حسين » التي تركها زوجها في أوج شبابها ونضارتها ، وخلفها للحياة وتصرفات الأيام ، وهي في الخامسة والعشرين » وقد قال قبل قليل عنها : « لاحول ولا قوّة إلاّ بالله منذ توفي « حسين » وامرأته لا تفارق الدموع عينيها » ثم قال في مكان ثالث :

---

١ حياة جائعة : ص ١٠١ .

٢ حياة جائعة : ص ٩١ .

« أنجبت من زوجها أربعة أبناء. تركهم لها. [للخمسة وعشرين][1] عاماً . . » .
ونحن نعجب من القاص لِـمَ يكرر أن زوجها « مات » مرات كثيرة ، ويعيد ذكر عمرها عدة مرات كذلك . فهل يظن أن قارءه من الغباء حتى لا يكفيه ذكر ذلك مرة واحدة ؟ .

قال القاص يصف جمال الأرملة : « كانت جميلة منذ أول نظرة إليها . حتى مستقر النظرة وعمقها . لها أنف شامخ في كبرياء ، وشفتان رَكبتا إطاراً لفم صغير لا يعرف القهقهة ، وإنّما يغري بالبسمة التي تطوف حوله . . وهي بهذا الجمال الهادئ الذي سوّره الحزن الطبيعي أنجبت من زوجها أربعة أبناء . » .

جمال يلفت النظر : ماذا يقصد بقوله « بمستقر النظرة وعمقها » أتراه يريد أن يقول : إنها جميلة ، وتظل كذلك ولو دققت النظر في معالم وجهها وتعمقت مخترقاً أعضاءها ؟ وكيف تكون الشفتان إطاراً لفم لا يعرف القهقهة ، وإنما يغري بالبسمة »؟ ومن هو يا ترى الذي يغري: هل هو الإنسان أو هو الفم ، أو المتطلع إليها ؟ وهل يغري لأن فمها مؤطر بالشفتين الدقيقتين ؟ . وهل وَصْفُ جمالها بهذا الشكل في محله وهي الأرملة الباكية ؟ . ثم : لم أضاف كلمة وأنجبت « من زوجها » فهل تنجب المرأة الخلوق التي لا يعرف فمها القهقهة ، والمتزوجة الحجازية أربعة أبناء من غير زوجها ؟ .

وتستمر القصة إلى آخرها على هذه الشاكلة ثم تخرج في النهاية بسؤال : لِـمَ عنونها الكاتب بـ « أم بلا حنان » ؟ أما كان الأجدر به وقد تكلم عن الناس الكثر القاعدين في دكان عم باسويد وقد ضحكوا عليه حين سقط على الأرض وتدحرج أن يقول : « رجال بلا حنان » ، أو أن يعنونها

---

[1] كذا .

بـ « تجار بلا حنان » وقد أسهب في الحديث عن جشعهم وقسوة قلوبهم وكثرة استغلالهم التجار الضعفاء ؟ أو أن يعنونها بـ « أب بلا حنان » وهو ذو الثروة الطائلة ، أبو البنت الجميلة « منذ أول نظرة حتى مستقر النظرة وعمقها » وقد جاءت إليه أماً ذات أجنحة أربعة متكسرة مات عنها زوجها، ولم تـُصَفَّ تركته بعد ، والتجأت إليه ، وهو ذو المال العريض ، فلم ينجدها ، بل طردها ؟ . أو أن يعنونها بـ « ولد بلا حنان » وهي التي ربته وضحت بنفسها في سبيله فلم تتزوج رغم جمالها وشبابها ، وصبرت على دهرها وهي التي فرحت بزواجه وقرت عيناً به ، حتى إذا حصلت كلمات بينها وبين زوجته قرر فصلها وعيّن لها ما يقيم أودها ؟ ألأنها تكلمت كلمات معها صارت « أماً بلا حنان » ؟ أم أنه قصد أنها عاشت محرومة طوال حياتها من الحنان ؟

وهكذا يسير هذا الأدب ، متعثراً مرة ، ومستوياً أخرى. ويبقى الدرب أمامه طويلاً ، والكمال قصياً بعيداً .

* * *

ونتساءل الآن عن الموضوعات الأساسية الكبرى التي طرقتها القصة السعودية الحديثة فنجد الجواب عنها ماثلاً في الاتجاه الاجتماعي ، والوطني والتاريخي والديني . ولا نجد قصص أطفال[1] أو قصصاً « بوليسياً » أو نفسياً ، أو عاطفياً محضاً[2] .

أما القصة الاجتماعية فتدور حول : المرأة ، وما يتصل بحياتها من حزن

---

١ مر في فصل « الصحافة » أن مجلة واحدة اسمها « مجلة روضة الأطفال » أصدرها طاهر الزمخشري سنة ١٣٧٩ هـ/١٩٥٩ م . ولم تعمر طويلا .

٢ من القصص العاطفية « أمير الحب » لمحمد زارع عقيل أدرجناها في القصص التاريخية . و « فكرة » للسباعي أدرجناها في القصص الاجتماعية . ولم نعثر على قصة عاطفية بحتة حتى نتمكن من تخصيصها بعنوان مستقل .

والديها عند قدومها أنثى إلى عالم النور ، وتفضيلهما لو كانت ذكراً[1] ، وتعلمها ، وكيف تقف التقاليد القاسية أمامها تحول دون ذلك ، وتوظفها[2] ، وزواجها بمن تحب أو بمن لا تحب[3] ، وبيعها للخاطب الثري الذي يدفع الثمن الغالي بها[4] ، والقبول بتزويجها رجلاً له عدة زوجات[5] ، وطلاقها[6] ، وموت زوجها[7] ، ومشكلة الزواج من الخارج[8] ، وغير ذلك . كذلك أدار القصاص موضوعاتهم حول الفقر والفقراء ، وما ينجم عن ذلك من آثار ، وخطايا ، وجنوح ، وتشرد . ويسير موضوع الفقر متوازياً وموضوع المرأة من حيث وفرة الإنتاج حتى إنّه لم يخلُ إنتاج قاص من تناول كلا الموضوعين[9].

وعالجت وفرة من القصص تقاليد المجتمع البالية ، والعادات الذميمة ، كالرجل الذي تهون عليه التضحية بابنته ولا يهون عليه الرجوع بكلمة وعد بها رجلاً آخر[10] والإنسان الذي يضحي بابنه ، فيموت دون أن يقبل حواراً حول طب قريته[11] ، والجماعات التي تعتقد أن الشياطين والجن تلعب بمصير

---

١ سعد البواردي : قصة « المطلقة » في مجموعة « شبح من فلسطين » : ص ٣٩ .
٢ سميرة بنت الجزيرة : وادي الدموع : ص ٤٥ .
٣ سعد البواردي : قصة « كيف تضحي المرأة » في مجموعة « شبح من فلسطين » : ص ٢٥ .
٤ حامد الدمنهوري : « ومرت الأيام » .
٥ إبراهيم الناصر : قصة « الزوجة الثانية » في مجموعة « أرض بلا مطر » : ص ٨٥ .
٦ محمد النفيسة : « عصبية عمياء » في مجموعة « لمحات من الواقع » : ص ٦٧ .
٧ حسين عرب : « البائسة » في كتاب « نفثات من أقلام الشباب الحجازي » : ص ١١٩ .
٨ إبراهيم الناصر : « الزوجة الثانية » في مجموعة « أرض بلا مطر » : ص ٨٥ .
٩ الشواهد كثيرة جداً منها « دموع العيد لمحمد أمين يحيى (المنهل ج/٤ العدد ٤ — ٥) و « آه من هؤلاء الكبار » لأحمد بوشناق . (المنهل ج ٤ العدد ٦) . و «البائسة لأحمد عبد الواحد . (المنهل ج ١٩ العدد ٤ — ٥) .
١٠ سعد البواردي : « المطلقة » من مجموعة « شبح من فلسطين » ص ٣٩ .
١١ أمين سالم الرويحي : « الضحية » من مجموعة « الحنينة » : ص ٢٥ .

الناس ، وتتصرف في أمور معاشهم[1] وغير ذلك . وجدير بالذكر أن ما يقال عن موقف الأدباء المواطنين من بعض القضايا الاجتماعية وإهمالهم عمداً التعرض لها شعراً أو نثراً يقال نفسه في القصة . ومع ذلك فالقصص التي صدرت قد خدمت الأدب والمجتمع ، وكانت أسبق في تأثيرها من المقالة والقصيدة لما تتميز به من خصائص فنية تقربها إلى كل قلب .

أما القصص الوطني والقومي فيكاد يكون نادراً إذا ما قيس بوفرة الإنتاج الاجتماعي في هذا الفن . لقد أطلّت بواكير القصص القومية بعد الحرب العربية – الصهيونية سنة ١٩٤٨ م وكانت بسيطة ساذجة ، وإلى المقالة أقرب منها إلى القصة[2] . واقتصرت موضوعاتها على تصوير بطولة بعض الأفراد في حرب فلسطين آنذاك . ثم أعلنت الحرب الجزائرية فظهرت قصص تحكي حكايات المجاهدين على جبال الأوراس[3] . والجدير بالذكر في هذا الموضوع أن الكاتبَيْن اللّذين تحدّثا عن فلسطين كان أحدهما فلسطيني الأصل[4] وثانيهما جزائرياً[5] . ثم تدرج الأدباء السعوديون إلى هذا الاتجاه ، وأخذوا ينسجون فيه القصص ، وظل نتاجهم قليل الكمية ، ضعيف الكيفية[6] .

أما القصص التاريخيّ فهو أقل من القومية . ولم يظهر إلاّ في إنتاج أدباء عدة ، منهم : محمد زارع عقيل في روايته « أمير الحب » التي تدور حوادثها

١ إبراهيم الناصر : « شقاوة » من مجموعة « أرض بلا مطر » : ص ٢٧ .
٢ في جريدة « أم القرى » أربع قصص . وردت في الأعداد من (١٢٢٣ – ١٢٢٨) سنة ١٩٤٨ م .
٣ ظهرت في بعض أعداد المنهل بين سنة ١٩٥٥ – ١٩٥٨ .
٤ هو شكيب الأموي .
٥ هو أحمد رضا حوحو .
٦ منها « الفدائية ، وتضحية وخلود » للرويحي في مجموعة « الحنينة » : ص ٢٧ و ٥٧ و « شبح من فلسطين » للبواردي ص ٣ .

حول حب « خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان » لِرَمْلة أخت عبد الله بن الزبير وبنت أسماء بنت أبي بكر . وتمر القصة على حوادث مختلفة منها : مقتل عبد الله بن الزبير ودفاع عبد الله بن قيس الرُقيّات عنه ، وما لاقاه من تشريد وألم بعده . وأسماء ذات النّطاقيْن ، وزواج مروان بفاختةَ زوجة يزيد ابن معاوية ، وكيف خنقته مع جارياتها تحت بساط قعَدْنَ عليه . وكانت قصة « أمير الحب » شيّقة ، وعقدتها من النوع المتراخي البطيء إلاّ أنّه كثيراً ما تنقطع سلسلة الحوادث لتذهب بعيداً إلى نقطة أخرى . ورغم ذلك تظل ناجحة موفقة .

كذلك كتب « أمين المدني » قصة المتنبي وقد سلط عليه عضد الدولة فاتكاً الأسدي ليقتله مخافة أن يشهّر به كما فعل بكافور الإخشيدي واسم القصة « نهاية عبقري »[1] .

ويبدو أن معالجة القصة التاريخية صَعُبت على كثير من القصاصين لِما تحتاجه من إحاطة بالحوادث التاريخية ، وقدرة فائقة على ربط الحوادث بأزمة وخلق صراع حقيقي بين الأبطال أنفسهم أو بينهم وبين العالم الخارجي ، أو النفسي الباطني ، وأناة بالغة في رسم الشخصيات ومجرى الأحداث . وذلك كله لا يتأتى للمتسرع العجلان ، ولذي القدرة المحدودة .

أما القصة الدينية فقد كان المتوقع أن تكون غزيرة لدى قصاصي البلاد المقدسة . لكن الأمر كان بالعكس إذ هي أقل الألوان القصصية عدداً . ولئن ظهرت صفحات كثيرة في الجرائد والمجلات[2] حول بعض الأعلام المسلمين إنها لاتعدو مجموعة من الأخبار مستقاة من الكتب التاريخية ، ولا

---

١ نهاية عبقري : صدرت في المنهل الفضي : ص ٢٣٤ .

٢ تكثر جريدة « الدعوة الإسلامية » و « الندوة » و « المدينة » و « البلاد » و « عكاظ » من سرد حياة بعض الأعلام ، وأكثر كتاب هذه الموضوعات من رجال الدين .

تعدّ من الفن القصصي . وأبرز أثر قصصي ديني كان في كتاب « سيرة بطل » لمحمد حسين زيدان . تناول فيه سيرة ستة وستين صحابياً وصحابية . وليس فيه عناصر فنية للقصة بقدر ما فيه تمجيد بالمترجَم له ، وسرد لأخباره ، وإبراز نواحي العظمة في سيرته ، وكأنّه وضع للموعظة والنصيحة ، وإبراز المثل الأعلى أملاً في تقليده والسير على منواله .

مستقبل القصة السعودية :

يمكن الحكم على مستقبل القصة في قلب الجزيرة العربية من خلال الإنتاج الصادر حالياً ، والنقد الذي يدرس هذا الإنتاج ، وتعرّف القصاصين تعرفاً شخصياً والجو العام الذي يعيش فيه الناس : قراء وأدباء ونقاداً . ونؤكد ، أنه ستبقى القصة السعودية مقصرة عن قصص العالم العربي إذا ظل أدباؤها مهملين الاطلاع على ما يصدر كل يوم في البلاد المجاورة من آثار قصصية فنية تكاد توازي خير القصص العالمية ، وما يعلق عليها النقاد في الصحف والمجلات وكتب النقد من تقريظ أو لفت نظر ، ليعرفوا من خلال ذلك ما يجب أن يتبع وما يجب أن يبتعد عنه . كذلك إذا لم ينكبّوا دراسة على الكتب العلمية الكثيرة التي تبحث في فن القصة من حيث هي فن أدبي له مقوماته وأصوله ، وله ألوانه المختلفة كالحكاية ، والأقصوصة ، والقصة ، والرواية ، ولكل منها حدود ومعالم تختلف كل الاختلاف عن غيرها ، وتتباين شديد التباين . والأمر الثالث إذا لم يؤمنوا أن إتقان لغة أجنبية واحدة – على الأقل – يرفع من ثقافتهم الفنية ، ويضعهم وجهاً لوجه أمام الإنتاج العالمي الرفيع بلغته الأصيلة دون أن يصل إليهم عن طريق التراجمة التجار في أكثر حالاتهم . والأمر الأكثر أهمية إنْ لم يقم أمامهم نقد فني ثائر يقوّم إنتاجهم تقويماً صحيحاً وعلى أسس علمية متينة ، دون أن يكون هذا النقد تزلفاً وتملقاً .

وإنّا لنعجب من أحد المثقفين وقد وضع نفسه حكماً على مجموعة قصصية فيها الكثير من الضعف والتهافت أن يقول : « إن هذه المجموعة تبشر بميلاد حقيقي لقصص تفخر بها بلادنا بعد أن ظننا زمناً أنها لا تلد غير الشعراء » وإذا لم يَسْتَجْدِ القصاصون أنفسهم الناقدين ليكتبوا في تقريظ ما يكتبون كلمة في مقدمة مجموعتهم أو في صحيفة أو مجلة ليرضوا بها نزعة ساذجة في نفوسهم ، ويتوهموا بعد ذلك أنهم أصبحوا في القمة . وهم في الحقيقة لو حكّموا أنفسهم فيما يصدرون لقسوا أكثر مما يقسو الناقدون عليهم ولطرحوا كثيراً من الإنتاج قبل أن يخرجوه إلى النور .

إن الذي يحتاج إليه كثير من القصاصين هو التخلي عن الرغبة في حب الظهور والشهرة والتسرع في نشر الإنتاج قبل أن يشبع دراسة وتثقيفاً ونظراً . فإذا ما تحقق هذا الأمل قلنا حينئذ : إن القصة السعودية أخذت مكانتها بين شقيقاتها العربيات ذوات المستوى الرفيع والمكانة السامية .

الفصل الثاني

فن المقالة

تكاد المقالة تحتل مقام السيادة على سائر الفنون الأدبية من قصيدة ، أو قصة ، أو مسرحية ، أو رسالة ، أو خطبة أو غير ذلك ، لسبب جوهري : هو ما تتميز به من سمات في طبيعتها تخولها هذه المكانة ؛ إذ يكفي أن يختار كاتب فكرة ما تشغل ذهنه ، فيفصلها عن غيرها ويرسم حدودها ويوضح معالمها ، ثم يمسك بالقلم فيعرضها في الصورة الملائمة ، ويدعمها خلال عرضها بالحجج والبراهين ، وبما يؤيد رأيه ويتفق مع مذهبه حتى إذا أيقن أنه أوفاها حقها ختمها بالخاتمة المناسبة ورمى القلم ودفعها إلى دواليب المطبعة .

هذه اللدونة في كُنْهِ المقالة وجوهرها ، وهذه السهولةُ في تحبيرها ، كانتا إحدى عوامل انتشار فن المقالة ، وسبباً رئيساً في لجوء الأدباء إليها كلما دارت في رؤوسهم خاطرة ، أو ألمّت بخيالهم فكرة . ولا غرابة بعدئذ إذا اتخذوها مطية ذلولاً لأغراضهم ، أو طَبَقاً يحمل المعاني التي يريدون إلى من يريدون .

ونريد أن نقول مع محمد يوسف نجم[1] : « ارتبط تاريخ المقالة في أدبنا الحديث بتاريخ الصحافة ارتباطاً وثيقاً ، وإنها لم تظهر في أدبنا ، أول ما ظهرت ، على أنها فن مستقل ، بل نشأت في حضن الصحافة ، واستمدت منها نسمة

---

[1] أستاذ الأدب العربي في الجامعة الأمريكية ببيروت . وصاحب كتاب « فن المقالة » وكتب أخرى في الفنون الأدبية المختلفة .

الحياة منذ ظهورها ، وخدمت أغراضها المختلفة ، وحملت إلى قرائها آراء محرريها وكتابها . ولذا كان لزاماً علينا أن نبحث عن تطور المقالة في الصحف اليومية أولاً ، ثم في المجلات ، مع تقدير الفوارق الهامة بين أنواع المقالات التي تكتب للصحف ، وتلك التي تكتب للمجلات[1] .

وإذا صح هذا التعميم على نشوء فن المقالة في الأدب العربي فمن الطبيعي أنه يصح في هذا الفن من الأدب السعودي لأنه جزء أصيل من الأدب العربي عامة .

ولو استعرضنا ما نشر في صحف قلب الجزيرة العربية من مقالات فإنا واجدون لها أطواراً أربعة :

أولها طور المدرسة الصحفية الأولى ويمثلها الصحف العثمانية وبعض الكتّاب في نجد والحجاز .

وقد كانت المقالة في هذا الطور بدائية فجة ، تنوء بالتكلف والرهق . وإذا كان لا بد من وصف أسلوبها بصفة خاصة فأحرى به أن يوصف بالمتحجر القاسي . لقد اعتقل الكتّابَ هواهم بالصنعة اللفظية ، وشدةُ شغفهم بإظهار القدرة اللغوية ، وميلُهم إلى الإطناب والمبالغة ، ورغبتُهم في أن يكون لنثرهم سجعاتٌ فيها تزويق ، ولو جنح بهم ذلك إلى سقم الفكرة وتهافت الأسلوب .

يصح هذا الحكم على المقالة التي تُعنى بالقضايا الأدبية[2] دون السياسية

---

١ محمد يوسف نجم ، فن المقالة : ص ٦٥ .

٢ كتب عبد الله بن عرفج – أحد المتعلمين بعنيزة – يقول :

« . . ولسنا بأول ولا آخر في تفرق مجتمع لا يظن صداعه ، وتبدد شمل طاب اجتماعه ، ومن يغتر بالأقدار ، وهي بغير قرار ، إلا الأغمار الأغرار . (الشنقيطي، النهضة الأدبية بنجد ص ٩٥) .

والدينية . إنها في هذين اللونين كانت أكثر عافية من المقالة الأدبية ، فهي لم تلتزم السجع كثيراً ، ولم تَعْلَقْ بها أعشاب البديع ، ولكن رغم تخلصها النسبي من تلك الأوضار فإنها حملت ما يضنيها ، وكان ذلك واضحاً في أسلوبها الذي كان ينضح بآثار الجهد والتعب [1] . وهذا ما ينافي العمل المقالي الذي يتطلب لدونة وعفوية وخفة ظل ويسر أسلوب . ونستطيع بعد هذا أن نقول : إن ما كتبه الأدباء من مقالات في السطور الأولى كان ضحلاً في محتواه ، ضعيفاً في أسلوبه لم يقدم للأدب منفعة تذكر ، على الرغم من الفوارق بين ألوان المقالات المدبجة .

وفي الطور الثاني ظهرت مدرسة « القبلة » المتأثرة بفؤاد الخطيب ومحب الدين الخطيب ، والكتاب السوريين والمصريين الذين عملوا فيها . وقد رافق هذه المدرسةَ اندلاعُ الثورة العربية الكبرى ، وما صاحبها من أحداث جسيمة في الداخل والخارج . وامتازت بميزات عدة في أسلوبها . فقد تحللت من قيود السجع وظواهر الضعف نهائياً ، وانطلقت في ترسل لا تقيده زخارف ،

---

١ جاء في جريدة « شمس الحقيقة » العدد ١٢ تاريخ ١٤ ربيع الآخر ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م . مقال بعنوان : هل ترقى الحجاز قبل السودان ؟ ما يأتي : « ظهرت جريدة في الخرطوم بالسودان تسمى « الخرطوم » غايتها أن تبذل السعي في ترقي أبناء ذلك الوطن ، ففرح بها أهل السودان . ونحن نتمنى لها دوام الانتشار . ونستلفت أنظار أولي الأمر بالتسريع في أمر ترقي الحجاز من تأسيس المكاتب (يعني المدارس) وغير ذلك فإن دوائر الحكومة لو احتاجت إلى كاتب للزم جلبه من خارج الولاية ، أهلك الله الاستبداد ما أشد تدميره » . (نقلا عن محمد سعيد العامودي في كتابه « من تاريخنا » : ص ١٩١) .

وكتب الشيخ « علوي عباس المالكي » مدرس بالمسجد الحرام في مقدمة كتاب عمر عبد الجبار ، « سير وتراجم » ص ٥ : « . . . فلله هذه النفوس العالية ، ولله تلك الهمم الأبية والمثل العليا في ميادين التضحية والكفاح ، فرحمهم الله رحمة واسعة ، وتغمدهم بفضله ورضوانه ، لقد خلفوا ذكرى طيبة عطرة ، وسجلوا في تاريخ الخلود سفراً رائعاً . . فيا أبناءهم اقتدوا ، ويا أحفادهم تيقظوا ، ويا دنيا اسمعي ، ويا أم القرى اشهدي . . . » .

ولا تحدّه رواسم . وكانت المدرسة الأولى والكبيرة التي علمت أبناء الحجاز خاصة ، والسعودية عامة الفن الصحيح لأدب المقال مضموناً وشكلاً[1] . ولا نغالي إذا قلنا: إن مدرسة القبلة عامل من عوامل تخمير النهضة الأدبية في البلاد العربية السعودية كلها[2] .

وفي الطور الثالث : ظهرت طلائع الصحف السعودية الفردية، ثم كثرت عدداً، وكان أصحابها هم أدباء البلاد ، كتابها وشعراؤها . وكان لهذه الصحف الفضل الكبير على الأدب والأدباء ، وفنّ المقالة بوجه عام . إنها — أعني الصحافة — مكّنت الأدباء أن يكتبوا ، وأن يوصلوا ما كتبوا إلى القراء ، وأن يناقشوا القضايا الأدبية في جِواء مفتوحة ، وعلى آفاق متسعة ؛ أما القضايا الدينية والاجتماعية فكان لها — مع الأدب — حصة الأسد . أما المقالة السياسية ، والاقتصادية ، والعلمية فأمرها هيّن ، ومقامها محدود ، وكتّابها ندرة .

وبعد ، فإنه ليمكن القول : إن عزّ المقالة ، وازدهارها كان من نتاج هذا الطور ، فهو الذي رفع مكانتها ، وهو الذي أوجد الأقلام وغذاها ودرّبها .

وفي الطور الرابع ، ترجحت المقالة بين تيارين : قديم ، وحديث .

---

١ الشواهد تملأ جريدة القبلة ونقتطف هذا الجزء من مقال لفؤاد الخطيب في العدد الأول ١٥ شوال ١٣٣٤ هـ/١٩١٥ م . « . . . أجل لقد تغمدنا للاتحاديين كل هفوة ، وتلمسنا لهم كل عذر ، وقلنا : إنهم فتيان غير مجربين ، وشباب غير مدربين وإنهم وثبوا من الوظائف الحقيرة ، إلى المناصب الكبيرة ، فكان اضطراب الشؤون حتمياً ، واختلال الأحوال سنة طبيعية ، وإن الصبر عليهم يؤدي إلى تمرسهم بالدهر ، واكتسابهم بعض الخبرة ، ولكنهم — ولله الامر — تمادوا في غرورهم ، واسترسلوا في شرورهم ، وعملوا كل النكاية ، بأبناء دينهم من العرب والمسلمين . . . » .

٢ شهدت أم القرى بعددها ١١٢ السنة الثالثة الصادر في ١٩٢٧/٦/٤ بقوة « القبلة » وجمال أسلوبها وأثرها الكبير في أدباء الحجاز ، وأنهم بين تلمذتين : أم القرى والأدب المهجري .

أما التيار القديم فيعتبر استمراراً للمرحلة السابقة ، المتمثلة بكبار الكتاب ، ذلك أن معظمهم ، ان لم يكن نال امتيازاً لإصدار « مؤسسة صحفية » فإنه ظل عضواً في إحدى الهيئات المسؤولة عن سياسة احدى المؤسسات ونهجها .

هذه العلاقة المباشرة ، أو غير المباشرة ، دفعت الكاتب الذي وصفناه بـ (الكبير) إلى الاستمرار في الكتابة ، والمحافظة على مستوى الصحيفة ، ورغبته في أن تنال قصب السبق على سواها — قدر الإمكان — .

أما التيار الحديث فإنه يتمثل في الكتابات الجديدة التي بدأت تطل برأسها من هذه الصحف ، وكان أصحابها من الشباب الناشئين الذين لم ينضجوا النضج الكامل . إنا نميل إلى وصف هذا التيار الحديث بالضعف ، بل بالخفة ، والركاكة ، والتهافت . ولسنا ندري المعاذير التي سوغت لهؤلاء المسؤولين عن مستوى مؤسستهم الصحفية بالسماح لهذه الأقلام اللينة بالظهور ، ولهذه الكتابات السقيمة بالانتشار .

على أنّه يخيل إلينا أن العذر الأكبر لأصحاب المؤسسات وللمشرفين عليها رغبتهم في تدريب جيل جديد على هذا الفن الأدبي الرفيع ، وروحهم المتسامحة الكبيرة التي دفعتهم إلى التغاضي عن كل ضعف ، واسفاف يقع فيه هؤلاء الشباب .

أوليس ذلك سنة الحياة ، وقانون الوجود ، ومنطق الأمور ؟ إن الأديب الكبير لم يولد كبيراً ، ولكنه ولد غراً ساذجاً ، وتدرج خطوة خطوة ، حتى أصبح كبيراً . وهل الأدب ، والفن ، والعلم ، وكل شيء في الحياة ، يلد إلا ناشئاً ، متعثراً ، ثم تثقفه الأيام ، وتصقله التجارب ، فيغدو ناضجاً ، قوياً ، سليماً ؟ .

الفرق — إذن — بين مستوى المرحلتين فرق صغير هين . وهذا لا يعني أن صحف الأفراد لم تكن تفتح صدرها للناشئين من الأدباء ، بقدر ما يعني

أنها ازدحمت بكتابات الأدباء الناضجين ، وبالأخذ والرد ، حتى لم يعد فيها مجال كبير لهذه البراعم الوليدة .

كذلك هناك سبب آخر ، هو أن هؤلاء « الكبار » آثروا أن يصدروا انتاجهم في كتب خاصة مستقلة ، فذلك – في رأيهم – أدعى إلى البقاء ، وأقرب إلى الربح .

وإذا تساءلنا عن الموضوعات التي دارت حولها المقالة في مختلف أطوارها ، طالعتنا المقالة الدينية في رأس القائمة ، فالمقالة الأدبية ، فالنقدية ، فالاجتماعية ، فالسياسية ، فالاقتصادية ، ثم يأتي في آخر القائمة مقالات ذات موضوعات متفرقة .

هذه المقالة التي تشعبت فروعها بتشعب موضوعاتها لم تكن أساليبها متشعبة كذلك . ذلك لأن المحتوى بضاعة سعودية أملتها الحياة ومستلزمات المجتمع ، فافترقت الموضوعات نظراً لكثرة الوجوه التي ينبغي أن تمتد إليها يد الإصلاح من جهة أولى ، ونظراً لكثرة القضايا العربية التي أحوجت القلم أن يحبك لها مقالة من جهة أخرى لم تكن متشعبة لأنها مستوردة من جهتين : مصرية ومهجرية . فالسعوديون الذين لم يلحقوا بقافلة الأدب لم تتهيأ لهم القدرة كي ينهضوا بالمقالة الفنية إلى مستوى النضج الذي لاقته المقالة العربية في الأقطار الأخرى .

ولا حاجة لنا بعد ذلك إلى أن نشير إلى أن هذه التلمذة كانت في الأسلوب كما هو مفهوم . ولا حاجة لنا بعد ذلك أيضاً إلى القول : إن أساليب المقالة في هذا الطور كانت لونين متأثرين بمصدرين اثنين هما ما ذكرنا .

ولعل المقالة الدينية تأتي في المركز الأول . إنها الموضوع الرئيس في كل الأطوار ولها الصدارة من الصحيفة ، بل لها غالبية الصحيفة ، ولا غرابة في ذلك . يضاف إلى هذا أن التاريخ الديني لهذه البقعة المقدسة حمّل الأدباء

شعوراً بالمسؤولية تُجاه المواطنين من جهة ، وتُجاه العالم الإسلامي كافة من جهة أخرى . أليس فيما ذكرنا سبب يجعل للمقالة الدينية المحل الأرفع ، إذا لم يكن ذلك فأي البلاد تهيء لها الظروف مجالاً للكتابة الدينية كمثل السعودية ؟ لا شك أن المقالة هذه كانت متأثرة بكل ما ذكرناه وكانت لذلك غزيرة المعلومات ، متشعبة الأفكار تبعاً للدراسة والاستقصاء البعيدَيْن .

وإذا ما استعرضنا هذا الفيض من المقالات الدينية وجدنا أنها تدور حول شرح عقيدة الشيخ ابن عبد الوهاب . ومن الذين تصدوا لهذه الأبحاث محمد أحمد باشميل . وقد جمع ما كتبه وما نشره وما أذاعه وطبعه في كتب خاصة منها « لهيب الصراحة يحرق المغالطات » ، و « صراع مع الباطل » ، و « القومية في نظر الإسلام » ، و « إسكات الرعاع بأدلة تحريم الغناء والسماع » . ونظرة إلى فهرس بعض موضوعات « لهيب الصراحة » يتبين لنا اتجاه الكاتب ولون أدبه منها : « هل دعاء الأولياء دون الله كفر؟ »[١]، و « المشركون الأولون كانوا أكثر إيماناً من مشركي هذا الزمن[٢] » ، و « كيف يتمثّل الشيطان للقبوريين في صور أوليائهم »[٣] ، و« دعاء الميتين من الأولياء إذا لم يكن كفراً فهو جنون »[٤] . و « الدعاء والذبح والنذر لغير الله هو الشرك الأكبر »[٥] ، و « الأصنام ليست إلاّ أسماء رجال صالحين »[٦] . وكذلك يتعرض وزير المعارف الحالي حسن عبد الله آل الشيخ[٧] في مقالاته

---

١ لهيب الصراحة : ص ٢١ .

٢ المصدر نفسه : ص ٢٨ .

٣ المصدر السابق نفسه : ص ٣٤ .

٤ المصدر السابق نفسه : ص ٣٦ .

٥ المصدر السابق نفسه ص ٤٦ .

٦ المصدر السابق نفسه : ص ٥٢ .

٧ حسن عبدالله آل الشيخ : وزير المعارف حالياً، وهو سليل داعية نجد الشيخ محمد بن عبدالوهاب .

التي ينشرها – بين الحين والحين – لبعض موضوعات العقيدة كمقالته : « هل نحتفل بالمولد؟ »[1] ، و « الإسلام لا يبيح لنا الاحتفال بهذه الأيام »[2] ، و « بدعة الزيارة الرَّجَبِيّة »[3] . ومثله زيد بن فياض[4] في تعرضه « لبدعة المولد »[5] . ويأتي أحمد عبد الغفور العطار وهو من الأدباء الذين تحدثوا عن الإسلام ، وأسرار الشريعة في قضايا العبادات والمعاملات والأمور العامة . ونظرة هذا الكاتب في الإسلام تمتاز بسعة الأفق ، وتُقبَل أفكاره وآراؤه عند مختلف المسلمين في أرجاء العالم المسلم . نضرب مثلاً على مقالاته في أمور العبادة ما كتبه حول « توحيد أول رمضان »[6] . ولقد كان جريئاً حين نادى باتخاذ المراصد الفلكية الدقيقة ، والاعتماد عليها في إثبات أول رمضان ، وأول العيد ، ويوم الوقفة في عرفات ، لإظهار المسلمين وحدةً في أقطارهم ، وَرَدّ على الذين لا يؤمنون بالعلم الحديث . وما كتبه في حكمة الحج « المؤتمر الكبير في الإسلام » ، ومعنى مقاله ظاهر يدل عليه العنوان .

ثم تأتي مقالة الأدب ثانياً ، وهي المقالة التي تبحث في قضايا الأدب بصورة عامة وقضايا العرب بصورة خاصة. ومما يلاحظ على كتابها أنهم يمارسون النظْم إلى جانب النثر ، كما يلاحظ عليها – كذلك – أنها تزهى برصف الكلام وهندسته مع أن حمولتها من المعاني قد تكون ضئيلة لا قيمة لها ولا عمق

---

١ حسن عبد الله آل الشيخ ، دورنا في الكفاح ص ٩٠ .

٢ المصدر السابق : ص ١٠٣ .

٣ المصدر السابق ص ١١١ والزيارة الرجبية : تعني زيارة بعض المسلمين للمدينة المنورة في شهر رجب .

٤ زيد بن فياض : خريج كلية الشريعة بالرياض . يعمل حالياً مدير إدارة المكتبات بوزارة المعارف. من مؤلفاته : « من كل صوب » ، و « صور من الجهاد » ، و « في سبيل الإسلام » .

٥ زيد بن فياض ، من كل صوب ص ٨٠ .

٦ نشرت في عكاظ سنة ١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ م . ثم في كتاب « الإسلام طريقنا إلى الحياة » .

لأفكارها . ولقد انصرف بعض الأدباء إلى التأنق بالعناوين لتستر العَوار [1] . ولكن هيهات أن تنفح الزهرة الصناعية بالعطر ، وإن كانت قادرة على تبديد شيء من الكآبة . إلاّ أن ما يعوض هذا التقصير اعترافهم به . فقد أهاب أديب بزملائه « أن يلقوا عنهم أردية الكسل وحب التقليد ، ويندفعوا إلى التجديد ؛ فهو غاية العصر المتحرر ، ومطلب الوطن والأخلاق » [2] . وقد غاب عن هذا الأديب أن التجديد لا يكون بالكلام يملأ الجرائد ، ولكن باستيعاب أكبر قدْر من المعارف وخلاصات الفكر الإنساني ، تروّض المخ ، وتغني العقل . وليس التجديد هدم القديم ليبقى خرائب وأطلالا ، وإنّما ليُبنى مكانه الأصلح والملائم للعصر وذوق العصر . ولعبت الحماسة في رأس الأديب المطالب بالتجديد – لأنّه غاية العصر المتحرر – فاندفع إلى الميدان ليحقق بنفسه ما دعا إليه متوهماً أنّه الفارس المُعْلَم ، فحمل على شوقي ، ونعته

....

١ قال محمد حسن عواد في مقاله المعنون « تحليل ولي الدين يكن» في كتابه « خواطر مصرحة » ص ٦٤ قال فيه : « إعجابي بالكتبة العصريين أو الكرام الكاتبين ، يكاد يكون منحصراً في أمثال ولي الدين يكن ، والمنفلوطي ، وأمين الريحاني ، والعقاد ، والآنسة مي ، وسلامة موسى ، وهيكل ، والمازني ، من الكتبة الأحرار . وهؤلاء مع أعضاء الرابطة القلمية : جبران ، نعيمة، عريضة ، أبي ماضي . . . الخ ، كما أن إعجابي بالشعر الكلاسيكي العصري أعني النوع المعروف بالشعر الهندسي منحصر تقريباً في شعر الأول من هؤلاء ، وشعر بشارة الخوري وفؤاد الخطيب وآخرين لا أتذكرهم الآن . هؤلاء هم الشعراء الأحرار . سقياً لقلمك يا ولي الدين . لولي الدين يكن بأدبه العام نفسيات ثلاث : ولي الدين الشاعر المبتكر. ولي الدين الكاتب المفكر . ولي الدين الناقد الحر . في أسلوب هذا الكاتب الشاعر النابغة رنة موسيقية تقيم الأنفس وتقعدها ، مصوبة بها ومصعدة إلى الحقيقة لا إلى خيال ، إلى فكر حي لامع ثمين ، كالجوهر في أطباق الصدف . . . الكاتب الجبان ، والكاتب الخيالي الصرف والكاتب الذليل النفس عقبات في نمو الكتابة العصرية . . في قلم ولي الدين – كاتباً وشاعراً – وفي أفكاره الحرة تجد العبقرية والنبوغ . . » .

٢ محمد حسن عواد ، خواطر مصرحة : ص ٥١ .

بنعوت ما كانت — في يوم من الأيام — لتُحِقّ حقاً ، أو لتدفع باطلاً[1] . فانبرى له العطار ، وواثبه بالسلاح نفسه . وكتب الأدباء في إمارة شوقي[2] ، ومعارضته لعيون القصائد القديمة[3] ، وموقف طه حسين والعقاد والمازني منه[4] . هذه المشكلات ملأت الجرائد ، ولم يَعْدِلْها إلاّ مشكلة « جيم » مدينة « جدة » ، أهي مضمومة كما يقول الأنصاري[5] أم يجوز فيها الكسر والفتح والضم[6] كما يقول حَمد الجاسر .

هذه هي المقالة الأدبية بادعاءات كتابها ، وضجيج ألفاظها . ولعلنا حملنا في أنفسنا سأماً لهذا الضجيج ، وتلك الادعاءات الّتي لم تثمر ولم ينجل غبارها عن شيء . ولقد حاولنا أن نستمر في قراءة المقالات هذه فلم نجد فيها شيئاً يبل الكبود ، ويجلو صدأ القلوب ، اللهم إلاّ بعض المقالات القليلة الّتي لا بد من ذكرها ليكون الحديث أقرب إلى الدقة ولتكون اللوحة متمّمة الألوان . فقد كانت هذه المقالات هادفة هادئة الأعصاب لا ينقصها الوقار العلمي ، تحثّ الشباب على المطالعة لتقوي أفكارهم ، ولتستقيم أساليبهم[7] . وهي تحذرهم من الولع بالشهرة وهم ما زالوا ذوي أقلام طفلة لم تستقم لهم قناة[8] . وتتحدث هذه المقالات أيضاً عن دور الأدب في بناء الدولة[9] .

---

١ نقلا عن العطار ، كلام في الأدب : ص ١٣٢ .

٢ العطار ، كلام في الأدب : ص ١٣٠ .

٣ العطار ومحمد مصطفى حمام ، جريدة « البلاد » ١٣٨١ هـ/١٩٦١ م .

٤ عزت محمد إبراهيم ، جريدة « الندوة » ١٣٨٣/٥/٢٩ هـ/١٩٦٣ م .

٥ الأنصاري ، التحقيقات المعدة في حتمية ضم جيم جدة .

٦ حمد الجاسر ، مجلة « اليمامة » أعداد سنة ١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ .

٧ العطار ، كلام في الأدب ص ٧٨ .

٨ المصدر نفسه ص ١٠٢ .

٩ المصدر نفسه ص ١٣

ولا ينسى كاتبوها أن يعرضوا أبحاثاً لغوية[1] ومناقشة بين الفصحى والعامية[2] ومقومات الأدب السعودي الحديث[3] ، وأحاديث في الصحافة[4] ، والتراث الحافل بكل شيء رائع[5] ، ووسائل نهضة العلم وتطويره[6] .

أما المقالة النقدية التي أشرنا إليها فيما سبق فلم تكن بِدْعاً بين مثيلاتها ، بل لم تكن فنون التعبير الأخرى لتختلف عن المقالة النقدية وغيرها لا شكلاً ولا مضموناً ، إذ الكاتب واحد ، بل هو الشاعر والناثر . فكيف إذا كان كاتبَ مقالة أدبية أو قصيدة شعرية ، ثم كتب مقالة نقدية ؟ أيكون هناك فرق بين المقالتين ؟ أليس الأسلوب واحداً في كلتيهما ، والمضمون من مستوى فكري واحد وإن اختلفت جهتا الكلام ؟ لا غرو أن المعلومات التي تتوزع فنون القول صادرة عن ثقافة محدودة . وما أثرنا هذه الأسئلة إلاّ لنصل إلى الحديث عن الثقافة المحدودة التي ألمحنا إليها والتي هي المصدر الوحيد لعدد من الكتاب السعوديين . وإذا وضعنا في اعتبارنا ضيق الأفق ، وضعف الثقافة ، لم نستغرب شذوذ المقالة النقدية وانحرافها عن جادة الصواب إلى المهاترة التي تهدم ولا تبني ، أو تصدع ولا ترأب الصدع . ولعل هذا هو مشكلة المقالة النقدية : انجراف إلى الهجاء المؤذي بالقدح والتشهير .

يبدأ الناقد بتسفيه الآراء والأفكار ويصل إلى شتم الأشخاص . وليس غريباً بعد ذلك أن تتبنى الصحف هذه المهاترات ، وتضعها في الأمكنة البارزة

١ العطار ، آراء في اللغة : ص ٤٠ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٥٣ .
٢ المصدر السابق من ص ١٥٧ – ١٦٩ .
٣ عبد الكريم الجهيمان ، أين الطريق ص ٣١٤ ؛ وجريدة «الأضواء» عدد ٦٢ تاريخ ٢٦/١/٧٨ هـ .
٤ حسن عبد الله آل الشيخ ، دورنا في الكفاح : ص ١٤٤ .
٥ زيد بن فياض : جريدة الرياض العدد ٣٤٣ .
٦ زيد بن فياض : مجلة المنهل المجلد ٢٦/ شعبان ١٣٨٥ هـ / ديسمبر ١٩٦٥ م .

وتحت العناوين المثيرة اعتقاداً منها أنها تخدم الفكر وتجلو الضباب عن مرآة الحقيقة . مع أن هذا أعدى أعداء الحقيقة ، ينأى بها كارهة عما تهدف الصحافة إليه . فهذه « عكاظ » مثلاً تنشر في صفحتها الثانية عنواناً عريضاً « الموسوعة السّاسيّة في سوق الخضار »[1] ثم تُلحق به — بعد أيام — مقالاً آخر عنوانه « موسوعة المراكيز »[2] للناقد نفسه[3] ثم يَرُدُّ بعد أيام صاحب الموسوعة على الكاتب الناقد بمقال عنوانه : « سموها كما شئتم فهي موسوعة »[4] ، ويعلق على هذا الهراش كاتب آخر هو إبراهيم الناصر تعليق المتألم لما يثار من الجلبة والضوضاء دون اللجوء إلى تحكيم العقل والمنطق السليم[5] . ويتألم

---

١ نسبة إلى عبد السلام الساسي .

٢ المراكيز : مفردها مركاز ، وهو الكرسي العريض في مقهى شعبي ، يقعد عليه عدة أشخاص في آن واحد — واللفظة سعودية شعبية — .

٣ كاتب النقد محمد حسين زيدان ، وقد هاجم في جريدة « عكاظ » (المؤسسة) عبد السلام الساسي الذي يكتب موسوعة أدبية لرجال المملكة العربية السعودية ويضع مع كل ترجمة نموذجاً مدروساً ويرتبها ترتيباً ألفبائياً . وقد صدر الجزء الأول بمكة سنة ١٩٦٨ م .

٤ عبد السلام الساسي جريدة عكاظ — العدد ١٩٦٨ الخميس — ٨٧/١٠/١١ هـ/٦٨ م . جاء في الجريدة « والذي يؤسفني ويؤسف كل مواطن حر مستقيم التفكير هو أن هذا هو شأننا وديدننا عند قيام أي مشروع أدبي أو اجتماعي حيث يقابل من بعض الناس بالتطويح والازدراء بشكل يستدعي الأسف والخجل معاً » . أما شخصية الساسي فقد تكونت من حيث الدراسة في مدرسة الفلاح بمكة ثم أكمل تحصيله بجدة . ومن ثم دخل عالم الوظائف ، وهو اليوم موظف في مالية مكة .

٥ إبراهيم الناصر . جريدة اليمامة — العدد ١٥٤ — ٨٧/٢/٢٧ هـ/١٩٦٧/٥/٢٦ م. « المؤسف أن القضايا الفكرية التي تطرح للنقاش تنتهي نهاية مفجعة ، ذلك أن العاطفة والتسرع والنظر من الزوايا الضيقة هي التي توجه تفكيرنا وتملي علينا وجهات نظرنا ، على أن ذلك ليس بالغريب في بلد يفتقد فيه النقد ، فتكون العلاقات الشخصية والعاطفة هي البديل عن الموازين النقدية الأصيلة » .

ضياء الدين رجب أيضاً بما صكّ أذنيه من السخف والقرف « لكأن هذه الثرثرة ضرورة من ضرورات الحياة »[1] ، ويضيق الكاتب علي أحمد النعمي بالمهاترات ذرعاً فيستجير « بالدكاترة » أن يضعوا حداً لها ولا سيما أن هؤلاء « الدكاترة » حاملو الشهادات العالية قد صار لهم من الثقافة وسعة الاطلاع والقدرة على الحكم الصحيح المبلغ الطيب »[2] . لكنه انحدر في آخر المقال إلى ثورة عاطفية وتَهَجّمٍ ، كاد يصل إلى حد الهجاء شأن سائر النَقَدَة .

إن هذا الذي انتهينا إليه من استقصاء لتيارَي النقد الأولين أعطانا صورتين متعاكستين يمكن الأخذ بهما حينما نريد أن نصدر رأياً فيهما ، وما قلنا : إنهما تياران إلاّ لنوضح الجهتين المتنازعتين على كمّ النقد وكيفيته . إلاّ أن كلمة الحق التي لا مفر منها هي أن الطرفين ضائعان في متاهات لا حدّ لها ، وكلاهما يضرب في حديد بارد لم يستطع حتى الآن أن يكيفه ليصنع منه الشيء الذي يودّ ويرغب .

وخاتمة الكلام ، إن هذا الأدب أو هذا الكلام لم يستطع أن يؤدي رسالة . أو إن الرسالة التي يسعى إليها كل متقلد قلما كانت مفقودة . لذا زلّت هذه المساجلات إلى دوامة العدم ، وتلاشت دون أن تترك أثراً في المجتمع ، ولم تدفع بالأدب إلى الدقة والتركيز واستقامة العبارة كمرحلة أرقى للمقالة .

---

١ ضياء الدين رجب ، جريدة البلاد – العدد ٢٤٩٨ – ٨٧/١/٢٢ هـ/٦٧/٥/٢ م. « إننا صرنا نسعى بأنفسنا وراءه كمن يرى القرف والسخف ويصاب بهما في المنظر والمخبر ، وأسخف السخف . وأقرف القرف أننا نعرفهما ونحسهما ثم نسعى إليهما كأن ذاك ضرورة من ضرورات الحياة في وجودنا فماذا نحن ؟ » .

٢ علي أحمد النعمي ، جريدة اليمامة – العدد ١٥٤ – ٨٧/٢/١٧هـ/٩٦٧/٥/٢٦ م « . . . أما محاولة خدمة الوطن ، واما ممارسة الكتابة المجدية النافعة ، وأما التوجيه ، فهذه أمور ، هم بعيدون عنها ، أو هي بعيدة عنهم . . . » .

فكيف نسوغ لأنفسنا أن نسأل الأديب عما أعطى إذا كنا نعلم علم اليقين أنّه لم يستطع أن يأخذ من العلم القدر الكافي .

ولعل من الطرافة أن نشير إلى أن كثيراً من الناشئة [1] تجرأوا على النهوض « لكبار الأدباء » ، وأن يقفوا لهم في الطريق وان لم يستطيعوا الصمود لهم . فهذا ، إن دل على شيء ، فهو يدل على ضعف كثير من « الكبار » حتّى تجرأ عليهم « الصغار » ويدل على سوقية الموضوعات التي أصبحت لعباً بحيث تساوى في ذلك ذوق هؤلاء وذوق هؤلاء ، وأن النقد كان يقوم على اعتبارات شخصية لا موضوعية .

لا بد لنا قبل نهاية المطاف ، أن نشير إلى أن هذا الأدب النقدي لم يعط نفعاً كبيراً سواء أكان صادراً عن « الكبار » أم عن « الصغار » . وكيف يعطي وقد رضي الطرفان أن يتناقشا ويتناطحا . وهل في هذا الجدال العقيم ما يقدم الأدب وينفعه ؟

١ قال أحد الناشئين نقلا عن العطار « كلام في الأدب » ص ٥٢ :

« . . وإذا أردنا أن نفتش عن أدبائنا الكبار أمثال العواد والآشي ، والفقي والعطار ، والأنصاري ، وغيرهم . إذا أردنا أن نفتش عن هؤلاء نجد أنهم آثروا الصمت وتخلوا عن المسؤولية وعن المشاركة ، ومع أنهم لم يبلغوا المكانة التي بلغها غيرهم في عالم الأدب في البلاد العربية الأخرى ، فكيف بهم وهم لا يزالون يعتبرون في دور التكوين و[النضوج] ومع هذا فنحن نعتبرهم الطليعة في البلاد ، وهم مسؤولون عن انتكاسة الأدب في بلادنا » .

فرد عليه العطار : (المصدر السابق ص ٥٢) .

« . .فهؤلاء المجددون ليسوا مجددين بل رجعيون ، وهم ليسوا متقدمين بل متخلفون ، وهم ليسوا مبتكرين بل مقلدون وأنا أنفي عنهم صفة الأصالة والموهبة والملكة الفنية ، فإني أجدني مضطراً أن أسلبهم خصيصة الإنسانية ؛ لأن الإنسان لا يفقد ملكة الإدراك والتمييز بين الوضيع والهزيل والسمين ؛ فإذا فقد هذه الملكة فقد صفة الإنسانية التي تناقض الحيوانية فإذا دفعه الاجتراء إلى تسمية الوضيع رفيعاً ، والهزيل سميناً فقد ابتعد عن الإنسانية التي نفهمها على أنها مثالية الشعور الإنساني الرفيع والخلال الإنسانية الفاضلة

إن هذا الحكم لا يعني أن سائر الأدباء انجروا إلى المهاترة والتخاصم ، فقد نجا من ذلك عدد من الكاتبين . كان منهم محمد سعيد العامودي ، في كتابه « من تاريخنا » .

وكان مقياس النقد عنده يعتمد على حسن عرض الموضوع عند كاتب معين ، وعلى الأسلوب الذي اتبعه في هذا العرض ، وقدرته على تحليل الحوادث وردّها إلى أسبابها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والنفسية ، ومقدار الفائدة التي استطاع الأديب أو الكاتب أو المؤلف تقديمها لقارئيه . ولا شك أن هذه المقاييس يعترف بها النّقدة الموضوعيون ويلتزمونها . ولا بد من الإشارة إلى أن العامودي وأمثاله لم يضعوا في حسابهم المقاييس الشخصية عند تقويمهم الأثر الأدبي كما فعل نقاد الفئة الأولى .

لقد تحدث — من جملة ما تحدث في كتابه « من تاريخنا » — عن ثمانية كتب[1] . درسها وعلّق عليها تعليق ناقد بصير ، كأنّه يرى النقد رسالة لا تقل عن رسالة الحاكم الناقد ، يستمع إلى المدّعي والخصم ، ثم يعود إلى قوانينه ، وعقله . ويراه — أيضاً — رسالة توجيه لا لوناً من ألوان الهجاء[2] .

---

١ الكتب التي لخصها ونقدها هي : « العناصر النفسية في سياسة العرب » لشفيق جبري (من سلسلة اقرأ) . « العرب » — تاريخ موجز — لفيليب حتّي . « قادة فتح العراق والجزيرة » ، للواء الركن الحاج محمود شتيت خطاب . « المثل الأعلى للحضارة العربية » للدكتور محمد يحيى الهاشمي » . « الموالي في العصر الأموي » لمحمد الطيب النجار . « المسلمون في الهند » ، لأبي الحسن علي الحسني الندوي . « طه حسين . . والشيخان » لمحمد عمر توفيق . « تاريخ مدينة جدة » ، لعبد القدوس الأنصاري .

٢ وهذا نموذج من نقد العامودي لكتاب شفيق جبري « العناصر النفسية في سياسة العرب » : « من جميل صنع المؤلف في كتابه أنه لا يكتفي بالتحليل الخاص ، أي تحليل الحادثة وحدها ، بل هو غالباً ما يتدرج من الخاص إلى العام . إنه يشير إلى الحادثة ويعلق عليها ، ثم ينتقل إلى التعليق الشامل . التعليق الذي يتصل بالأحوال العامة للشخصية التي يتحدث عنها، وكأنه بهذا =

وأما ما يقال عن المقالة الاجتماعية وموضوعاتها في السعودية فهو ما يقال عنها في سائر الأقطار العربية ، لأن البلاد كلها ـ حينما بزغت أنوار النهضة ـ كانت تئن تحت ركام من السّوْءات خلفته عصور الضعف . ثم أحاطت بها الدول الاستعمارية في مطلع القرن الحديث ووضعتها تحت سيل من الأزمات السياسية أبعدتها عن التفكير السليم طويلاً والأخذ بأسباب التطور الحق . فتاهت القوافل وراء دليل لا يخاف إلاً ولا ذمة . وهكذا أصيب الوطن بارتكاسة شظاياها الفقر وسوء الأخلاق وتخلف المرأة وشظايا أخرى . ولا بد للنهضة من قهر هذه العقبات وإزالتها . لقد عكف الأدباء على دراسة المجتمع الممزق وراحوا يردّون عليه ما تباعد من أقاصيه ، فحاربوا الفقر ودعوا إلى علاج الموقف وتلافيه قبل أن ينفجر ثورة لا تتوقف شرورها عند حد ، وحاربوا سوء الأخلاق بالدعوة إلى التمسك بالمثل العليا والدين وتساءلوا : أين هي الشخصية العربية ؟ لماذا انحدرنا من قمم الشهامة والعفة والشجاعة والكرم إلى أود العادات المكتسبة ومستنقعاتها ؟ لقد اهتزت المرآة واضطربت الصورة ولا بد من تعديل الوضع وإعادة النظر لنكون ـ حقاً ـ خير أمة أُخرجت للناس ، ودعا أدباء السعودية إلى إنصاف المرأة ، ولم ينسوا أن يردوا كل هذه الأمراض إلى الجهل الذي أخذ بتلابيب الوطن . فعلى الشعب أن يسعى جاهداً في تحصيل العلم لينزع عن نفسه كل تلك الأشواك قبل أن يتسع الخرق على الراقع ، ويضيع الزمام[1] .

= يريد أن يعود بالقارىء إلى العنصر النفسي الأصيل ، أو مفتاح الشخصية ، كما يقول بعض الكاتبين . فهو في حديثه ، وفي تحليله لموقف الرسول الكريم مع أبي سفيان ينتقل بنا إلى الحديث العام عن سياسة الرسول بصورة عامة ، وعن طابعها الأصيل . . » ص ٧٣ .

١ أكثر المقالات التي نشرت في الصحافة في هذا الطور قد جمعت في كتب مستقلة نعدد منها على سبيل المثال : حسن عبد الله آل الشيخ ، « دورنا في الكفاح » و « خواطر جريئة ». =

هذه هي الموضوعات التي نسجت فيها مقالة النقد الاجتماعي في المملكة وهي – وإن كانت أبحاثاً عامة لكل الأدباء – متنوعة الأساليب . فالأدباء تفاوتوا في طرائق التعبير . كل له أسلوبه المتلائم مع نفسه . وتلاؤُم الأسلوب مع النفس دليل على الكاتب . فكل أديب كانت له وسيلته الكتابية في العرض والتوضيح تبعاً للذوق الخاص لكل منهم .فالعواد يستخدم[1] الأسلوب الفكه الساخر معتقداً أن لهذا الأسلوب أثراً أعمق يجبر المخاطب أن يلتفت إلى نفسه . ولغة السخر هذه تكلم الكبير بلغة الصغير أو بلغة التبجيل الذي يتجاوز القدر ، وتكلم الصغير بلغة الكبار العظام ، وهي تتكئ على جمل الدعاء الاعتّراضية في أكثر الأحيان ، وقد يعدّل الكاتب أسلوبه ليكتب بجد بعيد عن الهزل

= حسن عبد الله القرشي ، « أنا والناس » ؛ عبد العزيز سليمان الهزاعي، « في سبيل الوطن – نار ونور » . محمد حسن عواد ، « خواطر مصرحة » و « من وحي الحياة العامة » ؛ زيد عبد العزيز فياض ، « من كل صوب » ؛ عبد الكريم الجهيمان ، « أين الطريق » ، و « دخان ولهب » ، و « آراء فرد من الشعب » ؛ إبراهيم هاشم فلالي ، « أين نحن اليوم » ؛ عبد الله سلامة الجهني، « أفكار بيضاء » ؛ عبد السلام هاشم حافظ « ثورة الجزيرة » ؛ أحمد محمد جمال، « مبادىء ومثل » ؛ أحمد السباعي ، « دعونا .. نمش » ؛ سعد البواردي ، أجراس المجتمع » ؛ سامي – مزعق – زواوي ، « نفثات من أقلام الشباب الحجازي » ؛ محمد سرور الصبان ، « أدب الحجاز » ، و « المعرض » ؛ محمد عبد المقصود – عبد الله بلخير ، « وحي الصحراء » ؛ سعد البواردي ، « فلسفة المجانين » ؛ حسن الشنقيطي ، « النهضة الأدبية بنجد » .

١ خواطر مصرحة ١/٢٠ : « الحقيقة المؤلمة التي وعدتكم بها يا سادتي هي أن في إطلاق كلمة « عالم » على أحدكم تسامحاً كبيراً في الاستعمال ؛ لأنه وإن كانت العلوم الدينية في الواقع علوماً ، بل من أجل العلوم وأعظمها خطراً . ولكن كلمة « عالم » كبيرة كبيرة على حضراتكم . لا تستعجلوا ولا تهيئوا لمحسوبكم « الأشوان » والعكاكيز . إن مساويككم المباركة كافية للضرب إذا لزم الأمر ولكن لا . اصبروا اصبروا قليلا فسأفصل لكم بعض الحقيقة إذا لم يكن كلها . . » .

والضحك ، وقد يجنح إلى الأسلوب الخطابي الثائر العنيف ، أو قد يميل إلى الأسلوب الهادئ الرصين ، مراعياً في ذلك كله مقتضى الحال ، والبلاغة التي تضع كل شيء في مكانه المناسب .

إن خير من يمثل الأسلوب الخطابي محمد سعيد باعشن بمقالاته في جريدة (الأضواء) كما أن خير من يمثل الأسلوب الهادئ الرصين حسن عبد الله آل الشيخ[1] في جميع مقالاته الاجتماعية ، والدينية ، والسياسية ، والأخلاقية ، والموضوعات الأخرى . وكذلك نقول الشيء نفسه عن مقالات عبد الكريم الجهيمان[2] ، وعن كثيرين آخرين من الكتاب الكبار الناضجين المختمرين .

---

١ جاء في كتابه (خواطر جريئة ص ٨٣) تحت عنوان « الواشي » : « الوشاية دائماً صنيع الجبناء ، والحساد ، والمنحرفين . . . فالواشي جبان وان كان صادقاً ، لأنه جنح إلى الوشاية الحقيرة بديلا عن التناصح الواجب للمسلم على أخيه ، وجبان – وان كان كاذباً – لأنه آثر أن يقذف بافترائه في غيبة أخيه ، ولم يكن ليفتري عليه في مشهده . والواشي حاسد ان كان صادقاً ، لأنه سعى إلى الإيقاع بأخيه ، مفسداً بما صنع صلة قائمة ، وحاسد ان كان كاذباً لأنه افترى ما أراد الإضرار بأخيه وزوال نعمته . . . »

وجاء في كتابه (دورنا في الكفاح ص ٥٣) تحت عنوان « الهاربون وراء الحدود » : اندفاع أبنائنا إلى خارج البلاد ليختاروا زوجاتهم من هناك ! أليس أمراً مستحقاً للعلاج ولفت النظر ؟ . انه في اعتقادي – احدى مشكلاتنا العميقة – التي ينبغي دراسة أسبابها ، ووضع الحدود لها ، ولا سيما نحن نشهد في واقعنا الماثل ، العديد من النماذج الفاشلة لمثل هذا النوع . . .

٢ آراء فرد من الشعب ص ١٧٩ (نقلا عن جريدة القصيم – العدد ٩٦ – تاريخ ١٥/٥/١٣٨١ هـ) : « الغذاء . . الكساء . . الدواء . . هذه الأمور الضرورية للحياة ماذا ننتج منها وماذا نستورد ؟ ثم هل فكرت في يوم من الأيام أنه قد تأتي ظروف لا نستطيع فيها أن نستورد ، فإذا جاءت هذه الظروف فهل يسد رمقنا ورق البنكنوت ؟ هل تمدنا بالدفء صفائح الذهب؟ هل تزيل أمراضنا أقراص من الفضة ؟ أبداً . . أبداً . وإذاً ، فماذا صنعنا لتلك الظروف المحتملة الوقوع في كل لحظة من لحظات حياتنا . . » .

وفي الأدب السعودي نوع آخر من المقالات عالجت قضايا الاقتصاد كالتوفير والإسراف والتصنيع والبناء ، ولكن مشكلات الاقتصاد — لدقتها وخطورتها — لا تؤدي النفع إلاّ إذا كانت بأقلام جماعة مختصين ذوي خبرة بالاقتصاد ومسائله [1] .

أما المقالة السياسية فقد سبق لنا أن تكلمنا على الحرية الصحافية في السعودية ووصلنا إلى أنها ليست بالحرية الفوضوية التي تبيح لمثيري الفتن أن يقولوا ما يشاؤون ، وليست بالحرية المرهقة بالقيود حتى تمنع الكاتب أن يقول كلمة حق ولو في وجه من وجوه الخير . وإنّما هي حرية مقيدة بالمصلحة العامة وفق مبادئ الأخلاق . فالقوم لا يرغبون في الهدم والتدمير بقدر ما يتوخون وجوه الحقيقة من أجل الخير . فهم كتبوا في قضايا عربية وإسلامية وقفت الحكومة إلى جانبها ، ولزموا الصمت من قضايا أخرى سكتت عنها الدولة . وكانوا ينظرون إلى هذه القضايا بمنظار إسلامي بقصد الإشارة إلى السيء ليصلحَ وإلى المعوج ليقوّم . تحدثوا عن ذلك بلغة بعيدة عن الشتم والصياح والفوضى والرعونة . وإذا ما شئنا أن نعرض الفِكَر الموجهة للسياسة فهي بلا شك إسلامية بصورة عامة ، لأن الكاتبين إما من العلماء رجال الدين الذين ينتمون إلى « آل الشيخ » [2] وإما من جماعة « الإخوان المسلمين » [3] وإمّا من « هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » [4] ، وإما من أعضاء الحكومة [5]. وغالباً ما كانت هذه الصفات كلها أو بعضها تجتمع في كاتبِ المقال .

---

١ انظر مقالات « ابن فياض » الاقتصادية في كتابه « من كل صوب » من ص ١٨١ إلى ٢٠٩ ونقد الدكتور صلاح الدين منجد في مقدمة الكتاب نفسه ص ٦ .

٢ حسن عبد الله آل الشيخ . وزير المعارف الحالي .

٣ أحمد عبد الغفور العطار ، وحسن كتبي ، وأحمد محمد جمال .

٤ محمد أحمد باشميل .

٥ جميل حجيلان : في كتابه « الدولة والثورة » وهو وزير الإعلام — سابقاً — .

تلك هي الأفكار التي كانت تنتظم المقالات ، والجهات التي ترمي إليها . بقي علينا أن نعرف أن الأسلوب العام كان على لونين : هجومي يحطم الخصم ويظهر كفره وانحلاله كما فعل « باشميل » بـ « إحسان عبد القدوس » ومجلته « روز اليوسف »[1] . ومتزن هادئ يعتمد على المنطق والبراهين في إقناع الخصوم . وخير من يمثل هذا اللون حسن الكتبي في مقاله « مطابخ السياسة القذرة »[2]. ولا ننسى في نهاية الفقرة لوناً آخر يناقش الأفكار الأدبية بفكر سياسي وهو خاضع بدوره للدين أيضاً[3] .

---

١ باشميل لهيب الصراحة ص ٧٠ : « مبروك . . مبروك . على زعيم أدب الفراش ، ورائد ثقافات الحانات ، والليالي [الحمراء] مبروك عليه وعلى مجلة أمه المصون (. . . .) وتهانينا أيضاً للببغاوات التافهة (من متشاعرين خاسرين في دينهم وفاشلين في دنياهم) رددوا (في مجالسهم الموبوءة) هذه المفتريات نثراً ، وقاموا بنشرها (في مجلة المتحللين اللادينيين) شعراً ، وذلك ظناً منهم أن ذلك سيبرد غلة حقدهم في نفوسهم الحقيرة ، ويجعلهم ينجحون في تناول نجوم السماء بأيديهم الكسيحة القصيرة ولكن :

هل يضر البدر كل نابح ؟ جل ذاك البدر وتسامى

٢ دورنا في زحمة الأحداث : ص ١٠١ :

« . . . فرحم الله ماضي الأمة العربية حين كانت ثوراتها ضد المستعمر . . لا ضد بعضها بعضاً . . وكان الزمام في يد الراشدين من أبنائها والعالمين بالأساليب الحكيمة التي تعالج بها القضايا سواء كانت مع عدائها أو مع أصدقائها ، أو كانت السياسة فيها ذات سياج حرام من الأخلاق الكريمة ، والتقاليد السليمة والقوانين والدساتير المرعية . . وكانت الأمور تنتهي إلى أولي الأمر العالمين بطرق الاستنباط للوجوه الحكيمة السليمة في كل قضية بعينها . ومعالجتها بالأسلوب اللائق بها ، حين لم تكن السياسة تطبخ في مطابخ الأهواء الطائشة . ثم تعرض على أساليب الحواة للجماهير الغوغائية لترقص على نغمات مزمار الحاوي . وتصفق لها ثم ينتهي الأمر على أن ذلك هو رأي الشعب الذي هو مصدر القوة والتأييد . » .

٣ مثل ذلك ما كتبه باشميل حول أبيات القروي الذي يقول :

هبوني عيداً يجعل العرب أمة وسيروا بجثماني على دين برهم
فقد مزقت هذي المذاهب شملنا وقد حطمتنا بين ثاب ومنسم =

نخلص من كل ما تقدم إلى أن المقالة السعودية استطاعت أن تشق سبيلها رغم العثرات الكثيرة التي واجهتها ، فوضّحت المعالم ، ووضعت الصّوى ، وهيأت الأسباب للوصول إلى الأهداف المنشودة . وقد كان أهم ما يميزها أنها اتخذت الاتجاهات الدينية والسياسية والأدبية والنقدية والاجتماعية ميادين لأبحاثها مكتفية بها دون غيرها . واتسعت آفاقها تبعاً لاحتياجات العصر وضروراته . فشملت الداخل والخارج سياسيّاً واجتماعياً ، ولما صنفت هذه المقالات ونسقت في فصول وُلد « الكتاب » السعودي الحديث فأدى هذا بدوره إلى إغناء المكتبة العربية . ولقد أخذنا على هذه المصنفات اعتمادها على أسلوب المعالجة السطحية في الأفكار وترديد البديهيات ، وبعدها عن الدقة والتركيز والموضوعية ، وافتقارها إلى النفس الفني الطويل . غير أن الزمن والخبرة والنقد الموضوعي كفيلة بتعديل المُعْوَجّ ، والسير في الطريق السويّ إلى الأمام .

= بلادك قدمها على كل ملة ومن أجلها أفطر ومن أجلها صم
سلام على كفر يوحد بيننا وأهلا وسهلا بعـده بجهنم

فرد باشميل ناقداً القروي ومما قاله : « . . وإني هاجمت الشاعر القروي – رشيد الخوري – وعتبت على الصحف التي مجدته ، وخلعت عليه قديس القومية العربية ، لا لأن الشاعر مسيحي ، وإنما لأنه دعا إلى الشيوعية والإلحاد وصلى وسلم على الكفر » .

الباب السّابع

البحوث والدراسات المنهجية

البحوث ومناهج التأليف

إذا كانت حركة التأليف اليوم في المملكة العربية السعودية ناشطة ، متدفقة تتناول مختلف القضايا الأدبية والفكرية ، فهي – في الحقيقة – استمرار لما كانت عليه في القرون الماضية ، لم تشهد توقفاً ، ولا انقطاعاً ، شأنها في ذلك شأن أكثر الأقطار العربية الأخرى . وإذا كانت بعض هذه المؤلفات الحديثة تتصف بالدقة ، والعمق والموضوعية والمنهج العلمي فإن هذه الصفات هي الطارئة الجديدة عليها .

إن نظرة شاملة إلى مجموع ما ألف بأيدي أبناء الأرض السعودية ، وطبع ، توحي إلينا بأن الجهد يكاد ينحصر – في المرتبة الأولى – في التأليف في الأدب هذا الأدب بمعناه الواسع العريض ، كما عرفه القدماء ، والذي كان في أذهانهم يعني « الأخذ من كل فن بطرف »[1] . هذا المعنى هو الذي سمح لهم أن يحشروا في نطاق الأدب الشعرَ وعلومه ، والنثر وفنونه ، وما يتصل بهذين اللونين من تاريخ وجغرافية ، واجتماع ، بل من مهارات رياضية ، وصناعية[2] وألعاب رشيقة[3] ، ممّا لا صلة له بالأدب إطلاقاً[4] . وهو يختلف عن مفهوم

---

١ الحصري ، زهر الآداب ١/١٤٢ ؛ الطرابلسي ، حركة التأليف : ص ٧٥ ؛ الدقاق ، مصادر التراث العربي : ص ٨٣ .

٢ الضبي – طبعة كوديرا – ص ٣٦٢ .

٣ رسائل إخوان الصفا ، الرسالة السابعة ، طبعة بمباي ١/١٨ .

٤ بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ١/٩٢ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ١/٥٣٣ .

العلم عند القدماء ، وقد كان يعني كل ما يتصل بالدين من قرآن كريم ، وحديث شريف ، وفقه ، وأصول ، وتوحيد ، وعلوم إسلامية[1] .

وتسهيلاً للبحث ، ورغبة في الوصول إلى حكم عادل — قدر الطاقة — على هذا الإنتاج الغزير ، آثرنا النظر في المؤلفات الأدبية وحدها دون المؤلفات العلمية — الدينية — لأن دراسة هذه المؤلفات هي التي تعنينا في بحثنا هذا . واخترنا من الأدب فرعين ، الأدب بمفهومه الحديث المحدود — ثم التاريخ ، ويخيل إلينا أن تسليط الأضواء على هذين اللونين من التأليف يبرز فكرة شبه واضحة عن الأبحاث المطروقة ، والمفضلة ، ويصور المناهج المتباينة التي يسلكها المؤلفون والدارسون . ودراسة هذين اللونين قد تنطبق كل الانطباق ، أو بعضه ، على الفنون الأخرى ، وتمكّن من قياس الأمور بنظائرها ، وتسمح بتكوين فكرة عن هذه المؤلفات وقيمتها .

---

١ جولد تسيهر ، دائرة المعارف الإسلامية ١/٥٣٢ .

الفصل الأوّل

التأليف الأدبي

الآثار الأدبية التي ظهرت في هذه الحقبة متباينة تبايناً شديداً من حيث موضوعاتها ، ومحتوياتها ، وطرق تأليفها ، وأساليب البحث فيها ، والفهارس التي نظمت في أواخرها . وقبل كل شيء نكاد نؤمن بحقيقة أولى هي أن هذه المؤلفات الأدبية لم تظهر قبل نشوء الدولة الحديثة . وكل ما صدر من قبل لا يعدو الدواوين الشعرية ، والمقالات الصغيرة ، والرسائل الإخوانية ، والأبحاث الدينية والتاريخية . أما الإنتاج الأدبي الغزير فقد بدأ ينمو ، ويتكاثر في الثلاثينات من القرن المتمم للعشرين ، وما يزال مَدُّه آخذاً بالاتساع . والحقيقة الثانية في هذه المؤلفات : أنها بدأت بمرحلة هي أقرب إلى الجمع والتأليف والسطحية منها إلى البحث والدراسة والتعمق .

إن إلقاء نظرة عامة شاملة على الآثار السعودية المطبوعة خلال أربعين سنة — تقريباً — تدفعنا إلى الاعتراف بأنها لا تزال — في معظمها — دون مستوى المؤلفات العربية في البلاد المجاورة ، موضوعاً وأسلوب بحث . ومع ذلك فإن الحكم يختلف باختلاف المؤلفين ، وباختلاف كتب المؤلف الواحد . فهناك من برع في الدراسات العلمية ، والتحقيقات المنهجية حتى ضارع العلماء الأفذاذ في غير بلده ، وهناك من قَلَّ عنه رتبة ، ومن أسفَّ حتى بلغ الحضيض .

فالدراسات الصادرة ، والمتصفة بالمنهجية والعلمية — وهي أعلى درجات الإنتاج الفكري — تندرج تحت عنوانات : الدراسات الأدبية ، والدراسات

النقدية ، والتأليف في التحقيق اللغوي ، والتأليف في تحقيق الأماكن والمواطن في الجزيرة ، وكتب المجموعات العامة . وعرضنا يقتصر على النظر في هذه الدراسات فقط . ولن نتعرض للكتب التي تكون من مجموعات مقالات أو قصص . فتلك قد سلف الحديث عنها ضمن الفنون التي انتسبت إليها .

* * *

أ – أما **الدراسات الأدبية** ، فيمكن القول إن المحاضرات التي ألقاها عبد الله عبد الجبار في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة سنة ١٩٥٩ م ثم ضمّ بعضها إلى بعض في كتاب دعاه : « التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية » تقف في طليعة هذه البحوث ، وقد عانى المؤلف في عمله صعوبات عدة ، منها أن المتحدث في التيارات الأدبية في العراق ، أو لبنان ، أو مصر ، أو سورية ، أو غيرها ، يجد أمامه رصيداً من الحقائق والمعلومات والتاريخ الأدبي عن هذه البلاد ، يستطيع أن يبني عليه دراسته لتلك التيارات . أما حال الأدب في قلب الجزيرة فيختلف عن ذلك اختلافاً بيناً ، لأن الدرب لم يُطرق بعد . نعم لقد كتب طه حسين بحثاً عن « الحياة الأدبية في جزيرة العرب » ولكنه لم يتجاوز خمسين صفحة من القطع الصغير . وكان في مجمله حديثاً عاماً ، هو أقرب إلى المقالة الصحفية منه إلى البحث العلمي الموضوعي . والصعوبة الثانية التي واجهها المؤلف قلة المراجع السعودية وندرتها . ذلك أن الكتاب السعودي إذا طبع فسرعان ما يفقد من الأسواق، وكثيراً ما يشقّ العثور على نسخة منه . رغم هذا فقد خرجت المحاضرات بالشكل المقبول ، وضمت عدداً كبيراً من الحقائق ، وألقت الأضواء على كثير من القضايا الأدبية الغامضة.

لقد قسم المؤلف كتابه قسمين : تحدث في الأول عن جغرافية قلب الجزيرة وعن تاريخه الحديث ، واستغرق ذلك من الكتاب نصف عدد صفحاته ، إذ بلغ هذا القسم مائة وثلاثين صفحة . وتحدث في القسم الثاني عن موضوعات

متعددة . كانت على الترتيب : « ميلاد الأدب الحديث في قلب الجزيرة » ، و « العوامل المؤثرة في الأدب » ، و « أثر البيئة في شعر الجزيرة » ، و « الرمزية الخاصة في أدب الجزيرة » ، ثم انتقل إلى دراسة « التيارات الأدبية وأثرها في الشعر » . ولقد رأى عبد الله عبد الجبار أن الأدب يتوزع في ثلاثة تيارات « كلاسيكي » و « رومانسي » و « واقعي » وهذا التيار الأخير – الواقعي – يتفرع إلى اتجاهات : اتجاه اجتماعي ، واتجاه ثوري ، وآخر وطني ، ورابع قومي .

المخطط العام لهذه الدراسة يتصف بالشمول والدقة والمنهجية ، ويظهر ذلك واضحاً عند ربطه أسباب ظهور تيار أدبي جديد بمسبّباته . فهو – مثلاً – يرد سبب انبعاث « الرومنسية » في شعر قلب الجزيرة إلى عوامل كثيرة . منها : « حياة القلق والاضطراب التي عاش في ظلها الأدباء ، وعدم قدرتهم على تحقيق مآربهم » [1] ومنها « المزاج الانطوائي عند عدد من الشعراء » [2] ، ومنها « ظهور مدرسة أبولو بمصر ، ونشوء المدرسة الرومانتيكية بها وبلبنان » [3] ، ومنها « الترجمات التي قام بها العقاد والزيات وغيرهما » [4]، ومنها « أثر الصوفية المتحكمة في الشرق » [5] ومثل هذه المناقشات فيه كثير .

وقد نفتقد في هذه الدراسة الفنون النثرية ، فنجده قد أشار إلى « أن جزءاً ثانياً سيتلو هذا الجزء ، وسيكون قاصراً على دراسة « التيارات الأدبية في

---

١ التيارات الأدبية : ص ٢٧٤ .

٢ التيارات الأدبية : ص ٢٧٥ .

٣ التيارات الأدبية : ص ٢٧٥ .

٤ و ٥ انظر الصفحات : ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣٦٠ .

النثر » ، كالقصة والأقصوصة والمقالة بألوانها المختلفة ، ذاتية كانت أو موضوعية »[1] . ويبدو أنه لم يبرّ بوعده . فلقد مضت عشر سنوات على إصدار الجزء الأول ، ولم يخرج الثاني إلى عالم النور . ولربما كان للمؤلف أعذاره ومُسَوِّغاتُه ، لكننا لم نستطع التوصل إلى معرفتها .

قد يؤخذ على عبد الله عبد الجبار أنه كان ينظر إلى قضايا الجزيرة — ولا سيما في عهدها الحاضر — بمنظار سوداويّ متشائم . ذلك أنه كان يختار الجانب المظلم — في معظم الحالات — ويسلط عليه الأضواء ، ويبرزه إبرازاً شديداً[2] . ويورد — أحياناً — قصائد لشعراء لا يذكر أسماءهم [3] . ولسنا في هذا المجال بصدد مناقشته لآرائه ومعتقداته ، وصحة ما ذهب إليه ، أو عدم صحته ، فلقد أدرجنا في ثنايا أبواب هذه الدراسة وفصولها المختلفة الجوانب المضيئة والمظلمة، وأشرنا إلى مصدر كل خبر أو قصيدة ، أو قصة ، أو مقالة ، أو إحصاء ، دون أن نضع نصب أعيننا التحزب لرأي دون آخر ، أو لجماعة ضد جماعة ، أو نختار شواهد تؤيد فكرة ولا تؤيد أخرى . والدراسة الموضوعية والمنهجية تقضي على صاحبها أن يتصف بصفة القاضي العادل عند نظره في دعوى ، فيسمع إلى حجج الدفاع بالأذن التي يسمع فيها إلى حجج الخصم والاتهام .

وهناك مأخذ آخر بسيط على طريقة المؤلف . ذلك أنه كان يذكر بعض الأسماء في دراسته ، فلا يعرّف القارئ إياهم ، ولا يذكر شيئاً واضحاً عنهم . أما المأخذ الشكلي فيظهر في إهماله وضع ثبت معجمي بالأسماء والأعلام والقصائد التي أوردها في كتابه . ولعلنا نجد له العذر في هذا ، ونقول : ربما

---

١ و ٢ المصدر السابق .

٣ التيارات الأدبية : ص ٣٢٢ و ٣٢٣ و ٣٢٤ .

عمد إلى ذلك في نهاية الجزء الثاني الذي وعد بإصداره .

وأخيراً ، ورغم كل ما يؤخذ على هذا المؤلف من هنات ، فإن دراسته للتيارات الأدبية في قلب الجزيرة العربية كانت الأولى من نوعها في تاريخ دراسة أدب الجزيرة . وحسبه تقديراً أنه شق الطريق للباحثين بعده ، وأنار لهم الدرب ، ووضع بين أيديهم كثيراً من المعلومات . ونعترف أن كتابه هذا كان بين أيدينا طوال المدة التي كنا نكتب بها هذه الدراسة .

الدراسة المنهجية الرائدة، الثانية، في المملكة العربية السعودية خرجت بعنوان « الأدب الشعبي في جزيرة العرب » لعبد الله بن خميس . ويبدو أن الذي حدا بالمؤلف على دراسة هذا اللون من الأدب اتفاق رأيه ورأي طه حسين الذي يقول : « إن في جزيرة العرب أدبين مختلفين ، أحدهما شعبي ، يتخذ لغة الشعب أداة للتعبير لا في جزيرة العرب وحدها ، بل في البوادي العربية كلها ، في الشام ومصر ، وإفريقية الشمالية ، وهذا الأدب – وإن فسدت لغته – حيّ قويّ ، له قيمته الممتازة ، من حيث أنه مرآة صافية لحياة الأعراب ، في باديتهم . وهو في موضوعاته ومعانيه ، وأساليبه ، مشبه كل الشبه للأدب العربي القديم ، الذي كان ينشأ في العصر الجاهلي ، وفي القرون الأولى للتاريخ الإسلامي . ذلك لأن حياة العرب في البادية لم تتغير بحال من الأحوال . فحياة القبيلة الاجتماعية والسياسية والمادية الآن كما كانت منذ ثلاثة عشر قرناً . فطبيعي أن يكون الشعر المصوّر لهذه الحياة كالشعر الذي يصور الحياة القديمة ، وإن كان موضوعه ما يقع بين القبائل من حروب ومخاصمات تدعو إلى الفخر ، والمدح ، والهجاء ، والرثاء ، وما يثور في نفس الأفراد من أنواع الآلام واللذات التي تدعو إلى الغناء بالشكوى حيناً ، والحب حيناً آخر ، والعتاب مرة ثالثة »[1] .

---

١ الحياة الأدبية في جزيرة العرب : ص ٢٣ – ٢٥ .

كذلك فإن من دواعي هذه الدراسة رأي ابن خميس أن الأدب الفصيح ، بما له من مميزات وخصائص في لغته وأسلوبه ، يرتفع ، نسبياً ، عن مدارك الطبقة الشعبية العامة ، وليس في مقدوره ، مهما حاول أصحابه الدنو والليانة ، أن يُكسب الشعب طابع الفهم والإحاطة ، ومن ثَمَّ التنوير ، والتأثير ، بخلاف الأدب الشعبي ؛ فإن له من النفوذ الطبيعي على كافة الطبقات ، والسمة المعروفة لدى كافة الأوساط ، وإن كان في كل أمة يدور في فلكها فقط ، وليس له صفة الامتداد والذيوع [1] . وهذا الأدب الشعبي تبوأ في الجزيرة العربية المكان الذي تبوأه الشعر الفصيح مئات السنين وكانت له المكانة التي لا تُبارى . فهو الصحافة ، وهو الأدب ، وهو أداة التعبير . والناس جميعاً يتذوقونه ، حتى إنه ليندر أن يوجد أحد من ملوك الجزيرة السابقين وأمرائها ، وقادتها ، وزعمائها ، ليس له شعر . بل لقد أسهموا فيه ، وتركوا لنا تراثاً جزْلاً ، ولا سيما في مجالي الفخر والحماسة ، وعند معمعان الحروب ، وبعد الانتصارات والإدلال بالمزايا ، والاعتداد بها [2] .

والدافع الثالث أن المؤلف رأى أن الأمم العريقة في المدنية والحضارة قد أدركت ما لهذا اللون من الأدب من أثر في حياة الشعوب وفعالية في توجيهها وقيادتها ، فأنشأت له المعاهد ، وألفت فيه الكتب ، وجعلت له صحافة خاصة ، وأصبحت له مدارس واتجاهات معروفة . ولم تقتصر جهود هذه الأمم على دراسة الفنون الشعبية في بلدانها ، بل دفعها حب الكشف والاستطلاع من جهة ، والمطامع السياسية والاستعمارية من جهة أخرى ، إلى أن تُولي هذه الناحية في سائر الأمم عنايتها ، والإحاطة بها . فدرست التراث العربي وكتبت

---

١ المقدمة : ص ٥ .

٢ المقدمة : ص ١٩ .

فيه[1] . كما أن العلماء العرب أدركوا قيمة هذا اللون الأدبي ، فعكف كثير منهم على دراسته وتحليله ، وكشف ما فيه[2] .

أما صعوبة هذا البحث فتنشأ من عوامل عدة :

أولها : أن دواوين هذا الشعر كانت صدور الرواة ، وكانت تقوم دراسته في مجالس العامة ، وعلى ظهور الإبل . ولقد انقرض الرواة اليوم ، أو كادوا ، وانصرف العامة في مجالسهم إلى شؤون وشجون أخرى وأصبح ركوب الإبل نادراً .

وثانيها : أن الأدباء والعلماء القدامى لا يَرْوونه ، حين يَرْوونه وينقلونه للدراسة ، والتحليل والنقد ، والوقوف من خلاله على البيئات ، وعادات أهلها ، ووصف أحوالهم ، وتصوير مشاعرهم ، وإنما يسردونه سرداً ، ويجمعون شتاته للمحافظة عليه ، وصيانته . وعلى أن هذا — على ما فيه — لا يمنع من الاعتراف بفضلهم .

ومن هذه النقطة تبرز الصعوبة الثالثة : وهي أن أدباء العروبة لم يتعرضوا لدراسة الأدب الشعبي في الجزيرة العربية لغرابة هذا الأدب نفسه على أكثرهم ، وعدم فهمهم لحقائقه ، ودقائقه . والدراسةُ ، والنقد ، والتحليل ، لا تكون الاّ عن فهم ، وإحاطة ، وتذوق . وهو شيء مفقود بالنسبة إليهم . أما

---

١ يعدد ابن خميس أسماء المستشرقين فيورد منهم « البارون سلفستر دي ساسي » Sacy, S. de و « أنطوان جالان » Galland, A. ، و « جان جاك كوسين دي برسفال » Caussin de Perceval ، و ادوارد جالتيه » Galtier, E. ، و « ت . بوركهارت » Burckhardt, T. ، و « جاستور ماسبيرو Maspero, C. ، و « هربين » Herbin ، و « مايسنر Meissner, B. ، وغيرهم . (ص ٦ — ٧) .

٢ يعدد المؤلف منهم أسماء كثيرة ، كان من جملتها : « الدكتور جبور عبد النور » ، و « الياس بقطر » ، و « طنوس الشدياق » ، و « خليل اليازجي » ، و « حفني ناصف ، و « فيليب حتي » : ص ٧ .

أبناء البلاد فقد تجافوا عن هذا المَهْيَع . والذين أسهموا لم يزيدوا على تسجيل نُتَف أو خطرات تُنشر في الصحف ، وسرعان ما تذهب نسياً منسيّاً ، اللهم إلاّ ما قام به خالد الفرَج من عمل يُعَدّ فيه جامعاً ، لا دارساً . فقد جمع جملة من عيون هذا الشعر الشعبي ، لشعراء محدودين ، ووضع عليها تعليقات تحل رموزها ، وتقرب بعيدها . ولكنها مَجّةٌ من لُجّة ، ونَزْرٌ من بحر .

كل تلك الصعوبات ذللها المؤلف عبد الله بن خميس ، وتغلب عليها بدافع ذاتي ينبع من أعماقه حيث قال : « ولقد كان لي في عهد الصبا ولع بهذا الشعر وتَشَبّثٌ فيه . فكنت أحفظ جيده ، وأحتك بشعرائه ، ورواته . وتجري لي معهم مساجلات ومذاكرات فيه . وكنت أقرضه . وأيّ خلل يظهر في وزن من أوزانه أدركه بسرعة . ولكني شغلت عنه بغيره ، فأخذ يتلاشى من ذاكرتي ، ويتقلص مع مرور الزمن ، حتى لم يبق منه إلاّ صُبابات في تضاعيف الذاكرة ، ولكن ما أدركه من قيمة لهذا اللون من الشعر في ذلك العهد ، ومن أثر بالغ لدى تلك الأوساط ، وما يفرضه عليّ الواجب — ككاتب حذق ذلك الجانب ، وعرف ما للأدب الشعبي من قيمة — وما أدركته من عزوف أدبائنا عن المشاركة في هذا المجال . كل ذلك كان حافزاً لي على تأليف هذا الكتاب »[1] .

أما منهج البحث الذي طرقه عبد الله بن خميس ، فهو دقيق ، وعميق وشامل . بدأ بإلمامة موجزة بنشأة الشعر العربي ، وتطوره ، وامتداده ، وعلاقته باللغة ، ثم بما جدّ عليه من ترف ولين في مبانيه ومعانيه . وكان ذلك توطئة للدخول إلى صميم الموضوع . وشرع أول الأمر بتعريف كلمة « نَبَط » لأن هذا الشعر يدعى في الجزيرة بـ « الشعر النَّبَطي » . وبيّن من أين جاءت ،

---

١ المقدمة ص ٢٠ .

وعلاقتها بهذا الشعر ، والزمان والمكان اللذين وجدت فيهما ، وكيف التصقت بالشعر حتى دعي بالشعر النبطي ، وعلى أي صفة تلقفته الجزيرة العربية ، ووجد منها أهلاً ، وموطئاً سهلاً . ثم أوضح الأسس التي يقوم عليها هذا الشعر من قواعد ، ومميزات ، وخصائص لتكون عوناً للقارئ على فهمه وتذوقه . كذلك فقد كان المؤلف يورد نماذج كاملة لشعراء نبطيين ، ولبعض الملوك والأمراء والقادة الذين كَلِفُوا بهذا الشعر ، وخلدوه ، وكان يعقد المقارنة بينه وبين الشعر العربي في أغراضه من مدح وهجاء ووصف وغزل ورثاء وحكمة ، كما كان يقارن بين أسلوبه وأسلوب الشعر العربي . وفي مقارنته بين الأسلوبين كان يسهب ويطيل ، ويبين المثال الذي تأتي عليه القصيدة النبطية ومدى تقليدها للقصيدة العربية . وكان يشيد بقيمة هذا الأدب من حيث تصويرُه للبيئات ولحياة الأمة الاجتماعية والمادية ، والدينية . وكيف يلتقي والشعر العربي في طَرْق المعاني ، والتوافق فيها بدون سرقة أو تقليد . وكيف يجري الاتفاق في المعاني والألفاظ أحياناً ـ من باب توارد الخواطر ـ ثم نزوع الشعر النبطي إلى العربي ، وكيف يوجد كثير من أبياته مستقيم اللغة والوزن والقافية بلا تعديل أو تغيير . ثم انتقل بعد هذا إلى دراسة الصور البلاغية : معانيها ، وبيانها ، وبديعها فيه . ثم عقد مقارنة بين هذا اللون ولهجات الجزيرة، بحيث يمكن إدراك لهجة كل قوم أو إقليم من شعرهم . وأورد الشواهد على ذلك . وفي هذا الفصل تطرق إلى شيء يسير من الحديث عن الشعر العامّي في الأقطار العربية الأخرى ، وأوضح ما بينها من التباين في ذلك ، وأن هذا الشعر في كل قطر غالباً ما يحمل طابعاً خاصاً .

ثم انتقل إلى موسيقاه ، فبيّن أن له أدواراً ، وأصواتاً ومقاطع ، يختص كل منها بحالة معينة ، على اختلاف الشعراء الشعبيين في أدائه ، وأحواله التي يُعرض فيها ومناسباته التي يُساق فيها .

وقد أخذ المؤلف على نفسه ألاّ يمر شاهدٌ أو أنموذج إلاّ شرح ألفاظه اللغوية العامية شرحاً موجزاً . وهو محق في هذا . لأن قارئ هذه الدراسة ربما لا يكون من أبناء الجزيرة . فإذا وقف على هذه الألفاظ غيرِ المشروحة ، رأى نفسه أمام رموز لا يجد إلى حلها سبيلاً . واعتذر ابن خميس إلى قرائه الذين يجدون في كتابه أبياتاً أو شواهد خرجت على قواعد العربية في الإملاء ونحوه . فهي على هذا الشكل وردت . ولو حاول التغيير والتبديل في بعض نصوصه المترادفة ، وأخضعها للقواعد الصحيحة إذاً لأوقع القارئ المتذوق لهذا الشعر في لَبْس . قصارى ما يقول عنه : إنه غير ملم بأوزان هذا اللون وألفاظه ، وإن ما يَستشهد به ليس من الشعر النبطي في قليل أو كثير .

ولقد اتصف المؤلف بالأمانة العلمية ، وكان ذلك حين يورد فقرة أو مقطعاً فيردها إلى صاحبها ، ويذكر المكان الذي اقتبسها منه ، ورقم الصفحة . ولم يقع فيما وقع فيه عبد الله عبد الجبار حين أغفل ترجمة الأشخاص الذين وردت أسماؤهم في محاضراته .

لكنّ ابن خميس وقع في نقيصة شكلية ، ذلك أنه ذكر المراجع التي رجع إليها في آخر الكتاب دون أن يرتبها الترتيب العلمي المتبع في الدراسات المنهجية ، واقتصر على ذكر المرجع وصاحبه ، ولم يبين مدينة الطبع والمطبعة والسنة التي طبع فيها ، كما أغفل عمل الفهارس الواجب عملها ، من ترتيب للأعلام ، والأماكن ، والقبائل ، والأشعار الواردة في دراسته لتعين على الرجوع إليها وتيسر الاهتداء إلى أماكنها .

وإذا كان عبد الله عبد الجبار ، وعبد الله بن خميس قد تبوّأا درجة طيبة من القدرة على إنتاج دراسة أدبية علمية في موضوع واحد كالتيارات الأدبية ، أو الأدب الشعبي ، فإن معظم الدارسين لم يستطيعوا أن ينهجوا نهجهما عمقاً وتحليلاً ، وصحة استنتاج ، وشمول بحث . والدراسات الأدبية التي تصدر

اليوم – في جلها – لا تتجاوز المستوى السطحي ، أو « التجاريّ – في التعبير الشائع – وكثيراً ما يغطي أصحاب هذه المؤلفات دقة البحث ومنهجيته ، بالأسلوب الغنائي الجميل ، ظناً منهم أنه يعوض وينوب .

* * *

من هذه الدراسات ما نجده في « فارس بني عبس » للشاعر حسن عبد الله القرشي . فلقد أراد المؤلف أن يتحدث عن « عنترة » فاتخذ له مخططاً، راح يتحدث فيه عن العرب والجزيرة العربية في المقدمة ، ثم أتى إلى « بني عبس » فذكر نسبهم ومشاهيرهم ، وديارهم ، وما تبقى منها إلى اليوم . ثم تحدث عن « عنترة » نفسه ، فبحث في نشأته ، وبيئته ، وعشيرته ، ونسبه ، واسمه ، ومدارج صباه ، وشبابه ، وملامح شخصه ، وشمائله من خلال شعره ، وبطولته ، وأخباره ، ثم دفاعه عن اللون الأسود ، وعن المرأة في حياته ، ونهايته . ثم أتى إلى قصته كما ألّفها القصاص . وشعره وما فيه من أغراض وأساليب ، ثم شرح معلقته . وأنهى البحث بذكر نماذج من فنه ، ومختارات من شعره ، وما تواترت روايته من نظمه ، وما ورد في بعض الكتب دون غيرها من قريضه .

مثل هذا المخطط مقبول بجملته ، وإن كان بحاجة إلى تقديم بعض النقاط على بعض ، وإضافة ما يجب إضافته ، ووجوب تفصيل في نواح ، وإيجاز في غيرها . وعلى فَرَض قبوله كما ورد ، فإن القارئ وهو يأخذ « فارس بني عبس » ينتظر الوقوع على دراسة علمية ، منهجية ، أفرد لها صاحبها مؤلفاً خاصاً ، طبعه في دار المعارف بمصر . لكنه يفاجأ حين يرى المؤلف يتحدث عن شخصية « عنترة » بهذه الكلمات : قَرْم عارم ، وبطل قاحم ، تنفست عنه أرباض نجد ، فإذا لاسمه في العرب دَوِيٌّ ، دونه هزيم الرعد وإذا لذكره طنين يغمر كل الآذان ويُصيخ له سمع الزمان . هل حمى الذمّار ،

وصان حوزة الديار مثلُ « عنترة » ؟ وهل صابَرَ الهيجاء والقيظُ جمرة ، وصاولَ القساورةَ الأشاوس مثلُ « عنترة » الفوارس ؟ [1] » وقال عن أثر الصحراء في « عنترة » ما يلي : « نشأ « عنترة » العربي الأبيّ في صحراء نجد ، كما ينشأ قومه ، وقد أكسبته بيئته الصحراوية بساطتها ، وصراحتها ، وعَجَمَت عوده على الصبر . فالصحراء إلى جانب صلابتها وعنفها ، ووعورتها ، لها رقة أنسامها اللطاف ، وإشراقها ، وبشرها . إنها دنيا تسبح فيها أخيلة الشعراء ، وتلتقي أفكارهم في مسارحها صافية ، أنيقة ، لأنها عالم صيغ من الصفاء والنقاء ، وخَلَص من التعقيد والتكلف ، عالم بِكْر تستحم فيه الأنجم الزهر ، وتنعكس عليه أشعة القمر وديعة حلوة ، تبادله الأمنيات ، فإذا صافحته الشمس بحرارتها ، وقيظها ، التمعت ذراته ، وتألقت جنباته ، وحلا المقام به في مخيم جميل » [2] .

والشيء الغريب أن القرشي في هذه الدراسة انزلق إلى وهاد بعيدة الغور ، ولا سيما حين بدأ يتحدث عن نهاية عنترة . وكان المتوقع منه أن يسرد مختلف الروايات المتناقضة التي وردت في المصادر العربية وغير العربية حول ذلك ، ثم يدلي برأيه ، ويبرهن عليه ، وهذا ما يقتضيه المنهج العلمي . أما أن يقول في نهاية عنترة : « إن القاص الشعبي الذي يبث قصة « عنترة » ، عليه أن يحسِب ألف حساب لِلّيلة التي يصادف فيها نهاية « عنترة » ، وكم يود من صميم نفسه لو عبر هذا الفصل الرهيب ، الذي يشعر وهو يرويه بالغصة في حلقه ، ويرى الدموع تنهمر غزاراً من عيون المستمعين ، ويستمع إلى التنهدات والزمجرات ، وقذائف الشتم تنهال على من رمى « عنترة » فأصماه . وإن كنت

١ فارس بني عبس : ص ٣٠ .

٢ فارس بني عبس : ص ٣٢ .

لا أحسِب كل هذا الحساب ، فلأنني لا أواجه القراء ، ولا أواجه مستمعين معي في مكان واحد . فلهم أن يختاروا من الروايات ممّا لا يمس عواطفهم »[1] . فذلك هو البعد الحق عمّا يسمى بالدراسة المنهجية .

والمأخذ الآخر على القرشيّ الدارس هو الكسل عن إتمام العمل وكماله . فكم كان يمر على أبيات لعنترة فيها ذكر لمواطن محدّدة ، فيشرحها كما يشرحها الهاربون من الجهد حين يكتفون بقولهم « مكان في بلاد العرب » وقد كان ذلك حين شرح معلقته وورد فيها قول الشاعر :

كيف المزارُ وقد تربّع أهلُها بعُنَيْزَتَينِ وأهلُنا بالغَيلمِ[2]

ويؤخذ على القرشي — كذلك — أنه أورد في خاتمة كتابه عدداً من القصائد تحت عنوانين كبيرين « ما تواترت روايته من شعره » و « ما ورد في بعض الكتب من شعره[3] » . ويعيب هذه القصائد أن القرشي لم يشرح ألفاظها ، ولم يعلق على أعلامها ، ولم يذكر المصادر التي تواترت فيها . وكل ما فعله أن جعل لكلّ منها عنواناً خاصاً اخترعه . ومن هذه العناوين : « عتاب وتحدّ » « بعيد الهم » ، « بيت في الثريا » ، « ما الفخار » و « سوق المنايا » .

الخلاصة ، إن عدداً من الدراسات الأدبية المعاصرة ينهض بها شباب مثقفون ثقافة جدية جيدة ، يعوزها المنهج العلمي ، والحياد في الرأي ، والرجوع إلى المصادر المختلفة العربية والأجنبية — بخاصة[4] — والأسلوب الهادئ ،

١ فارس بني عبس : ص ٦٢ .
٢ فارس بني عبس : ص ٨٠ .
٣ فارس بني عبس : ص ١٠٩ — ١١٥ .
٤ أورد بلاشير Blachère, R. في دائرة المعارف الإسلامية ثبتاً في الدراسات عن عنترة زاد على أربعة عشر مصدراً ، بينها ثمانية مصادر في اللغات الأجنبية .

والبعد عن الأحكام العامة ، وإعادة النظر في مضمونها مراراً وتكراراً قبل أن تخرج إلى المطبعة ، فإلى القراء . وذلك ما أعوز دراسة القرشي لفارس بني عبس .

* * *

وهناك دراسات تقف موقفاً وسطاً بين النوعين الأول والثاني . فيها الدقة والعمق ، والتحليل القائم على أصول ومبادئ ، وفيها ، كذلك ، السرعة والمجاملة — أحياناً — .

من هذه الدراسات مؤلفان . اتفقا في المنهج ، وطريقة البحث ، وغاية العمل . أولهما : « شعراء نجد المعاصرون » لعبد الله بن إدريس . وثانيهما : « شعراء الحجاز المعاصرون » لعبد السلام الساسي . ودراسة أحدهما تعطي فكرة عن صِنْوِه إلاّ في بعض الملامح الجزئية التي تفرد بها كلٌّ من المؤلفين .

أما الأول وهو « شعراء نجد المعاصرون » فقد قسمه « ابن إدريس » قسمين رئيسين : تناول في أولهما الشعر ، فبحث في نشأته وتطوره ، ومركز نجد الشعري ، ثم انتقل إلى ذكر لمحة عن النهضة العربية الحديثة في هذه المنطقة — وعَنَى بها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب — وأثرها في رفعة شأن الأدب. ثم جاء إلى الشعر المعاصر ، وتكلم على عوامل تطوره . ومن العام سار إلى الخاص ، فأتى على اتجاهات الشعر في نجد ووجدها ثلاثة : تقليدياً ، ورومانتيكياً وواقعياً ، وفي ضوء هذه الاتجاهات بنى القسم الثاني . فترجم لثلاثة وعشرين شاعراً . ولم تكن الترجمة لتزيد في أغلب الحـــالات على صفحتين . وفي المقدمة القصيرة التي تسبق بعض قصائد المترجم له ، كان ابن إدريس يعرض لمحة عن طفولة الشاعر ، وشبابه ، ونوع دراسته ، ويقف وقفة مطمئنة على اتجاهه الشعري ، ويربط ، غالباً ، بين حياته الخاصة وبيئته ووضعه الاجتماعي ونفسيته وبين اتجاهه .

ومن أمثلة ذلك قوله عن الأمير عبد الله الفيصل : « تغلب على شعره سمة الترف والأناقة ، وكأنها الصدى المتجاوب لحياته « الأرستقراطية » الناعمة ، ومركزه الاجتماعي الكبير »[1] .

وقوله عن صالح الأحمد العثيمين : « تطغى على شعره سمة التشاؤم ، حتى لتكاد تنسى أن في الحياة شيئاً اسمه الأمل ، ولعل لحياة شاعرنا الخاصة أثرها البالغ في منحاه هذا ، إذ من المحتمل جداً أن تكون النوازع النفسانية للشاعر ، وذهنيته المتأثرة بواقع حياته هو ، وحياة كل من يشاطره التجارب الشعورية والحيوية ذاتها ، قد انعكست آثارها على إنتاجه »[2] .

وفي حَمَد الحجّي يقول : « هو من الشعراء البائسين التعساء . وكثيراً ما يصور حياته في شعره ، غير أنه مضطرب فكرياً لنوازع القلق التي تهد كيانه من جراء البؤس والفاقة »[3] .

وكان المؤلف يعقد مقارنة بين الشاعر وغيره من الشعراء العرب أو الإفرنج أو بين مذهبه الشعري ومذهب في آخر . فـ « عبد الله الفيصل يشبه عمر بن أبي ربيعة من القدماء ونزاراً القباني من المعاصرين »[4] . و « مذهب ناصر بوحَيْمد متأثر ببول فاليري »[5] . و « رمزية محمد السليمان الشّبْل لا تقارَن برمزية ألبير أديب أو ثريا مَلْحَس » . و « عثمان بن سيّار متأثر بروح الشاعر القروي رشيد سليم الخوري » . وهكذا .

ومن خلال التراجم كان يعلق بفقرات قصيرة على حال الأدب والأدباء

---

١ شعراء نجد المعاصرون : ص ٨٦ .

٢ شعراء نجد المعاصرون : ص ١٨٠ .

٣ شعراء نجد المعاصرون : ص ٢٠١ .

٤ شعراء نجد المعاصرون : ص ٨٧ .

٥ من مشاهير الأدباء الفرنسيين المعاصرين ، عضو الأكاديمية الفرنسية (١٨٧١ – ١٩٤٥) .

ليست صريحة كل الصراحة ، ولا غامضة كل الغموض . لكنها رمز إلى قضايا كثيرة ، وأبحاث مستفيضة ، آثر المؤلف أن يقف فيها موقف اللّبِق ، يشير ولا يعبّر . من ذلك قوله : « ولعلنا نستشف — من وراء ذلك — ظاهرة جديرة بالالتفات في حياة أكثر أدبائنا . وهي فقدان الشجاعة في مواجهة الحقائق وخدمة قضايا الفكر »[١] . وتعليقه على حياة شاعر آخر : « شاعر تعتمل في نفسه — من خلال شعره — عواصف الثورة ، الثورة على كثير من أوجه الحياة المسلكية من تجبر وعجرفة تملأ إهاب الأثرياء وذوي السلطان والجاه المزيفين ، وبالجملة فهو من الشعراء الناقمين على المجتمع الذي تقدّس فيه الماديات ، وتحتقر المثاليات الإنسانية والخلقية »[٢] .

تتجلى في دراسة ابن إدريس للشعر ، بصورة عامة ، ولاتجاهاته بنجد بصورة خاصة ، وفي طريقة تعليقه على تراجم الشعراء ثقافة واسعة ، وإدراك سليم للأدب المعاصر ، لا في نجد وحده ، بل في البلاد العربية ، والغربية . ولولا ظروف معينة يدركها المؤلف وحده . لأفاض في أمور كثيرة ، وشرَحَ وفَصَّل . وحينئذ يكون بين أيدينا دراسة حقة لشعراء نجد ، بديلاً من هذه الدراسة الموجزة ، التي تتميز بالرموز قبل كل شيء .

والذي نأخذه على المؤلف اكتفاءه بصفحة أو صفحتين من سيرة كل شاعر ، ثم نقله صفحات عدة ، فيها عدد من قصائد هذا الشاعر ، ليس فيها ضبط ، أو شرح أو تعليق أو تأريخ ، أو كلمة تزيد على كلمات القصيدة ذاتها . والمأخذ الشكلي على المؤلف أنه لم يذكر مكان الطبع لمصادره ، وتاريخ ذلك ، ولم ينظم الفهارس التي تكون في مثيل هذه الألوان من التأليف .

* * *

١ شعراء نجد المعاصرون : ص ٢٤٦ .

٢ شعراء نجد المعاصرون : ص ١٨٧ .

أما الكتاب الثاني المشابه لهذا شكلاً وموضوعاً فهو : « شعراء الحجاز المعاصرون » لعبد السلام الساسي . ظهر قبل صِنوه الذي تناول الشعراء النجديين وشق طريقه دون أن يكون أمامه صُوًى ومعالم تهديه معالم الدرب المطروق . ويخيّل إلينا أن الكتاب الثاني قد استفاد من النقد الذي ظهر في الصحف ، وتحدث به الأدباء والعلماء عن الأول ، وجعله بمنأى عن الأخطاء التي وقع فيها سلفه . ولئن كانت محاولة الساسي جديدة من نوعها ، لقد اجتهد أن يضم في مجموعته أكبر عدد من الشعراء الحجازيين وأن يأتي بشواهد من خير إنتاجهم ويدرجها في كتابه بعد أن يقدم للشاعر بكلمة موجزة هي مزيج من كتابه المترجم عن نفسه ورأي الساسي فيه .

المأخذ الكبير على المؤلف أنه مؤلف « مجامل » . تميزت ترجمته لكل الشعراء بالإطراء والتقريظ دون أن يبرهن علمياً على صحة ما يقول ، ودون أن يربط بين إنتاج الشاعر ودراسته ونفسيته ، وحياته العامة ، ومجتمعه والجو العام الذي يحيط به ، ويدعم ذلك كله بالشواهد ويحللها ، ويقارن بينها ، ثم يخرج بحكم عام على الشاعر . أما أن يقدم له بعدة أسطر ، ويكيل فيها المديح بلا حساب فذلك ما ترفضه الدراسات الحديثة ، ويأباه الأسلوب العلمي . وكثيراً ما تتردد أحكام متقاربة على شعراء مختلفين فـ « العوّاد زعيم الابتداعيين في الأدب ، وشاعر وجداني ، ولكنه يأبى أن يجرّد الوجدانية من التأمل والتفكير »[١] . و « محمد حسن فقي شاعر عبقري مجدد ، جرى في ميدان الشعر إلى أشواط شاسعة »[٢] ، و « أحمد إبراهيم الغزاوي شاعر ممتاز مجدد ، يُعتبر في طليعة شعراء الحجاز المبرزين الذين غذوا الحركة الفكرية ، وله جولات واسعة في

---

١ شعراء الحجاز المعاصرون : ص ٢١ .
٢ شعراء الحجاز المعاصرون : ص ٤٩ .

عالم الشعر الأخاذ »[1] . و « عبد الوهاب آشي شاعر ممتاز من شعراء الرعيل الأول »[2] . و « فؤاد شاكر شاعر موهوب وكاتب لا يشق له غبار ، وهو غني عن الإشادة والإطراء »[3] . و « أحمد محمد جمَال شاعر موهوب ، متأثر بروح العصر ، ويجنح إلى التجديد »[4] .

الطريف في مقدمة هذا الكتاب التي كتبها الشاعر حمزة شحاته أنه حمل بقسوة على عدد من الشعراء وردت أسماؤهم ، ونالوا على يد الساسي ثناء عَطِراً فقال شحاته عنهم « . . . ومنهم — ويقصد بعض الأسماء الواردة في المجموعة — مستحق الرثاء ، ومنهم مستوجب التعزير ، حتى يعلن التوبة مَنْ رفع عقيرته بمثل هذا الهراء الذي ظنه شعراً »[5] .

ولا أظن أننا بحاجة أن نكرر القول في إهمال هذا المؤلف شرح ألفاظ غريبة ، وتعيين مواقع جغرافية ذكرت في بعض الأبيات ، ووجوب ضبط القصائد وعمل الفهارس وغير ذلك ، فلقد عودنا أكثر المؤلفين على هذا التناسي أو هذا الإهمال .

* * *

والأمر نفسه ينطبق على المجموعة المسماة « وحي الصحراء » لمحمد سعيد عبد المقصود وعبد الله عمر بَلْخير إلاّ في شيء واحد هو إضافة بعض صور المترجَم لهم من شعراء الحجاز ، كما ينطبق على كتاب « الشعراء الثلاثة في الحجاز » ويقصد بهم محمد حسن عواد ، وحمزة شحاته ، وأحمد قنديل .

---

١ شعراء الحجاز المعاصرون : ص ٩٦ .
٢ شعراء الحجاز المعاصرون : ص ١١٥ .
٣ شعراء الحجاز المعاصرون : ص ١٣٩ .
٤ شعراء الحجاز المعاصرون : ص ٢١٥ .
٥ المقدمة .

كتب الكتابَ عبدُ السلام الساسي . ومجمل ما فيه عرض لسيرة كل من الشعراء الثلاثة بتفصيل ، ثم إلحاق مختارات شعرية لهم دون تحليلها أو دراستها أو التعليق عليها .

* * *

ب — أما **الدراسات النقدية** فقليلة نسبياً . والسبب في ذلك يعود إلى مفهوم النقد في البلد السعودي . فالأدباء اعتادوا أن تمجّدَ أعمالهم ، ودرجوا على أن تكون غاية النقد مديحاً وإطراء لا ذمّاً أو قَدْحاً ، كما أن النقاد فهموا أن النقد إظهار المساوئ ، والتنقيب عن المثالب ، وشَهْرُ السلاح في وجه المُنْتَقَد . وكلا الفريقين غير مصيب . فالذي يخشى أن يحاسَب ، وأن يوزن إنتاجه ليس بأديب . وخوفه يدل على قيمة عمله . كذلك الناقد الذي يرى رسالة النقد سبّاً وشتماً ليس بناقد ، إنما هو لعّان هجّاء . ومثل هذا الموقف الذي يتخذه هؤلاء وهؤلاء لا يظهر الحقيقة ، ولا يدفع الأدب ، أو يشجع عليه . وحين يؤمن الأدباء بأن كل عمل يمكن أن يكون له ميزات ومساوئ ، وأن قيمته تبدو برجحان هذه على تلك أو العكس . فإذا غلبت المحاسن فهو العمل الخيّر ، وإنّ رجح السيء فأولى بصاحبه أن يعترف ويسكت ، وينهج غير السبيل الذي طرق . وحين يدرك الناقد أن رسالته توجب عليه أن يكون كالقاضي العادل ، يستمع إلى حجج المدعي وبراهينه ، كما يُصيخ لأقوال المدعى عليه وإثباتاته ، ثم يضع القانون أمامه ويُعْمِل عقله ، واعتقاده ، ومدى قناعته ثم يطلق الحكم ، فيحكم لهذا أو لذاك . بهذا الأسلوب يزدهر النقد ويثمر .

ولما سار الناقدون المعاصرون على الدرب الذي رسمناه ، ووقف الأدباء منهم الموقف الذي صورناه ، بدا لنا السبب الذي جعل كلاّ منهم يكره الفريق الثاني ، وظهر الدافع الذي أوقع البغضاء والشحناء في نفس كلّ من الجماعتين .

ومثل هذه الفكرة بيناها في فصل أدب المقالة السابق ، وفصلنا فيها القول . واستثنينا عدداً من الأدباء وقفوا موقف القاضي العادل في أحكامهم ، وكان منهم محمد سعيد العامودي في كتابه « من تاريخنا » .

يحز في النفس أن الحركـــة النقدية اليوم ضعيفة ، قلّما تظهر ، إلاّ في لمحات خفيفة تُطِلّ بين الفينة والفينة يكتبها رجال علماء ، اتصفوا بالعدالة ، ولا أرى نقداً حديثاً خيراً ممّا كتبه عبد الله بن خميس حول كتاب « تاريخ البلاد السعودية » لمنير العجلاني [1] . فقد عرَّف الناقدُ ابنُ خميس الدكتورَ المؤلفَ، وأبان شخصيته لقراء « مجلة العرب » [2] . وبالآثار العلمية المختلفة التي دبجها يراعه . ثم سلط الضوء على الكتاب فأظهر المحاسن الكبرى فيه ، والقضايا الجديدة التي أثارها ، وحلّلها وانطلق منها وبيّن قيمتها العلمية . وأشاد بالمؤلف العالم، وأظهر فضله. ثم انتقل إلى تعداد النقاط التي التبست عليه،ففهمها على غير حقيقتها ، وأسهب في سردها . وكان يلتفت بين الحين والحين إلى المصدر الذي اعتمد عليه المؤلف في نقطة معينة ، فيتحدث عن مؤلفه وقيمته العلمية ، ويربط بين الخطإ الذي وقع فيه العجلاني وبين مصدره الذي اقتبس منه . وبالرغم من أن هذه المقالة النقدية استغرقت ما يقرب من عشر صفحات فإن القارئ يلمس مدى النهج العلمي في الدراسة، ورقة الأسلوب الذي صيغت فيه المقالة الناقدة . وأعتقد أن الناقد كتب نقده وهو طوال زمن الكتابة وقبله وبعده ، محايد ، بعيد عن درب الهوى والذاتية ، وأن المؤلف قرأ النقد ، ولم يحمل في نهاية القراءة إلاّ الاحترام والتبجيل للناقد العالم . لكن — مثل هذه المواقف نادرة [3] —

---

١ عضو المجمع العلمي العربي ، وأستاذ الحقوق المدنية بكلية الحقوق بدمشق — سابقاً — .

٢ السنة الأولى ١/٧٤٩ .

٣ طريقة « حمد الجاسر » كطريقة ابن خميس والعامودي في النقد . ولقد كان علمياً في نقده لعمر رضا كحالة في كتابه «معجم قبائل العرب» ونشر النقد في مجلة المجمع العلمي بدمشق. =

وأن التأليف الكامل في « فن النقد » معدوم تماماً .

* * *

وإذا انتقلنا إلى حقل آخر من حقول التأليف السعودي وجدنا في التحقيق العلمي عدداً طيباً من المؤلفات الحديثة ، في فروع معينة ، كاللغة ، وأسماء الأماكن والمواطن ، ولا سيما في قلب الجزيرة العربية .

* * *

ج – أما **التأليف في التحقيق اللغوي** فقد امتاز به أحمد عبد الغفور العطار وأنتج عدداً من الكتب ، منها « ليس في كلام العرب لابن خالويه » و « تهذيب الصّحاح للزّنْجاني » و « الصّحاح ومدارس المعجمات العربية » .

لو ألقينا نظرة إلى طريقة تحقيق « تهذيب الصّحاح » استطعنا أن نعرف الخطة العامة التي يسير عليها العطار في جميع كتبه التحقيقية الأخرى . ولا بد قبل الخوض في شرح منهجه أن نشير إلى أن هذا التحقيق تمّ بالمشاركة مع محقق مصري آخر هو عبد السلام هارون .

استهل العطار هذا البحث بمقدمة عامة عن ثروة اللغة العربية اللفظية . ثم تحدث عن تاريخ التأليف في هذه اللغة ، وظهور المعاجم حتى وصل إلى « تهذيب الصّحاح » ، فحكى كيف أن نسخة مخطوطة نادرة المثال وقعت في يد محمد سرور الصبان ، كتبت بخط يشبه خط القرن التاسع الهجري . ولم يكن عليها اسم الكتاب ، ولا اسم مؤلفه . فقدّمها إلى العطار ليعمل فيها تحقيقاً ، ويعرف ما تكون . فأخذها هذا ، وانفتل إلى المراجع باحثاً عن اسم الكتاب ومؤلفه . وأول خيط دله على اسم المؤلف ما ورد في مقدمة المخطوط جاءت

= وكتاب « معجم ما استعجم » للبكري نشره في مجلتي « الرسالة والفتح » سنة ١٣٥٣ هـ/١٩٣٤م وكتاب « تهذيب الصحاح » الذي حققه العطار . ونشر النقد في مجلة « اليمامة » .

بالحرف الواحد في كتاب « البُلْغَة في أصول اللغة » لمحمد صديق حسن خان بَهَادُرْ ، ملك مملكة بَهُوبال [1] ، وفي الفصل الذي عقده عن « صحاح الجوهري »[2] وعزاها إلى الزنجاني في كتابه الذي اختصر فيه كتابه الآخر « ترويح الأرواح في تهذيب الصحاح » . وعزز هذا ما جاء في « كشف الظنون »[3] القول ذاته . أما الاسم فقد اقتبسه المحققان « العطار وهارون » من الكتاب الأصيل للمؤلف ذاته « ترويح الأرواح في تهذيب الصحاح » وأسمياه « تهذيب الصحاح » .

المنهج المتبع في تحقيق هذا « التهذيب » يمكن أن نجمله بالنقاط التالية : لقد حافظ فيه المحققان على نص المؤلف دون أن يزيدا عليه أو يحذفا منه شيئاً ، كما حافظا على ترتيبه وطريقته وأسلوبه . وكانا يعارضان ما فيه بـ « الصحاح » المطبوع ، والنسخة المخطوطة بمكتبة عارف حكمت [4] ، ومخطوطة دار الكتب المصرية [5] . واهتما بتقييد الضبط المهمل بالنص عليه ، وببيان اللغات التي وردت في الضبط . واستطاعا أن ينجياه من التفسير الدائري الذي تقع فيه كثير من المعاجم العربية ، مثل « القُلاَّم » بالتشديد تفسّر بـ « القاقلي » ،

---

١ من رجال النهضة الإسلامية المجددين ولد سنة ١٢٤٨ هـ/ ١٨٣٢ م ، في « قنوج » بالهند ، وتعلم في « دهلي » ، وسافر إلى « بهوبال » طلباً للمعيشة . ففاز بثروة وافرة . قال في ترجمة نفسه : « ألقى عصا الترحال في محروسة « بهوبال » ، فأقام فيها وتوطن ، وتمول ، واستوزر وناب ، وألف وصنف . وتزوج بملكة بهوبال . له نيف وستون مصنفاً بالعربية والفارسية والهندية (الأعلام ٧/٣٧) .

٢ سترد ترجمته في ص ٤٦٣ .

٣ طبعة بولاق ١/٤٠٠ .

٤ رقمها ٧٩ لغة .

٥ رقمها ٥٠٧٩ .

والمعاجم تفسر « القاقلي » بـ « القلاّم » [1] . وقد كان الزّنجاني يأتي إلى تفسير لفظ فيقول : « إنه معروف » [2] . وهو في عصرنا هذا غير معروف . وانصب اهتمامهما على جموع المفردات [3] ، ومصادر الأفعال التي أهملها المؤلف [4] ، وبيان المذكر والمؤنث [5] ، وما يستوي فيه التأنيث والتذكير [6] ، وعَقْد مقابلات وتنظيرات لما ورد في العامية الحجازية والنجدية والمصرية مطابقاً لما ورد في الفصيح [7] . وكأنهما يريدان من ذلك أمرين : أولهما أن يسجلا تسجيلاً تاريخياً لغوياً هذه اللغة التي ربما شردت أو ندّت في عبارة بعض الكتاب المعاصرين لمعرفة مدلولها حين يتقادم بها العهد . وثانيهما غرض علاجي . وهو التنبيه إلى وجوه العدول عن الصورة اللغوية المغلوطة إلى الصورة الفصيحة الصحيحة . وقديماً صنع أسلافنا اللغويون في كتبهم ومعاجمهم ذلك بغية الإصلاح والإرشاد .

ومن منهج التحقيق في التهذيب تأصيل الألفاظ المعربة والدخيلة على العربية ، وبيان أصلها الذي انحدرت منه إلى مستوى التعريب أو الإقحام [8] وكان الاعتماد في هذه النقطة على نصوص الأقدمين [9] والمعاجم الأجنبية

---

١ انظر صفحة ٧٧٧ . (القلام) مثل الأشنان إلا أن القلام أعظم . وقال آخرون : ورقه كورق الحرف .

٢ تهذيب الصحاح : انظر ص ٣٥٣ .

٣ تهذيب الصحاح : ص ٣٧٦ .

٤ تهذيب الصحاح : ص ٣٧٧ .

٥ تهذيب الصحاح : ص ٢٢٥ .

٦ تهذيب الصحاح : ص ٧٤٩ .

٧ تهذيب الصحاح : ص ٣٥٨ .

٨ تهذيب الصحاح : ص ٣٥٩ .

٩ تهذيب الصحاح : ص ٣٥٤ .

الحديثة[1] ، وعلى كل وسيلة تؤدي إلى المعنى . من ذلك قول « التهذيب » : « الفِلذ : كبد البعير ، والجمع أفلاذ » . وجاء في التعليق على « أفلاذ » قولهما : « وأفلاذ كبد الأرض : كنوزها ، وأفلاذ كبد البلد : رجاله . والفولاذ : الحديد الذّكر النقي من الخَبَث . وهو معرب بولاد ، أو فولاد ، كما في المعجم الفارسي ص ٢٦٠ و ٩٤٢[2] . لم يكن يمرّ عَلَم إلاّ وأتيا عــلى ترجمته بإيجاز دون أن يغفلا مصادر هذه الترجمة[3] ، كما كانا يعنيان بتحقيق أسماء القبائل[4] ، وبيان الفرق ، والطوائف الدينية[5] ، والأجناس البشرية ، وتحقيق مواضع البلدان التي وردت في المعجم[6] ، وتعيينها ، والكلام على أيام العرب التي ورد ذكرها فيه[7] ، ومراجع الشرح والتعليق . وتجلت ثقافة المحققين الدينية ببيان القراءات للآيات التي وردت في « التهذيب »[8] وتحقيقها ، مع الرجوع إلى كتب التفسير والقراءات الصحيحة والشاذة . وكان إذا ورد بيتُ شعر عَمَدا إلى تحقيقه ، ونسبته إذا لم يكن منسوباً إلى قائل ، وتصحيح ما نسب إلى غير صاحبه خطأ أو وهماً ، وإيراد أصح الروايات لهذه الشواهد[9] . وتمر أحياناً كلمات في غير أبوابها مثل « حانوت » إذ جاءت في « ح ي ن » وحقها أن تذكر في « ح ن ت » ونبها إلى ذلك . ووقف المحققان

---

١ تهذيب الصحاح : ص ٥٦٦ .
٢ تهذيب الصحاح : ص ٢٤٩ .
٣ تهذيب الصحاح : ص ١٠٨٠ .
٤ تهذيب الصحاح : ص ٧١٦ .
٥ تهذيب الصحاح : ص ٢٩١ .
٦ تهذيب الصحاح : ص ١٤٥ .
٧ تهذيب الصحاح : ص ٣١٧ .
٨ تهذيب الصحاح : ص ٦٠٨ .
٩ تهذيب الصحاح : ص ٦٤٩ .

موقف الحَكَم الفاصل بين الجوهري واللغويين . فبيّنا أوهامه[1] ، كما بيّنا أوهام غيره[2] . وميزا صواب القول من خطئه، معتمدين على الروايات الصحيحة والمعاجم ، وعلى رأيهما . وانتبها إلى ما زاده « الزّنجاني » على « الصحاح » الأصيل . وتتبعا مواضع الزيادة بدقة ، وأثبتاها في الحواشي . وأخيراً نظّما في آخر الكتاب فهرساً كاملاً للغة ، والأعلام ، والقبائل . وقد قصدا من فهرس اللغة تيسير البحث على شُداة العلم في هذا المعجم ، ليعثر في سهولة ويسْرٍ على ضالته ، واتبعا الترتيب الحديث للمعاجم — الألفبائي — . وطبيعي أنهما كانا يستطيعان أن يتخذا هذا الأسلوب في « تهذيب الصحاح » نفسه ، ولكن حفاظهما على الأمانة العلمية ، وحرصهما على تقديم الكتاب على الصورة التي ورد بها منعاهما من هذا السلوك — كما يخيل إلينا — .

في رأيي أن « تهذيب الصحاح » ليس كتاباً واحداً بل ثلاثة كتب . أحدها قديم نصّاً . والثاني حديث يتمثل في الحواشي التي تعادل الأصل بل تزيد عليه . والثالث معجم حديث في الفهرس اللغوي الملحق الذي جمع فيه مواد التهذيب والحواشي فيه مع الإشارة إلى رقم الصفحة التي ورد فيها كل لفظ .

المنهج العلمي ميّز هذا المعجم ، لكنه يؤخذ على المحققين أنهما أهملا تفسير بعض الألفاظ ومدلولها الفكري أو الاجتماعي كلفظة « المُرْجِئة » و « المعتزلة » ولم يشرحا عدداً من الأعلام التي وردت « كالشافعي » . وهذا مأخذ صغير ، يغفر له الحسنات الطافحة الراجحة في تحقيقه التحقيق العلمي . وأستطيع في الختام أن أقول : إن العطار عالم غلب عليه الأدب كما قيل ذلك يوماً ما في الجاحظ .

---

١ تهذيب الصحاح : ص ٥٤٨ .

٢ تهذيب الصحاح : ص ٥٤٨ .

ونستطيع أن نقيس على النهج العام الذي سار فيه العطار وهارون خطة الأول في تحقيق « معجم الصحاح للجوهري » ، لكنا نعود إلى نقطة كبيرة الأهمية أحرز بها العطار نصراً على جميع من أرخوا للمعاجم العربية من قديم وحديث . ومن هؤلاء الدكتور حسين نصار الذي كتب بحثه الذي تقدم به لنيل شهادة الدكتوراه بجامعة القاهرة بعنوان « المعجم العربي . نشأته وتطوره » وقد قسم المدارس المعجمية إلى أربعة أقسام . وتحدث بتفصيل عن كل منها . ولما وصل إلى المدرسة الرابعة قال نصار :

« أما المدرسة الرابعة ففيها « أساس البلاغة » للزمخشري و « قطْر المحيط » لبطرس البستاني ، و « أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد » لسعيد الخوري الشرتوني الذي ألفه سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م و « معجم الطالب في المأنوس من متن اللغة العربية والاصطلاحات العلمية والعصرية » لجرجس همام الشّويري (١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م) وتسير جميعها في تقسيمها وترتيبها على حروف ألف باء باعتبار الحرف الأول فالثاني فالثالث، وكل من هذه المعاجم ينفرد بميزة تختلف عن سواه ، ولا سيما « أساس البلاغة » »[1] .

وقد علق حسين نصار على منهج الزمخشري في « أساس البلاغة » بما يلي : « لم يفصل الزمخشري في مقدمة الكلام على منهجه ، ولكنه اكتفى بالإشارة إلى نقطتين : أولاهما ترتيب الألفاظ قال : « وقد رُتّب الكتابُ على أشهر ترتيب متداولاً ، وأسهله متناولاً . يهجم فيه الطالب على طِلْبته موضوعةً على طرَف الثُّمام وحبل الذراع ، من غير أن يحتاج في التنقير عنها إلى الإيجاف والإيضاع ، وإلى النظر فيما لا يوصَل إلاّ بإعمال الفكر إليه ، وفيما

---

١ المعجم العربي ٢/٧٠٧ .

دقق النظر فيه الخليل وسيبويه »[1] وأراد بذلك الترتيب الألفبائي المعهود ، ورتب وفقاً له الألفاظ من أولها إلى آخرها بحسب حروفها الأولى وحدها . وكان ذلك للمرة الأولى في تاريخ المعاجم العربية العامة وإن سبق إليه بعض أصحاب الرسائل اللغوية الخاصة الصغيرة ، والمعاجم الخاصة[2] . أما النقطة الثانية ، فهي أنه كان يقسم مواده إلى قسمين : الأول للمعاني الحقيقية ، والثاني للمجازية . ويفصل بينهما »[3] .

يعتقد « نصار » أن الزمخشري أول من ألف معجماً مرتباً ترتيباً ألفبائياً بحسب حروف الكلمة الأولى مع مراعاة الحرف الثاني فالثالث فالرابع في الكلمة . وتبعه في هذا كثيرون منهم عمر دقاق[4] في كتابه « مصادر التراث

---

١ مقدمة أساس البلاغة ص : د .

٢ يشير بذلك إلى أبي عمرو الشيباني المتوفى ٢٠٦ هـ/٨٢١ م . صاحب «كتاب الجيم» حيث رتبه على وفق الحرف الأول من الكلمة (انظر ص ١/٨٠ من كتاب المعجم العربي) وإلى « كتاب المعرب من الكلام الأعجمي » للجواليقي المتوفى (٥٤٠ هـ/١١٤٥ م) وكتاب « شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدخيل » للخفاجي (١٠٦٩ هـ/١٦٥٩ م) وكتاب « المعرب والدخيل » لمصطفى المدني (القرن ١١ هـ) . (المعجم العربي ١/٨٨) .

٣ المعجم العربي ٢/٦٥٦ .

٤ ولد بحلب سنة ١٣٤٨ هـ/١٩٢٧ م ، وفيها نشأ ودرس علومه الابتدائية والثانوية وحصل على الإجازة في الآداب من جامعة دمشق سنة ١٩٥٠ م . تولى تدريس اللغة العربية في وزارة التربية ، ثم عمل مفتشاً مدة . وأوفدته الوزارة إلى مصر فنال شهادة « الماجستير » من « معهد الدراسات العربية العالية » والدكتوراة من « جامعة عين شمس » سنة ١٩٦٦ . وهو الآن أستاذ في « كلية الآداب » بجامعة حلب وعميدها . من مؤلفاته : « الاتجاه القومي في الشعر العربي المعاصر » و « شعراء العصبة الأندلسية في المهجر الجنوبي » و « الأدب العربي الحديث في سورية » ألفه بناء على تكليف من وزارة الثقافة بسورية ، و « مصادر التراث العربي » و « لمحات من الأدب الأندلسي »، و « فنون الأدب المعاصر » (من حديث شفوي مع المترجم له) .

العربي » إذ قال : « والزمخشري . . . تفرد أيضاً في ترتيب مواده على نحو لم يسبق إليه حين آثر أن يبتدع منهجاً جديداً ، ويسير للمرة الأولى في تاريخ المعاجم العربية [1] . . .

أما أحمد عبد الغفور عطار فقد وافق نصاراً – دون أن يكون أحد المؤلفين آخذاً من الآخر – على ما أعتقد – على تقسيم المدارس المعجمية إلى أربعة أقسام . لكنه لم يجعل الزمخشري رائد المدرسة الرابعة كما فعل نصار [2] ، بل عزاها إلى محمد بن تميم البرمكي [3] وهو الذي ابتكر المنهج المعجمي الحديث وطبقه على كتاب لمؤلف سواه ، وقد تناول الصحاح ورتبه على حروف الألفباء وزاد فيه أشياء قليلة وقد اتبعه الزمخشري في « أساس البلاغة » ، فظنه العلماء مبتكر هذا الترتيب .

١ ص ٣٠٢ وقد أشار إلى اقتباسه من المعجم العربي في ٢/٦٧٤ – الطبعة الأولى – .

٢ لحمد الجاسر بحث ضاف في مجلة « العرب » ١/٥٧٧ و ١/١١٥٦ ينكر أن يكون « الجوهري » مبتكر منهج التقفية في المعجم العربي ، ويثبت أن « أبا بشر اليمان ابن أبي اليمان البندنيجي » هو صاحب الطريقة ، وهو سابق للجوهري بمائة سنة حيث توفي سنة ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م ، وتوفي الجوهري سنة ٣٩٣ هـ/١٠٠٣ .

٣ جاء في معجم الأدباء ١٨/٣٤ في ترجمته « محمد بن تميم أبو المعاني البرمكي اللغوي ، له كتاب كبير في اللغة سماه « المنتهى في اللغة » ، منقول من كتاب « الصحاح » للجوهري ، وزاد فيه أشياء قليلة ، وأغرب في ترتيبه . إلا أنه والجوهري كانا في عصر واحد ، لأني وجدت كتاب الجوهري بخطه ، وقد فرغ منه في سنة ست وتسعين وثلاثمائة ، وذكر البرمكي في مقدمة كتابه : « أنه صنفه في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة » . ولا شك أن أحد الكتابين منقول من الآخر نقلا . والذي أشك فيه أن البرمكي نقل كتاب « الصحاح » ، لأن أبا سهل محمد بن علي الهروي كان بمصر وحكى عن البرمكي . وقد روى الهروي « الصحاح » عن ابن عبدوس ولعل الكتاب خرج عن الجوهري وهو حي ، وقدم به إلى مصر » . (انظر بغية الوعاة ١/٢٨ ؛ والوافي بالوفيات ٢/٢٨٠ ؛ وكشف الظنون ص ١٨٥٨ ؛ والبغدادي هدية العارفين ٢/٦١ ؛ ومعجم المؤلفين ٩/١٣٨) .

يقول العطار « رائد هذه المدرسة إمام اللغة والعربية العظيم أبو عمرو الشيباني ،ولكنه لم يراع في الترتيب إلاّ الحرف الأول . أما ما بعده فلم يراعه . فهو يذكر في باب الهمزة كل حرف مبدوء بها دون أن يدقق في ما بعدها من الحروف عند ترتيب المواد . فهو قد ذكر في باب الهمزة هذه الألفاظ على هذا الترتيب : الأوق ، الألب ، المأفول ، الأفق ، الأزوج ، المأموم . وآخر كلمة ذكرها في هذا الباب : الإدة . مع أن حقها أن تذكر قبل أول كلمة ذكرها في معجمه . ولهذا لم تنسب المدرسة إليه ، لأنه لم يُحْكم النظام ، بل التزم أول الكلمة دون أن ينظر إلى ما بعدها . أما البرمكي فقد نظر إلى الحرف الذي تبتدئ به الكلمة ، وراعى الحرف الثاني إذا كان اللفظ ثلاثياً ، والثالث إذا كان رباعياً ، والرابع إذا كان خماسياً . وسهّل له هذا أن الجوهري راعى هذه القاعدة . ومع هذا فإن البرمكي أجهد نفسه في ترتيب المواد لأنه أخذ « الصحاح » ورتبه ترتيباً جديداً حيث جعله على أوائل الحروف ، ممّا عده العلماء المتقدمون إغراباً في الترتيب »[1] .

ويمكن تلخيص طريقة البرمكي بما يلي : أخذ من « الصحاح » من كل باب وفصل الحرفَ الذي يريده . ففي باب الهمزة أخذ منه فصل الهمزة ، ومن باب الباء والتاء والثاء والجيم حتّى الياء فصل الهمزة ورتبها على أوائل الحروف مراعياً الحرف الثاني والحرف الثالث . ثم انتقل إلى باب الباء وصنع فيه ما صنع في الهمزة حتى انتهى إلى آخر حرف في حروف الهجاء »[2] .

ولأهمية هذه النقطة ننقل رؤوس المواد من باب الهمزة في مخطوطة البرمكي[3]

---

١ الصحاح ومدارس المعجمات ص ١١٦ و١٣٣ .

٢ الصحاح ومدارس المعجمات ص ١٣٤ .

٣ توجد مائة ورقة من المخطوطة بالمكتبة الخاصة بإبراهيم حمدي الخربوطلي أمين مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله بالمدينة المنورة – وقد توفي رحمه الله – وفي مكتبة كوبريللي ست ورقات منه رقمها ١٥٢١/٦ .

وهي الطريقة المتبعة في التأليف المعجمي الحديث :

آ — أبب — أبت — أبث — أبد — أبر — أبز — أبس — أبض — أبط — أبغ — أبق — أبل — أبن — أبه — أبو — أبي — اتب — أتت — أتل — أتم — أتن — أته — أتو — أتى — أثث — أثر — أثف — أثل — أثم — أثو — أجأ — أجج — أجر — أجص — أجل — أجم — أجن — أحج — أحد — أحن — أخذ — أخر — أخو — أدب — أدد — أدر — أدل — أدم — أدو . . . الخ .

ويدل هذا الترتيب على أن البرمكي أول من رتب المواد ترتيباً محكماً ، سبق به أصحاب المعجمات الحديثة كلها ، وسبق الزمخشري الذي نسبت إليه هذه الطريقة وهماً . فالزمخشري تأخر ميلاده عن البرمكي بأكثر من قرن ونصف قرن لأنه توفي سنة ٥٣٨ ه والبرمكي كان حياً سنة ٣٩٧ ه وهي السنة التي انتهى فيها من تأليف معجمه . وهو صاحب هذه المدرسة وإمامها [1] .

ويظهر أن المؤلفين في تأريخ المعاجم لم ينتبهوا بدقة إلى مضمون قول الزمخشري في مقدمة أساس البلاغة : «وقد رتب الكتاب على أشهر ترتيب متداولا» فهو يعترف بأن هذا الترتيب الذي اتبعه مشهور قبله معروف . ولا يدعي أنه ابتكره واخترعه . ويبدو لنا أن الذي أوهمهم بأن الزمخشري رائد هذه الطريقة : إطراؤه هذا الترتيب ومبالغته في مديحه «يهجم الطالب على طلبته موضوعة على طرَف الثُّمام وحبل الذراع . . . » . ولعل هذا المنهج هو الذي دعا ياقوتاً الحموي إلى قوله عن «المنتهى» : أغرب في ترتيبه» [2] . وسواء أكان «المنتهى» مأخوذاً من «الصحاح» أم غير مأخوذ فليس هذا مجال البحث . إنما هو في الطريقة نفسها التي رتب فيها . ويبقى للعطار فضل الكشف عن هذه

---

١ الصحاح ومدارس المعجمات ١٣٤ وانظر «مقدمة الصحاح» للمؤلف نفسه ص ٨٩ و ٩٠

٢ انظر بغية الوعاة ص ٢٨ ؛ والمعجم العربي ٢/٤٧٧ .

النقطة ، ولا شك أن مؤرخي المعاجم سيعودون عن رأيهم في رائد المدرسة المعجمية الرابعة، وسيحلون البرمكي محل الزمخشري في الريادة . ويبقى لحمَد الجاسر رأي آخر في كل هذا التحقيق .

* * *

د – أما في **تحقيق الأماكن والمواطن في الجزيرة** فقد شُهر حَمَدُ الجاسر به وأنتج فيه عدداً من الدراسات والتحقيقات ، أصبحت مرجعاً موثوقاً في المجامع العلمية العربية والأجنبية . وسنرى في التأليف التأريخي صورة من تأريخه العلمي لمدينة الرياض ، وسنقف على المنهج الذي سار عليه حتى بلغ المرتبة العالية بين المؤرخين . وما عمله في « تأريخ مدينة الرياض » إلاّ غيض من فيض أبحاثه في تحديد مواضع الجزيرة ومواطن قبائلها ، وسِيَر أعلامها ، وإظهار ما كتب عنها في القديم والحديث إلى عالم النور – إن لم يكن عرف طريقه إليه بعد – .

أصدر مجلة اليمامة في الرياض سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م . وملأها بالأبحاث العلمية ، والتحقيقات المنهجية، وأهمل إلى حد بعيد الأخبار العادية ، والقضايا التي تهتم بها – عادة – معظم الصحف والمجلات . وصحيح أن « اليمامة » لا تزال تصدر إلى اليوم، وتنهج هذا المَهْيَع ، إلاّ أن موضوعاتها القوية وأبحاثها الدسمة، وتحقيقاتها الثرة قلّت من حيث الكمّ ، وضعفت من حيث الكيف . ذلك أن حَمَداً الجاسر أولى عنايته لمجلة « العرب » الشهرية ، وصبّ معظم جهوده فيها . وكان ذلك على حساب « اليمامة » .

إن الذي رفع من قيمة أبحاث الجاسر اطلاعه الواسع على التراث العربي ، ولا سيما قديمه ، وولعه البالغ بالمخطوطات ، ودراستها ، وتحقيقها ، وخاصة إذا كانت ذات صلة بالجزيرة العربية ، وترحاله المستمر عبر الصحارى والفيافي ومختلف مناطق المملكة ، ركوباً بالسيارة أو على ظهر ذلول ، أو سيراً على

الأقدام بغية التثبت من موقع نقطة أو التأكد من اسم ، أو معرفة حدود منطقة بشكل دقيق .

ومثل هذا المنهج النظري المدعوم بالتطبيق العملي يرفع من قيمة الأبحاث التي تصدر عن هذا الرجل العالم . وليس من المستغرب أن نقول : إن دراساته صححت كثيراً من المعلومات السائدة المغلوطة عن الجزيرة العربية ، ودفعت أعضاء المجامع العلمية العربية إلى أن يرفعوا من شأنه وشأنها [1] .

من هذه الكتب الكثيرة المحققة : « بلاد العرب » للحسن بن عبد الله الأصفهاني [2] . وهذا الكتاب يحدّد أجزاء كثيرة من منازل القبائل العربية ، التي كانت تقطن وسط جزيرة العرب متجاورة . ويحاول المؤلف فيه أن يحصي ما للقبائل من مناهل وجبال وأمكنة وما فيه من أسماء كثيرة ، وما ورد منها في الشعر . كذلك يضم طائفة من المعلومات المتعلقة بالقبائل من أنساب وأسماء شعراء ، وما في قلب جزيرة العرب من معادن . وأهم ما فيه ذكر مواضع تتفق في الاسم ، لكن ضبطها يختلف باختلاف القبائل التي كانت تسكن في تلك المواضع . وهذا من الأمور التي أوقعت اللبس والخطأ والخلط في تحديد كثير من مواضع الجزيرة . ممّا لا تمكن معرفته إلاّ بمعرفة من يسكنه من القبائل. وهو أمر لم ينتبه إليه كثير من الذين كتبوا عن تحديد منازل القبائل في جزيرة العرب ، ممّن لم يدركوا أن الاسم الواحد قد يطلق على عدة مسميات . وكتاب الأصفهاني

---

١ انظر : محمد مهدي علام : مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً – المجمعيون – الجزء الثاني ص ١٠٠ طبع بالقاهرة ؛ وانظر مجلة المجمع وما كتبت عن هذا العالم الكبير .

٢ عالم في اللغة والأدب . عاش في القرن الثالث الهجري من أقران أبي حنيفة الدينوري ، وكان بينهما مجادلات وردود . من مؤلفاته « كتاب خلق الإنسان » و « كتاب خلق الفرس » و « الرد على ابن قتيبة في غريب الحديث ، و « كتاب التسمية ، و « كتاب المنطق » ، و « كتاب الهشاشة والبشاشة » ، و « مختصر في النحو » ، و « نقض على علل النحو » ، و « كتاب التسمية » ، و « الرد على الشعراء » (مقدمة « بلاد العرب » ص ٤٣ – ٤٨) .

أقدم ما كتب عن تحديد منازل القبائل في قلب جزيرة العرب . وهو — في الوقت نفسه — وثيق الصلة برواة وعلماء وشعراء من أهل تلك البلاد ممّن يفوقون الأصمعي وأمثاله خبرة ودراية ومعرفة بمواضع الجزيرة ، وبسكانها ، ممّن هم أساتذة الأصمعي وغيره ، وممّن قاموا بتدوين أخبار أهل البادية ، وما يتصل بها من معلومات [١] .

لقد اختلف العلماء في اسم الكتاب وفي اسم صاحبه . فالدكتور صالح العلي [٢] يرى أن صاحبه هو الأصمعي [٣] معتمداً على ما نقله ياقوت في « معجم البلدان » عن الأصمعي واتفاق روايات ياقوت مع كثير ممّا جاء في هذا الكتاب ، وأن اسمه « جزيرة العرب » وأورد شواهد كثيرة على قوله . أما حمد الجاسر فيعتقد أن صاحب الكتاب ليس الأصمعي وإنما هو الحسن بن عبد الله الأصفهاني المعروف بـ « لُغْدَة » . ويستدل على ذلك بمخطوطتي نعمان الآلوسي ومحمود شكري الآلوسي ونسخة الأب أنستاس الكرملي [٤] التي اشتراها من سليمان الدخيل النجدي ثم البغدادي [٥] ، ونسخة مكتبة الأوقاف ببغداد ، ومخطوطة المؤرخ النجدي إبراهيم بن صالح بن عيسى [٦] وأصلها

١ المقدمة : ص ٧ — ٩ .

٢ عميد « معهد الدراسات الإسلامية » وعضو المجمع العلمي العراقي (العرب ١/٨٩٠) .

٣ من المحاضرة التي ألقاها الدكتور صالح العلي في مؤتمر « مجمع اللغة العربية » بالقاهرة في دورته الثالثة والثلاثين بتاريخ — ٤/٢/١٩٦٧ م . (نقلا عن « العرب » ١/٨٩٠) .

٤ نعمان الآلوسي ، ومحمود شكري الآلوسي ، والأب أنستاس الكرملي من علماء بغداد الأفاضل ، وأعضاء المجمع العلمي العراقي .

٥ أديب نجدي . اشتغل بالأدب والتاريخ والصحافة ببغداد . وله مؤلفات كثيرة منها المطبوع ومنها المخطوط . توفي سنة ١٣٦٤ هـ/١٩٤٥ م (العرب ١/٤٦٩ — ٤٧٩) .

٦ إبراهيم بن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى . ولد سنة ١٢٧٠ هـ/١٨٥٣ م ، ببلدة « أشيقر » من إقليم « الوشم » . تلقى العلم عن مشاهير علماء بلدته، ثم طلبه في الهند =

الموجود عند الشيخ محمد بن حمد بن فارس العالم النجدي ، ونسخة رشدي صالح مَلْحَس المصورة[1] . وليس هذا هو الدليل فقط بل يضاف إليه معارضة التواريخ بعضها ببعض ، ومناقشة ياقوت في رواياته عن الأصمعي . ومحتويات الكتاب التي منها رجز في هجاء قبيلة « باهلة » وهي فرع من فروع قبيلة الأصمعي نفسه[2] . والحديث عن الرواة الذين ورد ذكرهم في الكتاب كابن الأعرابي معاصر الأصمعي . وقد جرى بين الرجلين ما يجري بين المتعاصرين من خلاف . ومن المستبعد أن ينقل عنه الأصمعي . ويستشهد الجاسر بالشواهد على ذلك . ثم ينتقل من افتراض إلى افتراض ، ويناقش كلاًّ على حدة ، ويخضعه للبحث ، ويأتي له بما يدعمه حتى يطمئن إلى النتيجة وهي أنه للُغْدَة الأصفهاني . ويفعل الشيء نفسه في اسم الكتاب ويصل أخيراً إلى تسميته بـ « بلاد العرب » .

أما منهجه في تحقيق هذا الكتاب فقد اعتمد على صور المخطوطات للكتاب ، وعارضها بما جاء في معجم البلدان لياقوت ، وكتاب الإسكندري[3] و« المستقصي

= والأحساء والبصرة والزبير . وعاد إلى بلدته ، ودرس في مسجدها الجامع . ثم انتقل إلى « عنيزة » وفيها توفي سنة ١٣٤٣ هـ/١٩٢٤ م . من كتبه « عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث إلى آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر » و « تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد » . (حمد الجاسر ، مقدمة تاريخ بعض الحوادث ص ١٨) .

١ يذكر حمد الجاسر أن جميع هذه المخطوطات كتبت في منتصف القرن الثالث عشر الهجري (ق ١٩ م) وأنها منسوخة عن بعضها (مقدمة كتاب « بلاد العرب » ص ٥١ — ٦٧ ، ومجلة العرب ١/٩١٥) .

٢ بلاد العرب ص ٢٦ — ٢٧ .

٣ نصر بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن علي الفزاري الإسكندري (. . — ٥٦١ هـ/. . — ١١٦٦ م رحل إلى بغداد ، وزار أصبهان . ويظن أنه توفي بها . له كتاب في « أسماء البلدان والأمكنة والجبال والمياه والآثار ونحوها » ، المذكورة في الأشعار ، وتوجد نسخته المخطوطة الفريدة — فيما نعلم — في المتحف البريطاني . (بغية الوعاة ٤٠٣ ؛ خريدة القصر — قسم شعراء مصر — ٢/٢٢٥ ؛ مجلة العرب ١/٣١٢) .

في الأمثال للزمخشري . محققاً كل ما ورد فيه . غير مغفل شيئاً منه . والشيء الذي أضافه إلى الأصل هو وضع الترقيم . وقد حرص في الهوامش على ذكر الفروق بين النسخ ، ورأيه في بعضها ، وشرحه لأعلامها ، وضبطه لألفاظها دون أن يسهو عن ذكر المراجع التي اعتمد عليها .

أما الفهارس فقد أخذت من الكتاب أكثر من مائة صفحة ، مقسمة إلى أحد عشر فهرساً في « مباحث الكتاب » و «أسماء المواضع» و « المعادن » ، و « أسماء الجماعات » ، و « أسماء الشعراء » ، و « فهارس الأشعار » ، و « النباتات »، و « الأيام الواردة في الكتاب » ، و « الكلمات اللغوية » ، و « المصادر » و « المراجع » .

* * *

وإذا كان لكتاب الأصفهاني أصل مخطوط واقتصر عمل المحققين فيه — الجاسر والعلي — على توثيقه فإن لكتاب « أبو علي الهَجَري وأبحاثه في تحديد المواضع » الذي ألفه حمد الجاسر لوناً آخر من العمل الفني يستحق الوقوف عنده ملياً . فالهجري رجل ضنّت كتب التراجم بحديثها عنه ، وإن ذكرته فبسطور لا تسمن ولا تغني . قال ياقوت فيه : « أبو علي هارون بن زكريا الهَجَري النحوي ، صاحب كتاب النوادر والتعليقات المفيدة ، روى عنه ثابت ابن حزم السَّرَقُسطي »[1] ثم لا يزيد شيئاً آخر . والغريب أن الهجري ، وهو ابن الجزيرة العربية — لم يعرفه المشارقة إلاّ عن طريق علماء المغرب الأقصى كابن حَزْم السَّرَقُسطي ، وابن سِيدَه وغيرهما من علماء الأندلس . ومع

---

١ معجم الأدباء ٢٦٢/١٩ ؛ وبغية الوعاة : ص ٤٠٥ . أما ثابت بن حزم السرقسطي (. . . — ٣١٣ هـ/. . . — ٩٢٥م) فمن حفاظ الحديث، وقد أكمل « كتاب الدلائل » في شرح ما أغفله أبو عبيد وابن قتيبة من غريب الحديث ، وكان قد بدأ به ابنه القاسم فأتمه ثابت (تذكرة الحفاظ ٨١/٣) .

ذلك فإن اسمه يَرِدُ كثيراً في كتب « التعليقات والنوادر »[1] . ولم ينل في العصر الحديث اهتماماً من دراسات العلماء كما نال غيره من علماء اللغة القدماء ، اللهم إلاّ عند بعض علماء الهند ، فقد اهتموا به وبآثاره[2] . لكنه ظل مجهول كثير من الجوانب . وجاء الجاسر فعكف على التعريف به بإسهاب مبتدئاً بدراسة نسبته إلى هَجَر[3] ، وإظهار معالم شخصيته الإنسانية والعلمية ، وعصره[4] ، وموطنه[5] ، ومن تلقى عنهم من الرجال[6] والقبائل[7] ، وأهل المدن[8] ، ومن أخذ عنه من علماء المشرق[9] ، والمغرب[10] ، ومنتهياً باستقصاء

---

١ كان المتقدمون في أول التدوين العربي يستعملون هاتين الكلمتين « التعليقات والنوادر » للدلالة على ما جمعوه من معلومات مختلفة المقاصد ، لا يجمعها رابط . فكانوا يريدون بكلمة « التعليقات » ما علقوه في أذهانهم ، ثم سجلوه في كتبهم من آراء قد تكون في الغالب خاصة بهم . أما « النوادر » فيظهر أنها هي ما جمعه العالم منسوباً إلى راو من مختلف المعلومات ، مما يعتبره أهل العصر شيئاً نادراً . (انظر : أبو علي الهجري : ص ١٠٤) .

٢ من هؤلاء العلماء الشيخ عبد العزيز الميمني الراجكوتي شارح « الأمالي » للقالي ، وشارح « ديوان حميد بن ثور الهلالي » ومؤلف « سمط اللآلي » وهو أول من لفت الأنظار إلى كتاب الهجري . و « زبير الصديقي » درس كتاب الهجري وألقى عنه محاضرة في مؤتمر المستشرقين لسنة ١٩٥٧ م ، وأبو محفوظ الكريم المعصومي وهو من علماء الهند البارزين وقد ألقى عن الهجري وكتابه « التعليقات والنوادر » محاضرة في مؤتمر المستشرقين الـ ٢٦ وأشار إلى أنه هيأه للطبع (انظر المصدر نفسه ص ٩٧ – ٩٩ ؛ ومجلة العرب ٤/٣٥٢) .

٣ أبو علي الهجري : ص ١٥ .

٤ أبو علي الهجري : ص ١٧ .

٥ أبو علي الهجري : ص ٢١ .

٦ أبوعلي الهجري : ص ٢٧ .

٧ أبو علي الهجري : ص ٣٤ .

٨ أبو علي الهجري : ص ٣٩ .

٩ أبو علي الهجري : ص ٤٢ .

١٠ أبو علي الهجري : ص ٦٦ .

مؤلفاته[1] ، وشواهد منها[2] وما بقي من آثاره[3] ، ومواضعها[4] ، وأوصافها[5] . وقد استغرق هذا البحث مائة واثنتين وسبعين صفحة . وزاد عدد المراجع العربية والغربية المذكورة في الهامش على خمسين مرجعاً .

منهج المؤلف يقوم على أخذ خبر من الأخبار رُوي عن الهجري ، أو رواه هو . فيعتصره الجاسر مستنتجاً منه جميع ما يمكن أن يستنتج . ثم يأخذ خبراً ثانياً ويفعل فيه ما فعل في الأول ، ويضم معلوماته إلى سابقه وهكذا حتى يقيم من ذلك بحثاً سوياً . ففي تحديد عصره سار البحث على الشكل التالي : قال الجاسر : « لا شك أن الهَجَري عاش في آخر القرن الثالث الهجري وفي أول القرن الرابع . ولكنا لا نستطيع تحديد الزمن الذي عاشه تحديداً دقيقاً . ونجد نصاً في كتابه « النوادر » يقول فيه « أنشدني ابن الأعرابي »: وابن الأعرابي هذا كما هو معروف ، توفي سنة ٢٣٣ هـ أو قبلها بيسير . فإذا صح أن ابن الأعرابي أنشده ، ولم يكن في أصل الكتاب خلل ، فمعنى هذا أنه من رجال أول القرن الثالث الهجري ، وأنه قبل وفاة ابن الأعرابي كان في سنّ تمكنه من الالتقاء بكبار علماء ذلك العهد ، ومن الأخذ عنهم . . . .[6] » .

هذا هو القسم الأول . أما القسم الثاني من الكتاب فقد تناول أبحاث الهجري في تحديد المواضع في الجزيرة العربية . ولا بد أن نربط بين هوى المحقق الجاسر في استقصاء هذه الأسماء ، وتحقيقها وبين عمله في الكتب التي تسير على هذا السبيل.

---

١ أبو علي الهجري : ص ١٠٠ .
٢ أبو علي الهجري : ص ١٠٣ .
٣ أبو علي الهجري : ص ١٥١ .
٤ أبو علي الهجري : ص ١٥٦ .
٥ أبو علي الهجري : ص ١٥٨ .
٦ أبو علي الهجري : ص ١٧ – ١٨ .

جمع حمد الجاسر مادة هذا القسم من كتاب الهجري « التعليقات والنوادر » وما نسب إلى هذا الرجل من أقوال في « مُعْجَم ما استعجم » لأبي عُبيد البكري[1] ، وما ذكره السّمْهُودي[2] في كتابه « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » منسوباً إليه .

نهج المؤلف في هذا القسم يقوم على ترتيبه أسماء المواضع ترتيباً ألفبائياً وفق طريقة المعاجم الحديثة . مثال ذلك ما ورد في حرف الهمزة : الأبتَرة ، أبلى ، ابنا شمام ، الأثم ، الأثيب ، أجأ ، أدبى ، الأجرد ، الأحماء ، أخطب ، الأرصان ، ذو الأرغاد ، أرن ، أسبيل . . . الخ . ويورد الجاسر في كل من هذه المواضع ما قاله الهجري فيها . ولو اقتصر الجاسر على هذا لم يكن لعمله إلاّ فضل الجميع والترتيب . لكنه كان يضيف في الهوامش ما أورد غير الهجري في هذه المواضع ، ويذكر المصادر ، ويعلق برأيه على كثير من الأسماء . فيتحدث عن تطور الاسم ووضعه اليوم ، أو عن خطإ القدماء فيه ، وصحة تسميته معتمداً على معلوماته وخبرته العملية . وفي خاتمة الكتاب نظم فهرساً كاملاً لجميع الأسماء التي دارت فيه مرتبة الترتيب

---

١ مؤرخ جغرافي ثقة ، وعالم بالأدب ولد في « شلطيش » Saltès غربي « إشبيلية » وانتقل إلى « قرطبة » ، ثم إلى « المرية » ثم عاد إلى « قرطبة » وبها مات سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م . من كتبه « المسالك والممالك » ، و « المغرب في ذكر إفريقية والمغرب » و « معجم ما استعجم » ، و « أعلام النبوة » ، و « شرح أمالي القالي » ، و « التنبيه على أغلاط أبي علي القالي في أماليه » ، وغيرها . (ابن بشكوال ، الصلة ص ٢٨٢ ؛ بغية الوعاة ص ٢٨٥) .

٢ علي بن عبد الله بن أحمد الحسني الشافعي ، نور الدين أبو الحسن . مؤرخ المدينة المنورة ومفتيها . ولد في « سمهود » – بصعيد مصر – ونشأ في القاهرة . واستوطن المدينة وتوفي بها سنة ٩١١ هـ/١٥٠٦ م . من مؤلفاته « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » و « خلاصة الوفا » وغيرها (الأعلام ٥/١٢٢) .

الألفبائي نفسه ، دالاً على مواضعها في صفحات الكتاب .

* * *

وإذا انتقلنا إلى أبحاث ابن بُلَيْهد[1] حول تحديد الأماكن والمواضع في جزيرة العرب رأينا له أثرين كبيرين ، أولهما « صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار » والثاني تحقيق كتاب « صفة جزيرة العرب » للهمدانيّ[2] .

امتاز ابن بليهد باستقصائه أسماء المواضع ومواطن القبائل التي وردت في الأشعار الجاهلية وصدر الإسلام . ولم يشرع في جمع المعلومات التي توافرت لديه إلاّ حين طلب منه الملك فيصل ذلك بناء على رجاء العرب المهاجرين إلى أمريكا الشمالية[3] .

---

١ محمد بن عبد الله بن بليهد : من قبيلة « بني خالد » المشهورة . ولد في قرية « غسلة » من إقليم « الوشم » توفي حوالي سنة ١٣٧٧ هـ/١٩٥٧ م . من مؤلفاته « صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار » وديوان شعر اسمه « ابتسامات الأيام في انتصارات الإمام » . وابن بليهد يجيد الشعر العامي أكثر من إجادته الشعر الفصيح .

٢ الحسن بن أحمد بن يعقوب ، من بني همدان ، أبو محمد . مؤرخ ، عالم بالأنساب عارف بالفلك والفلسفة والأدب ، شاعر مكثر . من أهل اليمن ، كان يعرف بابن الحائك وبالنسابة ، وبابن ذي الدمينة – نسبة إلى أحد أجداده : ذي الدمينة بن عمر – ولد ونشأ بصنعاء ، وأقام على مقربة منها في بلدة « ريدة » ، وطاف بالبلاد ، واستقر بمكة زمناً . وعاد إلى اليمن فأقام في مدينة « صعدة » ، وهاجى شعراءها . من تصانيفه « الإكليل في أنساب حمير وأيام ملوكها » ، و « سرائر الحكمة » ، و « القوى » ، و « اليعسوب » و « الزيج » ، و « صفة جزيرة العرب » ، و « كتاب الجوهرتين » ، و « الأيام » ، و « الحيوان المفترس » ، وديوان شعر في ستة مجلدات . (بغية الوعاة ٢١٧ ؛ معجم الأدباء ٩/٣ ؛ مجلة المجمع العلمي العربي ٦٢/٢٥) .

٣ يقول ابن بليهد في مقدمة كتابه : « إن (الأمير) فيصل سافر سنة ١٩٤٥ م . إلى أمريكا لحضور مؤتمر سان فرنسيسكو ، وأقبل كثير من المهاجرين العرب يسلمون عليه . ويعرضون عليه حاجتهم الملحة إلى معرفة ما ورد في الأشعار الجاهلية –وخاصة المعلقات– من الأودية ، =

نَهْج المؤلف في الكتاب كان يقوم على استعراضه لكل من المعلقات العشر . وفي أثناء ذلك كانت تمر ألفاظ كثيرة لمواضع ، أو لقبائل ، فيشرحها محدداً موقعها الجغرافي ، وأبعاد المواطن المِتْرِيّة عمّا يجاورها . ويستغل كثيراً من المناسبات ليدلّ على ما بقي من تلك الأسماء على حاله ، وما تغير بعض التغير بتقديم حروف الاسم على بعضها الآخر ، أو بإبدال حرف من حروف الكلمة بحرف آخر ، وما نُسي اسمه البتة ، أو بُدل تبديلاً كاملاً . كذلك يتعرض لما ورد في كتب ياقوت ، والبكري ، والهمداني ، فيقرّهم ، أو يعارضهم ، وينص على خطئهم ، ويعلل ما يذهب إليه تعليلاً صحيحاً أو قريباً من الصحيح .

قسم ابن بليهد كتابه قسمين : استعرض في القسم الأول جميع الأسماء الواردة في دواوين امرئ القيس ، وزهير ، والنابغة . ولكنه في نهاية هذا القسم ، وفي مقدمة الثاني اكتفى بمعلقات الشعراء الآخرين وحدها دون دواوينهم كاملة . وكان خلال شرحه لهذه المواطن تشتبه عليه بعض المواقع ، وتغمض ، وحينئذ يسافر إليها بنفسه — كما يقول — أو يرسل عدداً من الأعراب الذين يعرفون البقاع في بلاد العرب إلى المكان الذي يتحرى وجوده فيه ، ليبحثوا عنه ، ويأتوه بالخبر اليقين . ويدفع لهم الجوائز مقابل ذلك . وقد حدث ذلك مراراً — كما ادعى — منها أنه أشكل عليه اسم « راكس »

= والجبال ، والمياه ، والتلول ، والرمال ، والرياض ، والبلدان العامرة والدارسة ، ومعرفة ما بقي منها إلى يوم الناس هذا على اسمه الأول ، وما اعتراه شيء من تغير . وذكر المهاجرون أن في هذه المعرفة عوناً للأديب يتمرس بدراسة آبائه وأجداده ، وأن هذه المعرفة تساعد على دراسة البيئة الطبيعية التي عاش فيها الشاعر أو الأديب ، ومعرفة دواعي قوله ؛ ويجر هذا إلى معرفة شيء من خصائص لغات القبائل المختلفة ولهجاتها . فإن لم يؤد هذا إلى تمييز تام بين لغاتها فقد يؤدي إلى نوع من التمييز به يهون الجهد والوقت والمال . فلبى طلبهم . وأوعز إلى — المؤلف — بهذا التأليف » .

أهو باق بهذا الاسم أم اندرس . وهو مقرون في بعض الأشعار بـ « َحرْحَان » وهذا معروف إلى اليوم . فأرسل بعض الأعراب إلى المكان . وحدد لهم الأرض التي تحرّى وجودَه فيها . فانطلقوا ، ثم عادوا بعد شهر ، وأخبروا أنهم وجدوا جبلاً أسود ، قرب وادي الرُّمّة ، وحوله كثيب من الرمل يقال له الآن « أبرق راكس » . و« الأبرق » هو كثيب الرمل ، و « راكس » هو الجبل [1] .

وقد يكون في الاستشهاد ببعض عمله توضيح لمنهجه . ونضرب على ذلك مثلاً شرحه للبيت الأول من معلقة امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسِقطِ اللّوى بين الدّخول فحَوْملِ

قال ابن بليهد : « السّقط لغة : يطلق على طرف كل كثيب . أما الذي عناه امرؤ القيس في قصيدته فهو « سِناف » يقال له اليوم « مُشْرِف » . واسمه في الجاهلية « شِراف » . كأنه كثيب من « الأبارق » . والرمال طرفه من جهة الغرب قريب « حَوْمل » . وطرفه من جهة الشرق قريب من الدّخول . و « الدّخول » و « حَوْمل » باقيان بهذا الاسم إلى يومنا هذا . أما « الدّخول » فهو ماء عذب معروف بهذا الاسم ، يقع شمالي الهضب المعروف بين « وادي الدواسر » و « رَنْية » . وذلك الماء تحت يد ابن نُوَيْر الشيباني اليوم . أما « حَوْمل » فهو جبل قريب من « الدّخول » في جهته الغربية الجنوبية يبعد مسافة نصف يوم عن « الدخول » [2] .

في القسم الثاني من دراسته عمد إلى تقصي الأسماء التي وردت في غير

---

١ صحيح الأخبار : ص ٣ .

٢ صحيح الأخبار : ص ١٦ .

المعلقات[1] ، ومواقع المعارك بين قبيلتي « عُتَيْبة » و « مُطَير »[2] ، والأماكن الواقعة بين جدة والرياض[3] ، ومواطن تجمع اللصوص الذين كانوا يقطعون الطريق على الحجاج[4] والبقاع الواقعة في وسط نجد وكان بكل منها موقعة[5] ، والعرب الباقين في أماكنهم من عهد الجاهلية[6] ، والشعر النبطي وأهله وأصلهم[7]. وانتهى إلى قوله إنه اكتشف موقع « سوق عكاظ » وأورد دليله على ذلك[8] . ورسم خريطة تبين موقع ذلك السوق[9] . وأنهى الكتاب بفهرس كامل لجميع

---

١ صحيح الأخبار : ص ٢/٨٢ .

٢ صحيح الأخبار : ص ٢/١١١ .

٣ صحيح الأخبار : ص ٢/١٣٧ .

٤ صحيح الأخبار : ص ٢/١٥٣ .

٥ صحيح الأخبار : ص ٢/١٨٣ .

٦ صحيح الأخبار : ص ٢/١٨٥ .

٧ صحيح الأخبار : ص ٢/١٨٩ .

٨ صحيح الأخبار ٢/٢١٠ . وفي تحقيق موضع سوق عكاظ لنا كلمة . فلقد ادعى كل من محمد بن بليهد وحمد الجاسر وعبد الوهاب عزام أنه اكتشفه ، وأقام دليلا على ذلك . ولدى البحث وجدنا أنهم – جميعاً – اتفقوا على نقطة معينة . وكان تحديدهم الجغرافي لموقع « السوق » متقارباً . ولقد رجعنا إلى تأريخ بحث كل منهم عن اكتشافه لموقع السوق فوجدنا أن حمد الجاسر نشر في جريدة « أم القرى » بحثه سنة ١٣٦٣ هـ/١٩٤٣ م – في شهر شوال – ثم أعاد نشر البحث نفسه في « مجلة المجمع العلمي العربي » بدمشق في المجلد السادس والعشرين في الصفحات ٣٧٧ – ٣٩٨ وكان ذلك سنة ١٣٧٠هـ/١٩٥١م . ثم أصدر ملحقاً خاصاً بهذا الموضوع في مجلة العرب في سنتها الثانية ١٩٦٧ م . أما ابن بليهد فقد أصدر بحثه في كتاب « صحيح الأخبار » في الجزء الثاني ص ٢١٠ وقد طبع كتابه بمصر سنة ١٣٧٠ هـ/١٩٥١ م. وحاولنا أن نعود إلى « أم القرى » والجرائد المختلفة لنقف على تاريخ أسبق من طبع الكتاب يشير فيه إلى اكتشافه فلم نوفق – ولعله نشر شيئاً ولكن وسائلنا عجزت عن الوصول إليه . – لهذا فإن بحث الجاسر المنشور في « أم القرى » أسبق بحوالي سبع سنوات من بحث ابن بليهد . أما عبد الوهاب عزام فيعترف بأن ابن بليهد هو الذي دله على المكان وأعانه على تطبيق الروايات عنه وادعى أنه – أي عزام – بثاقب معرفته اكتشف المكان قبيل شهر آب (أغسطس) سنة ١٣٦٩ هـ/١٩٥٠ .

٩ صحيح الأخبار ٢/٢١٨ .

ما ورد من أسماء مرتباً ترتيباً ألفبائياً حديثاً .

ويؤخذ على ابن بليهد مآخذ عدة : منها عدم تفريقه بين المعنى اللغوي للكلمة وبين اسم الموضع كما فعل في شرح قول زهير :

يغرّدُ بين خُرْمٍ مُفْضِياتٍ صَوافٍ لم تكدرْها الدلاء

فظن أن كلمة « خُرْم » اسم موضع ، وتكلف لتفسيرها بما هو بعيد عن المعنى [1] . مع أن « خرم » هي الغدران التي انخرم بعضها إلى بعض فسال هذا في هذا . و « المُفْضيات » هي التي أفضى بعضها إلى بعض واتصل به [2] . ومثل هذا ما ذكره عن « الحَوض ، والعَطَن » [3] حيث ظنهما موضعين . ويؤخذ عليه – كذلك – ارتجاله بعض المعلومات بدون مصادر ، كما ذكر عن امرئ القيس أنه من أهل « ذي جرة » من مخلاف السكاسك في اليمن [4] والمعروف أنه ولد في نجد . ومأخذ ثالث كبير أنه كان يقرأ الاسم مصحّفاً ، ثم يحاول إيضاح موقعه على أساس التصحيف ممّا لم يرد في المراجع وهذا كثير في « صحيح الأخبار » . وأنه أوضح المواقع الواردة في دواوين امرئ القيس وزهير والنابغة ، واكتفى بما جاء في معلقات الشعراء الآخرين . وكان عليه أن ينخل دواوينهم بأجمعها ، ويوضح موقع كل ما جاء فيها ، وأن يأتي على شعر الهذليين وهو طافح بالمواطن ، ويفعل ما فعل بدواوين الثلاثة المذكورين . كذلك فإنه لم يتعرض في هذه المعلقات لشرح معانيها ، واكتفى بدراسة أسماء المواقع . والمأخذ الآخر أنه إن بدا محققاً في البقاع الجغرافية فليست له هذه

---

١ صحيح الأخبار ١/١٤٥ .
٢ ديوان زهير – شرح الشنتمري – ص ٧٠ .
٣ صحيح الأخبار ٢/٥١ .
٤ المصدر نفسه ١/٦ .

الصفة في القضايا الأدبية ، فقد كان يورد أخباراً ظاهرة الانتحال ، وحوادث واضحة التلفيق ، ويقف منها موقف المصدّق ، أو الراوي ، ولا يعلق على اختلاقها بكلمة . مثال ذلك ما أتى به في معرِض حديثه عن « حَوْضى » وهو جبل أسود في عالية نجد لبني عامر بن صعصعة ، وكان قد أورد الشواهد التي حضرته وفيها ذكر « حوضى » . ومما رواه « أنه قرأ في بعض الكتب – ولم يسمّها – أن أعرابية توفي زوجها فخطبها ابن عم لها . فأطرقت . وجعلت تنكت الأرض بأصبعها حتى خدّت فيها حفيراً ، وملأته بدموعها . وقد دفن زوجها في سفح « حوضى » . ثم قالت :

فـإن تسألاني عن هواي فإنّه مقيمٌ بحوضى أيها الرجلان
وإن تسألاني عن هواي فإنّه رهين له بالبث يا فتيـان
وإنّي لأستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه وهو يراني
أهابك إجلالاً وإن كنت في الثرى وأكره حقاً أن [يسُؤك] مكاني [1]

فقام الفتى وأيس منها . ثم رآها بعد عند قبر زوجها في أحسن زيّ . فقال رجل معه : أما ترى فلانة في أحسن زيّ ؟ لقد خرجت متعرضة للرجال . فلما دنت من قبر زوجها التزمته وأنشأت تقول :

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بي عيشاً ويكثر في الدنيا مواتاتي
لمـا علمتك تهوى أن تراني في حليي وتهواه من ترجيع أصواتي [2]
فمن رآني رأى حـيرى مفجعة [بشهرة الذي أبكي بين أموات [3]]

---

١ كذا .
٢ كذا .
٣ الشطر الأخير غير مستقيم الوزن ، وغير واضح المعنى .

ثم شهقت شهقة فارقت معها الدنيا . فدفنت إلى جنب زوجها »[1] .
وأعتقد أن ابن بليهد لم يعنه في مجمل الخبر إلاّ اسم حوضى ، أما مضمونه فلم يتعرض له بقليل أو كثير .

الخلاصة ، نعد عمل ابن بليهد علمياً من حيث تأليفه في مواطن الجزيرة . ولا جدال في أن التحقيق العملي ، ودراسة الأماكن على الطبيعة أقوم وأجدى للبحث العملي من الدراسة النظرية . وقد وضع لبنة في صرح الدراسات رغم بعض الهنات التي وقع فيها . ويبقى كتابه « صحيح الأخبار » مصدراً لمن يريد الوقوف على حقيقة الديارات العربية ولا سيما في الجاهلية وصدر الإسلام.

* * *

أما تحقيقه لكتاب « صفة جزيرة العرب » للهمداني فلا يعد في المرتبة التي بلغها الجاسر في أبحاثه وتحقيقاته. فابن بُليهد أخذ كتاب صفة جزيرة العرب مخطوطاً من اليمن ، فاستنسخه ، ثم قابل نسخته بنسخة أوربة المطبوعة[2] . فعكف على مقارنة الاثنتين . وكل ما أخذ ابن بليهد على الهمداني أنه لم يرتب « صفة جزيرة العرب » وهو طافح بأسماء المواقع والقبائل ترتيب المعاجم الحديثة ، ولم يسهب في شروحه إلاّ فيما اتصل باليمن ، ولم يتريث عند البقاع ، ولم يستشهد عليها بما ورد فيها من الشعر إلاّ في النادر ، كما أخذ عليه كثرة استطراداته .

منهج ابن بليهد في هذا التحقيق خاص . فهو قد قسم الكتاب كله إلى قسمين : الأول عرض صفة جزيرة العرب حسبما جاء في النسختين . وكان يضع على بعض الكلمات أرقاماً . والثاني تعليقه على المفردات التي رقّمها في

---

١ صحيح الأخبار ٢/٥١ .

٢ طبع بإشراف « ملر » في ليدن سنة ١٨٩١ م . وذكر في جانب كل صفحة أرقاماً تدل على أرقام صفحات المخطوطة . والطريف أن ابن بليهد نقلها ولم يعرف مدلولها .

القسم الأول . وفي هذه التعليقات شرح أو تعديل أو معارضة مع إيراد الشواهد .

وفي نهاية الكتاب اقتصر فهرس الموضوعات على القسم الثاني ، وأهمل فهرسة الأول . لكنه حين نظم معجماً في الأسماء أورد فيه جميع ما ذكر في القسمين .

ويؤخذ على ابن بليهد – عدا تقصيره في فهرسة الكتاب المحقق – إهماله ترجمة الأعلام الإنسانية الواردة ، وبيان المصادر التي اعتمد عليها ، واكتفاؤه – كسائر المحققين في الجزيرة – على التأريخ الهجري . كذلك فإنه كان يورد الخرافات كحكايته عن نساء « مور » ممّا يستحى من ذكره[1] .

* * *

هـ – أخيراً ، فإن إنتاجاً أدبياً كثيراً يظهر حديثاً لا يتصف بصفة الدراسات أو التحقيقات ، لكنه أقرب ما يكون إلى **المجموعات العامة** . وهو أدنى إلى المواد الخام البكر منه إلى الإنتاج المصنوع الذي دخلته يد الفن ، وعملت فيه الصنعة والأصابع الماهرة . ولا جدال في أن هذه المجاميع تضم في ثناياها ثروة كبيرة من المعرفة ، وكنزاً من الحقائق . ولن تحتاج إلى أكثر من عالم يعكف عليها ، ويستخرج منها رصيداً طيباً من المعلومات التي لا تزال مطمورة تحت حجبٍ كثيفة من الغموض .

أول هذه المجموعات الكتب التي حاول أصحابها أن يجمعوا الأمثال الشعبية في قلب الجزيرة العربية . وقد بدأ بهذا بادئ الأمر محمد العبودي[2] فكتب القسم الأول من كتابه وسماه « الأمثال العامية في نجد » ووعد أن يصدر القسم الثاني وفيه ألف مثل عاميّ آخر – كما في الأول – وينهيه بفهرس كامل

---

[1] صفة جزيرة العرب ص ٢٩٠ .

[2] مدير المعهد العلمي في بريدة سابقاً ، والأمين العام للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة حالياً . من مؤلفاته – إضافة إلى الأمثال العامية – « في إفريقية الخضراء » .

للقسمين معاً مرتب بحسب مواضيع الأمثال ودلالتها المعنوية ليتيسر للباحث أن يحيط بكل ما ورد في موضوع معين من الأمثال ، دون أن يضطر إلى قراءة ما لا ضرورة إلى قراءته[1] . لكنه لم ينجز وعده حتى اليوم ، وقد مضى عليه عشر سنوات .

وثاني هذه المجموعات ما دعي بـ « الأمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب » لعبد الكريم الجهيمان . وقد ضم كتابه ثلاثة آلاف مَثَل عامي نجدي . وفي مقدمة الجزء الأول أعرب الجهيمان عن الدوافع التي دعته إلى جمعها فقال: « وقد سبقني إلى التأليف في الأمثال الشعبية الأستاذ محمد العبودي الذي ألف كتاب الأمثال العامية في نجد . . . وفيه كثير من الجمل التي اعتبرها الأستاذ أمثالاً مع أنها لا ترقى إلى مستوى الأمثال — في نظري على الأقل — كذلك وجدتُ أنه يعتمد في شواهد الأشعار والقصص على ما دُوّن في كتب الأمثال القديمة والتأريخ من شعر ونثر ، وهذا قد لا يهم القارئ كثيراً ، بقدر ما يهمه الاطلاع على ألوان من الأفكار الشعبية سواء منها ما كان مسجلاً في شعر ، أو مسجلاً في نثر »[2] .

لم يبين محمد العبودي المصادر التي اعتمد عليها في جمع أمثاله كما بيّن الجهيمان . فقد ذكر هذا أنه للمها من أفواه الناس ، والقصص ، والأمثال ، والأشعار النبطية المطبوعة[3] . وقد ذكر لي الجهيمان أنه كان يدفع الجزء الأول من كتابه « الأساطير الشعبية »[4] لمن يأتيه بمثلين عاميّين . وقد ورد عليه بهذه الوسيلة الشيء الكثير[5] .

---

١ الأمثال العامية في نجد : ص ١٧ .

٢ الأمثال الشعبية ١/٩ .

٣ الأمثال العامية في نجد ١/١٠ .

٤ سيرد الحديث عن هذا الكتاب بعد قليل .

٥ حدثني بهذا في بيروت — صيف عام ١٩٦٨ م — وأذن برواية الفكرة على لسانه .

أما غاية هذا الجمع فقد اتفق العبودي والجهيمان على أن الأمثال صوت الشعب ، وأقوى دليل على عقليته ، وطريقة معيشته ، ومراتب تفكيره . كما أنها جزء من الأدب الشعبي تهم الباحث الاجتماعي لأنه يعرف منها رأي الشعب في المسائل الاجتماعية ، والعلاقات الشخصية ، كما يمكنه أن يخرج من دراسته لها برأي صحيح عن الروابط التي تربط بين الناس ، وعن الحقوق والواجبات التي يلتزم بها المجتمع تُجاه الفرد ، والفرد تُجاه المجتمع . وهي مهمة للباحث اللغوي . ففيها يجد البلاغة الشعبية ، وطريقة تركيب الجمل ، ونموذجاً حياً من كلام الناس . وهي مهمة للمؤرخ إذ يجد فيها أساساً صالحاً لرأي يُبنى على وجود مَثَل مشترك بين شعوب مختلفة ، أو مَثَل حديث انحدر من مجتمع قديم ، فيدل وجوده على وجود صلة تاريخية بين أقوام تنعدم الشواهد الأخرى على وجود مثل تلك الصلة بينهم [1] .

منهج الجمع عند العبودي كمنهج الجهيمان . كلاهما اعتمد على الترتيب الألفبائي الذي تسير عليه المعاجم الحديثة . لكن الأول أدق ترتيباً من أخيه . حرص العبودي على مراعاة الحرف الثاني ثم الثالث ثم الرابع في الكلمة عند ترتيب الأمثال . مثال ذلك ما ورد في حرف الألف : « ابن آدم كل يوم يطلع له قلب . ابن آدم ما فيه طرف . ابن بيتك واسترزق الله . ابن الحلال عند طَرْياه . أبين من الصبح . الاثنين تفرق بينهم الشجرة . الأجل حصن حصين . أحر من الجمر . أحييني اليوم وموتني باكر . . . الخ . »

ولم يكن للجهيمان هذا الحظ من الترتيب الدقيق . ونأخذ مجموعة من الأمثال وردت في حرف الألف ذاته ، فنجدها على الشكل التالي : « أبعد عن العيب ذراع ونم . ابرة في تبن . أبعد عليك من السما . أبرد من الثلج . أبو

---

١ العبودي ص ٦ – ٧ ؛ والجهيمان ص ١٢ .

قرص مات ماكله . ابن الوزّ عوّام . أبلد من حمار . أبيك منيحة ما هو ذبيحة . أبعد القوم عن ريح البل . ابذر الحب وارج الربّ . ابخل من ضوّ الشتا . ابد بزيد قبل يبدا بك . . . الخ » . نلاحظ أن المثل الأول عند الجهيمان ابتدأ بكلمة « أبعد » والثاني بكلمة « ابرة » والثالث بـ « أبعد » والرابع بـ « أبرد » . في هذه الأربعة فقط كان الحرف الثالث في المثل الأول عيناً وفي الثاني راء ، وعاد في الثالث عيناً ، وفي الرابع راء . ولذلك فإنه يصعب العثور على مثل إذا ما فتش عنه تفتيشاً معجمياً دقيقاً [1] .

الفارق الثاني بين منهج العبودي والجهيمان أن الأول حرص على ضبط الأمثال ضبطاً يكاد يكون كاملاً ، وأهمله الثاني إهمالاً تاماً . وبدهي أن ابن غير الجزيرة العربية لا يستطيع النطق بهذه الأمثال على وجهها الصحيح إذا لم تكن مشكولة مضبوطة .

الفرق الثالث الجوهري بين الرجلين أن العبودي التزم مقارنة أكثر الأمثال العامية بما ورد عند العرب الفصحاء ، وفي مجامعهم ، وقد اضطر أن يعود إلى مائة وثمانية مصادر قديمة ، ذكرها في هوامشه . ومن هذه المصادر كان يأخذ المثل المشابه الفصيح ، أو البيت الشعري المتفق في معناه مع مثله ، أو الخبر الموافق للغرض ذاته . أما الجهيمان فقد سلك منهجاً آخر . ذلك أنه جهد أن يشرح بأسلوبه كل أمثاله دون أن يعتمد – في الغالب – على ما ورد في نظيره عند الأقدمين ، ولم يعبأ بمقارنته بأشباهه في اللغة الفصيحة ، بل عكف على تتبع ما قاله الشعراء الشعبيون في قلب الجزيرة بهذا الصدد . واستعراضُ شرحِ مَثَلٍ واحد عند كل من الرجلين يوضحُ طريقةَ كلّ منهما .

---

١ واجهت المؤلف بهذه الحقيقة ، فوعد أن يتدارك هذا النقص في الطبعة الثانية . (من حديث معه في بيروت – صيف ١٩٦٩ م) .

قال العبودي في شرح المثل « مثل الإبرة تكسي الناس وهي عريانة »[1] : « ظاهر ، وهو مثل قديم ذكره الثعالبي من وصية خياط لابنه قال : يا بني ، لا تكن كالإبرة تكسو الناس وأنت عُريان[2] . وذكره من المتأخرين الأبشيهي والعاملي في أمثال المولّدين بلفظ « كالإبرة تكسو الناس وهي عُريانة »[3] . أما الميداني فقد ذكره للمولدين كذلك بلفظ « كالإبرة تكسو الناس واستها عارية »[4] وأصله العربي جاء في أبيات لأحد شعراء الحماسة :

وأبْلِــغ سلامان إنْ جئتَها فلا يكُ شِبهاً لها المِغْزَلُ
يُكسِّي الأنام ، ويُعْري استه وينسلُ من خلفِه الأسفَلُ[5]

وقال الجهيمان في شرح المثل ذاته : « الإبرة هي التي يخاط بها للناس ما يكتسون به . وهي عادةً لا تلبس شيئاً . فيضرب بها المثل في الإيثار ، أو في البخل والتقتير على النفس . ومن أمثال العرب في هذا المعنى « كالإبرة تكسو الناس واستها عارية » . قال الشاعر الشعبي محمد العبد الله القاضي :

ترى اللئيم إن لان له منك جانب توطاك ويوري أنه يخلف ويخاف
والمعوشزة لو هي على النيل ما أثمرت بورد ويقوى الشوك والغصن غرياف
وكمن بخيل فرش النــاس ماله وهو منه محروم على نفسه اتــلاف

١ رقم المثل عند العبودي ٧٩١ . ورد في الصفحة ٣٠٠ .
٢ أعاد العبودي قارءه إلى كتاب « خاص الخاص » ص ٦٥ .
٣ أعاد قارءه إلى « المستطرف » ج ١ ص ٣٠ و « الكشكول » ص ١٥٩ .
٤ أعاد قارءه إلى « مجمع الأمثال » ج ٢ ص ١٢٠ .
٥ أعاد قارءه إلى « شرح الحماسة للمرزوقي » ص ١٤٧١ . وذكر أن « سلامان » قبيلة ، وينسل الخ قال المرزوقي : أي ينسل أسفله . كما وردت الأبيات في ديوان الحماسة طبعة المكتبة الأزهرية ٢/٢٠١ .

مثل إبرة عريـــانة دب دهرهــــا وهي تكسي المخلوق من قمش الأصناف
والمال لـــه حق حـــلاته مع الفتى يضر به المجرم وينفع به الصافي [1]

ويبدو لي أن كلاً من الطريقتين لها محاسنها ، ولها نواقصها ، ولو جمعت كلتاهما في شرح المثل نفسه لكان خيراً مما فعل العبودي والجهيمان .

الفرق الرابع بين أمثال الرجلين أن الأولى – عند العبودي – منتقاة مصفاة ، والثانية – عند الجهيمان – تجمع ما يتداوله الناس بما فيها البذيء وذو اللفظ المكشوف . ويظهر أن منهج الجهيمان يعرض الأمثال الشعبية على حقيقتها ، ويكشف للدارسين كافة جوانب الحياة من خلالها .

ولعبد الكريم الجهيمان تأليف آخر ، موضوعه « الأساطير الشعبية في قلب الجزيرة العربية » . وقد ذكر في مقدمة الجزء الأول أنه « لم يكن عند آبائنا وأجدادنا صحف ومجلات ، ولا راديو ولا إذاعات ، وليس لديهم سينما . ولا منتديات . . . وكانوا يقضون أوقات فراغهم في الليل في سرد الحكايات والأساطير ، يصوغون فيها أحلامهم وأمانيهم ، ويحلقون بها في أجواء السماء ، وينطلقون بها إلى شتى أقطار الأرض . وكان لتلك الأساطير والقصص مقام كبير لديهم ، كما أن لها أهدافاً كثيرة . منها ملء الفراغ ومنها التسلية ، ومنها إطلاق العنان للأماني والرغبات والأحلام ، ومنها علاج المشكلات الاجتماعية بطريق التلويح ، أو بطريق محاورة بين جماد وحيوان أو بين جماد وجماد . . . الخ » [2] كما يذكر المؤلف « أن هذه الأساطير صيغت كما سُمعت لم يُزد فيها ولم يُنقص منها . وكل ما فعله أنه كتبها بأسلوب عربي ليفهمها القارئ العربي في كل قطر من أقطار العروبة ،

---

١ رقم المثل عند الجهيمان ٢١٣١ . ورد في الجزء ٣ ص ٧٠ .
٢ الأساطير الشعبية : ص ١١ – ١٢ (بتصرف يسير) .

ما عدا بعض الأناشيد أو الحكم المسجوعة ، فقد أبقاها كما هي »[١] .

قسم المؤلف أساطير قلب الجزيرة إلى قسمين : « سَبْحُونَة » و« سالفة ». أما السّبْحونة فهي مشتقة من مطلع الأسطورة ومبتداها الذي يكون غالباً بذكر الله وتمجيده وتسبيحه . ومن هذه الفاتحة اشتقت التسمية[٢] .

السبحونات في الجزء الأول ست[٣] . والسالفات إحدى وعشرون . وقد لاحظنا أن في كل من النوعين بداية واحدة هي « هنا هاك الواحد ، والواحد الله في سماه العالي » ونهاية واحدة هي « وكملت وحملت وفي أصيبع الصغير دملت » . كما لاحظنا أن « الجدة العجوز » تَرْوي السبحونة والسالفة ، وأن الأطفال دائماً هم المستمعون . وعند كل مساء يطلبون منها أن « تُسَبْحِنَ » عليهم بسبحونة أو « تُسَبْحِن » عليهم بسالفة .

وعلى الرغم من أن المؤلف عرّف السبحونة وفصلها عن السالفة حين أكد أن السالفة حادثة ماضية سلفت وانتهت ، فقد غابت المعالم الفاصلة بين النوع الأول والثاني . ويعسر على القارئ التمييز بينهما ، سواء من حيث البداية والنهاية ، أو من حيث الموضوع . فالسالفة — كما عنونها — لا تقتصر في جميع ما سرد على الحوادث التي سلفت وانتهت ، بل قد تعالج موضوع حيوانين كالغراب وأبي الحصين[٤] ، وقد تدور السبحونة كذلك حول حوادث حيوانين كالبَعْروض والقملة[٥] . ويمكن أن تقص السبحونة قصة إنسان سرق

---

١ الأساطير الشعبية : ص ١٢ .

٢ الأساطير الشعبية : ص ١٣

٣ الأساطير الشعبية : ص ١٧ ، ٣١ ، ٥٧ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٣٥١ .

٤ الأساطير : ص ١/١٠٣ .

٥ الأساطير : ١/٦٩ و « البعروض » يقصد به « البعوض » .

نعامة السلطان[1] ، وكذلك تقص السالفة قصة ولد الغني الذي افتقر[2] . لهذا السبب فإنا نرى أن المؤلف لم يستطع إظهار السمات لكلّ من النوعين ، بل لعل معناهما واحد في الواقع .

قال المؤلف في مقدمة كتابه : « وهذه هي المجموعة الأولى من هذه الأساطير الشعبية ، صنفتها بحسب ما سمعتها لم أزد فيها ولم أنقص منها »[3] . ويظهر لنا أنه لم يلتزم هذا القول كل الالتزام . فهناك تعليقات كثيرة ، وشروح لأسماء ومقارنات بين حوادث ، وتفسير لمواقف ، وأمثال ، وحكم مرصوصة هي أكثر من أن تتجمع في أسطورة شعبية ، وتمتلئ بها سبحونة أو سالفة تحكى لأطفال . ففي السالفة السابعة المعنونة بـ« الغراب وأبو الحصين » وردت الأمثال العامية كقوله « امدحني وامدحك وشد لي واقطع لك »[4] كما ورد شرح هذا المثل حين قال : الأمر لا يعدو أن يكون تبادل منافع لا أكثر ولا أقل . وإلاّ فلو حاسب كل منهما (يعني الغراب وأبا الحصين) نفسَه عمّا يقول لتوقفا عن كثير من الثناء والمدح الذي وجّهه كل واحد منهما لصاحبه ، ولكنها المجاملات ، ولكنه حب الذات . . . »[5] ومرت كلمة « السَّلَم » فشرحها في الأسطورة ذاتها إذ قال « وهو شجر صحراوي كثير الشوك ، متشابك الأغصان ، كثير الأذى ، وقليل النفع »[6] كما شرح معنى « الرغيد » بقوله : « وهو طعام رخو لا تستطيع الكف أن تمسكه ، وإنما يؤكل لحساً

---

١ الأساطير : ١/٧٣ .
٢ الأساطير : ١/٣١٩ .
٣ الأساطير : ١/١٢ .
٤ العبودي ، الأمثال العامية ص ١٣٢ المثل رقم ٣٥٩ ؛ الجهيمان ٢/٤٥ .
٥ الأساطير ١/١٠٤ .
٦ الأساطير : ١/١٠٥ .

باللسان ، أو رشفاً من الإناء ، أو غرفاً بالمغرفة »[1] . وكان لتعريف « الخبر » في « علم المعاني » في البلاغة نصيب في الأسطورة . قالت الجدة : « سمع أبو الحصين هذا الكلام بحذر شديد لأنه يعرف أن مثل هذا « الخبر » يحتمل الصدق ويحتمل الكذب . وهو لا يستطيع أن يرجح جانباً على جانب إلاّ بقرائن وشهادات ترجح كفة على كفة »[2] . ومثل هذه التعليقات الكثيرة المتراصة في قلب الأسطورة دفعتنا إلى الظن بأنه لم يلتزم رواية الأساطير ، على ما فيها ، بأمانة ودقة . وأنه أضاف إليها أشياء كثيرة . وليس يعنينا الحكم على ما فعل بالتخطئة أو بالتصويب بقدر ما يهمنا أن نبدي اجتهاداً في قيمة هذه الأساطير ، ودقة نقلها . فقيمتها كقيمة الأمثال الشعبية ، لا جدال في تقديرها وأهميتها . وقد يكون من نافلة القول أن نبين ما تناله من عناية في الدول الراقية وعلى يد العلماء والدارسين .

* * *

يمكننا أن نضيف إلى هذه الزمرة كتاباً آخر ألفه فهد المارك[3] باسم « من

---

١ الأساطير : ١/١٠٧ .

٢ الأساطير : ١/١١٧ – ١١٨ .

٣ ولد في حائل سنة ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م . وتنقل بين حائل ، والمدينة ، وجدة ، ومصر ، والسودان ، وسورية ، في مطلع شبابه . تلقى دراسته الأولى في الإسكندرية ثم عاد إلى الرياض فدرس على الشيخ محمد بن إبراهيم – مفتي السعودية رحمه الله – ثم التحق بدار التوحيد حين افتتحت سنة ١٣٦٤ هـ/١٩٤٤ م . ونال شهادتها . التحق سنة ١٣٦٨ هـ/١٩٤٨ م بحرب فلسطين وشارك في الجهاد . ثم وظف في وزارة الخارجية السعودية . وهو الآن برتبة مستشار في السفارة السعودية بأنقرة في تركية – . من آثاره : « من شيم العرب » ٤ أجزاء ، و « هكذا يكون الإصلاح » و « هكذا نصلح أوضاعنا الاجتماعية » و « بين الإفساد والإصلاح » و « كيف ننتصر على إسرائيل » و « لمحات عن التطور الفكري في جزيرة العرب » و « سجل الشرف » عن شهداء فلسطين ، و « افتراها الصهاينة وصدقها مغفلو العرب » و « الهدامون والبناؤون » . ومن كتبه التي هي قيد الطبع « كيف هزمنا » و « تاريخ الجزيرة في أدبها الشعبي » و « من الطفولة إلى الكهولة » .

شيم العرب » في أربعة أجزاء ضمت مائة وستاً وخمسين قصة ، واستغرقت ألفاً وثلاثمائة وأربعين صفحة .

قد يخيل للقارئ بوحي من عنوان الكتاب أن ما فيه ترداد لما جاء به المترجمون والمؤرخون والمؤلفون على اختلاف اتجاهاتهم من ذكر فضائل السلف وتمجيد بطولاتهم ، وتقديس أعمالهم ، وما أشبه ذلك . ولكنه يفاجأ بغير ما تخيل حين يقرأ هذه المجلدات الأربعة . فلا يرى فيها إلاّ صورة من حوادث ما يزال أبطالها على قيد الحياة ، أو لاقوا وجه ربهم من زمن لم يبعد عهده .

ويؤكد فهد المارك في مقدمة طبعتي الجزء الأول ومقدمة الجزء الثاني أن جميع القصص الواردة في مؤلفه ثابتة ، لا جدال في صحتها ، وأنه لم يزد على واقعها شيئاً . وهو يلح في جميع قصصه على نقطة واحدة : « إنه قل أن يجد المرء أمة في الدنيا توافر لديها من الرصيد الخلقي ما توافر لناطقي الضاد » .

ويبدو لنا أن الحافز إلى تأليف هذا الكتاب وطني . ذلك أن « فهداً » طاف بكثير من الأقطار العربية بحكم عمله في السلك الديبلوماسي ، فألفى معاول الهدم تتصدى للشباب العرب ، وتحاول أن تسحقهم وتقوض كل معالم عزتهم . وهذه المعاول يمسك بها أعداء الأمة العربية من مستعمرين وصهيونيين ، كما يمسك بها نفر كبير من أبناء العروبة أذابَتْهُم الحضارة الغربية ، وأعمت بصائرهم الدعوات الهدامة . فما عادوا يجدون في أمتهم العربية حسنةً يُرفع بها رأس ، أو فضيلة يشمخ بها أنف . فراحوا ينظرون إلى كل ما يصدر عن المنتصرين بعين ملؤها الإعجاب والتقدير ، ويرمون بلادهم بالتشنيع والتحقير . ومن هذا المنطلق اندفع يجمع القصص العربية من الجزيرة العربية أولاً ، ثم من الأقطار الأخرى ثانياً ، تصور الوفاء والعفو ، والأمانة ، والعفة [1] ، وحماية

١ هذه العناوين ضمها الجزء الأول .

المستجير ، والجار ، والصبر على المكاره ، واصطناع المعروف ، والمكافأة عليه ، وبر الوالدين ، وفطنة المرأة العربية ، وأعمال البر والسخاء[1] ، والشجاعة الحربية والأدبية ، والفكرية ، والجسدية[2] ، وإكرام رفيق السفر ، والذود عنه ، والنخوة العربية ، والمروءة ، والفراسة[3] .

اتبع المؤلف في قصصه خطة تكاد تكون ثابتة . فهو يضع عنواناً لقصته ، وغالباً ما يكون جملة ملخصة للموضوع الذي سيتحدث عنه كقوله : « افتدى قومه بنفسه »[4] . « فارس البيان يهزم فارس السنان »[5] . « إن من يفي مع من لا يرجى حريّ به أن يفي مع من يرجى »[6] . « بطل القسطنطينية الذي أهمله التاريخ »[7] . وهكذا . ثم يبدأ بتمهيد إنشائي في الفكرة التي ذكرها في العنوان . وقد يستغرق هذا التمهيد صفحة كاملة أو أكثر . وبعد أن يتأكد من أنه هيأ للقصة البيئة الملائمة ، وأوضح مسرحها المكاني والزماني ، حينئذ يضرب المثل على صحة مقدمته فيورد القصة . وتختلف القصص في طولها . فمنها ما استغرق ثلاثين صفحة ، ومنها ما لم يتجاوز خمس صفحات فقط . وهو في الجميع يحرص على عدد من النقاط في كل واحدة . ذكر المكان الذي جرت فيه الحادثة ، وأسماء الأشخاص الذين اشتركوا فيها ، ونسبتهم إلى قبائلهم ، وإيراد الكلام ذاته الذي تحدثوا به ، ولا سيما الأشعار . ولا بد من أن نذكر

---

١ هذه العناوين ضمها الجزء الثاني .

٢ موضوعات الجزء الثالث .

٣ موضوعات الجزء الرابع .

٤ من شيم العرب : ٣/٢١٤.

٥ من شيم العرب : ٣/٢٣٤ .

٦ من شيم العرب : ٣/٢٤٨ .

٧ من شيم العرب : ٣/٣٣٠ .

هنا ملاحظة صغيرة هي أن المؤلف ولوع بالشعر النبطي . فهو يورد ما قاله أبطال الحادثة ، أو يأتي بشعر يناسب المقام . وكل شعر نبطي ورد في هذا الكتاب ضُبط ضبطاً كاملاً وشُرحت ألفاظه ومعانيه ، وأشير إلى موطن الشاهد فيه ، إيماناً من المؤلف بأن الشباب في السعودية اليوم قد لا يعرفون معاني الشعر النبطي بحكم شيوع الثقافة العربية باللغة الفصحى . وإذا عرفوها فقد لا يتذوقونها . كذلك يعتقد أن كتابه هذا لم يكتب لأبناء الجزيرة العربية فقط ، وإنما كتب للشباب العربي في جميع الأقطار . وحقهم أن يفهموا معنى ما يقرؤون .

أما الأسلوب فيمكن أن يوصف بالأسلوب الصحفي الذي غلبت عليه السهولة ، وسادت فيه الليونة ، والنظرة السطحية ، والسرعة التي لا تدع مجالاً للنظر ثانية فيما يكتب . ولهذا فإن عدداً من الأخطاء وخاصة النحوية بدت في الكتاب ، وهي على قلتها تلفت نظر القارئ المدقق .

الخلاصة : إن الاتجاه إلى تأليف « المجموعات الشعبية » من أمثال ، وأساطير وأقاصيص يزداد في المملكة العربية السعودية اليوم . وهو بلا شك يمثل مرحلة من مراحل النمو والتكامل . ولئن اقتصرت حتى اليوم على الجمع والتأليف إن المرحلة القادمة قد تكون عكوفاً عليها دراسة وتحليلاً لأن ذلك قانون الحياة ، وناموس الكون .

* * *

وبعد ، فإن حركة التأليف تنمو وتزداد يوماً بعد يوم . وما عرضنا إلا عدداً قليلاً من الدراسات والأبحاث والتحقيقات الصادرة المطبوعة . ولقد أهملنا – عامدين – فيضاً من المؤلفات ، مرّ ذكرها في ثنايا الفصول السابقة . كما أهملنا كثيراً من كتب الأدب سلكت مسلك القدمــاء ، ومفهومهم عنه . وهو « الأخذ من كل علم بطرف » . هدفنا في هذا الاقتصار على التأليف

المنهجي أو المبتكر . وتسليط شيء من الضوء عليه لنقدم فكرة لغير أبناء المملكة السعودية عمّا يتم في هذا البلد من دراسات جادة ، وما ينهض فيه من أبحاث علمية ، وما يتم على أرضه من تحقيقات منهجية ، بل عمّا يضيفه أبناء المملكة إلى لغة الضاد ، وما يقدمونه إلى الأدب العربي من خدمات إلى جانب إخوانهم في الأقطار الأخرى .

الفصل الثاني

التأليف التأريخي ـ الأدبي

إن نظرتنا إلى المدونات التأريخية تقتصر على الكتب المطبوعة طبعة كاملة ، ولا تتعرض من قريب أو بعيد إلى المخطوطات التي حجبها أصحابها عن العيون ووضعوا دونها الحجب والستائر – رغم ثقتنا بأن هناك وثائق ، ومذكرات شخصية خاصة ، ما تزال بحوزة أصحابها ، أو أبنائهم ، وأنها لم تعرف النور بعد – . وما نشك أن الاطلاع على مواد جديدة أخرى قد تبدل أحكامنا ، ولكنها – في غالب الظن – قد لا تغيّر جوهر الصورة التي نقدمها .

الاتجاهات الأساسية للمؤلفات التأريخية في البلاد العربية السعودية تتوزع في فروع ثلاثة . أولها : تواريخ عامة . وثانيها : تواريخ محلية . وآخرها تراجم وسير . أما اللون المتمثل بالمذكرات الشخصية فلم تقع أيدينا على شيء منه بعد .

أ – **الاتجاه الأول : وهو الذي يعنى بالتأريخ العام** . نجده ممثلاً في « تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المُرضية » لأحمد بن زيني دَحْلان . هذا المؤلف صورة عن نظائره في القديم ، إلاّ أنه يتميز من « الأخبار الطوال » للدّينَوَريّ ، و « تاريخ اليعقوبي » ، و « أخبار الرسل والملوك » لابن جرير الطبري و « مروج الذهب » للمسعودي . إن دحلان لم يلتزم ما التزموه من البدء بتأريخ نشوء العالم ، وبالحديث عن قصة الخليقة ، وأخبار الأنبياء والملوك الذين جاءوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم . بل ابتدأ مباشرة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه الراشدين ، إلى عصر عبد الله بن الزبير . وقد

قسم دحلان كتابه إلى عشرة أبواب . كان الأول ما ذكرناه ، ثم تحدث عن دولة بني مروان ، ثم عن بني العباس ، وظل يتدرج إلى أن تحدث عن أشراف مكة في العصر الحديث .

لقد أدرجنا « تاريخ الدول الإسلامية » في زمرة التواريخ العامة ، رغم الفروق التي تميزه من أشباهه ، ورغم اقتصاره على تأريخ الحوادث السياسية في البلاد التي ارتفع فيها العَلم الإسلامي ، لأن الأبعاد الجغرافية فيه شملت ثلاث قارات ، والأبعاد الزمنية التاريخية التي تحدث عنها المؤلف امتدت على خمسة عشر قرناً تقريباً .

أما منهج البحث عند دحلان فقد كان جديداً . ويبدو أن الأسلوب التعليمي هو الذي دفع إليه . كان المؤلف يضع عنوان بحثه ، ويتحدث بأسطر قليلة ، ثم يرسم دوائر ، ومربعات ، ومستطيلات ، ويخطط جداول ، ويضع فيها أسماء الحكام وسنيّ مواليدهم ، ووفياتهم ، ومُدَد حكمهم . ومن هذه الأشكال الهندسية تتفرع خطوط مستقيمة أو متعرجة لتنهي إلى دوائر جديدة ، فيها أسماء الحكام اللاحقين ، أو الأبناء والأحفاد، أو فيها ألوان الميتات التي انتهى إليها كل من المتحدَّث عنهم .

وفي ترتيب الوقائع اعتمد دحلان على الترتيب الحَولي . فقد كان يذكر أهم الأحداث التي جرت في سنة من السنين . ويكفي للانتقال من سنة إلى أخرى أن يقول : « وفي السنة التالية » ، أو « في سنة كذا » . ثم يتابع رواية الخبر . مثال ذلك : « وفي سنة ست وتسعين (ومائتين بعد الألف) حصلت في زمنه (والضمير يعود على الخديوي توفيق) فتنة أحمد عرابي ، لأنه اتفق مع كثير من رؤساء العساكر على عزل رياض باشا من رئاسة الوزارة . وكان ذلك في النصف من شوال سنة تسع وتسعين ، ولم يزل الأمر في اتساع إلى

ابتداء جمادى الثانية من سنة « تسع وتسعين »[1] . فحضر في مينا الاسكندرية كثير من الوابورات الحربية التي للانكليز والفرنسيس ، والوابورات لغيرهم أيضاً لإعانة توفيق باشا . ومنع عرابي باشا ومن معه من التغلب ومن التجهيزات التي شرع فيها . وبقي الأمر كذلك حتى [انتشب][2] الحرب بين عرابي ، وعساكر الإنكليز ، وانتهت بدخول أولئك العساكر مصر ، وعوقب عرابي ، وبعض من معه بعقوبات مختلفة الأنواع »[3] .

يعترف دحلان باعتماده على كتب المؤرخين الذين سبقوه في الزمن ، ولكنه نادراً ما يذكر أسماءها ، وأصحابها . وهذه النقيصة تبدو صغيرة إلى جانب حوادث كثيرة ذكرها بإيجاز شديد ، وغموض بالغ ، ممّا يجعل القارئ ينتهي إلى فكرة مبهمة لا تغنيه شيئاً . من ذلك حديثه عن السلطان محمود الثاني ، إذ قال فيه : « جلس على كرسي السلطنة بعد خلع أخيه مصطفى ، وطالت مدته ، وأباد عساكر الانكشارية ، وعلّم العساكر النظام الجديد ، ولقي أموراً عظاماً في مدة سلطنته يطول ذكرها ، مبسوطة في التواريخ[4] .

بهذه العبارة يختم حوادث سنة ، وينتقل إلى حوادث أخرى . وبها — كذلك — يعتقد أنه أوفى الكلام عن سلطان بمجرد قوله « ولقي أموراً عظاماً في مدة سلطنته . . . الخ » . ورغم اتكاء دحلان واعتماده على كتب غيره ، فإنه يأبى أن يدُل قارءه على كتب التواريخ التي تحدثت عن الموضوع الذي أوجزه ، أو بتره .

---

١ يبدو أنه يقصد سنة ١٣٠٠ ه ، لأن شهر جمادى الثاني يقع السادس في السنة الجديدة .

٢ كذا .

٣ تاريخ الدول الإسلامية : ص ١٢٠ . ونشير هنا إلى أننا نقلنا النص دون تعديل رغم ركاكته .

٤ تاريخ الدول الإسلامية : ص ١٤٣ .

وصفة أخرى في هذا المؤلف أنه غير دقيق العبارة . والتعميم عنده في الأحكام يطغى على التخصيص . والصفة الواحدة يطلقها على كثير من الحكام والسلاطين . وهذا ما يجعل قارءه في حيرة ، حيث يتركه في شك ويوقعه في اضطراب ، إضافة إلى أسلوب العصر السقيم الذي دوّن به هذا التأريخ .

وإذا تجاوزنا دحلان لم نستطع العثور على مؤرخ آخر كتب في الأحداث العامة . ذلك أن باقي المؤلفين التزموا إحدى الطريقتين : الكتابة في التواريخ المحلية أو في التراجم والسير .

* * *

ب – **أما التأليف في التواريخ المحلية** فنلقاه عند كثير من النجديين ، والحجازيين ، والعسيريين ، والأحسائيين . وهو صورة منتزعة من منهج المؤرخين القدماء . فلقد كان الاهتمام بالتواريخ المحلية في كل الأزمنة تعبيراً أدبياً محبباً . وبهذه التواريخ المحلية عبّرت المجتمعات التي تكوّن العالم الإسلامي كافة عن الرباط الوثيق الذي يربط الناس بمكان مولدهم . ومع أن كثيراً من التواريخ المحلية في الإسلام نشأت من الاعتبارات الدينية والفقهية ، إلاّ أن المفاخر الإقليمية كانت وراء مباحث العلماء[1] فـ « السّلامي »[2] في خراسان كان يرى قلة التواريخ المحلية عيباً فاضحاً ، لا يقل عمّا اعتبره ابن حزم في الأندلس[3] . وقد اعتبر من البدهي ألاّ يغفل المؤرخ تاريخ بلده عندما

---

١ روزنثال فرانتز ، علم التاريخ عند المسلمين ص ٢٠٦ .

٢ عبد الله بن موسى بن الحسين بن إبراهيم السلامي ، أبو الحسن . شاعر له اشتغال بالحديث والتاريخ والأدب . من أهل بغداد . رحل إلى سمرقند وبخارى . ومات بها أو بمرو سنة ٣٧٤ هـ/٩٨٤ م . (تاريخ بغداد ١٠/١٤٨) .

٣ عن جواب ابن حزم عن الرسالة التي وجهها الحسن بن محمد بن أحمد ابن الربيع القيرواني إلى أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد ، ابن عم ابن حزم . وفيها يتشكى من قلة التواريخ عند أهل الأندلس الذين يبحثون عن إسبانيا (انظر المقري ، نفح الطيب ٢/١٠٨ ، طبع دوزي بليدن ١٨٥٥ – ٦١) .

يكتب عن تاريخ إقليم آخر [1] .

ولا بد أن نشير إلى ملاحظة أساسية قبل البدء بعرض هذا الصنف وهي أن عدداً من المؤرخين قيّد نفسه بالحديث عن جزء من أجزاء الأرض الإسلامية أو عن عهد من عهودها ، مال بشعور أو دون شعور إلى الكلام عن الأفراد الحاكمين . واختلط التاريخ المحلي بالتراجم والسير . وكأن هذا الإنسان الحاكم هو الدولة — على حد القول المشهور للويس الرابع عشر — . وبَدا الخط الفاصل بين تأريخ البلد أو المنطقة وبين ترجمة الحاكم غير بارز في الغالب [2] . وليست هذه الصفة خاصة بالمؤرخين السعوديين فحسب ، بل كان المؤرخون العرب القدماء الذين نحوا هذا المنحى في الاتجاه ذاته . ونظرة إلى الكتب التاريخية الوارد ذكرها في « الفهرست » ، وبحث « التصانيف في التاريخ » الوارد في كتاب « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ »[3] للسّخاوي تدل على صحة ذلك .

ويمكن أن نقسم التواريخ المحلية المؤلفة في السعودية إلى فئات : ما تحدث عن نجد ، أو الحجاز ، أو عسير ، أو الأحساء .

أما تواريخ نجد فكثيرة ،منها « روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام » لحسين بن غنام و « عنوان المجد في تاريخ نجد » لابن بِشْر ، و « عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر » لإبراهيم بن صالح بن عيسى النجدي و « تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد » لابن عيسى نفسه ، و « تاريخ ملوك آل سعود » للأمير سعود بن هذلول و « نبذة تاريخية عن نجد » أملاها

١ تقي الدين الفاسي ، العقد الثمين (المقدمة) .

٢ انظر مرغليوث ، دراسات عن المؤرخين العرب : ص ١٨ .

٣ روزنثال ص ٥١٨ .

لأمير ضاري بن فهيد . و« تاريخ مدينة الرياض» لحمد الجاسر ، وغيرها .

* * *

يعتبر المصدر الأول لتاريخ نجد وشرح دعوة محمد بن عبد الوهاب وما نشره من رسائل ، وآراء ، وكتب ، وما قام به حماة الدعوة من جهاد وكفاح : كتاب ابن غنام الأول الذي دعاه « روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام »[1] والثاني الذي سماه « كتاب الغزوات البيانية ، والفتوحات الربانية » وانتهى في تدوين الغزوات إلى أثناء سنة ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م .

يتميز ابن غنام بذكر مصادر أقواله ، ونسبتها إلى قائليها . وقد أكثر في الكتاب الأول من الاستشهاد بالشعر[2] ، والشواهد الدينية ولا سيما من القرآن الكريم والحديث الشريف .

* * *

وجاء بعد ابن غنام عثمان بن بِشْر (١٢١٠ – ١٢٩٠ هـ / ١٧٩٥ – ١٨٧٣ م) الذي ولد قبل وفاة ابن غنام ببضع عشرة سنة ، فبدأ بكتابة التاريخ من حيث بدأ ابن غنام – حوالي سنة ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م واستمر إلى أثناء سنة ١٢٦٨ هـ / ١٨٥٠ م ، وقد يكون سجّل حوادث زمن ما بين هذا التاريخ إلى سنة وفاته ، فلم يصل إلينا . لقد عوّل ابن بشر على ابن غنام ، ولكنه خالفه في صياغة الكلام . وحسناً فعل . فطغيان الصياغة اللفظية في أسلوب ابن غنام جعل الجزء الثاني من كتابه مملاً ، لا يهتدي الباحث المؤرخ إلى بغيته فيه إلاّ بصعوبة . فقرّبه ابن بشر بحذف السجع والكلمات الزائدة، غير أنه لم يذكر

---

١ طبع الكتاب طبعتين الأولى سنة ١٣٦٨ هـ/١٩٤٩م بمصر في جزأين . والثانية بمطبعة المدني بمصر سنة ١٣٨١ هـ/١٩٦١ م ، وأشرف عليها الدكتور ناصر الدين الأسد ، وتمتاز هذه بتحوير عبارات المؤلف المسجوعة والتصرف بها وفق الأساليب النثرية المرسلة .

٢ انظر الصفحات/ ١٩ ، ٤٦ ، ٦٠ ، ٨٦ ، ٩١ ، ١٦٢. (مطبعة البابي الحلبي ١٩٤٩) .

فضل السبق لمن أخذ منه ، ولم يشر إلى تعويله على كتابه ، بل لم يذكره بين مؤلفاته حينا ذكر وفاته . لقد سجّل ابن بشر في كتابه « عنوان المجد في تاريخ نجد » أهم الحوادث في أكثر من قرن بطريق التسلسل (من سنة ١١٥٨ إلى سنة ١٢٦٨ هـ) . وحاول أن يدوّن شيئاً من حوادث ما قبل دعوة ابن عبد الوهاب . وحين يفعل هذا كان يستخدم كلمة « سابقة » [١] .

أما تأريخ الحقبة الممتدة من هجرة « الشيخ الداعية » إلى الدرعية حتى وفاة فيصل بن تركي فكان يذكرها مرتبة بحسب السنين ، ويلحق بها بين الحين والحين « سابقة » . وامتدت تلك السوابق من منتصف القرن التاسع الهجري إلى ما بعده . ولكن ابن بشر لم يسلم من الخطإ الذي يقع فيه كثير من المؤرخين ، في إهماله ذكر المصادر التي نقل عنها — إلاّ نادراً — [٢] .

حاول ابن بشر أن يستقصي في تأريخه أهم الأحداث التي حدثت في كل سنة مذكورة ، ولم يكن يعنى بالحروب وأخبار المنازعات السياسية التي كانت تقوم في نجد وأرجاء الجزيرة فقط ، بل كان يتطرق من حقبة إلى أخرى ، إلى أحوال مصر ، أو بغداد ، أو اليمن ، أو أطراف الجزيرة ، كما كان يذكر العوامل الطبيعية ، فيتحدث عن الأمطار التي نزلت ، والأودية التي فاضت ، والأراضي التي اعشوشبت ، والأسعار التي رخصت ، والخير الذي عم . أو يذكر القحط الذي عسف ، والمجاعة التي انتشرت ، والجوع الذي ألمّ ، والمرض الذي استفحل ، والأوبئة ، والمصائب . ويعزو ذلك دائماً إلى غضب الله أو إلى رضاه . ويبدو ابن بشر دقيقاً حين كان يسرد أسماء الرجال الذين اشتركوا في معركة ، فيسمي من قتل منهم ، ومن ظل على قيد الحياة ،

---

١ حمد الجاسر ، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ٧ .
٢ عنوان المجد : ص ١٥٢ .

وكثيراً ما ينسب كلاًّ إلى قبيلته ، ويربط بينه وبين أصوله ، أو أحلافه ، ولا ينسى تعيين المنطقة التي تقيم عليها عشيرته .

وميزة أخرى لتأريخ ابن بشر تظهر في تفصيله أسماء المدن ، والقرى ، والجبال ، والأودية ، والمواطن التي جرت فيها أو قربها بعض الوقائع ، وتعيين موقعها ، ورسم الطريق التي سار عليها كل من الفريقين المتنازعين . وفي هذا التحديد الجغرافي ، والتعداد الاسمي لبعض مناطق الجزيرة ذخيرة وثروة للمهتمين بتحديد المواقع والمواطن في قلب الجزيرة .

إن ابن بشر مؤرخ سَلَفي دان بعقيدة التوحيد ، ونظر إلى الأحداث من خلالها . ولكنه في الوقت ذاته كان لبقاً ولا سيما حين كان يتحدث عن النجديين وأعدائهم . فهو يدعو النجديين – السلفيين – بكلمة « المسلمين » وفي الوقت ذاته ما كان يدعو أعداءهم بنقيضها كـ « الكافرين » أو غيرها ، بل كان ينسبهم إلى بلدانهم ، أو إلى صفاتهم أو إلى قبائلهم . فيقول « وحمل الترك »[1] و « انهزم الأعراب »[2] ، و « أقبلت العساكر المصرية »[3] . والطريف أنه كان يدعو « للمسلمين » ، ولأئمتهم ، ولمشايخهم ، كلما ذكر وفاة أحدهم ، ولا يفعل العكس مع أعدائهم .

ويستطيع المهتم بدراسة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في نجد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين أن يقع على رصيد كبير من بغيته في تأريخ ابن بشر . فقد تحدث كثيراً عن هذه القضايا ، وكان منها وصفه الدقيق للموازين ، والمكاييل ، والعملات المتداولة ، وقيمة كل منها . ولقد صور نجداً في أيام محمد بن سعود وأبنائه وأحفاده متمتعاً بأمن قلّ نظيره .

---

١ عنوان المجد : ص ١٥٢ .

٢ عنوان المجد : ص ١٥٢ .

٣ عنوان المجد : ص ١٥٤ .

فالمواشي التي ترعى ، والإبل التي تسرح ، والخيل التي تروح وتغدو لا تحتاج إلى من يحرسها ، والمسافرون – ولا سيما الحجاج – يمرون عبر نجد آمنين مطمئنين لا يخافون سالباً أو قاطع طريق ، أو متعرضاً لهم بسؤال .

وقد يؤخذ على ابن بشر أنه قليلاً ما كان يناقش أخباره ، ويمحص صحتها ، وإذا عرض ذلك جاء موجزاً سريع المناقشة ، كموقفه من قاتل « عبد العزيز بن محمد بن سعود » فقد روى الخبر ، واستنكر أن يكون كما وصفته الأخبار شيعياً من أهل الرفض . واحتج لرأيه بأن القاتل كردي ، والأكراد ليس في قلوبهم غلّ على المسلمين ، وليسوا بأهل رفض [1] .

* * *

وإذا انتقلنا إلى ابن عيسى صاحب كتاب « عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر » وجدنا صورة تكاد تكون طبق الأصل عن ابن بشر منهجاً ، وطريقة ، وانحيازاً ، ووصفاً ، وتفصيلاً ، ولغة . ولا غرابة في ذلك فهو يعترف أنه يتمم تأريخ ابن بشر ، ويبدأ من حيث انتهى . كانت السنة التي وقف عندها ابن بشر هي ١٢٦٨ هـ . وبهذه ابتدأ ابن عيسى وكتب تأريخه إلى سنة ١٣٤٠ هـ / ١٩٢١ م .

الغريب أن هذا المؤرخ وقف فجأة عند سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٢ م وقفز إلى سنتي ١٣٣٩ – ١٣٤٠ هـ ليذكر حادثتين سياسيتين عن حصار عبد العزيز مدينة « حائل » وانقراض إمارة آل رشيد في السنة الأربعين . علماً بأن غزوات كثيرة مظفرة نهض بها عبد العزيز آل سعود ، وأن وباء انتشر في نجد سنة ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م وأفنى خلقاً كثيراً [2] . وتلك أمور لا يهملها المؤرخون .

---

١ عنوان المجد ص : ١٢٠ .
٢ الجاسر ، المقدمة : ص ١٠ .

ويبدو من خلال المناقشات التي دارت بين المثقفين أن هذا الجزء مفقود ، ولعله مخطوط ، وفي حوزة بعض الناس في « عنيزة » ولم يظهروه إلى عالم النور بعد[١] .

وقع ابن عيسى فيما وقع فيه ابن بشر مع ابن غنام . إذ لم يذكر أن من جملة مصادره التي رجع إليها تأريخ ابن بشر ، وتأريخ محمد الفاخري ١١٨٦ – ١٢٧٧ هـ / ١٧٧٢ – ١٨٦٠ م) الذي استفاد منه .– بل نقله جله – ولم يورد ذكره إلاّ عرضاً في حوادث ١٢٣٣ هـ[٢] / ١٨١٧ م .

أما « تاريخ ملوك آل سعود » للأمير سعود بن هـُذلول[٣] ، فيمكن أن يكون مصدراً موثوقاً إلى حد بعيد ، بأنساب الرجال ، وبتعيين المناطق التي جرت عليها بعض الوقائع بين الأسرة السعودية وخصومها ، وخاصة بين عبد العزيز بن عبد الرحمن وأعدائه ، ويعود مصدرَ الثقة إلى أن المؤرخ أمير من الأسرة السعودية استطاع بقرابته واتصاله بالمصادر الأساسية المكونة لتاريخه أن يسجل الأخبار من منابعها لا من أفواه المخبرين ، كما يفعل بعض المؤرخين. ومع ذلك فيبقى هذا المؤلف منحازاً إلى جهة دون أخرى ، وتظل نظرته إلى الحوادث من خلال منظار القربى أو العداوة ، وللعاطفة عنده مقام كبير . وقد يحاول في عدد من الوقائع أن يكون حيادياً ، فيصور الحوادث باختصار ،

---

١ مقدمة ابن عيسى ، تعليق عبد الله البسام (أحد قضاة مكة) ص ٢٣ ؛ جريدة البلاد – ١٠/ ٧ سنة ١٣٨٠ هـ .

٢ تاريخ بعض الحوادث ص ١٤٦ .

٣ آل هذلول ومنهم سعود بن هذلول من ذرية ثنيان بن سعود أخي محمد بن سعود وسموا بآل هذلول نسبة إلى والد الأمير سعود واسمه هذلول بن ناصر بن فيصل بن ناصر بن عبد الله ابن ثنيان بن سعود (عبد الرحمن آل الشيخ ، نسب آل سعود ٣١) .

دون أن يعلق عليها[1] ، ودون أن يدل على مصادره التي استقى منها .

* * *

وإذا تجاوزنا الكتب التأريخية التي اهتمت بتاريخ نجد عامة ، والأسرة السعودية ، وجدنا لوناً آخر من التأريخ بدأ يظهر حديثاً ، لا يهتم بذكر الوقائع والحروب ، وأخبار المجاعات ، وسنوات القحط ، بقدر ما يركز جهده على تأريخ مدن معينة من وجهة نظر علمية بحتة . والمؤرخون القدماء صبوا اهتمامهم على تأريخ المدن الإسلامية ، بوجه خاص . وقد عدّد لنا ابن النديم في فهرسته ما يزيد على أربعين مؤلفاً . فيها ما أرخ لأصفهان ، أو للبصرة ، أو بغداد ، أو الحيرة ، أو السّواد ، أو الكوفة ، أو المدينة ، أو مكة ، أو مصر ، أو واسط ، أو اليمن . كما ذكر السخاوي في « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » ما يقرب من ثلاثمائة مؤلف خاص بالبلدان ومواقعها ، ورحابها ، وطبقاتها ، وخططها ، مرتبة ترتيباً معجمياً . ومن تصفح ما ذكره ابن النديم ، والذهبي ، والسخاوي ، لم يعثر على مؤلف واحد تحدث عن بلدان أواسط الجزيرة العربية ، ولا سيما الرياض وما جاورها اللهم إلاّ نتفاً صغيرة وردت في معجم البلدان لياقوت ، تفسر مواقع بعض الأسماء ، وتحدد مناطقها أما الدراسة الشاملة المستقصية فلم يكن شيء منها .

ويعتبر كتاب حمد الجاسر المسمى « مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ »

---

١ ذكر في الصفحة ٣٤ ما جرى للرياض حين دخلها سعود سنة ١٢٨٨ هـ فقال « فلما علم عبد الله بمقتل رجاله – في الجزعة – وأخذ الأموال التي معهم ، هرب من الرياض ، وتركها للفوضى . وقصد قحطان فدخل سعود الرياض دون مقاومة واستولى عليها . ونهبت جنوده الرياض ، وعاثت فساداً فيها ، واستأصلوا في نهبهم وسلبهم إلى ما وراء الرياض ، بل وصلوا إلى بلدة الجبيلة ونهبوها ، وقطعوا نخيلها وخربوا دورها ، وتركوها خالية من السكان ، كما تشاهد اليوم » .

الأول من نوعه في التأريخ العربي . وقد جمع المؤلف معلوماته من ثلاثين مصدراً عربياً ، بين قديم وحديث ، عدا الكتب والتحقيقات العلمية التي أصدرها المستشرقون عن الكتابات الحميرية ، والحفريات التي قامت بها شركة الزيت العربية الأمريكية المعروفة باسم آرامكو . ولقد ساعد الجاسر على إصدار مؤلفه هذا تخلصه من الالتزام بسرد أسماء الحاكمين الذين مروا على هذه القرية التي انقلبت إلى مدينة ، فعاصمة للسعوديين في العصر الحديث . وبهذا التخفف من الأسماء التي يضل فيها المؤرخ اقترب من الموضوعية ، وأصاب محز الدراسة العلمية والمنهجية .

الأمر الثاني الذي جعل كتاب « مدينة الرياض » علمياً أن مؤلفه رجل عالم ، مشغوف بالتحقيقات العلمية والرحلات الشخصية في قلب الجزيرة . ولا ريب أن هذه سمة العالم الحق . والجاسر يعتذر عن تقصيره في بلوغ ما يريد من تأليفه هذا، لقلة المصادر التاريخية المدونة المعروفة ، وخلو الموجود من المعلومات المقنعة من حيث التفصيل ، والصحة عن تاريخ سكان البلاد في عهودها القديمة ، إذ كل ما يجده الباحث فيها نتف أخبار مقتضبة، متضاربة[١]، وأنه لم يعثر على شيء من الآثار القديمة يمكن من إبراز بعض الجوانب التاريخية ، أو يرسم للمعنيين بالدراسات التاريخية طريقاً واضحاً ، إذ لم يجر — حتى هذا العهد — تنقيب عن الآثار . وليس من المعتقد العثور على شيء منها بارز للعيان ، ولأن الجهل لم يُبق على شيء من ذلك[٢] .

استعرض حمد الجاسر ما ورد عن « مدينة حَجْر » في كتب المؤرخين والعلماء وما قيل في تاريخ «اليمامة» وما روى عن قبيلة « طَسْم » و «جَديس»

---

١ مدينة الرياض : ص ١٠ و١٢ .

٢ مدينة الرياض : ص ١١ .

ودرس بنفسه وبمعونة العلماء الغربيين الآثار الحِمْيَرِيّة الباقية بنجد ، وقرأ بوساطتهم ما عليها من كتابات ، ثم راح يتكلم عن القبائل التي استوطنت هذه المنطقة ، واستقصى أخبارهم ، وحدد مناطق كل منهم . ووصل إلى العصر الإسلامي ، فتحدث عن حروب الردة في اليمامة . ولم يورد ما أورده دحلان في « الفتوحات الإسلامية »[1] من أخبار منحولة على لسان « مُسَيْلِمة » و « سَجَاح » اللّذين أدعيا النبوة . ومرّ عليها دون أن يشير إليها . كأنه يرى وضوح اختلاقها ، وأنها لا تستحق الاهتمام الذي أولاها إياه مؤرخون كثيرون. وتوقف عن تأريخ « الرياض » بين القرنين الخامس والثامن من الهجرة اعترافاً باضطراب الروايات ، وعدم قدرته على الحكم المطمئن فيها . وعاد يؤرخ لها قرناً فقرناً إلى العصر الحديث منذ دخلتها الحضارة الحديثة ووجدت فيها المرافق العامة ، والمؤسسات الحكومية ، وغدت في اتساع وامتداد رقعة ، وانتشرت فيها المدارس ، والمكتبات ، وعمت الصحافة والطباعة وعندئذ انتهى البحث في تأريخها .

وقد ألحق بالكتاب بحثين أولهما عن الآثار الحميرية في بلاد نجد ، والثاني عن قرية « ثاج » وما قيل فيها في دائرة المعارف الإسلامية .

* * *

وإذا تركنا منطقة نجد ، وانتقلنا إلى المنطقة الشرقية ، أو إلى جنوب الجزيرة وجدنا للأولى كتاباً عنوانه « تاريخ الأحساء » المسمى « تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد » لمحمد بن عبد الله آل عبد القادر الأنصاري الأحسائي[2] وللثانية كتاباً عنوانه « من تاريخ المخلاف السليماني ، أو الجنوب

---

١ مدينة الرياض : ص ١٠ .

٢ أديب أحسائي من أسرة علم وأدب . من الأنصار . انتقل جدها من المدينة إلى الأحساء في القرن التاسع الهجري –الخامس عشر الميلادي–، أخذ العلم عن أبيه عبد الله ومنه ثقف =

العربي في التاريخ » لمحمد بن أحمد عيسى العقيلي [1] .

أما « تاريخ الأحساء » فنموذج لكتب الأدب التي « أخذت من كل فن بطرف » . فقد جمع بين التأريخ ، والجغرافية ، والحديث عن اكتشاف البترول في المنطقة الشرقية ، والكلام عن محمد بن عبد الوهاب ونسبه ، ودعوته وسيرة الحكام السعوديين ، وشرح قصائد ابن مُقْبل الأحسائي [2] ، وابن مشرّف ، وسَرَد بعض النوادر واللطائف ، وجمع ما قاله ياقوت الحموي وابن الأثير ، وابن خلدون ، وغيرهم عن الأحساء . ويبقى للمؤلف الفضل في جمع ما تناثر في الكتب التأريخية ومعاجم البلدان عن هذه المنطقة ، وضم بعضها إلى بعض في كتاب واحد ؛ وكذلك حديثه عن الأسر العريقة المقيمة في هذه الناحية ، ورد كل منها إلى أصولها ، وتفصيله أنواع التمور التي ينتجها هذا الإقليم — وهي خير تمور العالم — . وإسهابه في الحديث عن العيون النابعة . ولا شك أن المؤلف عانى جهداً في كتابه هذا ، ويسّر للباحثين مصاعب عدة ، وفتح الباب لمن بعده من الدارسين والمحققين ليَلِجوا .

* * *

= نظم القوافي وأكمل تحصيله في البلاد المجاورة ، وعلى العلماء النجديين . وتولى قضاء مدينة « المبرز » في الأحساء حقبة طويلة من الزمن .

١ ولد بصبيا سنة ١٣٣٦ هـ/١٩١٦ م ، ودرس في بلده على والده والشيخ عبد الله الحمودي ومحمد خميس الحضرمي والشيخ عقيل بن أحمد — عالم جيزان في عصره — وأكمل تحصيله في جازان . من مؤلفاته « المخلاف السليماني » ج ٣ و « التصوف في تهامة » و « المعجم الجغرافي في الحديث للبلاد السعودية — قسم جازان — وعدد من الدواوين المحققة وديوان شعره « أنغام مضيئة » صدر حديثاً (الأنصاري ، المنهل ٨١١/٢٧ ومعلومات شخصية) .

٢ هو أبو الحسن علي بن المقرب الربيعي العيوني البحراني الأحسائي الشاعر بالبحرين ومولده في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بالأحساء من بلاد البحرين قدم بغداد وحدث بها بشيء من شعره ، كتب عنه غير واحد من الفضلاء ، ودخل الموصل أيضاً ، ومدح ملكها (الجاسر ، ملحق تاريخ الأحساء ٢٧٥ نقلا عن المنذري في التكملة لوفيات النقلة — مخطوطة في دار الكتب المصرية — ومقدمة ديوانه المطبوع بدمشق) .

أما المخلاف السليماني لمحمد عيسى العقيلي فهو دراسة جديدة لمنطقة الجنوب العربي شملت « المِخْلاف » – ويعني « المقاطعة ، أو الإقليم » في لغة الجنوب العربي – كما شملت الحديث عن بلاده ، وطبيعته وموارده ، وسكانه ، وعن اليمن وما يتعلق بها ، والحكومات والأمراء في المخلاف والجنوب العربي وقد اعتمد في هذه الدراسة على مخطوطات في المقام الأول ، ثم على دراسات المستشرقين لهذه المنطقة ، والمؤرخين العرب القدماء والمعاصرين وما دوّنه علماء الآثار الغربيون الذين زاروا الجنوب العربي ، وملاحظاته الشخصية وهو ابن هذه المنطقة .

ومنهج التأريخ عند العقيلي يتبع التطور السياسي الذي مرّ على هذا الإقليم ، فيفيض بالحديث والنقل ، ويستقصي كل ما ورد ، ويربط الأحداث بعضها ببعض حتى تشكل وحدة تكاد تكون منسجمة وتامة الحلقات . يمر على كل بلد وجبل ، وواد ، وقرية ، وعين جارية ، فيستعرض ما قيل في كل منها ، ويدلي برأيه كذلك ، ويصحح ما أخطأ فيه غيره ، ويقيس الأبعاد بالمقاييس المترية ، ويحدد مواقعها تحديداً دقيقاً . ويأتي إلى السكان فيتحدث عن أجناسهم ، وعقائدهم ، وأصولهم ، ولهجاتهم الخاصة فيعرض بعضها ، ويضع ما يقابلها باللغة العربية الفصيحة ، وينزل إلى الأسواق فيصف ملابس الناس ، وعاداتهم ، وطرق معاشهم ، والعملات التي يتداولونها ، وما تساوي قيمتها بالعملة المجاورة ، أو بالذهب . ويذكر الأوزان المستعملة ، ويبين السلع التي توزن ، والتي تكال ، والتي تباع عدّاً . وحين يتحدث عن بعض الأمراء الذين حكموا هذه البلاد ، يفصّل في أخلاقهم ، وطريقة سياستهم الرعية ، وما قدموه للشعب من خير أو شر . والمؤلف قوي الشخصية ، واع لما يكتب ، يقف تُجاه بعض النقاط الغامضة فيحللها ، ويبين رأيه فيها ، وكثيراً ما نجد اجتهاده في تعليل نشوء دولة وسقوط أخرى معتمداً على ربط الأسباب بالنتائج ، وعلى معطيات

العلوم السياسية ، وقوانين الحياة الاجتماعية ، وعادات القبائل العربية ، وسواء أكان العقيلي مصيباً أم مخطئاً فإن تأليفه هذا يتصف بالمنهج العلمي ، وإن مؤلفه يقف إلى جانب كتاب « تاريخ مدينة الرياض » من حيث القيمة العلمية ، والأسلوب المتبع في كل منهما .

* * *

وإذا انتقلنا إلى استعراض التواريخ المحلية للحجاز لقينا عدداً من المؤلفات بدأت بالأزرقي (ت نحو ٢٥٠ هـ / ٨٦٥ م) صاحب كتاب « أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » واستمرت إلى يومنا هذا [١] . وكذلك لقيت المدينة المنورة من اهتمام المؤرخين ما لقيته مكة المكرمة [٢] . وما تزال المؤلفات تصدر حتى الآن . ويبدو أن ما تتمتع به المكتان والمناطق المجاورة لهما من قداسة دفع إلى الإكثار من التأليف فيهما . ولئن كان المؤرخون القدماء يتبعون مناهج متعددة ، معروفة عند الجميع ، في طريقة عملهم إن المعاصرين فريقان : سائر على نهج الأسلاف ومستفيد من المحدثين ، أو متبع نهج المؤرخين العلماء من الغربيين . ونكتفي بإيراد شاهد واحد على كل منهما . للقسم الأول نستشهد بـ « تاريخ مكة » [٣] لأحمد السباعي . وللثاني « تاريخ مدينة جدة [٤] لعبد القدوس الأنصاري .

---

١ انظر روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين . وقد عدد ما يزيد على أربعة وأربعين مؤلفاً عن مكة والكعبة ، حين حقق جزءاً من « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » للسخاوي (ص ٦٤٧ – ٦٥١) .

٢ ذكر السخاوي في الإعلان اثنين وعشرين مؤلفاً عن المدينة وآثارها (المصدر السابق ص ٦٤١ – ٦٤٣) .

٣ طبع بمكة ، بمطابع قريش – الطبعة الثانية – ١٣٨٠ هـ/١٩٦٠ م .

٤ طبع بجدة ، بمطابع دار الأصفهاني وشركاه ١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ م .

سار السباعي في « تاريخ مكة » على خطة القدماء حين بدأ بتأريخها منذ أيام إبراهيم الخليل . وتابع استعراض أحداثها من تلك الحقبة حتى قيام المملكة العربية السعودية . ولا ريب أن البعد الزمني بين أول تأريخه وعهده الحاضر يزيد على ثلاثة آلاف سنة . وهو بعد شاسع ، يستصعبه المؤرخ الحديث ، ويكتفي بموضوع محدود الأبعاد الزمانية والمكانية ويشبعه دراسة وتمحيصاً . والأمر الثاني الذي وقع فيه اعتماده – في أحيان كثيرة – على مؤرخيها القدماء ، ولا سيما الأزرقي . علماً بأن أخباراً كثيرة في مؤلفه مشكوك في صحتها [1] . والخطأ الثالث أنه حاول أن يكون كتابه موسوعة عامة عن هذه المدينة المشرفة ، فيها التطورات السياسية المختلفة التي مرت عليها من أيام إسماعيل بن إبراهيم إلى اليوم ، والتقلبات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والعلمية ، والفنية ، في حجم لا يزيد على ستمائة صفحة . ويؤخذ على المؤلف – أيضاً – قلة عنايته بتعريف الأعلام الإنسانية ، وغير الإنسانية الواردة في كتابه وإهماله الفهارس المختلفة المرشدة إلى الأعلام والأماكن في خاتمة كتابه ، وتاريخ الطبعات التي اعتمد عليها في مصادره المطبوعة التي ذكرها في أسفل الصفحات .

لكن الذي يميز هذا المؤلف من سوابقه شخصية صاحبه القوية ، ورده في مواضع كثيرة ما قاله الأقدمون [2] ، ومناقشة الأخبار ، واعتماده على المعطيات العلمية الحديثة المختلفة ، وأسلوبه المشرق الرصين ، لولا أنه كان يجنح إلى الأسلوب الغنائي والخطابي أحياناً ، وبخاصة حين يدلي برأيه الشخصي [3] .

ويبدو لنا أن هذا الكتاب خلاصة وافية جمعت ما قاله القدماء والمحدثون وزادت عليهم حرص المؤلف على تصحيح الأخطاء التي وقعوا فيها . وكنا

---

١ انظر روزنثال ص ٢٢٤ – ٢٢٧ .

٢ انظر تاريخ مكة الصفحات ١٩/١ ، ٣٧/١ ، ٨٤/١ .

٣ انظر تاريخ مكة ٣٨/٢ .

نود لو اعتمد على دراسات « ابن بليهد » و « حمد الجاسر » المعنية بتحديد مواطن بقاع الجزيرة بالشكل العلمي الحديث ، ولو لم يكتف بأقوال الآخرين الذين يقلون عنهما دراية . ونحن لا نشك أنه بذل جهداً كبيراً ليصل بنفسه إلى الحقيقة ، وكان ذلك لا يمنعه من الاستفادة من منجزات الآخرين .

أما تأريخ مدينة جدة للأنصاري ، فرائد في عمله . ذلك أن المؤلفات في مكة والمدينة – كما رأينا – كثيرة . أما جدة فلم تحظ بشيء ذي بال من هذه العناية عند القدماء والمحدثين . ولعل ذلك يعود أكثره إلى اكتفاء الباحثين بالكتابة عن البلدين المقدسين ، باعتبار أنهما الأساس والهدف والغاية . وكل ما كتب عن جدة إما نُتَفٌ مبعثرة في كتب التأريخ ، وإما كلمات موجزة عابرة في كتب الرحلات ، أو فصول مقتضبة في المؤلفات الجغرافية، لكن قلّ أن يُفرد لها كتاب خاص . وإذا كان ، فهو محشو بالفضائل والمناقب ، وشيء قليل لا يسمن ولا يغني ، من ذكر حوادث غير متسلسلة ، وغير منسقة العرض ، وغير شاملة للتأريخ المنشود . لهذه الأسباب أرى أن كتاب الأنصاري رائد .

أما موضوعات الكتاب فهي : استعراض الوضع الجغرافي للمدينة ، ومناقشة تسميتها ، وتاريخها الاقتصادي والاجتماعي ، والعلمي ، والعمراني وعاداتها وتقاليدها ، وآثارها ، وفنونها ، ثم تشكيلاتها الحكومية ، وقضاتها ، وعلمائها ، وأعيانها ، والتمثيل القنصلي والسياسي فيها ، وبلديتها ، ومساجدها وفنادقها ، وأمثالها العامية ، واللهجات فيها ، ومكتباتها العامة والخاصة ، وصحفها ، ومطابعها ، وأحيائها ، ومتنزهاتها . وأنهى الكتاب بأدبها في القديم والحديث ، وأدبائها المعاصرين ، وأحيائها البرية والبحرية . وهذه الأبحاث استغرقت خمسمائة صفحة . بعدها خصّص مائتي صفحة للفهارس المختلفة .

الخطة التي سار عليها تقوم على استعراض ما قيل في بحث ما ، ومناقشته ،

ثم الفصل بين الأقوال . ولم ينس الإشارة إلى المراجع والمصادر في هوامش الصفحات ، ذاكراً — في أغلب الأحيان — اسم المؤلف ، والطبعة ، والبلد ، ورقم الصفحة التي ينقل منها . وإذا كان المصدر مخطوطاً دلّ عليه وأورد صفته ، ومكان وجوده ، والصفحة التي يستشهد بها . وأحياناً كانت مصادره شخصية يسميها . وإذا كان المصدر هو المؤلف ذاته ذكر ذلك . ومع الاعتماد على الكتب العربية لم يهمل المؤلفات التركية . وهو محق بذلك . لأن الدولة العثمانية كان لها شأن كبير في أمد مديد من الزمن ، بهذه البلاد . كذلك استفاد من كتابات الغربيين ، ودوائر المعارف المختلفة . ولا بد أن نذكر أنه اتبع في المصادر غير العربية ما اتبعه في العربية من مناقشة وترجيح .

الخلاصة : إن التأريخ المحلي في المملكة العربية السعودية مستمر ، لم ينقطع . غلب على كثير منه صفة « الأدب » ، وتقليد الأسلاف . ومال بعضه متحيزاً إلى جهة دون أخرى . وابتعد عن الدقة ، والمنهجية العامية . لكن دراسات كثيرة حديثة ، تتسم بالرصانة والدقة ، والتحقيق ، بدأت تظهر ، وتتكاثر يوماً بعد يوم وتبشر بمستقبل حميد .

ج — الصورة الثالثة من ألوان التأريخ : التراجم والسير

تبدو التراجم أثبت صور التعبير التاريخي ، وقد سبقت التراجم مبادئ صور التاريخ . ومن الواضح أنها أسهمت في كتابة التاريخ الإسلامي منذ بدايته . واستطاعت بمرور الزمن أن تظفر بمكانة رفيعة . ويرجع هذا إلى عدة أسباب خاصة منبعثة من المحيط الإسلامي : فسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت منبعاً أمدّها بمادة لبناء صرح شامخ للإسلام . ثم إن النزاع بين الفِرق في الإسلام نشب معظمه باسم الشخصيات والفضائل أو العيوب الشخصية . يضاف إلى ذلك أن المسلمين جميعاً كانوا يعتقدون أن السياسة كانت كلها

من عمل الأشخاص ، وأنها لا تُفهم إلاّ على ضوء صفاتهم وخبراتهم . وبذلك أصبح التاريخ في أذهان كثير من المسلمين مرادفاً تقريباً للتراجم وسير الرجال [١] .

لقد كثرت كتب التراجم الصرف في العصور السالفة ، كما كثرت في العصر الحديث . ولم يقصر المترجمون السعوديون في هذا المضمار ، فترجموا للرسول الكريم [٢] وللصحابة رضوان الله عليهم [٣] ولرجالات مكة [٤] ، والمدينة [٥] ، ولعلماء الحرمين [٦] ، وللحكام السعوديين وعلى رأسهم عبد العزيز بن عبد الرحمن [٧] ، وللأدباء المعاصرين [٨] .

النهج العام الذي سار عليه الأقدمون في كتابة التراجم هو المثل الأعلى للمترجمين المحدثين ، بل يمكن أن نقول إن أكثرهم أخفق في بلوغ المستوى الذي وصل إليه السلف . وإذا اتخذنا كتاب « رجالات الحجاز » لإبراهيم هاشم الفِلالي ، نموذجاً لعرض تراجم الصحابة ، وبعض التابعين ، والعلماء ، والأدباء وقعنا على الفرق الشاسع بين كل من المنهجين .

الفِلالي أديب معاصر درس في الحجاز ثم استوطن مصر ، ولا ريب أنه

---

١ روزنثال : ص ١٤٢ .

٢ منهم دحلان في السيرة النبوية .

٣ منهم زيدان في « سيرة بطل » ؛ والفلالي في « رجالات الحجاز » .

٤ منهم دحلان في « خلاصة الكلام » ؛ والسباعي في « تاريخ مكة » .

٥ منهم الأنصاري في « آثار المدينة » .

٦ منهم عمر عبد الجبار في « سير وتراجم » .

٧ منهم فؤاد شاكر في « رحلة الربيع » ؛ والعطار في « صقر الجزيرة » ؛ وسعود بن هذلول في « تاريخ ملوك آل سعود » ؛ والخطيب في « الإمام العادل » .

٨ منهم الأنصاري في « المنهل » ؛ وابن إدريس في « شعراء نجد المعاصرون » ؛ والساسي في شعراء الحجاز المعاصرون » .

قرأ كثيراً ، وطالع كتب التأريخ ، والطبقات ، والسِّيَر قديمها وحديثها ، واطلع على الدراسات الحديثة في أصول تأليف هذه الألوان من الكتب . ونتوقع من مؤلّفه « رجالات الحجاز » أن يكون على النهج العلمي الحديث ، أو على الأقل ، بمحاذاة المؤلفات القديمة . ولكنا حين نأخذ الكتاب ، ونتلو ترجمة ما ، نجد فيها شيئاً من الحديث عن الشخصية المتحدَّث عنها ، ثم يسبح في خطبة حماسية فيها كثير من الانفعال والموعظة كقوله في ترجمة الإمام الشافعي — مثلاً — : « يا سكان القبلة ، أليس لكم في الشافعي أسوة ؟ ويا أبناء طيبة ، لماذا لم تتخذوا من مالك قدوة ؟ أيليق بكم يا جيرة الحرمين أن تروا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لا يوجهون أنظارهم إليكم كما يوجهونها إلى علماء الأقطار الأخرى ، حيث العلم الزاخر ، والعقل النيّر والحجة الدامغة ؟ لماذا نرى علماء مصر — مع احترامي الشديد لمصر وعلمائها — يتبوأون المقاعد الأولى في صفوف العلماء ؟ والحجازيون — لهفي على الحجازيين — الذين هم أولى من غيرهم بالتفقه في الدين قابعون في دورهم لا تسمع لهم ذكراً ؟ عفواً أيها العلماء فما هي إلاّ صرخة مفؤود يسعه من حلمكم ما يأمركم به الدين »[1] . وبمثل ذلك يطفح الكتاب الذي بلغ حجمه مائة وثمانين صفحة . لم يزد حديثه عن خمسة وأربعين رجلاً على ربع الكتاب ، وشغل باقيه بالكلام عن الحجاز وأمجاده ، وجغرافيته ، وطبيعته ، وأخلاق أهله وظرفهم ، وعلمهم ، وغير ذلك ، حيث انتقل من الموضوع الخاص المحدود إلى الموضوع العام المطلق . وفي ذلك بعد كبير عن أصول فن الترجمة .

* * *

والنموذج الثاني لتراجم الصحابة — رضي الله عنهم — نلقاه في كتاب

---

١ رجالات الحجاز : ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

« سيرة بطل » لمحمد حسين زيدان . ترجم لستة وستين صحابياً . وكانت سيرة الواحد منهم أقرب إلى الأخبار والمقتطفات منها إلى السيرة الحق . إذ خلت من تأريخ الولادة ، والوفاة ، والحديث عن العصر ، إلاّ ما اقتضاه الخبر . وجميعها أماديح لا دراسات . وشخصية الكاتب فيها مستترة خلف الأسلوب السهل الجميل . ولقد تبدو بين الفينة والفينة في تعليقات صغيرة ، سرعان ما تغيب لتعود أخبار السيرة المنقولة عن كتب الآخرين . نوقن بذلك وإن لم يذكر لنا المصادر التي رجع إليها ، والكتب التي اعتمد على ما فيها ، تصريحاً أو تلويحاً .

وإذا كان لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام رضوان الله عليهم من القداسة والاحترام ما يدفع المترجم المسلم إلى إظهار كل فضيلة ، والإشادة بكل محمدة ، وتسليط الأنوار على الجوانب الرائعة في سيرهم ، فليس ذلك واجباً عليه في تراجم العلماء والأدباء ، والحكام . ومع هذا فقد شهدنا المترجمين لهذه الفئات الأخيرة تنحو النحو الأول ، وتنهج طريق المدح وإظهار الفضائل ، والمحاسن ، وتسكت عمّا عدا ذلك .

* * *

وكتاب « سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة » لعمر عبد الجبار شاهد على ما نقول . وإذا كان لمؤلفه فضل فهو في جهده الكبير في سبيل جمع ترجمة مائة وثمانية وعشرين عالماً من علماء مكة المكرمة في القرن الحالي ، ووضع صورة « فوتوغرافية » لبعضهم في مطلع ترجمته ، واقتطاف فقرات أو نماذج من دروسهم التي كانوا يلقونها في الكعبة المشرفة ، وإحصاء ما وضع كل منهم من مؤلفات أو تصانيف ، وتفصيل الزي والملابس التي كان يرتديها بعضهم ، وهيئة القِعدة التي يقعدها أثناء إلقائه الدرس ، واللازمة اللفظية المترددة على لسانه ، خلال أحاديثه ، دون أن ينتبه إليها ، والفن الذي

اختص بتدريسه كل منهم . وتحديد سنة مولده ووفاته . كل أولئك العلماء في مؤلف عمر عبد الجبار فضلاء ، كاملون ، لم نقرأ لأحدهم مذمة ، ولا رأيناه ارتكب خطأ أو خطيئة ، بل قلما نشهد له علاقة بأسرة ، أو مجتمع ، أو فئة من الناس .

* * *

أما تراجم الأدباء ، وهي قليلة إذا قيست بغيرها ، فقد عني بها ثلاثة شخصيات في العصر الحديث في المقام الأول ؛ عبد القدوس الأنصاري ، وعبد السلام الساسي . وعبد الله بن إدريس . فالأنصاري – صاحب مجلة المنهل – مهتم بهذا اللون بحكم عمله في المجلة الأدبية . أما الساسي وابن إدريس فقد كان لهما هواية لا عملاً . ألف الساسي كتابه « شعراء الحجاز المعاصرون » وترجم لعدد من الشعراء وقد أخذ عليه الناس إغداقه المديح على كل من ترجم له بحق وبدون حق . ومن المبالغة أن نعد ما كتبه الساسي عن الشعراء ترجمة ، وإنما هو إلى التقديم والتعريف مع كثير من التقريظ أقرب . أما ابن إدريس فقد ألف « شعراء نجد المعاصرون » وترجم لعدد من شعراء نجد ، واعتاد أن يترجم لكل منهم قبل أن يسرد عدداً من قصائده . وامتازت التقدمة المترجمة بالإيجاز ، والوقوف على معالم حياته وشخصيته وأسلوبه الأدبي . وكم كنا نود لو كانت الدراسة الشخصية للمترجم لهم أوسع وأشمل ، ولا سيما أن خطوطها الكبرى تسير في منهجية علمية ندرت في كتّاب هذا الفن .

أما سيرة آل سعود فقد أكثر من الكتابة فيها المواطنون وغير المواطنين والمؤلفون فيها على أقسام : منهم من حمل في قلبه ضغينة ، فهو لا يرى إلاّ سوءاً . ومثل هذه الكتابة يهمل لأنه متحيز متجنّ . ومنهم من فاض قلبه حباً ، فهو لا ينظر إلاّ بعين الرضى . وكذلك يطرح مثل هذه الكتابة ويتهم صاحبه بالتحيز . ومنهم من وقف موقف العالم المحايد يدرس القضايا ظاهراً

وباطناً ، ويحلل ويستنتج ولا يدع للعاطفة مجالاً تميل به تأييداً أو اعتراضاً . ومن هذا الفريق الثالث يمكن أن نضرب مثالاً كتاب « صقر الجزيرة » . لأحمد عبد الغفور العطار . درس فيه شخصية عبد العزيز آل سعود في ثلاثة أجزاء . بلغت ٥٦٣ صفحة . استقصى فيه البيئة الدينية والسياسية في الجزيرة العربية ، وصاحَبَ عبد العزيز من طفولته إلى ما بعد وفاته مُلمّاً بكل صغيرة وكبيرة في سيرته . ولم يكتف باستعراض ترجمته الذاتية ، بل تحدث عن أعماله المختلفة العسكرية والاجتماعية والسياسية وآرائه . ثم انتقل إلى الحديث عن آثاره في الجزيرة والعالم العربي . ولقد يخيل إلى من لا علم له بأحوال الجزيرة أن في سيرة « صقر الجزيرة » تحيزاً ، وانتصاراً لكل أحوال عبد العزيز ، وثناء يبعدها عن الترجمة العلمية ، لكنه حين يطلع بعمق على أحوال البلاد والمواطنين ، وعلى ما قام به هذا الإنسان من أمور تكاد تكون من الخوارق أو المعجزات ، ويلمسها لمس اليد . يدرك أن سيرة عبد العزيز واقع حي ، وأن ما داخله من ريب في حيادها إنما هو براعة الأسلوب الذي صيغت به .

* * *

وهناك شخصية لها أثر فعال ، بل تخصص كبير في سيرة آل سعود وأنسابهم وتراجمهم هي شخصية محمد أمين التميمي[1] الذي وقف حياته على خدمة تاريخ الجزيرة الحديث ، وتاريخ الدولة السعودية ، ونسب الأسرة السعودية . وهو الذي صوّب المعلومات التاريخية الخاطئة التي كانت تتضمنها

---

١ ولد في يافا سنة ١٣٢٧ هـ/١٩٠٧م ودرس في المكتب السلطاني بالقدس في عهد الترك ثم في المدرسة الرشيدية في عهد الانتداب البريطاني ، ووظف في إدارة البرق والبريد في فلسطين والأردن ، ونزح إلى المملكة السعودية سنة ١٣٤٥ هـ/ ١٩٢٧م ووظف بوزارة خارجيتها ، ثم نزح إلى مصر ، وتعاقدت معه الحكومة المصرية مترجماً للوثائق التاريخية التركية . ثم عين مديراً عاماً لإدارة المكتبات بوزارة المعارف السعودية واختير مستشاراً للوزارة لشؤون التأليف . ولا يزال يتولى هذا المنصب (من حديث شفهي مع المترجم له) .

كتب التاريخ المقررة في المدارس المصرية عن الحروب الوهابية ، وكان ذلك في عام ١٩٤٥ م . وفي العام التالي أصدر شجرة نسب تضم أسرتي آل سعود وآل الشيخ . وفي سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م أصدر شجرة مستقلة لنسب آل سعود . وله كتاب تحت الطبع عن نسب آل سعود . وهو القائم حالياً ببحث الوثائق التاريخية عن جزيرة العرب وتصويرها وتعريبها ، إذ يحيط باللغتين التركية والإنجليزية .

* * *

بعد هذا العرض الموجز السريع لألوان التأريخ في المملكة العربية السعودية يمكننا أن نتحدث عن صفات الكتابة التاريخية في هذا البلد ، ونستعرض التيارات المختلفة التي يجري فيها ؛ وننتهي إلى كلمة تصف الأسلوب الإنشائي الذي يصاغ به .

أول صفات الكتابة التاريخية : الاستقلال ونعني به الاقتصار على المصادر الإسلامية والعربية دون الرجوع إلى ما كتب باللغات الأجنبية ونادراً ما يعتمد المؤرخون ربط الأحداث بالبلاد الخارجية . ويظهرون تأثرها بها أو أثرها فيها . لقد كان هناك مجال رحب فسيح في استعراض الدوافع التي دفعت محمد علي باشا إلى غزو الجزيرة . وربطها بالأحوال المختلفة في مصر أو في الآستانة أو في الاتجاهات السياسية لدول أوربا وغير ذلك . لكن المؤرخين لم يهتموا بذلك بقدر ما اقتصروا على ذكر المعارك التي جرت في أرض الجزيرة مثلاً .

والصفة الثانية هي : الإسلام. إنه قلما يخفي المؤرخ السعودي دينه. وشعوره الإسلامي يظهر في توجيه مجرى تأريخه. وربما كان الاستشهاد بفقرة من كتاب أحمد زيني دحلان « تاريخ الشعوب الإسلامية » معيناً على جلاء هذه الفكرة . قال في معرض حديثه عن السلطان مراد الثاني « . . . وأقام الشرع والدين ، وأذل الكفرة والملحدين ، وفي سنة ٨٤٩ هـ خلع نفسه ، ونزل عن السلطنة

باختياره ، وجعلها لابنه محمد ، وهو إذ ذاك عمره [أربع عشر][1] سنة . ثم إن الكفار ظهر منهم احتقار واستهانة بالمسلمين ، وطمعوا في أخذ كثير من البلاد . . . الخ »[2] وقال في مكان آخر : « في هذه السنة (١٠٠٦ هـ) عين محمد باشا الساطورجي سَرْدارا على بلاد الأنكروس فتقابل مع الكفار بجيش جرار ، ووقع بينهما قتال . ووقع من محافظ بوسنة حسن باشا الترياقي إهمال في مساعفته ولولا ذلك ما خلص أحد من الكفار »[3] .

الصفة الثالثة : الهواية. ونعني بها أن العمل التأريخي لم يكن عملاً يمكن أن يجني منه صاحبه الرزق والقوت . ولم نقع خلال الحقبة التي نعنى بدراستها على مؤرخ احترف صنعة التأريخ . وقد سد معظمهم حاجاتهم المادية من عمل آخر . فابن بشر كان من رؤساء قبيلة بني زيد في بلدة شقرا . والجاسر والأنصاري صاحبا مجلتين أدبيتين علميتين . وسعود بن هذلول أمير وحاكم . والعطار أديب يعيش على مؤلفاته الأدبية وتحقيقاته وهكذا . ولا بد من الإشارة إلى أن هؤلاء المؤرخين لم يقتصروا على الكتابة في التأريخ فحسب ، بل إن لهم إنتاجاً آخر غير التاريخ . وغالباً ما يكون في الإنتاج الأدبي .

وأخيراً، عدم اتباع المنهج العلمي في التأريخ. إننا لم نجد خلال استعراضنا لأهم كتب التأريخ المؤلفة في هذه الحقبة منهجاً واضحاً عند أكثر المؤلفين ، سواء من حيث مراحل الصناعة التأريخية التي تتطلب أن يختار المؤرخ حقبة معينة ، محدودة الأبعاد ، أو بلداً واضح الحدود الجغرافية ، أو شخصية خاصة ، ويفتش قبل كل شيء عن المصادر في عملية تسمى التقميش[4] ثم ينتقل بعدها

---

١ هكذا وردت . ونحب أن نشير إلى أن العدد المركب جاء على هذه الصورة من الخطأ ولعله خطأ تطبيعي . وصوابه « أربع عشرة » .

٢ تاريخ الشعوب الإسلامية : ص ١٢٣ .

٣ المصدر السابق : ٢/١٢٥ .

٤ التقميش هو جمع المواد الأولى الأساسية للبحث . قال أبو حاتم الرازي (ت ٢٧٧ هـ/٨٩٠ م)=

إلى النقد الخارجي والداخلي لهذه المصادر . ثم تأتي عملية الاستنتاج واستخلاص الحقائق ، وترتيبها ، وتنظيمها ، وعرضها العرض التاريخي المعقول ، أي من حيث الاتصاف بصفات المؤرخ العالم التي منها أن يكون محباً للعمل ، جلداً ، صبوراً ، أميناً ، شجاعاً ، مخلصاً ، له ملكة النقد ، غير متحيز ، بعيداً عن حب الشهرة والكسب ، والألقاب ، والجاه ، والمناصب ، ذا عقل مرتب ، صاحب إحساس ، وعاطفة ، وتسامح ، وخيال [1] .

أما التيارات التي تتنازع هذا التأريخ فثلاثة : تقليدي ينسجم وما تواضع عليه المؤرخون في الزمن الماضي ، وهو في عرف أصحاب هذا التيار يجري في مجرى التأريخ الإسلامي . ويكاد اهتمامهم يقتصر عليه . وإذا نظروا إلى سواه فمن خلال أحداثه ومراحله الماضية والحاضرة . وتعليل نشوء الأحداث ، وتطورها هو بحسب هذه النظرة تعليل إلهي . فدوافع التاريخ ليست ، أو على الأقل ليس أهمها وأبلغها فعلاً ، في يد الإنسان ، بل تحكمها مشيئة إلهية ، وقوانين سماوية . وحياة الأفراد والشعوب على هذه البسيطة ليست سوى مقدمة للحياة الحقيقية ، حياة السعادة الدائمة ، أو الشقاء المقيم ، في العالم الآخر . فمن العبث إذاً – في رأي هذه الفئة – أن تعلّل الأحداث الإنسانية بإعادتها إلى الجنس ، أو إلى المحيط ، أو إلى عامل من العوامل الطبيعية أو البشرية الأخرى . إن محور التاريخ ليس في هذا العالم بل في العالم الأعلى .

أما من حيث أسلوب المعرفة التاريخية ، فالاتجاه السائد هو التصديق والركون إلى أخبار السلف . إن الدين في جوهره لا ينفي النظر النقدي إلى مصادر التاريخ ، والأسلوب العلمي في استنتاج حقائقه ، بل يقبله ضمن حدود معينة يرسمها

= – صاحب كتاب طبقات التابعين – إذا كتبت فقمش وإذا حدثت ففتش . (مقدمة ابن الصلاح ص ٢١١) .

١ عثمان ، حسن ، منهج البحث التاريخي : ص ٥ .

لهما ، لكن الكثرة الغالبة من أصحاب الموقف التقليدي لم تطلع على أساليب التحقيق التاريخي الحديثة ، بل لا نغالي إذا قلنا إنها ضعيفة الصلة بأساليب النقد ، والجرح والتعديل في الأخبار والرجال ، التي استنبطها العلماء المسلمون في عصور نهضتهم وإنتاجهم .

والتيار الثاني : قومي . وتتجلى نظرة أصحاب هذا التيار في الإقبال على الماضي إقبالاً يكاد يكون في بعض الأحيان يبلغ حد الانغماس التام ، والخضوع الكلي له ، بحيث ينصرف الخيال والفكر والسعي إلى ما يبدو في ذلك الماضي من أمجاد ، فتقف عنده وتتغنى به ، وتنزع إلى إحيائه ، وبث روائعه في القلوب والنفوس . ويبدو هذا المظهر باتجاه التأريخ القومي في المناهج الرسمية ، وبالمؤلفات الكثيرة التي تحاول أن تحيي سير أبطال الماضي ، وإحياء أمجادهم . والذي يؤخذ على أصحاب هذا التيار الذين يضخمون الماضي أنهم يهملون — في أحيان كثيرة — الروابط التي تشده إلى تواريخ الشعوب ، والأمم الأخرى ويسهون عن وحدة التاريخ البشري المتشابكة . والخطأ الذي يؤدي إليه مثل هذا الموقف هو بتر هذه الوحدة ، وإغفال المؤثرات الخارجية التي تعرّض لها الشعب ، أو الأفراد في مراحل حياتهم ، أو الانتقاص من قيمتها وأثرها .

أما من حيث نقد حوادث التاريخ أو تعليلها ، فإن الذين يتجهون هذا الاتجاه لا يتخذون موقفاً معيناً ثابتاً ، بل يختلفون في نوع مواقفهم ، ودرجة وضوحها وحدتها . فنراهم من جهة النقد يترجحون بين التصديق التام لروايات التأريخ ، وتغليب الخيال والوهم على النقد والتجريح ، وبين النظرة الموضوعية التي تنزع إلى التحقيق والتدقيق ، واستخراج اللب الصحيح ممّا علق به من خطإ وبطلان .

منهم من هو في الطرف الأول كمحمد آل عبد القادر في تاريخ الأحساء ، وابن غنام والفلالي . ومنهم من هو في الطرف الثاني كالعقيلي والأنصاري .

ومنهم من هو على درجات متفاوتة كالسباعي والخطيب في كتابه « الإمام العادل » وسعود بن هذلول . وإن كانت الغلبة لا تزال ، فيما نعتقد ، للتصديق وللانسياق في مجرى الخيال المثير المضخم أكثر ممّا هي للنقد الضابط المقيّد .

والثالث : هو التيار العلمي . ولعل من المبالغة أن ندعوه تياراً . فهو لا يزال جدولاً صغيراً يتزايد يوماً بعد يوم . وهو لا يعادل التيارين السابقين زخماً واتساعاً . يجري هادئاً ويسير بحذر وتبصر . يبتعد عن الصخب ، ويجافي الدعاوة وحب التسلط ، غير أنه ، على هدوئه وتدرجه ، يمثل أملاً من آمال المستقبل ، لأنه لا يقبل إلاّ العقل هادياً ومرشداً ، وإلاّ الحق الذي يكشفه العقل هدفاً وسيداً . من سمات هذا الاتجاه أنه يتجه إلى الماضي ، دون فكرة سابقة ، أو فلسفة مفروضة ، ويحاول استعادة هذا الماضي من أصوله المادية والأدبية ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ثم يستنطقها ويحقق في رواياتها ، ويخضع هذه الروايات للتدقيق والنقد ، فلا يقبل منها إلاّ ما ثبت صحته ، وعدالة رواته حسب أحكام العقل وقواعد العلم . وأخيراً يسعى إلى ربط الحقائق المفردة المضبوطة بعضها ببعض لكي يستخرج منها صورة الماضي ، إن لم تكن صادقة كل الصدق، فهي أقرب ما تكون إلى ذلك . وتبقى الصورة ، على كل حال، خاضعة للتبديل والتعديل بحسبما يظهر من أصول جديدة ، أو ما يكتشف من حقائق مجهولة ، أو ما يصحح من أخطاء في التدقيق والاستنتاج . ويمكننا أن نربط هذا التيار بطريقة علماء الحديث النبوي في نخل الأحاديث وتنقيتها سَنَداً ومتناً . وصورة هذا التيار ممثلة في تأريخ حمد الجاسر ، وعبد القدوس الأنصاري ، ومحمد العقيلي ، وأحمد عبد الغفور العطار .

إذا انتقلنا إلى دراسة الأسلوب الإنشائي لهذه المؤلفات التأريخية وقعنا على ثلاثة ألوان من الأساليب .

أولها : السجع . ويبدو أن هذا اللون أسبق الأنواع التاريخية من حيث زمن

ظهوره – في الحقبة التي ندرسها – فلقد طفح تأريخ ابن غنام به ، حتى ليكاد الجزء الأول يغص بكثرته ، وتختفي الأخبار التأريخية بزحمته . من أمثلة ذلك قوله في بيان ما كان في نجد والأحساء وغيرهما من الشرك والضلال قبل ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب : « كان غالب الناس في زمانه متضمخين بالأرجاس متلطخين بوضر الأنجاس ، حتى قد انهمكوا في الشرك بعد حلول السنة المطهرة بالأرماس ، وإطفاء نور الهدى بالانطماس ، بذهاب ذوي الأبصار والبصيرة ، والألباب المضيئة المنيرة ، وغلبة الجهل والجهال . واستعلاء ذوي الأهواء والضلال ، حتى نهجوا في تلك الطرائق منهجاً وعراً ، ونبذوا كتاب الله وراءهم ظهراً ، وأتوا زوراً وبهتاناً وهُجراً »[1] . واستمرت هذه الطريقة إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري حيث ألف دحلان « الفتوحات الإسلامية » وحرص على أن يفتتح ترجمة أكثر الحكام بالأسلوب المسجوع ، فكان ممّا قاله عن عبد الحميد الثاني : « هو السلطان المعظم المفخم ، سلطان سلاطين العرب والعجم ، حائز العلم والصلاح والكرم ، المتشرف بخدمة طيبة والحرم . صاحب السيف والقلم ، ظل الله في العالم ، غياث بني آدم ، نعمة الله على العباد ، وفضله على الحاضر والباد ، ناصر الحق والدين ، مؤيد شريعة سيد المرسلين ، المحفوف بالسبع المثاني ، أمير المؤمنين مولانا السلطان الغازي عبد الحميد الثاني ، أعز الله سرير الملك والخلافة بوجوده ، وأعاد على القريب والبعيد آثار فضله وجود ، وأنفذ في جميع البلاد أوامره وأحكامه ، [وأنشر] على البرايا ألوية عدله وأعلامه »[2] .

وجدير بنا أن نربط هذا الأسلوب بالطابع العام لفن الكتابة الشائع في هذه الحقبة في السعودية وفي البلاد العربية الأخرى . وإذا قلنا : إن لظهور

---

١ تاريخ نجد : ص ٥ .

٢ الفتوحات الإسلامية : ٢/١٠٤ [هكذا وردت العبارة] .

الصحافة شيئاً من الفضل في انحسار السجع ، فإن القول ذاته ينطبق على السجع في المملكة السعودية .

اللون الثاني من أساليب التأريخ : هو الشعر. والقريض أثبت قدماً في القدرة على التعبير التأريخي من السجع . ولطالما ركبه المؤرخون العرب [1] والعجم [2] ، وصاغوا به أخبارهم ، وهو وإن لم يَرْقَ إلى مرتبة الملاحم إلاّ أنه حاول أن يصوغ في قوالبه كثيراً من الأخبار والأحداث . ويبدو أن النظم في التأريخ نوعان : أولهما لم يقصد به التأريخ قصداً ، وإنما كان لوناً من التعبير عن خاطرة ، أو فكرة ، كانت في جوهرها تتضمن شيئاً من أخبار . وثانيهما قصد به التأريخ ، وجعل أسلوبه شعراً ، ليلصق بالذاكرة ، ويكون شكلاً ملائماً للتعليم لأن أوزانه تساعد الذاكرة وتعين على الحفظ . ومن هذا اللون نعد شعر خالد الفرج . وهذا مثل من تأريخه لوقعة البكيرية بين عبد العزيز آل سعود وعبد العزيز بن متعب آل الرشيد :

في « البكيرية » التقى الجمعان وتلاقى الأتراك بالعربـــان
وغطى الجو قسطل الفرسان من غبار في ظلمة ودخان [3]
وشحّته « الأطواب » بالنيران هو يوم وما له من ثان
غير يوم الأعراب في ذي قار

لم تحن بعد ساعة الانتظـــارِ حيث باء الاثنان بالانكسار

١ من المؤرخين الشعراء العرب ابن عبدون الأندلسي الذي عاش في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ، ونشوان الحميري في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، وابن المعتز في أوائل القرن العاشر الميلادي ، وعلي بن الجهم في أواخر التاسع الميلادي وغيرهم ، (بروكلمان ١/٢٧١ والملحق ١/٤٨٠، و ١٢٣؛ومرغوليوث،دراسات عن المؤرخين المسلمين: ص٧١).

٢ من المؤرخين الفرس الفردوسي (توفي ١٠٢٠ م) . انظر روزنثال ص ٢٤٦ .

٣ كذا .

وتساوى كلاهما في الخسارِ فكسوا أرضهم رداء احمرار
من نجيع على ثراها جاري وتداعى الجمعان بعد الفرار
واستقرا كلاهما في قرار

ولا نستطيع أن نؤكد غلبة الشعر على النثر رغم كثرته ، ووفرة النظامين في حوادث التاريخ لأنه مخبر متحيز . وأصحابه كثيراً ما قصدوا به التقرب والزلفى . ونظروا إلى الأحداث بالمنظار الذي يرضي من نظموا له ، وأشادوا بأمجاده . كذلك فإنه – في الغالب – شعر سقيم الأسلوب متكلف العبارة، يبدو فيه أثر الجهد، وتشم منه رائحة التكلف ، ويظهر عليه سيماء الصنعة والتعب.

أما الأسلوب الثالث : فهو النثر المرسل الخالي من السجع والتزويق. ويختلف باختلاف رجاله . فمنهم من ملك القلم العربي الفصيح ، وبرع في الأسلوب السهل السيال . ونضرب على ذلك مثلاً أحمد السباعي وأحمد العطار . ومنهم من استطاع أن يعبر عمّا يريد بأسلوب علمي سهل ، ابتعد عن الغنائية والخطابة ومن هذه الفئة الأنصاري ، والجاسر .

هذا ، وبينما الكتاب آخذ طريقه إلى المطبعة قرأنا في الصحف أن المملكة قد أنشأت مؤسسة تسمى « دارة الملك عبد العزيز للبحوث التاريخية » وأدرجت ميزانيتها في ميزانية جامعة الرياض لعام ١٣٩١ – ١٣٩٢ هـ / ١٩٧١ – ١٩٧٢م، وستضم هذه الدارة مكتبة تاريخية ، ومتحفاً لتاريخ الدولة السعودية ، ومركزاً للبحوث التاريخية . وأهم ما سيحتويه هذا المركز مصورات الوثائق التاريخية الخاصة بجزيرة العرب ، والتي جمعتها الدولة ، ولا تزال تستكمل جمعها من مختلف بلاد العالم ، ولا سيما من تركيا ومصر وانكلترا وفرنسا .

ولا شك في أن مثل هذه المؤسسة سيكون لها أثر كبير في إنتاج تاريخي موضوعي رصين صحيح عن جزيرة العرب .

الكلمة الأخيرة

في خاتمة المطاف ، لا يسعني إلاّ أن أقدم واجبات الشكر الكبير إلى أستاذي الفاضل الدكتور جبور عبد النور الذي تفضل فأشرف على هذا البحث ، والذي كان طوال السنوات الكثيرات التي استمرت الكتابة فيه مثال العالم الرصين ، والراعي الصالح ، والإنسان المثالي الحق . فإذا كان في البحث جودة أو حسن فإلى أستاذي يعود الفضل كله . وإذا كان تقصير فاثمه يرتد إليّ ، ويعود عليّ .

وأستميح قارئي العذر والمغفرة حين يقع على أخطاء في هذه الدراسة ، ما كان سببها إلاّ كلال عينيّ وتعبهما . ورحم الله من رأى زلة أخيه فغفرها .

ويعلم الله أن هذا البحث – من أوله إلى آخره – ما كتب سطر فيه إرضاء لفريق ، أو إغضاباً لآخر . وإنما كان دراسة موضوعية خالصة . واجتهاداً شخصياً ، ونظرة فردية إلى الحركة الأدبية في الأرض التي أتوجه إليها في صلاتي . وإني لواثق أن كثيراً ممّا جاء في أبوابه المتعددة ، وفصوله الكثيرة يحتمل الجدل ، والمناقشة ، ويخضع للتصويب والتصحيح .

ويشفع للباحث أن يكون مخلصاً في بحثه ، صادقاً في قوله ، مؤمناً بفكرته ، موضوعياً في نظرته ، منصفاً في حكمه ليلقى المسامحة على زلاته ، والعفو عن خطيئاته . وقد حاولت أن أكون ذلك الإنسان .

وإلى الله العليّ القدير أبتهل وأضرع :

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

حلب ٢٤ شوال ١٣٩٢ هـ
٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٢ م

الدكتور بكري شيخ أمين

المصادر والمراجع

١ – إبراهيم ، أحمد أبو بكر : الأدب الحجازي في النهضة الحديثة . مطبعة نهضة مصر – القاهرة ١٩٤٨ م .

٢ – ابن إدريس ، عبد الله : شعراء نجد المعاصرون . ط ١ . مطبعة دار الكتاب العربي بمصر ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠ م .

٣ – ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور – ٣ أجزاء – طبعت بمصر ١٣١١ هـ وطبع الرابع باستنبول ١٩٣١ م .

٤ – ابن باز ، عبد العزيز : نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع. طبع دار الثقافة الإسلامية بالرياض (لا . ت) .

٥ – ابن بشر ، عثمان : عنوان المجد في تاريخ نجد . مطبعة صادر . ببروت ١٣٨٧ هـ .

٦ – ابن بشكوال : الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم . طبع مجريط ١٨٨٢ م .

٧ – ابن بليهد ، النجدي ، محمد : ديوان ابتسامات الأيام في انتصارات الإمام . مطبعة السنة المحمدية بمصر ١٣٧٣ هـ .

٨ – ابن بليهد ، النجدي ، محمد : صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من آثار ، جزءان – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٩٥٣ .

٩ – ابن بليهد ، النجدي ، محمد : صفة جزيرة العرب للهمداني – تحقيق ونشر وتصحيح مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٥٣ م .

١٠ – ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة – دار الكتب المصرية ١٣٤٨ – ١٣٧٥ هـ .

١١ – ابن تيمية : الإيمان . منشورات المكتب الإسلامي بدمشق ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١ م .

١٢ — ابن تيمية : السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية — ط ١ — المطبعة الخيرية بمصر ١٣٢٢ هـ .

١٣ — ابن تيمية : العبودية . منشورات المكتب الإسلامي بدمشق ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٢ م .

١٤ — ابن تيمية : قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة — تصحيح محمد رشيد رضا — ط ٣ . مطبعة المنار بمصر ١٣٤٥ هـ .

١٥ — ابن تيمية : مجموعة الرسائل الكبرى . ط ١ . المطبعة العامرة الشرقية بمصر ١٣٢٣ هـ.

١٦ — ابن الجوزي : صفة الصفوة — جزءان — حيدر آباد بالهند ١٣٥٥ هـ .

١٧ — ابن حنبل ، أحمد : مسند أحمد بن حنبل . المطبعة الميمنية ١٣١٣ هـ .

١٨ — ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب . دار المعارف بمصر ١٩٤٨ م .

١٩ — ابن خلكان : وفيات الأعيان — جزءان — المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ .

٢٠ — ابن خميس ، عبد الله : الأدب الشعبي في جزيرة العرب . مطابع الرياض ١٣٧٨ هـ .

٢١ — ابن خميس ، عبد الله : شهر في دمشق . مطابع الرياض ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٥ م .

٢٢ — ابن سحمان ، سليمان : ديوان عقود الجواهر المنضدة الحسان . طبع في المطبعة المصطفوية ببمباي ١٣٤٣ هـ .

٢٣ — ابن سحمان ، سليمان : الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية . مطبعة المنار بالقاهرة ١٣٤٢ هـ .

٢٤ — ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات . مصر ١٢٩٩ هـ .

٢٥ — ابن عبد الوهاب ، سليمان بن عبد الله : التوضيح عن توحيد الخلاق . المطبعة الشرفية بمصر ١٣١٩ هـ .

٢٦ — ابن عبد الوهاب، سليمان بن عبد الله : تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد. المكتب الإسلامي بدمشق ١٩٦٢ م .

٢٧ — ابن عبد الوهاب ، سليمان : الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية . مكتبة التهذيب بالقاهرة .

٢٨ — ابن عبد الوهاب ، عبد الرحمن بن حسن : قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين . دار الصياد ببيروت ١٩٥٨ .

٢٩ ـ ابن عبد الوهاب، محمد: بضع رسائل في عقائد الإسلام. مطبعة المنار بمصر١٣٤٩ هـ.

٣٠ ـ ابن عبد الوهاب ، محمد: كتاب التوحيد . المطبعة المنيرية بالقاهرة ١٣٤٦ هـ. وطبع بالمكتب الإسلامي بدمشق ١٩٦٢ م .

٣١ ـ ابن عبد الوهاب ، محمد : الرسائل العلمية التسع . دار الفكر الإسلامي بدمشق ١٩٥٧ م .

٣٢ ـ ابن عبد الوهاب ، محمد : كشف الشبهات في التوحيد . المطبعة المنيرية بالقاهرة .

٣٣ ـ ابن عبد الوهاب ، محمد : مجموعة التوحيد النجدية . مطبعة المنار بمصر ١٣٤٦ هـ .

٣٤ ـ ابن عبد الوهاب ، محمد : مجموعة الرسائل والمسائل النجدية . مطبعة المنار بمصر ١٩٢٨ م .

٣٥ ـ ابن عبد الوهاب ، محمد : مسائل الجاهلية . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٧ هـ .

٣٦ ـ ابن عثيمين ، محمد : ديوان العقد الثمين . دار المعارف بمصر .

٣٧ ـ ابن عيسى ، إبراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد . دار اليمامة بالرياض ١٩٦٦ م .

٣٨ ـ ابن عيسى ، إبراهيم بن صالح : عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر والرابع عشر . المطبعة العمومية بدمشق ١٩٥٣ م .

٣٩ ـ ابن غنام : تاريخ نجد ـ تلخيص الدكتور ناصر الدين الأسد ـ مطبعة المدني بمصر ١٩٦١ م .

٤٠ ـ ابن فياض ، زيد : صور من الجهاد . مطابع القصيم بالرياض ١٣٨٦ / ١٩٦٦ م .

٤١ ـ ابن فياض ، زيد : في سبيل الإسلام . مطابع القصيم بالرياض ١٣٨٨ / ١٩٦٨ م .

٤٢ ـ ابن فياض ، زيد : من كل صوب . مطبعة دار الكتب ببيروت ١٩٦٧ م .

٤٣ ـ ابن فياض ، زيد: الوحدة الإسلامية. مطابع القصيم بالرياض ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م.

٤٤ ـ ابن مشرف ، أحمد بن علي: ديوان ابن مشرف . نشر مكتبة الفلاح بالرياض ، وطبع مطبعة السنةالمحمدية بالقاهرة .

٤٥ ـ ابن منظور : لسان العرب . طبع بولاق ١٣٠٠ هـ .

٤٦ ـ ابن هذلول ، سعود : تاريخ ملوك آل سعود . مطابع الرياض ١٩٦١ م .

٤٧ ــ أبو تمام : الديوان ــ تحقيق محمد عبده عزام ــ دار المعارف بمصر ١٩٥١ م .
٤٨ ــ أبو تمام : الحماسة ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
٤٩ ــ أبو زهرة ، محمد : ابن تيمية ، حياته وعصره . دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٥٨م .
٥٠ ــ أبو زهرة ، محمد : ابن حنبل ، حياته وعصره . دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٤٧ م.
٥١ ــ أبو زهرة ، محمد : المذاهب الإسلامية . المطبعة النموذجية بالقاهرة .
٥٢ ــ أبو العتاهية : أشعاره وأخباره ــ تحقيق شكري فيصل ــ مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٥م.
٥٣ ــ أبو الفرج ، غالب حمزة : من بلادي ــ مجموعة قصصية ــ مطبعة المدني بمصر ١٩٦٣ م .
٥٤ ــ الأحيدب ، عبد العزيز : الممتاز من الأحاجي والألغاز . مطبعة الإنصاف ببيروت ١٩٦٨ م .
٥٥ ــ إخوان الصفاء : الرسائل . طبع بمباي .
٥٦ ــ إسماعيل ، عز الدين : الشعر العربي المعاصر . دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧م .
٥٧ ــ الاسكندراني ، عبد القادر : النفحة الزكية في الرد على شبه الفرقة الوهابية . مطبعة الفيحاء بدمشق ١٣٤٨ هـ .
٥٨ ــ الأعشى الكبير : الديوان ــ تحقيق محمد م. حسين ــ مكتبة الآداب بمصر ١٩٥٠ م .
٥٩ ــ آل الشيخ ، حسن عبد الله : دورنا في الكفاح . مطابع نجد بالرياض ١٣٨٣ هـ .
٦٠ ــ آل الشيخ ، حسن عبد الله : خواطر جريئة . شركة المدينة للطباعة بجدة .
٦١ ــ آل الشيخ ، عبد الرحمن بن عبد اللطيف : نسب آل سعود ١٣٨٧ هـ .
٦٢ ــ آل الشيخ ، محمد بن إبراهيم : نصيحة الإخوان . دار الثقافة بمكة .
٦٣ ــ آل الشيخ ، محمد بن إبراهيم : فتوى في حكم شرب الدخان . إصدار دار الإفتاء بالرياض ١٣٨٣ هـ .
٦٤ ــ آل الشيخ ، محمد بن إبراهيم : مجموعة ثلاث رسائل . مطابع القصيم بالرياض ١٣٨٤ هـ .
٦٥ ــ آل عبد القادر ، محمد بن عبد الله : تحفة المستفيد في تاريخ الأحساء في القديم والجديد . المكتب الإسلامي بدمشق ١٩٦٣ م .

٦٦ – الألوسي ، الحاج علي : الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر . بغداد .
٦٧ – الألوسي ، محمود شكري : تاريخ نجد . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٧ هـ .
٦٨ – أمين ، أحمد : زعماء الإصلاح في العصر الحديث . مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م .
٦٩ – أمين ، أحمد : ضحى الإسلام. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤١م.
٧٠ – الأموي ، شكيب : قصة رحلة إلى الشرق الأقصى . الدار السعودية للنشر ١٩٦٧ م .
٧١ – الأنصاري ، عبد الرحمن الطيب : ظاهرة الهروب في أغاريد الصحراء للشاعر طاهر الزمخشري . منشورات المنهل بجدة ١٩٦٠ م .
٧٢ – الأنصاري ، عبد القدوس : آثار المدينة المنورة . المكتبة العلمية بالمدينة ١٩٣٥ م .
٧٣ – الأنصاري ، عبد القدوس : أحمد الفيضي آبادي . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٦ م .
٧٤ – الأنصاري ، عبد القدوس : إصلاحات في لغة الكتابة . مصر ١٩٤٦ م .
٧٥ – الأنصاري ، عبد القدوس : ديوان الأنصاريات . مطبعة الإنصاف بمصر ١٣٨٤هـ .
٧٦ – الأنصاري ، عبد القدوس : تاريخ مدينة جدة . مطابع الأصفهاني بجدة ١٩٦٣ م .
٧٧ – الأنصاري ، عبد القدوس : التحقيقات المعدة بحتمية ضم جيم جدة . مطابع الأصفهاني بجدة ..
٧٨ – البابا ني البغدادي ، إسماعيل : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون . استانبول ١٩٤٧ م .
٧٩ – البابا ني البغدادي ، إسماعيل : هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين . استانبول ١٩٥٥ م .
٨٠ – البارودي ، محمود سامي : ديوان البارودي . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٢ م .
٨١ – باشميل ، محمد أحمد : القومية في نظر الإسلام . بيروت ١٩٦٠ م .
٨٢ – باشميل ، محمد أحمد : لهيب الصراحة يحرق المغالطات . بيروت ١٩٦١ م .
٨٣ – البتنوني ، محمد لبيب : الرحلة الحجازية – ط ٢ – المطبعة الجمالية – مصر – ١٣٢٩ هـ .

٨٤ – بروكلمان ، كارل : تاريخ الأدب العربي – ترجمة – دار المعارف .بمصر – ١٩٥٩ م .
٨٥ – بروكلمان ، كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية – ترجمة دار العلم للملايين بيروت – ١٩٤٨ م .
٨٦ – بزواق ، عبد الرحمن : عمان في المحافل الدولية – دار اليقظة العربية دمشق – ١٩٦٦ م .
٨٧ – البكري ، عبد الله بن عبد العزيز : معجم ما استعجم . مصر ١٣٧١ هـ .
٨٨ – بلنت ، آن : رحلة إلى بلاد نجد – ترجمة محمد أنعم غالب – دار اليمامة – الرياض – ١٩٦٧ م .
٨٩ – بنوا، ميشان : عبد العزيز آل سعود ، سيرة بطل ومولد مملكة . دار الكاتب العربي – بيروت ، ١٩٦٥ م .
٩٠ – البواردي ، سعد ، أجراس المجتمع – مقالات – دار الإشعاع – ١٩٦٣ م .
٩١ – البواردي ، سعد : أغنية العودة – ديوان – مطابع الرياض .
٩٢ – البواردي، سعد: ذرات في الأفق – ديوان – دار العلم للملايين – بيروت ١٩٦٢م.
٩٣ – البواردي، سعد: صفارة الإنذار – ديوان – مطبعة الغريب – بيروت – ١٩٦٨م .
٩٤ – البواردي ، سعد : فلسفة المجانين – مقالات – مطبعة الكيلاني الصغير – القاهرة .
٩٥ – البواردي سعد : لقطات ملونة – ديوان – دار العلم للملايين – بيروت ١٩٦٣ م .
٩٦ – بوحيمد ، ناصر : ديوان « قلق » بيروت ١٩٦٧ م .
٩٧ – البوريني ، أحمد قاسم : الإمارات السبع على الساحل الأخضر – دار الحكمة –
٩٨ – بيربي ، جان جاك : جزيرة العرب تعريب شاكر والغز – المكتب التجاري بيروت – ١٩٦٠ م .
٩٩ – البيطار ، محمد بهجة: الرحلة النجدية الحجازية – المطبعة الجديدة – دمشق ١٩٦٧ م.
١٠٠ – التميمي ، خليل : الكفاح العربي في عربستان – منشورات الجبهة القومية لتحرير عربستان .

١٠١ – تيمور ، محمود : دراسات في القصة والمسرح – المطبعة النموذجية – مصر .
١٠٢ – الجاسر ، حمد: أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع – دار اليمامة – الرياض ١٩٦٨ م .
١٠٣ – الجاسر ، حمد : البرق اليماني في الفتح العثماني للنهروالي – تحقيق – دار اليمامة – الرياض ١٩٦٧ م .
١٠٤ – الجاسر ، حمد وصالح العلي : بلاد العرب للأصفهاني – تحقيق – دار اليمامة – الرياض ١٩٦٨ م .
١٠٥ – الجاسر ، حمد : بلاد ينبع – لمحات تاريخية وجغرافية – دار اليمامة – الرياض ١٩٦٦ م .
١٠٦ – الجاسر ، حمد: مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ – دار اليمامة – الرياض ١٩٦٦ م.
١٠٧ – جبري ، شفيق : أنا والشعر – معهد الدراسات العليا – القاهرة ١٩٥٩ م .
١٠٨ – الجدع ، إبراهيم : ديوان وحي الشاطىء ، دار ممفيس للطباعة بالقاهرة ١٣٧٧هـ.
١٠٩ – الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٣٢ م .
١١٠ – جرير : ديوان جرير – المطبعة العالمية – مصر – ١٣١٣ هـ .
١١١ – جفري ، عبد الله : حياة جائعة – قصص .
١١٢ – جمال ، أحمد محمد : الطلائع – شعر – دار الكتاب العربي – مصر .
١١٣ – جمال ، أحمد محمد : على مائدة القرآن – مقالات – دار الكتاب العربي – مصر ١٣٧٣ هـ .
١١٤ – جمال ، أحمد محمد : مبادئ ومثل – دار الكتاب العربي – مصر – ١٣٨١ هـ .
١١٥ – الجهني ، عبد الله سلامه : أفكار بيضاء – بيروت ١٣٨٣ هـ .
١١٦ – الجهيمان ، عبد الكريم : آراء فرد من الشعب – دار الثقافة – بيروت ١٣٨١ هـ .
١١٧ – الجهيمان ، عبد الكريم : الأساطير الشعبية في قلب جزيرة العرب – دار الثقافة – بيروت ١٣٨٧ هـ .
١١٨ – الجهيمان ، عبد الكريم : أين الطريق – دار الثقافة – بيروت .
١١٩ – الجهيمان ، عبد الكريم : دخان ولهب – دار الثقافة – بيروت ١٣٨١ هـ .

١٢٠ – الجهيمان ، عبد الكريم : الأمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب – دار الثقافة – بيروت ١٣٨٣ هـ .
١٢١ – جولد تسيهر ، أجناس : العقيدة والشريعة في الإسلام – تعريب – دار الكاتب المصري – القاهرة ١٩٤٦ م .
١٢٢ – جوهرجي ، محمد إسماعيل : النغم الظامىء – مؤسسة مكة للطباعة ١٩٦٥ م .
١٢٣ – حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. المطبعة البهية – استانبول ١٩٤٣ م .
١٢٤ – حافظ ، عبد السلام هاشم : ثورة الجزيرة – أو آل سعود والعصر الذهبي – القاهرة ١٩٥٥ م .
١٢٥ – حافظ ، عبد السلام هاشم : حواء عارية – مصر ١٩٥٨ م .
١٢٦ – حافظ ، عبد السلام هاشم : راهب الفكر – مصر ١٩٥٥ م .
١٢٧ – حافظ ، عبد السلام هاشم : سمراء الحجازية – مصر ١٣٨٠ هـ .
١٢٨ – حافظ ، عبد السلام هاشم : صواريخ ضد الظلم والاستعمار – مصر ١٩٥٧ م .
١٢٩ – حافظ ، عبد السلام هاشم : العذراء السجينة – مصر ١٩٥٧ م .
١٣٠ – حافظ ، عبد السلام هاشم : فاطمة وقصص أخرى – مصر ١٩٦٠ م .
١٣١ – حافظ ، عبد السلام هاشم : الفجر الراقص – دار الفكر العربي– القاهرة ١٩٦٣م .
١٣٢ – حافظ ، عبد السلام هاشم : قلوب كليمة – مصر ١٩٥٧ م .
١٣٣ – حافظ ، عبد السلام هاشم : مذبح الأشواق – مصر ١٩٥١ م .
١٣٤ – حتّي ، فيليب : تاريخ العرب (المطوّل) – دار الكشاف – بيروت ١٩٤٩ م .
١٣٥ – الحجيلان ، جميل : الدولة والثورة – الرياض .
١٣٦ – حسين ، الدكتور طه : الحياة الأدبية في جزيرة العرب – مكتب النشر العربي – دمشق ١٩٣٥ م .
١٣٧ – حسين ، الدكتور طه : من أدبنا المعاصر – الشركة العربية للطباعة ١٩٥٨ م .
١٣٨ – الحسيني ، ماجد : حيرة – ط ٢ – مطابع دار العلم – بيروت ١٩٦٦ م .
١٣٩ – الحسيني العاملي ، محسن الأمين : كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب – ابن زيدون – دمشق ١٣٤٦ هـ .

١٤٠ ــ الحصري : زهر الآداب ــ مصر ١٩٥٣ م .
١٤١ ــ الحقيل ، حمد بن إبراهيم : كنز الأنساب ومجمع الآداب ــ مؤسسة المعارف ــ بيروت ١٩٦٧ م .
١٤٢ ــ الحلو ، عبد الفتاح محمد : شعراء هجر . مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة ١٩٥٩ م .
١٤٣ ــ الحلواني ، امين : مختصر مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود . المطبعة الحسينية بمكة ١٣٠٤ هـ .
١٤٤ ــ حمزة ، فؤاد : البلاد العربية السعودية ــ مطبعة أم القرى ١٣٥٥ هـ .
١٤٥ ــ الحموي ، ياقوت : معجم الأدباء ــ مطبعة دار المأمون ١٩٣٨ م .
١٤٦ ــ الحموي ، ياقوت : معجم البلدان . مصر ١٣٢٥ هـ .
١٤٧ ــ الحنبلي ، عبد الحي : شذرات الذهب . مطبعة القدسي بمصر ١٣٥٠ هـ .
١٤٨ ــ الخزرجي ، علي بن الحسن : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ــ مصر ١٩١١ م .
١٤٩ ــ الخطيب ، عبد الحميد : أسمى الرسالات ــ ط ١ ــ دار الكتاب العربي ــ مصر ١٩٥٤ م .
١٥٠ ــ الخطيب ، عبد الحميد : الإمام العادل ــ عبد العزيز آل سعود ــ مطبعة مصطفى الحلبي ١٩٥١ م .
١٥١ ــ الخطيب ، عبد الحميد : سيرة سيد ولد آدم ــ مطبعة الترقي ــ دمشق ١٩٦٠ م .
١٥٢ ــ الخطيب ، فؤاد : ديوان الخطيب ــ ط ١ ــ دار المعارف ــ مصر ١٩٥٩ م .
١٥٣ ــ الخياري ، أحمد ياسين : أمراء المدينة المنورة وحكامها ــ مؤسسة الطباعة ــ مكة ١٩٦٢ م .
١٥٤ ــ داغر ، أسعد : دليل الأعارب إلى علم الكتب والمكاتب ــ بيروت ١٩٤٧ م .
١٥٥ ــ داغر ، أسعد : فهارس المخطوطات العربية في الخافقين ــ بيروت .
١٥٦ ــ داكوبرت ، فون ميكوش : عبد العزيز ــ تعريب أمين رويحه .
١٥٧ ــ دانتون ، ج . بريام : تعليم فن المكتبات ــ هيئة الأمم المتحدة ــ اليونسكو باريس ١٩٥٠ م .

١٥٨ ــ دحلان ، أحمد بن زيني : تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية ــ المطبعة البهية ــ القاهرة ١٣٠٦ هـ .

١٥٩ ــ دحلان ، أحمد بن زيني : خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ــ المطبعة الخيرية ــ مصر ١٣٠٥ هـ .

١٦٠ ــ دحلان ، أحمد بن زيني : الدرر السنية في الرد على الوهابية ــ مطبعة البابي الحلبي ــ القاهرة ١٣١٩ هـ .

١٦١ ــ دحلان ، أحمد بن زيني : السيرة النبوية والآثار المحمدية ــ مطبعة بولاق ــ مصر ١٢٩٢ هـ .

١٦٢ ــ دحلان ، أحمد بن زيني : الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ــ المطبعة الميرية ــ مكة ١٣٠٢ هـ .

١٦٣ ــ الدريبي ، سعد عبد الرحمن : فتاة الجزيرة ــ مطابع النضال ــ دمشق ١٣٨٥ هـ .

١٦٤ ــ دقاق ، عمر : الاتجاه القومي في الشعر الحديث ــ ط ٢ ــ مكتبة الشرق ــ حلب ١٩٦٣ م .

١٦٥ ــ دقاق ، عمر : مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم ــ المكتبة العربية ــ حلب ١٩٦٨ م .

١٦٦ ــ الدمنهوري ، حامد : ثمن التضحية ــ القاهرة ١٩٥٩ م .

١٦٧ ــ الدمنهوري ، حامد : ومرت الأيام ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦٣ م .

١٦٨ ــ الدهان ، سامي : الغزل ــ فنون الأدب العربي ــ دار المعارف ــ مصر .

١٦٩ ــ الدوري ، عبد العزيز : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ــ المطبعة الكاثوليكية ــ بيروت ١٩٦٠ م .

١٧٠ ــ دي طرازي ، الفيكونت فيليب : تاريخ الصحافة العربية ــ المطبعة الأدبية ــ بيروت ١٩١٤ م .

١٧١ ــ دي طرازي ، فيكونت فيليب : خزائن الكتب العربية في الخافقين ــ وزارة التربية الوطنية ــ بيروت ١٩٤٧ م .

١٧٢ ــ الذهبي ، محمد بن أحمد : تذكرة الحفاظ ــ حيدر آباد ١٣٣٣ هـ .

١٧٣ – الذهبي : ميزان الاعتدال في نقد الرجال – مصر ١٣٢٥ هـ .

١٧٤ – الربكي ، حسن : لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب – تحقيق أحمد مصطفى أبو حاكمه ، دار الثقافة – بيروت ١٩٦٧ م .

١٧٥ – رستم ، أسد : مصطلح التاريخ – المطبعة الأميركية – بيروت ١٩٣٩ م .

١٧٦ – رشاد ، حسن : المكتبات العامة – وزارة الثقافة والإرشاد – القاهرة ١٩٦١ م .

١٧٧ – رشاد ، رشدي : فن القصة القصيرة – دار الطباعة الحديثة – القاهرة ١٩٥٩ م .

١٧٨ – الرشيد ، ضاري بن فهيد : نبذة تاريخية عن نجد . دار اليمامة – الرياض ١٩٦٦ م .

١٧٩ – رضا ، محيي الدين : لمحة من سيرة الملك عبد العزيز – مطبعة العلوم – القاهرة ١٩٤٦ م .

١٨٠ – رضا ، محيي الدين : رحلتي إلى الحجاز ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٥ م – مطبعة المنار – القاهرة ١٣٥٤ هـ .

١٨١ – رضا ، محيي الدين : في الحجاز – المطبعة السلفية – القاهرة ١٣٥٨ هـ .

١٨٢ – رضا ، محمد رشيد : الوهابيون والحجاز – مطبعة المنار – مصر ١٣٤٤ هـ .

١٨٣ – رفعت باشا ، إبراهيم اللواء : مرآة الحرمين – دار الكتب المصرية – القاهرة ١٣٤٤ هـ .

١٨٤ – رفيع ، محمد عمر : في ربوع عسير – دار العهد الجديد – القاهرة ١٩٥٤ م .

١٨٥ – روز ، ارنستين : المكتبة العامة وأثرها في حياة الشعب – ترجمة – مكتبة العهد الجديد – القاهرة ١٩٥٣ م .

١٨٦ – روزنثال ، فرانز : علم التاريخ عند المسلمين – ترجمة – مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٣ م .

١٨٧ – الرويحي ، أمين سالم : الحنينة – توزيع الرائد – جدة .

١٨٨ – الرويحي ، أمين سالم : والأذن تعشق – دار ممفيس للطباعة – القاهرة ١٩٥٨ م .

١٨٩ – الريحاني ، أمين : ملوك العرب – ط ٤ – دار الريحاني – بيروت ١٩٦٠ م .

١٩٠ – الريحاني ، أمين : نجد وملحقاته – ط ٣ – دار الريحاني – بيروت ١٩٦٤ م .

١٩١ – الزركلي ، خير الدين : الأعلام – مطبعة كوستاتسوماس – مصر ١٩٥٩ م .

١٩٢ – زريق ، قسطنطين : نحن والتاريخ – دار العلم للملايين – بيروت ١٩٥٩ م .
١٩٣ – زكي ، عبد الرحمن : المسلمون في العالم اليوم – مكتبة النهضة المصرية – مصر .
١٩٤ – الزمخشري ، طاهر : ديوان أغاريد في الصحراء – مطبعة مصر ١٩٥٨ م .
١٩٥ – الزمخشري ، طاهر : ديوان ألحان مغترب – مطبعة المدني – مصر ١٩٦١ م .
١٩٦ – الزمخشري ، طاهر : ديوان أنفاس الربيع – دار الكتاب العربي – مصر ١٩٥٥ م .
١٩٧ – الزمخشري ، طاهر : ديوان على الضفاف – دار الكتاب العربي – مصر ١٣٨١ هـ .
١٩٨ – الزمخشري ، طاهر : عودة الغريب . مطبعة المدني بالقاهرة ١٩٦٣ م .
١٩٩ – الزمخشري، محمود جار الله : أساس البلاغة – دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٢ م.
٢٠٠ – الزواوي ، هاشم وفدعق والساسي : نفثات من أقلام الشباب السعودي – المكتبة العزيزية – مكة ١٩٣٧ م .
٢٠١ – زيدان ، حسين : سيرة بطل – الدار السعودية للنشر ١٩٦٧ م .
٢٠٢ – الساسي ، عبد السلام طاهر : الشعراء الثلاثة في الحجاز – دار الكتاب العربي – القاهرة ١٣٦٨ هـ .
٢٠٣ – الساسي ، عبد السلام طاهر : شعراء الحجاز المعاصرون – دار الكتاب العربي – القاهرة ١٣٧٠ هـ .
٢٠٤ – الساسي ، عبد السلام طاهر : الموسوعة الأدبية . دار قريش للطباعة بمكة ١٣٨٨ هـ .
٢٠٥ – الساعاتي، أحمد فوزي: الإنصاف في دعوة الوهابية وخصومهم لرفع الخلاف . مطبعة دولة دمشق – دمشق ١٩٢٢ م .
٢٠٦ – ساعاتي ، محمد أمين : قصص مختارة – دار الريحاني – بيروت .
٢٠٧ – السباعي ، أحمد : تاريخ مكة – ط ٢ – مطابع دار قريش – مكة ١٣٨٢ هـ .
٢٠٨ – السباعي ، أحمد : دعونا . . . نمش – دار ممفيس للطباعة – القاهرة .
٢٠٩ – السباعي ، أحمد : فكرة – دار الكتاب العربي – القاهرة .
٢١٠ – السباعي ، أحمد : يوميات مجنون – دار ممفيس للطباعة – القاهرة .
٢١١ – السبكي ، تاج الدين : طبقات الشافعية الكبرى – مصر ١٣٢٤ هـ .
٢١٢ – السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع – مصر ١٣٥٥ هـ .

٢١٣ — سراج حسين : غرام ولادة — مصر ١٩٥٢ م .
٢١٤ — سراج ، حسين : جميل بثينة — مصر ١٩٥٢ م .
٢١٥ — سراج ، حسين : الظالم نفسه — مصر ١٩٥٢ م .
٢١٦ — سرحان حسين : ديوان أجنحة بلا ريش — بيروت ١٩٦٩ م .
٢١٧ — سركيس ، يوسف اليان : معجم المطبوعات العربية والمعربة — مطبعة سركيس — القاهرة ١٩٣٠ م .
٢١٨ — سعيد، أمين : أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين — دار الكاتب العربي — بيروت .
٢١٩ — سعيد ، أمين : فيصل العظيم — مطبعة كرم — بيروت ١٣٨٥ هـ .
٢٢٠ — السلاوي ، أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا في تاريخ دول المغرب الأقصى. المطبعة البهية — مصر ١٣١٢ هـ .
٢٢١ — السمنودي ، إبراهيم : سعادة الدارين في الرد على الفرقتين الوهابية ومقلدة الظاهرية — مطبعة جريدة الإسلام — مصر ١٣١٩ هـ .
٢٢٢ — السمهودي ، أبو الحسن علي بن عبد الله : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى — مطبعة الآداب — القاهرة ١٣٢٦ هـ .
٢٢٣ — سميرة بنت الجزيرة العربية : بريق عينيك — المكتب التجاري — بيروت ١٩٦٥ م .
٢٢٤ — سميرة بنت الجزيرة العربية : ذكريات دامعة — مطبعة دار نشر الثقافة— الاسكندرية
٢٢٥ — سميرة بنت الجزيرة العربية : وادي الدموع — المكتب التجاري — بيروت ١٩٦٥ م.
٢٢٦ — السنوسي ، محمد بن علي : الأغاريد — مطابع الأصفهاني — جدة .
٢٢٧ — السنوسي ، محمد بن علي : القلائد — دار الكتاب العربي — مصر ١٣٨٠ هـ .
٢٢٨ — السوادي ، محمد : مملكة في الميزان — المطبعة العالمية — ١٣٧٣ هـ .
٢٢٩ — السيوطي ، جلال الدين : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة — مصر ١٣٢٦ هـ .
٢٣٠ — السيوطي ، جلال الدين : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة — مصر ١٢٩٩هـ.
٢٣١ — شاكر ، أمين ، والعريان ، ومصطفى أمين : أضواء على الحبشة — دار المعارف — مصر .

٢٣٢ – الشاعر ، عبد الرحمن : عرق وطين – مطابع الرياض .
٢٣٣ – شاكر ، فؤاد : رحلة الربيع – دار إحياء الكتب العربية – مصر ١٩٤٦ م .
٢٣٤ – شاكر ، فؤاد : حي على الصلاة – مؤسسة مكة للطباعة – مكة – ١٣٨٥ هـ .
٢٣٥ – شاكر ، فؤاد : وحي الفؤاد – ط ٣ – مؤسسة الطباعة والصحافة – جدة ١٣٨٧ هـ .
٢٣٦ – الشطي ، محمد جميل : روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر . طبع دمشق ١٣٦٧ هـ .
٢٣٧ – الشكعة ، مصطفى : إسلام بلا مذاهب – دار القلم – القاهرة ١٩٦١ م .
٢٣٨ – الشنقيطي ، حسن محمد محمود : النهضة الأدبية بنجد – مطبعة البابي – مصر ١٩٥١م
٢٣٩ – الشهرستاني : الملل والنحل – تحقيق بدران – مطبعة الأزهر – مصر ١٩٥١ م .
٢٤٠ – شوقي ، أحمد : الشوقيات . مطبعة مصر .
٢٤١ – الشوكاني ، محمد بن علي : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . طبع بمصر ١٣٤٨ هـ .
٢٤٢ – الشيّال ، جمال الدين: الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث – معهد الدراسات العالية – القاهرة – ١٩٥٧ م .
٢٤٣ – الشيتي ، عبد الله : عمان في معركة الحرية – دمشق ١٩٦٢ م .
٢٤٤ – صابات ، خليل : تاريخ الطباعة في الشرق العربي – دار المعارف – مصر ١٩٥٨ م .
٢٤٥ – صايغ ، أنيس : الهاشميون والثورة العربية الكبرى – دار الطليعة بيروت ١٩٦٦ م .
٢٤٦ – الصبان ، محمد سرور : أدب الحجاز – ط ٢ – مطبعة مصر – مصر ١٩٥٨ م .
٢٤٧ – الصبان ، محمد سرور : المعرض – مؤسسة مكة للطباعة – مكة ١٩٤٥ م .
٢٤٨ – الصديقي ، محمد : النبراس – مختارات أدبية – ط ١ – دار الكتب – بيروت ١٣٨٤ هـ .
٢٤٩ – الضبي ، ابن عميرة : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس – مجريط ١٨٨٤ م .
٢٥٠ – الضبي ، المفضل : ديوان المفضليات – طبعة كوديرا .
٢٥١ – ضيف ، الدكتور شوقي : الرثاء – فنون الأدب العربي – دار المعارف – مصر ١٩٥٥ م .

٢٥٢ ــ ضيف ، الدكتور شوقي : التطور والتجديد في الشعر الأموي ــ ط ٢ ــ دار المعارف ــ مصر ١٩٥٩ م .
٢٥٣ ــ الطنطاوي ، علي : محمد بن عبد الوهاب ــ دار الفكر ــ دمشق ١٩٦٧ م .
٢٥٤ ــ الطرابلسي ، أمجد : نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب ــ مطبعة الجامعة ــ دمشق ١٩٥٥ م .
٢٥٥ ــ عارف ، محمود : المزامير ــ ط ١ ــ دار الطباعة الحديثة ــ القاهرة ١٩٥٨ م .
٢٥٦ ــ العامودي ، محمد سعيد : من تاريخنا ــ ط ٢ ــ الدار السعودية للنشر ١٩٦٧ م .
٢٥٧ ــ عانوتي ،أسامة : الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر ــ بيروت ١٩٦٨ م .
٢٥٨ ــ عبده ، إبراهيم : إنسان الجزيرة ــ مكتبة الآداب ــ القاهرة ١٩٥٤ م .
٢٥٩ ــ عبده ، إبراهيم : سيرة من الحرمين ــ المطبعة النموذجية ــ القاهرة ١٩٦١ م .
٢٦٠ ــ عبد الجبار ، عبد الله : أمي ــ ط ١ ــ دار مصر للطباعة .
٢٦١ ــ عبد الجبار ، عبد الله : التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية ــ معهد الدراسات العالية ــ القاهرة ١٩٥٩ م .
٢٦٢ ــ عبد الجبار ، عبد الله : الشياطين الخرس . دار مصر للطباعة .
٢٦٣ ــ عبد الجبار ، عبد الله العم سحتوت ــ دار مصر للطباعة .
٢٦٤ ــ عبد الجبار ، عبد الله وخفاجة : قصة الأدب في الحجاز ــ دار مصر للطباعة ــ القاهرة ١٩٥٨ م .
٢٦٥ ــ عبد الجبار ، عمر : سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة ــ ط ٢ ــ مؤسسة مكة للطباعة ــ ١٣٥٨ هـ .
٢٦٦ ــ عبد المقصود ، محمد سعيد وبلخير : وحي الصحراء ــ مطبعة عيسى البابي ــ مصر ١٩٥١ م .
٢٦٧ ــ عبد الواسع ، عبد الوهاب أحمد : التعليم في المملكة العربية السعودية . دار الكاتب العربي ــ بيروت ١٩٦٩ م .
٢٦٨ ــ عبد الوهاب ، عبد الله : ديوان النار والزيتون ــ مؤسسة المطبوعات ــ جدّة .

٢٦٩ ـ العبودي، محمد : الأمثال العامية في نجد ـ دار إحياء الكتب العربية ـ مصر ١٩٥٩ م.
٢٧٠ ـ العبودي ، محمد : في إفريقية الخضراء ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٨ م .
٢٧١ ـ عثمان ، حسن : منهج البحث التأريخي ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٤٣ م .
٢٧٢ ـ العثيمين ، صالح الأحمد : شعاع الأمل ـ ط ١ ـ القاهرة ١٩٥٨ م .
٢٧٣ ـ العجلاني ، الدكتور منير : تاريخ البلاد العربية السعودية ، ج ١ ـ ط ١ ـ دار الكاتب العربي ـ بيروت.
٢٧٤ ـ عريف ، عبد الله : رجل وعمل ـ ط ٣ ـ دار الأصفهاني ـ جدّة ١٩٦٤ م .
٢٧٥ ـ عزام ، عبد الوهاب : موقع عكاظ ـ دار المعارف ـ مصر ١٩٥٠ م .
٢٧٦ ـ عزيز ، مكي : فيصل العرب ـ مطبعة دير الروم ـ القدس .
٢٧٧ ـ عسّة ، أحمد : معجزة فوق الرمال ـ ط ٢ ـ المطابع الأهلية ـ بيروت ١٩٦٦ م .
٢٧٨ ـ العسقلاني ، ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ـ مصر ١٩٣٩ م .
٢٧٩ ـ العسقلاني ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ـ ط ١ ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف ـ حيدر آباد ١٣٢٧ هـ .
٢٨٠ ـ العسقلاني ، ابن حجر : لسان الميزان ـ حيدر آباد ١٣٣١ هـ .
٢٨١ ـ عطار ، أحمد عبد الغفور : آراء في اللغة ـ ط ١ ـ المؤسسة العربية ـ جدّة ١٩٦٤م.
٢٨٢ ـ عطار ، أحمد عبد الغفور : الإسلام خاتم الأديان ـ بيروت ١٩٦٦ م .
٢٨٣ ـ عطار ، أحمد عبد الغفور : إنسانية الإسلام ـ ط ١ ـ بيروت ١٩٦٦ م .
٢٨٤ ـ عطار ، أحمد عبد الغفور : الزحف على لغة القرآن ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٦ م .
٢٨٥ ـ عطار ، أحمد عبد الغفور : تهذيب الصحاح للزنجاني ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٢ م .
٢٨٦ ـ عطار ، أحمد عبد الغفور : الشريعة لا القانون ـ المؤسسة العربية ـ جدّة ١٩٦٤ م .
٢٨٧ ـ عطار ، أحمد عبد الغفور : الصحاح ومدارس المعجمات العربية ـ دار الكتاب العربي ـ مصر ١٩٥٦ م .

٢٨٨ ـ عطار، أحمد عبد الغفور: صقر الجزيرة ـ ط ٢ ـ المؤسسة العربية ـ جدة ١٣٨٥هـ.
٢٨٩ ـ عطار، أحمد عبد الغفور: قطرة من يراع ـ المطبعة المنيرية ـ القاهرة ١٩٥٥ م.
٢٩٠ ـ عطار، أحمد عبد الغفور: كلام في الأدب ـ ط ١ ـ المؤسسة العربية للطباعة ـ جدة ١٩٦٤ م.
٢٩١ ـ عطار، أحمد عبد الغفور: ليس في كلام العرب لابن خالويه ـ تحقيق.
٢٩٢ ـ عطار، أحمد عبد الغفور: مقدمة تهذيب اللغة ـ دار مصر للطباعة ١٩٥٦ م.
٢٩٣ ـ عطار أحمد عبد الغفور: ديوان الهوى والشباب. دار الكتاب العربي بمصر.
٢٩٤ ـ عقيل، محمد زارع: أمير الحب ـ دار الأصفهاني ـ جدّة.
٢٩٥ ـ عقيل، محمد زارع: ليلة في الظلام ـ دار الكتاب العربي ـ مصر ١٩٦٠ م.
٢٩٦ ـ العقيلي، محمد بن أحمد: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ـ مقاطعة جازان، دار اليمامة ـ الرياض ١٩٦٩ م.
٢٩٧ ـ العقيلي، محمد بن أحمد عيسى: من تاريخ المخلاف السليماني ـ مطابع الرياض ـ الرياض ١٩٥٨ م.
٢٩٨ ـ العلاف، إبراهيم خليل: الإنسان ـ ديوان ط ١ ـ مؤسسة مكة للطباعة ١٣٨٤هـ.
٢٩٩ ـ العلاف، إبراهيم خليل: وهج الشباب ـ ط ٢ ـ مؤسسة مكة ١٣٨٤ هـ.
٣٠٠ ـ علاّم، محمد مهدي: مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً ـ المطابع الأميرية ـ القاهرة ١٩٦٦ م.
٣٠١ ـ علماء نجد: مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ـ ط ١ ـ مطبعة المنار ـ مصر ١٩٢٨م.
٣٠٢ ـ علي أحمد أنور: المكتبات العامة بين التخطيط والتنفيذ ـ مكتبة النهضة ـ مصر ١٩٦١ م.
٣٠٣ ـ عواد، محمد حسن: ديوان آماس وأطلاس ـ مطابع دار الكشاف ـ بيروت ١٩٥٢ م.
٣٠٤ ـ عواد، محمد حسن: ديوان البراعم ـ مطابع دار الكشاف ـ بيروت ١٩٥٤ م.
٣٠٥ ـ عواد، محمد حسن: تأملات في الأدب والحياة ـ مطبعة العالم العربي ـ القاهرة ١٩٥٠ م.

٣٠٦ — عواد ، محمد حسن : خواطر مصرحة — ط ٢ — مطبعة المدني ١٩٦١ م .
٣٠٧ — عواد ، محمد حسن : رؤى أبولون — مطابع دار سعد — القاهرة .
٣٠٨ — عواد ، محمد حسن : ديوان في الأفق الملتهب — دار سعد — مصر .
٣٠٩ — عواد ، محمد حسن : محرر العبيد — دار الطباعة الحديثة — القاهرة ١٣٧٨ هـ .
٣١٠ — عواد ، محمد حسن : من وحي الحياة العامة — مطبعة دار النصر — مصر .
٣١١ — عواد ، محمد حسن : نحو كيان جديد — دار المعارف — مصر .
٣١٢ — العيسى ، محمد الفهد : ديوان « على مشارف الطريق » — بيروت .
٣١٣ — العيسى ، محمد الفهد : ديوان « ليديا » — بيروت .
٣١٤ — غادة الصحراء : شميم العرار — دار الكتاب اللبناني — بيروت ١٩٦٤ م .
٣١٥ — الغادري ، نهاد : التحدي الكبير — ط ٢ — ١٩٦٦ م .
٣١٦ — الغزي ، محمد هاشم رشيد : ديوان وراء السراب — مطبعة الحرية — مصر ١٩٥٣ م.
٣١٧ — الغزي ، نجم الدين : الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة — المطبعة الأمريكية — بيروت ١٩٤٥ م .
٣١٨ — غسال ، علي حسن : في فجر العمر — مكتبة الانجلو المصرية ١٩٤٦ م .
٣١٩ — الفاسي ، عبد الحفيظ : معجم الشيوخ — الرباط ١٣٥٠ هـ .
٣٢٠ — فدعق ، علي : أيام في الشرق الأقصى — منشورات عويدات — بيروت ١٩٦٣ م .
٣٢١ — الفرج ، خالد بن محمد : ديوان النبط — مطبعة الترقي — دمشق ١٩٥٢ م .
٣٢٢ — فريد بك ، محمد : تاريخ الدولة العلية العثمانية — ط ٢ — مطبعة محمد أفندي — مصر ١٨٩٦ م .
٣٢٣ — فطاني ، حسين : ديوان بور سعيد الباسلة — مطابع دار الكتاب العربي — مصر .
٣٢٤ — الفقي ، محمد حامد : أثر الدعوة الوهابية في الإصلاح — مطبعة النهضة — القاهرة ١٣٥٤ هـ .
٣٢٥ — الفقي ، محمد حسن : قدر . . ورجل — ط ١ — الدار السعودية للنشر ١٩٦٧ م .
٣٢٦ — فلالي ، إبراهيم هاشم : ألحاني — دار المعارف — مصر ١٩٥٠ م .
٣٢٧ — فلالي ، إبراهيم هاشم : أين نحن اليوم — رابطة الأدب الحديث — القاهرة ١٩٥٩ م .

٣٢٨ ــ فلالي ، إبراهيم هاشم : رجالات الحجاز ــ دار إحياء الكتب العربية ــ القاهرة ١٩٤٦م .

٣٢٩ ــ فلالي ، إبراهيم هاشم : ديوان صبابة الكأس ــ مطبعة النيل ــ مصر ١٩٤٥ م .

٣٣٠ ــ فلالي ، إبراهيم هاشم : ديوان صدى الألحان ــ دار مصر للطباعة ــ مصر ١٩٥٣ م .

٣٣١ ــ فلالي ، إبراهيم هاشم : لا رقّ في القرآن ــ دار القلم ــ القاهرة .

٣٣٢ ــ فلالي ، إبراهيم هاشم : المرصاد ــ ط ٢ ــ المطبعة المنيرية ــ مصر ١٩٥٦ م .

٣٣٣ ــ فواز ، زينب : الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ــ مصر ١٣١٢ هـ .

٣٣٤ ــ الفيصل ، عبد الله : ديوان محروم ــ مطابع مكتب الجامعات ــ القاهرة ١٩٥٩م .

٣٣٥ ــ فيلبي ، عبد الله : تاريخ نجد ــ ترجمة ــ المكتبة الأهلية ــ بيروت .

٣٣٦ ــ القرشي ، حسن عبد الله : ألحان منتحرة ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦٤ م .

٣٣٧ ــ القرشي ، حسن عبد الله : الأمس الضائع ــ دار المعارف ــ مصر ١٩٥٧ م .

٣٣٨ ــ القرشي ، حسن عبد الله : أنا والناس ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦٥ م .

٣٣٩ ــ القرشي ، حسن عبد الله : أنّات الساقية ــ سلسلة اقرأ ــ دار المعارف ــ مصر .

٣٤٠ ــ القرشي ، حسن عبد الله : بحيرة العطش ــ دار الآداب ــ بيروت ١٩٦٧ م .

٣٤١ ــ القرشي ، حسن عبد الله : سوزان ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦٣ م .

٣٤٢ ــ القرشي ، حسن عبد الله : شوك وورد ــ مطابع الرياض ١٣٧٨ هـ .

٣٤٣ ــ القرشي ، حسن عبد الله : فارس بني عبس ــ دار المعارف ــ مصر ١٩٥٧ م .

٣٤٤ ــ القرشي ، حسن عبد الله : لن يضيع الغد ــ دار الآداب ــ بيروت .

٣٤٥ ــ القرشي ، حسن عبد الله : مواكب الذكريات ــ مطبعة الرسالة ١٩٥١ م .

٣٤٦ ــ القرشي ، حسن عبد الله : نداء الدماء ــ ط ١ ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦٤ م .

٣٤٧ ــ القرشي ، حسن عبد الله : النغم الأزرق ــ ط ١ ــ دار الآداب ــ بيروت ١٩٦٦ م .

٣٤٨ ــ القزويني ، محمد بن عبد الرحمن : الإيضاح ــ تهذيب عز الدين التنوخي ــ مطبعة الجامعة السورية ١٩٤٨ م .

٣٤٩ ــ قسّي ، عبد الغني : ديوان أحزان قلب ــ مطابع دار الكشاف ــ بيروت .

٣٥٠ – القصيمي ، عبد الله علي : الصراع بين الإسلام والوثنية – المطبعة السلفية – القاهرة ١٣٥٦ هـ .
٣٥١ – القصيمي ، عبد الله علي : كيف ذل المسلمون – مطبعة أنصار السنّة – مصر .
٣٥٢ – قلعه جي ، قدري : الخليج العربي – دار الكاتب العربي – بيروت ١٩٦٥ م .
٣٥٣ – قنديل ، أحمد : ديوان الأبراج – مطابع نصار – بيروت ١٩٥١ م .
٣٥٤ – قنديل ، أحمد : ديوان أصداء – مطابع نصار – بيروت ١٩٥١ م .
٣٥٥ – قنديل ، أحمد : المركاز ، مطبعة المدني – القاهرة .
٣٥٦ – قنديل ، أحمد : ديوان نار – مؤسسة قنديل – جدّة ١٩٦٧ م .
٣٥٧ – قيقانو ، أنطون بشارة : جدول السنين الهجرية وما يوافقها من السنين الميلادية – بيروت ١٩٦٦ م .
٣٥٨ – كتبي ، حسن محمد : أشخاص في حياتي – دار ممفيس للطباعة – القاهرة ١٩٦٥ م.
٣٥٩ – كتبي ، حسن محمد : دورنا في زحمة الأحداث – الدار السعودية للنشر ١٣٨٧ هـ .
٣٦٠ – كتبي ، حسن محمد : ملامح من شخصية البلاد العربية المقدسة ١٣٨٣ هـ .
٣٦١ – كحالة ، عمر رضا : معجم المؤلفين – مطبعة الترقي – دمشق ١٣٨٠ هـ .
٣٦٢ – الكردي ، محمد طاهر : أدبيات الشاي والقهوة والدخان – الدار السعودية للنشر ١٣٨٧ هـ .
٣٦٣ – الكريمي ، مصطفى : رسالة السنّيين في الرد على المبتدعة والوهابيين – مطبعة المعاهد – القاهرة ١٣٤٥ هـ .
٣٦٤ – الكسم ، حسني : نفائس المخطوطات في دور كتب المدينة المنورة ١٩٢٨ م .
٣٦٥ – المارك ، فهد : افتراها الصهاينة وصدقها مغفلو العرب – ١٣٨٧ هـ .
٣٦٦ – المارك ، فهد : لمحات عن التطور الفكري في جزيرة العرب في القرن العشرين – مطابع ابن زيدون – دمشق ١٣٨٢ هـ .
٣٦٧ – المارك ، فهد : من شيم العرب – المكتبة الأهلية – بيروت ١٩٦٣ م .
٣٦٨ – المارك ، فهد : الهدامون والبناؤون . دار الكاتب العربي – بيروت ١٩٦٩م .
٣٦٩ – مجموعة مؤلفين : الموسوعة الميسرة – دار العلم – مصر ١٩٦٥ م .

٣٧٠ ـ مجموعة مؤلفين : دائرة المعارف الإسلامية ـ ترجمة ـ مصر ١٩٣٣ م .
٣٧١ ـ مجموعة مندوبين : كشمير في الجمعية العمومية للأمم المتحدة ١٩٦٥ م .
٣٧٢ ـ مجموعة ناظمين : الأزهار النادية من أشعار البادية ـ مكتبة المعارف الطائف .
٣٧٣ ـ المحبي ، محمد أمين : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ـ مصر ١٢٨٤ هـ .
٣٧٤ ـ المختار ، صلاح الدين : تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٥٧ م .
٣٧٥ ـ مرغليوث : دراسات عن المؤرخين العرب ـ ترجمة ـ دار الثقافة بيروت ١٩٦٩م.
٣٧٦ ـ مروة ، أديب : الصحافة العربية نشأتها وتطورها ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦١ م .
٣٧٧ ـ المسعودي ، علي بن الحسين : مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ مصر ١٢٨٣ هـ .
٣٧٨ ـ المسلم ، محمد سعيد : ساحل الذهب الأسود ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٢ م.
٣٧٩ ـ المسند ، عبد العزيز : الزواج بين الماضي والحاضر ـ محاضرة ألقيت بنادي الهلال ـ الرياض ١٩٦٨ م .
٣٨٠ ـ المشاهدي ، كامل : حقائق عن الجنوب العربي ونضال عدن ـ بغداد ١٩٦٣ م .
٣٨١ ـ مصلي . محمد علي : دراسات في التخصص ـ القاهرة ١٩٦١ م .
٣٨٢ ـ مغنية ، محمد جواد : هذه هي الوهابية ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٤ م .
٣٨٣ ـ المقدسي ، أنيس : الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ـ ط ٢ ـ بيروت ١٩٦٠ م .
٣٨٤ ـ المقدسي ، أنيس : الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة ـ دار الكاتب العربي ـ بيروت ١٩٦٣ م .
٣٨٥ ـ المقري : نفح الطيب ـ ليدن ١٨٥٥ ـ ١٩١٦ م .
٣٨٦ ـ الملائكة ، نازك : قضايا الشعر المعاصر ـ ط ٢ ـ مكتبة النهضة ـ بغداد ١٩٦٥ م .
٣٨٧ ـ ملحس ، رشدي : الصحافة والمطابع في الحجاز ـ مكة .
٣٨٨ ـ المميز ، أمين : المملكة العربية السعودية كما عرفتها ـ دار الكتب ـ بيروت ١٩٦٣ م .

٣٨٩ — مناع ، عبد الله : لمسات — مطبعة المدني — مصر ١٩٥٨ م .
٣٩٠ — النابغة الذبياني : الديوان — تحقيق وشرح كرم البستاني — مكتبة صادر — بيروت ١٩٥٣ م .
٣٩١ — الناصر ، إبراهيم : أرض بلا مطر — الدار السعودية للنشر ١٩٦٧ م .
٣٩٢ — الناصر ، إبراهيم : أمهاتنا والنضال — مطابع نجد التجارية — الرياض .
٣٩٣ — الناصر ، إبراهيم : ثقب في رداء الليل — الدار القومية العربية — القاهرة .
٣٩٤ — النبهاني ، يوسف بن إسماعيل : شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق — مطبعة البابي — مصر ١٣٧٤ ﻫ .
٣٩٥ — نجم ، محمد يوسف : فن المقالة — دار بيروت — بيروت ١٩٦٠ م .
٣٩٦ — نشأت ، كمال : أبو شادي وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث — دار الكاتب العربي — القاهرة ١٩٦٧ م .
٣٩٧ — نصار ، حسين : المعجم العربي — نشأته وتطوره — دار الكتاب العربي — القاهرة ١٩٥٦ م .
٣٩٨ — نصر ، عبد الرحمن : عاهل الجزيرة — عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل — مطبعة مصر — القاهرة .
٣٩٩ — نصيف ، حسين بن محمد : ماضي الحجاز وحاضره — مطبعة خضير — القاهرة ١٣٤٩ ﻫ .
٤٠٠ — النعمي ، هاشم بن سعيد : تاريخ عسير في الماضي والحاضر .
٤٠١ — النفيسة ، محمد بن أحمد : لمحات من الواقع — مطابع نجد — الرياض ١٣٨٣ ﻫ .
٤٠٢ — الهزاعي ، عبد العزيز سليمان : في سبيل الوطن — نار ونور — دار مكتبة الحياة — بيروت ١٩٦٤ م .
٤٠٣ — وستنفلد ، هنريك فرديناند : أخبار مكة (الأزرقي ، الفاكهي ، الفاسي ، ابن ظهيرة ، النهروالي) — مكتبة خياط — بيروت ١٩٦٤ م .
٤٠٤ — وهبة ، حافظ : جزيرة العرب في القرن العشرين — مصر ١٩٣٥ م .
٤٠٥ — وهبة ، حافظ : خمسون عاماً في جزيرة العرب — مطبعة البابي — مصر ١٣٨٠ ﻫ .

الدوريات والأنظمة

١ – نظام المطابع والمطبوعات
٢ – نظام المؤسسات الصحفية
٣ – نظام الضمان الاجتماعي

الجرائد

٤ – القبلة
٥ – أم القرى
٦ – صوت الحجاز
٧ – البلاد السعودية
٨ – المدينة المنورة
٩ – الأضواء
١٠ – الندوة
١١ – الرائد
١٢ – القصيم
١٣ – عكاظ
١٤ – اليوم
١٥ – الجزيرة
١٦ – الرياض
١٧ – الدعوة الإسلامية
١٨ – أخبار العالم الإسلامي

المجلات

١٩ – المنهل
٢٠ – الحج
٢١ – العرب
٢٢ – اليمامة
٢٣ – رابطة العالم الإسلامي
٢٤ – دعوة الحق
٢٥ – علمية

المجلات الخارجية

٢٦ – المقتبس – دمشق
٢٧ – مجلة المجمع العلمي العربي – دمشق
٢٨ – مجلة العرفان – صيدا
٢٩ – مجلة العربي – الكويت
٣٠ – مجلة الرسالة – القاهرة

المصادر والمراجع الأجنبية

1 — Armstrong, H.G., Lord of Arabia Ibn Saud, London 1934.

2 — Balsan, F., A travers l'Arabie inconnue, Paris 1954.

3 — Benoist-Mechin, J., Ibn Séoud ou la naissance d'un royaume, Paris 1955.

4 — Blunt, Lady Anne, Voyage en Arabie (Pélerinage au Najd), Paris, Librairie Hachette 1882.

5 — Bremond, General Edward, Yémen et Saoudia, Paris 1937.

6 — Burckhardt, J.L., Voyage en Arabie, Paris 1937.

7 — Corancez, L.A.O., Histoire des Wahhabis depuis leur origine jusqu'à la fin de 1809, Paris.

8 — Doughty, Charles M., Arabia Deserta, Payot, Paris 1949.

9 — Duguet, le Docteur, le Pélerinage de la Mecque, Editions Riders, Paris 1932.

10 — Hogarth, D.G., The Penetration of Arabia, London 1904.

11 — Kiernan, R.H., Unveiled Arabia, London 1936.

12 — Lawrence, T.E., La révolte dans le désert, Paris 1935.

13 — Lawrence. T.E., Seven Pillars of Wisdom, Garden City, N.Y. 1938,

14 — Lebkicker, R., Renty, G., Steineke, M., The Arabia of Ibn Saud. N. Y. 1952.

15 — Niebuhr, M., Description de l'Arabie, Imp. Nicolas Möller, Copenhagen, 1773.

16 — Palgrave, W.G., Personal Narrative of a Year journey through Central and Eastern Arabia, Leipzig 1867.

17 — Paraja, F.M., Islamologie, Imp. Catholique, Beyrouth, 1964.

18 — Philby, M.S.J., Arabia of the Wahhabies, London 1928.

19 — Philby, M.S.J., Sa'udi Arabia, London 1955.

20 — Raymond, J., Mémoires sur l'origine des wahabys, sur la naissance de leur puissance, et sur l'influence dont ils jouissent comme nation, (Rapport daté de1806) Document inédit extrait des archives du ministère des affaires étrangères de France. Imp. par l'Institut Français d'Archéologie Orientale d'Egypte, 1925.

21 — Rihani, A., Ibn Sa'oud of Arabia, his people and his land, London 1928.

22 — Snouck Hurgranje, C., The Revolt in Arabia, N.Y. 1917.

23 — Twitchell, K.S.T., Saudi Arabia, 2nd ed., Princeton 1953.

فهرس الأعلام والقبائل والمواطن *

* لا يعتبر في هذا الفهرس الألفبائي ما سبق الاسم من زيادات نحو « ابن » أو « أب » أو « أم » أو « آل » أو « لام التعريف » .

ت

ث

ج

ح

س

ش

ص

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

ي

فهرس الموضوعات

الباب الثاني

المؤثرات المباشرة في النهضة الأدبية

الباب الثالث

الفنون الشعرية التقليدية

الباب الرابع

موضوعات الأدب المستحدثة

الباب الخامس

الأداء الفني في الشعر السعودي

الباب السادس

الفنون الأدبية المستحدثة

الباب السابع

البحوث والدراسات المنهجية

الطبعــة الثانية
١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م
مطابع دار صادر في بيروت